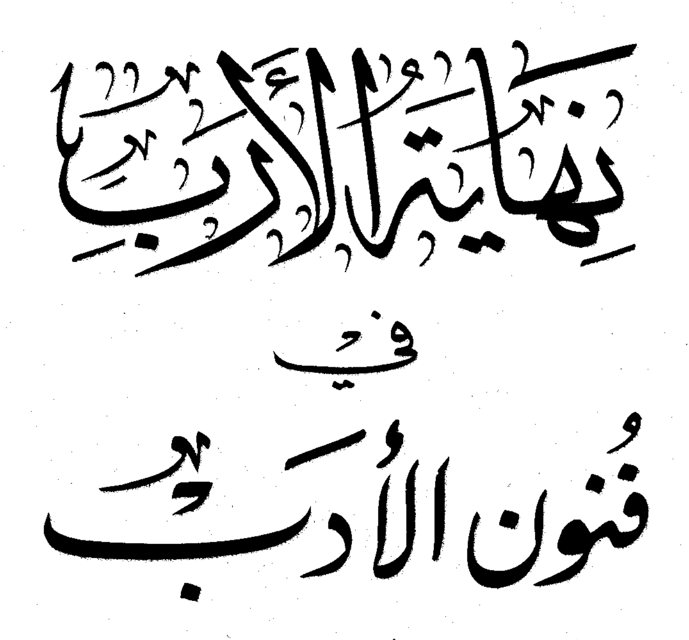


نهاية الأرب في فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

١٥-١٦

تحقيق

الدكتور يوسف الطويل

الأستاذ علي محمد هاشم

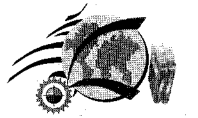
منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعـة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beirut - Lebanon

Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor

Head office

Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

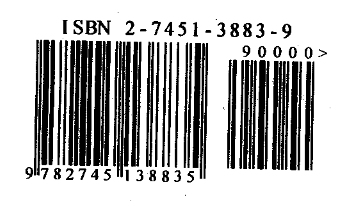
Beyrouth - Liban

Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage

Administration général

Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ذكر أخبار مصر

ومن ملكها من الملوك قبل الطوفان وبعده، وما بنوه بها من المدن، وما أقاموه من المنارات والأهرام والبرابي[1] وغير ذلك من المباني، وما وضعوه بها من العجائب والطِّلَّسمات[2] والحِكم، وما أثاروا من المعادن وما دبّروه من الصَّنْعة، وما شقّوه وأنبطوه من الأنهار وغير ذلك من عجائبها وأخبارها

فأمّا ملوكها قبل الطُّوفان فقد ذكرهم إبراهيم بن القاسم الكاتب في مختصر كتاب العجائب الكبير الذي ألّفه إبراهيم بن وَصِيف شاه. قال: أوّل مَن ملك مصر من الملوك قبل الطوفان نَقْرَاوُس، ومعناه مَلِكُ قومه وعظيمهم. وذلك أن بني آدم لمّا بغى بعضهم على بعض وتحاسدوا وتغلّب عليهم بنو قابيل تحمّل نَقرَاوس الجبّار ابن مصرايم بن بَرَاكِيل بن زَرَابِيل بن غِرْناب بن آدم في نيّف وسبعين رجلاً من بني غِرناب جبابرة، كلّهم يطلبون موضعًا ينقطعون فيه من بني آدم. فلمّا نزلوا على النيل ورأوا سَعَة البلد وحسنه أقاموا فيه وبنوا الأبنية، وقالوا: هذا بلد زَرْع؛ وبنى نقراوس مصر وسمّاها بأسم

(١) البرابي: بالفتح، وبعد الألف باء أخرى، وهو جمع بربا، كلمة قبطية، وظنّ صاحب معجم البلدان أن هذه الكلمة اسم لموضع العبادة أو البناء المحكم أو موضع السحر. وبيوت هذه البرابي في عدة مواضع من صعيد مصر في إخميم، وأنصنا، وغيرهما باقية إلى عصر ياقوت وكذلك الصور الثابتة في حجارة البرابي كانت موجودة في عصره.

(٢) الطلّسمات: جمع طلّسم، وهو، في علم السحر، خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى، وهو لفظ يوناني لكل ما هو غامض مبهم كالألغاز، والأحاجي. (اللسان).

أبيه مصرايم ثم تركها. وكان نقراوس جبّارًا له أيْدٌ وبَسْطة، وكان مع ذلك كاهنًا عالمًا، له مُعاون من الجنّ، فملك بني أبيه ولم يزل مطاعًا فيهم. وقد كان وقع إليه من العلوم التي كان زرابيل عُلِّمها من آدم. قال: فهو وبنوه الجبابرة الذين بنوا الأعلام، وأقاموا الأساطين العظام، وعملوا المصانع، ووضعوا الطِّلَّسمات، واستخرجوا المعادن، وقهروا من ناوأهم[١] من ملوك الأرض ولم يطمع طامعٌ فيهم. وكل علم جليل في أيدي المصريين إنما هو من فضل علم أولئك القوم، كان مرموزًا على الحجارة. فيقال إن فليمون الكاهن الذي كان ركب مع نوح عليه السلام في السفينة هو الذي فسّرها لهم وعلمهم كتابتها، وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر فليمون في موضعه.

قال: ثم أمرهم نقراوس حين استقرّ أمرهم ببناء مدينة فقطعوا الصخور والأحجار من الجبال، وأثاروا معادن الرصاص وبنوا مدينة وسمّوها أَمسُوس[٢]، وأقاموا بها أعلامًا[٣]، طول كل عَلَم مائة ذراع، وعمَروا الأرض، وأمرهم ببناء المدائن والقُرى، وأسكن أهل كل بيت ناحية من أرض مصر. وهم الذين حفروا النيل حتى أجرَوْا ماءه إليهم، ولم يكن معتدل الحفر إنما كان يتسطح ويتفرّق في الأرض. قال: ووجّه إلى بلد النوبة جماعة حتى هندسوه وشقّوا منه أنهارًا إلى مواضع كثيرة من مدنهم التي بنَوْها، وشقّوا نهرًا عظيمًا إلى مدينتهم أَمسوس يجري في وسطها وغرسوا عليه الغروس، فكثُر خيرهم وعزّت أرضهم وتجبَّر ملكهم. قال: وبعد مائة وعشرين سنة من مُلْكه أمر بإقامة الأساطين العظام وزبر[٤] عليها ذكر دخولهم البلد، وكيف نزلوا به، وحربهم لمن حاربوه من الأمم. ثم أمر ببناء قبّة على أساطين مثبتة في الرَّصاص، طولها مائة ذراع، وجعل على رأسها مرآة من زبرجد[٥] أخضر، قُطْرها سبعة أشبار، ترى خُضرتها على أمد بعيد. قال: وفي مصاحف المصريين أنه سأل الذي كان معه أن يعرّفه مخرج النيل، فحمله حتى أجلسه على جبل القُمْر خلف[٦]

---

(١) ناوأهم: عاداهم.

(٢) أمسوس: هي أول مدينة بنيت بالديار المصرية قبل الطوفان، وموضعها خارج الإسكندرية تحت البحر الرومي (البحر الأبيض المتوسط).

(٣) الأعلام: واحدها علم، وهو شيء منصوب في الطريق يهتدى به؛ أو الراية.

(٤) يقال: زبر الكتاب: أي كتبه؛ أو أتقن كتابته.

(٥) الزبرجد: حجر كريم يشبه الزمرد، وهو ذو ألوان كثيرة أشهرها الأخضر المصري والأصفر القبرصي.

(٦) المراد بخلف هنا شمال خط الاستواء.

خطّ الاستواء على البحر الأسود الزِّفتي، وأراه النيل كيف يجري فوق ذلك البحر الأسود مثل الخيوط حتى يدخل تحت جبل القُمْر، ثم يخرج إلى بطائح[١] هناك. ويقال: إنه عمل بيت التماثيل هناك، وعمل فيه هيكلاً للشمس. ورجع إلى أَمسُوس فقسم البلد بين بنيه، فجعل لنقارس الجانب الغربي، ولسورب الجانب الشرقي، ولابنه الصغير وهو مصرام مدينة سمّاها برسان وأسكنه فيها، وأقام فيها أساطين وشقّ لها نهرًا وغرس بها غروسًا. وعمل بأَمسوس عجائب كثيرة، منها صورة طائر على أُسطوانة عالية، يَصفِر كل يوم مرّتين عند طلوع الشمس وعند غروبها صفيرًا مختلفًا، فيستدلّون به على ما يكون من الحوادث فيتأهّبون لها؛ ومخزن للماء المقسوم على جنَاتهم مائة وعشرين قسماً لا يقدِر أحدٌ أن يحوز ما ليس له. وعمل وسط المدينة صنمين من حجر أسودَ، إذا تقدّم السارق لم يقدر على الزوال عنها حتى يسلك بينهما، فإذا دخل بينهما أطبقا عليه فيؤخذ. وله أعمال كثيرة سوى هذه. قال: وعمل في برسان صورة من نحاس مذهب على منار عال لا تزال عليها سحب تظلّها، مَن أُستمطرها أمطرت عليه ماء، فهلكت في الطوفان. وعمل على حدود بلادهم أصنامًا من نحاس مجوّف وملأها نارًا وكبريتًا وجلب إليها روحانيّة النار، فإن قصدهم قاصد بسوء أرسلت تلك الأصنام من أفواهها نارًا أحرقته. وكان حدّ بلادهم إلى داخل الغرب مسافة أيام كثيرة عامرًا كلّه بالقصور والبساتين، وكذلك في المشرق إلى البحر، ومن الصعيد إلى بلاد علْوة[٢]. وعمل فوق جبال بطرس منارًا يفور بالماء يسقي ما تحته من المزارع. وملَكهم مائة وثمانين سنة. فلما مات لطّخوا جسده بالأدوية المُمْسِكة، وجعلوه في تابوت من ذهب، وعملوا له ناووسًا[٣] مُصَفَّحًا بالذهب، وجعلوا معه كنوزًا من أنواع الجواهر وتماثيل الزَّبرجد، وكنزًا من الصَّنْعة المعمولة، وأواني الذهب، والطِّلَّسمات التي تدفع الهَوامّ وغيرها، وزَبَروا عليه تاريخ الوقت.

ولما مات ملك بعده أبنه نقارس بن نَقْرَاوُس، فتجبَّر وعلا أمرُه، وبنى مدينة يقال لها خلجة، وعمل فيها جنّة صفّح حيطانها بصفائح الذهب والحجارة الملوّنة، وغرس فيها أصناف الفواكه والغروس الحسنة، وأجرى تحتها الأنهار، وأمر بإقامة

---

(١) بطائح: واحدتها البطيحة، وهي المكان المتسع يمر به السيل، فيترك فيه الرمل والحصى الصغار. ومنه أبطح مكة؛ والمراد بها هنا منابع النيل.

(٢) بلاد علوة: هي من بلاد النوبة، وتقع على ضفة النيل أسفل من مدينة دنقلة، وبينهما مسيرة أيام في النيل.

(٣) الناووس: صندوق من خشب أو نحوه يضع النصارى فيه جثة الميت. جمع نواويس.

الأساطين والأعلام، وركَّب عليها أصناف العقاقير والأدوية وجميع العلوم. وكان معه شيطان يعمل له التماثيل العجيبة. وهو أوّل مَن بنى بمصر هيكلاً وجعل فيه صور الكواكب السبعة، وزَبَر على رأس كل كوكب محارته[١] وما يعمله من المنافع والمضارّ، وألبسه الثياب الفاخرة وأقام له كاهنًا وسَدَنة[٢]. وخرج مغرِّبًا حتى بلغ البحر المحيط وعمل عليه أعلامًا، وجعل على رأس كل علَم أصنامًا تُسْرَج[٣] عيونها بالليل كأنها مصابيح، ورجع على بلاد السودان إلى النيل، وأمر ببناء حائط على جانب النيل، وجعل له أبوابًا يخرج الماء منها. وبنى في صحراء الغرب وراء الواحات ثلاثَ مُدُن على أساطين، وجعل شُرَفها من الحجارة الملوّنة التي تَشُفّ، وجعل في كل ناحية منها ثلاث خزائن للحكمة، وهي أوّل عجائب الأرض، جعل الدخول إلى هذه المدائن من الأساطين التي بنيت عليها. ففي إحدى هذه الخزائن صنم الشمس الذي هو أعظم أصنامهم، وهي معلّقة عليه في بيت شرفها[٤]، وعلى رأسه إكليل فيه كواكبها الثابتة. وفي إحداها صنم للشمس رأسُه رأس طاووس في جسد إنسان من ذهب أزرق، وعيناه جوهرتان صفراوان، وهو جالس على سرير مغنطيس، وفي يده مصحف العلوم. وفي إحداها صنم رأسه رأس إنسان وجسده جسد طائر، وصورة اَمرأة جالسة من زئبق معقود، لها ذؤابتان[٥]، وفي يدها مرآة وعلى رأسها صورة كوكب، وهي رافعة بالمرآة إلى وجهه، ومظهرةٌ فيها سبعة ألوان، من الماء السائل لا يختلط بعضها ببعض ولا يواري بعضها بعضًا، وصورة شيخ من حجر الفَيْروزَج[٦]، وبين يديه صِبْيةٌ يعلّمهم، وهم من أصناف العقيق[٧] والجوهر. وفي الخزانة الثانية صورة هِرْمِس يعني عُطَارد وهو مُكِبٌّ ينظر إلى مائدة بين يديه من نُوشَادِر[٨] على

---

(١) المحارة: المكان الذي يحور أو يحار فيه. والمحارتان: رأسا الورك المستديران اللذان يدور فيهما رؤوس الفخذين، والمراد بالمحارة هنا الدائرة التي يدور فيها الكوكب.

(٢) السدنة: جمع السادن، وهو خادم المعبد.

(٣) تسرج: أي توقد للإنارة.

(٤) بيت شرفها: أي محل عزّها وعلوّها وسعادتها.

(٥) الذؤابة: شعر مقدم الرأس.

(٦) الفيروزج: حجر كريم غير شفاف معروف بلونه الأزرق كلون السماء أو أميل إلى الخضرة، يتحلّى به.

(٧) العقيق: حجر كريم أحمر يعمل منه الفصوص، يكون باليمن وبسواحل البحر المتوسط، واحدته عقيقة.

(٨) لم نقع على تفسير لهذه الكلمة في المظان التي توفرت لنا.

قوائم كبريت أحمر، وفي وسطها مثل الصَّحْفة من جوهر أحمر فيها دواء أخضر من الصنعة، وصورة عُقَاب من زُمرّد أخضر عيناه من ياقوت أصفر، وبين يديه حيّة من فضّة قد لوتْ ذنبها على رجليه ورفعت رأسها كأنها تريد أن تنفخ عليه، وفي ناحية منها صورة المِرّيخ راكبًا على فرس وبيده سيف مسلول من حديد أخضر، وعمود من جوهر أخضر، عليه قبّة من ذهب فيها صورة المُشترِي، وقبّة من أدرك[١] على أربعة أعمدة من جَزْع[٢] أزرق في سقفها صورة الشمس والقمر متحاذييْن في صورة ٱمرأة ورجل كأنهما يتحادثان، وقبة من كبريت أحمر فيها صورة الزُّهَرة على صورة ٱمرأة مُمسكة بضفيرتها وتحتها رجلٌ من زبرجد أخضر، في يده كتاب فيه علم من علومهم كأنه يقرأ فيه عليها. وجعل في كل خزانة من بقية الخزائن من العجائب ما لا يحدّ، وعلى باب كل مدينة طِلّسمات تمنع من دخولها في صور مختلفة لا يشبه بعضها بعضًا، وفي كل مدينة من الجوهر النفيس والذهب والفضة والكبريت الأَحمر والتُّربة الصنعيّة في البرانيّ[٣] الملوّنة، وصنوف الأدوية النفيسة المؤلّفة والسموم القاتلة. وعلّم كل باب من الأساطين بعلامة يعرف بها يُصعد إليها من مسارب تحت الأرض. قال: وجُعل بين هذه المدائنِ وبين مدينة خلجة، وهي التي عمل فيها الجنة، سبعة أميال إلى الغرب، وبينها وبين الأخرى أربعة عشر ميلًا، وبين الأخرى واحد وعشرون ميلًا. وكان له من مدينته إلى هذه المدائن أسراب تحت الأرض يصل منها إليها، وكذلك من بعضها إلى بعض. وعمل عجائب كثيرة أزالها الطوفان، وركبت هذه الأرض الرمال فأزالت طلّسماتها. قال: وملك نقارس مائة سنة وسبع سنين ثم هلك فعُمِل له ناووس، وجُعِل معه من الأشياء العجيبة ما يطول الأمر بذكره.

ثم ملك بعده أخوه مِصرام بن نقراوس، فبنى للشمس هيكلًا من المرمر[٤] الأبيض وموّهه بالذهب، وجعل وَسَط الهيكل كالعرش من جوهر أزرق عليه صورة الشمس من ذهب أحمر وأرخى عليها كِلَل الحرير الملوّن، وأمر أن يوقد عليها بطيّب الأدهان، وجعل في الهيكل قنديلًا من الزجاج الصافي، وجعل فيه حجرًا مدبَّرًا يضيء

(١) الأدرك: الحجر الأحمر.

(٢) الجزع: ضرب من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان، والحجر جملته بلون الظفر.

(٣) البراني: جمع البرنية، وهي إناء واسع الفم من خزف أو زجاج ثخين.

(٤) المرمر: صخر رخامي جيري متحول يتركب من بلورات الكلسيت، يستعمل للزينة في البناء، ولصنع التماثيل ونحوها.

كما يضيء السراج وأكثر منه ضوءًا، وأقام له سَدَنَةً، وعمل له سبعة أعياد في السنة. وقيل: إن مصر سمّيت به. وتسمَّى به مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح بعد الطوفان لأنه وجد اسمه مزبورًا على الحجارة. وكان فليمون الكاهن أخبرهم أخبار هؤلاء الملوك. وكان مصرام هذا قد ذلّل الأُسْد في وقته فكان يركبها. وصحبه الروحانيّ الذي كان مع أبيه لما رأى من حرصه على لوازم الهياكل والقيام بأمور الكواكب، وأمره أن يحتجب عن الناس. وألقى على وجهه بسحره نورًا عظيمًا لا يقدر أحد أن يتمكّن من النظر إليه. فادّعى أنه إله، وغاب عن الناس ثلاثين سنة، واستخلف عليهم رجلًا من ولد غرناب وكان كاهنًا. ويقال: إنّ مصرام ركب في عرش وحملته الشياطين حتى انتهى إلى وسط البحر الأسود، فعمل فيه القلعة الفضّة وجعل عليها صنمين من النحاس وزبر عليها: أنا مصرام الجبّار، كاشف الأسرار، الغالب القهار، صنعتُ الطِّلَّسمات الصادقة، وأقمتُ الصُّوَر الناطقة، ونصبت الأعلام الهائلة على البحار السائلة، ليعلم من بعدي أنه لا يملك أحد ملكي، وكل ذلك في أوقات السعادة. وكان قد عمل في جنّته شجرة مولدة يؤكل منها جميع الفواكه، وقبّة من زجاج أحمر على رأسها صنم يدور مع الشمس، ووكّل بها شياطين إذا اختلط الظلام نادَوْا: لا يخرج أحد من منزله حتى يُصبِح وإلاّ هلك، وكان أوّلَ مَن عُمِل له ذلك. وأمرم أن يجتمعوا له، وجلس لهم في مجلس عال مزيَّن بأصناف الزينة وتجلّى لهم في صورةٍ هالتهم وملأت قلوبهم رعبًا، فخرّوا على وجوههم ودعَوْا له. فأمر بإحضار الطعام والشراب فأكلوا وشربوا ورجعوا إلى مواضعهم ثم لم يروه بعد. وبلغ بكهانته ما لم يبلغه أحد من آبائه.

ثم ملك بعده عِنْقام الكاهن؛ فعدل فيهم، وعمل مدينة عجيبة قرب العريش جعلها لهم حرسًا. وقيل: إنّ إدريس عليه السلام رُفع في زمانه. ويَحكِي عنه أهل مصر حكايات كثيرة تخرج عن العقول. وكان قد رأى في عِلْمه كون الطوفان، فأمر الشياطين التي تصحبه أن تبنيَ له مكانًا خلف خطّ الاستواء بحيث لا يلحقه الفساد، فبُنِيَ له القصر الذي في سفح جبل القُمْر، وهو قصر النحاس الذي فيه التماثيل، وهي خمسة وثمانون تمثالاً، يخرج ماء النيل من حُلوقها وينصبّ إلى بطيحة[1]. ولمّا عُمل له ذلك القصر أحبّ أن يراه قبل أن يسكنه، فجلس في قبّته وحملته الشياطين على أعناقها إليه. فلمّا رأى حكمة بنيانه وزخرفة حيطانه وما فيه من النقوش وصور الأفلاك

(١) البطيحة: المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار.

والكواكب، وغير ذلك من صنوف العجائب ـ وكان يُسرَج بغير مصابيح، وتُنصب فيه موائد يُوجَد عليها من كل الأطعمة ولا يُدْرَى مَن يعملها، وكذلك الأشربة في أوانٍ، يُستعمَل منها ولا تنقُصْ. وفي وسطه بركة من ماء جامد الظاهر تُرَى حركته من وراء ما جمد منه، وأشياء كثيرة من هذا النوع وإن كانت تنبو عن العقول ـ أعجبه ما رأى، ورجع إلى مصر فاستخلف ابنه عِرْناق وأوصاه بما يريده وقلّده المُلْك، ورجع إلى ذلك القصر فأقام به حتى هلك هناك. وإليه تُعزى مصاحف القبط التي فيها تواريخهم وجميع ما يجري إلى آخر الزمان. قالوا: ولم تطل مدّة ملكه.

ثم ملك بعده ابنه عِرْناق بنِ عِنْقام. ملك بعد أبيه وعمل عجائب كثيرة، منها شجرة صُفْر فيها أغصان حديد بخطاطيف حادّة إذا تقرّب منها الظالم والكاذب تقرَّبت إليه تلك الخطاطيف فتعلّقت به وشكّت بدنه ولم تفارقه حتى يُحدّث عن نفسه بالصدق ويعترف بظلمه ويخرجَ عن ظُلامة[١] خَصْمه. وعمل صنمًا من صَوّان أسود وسمّاه عبد قزويس، أي عبد زُحَل، فكانوا يحتكمون إليه، فمن زاغ[٢] عن الحقّ ثبت في مكانه فلم يقدر على الخروج منه حتى يُنْصِف من نفسه ولو أقام سنة أو أكثر. ومن كانت له حاجة منهم أو طلب شيئًا بخّر الصنم ليلاً ونظر إلى الكواكب وذكر اسم عِرْناق وتضرّع فيُصبِح وقد وجد حاجته على باب منزله. قال: وكان عِرْناق ربما حملته أطيار عظام وتمرّ به وهم يرونه. وكان ربما غضب على ناس فجعل ماءهم مُرًّا لا يُذاق، وسلّط عليهم وُحوش الأرض وسباعها وهوامّها. قال: وتجرّأ على صيد السباع والوحوش، وعمل عجائب، منها أنه عمل شجرة من حديد ذات أغصان لطّخها بدواء مدبّر، فكانت تجتلب كل صنف من الوحش. قال: وفي كتب المصريين أنّ هاروت[٣] وماروت كانا في وقته وعلّما أهل مصر أصنافًا من السحر، ونُقِلا بعد الطوفان إلى بابِل[٤]. وكان عرناق يجتلب النساء بسحره ويغتصبهنّ، وكان يسكن

---

(١) الظلامة: ما يطلبه المظلوم.

(٢) زاغ عن الحق: أي مال عنه.

(٣) هاروت وماروت: ملكان هبطا ببابل فعلّما الناس السحر.

(٤) بابل: بكسر الباء: اسم ناحية منها الكوفة والحلة؛ ينسب إليها السحر والخمر. قال يزدجرد بن مهبندار: تقول العجم: إن الضحاك الملك بنى مدينة بابل العظيمة، وهو الذي أسره أفريدون الملك وصيّره في جبل دبناوند، واليوم الذي أسره فيه يعد المجوس عيدًا، وهو المهرجان؛ قال: فأما الملوك الأوائل أعني ملوك النبط وفرعون وإبراهيم فإنهم كانوا نزلاً ببابل، وكذلك بخت نصّر. وقال أبو المنذر هشام بن محمد: إن مدينة بابل كانت اثني عشر فرسخًا في مثل ذلك، وكان بابها مما يلي الكوفة، وكان الفرات يجري ببابل حتى صرفه بخت نصّر إلى موضعه الآن مخافة أن يهدم عليه سور المدينة، لأنه كان يجري معه... (معجم البلدان).

الجنة التي عملها نقارس، فاْحتالت عليه اْمرأة من المغصوبات فسمّته فهلك وبقي مدّة لا يعرف خبره. وكان من رَسْمه[1] ـ إذا خلا بنسائه ـ لا يقرَبه أحد، فلمّا تأخر خبره عن الناس هجم عليه فتًى من بني نقراوس يقال له لُوخيم ومعه نفر من أهله، فوجدوه ملقًى في فراشه جيفة. فأمر أن توقد له نار فأحرقه فيها. وجمع النسوة اللواتي كنّ في الجنة، فمن كانت من نسائه تركها، ومن كانت من المغصوبات سرّحها إلى أهلها، ففرح الناس بذلك وبما نزل به.

وملك بعده لُوخِيم وجلس على سرير المُلْك ولبس تاج أبيه، وأمر بجمع الناس وقام فيهم وتكلّم وذكر ما كان عليه عِزْناق الأثيم من سوء السيرة واْغتصاب النساء وسَفْك الدماء ورفض الهياكل والاستخفاف بالكهنة إلى أن هلك، وأنه أحقّ بتُراث أبيه وجدّه. وضمن للناس العدل والإحسان والقيام بأمرهم ودفع كل أذى عنهم. فرضي الناس به وأطاعوه وقالوا: أنت أحقّ بالمُلْك، ولا زلتَ دائم السعادة طويلَ العمر قائمًا بتجويد الهياكل وتعظيمها. فركب إلى هيكل الشمس فقرّب له بقرًا كثيرًا، وسار في الناس بالعدل. قال: وكانت الغَرانيق[2] قد كثُرتْ في زمن عِزْناق فأهلكت زروع الناس. فعمل لوخِيم أربع منارات من نحاس في أربعة جوانب أمسوس، وجعل على كل منارة صورة غراب في فمه حيّة قد اْلتوت عليه فلم يقربهم شيء من تلك الطيور، فكانت كذلك حتى أزالها الطوفان.

قال: ومن ملوكهم خصليم وهو أوّل من عمل مقياسًا لزيادة الماء؛ وذلك أنه جمع أصحاب العلوم والهندسة فعملوا بيتًا من رُخام على حافة النيل، وجعل في وسطه بركة من نحاس صغيرة فيها ماء موزون، وعلى حافَتَي البركة تمثالُ عُقابين من نُحاس ذكر وأنثى. فإذا كان في أوّل الشهر الذي يزيد فيه الماء فتح باب البيت وحضر الكُهّان وأمناء الملك وتكلّموا بكلام لهم حتى يصفِر أحد العقابين، فإن صَفَر الذكر كان الماء زائدًا، وإن صفرت الأنثى كان الماء ناقصًا، ثم يعتبرون الماء فكلّ إصبع يكون في تلك البركة فهو ذراع من زيادة النيل، وكل إصبع ينقص فهو نقصان ذراع. فإذا علموا ذلك حفروا الترع[3] وأصلحوا الجسور. وعمل على النيل القنطرة التي هي ببلاد النُّوبة. وكان له اْبن سمّاه هِرْصال، أي خادم الزُّهَرة، لرؤيا كانت رأتها أخت

---

(١) يقال: رسم له كذا: أي أمره به؛ ويقال: رسم له بكذا: أي كتب له مرسومًا.

(٢) الغرانيق: الذكور من الطير واحدها غرنوق وغرنيق، وهو طائر مائي طويل القوائم والعنق أسود وقيل أبيض.

(٣) الترع: جمع الترعة؛ وهي القناة الواسعة للسقي أو الملاحة.

الملك أن الزُهَرة تخاطبها، وكفلت الغلام عمّته، وأسمها خِرداقة، وأدّبته أحسن التأديب، وزوّجته عشرين أمرأة من بنات الملوك والعظماء، وبنت له مدينة فيها عجائب كثيرة، احتفلت بها وزيّنتها بأحسن النقوش والزينة والعمارة، وعملت فيها حمّامًا معلّقًا على أساطين يرتفع الماء إليها حارًا من غير وَقِيد(١). ولمّا هلك خصليم دُفن في ناووس.

ثم ملك بعده أبنه هِرْصال بن خصليم فتحوّل إلى المشرق وسكنه، وبنى مدينة هي إحدى المدائن ذوات العجائب، وعمل في وسطها صنمًا للشمس يدور بدَوَرَانها ويبيت مغرّبًا ويصبح مشرّقًا. ويقال: إنه عمل من تحت النيل سَرَبًا(٢)، وهو أوّل مَن عمل ذلك. وخرج متنكرًا يشقّ الأمم إلى أن بلغ بابِل، ورأى ما عمل الملوك من العجائب. وعلم حالَ ملِكها في الوقت وسيرته ومجاري أموره. ويقال: إنّ نوحًا عليه السلام وُلد في وقته. قال: ووُلد لهِرْصال عشرون ولدًا، جعل مع كل ولد منهم قاطرًا وهو رأس الكهنة. وتزعم القبط أنه بعد مائة وسبع وعشرين سنة من مُلْكه لزم الهياكل وتعبّد للكواكب فأخفته عن أعين الناس. وأقام بنوه على حالهم كل واحد منهم في قسمه الذي أعطاه إياه يدبّره ولا يشركه فيه غيره. وأمور الناس جارية على سداد، فأقاموا كذلك سبع سنين. ثم وقع بين الإخوة تشاجر، وأجتمع رأي الكهنة على أن يجعلوا أحدهم ملكًا، ويقيم كل واحد منهم في قسمه. فأجتمعوا في ذلك اليوم في دار المملكة، وقام رأس الكهّان فتكلّم وذكر هِرْصالَ وسعادة أيامه وما شملهم فيها من الخير، وأخبر بما رأته الجماعة من تقليد أحدهم المُلْك. فإن كان هِرْصالُ لم يمُت ورجع إليهم لم ينكر ما فعلوه لأنهم أرادوا بذلك حفظ ملكه، وإن لم يرجع كان الأمر قد جرى على ما سلف من قيام ملك بعد ملك فأجتمع رأيهم على أكبر ولده وهو:

نَدْسان بن هِرصال. فملك وسار سيرة أبيه وحمد الناس أمره. وعمل قصرًا من خشب ونقشه بأحسن النقوش، وصوّر فيه صور الكواكب ونجّده بالفرش وحمله على الماء وكان يتنزّه فيه. فبينما هو فيه إذ زاد النيل زيادة عظيمة وهبّت ريح عاصف فأنكسر القصر وغرِق الملك. وكان قد نفى إخوته إلى المدائن الداخلة في الغرب. وأقتصر على أمرأة من بنات عمّه، وكانت ساحرة، فتفرّد بها وأستخلف بعض وزرائه على المُلْك وأقبل على لذّته ولهوه. فلمّا هلك كتمت أمرأته الساحرة موته، وكان أمرها ونهيها يخرجان إلى الوزير عن الملك. وأقام الناس تحت طاعته سبع سنين لا

---

(١) الوقيد: ما توقد به النار من الحطب ونحوه.

(٢) السَّرب: بفتح السين والراء، المسلك في خفية.

يعلمون بأمره. فلما رأى إخوته طول غيبته جمعوا جموعًا كثيرةً وقدّموا على أنفسهم أحدهم وهو شمرود الجبّار وساروا إلى أمسوس. وبلغ ذلك ٱمرأة نَدْسان الساحرة فأمرت الوزير بالخروج إليهم ومُحاربتهم، ففعل ذلك ولقيهم فمزّقوه وقتلوا كثيرًا ممن كان معه، ودخلوا مدينة أمسوس، وأتوا دار المملكة فلم يروا نَدْسان وأيقنوا بهلاكه.

وملك شمرود بن هرْصال فسُرّ الناس بهِ، ووعدهم بحُسن السِّيرة فيهم وتغيير ما كانوا يُنكرونه على أخيه. وٱستولى على كنوزه وخزائنه ففرّقها على إخوته، وأقطعهم جميع ما كان في يد نَدْسان. وطلب ٱمرأته الساحرة وٱبنها ليقتلهما، فٱنتقلت إلى مدينة أهلها من الصعيد، وكانوا كلّهم كُهّانًا سحرة، فٱمتنعت بهم، وأرسلت إلى الناس وعرّفتهم أنّ ٱبنَها الملِكُ في وقته؛ لأنّ أباه قلّده المُلْك وأمرها أن تدبّر أمره حتى يكبرَ، فصدّقوها وأجابوها وقالوا: إنّ الغلام مغصوب على ملك أبيه، وإنّ شمرود متغلب. فٱجتمع في ناحيتها جماعة من أهل البلد وزحف ٱبن الساحرة وقد عمل له السحَرة أصنافًا من التخاييل الهائلة والنيران المحرقة، فقامت الحرب بينهم أيامًا؛ فٱنهزم شمرود وإخوته وتعلّقوا ببعض الجبال.

وملك تُوميدون بن ندسان وهو ٱبن الساحرة. ودخل دار الملك وجلس على السرير ولبس التاج الذي كان لأبيه وأطاف به بطانة أبيه، وهو يومئذ حَدَث السّنّ، وكانت أمه تدبّر أمره، فقتل كلّ من كان مع شمرود. وطلب شمرودَ حتى ظَفِر به، وٱجتمع الناس لينظروا ما يصنع به، فشُدّ رأسه برأس أسطوانة قائمة، ورجلاه برأس أسطوانة أخرى. وكان طُوله فيما يذكر القبط عشرين ذراعًا، ووكّلت الساحرة به حَرَسًا لتقتلَه يومَ عيدها، وكان قريبًا. فصاح بالليل صيحة مات منها بعض الحرس وهرب الباقون. فلمّا ٱتّصل بها ذلك أوقدت نارًا وأمرت بإنزاله وجعلت تقطع منه عضوًا عضوًا وترميه في النار. قال: وخرج ابنها كاهنًا منجّمًا، وعملت له الشياطين قبّة الزُّجاج الكبيرة الدائرة على دوران الفلك، وصوّروا عليها صور الكواكب، وكانوا يعرفون الطالع منها وما يحدث بطلوعه بعد ستين سنة. ثم ماتت أمّه الساحرة وأوصت أن يجعل جسدها تحت صنم القمر فإنه يخبرهم بالعجائب وما يسألون عنه ففعلوا ذلك. وذلّ الناس لٱبنها وهابوه، وكان يتصوّر لهم في صور كثيرة، وملكهم مائة سنة وستين سنة. ولمّا حضره الموت أمرهم أن يعملوا له صنمًا من زجاج على شقّين ويُطبق على جسده بعد أن يُطلَى بالأدوية المُمْسِكة ويُلحَم ويقام في هيكل الأصنام، ويُجعَل له عيد في السنة ويقرّب له قُربانٌ[١]، وتُدفَن علومه وكنوزه تحته، ففعلوا ذلك كله.

---

(١) القربان: كل ما يتقرب به إلى الله عزّ وجل من ذبيحة وغيرها.

ولمّا مات ملك بعده ٱبنه شرناق بن توميدون، فعمل بسيرة أبيه وجدّته، وٱجتمع الناس عليه. وزَحَف رجل من بني صرابيس بن إرم من ناحية العراق، فتغلّب على الشام، وأراد أن يزحف إلى مصر، فعرف أنه لا يصل إليها لسحر أهلها، فأراد أن يدخلها متنكّرًا ليقف على أحوالها، فخرج في نفر[١] حتى بلغ الحصن الذي كانوا بنوه على مصر. فسألهم الحرس الموكّلون به عن أمرهم، فعرّفوهم أنهم قصدوا بلدهم ليسكنوه، فحبسوهم وطالعوا الملك بخبرهم. وكان الملك قد رأى في منامه كأنه قائم على منار لهم عال، وكأن طائرًا عظيمًا انقضّ عليه ليختطفه، فحاد عنه حتى كاد يسقط عن المَنارة فجاوزه ولم يضُرّه، فٱنتبه مرعوبًا، وبعث إلى رأس الكَهَنة فقصّ عليه رؤياه، فعرّفه أن مَلِكًا يطلب مُلْكه فلا يصل إليه. فنظر في علمه فرأى أنه قد دخل بلده. فلما وردت الرسل بذكر القوم علم أن المَلِك فيهم؛ فوجّه جماعةً من أصحابه فاستوثقوا منهم وحملوهم إليه، وقد كان أمرهم أن يطوفوا بهم في أعمال مصر كلها ليروا ما فيها من الطِّلَّسمات والأصنام المتحرّكات والعجائب المعجزات، فبلغوا بهم إلى الإسكندرية، ثم ساروا بهم إلى أمسوس وطيف بهم على عجائبها. ثم سيرَ بهم إلى الجنّة التي عملها مِصْرام، وكان الملك مُقيمًا بها وأمر السحرةَ بإظهار التهاويل[٢] والتخاييل[٣]، فجعلوا يتعجّبون مما رأَوا إلى أن وصلوا إلى شرناق الملك والكهنة حوله وقد أظهروا صنوف العجائب، وجعلوا بين يدي الملك نارًا عظيمة لا يصل إليه إلا مَن خاضها ولا تضرّ إلا مَن أضمر للملك غائلة[٤]، وأمر بدخولها، فشقّوها واحدًا واحدًا لم ينلهم منها أذًى، وكان الملك آخرَهم، فلمّا دنا من النار أخذته فولّى هاربًا. فأُتِيَ به شرناق فسأله عن أمره فأقرّ، فأمر بقتله على أسطوانة عند باب الحصن من ناحية الشام، فقُتِل وزُبِر[٥] عليه: هذا فلان المتغلّب على الشام أضمر غائلة الملك، طلب ما لا يصل إليه فعوقب بهذا. وأمر بإخراج الباقين من بلاده

---

(١) النفر: من ثلاثة إلى عشرة من الرجال.

(٢) التهاويل: واحدها تهوال، وأصلها ما يهول الإنسان ويحيره. والتهويل: شيء كان يفعل في الجاهلية، كانوا إذا أرادوا أن يستحلفوا الرجل أوقدوا نارًا وألقوا فيها ملحًا. واسم تلك النار الهولة.

(٣) التخاييل: هي التمويه بالحيل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني، فيخيل للناظر أنها بخلاف ما هي به، كالذي يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء..

(٤) الغائلة: الفساد والشر؛ أو الداهية. جمع غوائل.

(٥) يقال: زبر الكتاب: أي كتبه؛ أو أتقن كتابته.

فأُخرجوا. وقيل لهم: قد وجب عليكم القتل لصُحبتكم من أراد الفساد في الأرض، ولكنّ الملك عفا عنكم. فكانوا لا يمرّون على أحد إلاّ حدّثوه بما رأَوْا من العجائب، فٱنقطعت أطماع الملوك عن الوصول إلى مصر والتعرّض إليها. وعُمِلت في أيامه عجائب كثيرة، منها أنه عمل على باب كل مدينة بطّة نحاس قائمة على أُسطوانة، فإذا دخل الغريب من الباب صفّقت بجناحيها وصرَخت، فيؤخذ ويكشف عن أمره. وشقّ إلى مدائن الغرب نهرًا من النيل، وبنى على عِبْره[1] منازل وأعلامًا[2] وغرس بينها غروسًا، وكان إذا خرج إليها سار في عِمارة متّصلة. وملكهم مائة سنة وثلاثين سنة ثم مات.

وملك بعده ٱبنه سهلوق بن شرناق، وكان كاهنًا منجّمًا، فأفاض العدل وقسم ماء النيل قسمًا موزونًا، صرف إلى كل ناحية قسْمها، ورتّب المراتب وجعلها على سبعة أقسام: فالطبقة الأولى الملك وولده وأهل بيته ومن يلي عهده ورأسُ الكهّان والوزير الأكبر وقائد الجيش الأكبر وصاحب خاتَم الملك وصاحبُ خزانته. والطبقة الثانية مراتب العمّال والمتولّين جباية الأموال والإشراف على النفقات في أمر المملكة ومصالح البلد والعِمارات وقسمة المياه. والطبقة الثالثة الكهّان وأصحابُ الهياكل وخدمتها ومتولو القرابين والمشرفون على جميع ما يتقرّب به من بواكير الفواكه والرياحين وفُتِيِّ[3] البقر والفراريج الذكور ورؤوس خوابي الشراب. والطبقة الرابعة المنجِّمون والأطباء والفلاسفة. والطبقة الخامسة أصحاب عِمارة الأرض ومتولّو أمر الزراعة. والطبقة السادسة أصحاب الصناعات والمِهَن في كلّ فنّ، والمشرفون على أعمالهم ونقلِ ما يستحسنون منها إلى خزانة الملك. والطبقة السابعة أصحاب الصَّيد من الوَحْش والسِّباع والطير والهوامّ والخَشَاش[4]، والمشرفون على أخذ دمائها ومرائرها وشحومها وحملها إلى الأطبّاء لإصلاح العقاقير وتأليف الأدوية. وتقدّم ألاّ يدخل أهل مِهْنة ولا صناعة في غيرهم، ومن قصّر في عمله عوقب، ومَن أحسن في عمله جوزي بقدره. وكانت رتبة الألحان والملاهي في قسمة الملك: وتقدّم في ٱستنباط المعادن وبناء المدائن ونصب الأعلام والمنارات وإبداع الصناعات وجرّ المياه

(١) العبر من النهر: شاطئه وناحيته.
(٢) الأعلام: واحدها علم، وهو شيء منصوب في الطريق يهتدى به.
(٣) الفتيّ: جمع الفتى: وهو من الإنسان الشاب أول شبابه بين المراهقة والرجولة؛ ومن الحيوان الشاب.
(٤) الخشاش: حشرات الأرض؛ أو الطير ونحوها، الواحدة خشاشة.

وتوليد غرائب الأشجار. وأقام على أعالي الجبال سَحَرة يقسمون الرياح ويمنعونَ من يقصدهم ويقصد بلادهم بأذى، وكذلك كلّ مفسد من طائر وسبع ووحش وهوامّ، وأجرى أمر البلاد والناس على سَدَاد، وجعل في كلّ صِنْف من الناس صِنْفًا من الكَهَنة يعلّمونهم الدين، ودينهم يومئذ الصابئة[١] الأولى. ويرفع كلُّ صنف منهم ما يجري من أمر ما يتولّونه إلى الملك في كلّ يوم. وعمل البيت ذا القِبَاب النوريّة الثلاث، وأوقد فيه النار الدائمة تعظيمًا للنور. والقبط تزعم أنه أوّل من وضع بيتًا لتعظيم النار. وقيل: إن جَمْ الفارسيّ إنما بنى بيت النار - وهو أوّل من عمل ذلك للفُرس - اقتداءً بسهلوق مصر. وكان السبب في عمل سهلوق بيت النار أنه رأى أباه في نومه يقول له: انطلق إلى جبل كذا من جبال مصر فإنّ فيه كُوَّةً[٢] من صفتها كذا وكذا، وإنك واجد على باب الكوّة أَفْعىً لها رأسان، وإنها إذا رأتك كشّت[٣] في وجهك، فليكن معك طيران صغيران، فإذا رأيتَ الأفعَى فأذبحهما لها وألقهما إليها، فإنه يأخذ كلُّ رأس من رأسيها أحدَ الطيرين وتتنحّى إلى سَرَب قريب من الكوّة فتدخله، فإذا غابت عنك فأدخل الكوّة فإنك تنتهي إلى آخرها إلى صورة أمرأة جميلة الخَلْق. وهي من ثور حارّ يابس، وسوف يقع عليك وَهَجها وتُحِسّ بحرارة شديدة، فلا تقرُب منها فتحترق، وقِفْ وسلّم عليها فإنها تخاطبك فأسكن إلى خطابها، وأنظر ما تقوله لك فأعمل به، فإنك تشرُف بذلك. وهي حافظة كنوز جدّك مِصرام التي رفعها إلى مدائن العجائب المعلّقة وهي تدلّك عليها. وتنال مع ذلك شرفًا في بلدك وطاعة في قومك، ثم مضى وتركه. فلمّا أنتبه سهلوق جعل يفكّر فيما رأى ويتعجّب منه، ورأى أن ينفّذ ما أخبره به أبوه، فمضى إلى الجبل وحمل الطيرين معه وفعل جميع ما أمره أبوه إلى أن وقف حذاء المرأة وسلّم عليها، فقالت له: أتعرفني؟ قال: لا، لأنّي ما رأيتكِ قبل وقتي هذا. قالت: أنا صورة النار المعبودة في الأمم الخالية، وقد أردتُ أن تُحيي ذكري وتتّخذَ لي بيتًا وتُوقد فيه نارًا دائمةً بقدر واحد، وتتّخذ لها عيدًا في كل سنة تحضره أنت وقومك فإنك تتّخذ بذلك عندي يدًا وتنال به شرفًا وملكًا إلى مُلْكك، وأمنع عنك وعن بلدك من يطلبك ويعمل الحيلة عليك، وأدلّك

---

(١) الصابئة: قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنهم على ملّة نوح، وقبلتهم مهبّ الشمال عند منتصف النهار.

(٢) الكوّة والكوّ: الخرق في الحائط والثقب في البيت ونحوه. قال الليث: تأسيس بنائها من ك و ي كأن أصلها كوّى ثم أدغمت الواو في الياء فجعلت واوًا مشددة..

(٣) يقال: كشّت الأفعى كشيشًا: إذا صوت جلدها إذا احتك بعضه ببعض، أو إذا صوتت من فمها.

على كنوز جدّك مصرام. فلمّا سمع ذلك منها ضمِن لها أن يفعل، ودلّته على الكنوز التي كانت لجدّه تحت المدائن المعلّقة، وكيف يصير إليها ويمتنع من الأرواح الموكّلة بها وما يبخّرها به. فلمّا فرغ من ذلك قال لها: كيف لي بأن أراك في الأوقات وأسألك عمّا أريده، أأصير إليك في هذا المكان أو غيره؟ قالت: أمّا هذا المكان فلا تقدر بعد وقتك هذا عليه؛ لأنّ الأفعى التي رأيتَها فيه قيّمتُه لأنّ فيه آيةً[١] تمنع أن يوقف عليها في وقتنا هذا، ولكن إن أحببتَ أن تراني فدخِّن في البيت الذي تعمله لي بكذا وكذا: أشياءَ ذكرتْها له، منها: عظام ما يقرّبه له من القرابين والذبائح والصُّموغ، فإني أتخيّل لك وأخبرك بكل حقّ وباطل مما يكون في بلدك. فلمّا سمع ذلك منها سُرّ به وغابت عنه، وظهرت الأفعَى وخرج هاربًا وجعل على الكُوّة سَدًّا، وعمل ما أمرتْه به وأخرج كنوز جدّه.

وعمل من العجائب بأمسوس وغيرها ما يطول شرحه. وعمل القبّة المركّبة على سبعة أركان، ولها سبعة أبواب، على كل باب صورةٌ معمولة، وكان يقال لها قبّة القصر. وكان السبب في بنائها أنّ بعض الكهّان جار في قضيّة قضى بها؛ وذلك أن بعض العامّة أتاه يشكو امرأته ـ وكان يحبّها والمرأة تُبْغِضه ـ وسأله أن يقوّمها له، وكانت المرأة من أهل بيت الكاهن، فمالأها[٢] على زوجها، وأمره بتخليتها فلم يفعل، فحبسه وشدّد عليه، وكان من أهل الصناعات، فاجتمع جماعة من أهل صَنعته ممّن كان قد عرف حال المرأة معه وأنها ظالمةٌ وهو لها منصفٌ، فوقفوا على ظلم الكاهن فاستعدَوْا[٣] عليه عند خليفة الملك. فأحضر الكاهن وسأله، فذكر أنه لم يحكم إلاّ بواجب. فأحضر رؤساء الكهنة والقومَ الذين شهدوا للرجل، فوقف على ظلم الكاهن فأخرج الرجل وحبس الكاهن مكانه، وأمر بعقوبة المرأة وردّها إلى زوجها ورفع ذلك إلى الملك، فأمر بإخراج الكاهن من رسم الكِهانة، وأن يُعاقب ويحبس إلى أن يرى فيه رأيَه. واهتمّ الملك لذلك وخشي أن يجريَ من غير ذلك الكاهن في أمر الرعيّة مثلُ ما جرى منه، فبات مهمومًا. ثم فكّر في أمر النار، فأتى إلى بيت النار ودخّن بالدُّخْنة[٤] التي أمرته بها، فأتته وخاطبته. فسألها أن تعمل له

---

(١) الآية: العلامة والأمارة؛ أو العبرة؛ أو الشخص؛ أو الجماعة؛ أو المعجزة.
(٢) يقال: مالأها على الأمر ممالأة وملاء: إذا ساعدها وعاونها.
(٣) استعدى: استعان واستنصر؛ يقال: استعديت الأمير أو الملك على فلان.
(٤) الدخنة: ما يتبخر به من الطّيب.

عملاً يقف به على حقيقة أمر المظلوم من الظالم، فأمرته أن يعمل بيتًا مركّبًا على سبعة أركان ويجعلَ له سبعة أبواب في كل ركن باب، ويعمل في وسطه قبّة من صُفْر، ويصوّرَ عليها صور الكواكب السبعة، ويعمل تحت القبّة مَطْهَرة[١] من جوهر ملوّن، ويجعل فيها سبعة أدهان من أشجار مختلفة؛ وتكون القبّة معلّقة على سبعة أساطين، ويُعمل على الباب الأوّل تمثال أسد رابض، وحِذاءه من الجانب الآخر لبؤة رابضةٌ من صُفْر[٢] ويقرّب لهما جرو وأسد ويبخّرهما بشعره. وعلى الباب الثاني صورةُ ثور وبقرة ويذبح لهما عجلاً ويبخّرهما بشعره. وعلى الباب الثالث صورة خنزير وحذاءه خنزيرة ويذبح لهما خِنَّوْصًا[٣] ويبخّرهما بشعره. وعلى الباب الرابع صورة فرس وحِجْر[٤] ويذبح لهما مهرًا ويبخرهما بشعره. وعلى الباب الخامس صورة ثعلب وحذاءه أُنثاه ويذبح لهما جرو ثعلب ويبخّرهما بوَبَره. وعلى الباب السادس صورة حمار وحذاءه أتان[٥] ويذبح لهما عَيرًا ويبخّرهما بشعره. وعلى الباب السابع صورة ديك وحذاءه دَجاجة ويذبح لهما فَرُّوجًا ويبخّرهما بريشه. ويلطخ وجوهها جميعًا بدم ما يذبح. ثم يُحرَق بقيّة القُرْبان ويُجْعَل تحت عَتَب أبوابها وتُغَلّق الأبواب، ويُقام للبيت سَدَنة يوقدونه ليلَه ونهاره. فإذا فرغ ذلك يتكلّم على باب الكواكب السبعة، فإني سوف ألقى روحانيّة الكواكب على تلك الصور فتنطق. وإذا فرغت من ذلك فأجعل لكل مرتبة من المراتب التي قسمتها بابًا من تلك الأبواب، وليكن باب الأسد لأهل بيت المملكة، وسائر الأبواب لسائر المراتب. فإذا تقدّم الخصمان إلى شيء من تلك الصور اْلتصقت بالظالم وشَدّت عليه شدًا عنيفًا يُؤلمه حتى يخرج لخصمه من حقّه، الذكر للذكر، والأنثى للأنثى، فيُعرف بذلك المظلوم من الظالم، ومن كان له قِبَلَ[٦] أحد حقّ ودعاه إلى تلك الصور فلم يجىء معه فأتاه المظلوم، وقد عرّف الصورة ذلك، أُقعد الظالم من رجليه وخَرِس لسانه ولم يتحرّك. فاستراح الملك إلى تلك الصورة. ولم تزل على ذلك حتى أزالها الطوفان مع ما أزال من أعمالهم وطِلّسماتهم وعجائبهم. وعُملت في أيام سهلوق أعمال كثيرة، وكُتِبت سيرته

---

(١) المطهرة: ما يتطهر به؛ أو كل إناء يتطهرونه، كالإبريق والسطل والركوة وغيرها.
(٢) الصُفر: النحاس الأصفر.
(٣) الخنوص: ولد الخنزير.
(٤) الحِجْر: الأنثى من الخيل.
(٥) الأتان: أنثى الحمار.
(٦) يقال: لي قبل فلان دين: أي عنده.

وما عمل من العجائب في مصحف[١]. وعمل عقاقير كثيرة وتماثيل ومحرّكات وصَنْعة، وأمر أن يُحمل ذلك كلّه إلى ناووس عمله لنفسه في الجبل الغربيّ ونقل إليه حِكَمه. وهلك بعد أن ملك تسعًا وستين سنة وحمل إلى ناووسه، وأقام أهل المملكة ووجوه المدينة ونساؤهم عند ناووسه شهرًا يبكون عليه ويتوجّعون عنده، وٱغتمّوا عليه غمًّا لم يغتمّوه على ملكٍ قبله، وأقاموا لناووسه سَدَنة يخدمونه.

وملك بعده ٱبنه سُوريد بن سُهلوق؛ وكان أبوه قد قلّده الملك قبل مَهْلَكِه، فملك وٱقتفى سيرة أبيه في العِمارة ومصالح البلد والإنصاف بين الناس والأخذ لهم من نفسه وأهل بيته، وعمل الهياكل وبنى المنارات، ونصب الأعلام والطِّلَّسمات فأحبّه الناس. وبنى بالصعيد ثلاث مدائنَ وعمل فيها عجائب كثيرة. وهو أوّل من جبى الخراج بمصر، وألزم أهل الصناعات على أقدارهم، وأوّل من أمر بالإنفاق على الزَّمْنَى[٢] والمرضَى من خزائنه. وعمل مرآة من أخلاط كان ينظر منها جميع الأقاليم ما أخصب منها وما أجدب وما حدث فيها، وكانت المرآة على منارة من النحاس وسط مدينة أمسوس، وكان يعلم من المرآة مَن يقصد مدينته من جميع النواحي فيتأهّب له. وهو أوّل من عمل صحيفة في كلّ يوم يكتب فيها جميع ما يكون في يومه وما يعمله ويُرفَع إليه، ثم يُخلد في خِزانته يومًا بيوم. وإذا مضى الشهر نُقلت إلى مصحف الملك وختمه بخاتَمه، وما صلح أن يُزبَر على الحجارة زَبَره: وكذلك ما عُمل من الصنائع وما أحدِث منها. وكان يُعطِي الرغائب على الصِّناعات العجيبة والحِكَم الغريبة. وعمِل في المدائن صورة ٱمرأة جالسة في حِجرها صورة صبيّ كأنها تُرضِعه، فمن أصابتها عِلّة بجسمها مسحت ذلك الموضع من جسد تلك الصورة فيزول عنها ما تجد، وكذلك إن قلّ لبنها مسحت ثديها، وإن أحبّت أن يعطف عليها زوجها مسحت وجهها بدهن طيّب وقالت افعلي كذا وكذا، وإن قلّت حيضتها[٣] مسحت فوق رَكَبِها، وإن كثر دمها ونزفت مسحت تحت رَكَبِها، وإن أصاب ولدها شيء فعلت مثل ذلك بالصبيّ فيبرأ[٤]، وإن عزّت[٥] ولادتها ومسَحت رأس الصبيّ سهلت ويسهل افتضاضها، وإذا بخرته ومسحته بدهن طيّب منع جميع التوابع. وإذا

---

(١) المصحف: المراد به هنا مجموع من الصحف في مجلد.

(٢) الزّمنى: جمع الزّمن، وهو الذي به مرض يدوم.

(٣) الحيضة: دم الحيض؛ أو الحزمة تضعها المرأة لتتلقى دم الحيض؛ والمعنى الأول هو المراد.

(٤) يبرأ من الشيء: يخلص منه؛ ويبرأ من المرض، أي يشفى.

(٥) عزت ولادتها: عسرت.

وضعت الزانية يدها عليها ارتعدت حتى تكفّ عن زناها. وما كان من أعمال الليل بُخّرت ليلاً، وما كان من أعمال النهار بُخّرت نهارًا. وكانت تعمل أعمالاً كثيرة إلى أن أزالها الطوفان. قال: وفي بعض كتب القِبْط أنها وجدت بعد الطوفان وأنهم استعملوها وعبدوها. وصورتها مصوّرة في جميع البرابي، وأسمها نبلوية، والذي دلّهم عليها قرابة فليمون الكاهن. قال: وعمل سوريد عجائب كثيرة، منها الصنم الذي يقال له نكرس المعمول من عدّة أخلاط كان يعمل أعمالاً كثيرة في الطبّ ودفع الأسقام والعِلل، ويعرِفون به من تُبْرِئه الأَدوِية فيعيش، وإن كان يموت فله علامات فيُقْصِرون عن علاجه، وكانوا يغسلون المواضع التي بإزاء أعضاء العلَل منه ويُسقَى لصاحب الداء فيزول عنه. وهو أوّل من عمل الأفروثنات[1] وزبر فيها جميع العلوم. وهو الذي بنى الهرمين الكبيرين.

ذكر خبر بناء الأهرام وسبب بنائها وشيء من عجائبها

قال: كان بناء الأهرام قبل الطوفان بنحو ثلاثمائة سنة. وقد ذكرنا فيما سلف من كتابنا هذا نبذة من خبر الأهرام في الباب الثالث من القسم الخامس من الفنّ الأوّل؛ وذلك في السِّفر الأول من هذه النسخة. ونحن الآن نذكر من خبرها خلاف ما قدّمناه مما أورده إبراهيم بن القاسم الكاتب مما أختصره من كتاب العجائب الكبير لإبراهيم بن وَصِيف شاه. قال: كان سبب بنائها أن الملك سُوريد رأى رؤيا أفزعته؛ رأى كأنّ الأرض أنقلبت بأهلها، وكأنّ الناس يَخِرّون على رؤوسهم، وكأنّ الكواكب تتساقط ويصدِم بعضها بعضًا بأصوات هائلة مفزعة، فغمَّه ذلك ولم يذكره لأحد، وعلم أنه سيحدُث في العالَم أمر عظيم. ثم رأى بعد ذلك بأيام كأنّ الكواكب الثابتة نزلت إلى الأرض في صوَر طيور تنصَبُّ، وكأنها تتخطّف الناس وتُلقيهم بين جبلين عظيمين، وكأنّ الجبلين انطبقا عليهم، وكأنّ الكواكب النيِّرة مظلمة كاسفة؛ فأنتبه أيضًا مذعورًا فزعًا، فدخل إلى هيكل الشمس وجعل يمرِّغ خدّيه ويبكي. ولمّا أصبح أمر بجمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر فأجتمعوا، وكانوا مائة وثلاثين، فخلا بهم وقصّ عليهم رؤياه، فأعظموه وأكبروه وأوّلوه على أمر عظيم يحدث في العالم. فقال لهم فليمون ـ وكان من كبارهم وكان لا يبرح من حضرة الملك لأنه رأس كهنة أمسوس ـ: إنّ في رؤيا الملك لعجبًا وأمرًا كبيرًا، والملوك رؤياهم لا تجري على فساد ولا كذب

---

(١) الأفروثنات: لفظ يوناني معناه القبور.

لعِظَم أخطارهم، وكِبَر أقدارهم. وأنا أخبر الملك عن رؤيا رَأيتها منذ سنة لم أذكرها لأحد من الناس. فقال له الملك: قُصَّها علينا. قال: رأيت كأني مع الملك على رأس المنار الذي في أمسوس، وكأنّ الفلَك قد ٱنحطّ من موضعه حتى قارب سَمْت[١] رؤوسنا، وكان علينا كالقبّة المحيطة بنا، وكأنّ الملك قد رفع يديه نحو السماء وكواكبها قد خالطتنا في صور مختلفة، وكأن الناس يستغيثون بالملك وقد ٱنضمّوا إلى قصره، وكأنّ الملك رافع يديه ليدفع الفلك أن يبلغ رأسه، وأمرني أن أفعل فعله ونحن على وجل شديد، إذ رأينا منه نورًا مضيئًا طلعت علينا منه الشمس، فكأنّا استغثنا بها، فخاطبتنا بأنّ الفلك سيعود إلى موضعه إذا مَضَت ثلاثمائة دورة، وكأنّ الفلَك لصِق بالأرض ثم عاد إلى موضعه، ثم ٱنتبهت فزعًا. فعند ذلك قال لهم الملك: خذوا ٱرتفاع الكواكب فٱنظروا هل من حادثة تحدث. فنظروا فأخبروه بأمر الطوفان وبعده بذكر النار التي تخرج من بُرْج الأسَد تحرق العالم، فذكروا له أن ذلك يكون في وقت عيّنوه له من مقارنات النجوم ونزولها في الأبراج على ما حرّروه من الدقائق، وشرحه إبراهيم في كتابه مما لا فائدة لنا في ذكره. قال: فلما تبيّن ذلك له أمر بقطع الأساطين العظام ونشر البلاط الكبير المصفّح[٢]، وٱستخراج الرصاص من أرض المغرب، وإحضار الصخور السود التي جعلها أساسًا من ناحية أسوان، وكانت تُحمَل على أطواف[٣]. وقيل: كانت لهم فراقلَ[٤] من خوص[٥] لها عَذَبٌ[٦] وعليها كتابة منقوشة، فكانوا إذا ضربوا بها الحجارة عَدَتْ عى وجه الأرض وحدها مقدار رمية سهم حتى وضعت الأساساتُ. وأمر أن يُزبَر على البلاط المنشور المهندم جميعُ علومهم. ثم بنى الأهرام الثلاثة الأُوَل: الشرقيّ، والغربيّ، والملوّن؛ فكانوا يجعلون في وسط البلاطة قلب حديد قائمًا ويركّبون عليه بلاطة أخرى مثقوبة الوسط، ثم يُدْخَل ذلك القلب الحديد في ثقب البلاطة التي تُطبَق عليه، ويذاب الرَّصاص ويُصبّ

(١) السمت: الهيئة؛ أو نقطة في السماء فوق رأس المشاهد؛ أو السكينة والوقار؛ أو الطريق الواضح؛ أو المذهب.

(٢) المصفّح: الذي كسي بالصفيح، أو الفولاذ.

(٣) الأطواف: جمع الطوف، وهو خشب يشد بعضه إلى بعض ويركب عليه في الماء.

(٤) فراقل: لم نقع على تفسير لها في ما توفّر لنا من المظان.

(٥) الخوص: ورق النخل والمقل والنارجيل وما شاكلها. .

(٦) العذب: واحدتها العذبة، وهي طرف الشيء. يقال عذبة السوط، وعذبة اللسان، وعذبة العمامة. أو الخيط يرفع به الميزان.

حول البلاطة بعد أن تؤلّف الكتابة التي عليها. وجعل أبوابها من تحت الأرض بأربعين ذراعًا في آزاج[١] مبنيّة بالحجارة في الأرض، طول كل أَزَج مائة وخمسون ذراعًا. قال: فأما باب الهرم الشرقيّ فإنه من الناحية الجنوبيّة على قياس مائة ذراع من وسط حائط الهرم إلى الناحية الجنوبيّة، ويحفر حتى ينزل إلى باب الأزج ثم يدخل إليه منه. وأما باب الهرم الغربيّ فمن الناحية الغربيّة يُقاس أيضًا من وسط الحائط الغربيّ إلى الغرب مائة ذراع، ويحفر حتى ينزل إلى باب الأزج المبنيّ ويدخل منه إليه. وأما باب الهرم الملوّن فمن الناحية البحرية يقاس أيضًا من وسط الحائط البحريّ مائة ذراع، ويحفر حتى ينزل إلى باب الأزج. وجعل طول كل واحد منها أربعمائة ذراع بالمَلكي، يكون خمسمائة بذراعنا. وجعل تربيع كل واحد أربعمائة ذراع. وبناها في الاستواء إلى أربعين ذراعًا ثم هرّمها[٢]. وكان أوّل بنائهم لها في أوقات السعادة، فلمّا فرغ منها كساها ديباجًا[٣] مُلوّنًا من أعلاها إلى أسفلها، وعمل لها عيدًا عظيمًا لم يبق في المملكة أحد إلاّ حضَره. ثم أمر بعمل ثلاثين جرنًا من حجارة الصوّان ملوّنة فجعلت في الهرم الغربيّ، ونقل إليها من الكنوز والأموال والجواهر المعدنيّة، والجواهر المسبوكة الملوّنة، والآلاتِ الزَّبَرْجَد، والتماثيل المعمولة، والطِّلّسمات، والحديد الفاخر، والسلاح الذي لا يصدأ، والزجاج الذي ينطوي ولا ينكسر، والنواميس والمولّدات والدُّخَن[٤] وأصناف العقاقير والمفردات والمؤلّفات والسموم وغير ذلك شيئًا كثيرًا لا يدرك وصفه. ونقل إلى الآخر وهو الشرقيّ أصنام الكواكب والقباب الفلكيّة، وما عمل أجداده من التماثيل والدُّخَن التي يتقرّب بها لها ومصاحفها، وما عمل لها من التواريخ والحوادث التي مضت، والحوادث التي تحدث، والأوقات التي تحدث فيها، ومن يلي مصر من الملوك إلى آخر الزمان، وكَون الكواكب الثابتة وما يحدث بكَوْنها وقتًا وقتًا، وجعل فيها المطاهر التي فيها المياه المدبّرة والبودقات الدهنية وما أشبه هذه الأشياء. وجعل في الهرم الآخر أجساد الكهنة في توابيت من الصوّان الأسود، وعند كل كاهن منهم مصحف فيه عجائب صناعته وسيرته وما عمل في وقته. وكانوا سبع مراتب. فالمرتبة الأولى القاطرون، وهم الذين يعبدون الكواكب السبعة لكل كوكب سبع سنين، ومعنى القاطرون جامع

---

(١) آزاج: جمع الأزج، وهو بيت يبنى طولاً.

(٢) هرّم البناء: أي جعله على هيئة الهرم.

(٣) الديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير.

(٤) الدّخن: جمع الدخنة، وهي ما يتبخر به من الطيب.

العلوم. والمرتبة الثانية لمن يعبد ستّة من الكواكب وهم اللاحقون بالدرجة الأولى. ثم يسمّون صاحب الخمسة وما دونها كل واحد بأسم، فجعل في كل ناحية من الهرم مرتبة من هذه المراتب، فأجسادهم هناك وما عملوه من العجائب. وجعل في الحيطان من كل جانب مما يدور أصنامًا تعمل بأيديها جميع الصنائع على مراتبها وأقدارها، وصفة كل صنعة وعلاجها وما يصلح لها، وكذلك أصحاب النواميس ومن عالج شيئًا من الأشياء وجعل فيها أموال الكواكب التي أُهديت إليها الكواكب وأموال الكهنة. وجعل لكل هرم منها خادمًا، فخازن الهرم الشرقيّ صنم من جزع[١] أسود مجزَّع بأسود وأبيض له عينان مفتوحتان برّاقتان، وهو جالس على كرسيّ، ومعه شبيه بالحرية، إذا نظر إليه الناظر سمع من جهته صوتًا كالرعد يكاد يفزع قلبه، فيهيم على وجهه ويُخْتَلَس[٢] عقله، ولا يكاد يفارق الهرم حتى يموت فيه. وجعل خازن الهرم الآخر من حجر الصّوّان المجزَّع، معه شبيه بالحربة، وعلى رأسه حيّة تطوّق بها[٣]، من قَرُب منه وثبت عليه من ناحيته وتطوّقت في عنقه فقتلته ثم تعود إلى مكانها. وجعل خازن الهرم الثالث صنمًا صغيرًا من حجر البَهْتَة[٤] على قاعدتيه، من نظر إليه اجتذبه إليه حتى يلتصق به فلا يفارقه حتى يموت. فلمّا فرغ من ذلك حصنها بالأرواح وذبح لها الذبائح لتمنع عن نفسها من أرادها إلا من قرّب إليها وعمِل لها أعمال الوصول فإنه يصل إليها. قال: وذكر القبط أنه كُتِب عليها اسم الملك والوقت الذي بناها فيه، ويقول: إنا بنيناها في ستّ سنين فقل لمن يأتي بعدنا يهدمها في ستمائة سنة فإن الهدم أهون من البُنيان. وإنا كسوناها الدِّيباج الملوّن المذهب المرقوم[٥] بالذهب فقل لمن يأتي بعدنا يكسوها حصيرًا. فنظروا فوجدوا أحدًا لا يقوم بهدمها وكسوتها لأنه لا يستطاع ذلك ولا يُقدَر عليه.

قال: وحُكي عن هذه الأهرام عجائب يطول الشرح بذكرها؛ منها أن المأمون لمّا دخل إلى مصر أحبّ أن يهدم أحدها ليعلم ما فيها، فقيل له: إنك لا تقدر على

---

(١) الجزع: ضرب من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان؛ والحجر في جملته بلون الظفر.
(٢) يقال: اختلس الشيء اختلاسًا، أي استلبه في نهزة ومخاتلة.
(٣) تطوّق بها: أي جعلها كالطوق ولبسها كالطوق.
(٤) حجر البهتة، ويقال له البهت والباهت، يوجد في المحيط الإطلنطي وكانت له شهرة في إفريقية الغربية حيث يباع بثمن غال.
(٥) المرقوم: الموشى والمطرز والمخطط.

ذلك. فقال: لا بدّ من فتح شيء منه. فعولجت الثُّلمة[١] المفتوحة منه فأنفق عليها مالاً كثيراً لنار توقد وخلّ يُرشّ ومنجنيقات[٢] ترمى بها، فوجد عرض الحائط قريبًا من عشرين ذراعًا. فلما انتهوا إلى داخل الهرم وجدوا خلف الحائط عند النقب مطهرة خضراء فيها ذهب مضروب دنانير، وزن كل دينار أُوقيّة[٣] من أواقينا، وكان عددها ألف دينار، فعجِبوا من ذلك ولم يعرفوا ما معناه، ثم أُتِيَ المأمون بالذهب والمطهرة فجعل يتعجّب من الذهب وحسنه وجودته وحمرته، فقال: ارفعوا لي حساب ما أنفقتموه على هذه الثُّلمةِ ففعلوا، فوجده بإزاء المال الذي أصابوه لا يزيد ولا ينقص. فعجب المأمون من معرفتهم على طول المُدَد بأنهم سيفتحونه من ذلك الموضع بعينه، ومعرفتهم بمقدار ما يُنفَق عليه وتركهم مقداره في موضعه، فقال: كان هؤلاء القوم من العلوم بمنزلة لا ندركها نحن ولا أمثالنا. وقيل: إنّ المطهرة[٤] التي وُجد فيها الذهب كانت من زَبَرْجَد، فأمر المأمون بحملها إلى خزانته، وكانت أحد ما حمل من عجائب مصر.

ومن عجائب أخبارها أنّ المأمون لمّا فتح الهرم أقام الناسُ سنين يقصدونه ويدخلون فيه وينزلون الزلاّقة[٥] التي فيه، فمنهم من يسلَم ومنهم من يهلك. وأنّ جماعة من الأحداث[٦] اهتمّوا، وكانوا عشرين رجلًا، على أن يدخلوا الهرم ولا يبرحوا منه حتى يقفوا على منتهى أمره، فأخذوا معهم من الطعام والشراب ما يكفيهم لشهرين، وأخذوا السكك والحبال والشمع والوقيد[٧] والفؤوس والقِفاف[٨] ودخلوا الهرم، ونزل أكثرهم في الزلاّقة الأولى والثانية، ومضَوْا في أرض الهرم فرأَوْا فيه

---

(١) الثلمة: الموضع الذي قد انثلم، أي انكسر جانبه وصارت فيه ثلمة.

(٢) المنجنيقات: جمع المنجنيق، وهي آلة قديمة من آلات الحصار، كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها.

(٣) الأوقية هي سبعة مثاقيل وزنها أربعون درهمًا فيما مضى. وأوقية اوطباء عشرة دراهم وخمسة أسباع درهم.

(٤) المطهرة: ما يتطهر به؛ أو كل إناء يتطهر منه كالإبريق والسطل والركوة ونحوها.

(٥) الزلاقة: الموضع لا تثبت عليه القدم؛ أو هي جهاز ثابت يجلس عليه الصبيّ فينزلق من أعلى إلى أسفل.

(٦) الأحداث: جمع الحدث، وهو الصغير.

(٧) الوقيد: ما توقد به النار من الخشب ونحوه.

(٨) القفاف: واحدتها القفّة: وهي المقطف الكبير؛ أو الزبيل؛ أو زورق مقيّر مستدير لا يزال مستعملاً في العراق.

خفافيش بقدر العِقْبان تضرب وجوههم، فانتهَوْا إلى لِصْب[١] في حائط تخرج منه ريح باردةٌ لا تفتُر، فذهبوا ليدخلوا فأنطفأتْ سُرُجهم، فجعلوها في زجاج وذهبوا ليدخلوا فكاد اللِّصْب ينطبق عليهم فهابُوه فقال أحدهم: اربُطُوا وَسَطِي بحبل وأنا أدخل، فإذا كاد اللِّصْب ينطبق فجرّوني إليكم؛ وكان على باب اللّصب أجرنة[٢] فارغةٌ فعلموا أنّ أجساد موتاهم داخل ذلك اللصب، فربطوه بالحبل، فلمّا تقَحّم[٣] اللصبَ انطبق عليه فجرّه أصحابه فلم يقدروا على نَزْعه وسمعوا عظامه تتكسّر، وسمعوا صيحة هائلة فسقطوا على وجوههم لا يعقلون. فلمّا أفاقوا طلبوا الخروج فأخرجهم أصحابهم بشدة، وسقط بعضهم في وقت صعودهم من الزلاّقة فنزل، وخرجوا من الهرم فجلسوا في سَفْحه متعجِّبين، فإنهم كذلك إذ أخرجت لهم الأرض صاحبهم يتكلّم بكلام كاهنيّ فسّره لهم بعض أصحاب الديارات بالصعيد: هذا جزاء من يطلب ما ليس له؛ ثم سقط ميّتا، فحملوه وفُطِن بهم فأُخِذوا وأُتِيَ بهم إلى الوالي فحدّثوه بالخبر.

وفي خبر آخر: أنّ قومًا دخلوا الهرم وأنتهَوْا إلى أسفله وطوّفوه فعرَض لهم مثلُ الطريق فساروا فيه فوجدوا قبّة تحتها كالمطهرة يقطُر فيها ماءٌ فينِشّ ثم يَغِيض[٤] ولم يدرُوا ما هو، ووجَدوا موضعًا كالمجلس المربّع حيطانه كلّها بحجارة مُلوّنة عجيبة، فقلَع أحدهم منها حجرًا وجعله في كمّه فأنسدّت أذناه من الريح، ولم تزل تَصِر[٥] وهو معه، ووجدوا مكانًا كالفوّارة العظيمة فيها ذهبٌ مضروبٌ كثير يكون الدينار منه زهاءَ مائة مثقال، فأخذوا منه شيئًا فلم يستطيعوا أن يمشُوا ولم يتحرّكوا حتى تركوه من بين أيديهم. ووجدوا في مكان آخر كالصُفّة فيها شيخٌ من حنتم[٦] أخضرَ كأنه مشتمل بشَمْلة[٧]، وبين يديه تماثيلُ صِغار في صُوَر الصِّبيان وكأنه يعلمهم، فأخذوا منه شيئًا فلم يقدِروا أن يتحرّكوا فردّوه، ومشَوْا أيضًا في ذلك الطريق فوجدوا بيتًا

---

(١) اللصب: كل مضيق في الجبل أو الوادي. جمع لصوب ولصاب.
(٢) أجرنة: جمع جرن بالضم، وهو حجر منقور للماء.
(٣) تقحم اللصب: أي اقتحمه، أي دخله عنوة. واقتحم الأمر العظيم: رمى بنفسه فيه بغير رويّة. والمراد هنا: دخل فيه.
(٤) يغيض: ينقص.
(٥) تصرّ: أي تصوت صوتًا شديدًا.
(٦) الحنتم: جرار خضر تضرب إلى الحمرة.
(٧) الشملة: شقّة من الثياب ذات خمل يتوشح بها ويتلفع؛ أو هي كساء من صوف أو شعر يتغطى به ويتلفف به.

مسدودًا فيه دوِيّ هائلٌ وزمزمةٌ[١] فلم يتعرّضوا له، ومضَوْا فوجدوا كالمجلس المربَّع فيه صورة ديك من جواهرَ معمولةٍ، قائم على أُسطوانة خضراءَ، وله عينان يُسرج منهما المجلس، فلما قربُوا منه صوّت بصوت مُفزِع وخفَق بجناحيه، فتركوه ومضَوا حتى بلغوا صنمًا من حجر أبيضَ في صورة أمرأةٍ منَكّسة على رأسها ومن جانبيها أسدان من حجارة كأنهما يريدان نهسها[٢]، فجعلوا يتعوّذون ويقرؤون إلى أن جاوزوها. قال: وقيل إنهم مشَوْا حتى لاح لهم نور فأتّبعوه فإذا بفُوّهة مفتوحة فخرجوا منها فإذا هم في صحراء، وإذا على باب تلك الفُوهة تمثالان من حجر أسوَد معهما كالمزراقين فعجبوا من ذلك. ووجدوا أجرنة منقورة وأسطوانات مخروطة، فساروا منها بُعُدًا فأنتهوا إلى ماء وجدوه في نِقَارِ[٣] حذاء تلك الفُوهة، وأخذوا نحو المشرق فساروا يومًا حتى وصلوا إلى الأهرام من خارج فأخبروا والي مصر بخبرهم، فوجّه معهم مَن يدخل من تلك الفُوهة، فطافوا فلم يجدوها وأَشكل عليهم أمرُها. ووجد الآخِذُ للحجر الحجرَ جوهرًا نفيسًا فباعه بمال.

قال: وحُكي أنّ قومًا في زمن أحمدَ بن طولون دخلوا الهرم فوجدوا في طاق[٤] في أحد بيوته أستاندانة زجاجًا ثخينة فأخذوها وخرجوا، ففقدوا رجلاً منهم فدخلوا في طلبه، إذ خرج عليهم الرجل عُرْيانًا يضحَك ويقول: لا تتعبوا في طلبي، ورجع هاربًا إلى أن دخل، فعلموا أن الجنّ استهوته وشاع أمرُهم، فأخذوا الأستاندانة منهم ومُنع الناس من الدخول إلى الهرم، ووُزنت الأستاندانة فكانت أربعة أرطال زجاجًا أبيضَ صافيًا، فأنتبه رجل من أهل المعرفة لها وقال: لم تُعمَل إلاّ لشيء، وملأها ماء ووَزنها فوجد وزْنها وهي ملأى مثل وزْنها فارغة لا تزيد ولا تنقُص فكانت أُعجوبة.

وحُكي أن قومًا دخلوا الهرم ومعهم مَن يريدون يعبثون به، فلمّا همّوا بذلك خرج عليهم غلام أسودُ أمردُ[٥] في يده عصا فأخذ في ضَرْبهم، فخرجوا هاربين وتركوا ما كان معهم من طعام وشراب وبعض ثيابهم.

---

(١) زمزم: أي صوّت من بعيد تصويتًا له دويّ غير واضح.

(٢) يقال: نهسه الكلب والذئب والسبع بالسين المهملة، ونهشته الحية بالشين المعجمة.

(٣) النقار: جمع نقرة بالضم، وهي الوهدة المستديرة في الأرض غير كبيرة.

(٤) الطاق: ما عطف وجعل كالقوس من الأبنية؛ أو الطيلسان.

(٥) الأمرد: الذي طرّ شاربه وبلغ خروج لحيته ولم تبد.

وحُكي أن رجلاً دخل بأمرأة ليفجُر بها فصُرعا جميعًا ولم يزالا مجنونَيْن مشهورَيْن حتى ماتا.

قال: وفي بعض مصاحف القِبْط أن سُورِيد الملك لما أخبره كهَنَته بخبر النار المحرقة وأنها تخرُج من برج الأسَد فتحرق العالَم، عَمِل في الأهرام مَسارِب موجّهة إلى آزاج[١] ضيّقة تجتلب الرياح إلى داخل بصوت هائل. وعمِل فيها مَسارب يدخل منها ماء النيل إلى مكان ينتهي إلى موضع من أرض الغرب وأرض الصعيد، وملأ تلك الأسراب عجائب وطلّسمات وأصنامًا تنطق.

قال: وحَكى بعض القِبْط أن سُوريد لمّا أخبره منجّموه قال: انظروا لبلدنا هذا هل تلحقه آفة[٢]؟ فنظروا فقالوا: يلحقه طوفان ويلحقه خراب يُقيم فيه عدّة سنين وتغلب عليها التنانين[٣]. قال: كيف يكون خرابها؟ قالوا: يقصدها ملك فيقتل أهلها ويَغْنَم مالها ويهدم مصانعَها. قال: ثم ماذا؟ قالوا: ثم تكون عمارتها من قِبله. قال: ثم ماذا؟ قالوا: ثم يقصدها قوم مشوّهون من ناحية مصبّ النيل فيأتون على أكثرها. قال: ثم ماذا؟ قالوا: ثم ينقطع نيلها ويجلو أهلها عنها؛ فأمر أن يكتَب جميع ذلك على الأهرام.

قال: وذكر رجل من أهل الغرب ممن يختلف إلى ألواح ويحمِل الشَّمار[٤] على جمل له أنه بات في بعض الليالي قُرب الهرم فما زال يسمع الضوضاء والعطعطة[٥] فهاله ذلك وتباعد عنه بجمله، وكان يرى حول الهرم شِبْه النيران تأتلِق، فلم يزل مرعوبًا إلى أن سرقته عيناه فنام وأصبح وهو في الموضع الذي جمع منه الشمَّار وشمَاره موضوع بحاله، فتعجّب من ذلك وشدّ شماره على جمله ورجع إلى الفُسطاط[٦] وآلى على نفسه ألاّ يقرُب من الهرم بعد ذلك.

---

(١) آزاج: جمع الأزج، وهو بيت يبنى طولاً.

(٢) الآفة: كل ما يصيب شيئًا فيفسده، من عاهة أو مرض أو قحط.

(٣) التنانين: جمع التنين: وهو حيوان أسطوري يجمع بين الزواحف والطير، ويقال: له مخالب أسد، وأجنحة نسر، وذنب أفعى، ويتخذ في بعض البلاد رمزًا قوميًا.

(٤) الشّمار: هو الرازيانج تعريب رازيانة وهو الأنيسون، وأنواعه ثلاثة: بستاني، وبري وشامي، وهو نبات بزره حرّيف مرّ.

(٥) العطعطة: تتابع الأصوات واختلاطها.

(٦) الفسطاط: بيت يتخذ من الشعر. أو مدينة مصر العتيقة التي بناها عمرو بن العاص في موضع فسطاطه.

قال: والقبط يذكرون أنّ روحانيّة الهرم الغربي في صورة اْمرأة عُرْيانة مكشوفة الفرج حسناء لها ذؤابتان[١]، فإذا أرادت أن تستفزّ الإنْسِيّ ضحكت إليه فاختلسته إلى نفسها فيدنو منها فتستهويه ويزول عقله. قال: وقد رأى جماعة هذه المرأةَ تدور حول الهرم وقت القائلة[٢] وعند غروب الشمس. وروحانيّة الهرم الشرقي غلام أمردُ أصفر عُريان له ذؤابة. قال: وقد رأوه أيضًا يطُوف حوله. وروحانيّة الهرم الملوّن في صورة شيخ يرى عليه بُرْطُلَةً[٣] وفي يده مِجْمرة[٤] من مجامر الكنائس. وهو يبخّر كذلك في جميع الأفروثنات[٥].

* * *

وأمّا روحانيّات البرابِي: فبِرْبا إخميم[٦] روحانيّتها غلام أسود عُرْيان. وروحانيّة بِرْبا قِفْط[٧] في صورة جارية سوداء تحمل صبيًّا أسود صغيرًا. وروحانية بِرْبا دَندرَة[٨] في صورة إنسان رأسه رأس أسَد وله قَرْنان. وروحانية بِربا بُوصِير[٩] في صورة شيخ أبيض عليه زيّ الرهبان ومعه مصحف يحمله. وروحانية بِربا سمنّود[١٠] في صورة شيخ آدم طوال أشيب صغير اللحية. وروحانيّة بِرْبا عديّ في صورة راع عليه كساء ومعه عصا. وهذه البربا في أعمال المُرْتاحيّة[١١] من عمل أشمون طنّاح[١٢] بقرب

(١) الذؤابة من كل شيء: أعلاه، والذؤابة: شعر مقدم الرأس.
(٢) القائلة: الظهيرة؛ أو النوم في الظهيرة.
(٣) البرطلة: المظلة الصيفية، نبطية وقد استعملت في لفظ العرب.
(٤) المجمرة: ما يوضع فيه الجمر مع البخور.
(٥) الأفروثنات: لفظ يوناني معناه القبور.
(٦) إخميم: من البلاد المصرية واقعة على الشاطىء الشرقي للنيل. وكانت إخميم في عهد الفراعنة قاعدة قسم «خمينو» وفي عهد الرومان قاعدة قسم «بانوس» وفي عهد العرب قاعدة كورة الإخميمية واستمرت كذلك إلى آخر حكم دولتي المماليك. وفي العهد العثماني ألغيت الإخميمية وأضيفت بلادها إلى ولاية جرجا وأضحت إخميم إحدى بلاد مركز سوهاج. وفي سنة ١٩٠٣م صدر قرار من الداخلية بفصل البلاد الواقعة شرقي النيل من مركز سوهاج وجعلها مركزًا باسم إخميم وهي قاعدة المركز من تلك السنة إلى اليوم.
(٧) قفط: مدينة بالصعيد الأعلى، اسمها القديم «قوبطى» ومنه اشتق اسم قبطي وأقباط للمصريين.
(٨) سوف يذكرها المؤلف فيما بعد أثناء كلامه على قفطريم بن قبطيم.
(٩) بوصير: هي بوصير سمنود، وكانت قاعدة شهيرة قبل الإسلام.
(١٠) سمنود: مدينة شهيرة بالوجه البحري بمصر.
(١١) المرتاحية: هو اسم أحد الأقاليم المصرية بالوجه البحري في العهد العربي.
(١٢) أشمون طناح: هي من المدن المصرية القديمة واقعة على الشاطىء الشرقي للبحر الصغير الذي كان يسمى بحر أشموم نسبة إلى هذه المدينة.

تلبانة عديّ[١]. قال: ولكلّ من هذه الأهرام والبرابي قرابين وبخُورات تظهر كنوزها وتؤلّف بين الناس والروحانيّين الذين بها.

* * *

ولنرجع إلى أخبار الملوك قال: وأقام سُوريد في الملك مائة سنة وسبع سنين، وقد كان منجّموه عرّفوه الوقت الذي يموت فيه واليوم والساعة، فأوصى إلى ٱبنه هِرجيبْ وعرّفه ما يعمل، وأمره أن يُدخل جسده الهرم، وأن يجعله في الجُرْن الذي أعدّه لنفسه ويغشّيه بكافور[٢]، ويحمل معه ما أعدّه من فاخر الثياب والسلاح والآلات، فٱمتثل جميع ما أمره به.

ولما مات ملك بعده ٱبنه هرْجيب بن سُوريد فسار بسيرة أبيه في العدل والعمارة والرأفة بالناس، فأحبّوه. وبنى الهرم الأوّل من أهرام دَهْشور وحمل إليه من المال والجوهر. وكان غرضه جَمْعَ المال وعَمَل الكِيمياء وٱستخراج المعادن ودفن ما تهيّأ له من الكنوز في كل سنة. وكانت له ٱبنة أفسدَت مع بعض خدمه فنفاها إلى ناحية الغرب، وأمر أن تُبنى لها مدينة هناك ويقام عليها علَم ويُزبَر عليها اسمها، وأسكن معها كل ٱمرأة مسنّة من أهل بيته. قال: وشجّ[٣] رجل رجلاً فأمر بقطع أصابعه، ووجد سارقًا من العامّة فملّك رقّه الذي سرق منه، وعمل منارات ومصانع وطلّسمات، وملكهم نيّفًا وسبعين سنة.

وملك عليهم بعده ٱبنه منْقاوش بن هرجيب وكان جبّارًا أثيمًا فآذى الناس وسفَك الدماء وٱغتصب النساء وٱستخرج كنوز آبائه، وبنى قصورًا بالذهب والفضة وأجرى فيها الأنهار، وجعل حصباءها من صنوف الجواهر، وتخرّق[٤] في الهِبَات وأغفل العمارات فأبغضه الناس، وأباح أصحابَه غَصْبَ نساء العامّة، وأطاف به أهل الشرّ من كل ناحية، وكان يَفْترِع النساء قبل أزواجهنّ، وٱمتنع عليه قوم في شيء أمرهم به فأحرقهم بالنار، وسلّط رجلاً من الجبّارين ٱسمه قرناس من ولد ورادِيس بن آدم على الناس ووجّهه لمحاربة الأم الغربية فقتل منهم أممًا. وكان أشجع أهل زمانه ثم هلك، فٱغتمّ عليه الملك وأمر أن يدفَن مع الملوك في الهرم. ويقال: بل عمِل له ناوُوسًا وأقام

---

(١) تلبانة عديّ: بلد بمركز المنصورة بمديرية الدقهلية.

(٢) الكافور: شجر من الفصيلة الغارية يتخذ منه مادة شفافة بلورية الشكل يميل لونها إلى البياض، رائحتها عطرية وطعمها مرّ، وهو أصناف كثيرة، جمع كوافير.

(٣) سجّة: أي شق جلد رأسه أو وجهه. (٤) تخرق في الهبات: توسع فيها.

عنده أعلامًا وزبرَ عليها اسمه وما عمله في وقته. وملك مِنقاوش ثلاثًا وسبعين سنة ومات، فجُعل في الهرم مع أجداده في حوض مرمر[١] مصفّح بالذهب والجوهر، وحُمِل معه كثير من ذخائره وأمواله وسلاحه وعجائبه.

وملك بعد ابنه أقروش بن منقاوش، وكان عاقلاً فخالف آثار أبيه وعدل في الناس وردّ النساء اللاّتي غصبهنّ منقاوش إلى أهلهنّ. وعَمِل في وقته فوّارة[٢] قُطرها مائة ذراع وطُولها خمسون ذراعًا، وركّب في جميع جوانبها أطيارًا تَصفِر بأصناف اللغات المطربة لا تفتُر. وعَمِل في وسط المدينة منارتين من صُفْر عليهما صورة رأس إنسان من صُفْر كلّما مضت ساعةٌ من النهار صاح ذلك الرأس صياحًا عاليًا، وكذلك الليل، فيعلَم به دخول الساعات، وجعل فيه علامة لكلّ ساعة تَمضِي تُعرف بها عِدّتها. وعَمِل منارًا آخر وجعل على رأسه قبّة صُفْر مُذهَب ولَطَخها بلَطُوخات، فإذا غرَبت الشمس اشتعلت تلك القبّة نارًا يُضيء بها أكثر المدينة لا تُطفئها الأمطارُ ولا الرِّياح، فإذا كان النهار قلّ ضوءها بضوء الشمس. ويقال: إنه أهدى الدرمسيل بن محويل الملك ببابِلَ مائدة من الزبرجد قُطْرها خمسة أشبار، وكان استهداه ذلك ليجعلها في بيت القُربان. ويقال إنها وُجدت بعد الطوفان. ويقال أيضًا: إنه عَمِل على الجبل الشرقيّ صنمًا عظيمًا قائمًا على قاعدة وهو مصبوغ بلَطوخ[٣] أصفر مصوّر بالذهب ووجّهه إلى الشمس يدُور معها حتى تغرُب، ثم يدُور ليلاً إلى الناحية الجنوبيّة حتى يحاذي الشمس مع الصبح، فلم يزل إلى أن سقط في أيام فرغان الملك فتهشم[٤]. وكان نصبه تعظيمًا للشمس. ويقال: إن أقروش كان يطلب الولد فنكح ثلاثمائة امرأة يبتغي الولد منهنّ فلم يكن ذلك. وقيل: إنّ في عصره عَقَمت الأرحام لما أراد الله عزّ وجلّ من هَلاك العالَم بالطوفان، وعَقَمت أرحام البهائم ووقع الموت فيها. وقيل: إن الأُسْد كثُرت في وقته حتى كانت تتخلّل[٥] البيوت، فاحتالوا لها بالطِّلّسمات المانعة والحِيَل المضرّة لها، فكانت تغيب وقتًا وتعود، فرفعوا ذلك إلى الملك فقال: هذه علامة مكروهة، وأمر أن تُعمَل أخاديد[٦] وتُملأ نارًا واجترُوا إليها

(١) المرمر: صخر رخامي جيري متحول يتركب من بلورات الكلسيت، يستعمل للزينة في البناء، ولصنع التماثيل ونحوها.

(٢) الفوارة من الماء: منبعه.

(٣) اللطوخ: ما يلطخ بالشيء ويغيّر لونه.

(٤) تهشم الصنم: تكسر.

(٥) تتخلل البيوت: تمضي فيها وتمشي خلالها.

(٦) الأخاديد: واحدها أخدود، وهو الشقّ المستطيل في الأرض.

الأُسْد بالدُّخَن التي تجلب رُوحانيتها وألقوها على تلك النِّيران، فاْجتلبتها تلك الدخن فتهافتت في تلك النيران فاْحترقت. وبَنَى في وقته مدائن في ناحية الغرب تَلِفت بالطوفان مع أكثر مُدُنهم.

قال: واْرتفعت الأمطار عنهم وقلّ الماء في النيل فأجدبوا، وهلك الزرع بالنار والريح الحارّة وغيرها، فأضرّ ذلك بهم، فاْحتالوا لدفع النار بطِلَّسماتهم فكانت تذهب وتعود. وقيل: إنّ الذي فعل بهم ذلك ساحر من سَحَرتهم كان منقاوش غصبه اْمرأته فكان يعمل الحيلة قليلاً قليلاً في إفساد طِلَّسماتهم؛ لأن لكل طلسم شيء تبطل به روحانيته. وبهذه العلّة دخل بختنصّر الفارسيّ مصر وقد كانت ممتنعة من جميع الملوك. فلمّا أفسد ذلك الساحر الطلّسمات، سلّط عليهم تلك الآفات وأفسد طلّسمات التماسيح فهاجت عليهم ومنعتهم الماء وعذّبهم عذابًا كبيرًا إلى أن فطنوا به من قِبَل تلاميذه؛ وذلك أن أحدهم لامه على فِعْله فانتهره ونفخ في وجهه فأظلم عليه بصرُه، فجاء إلى وزير الملك وعرّفه القصّة فأنهاها إلى الملك، فأمر الملك بإدخاله عليه فأُدخل، فسأله عن الخبر فعرّفه بفعل الساحر، فأنفذ إليه جيشًا ليأتوه به، فلمّا نظر الساحر إلى القوم وقد أقبلوا دخّن دُخْنة أغشتْ أبصارَهم واْرتفعت منها عَجاجةُ[1] نارٍ أحرقَت وحالت بينه وبينهم، فهالهم ذلك، فرجعوا إلى الملك وعرّفوه ما جرى فأمر بجمع السحَرة، وكان من رَسْم السحَرة أن يعاهدوا ملوكهم على أن يكونوا معهم ولا يخالفونهم ولا ينالهم منهم مكروه ولا يبغُونهم الغوائلَ[2]، فمن فعل ذلك سُلِب علمُه، وكان للملك أن يسفِك دمَه ودمَ أهل بيته وولده، وكانوا مع الملوك على هذه الحال يُوفُون بعهودهم. فلمّا اجتمع السحَرة عند الملك أخبرهم خبر الساحر، وكان يقال له: أخْتاليس، وبما عمِله وقال: تُحضرونه إليّ وإلاّ أهلكتكم؛ فسألوه النَّظِرَة[3] فأنظرَهم، فأخذوا أولادهم ونساءهم وخرجوا هاربين، فلمّا خرجوا عنه تكلّموا بينهم وقالوا: إنكم لتعرفون كثرة عِلْم أختاليس وشدّةَ سِحْره، وما نرى لنا به طاقةً، ومنقاوش الملك الذي نقَض عهده وتعدّى عليه وأخذ اْمرأته غَصْبًا، فاْحتالوا لخلاصكم منه؛ فأجمعوا أنهم يَصدُقون الملك عن أنفسهم، ويستأذنونه في الذهاب إليه ومداراته حتى يأتوه به بعد أن يأخذوا له أمانًا منه ويجدّد العهد بينه وبينه. فمضَوْا إلى الملك وصدَقوه عن أنفسهم، فأجابهم إلى ما سألوه من ذلك، ثم مضَوْا إلى أختاليس فلطَفُوا به ووعَظُوه إلى أن أجابهم إلى ما أرادوا، فكتبوا إلى الملك بذلك،

---

(١) عجاجة النار: دخانها.

(٢) الغوائل: واحدتها الغائلة، وهي الداهية؛ أو الفساد والشر.

(٣) النَظِرة: التأخير والإمهال في الأمر.

فكتب للساحر أمانًا وعهدًا، فرجع ورُدّت إليه ٱمرأته، فأكرمها وردّها إلى دار الملك، وعرّفهم أنه لا يرى في ذمّته أن يلابس ٱمرأة لابَسها الملك على حال من الأحوال لمَا كانوا يراعونه من حقوق الملك، فسُرّ الناس بذلك وعجبوا من عقله وحكمته، وصَلُح أمر الناس، وعمل أختاليس طِلّسمات وعجائب كثيرة. قال: ومَلَكهم أقروش أربعًا وستين سنة، وهلك وليس له ولد ولا أخ، فدُفن في الهرم وجُعلت معه أمواله وذخائره وجواهره والصنائع التي عُمِلت في وقته، وٱجتمع الناس على تمليك رجل من أهل بيت الملك.

فملّكوا عليهم أرمالينوس، فلمّا ملك أمر بجمع الناس وقال: أرى الأمم الغربية قد تطرّقت إليكم في نواحيكم، ويُوشِك أن تسير إليكم، وأنا مانع لبلادكم ودمائكم منهم بغزوهم والخروج إليهم وتحويلكم إياهم، وأحتاج إلى معونة من حكمائكم بالأعمال الهائلة والتخاييل العجيبة، فشكروه ودعَوْا له بالتوفيق. وقالت الحكماء: نحن نخرج مع الملك إذا خرج ونبلغ له مجابه[١] أو يقيم ونحن نخرُج مع الجيش مكانه ونبذُل أنفسنا دُونه. فٱمتنع من ذلك وخرج في جيش عظيم وحارب تلك الأمم ونكأ[٢] فيها أعظم نكاية، ورجع غانمًا وخلّف في وجوههم جيشًا، فٱجتمعت تلك الأمم فهزمت جيشه ورجع أصحابه مغلوبين فعظُم ذلك عليه. وكانت أصابته علّة من تغيّر الهواء فأنفذ ابن عمّ له يقال له فِرْعان بن مِسْوَر، وكان أحد الجبابرة الذين لا يطاقون، وهو أوّل فرعون تسمّى بهذا الاسم ومن سُمّي بعده سُمّي تشبيهًا به؛ فأنفذه الملك أرمالينوس في جيش عظيم فأجلى تلك الأمم ونفاها إلى أطراف البحر، وعاد ومعه خلق كثير من الأسرى والرؤوس، فأمر الملك بنصب تلك الرؤوس حول مدينته وقتل جميع الأسرى. وكان منهم كاهن فأمر الملك أن يُوشَر[٣] بمنشار، وهو أوّل من فعل ذلك، فأعلم[٤] الملكُ فرعانَ وألبسه خِلَعًا منظومةً بالجوهر، وأمر بأن يطاف به ويذكَر فضلُه، وأمر له ببعض قصوره.

وٱتفق أن ٱمرأة من نساء الملك عشقته وراسلته فٱمتنع فِرْعان من ذلك وفاءً للملك، ولأنّ التحظّي إلى نساء الملوك كان من الأمور العظيمة عندهم. فلمّا طال ذلك عليها أحضرَتْ ساحرةً ولاطفَتْها وذكرت لها حالها ووجْدَها بفِرْعان، فضمِنت لها بلوغ مأربها منه وسحَرتْه لها، فٱهتاج إليها وندم على ردّها وجعل يدسّ إليها إلى أن ٱجتمعت معه، وتمكّن حبّ كلّ واحد منهما من صاحبه، إلى أن ذاكرتْه أمرَ الملك

---

(١) الحاب: ما يقع حول الهدف ولا يصيبه. (٢) نكأ فيهم: أي قتل فيهم وجرح وأثخن.
(٣) يقال: وشر الخشبة بالمنشار إذا نشرها. (٤) أعلمه: وسمه بسيماء الحرب.

وأنها لا تأمن أن يتّصل به خبرهما وقالت: أنا أعمل الحيلة في قتله وتكون أنت الملكَ وأكون لك ونأمن على أنفسنا. فمن شدّة ما عنده من حبّها حسّن لها ذلك، فسمّت الملكَ في شرابه فمات لوقته وحُمل إلى الهرم.

وملك بعده فِرْعان بن مِسْوَر وجلس على سرير المُلْك فلم ينازعه أحد، وفرح الناس بمكانته لشجاعته. وهو الذي كان الطوفان في وقته. قال: ولمّا ملك علا في الأرض وتجبّر واْغتصب الناسَ أموالهم وأنفسَهم ونساءهم، وعمل ما لم يعمله ملك قبلَه؛ وأسرف في القتل وهابته الملوك وأقرّوا له. وهو الذي كتب إلى الدرمسيل ملك بابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام. وذلك أن الدرمسيل بن مَحْوِيل كتب إلى الأقاليم يسألهم: هل يعرفون آلهة غير الأصنام؟ ويذكر قصّة نوح وأنه يريد تغيير ذلك، وأن له إلٰهًا غيرها، فكلٌّ أنكر ذلك. ولمّا أخذ نوح في بناء السفينة كتب فرعان إلى الدرمسيل يشير عليه بإحراقها، وكان عند أهل مصر خبر الطوفان ولكنهم لم يُقدِروا كثرتَه وطولَ مقامه على الأرض، فاْتّخذوا السراديب تحت الأرض وصفّحوها بالزجاج وحبسوا فيها الرياح بتدبيرهم، واْتخذ فرعان منها عدّة له ولأهل بيته. وكان فرعان قد أقصى الكهّان وباعدهم، وكانوا مع الملوك على خلاف ذلك. ولنصل هذا الخبر بخبر الكُهّان وما كانوا عليه.

ذكر خبر كُهّان مصر وحالهم مع الملوك

قال: وكُهّان مصر أعظم الكهان علمًا، وأجلّهم في الكَهانة حديثًا. وكان حكماء اليونان يصفونهم بذلك، ويشهدون لهم به ويقولون: أخبرنا حكماء مصر بذلك فاْستفدناه منهم. وكانوا يَنْحون في كهانتهم نحو الكواكب، ويزعمون أنها هي التي تُفيض عليهم العلوم وتُخبرهم بالغيوب، وهي التي علّمتهم أسرار الطبائع، ودلّتهم على العلوم المكنونة؛ فعملوا الطلّسمات المشهورة، والنواميس الجليلة، وولّدوا الولادات الناطقة، والصوَر المتحرّكة؛ وبنَوْا العاليَ من البنيان، وزَبَروا علومهم في الصلب من الصَّوّان، واْنفردوا بعمل البرابي، ومنعوا بها الأعداء من بلدهم، وعجائبهم ظاهرة. وكان الذي يتعبّد منهم الكواكب السبعة المدبّرة، لكلّ كوكب سبع سنين، فإذا بلغ هذه الرتبة سُمّي قاطِرًا[1]، وكان يجلس مع الملكْ في المرتبة ويصدُر الملك عن رأيه، وإذا رآه قام له.

---

(١) القاطر: أي جامع العلوم، وهو الذي يعبد الكواكب السبعة لكل كوكب سبع سنين، كما سبق أن ذكره المؤلف.

وكان من رَسْمهم في كل يوم أن يدخل القاطر إلى الملك فيجلس إلى جانبه، ويدخل الكهنة ومعهم أصحاب الصناعات فيقفوا حذاء[١] القاطر، وكلّ واحد من الكهنة منفردٌ بكوكب يخدمه لا يتعدّاه إلى سِواه، ويُسمَّى عبدَ كوكبِ كذا، كما كانت العرب تُسمِّي عبد شمس، فيقول القاطر للكاهن: أين صاحبك؟ فيقول: في البُرْج الفلاني في الدرجة الفلانية في دقيقة كذا، ويسأل الآخر حتى إذا عرف مستقرّ الكواكب قال للملك: ينبغي لك أن تعملَ اليوم كذا، وتَضعَ بنيان كذا، وتوجّه جيشًا إلى ناحية كذا، وتُجامع في وقت كذا، وتأكل في وقت كذا، وجميع ما يراه صَلاحًا له في أموره كلّها؛ والكاتب قائمٌ يكتب جميع ما يقوله القاطر، ثم يلتفت إلى أهل الصناعات فيقول: انقُشْ أنت صورة كذا على حجر كذا، واْغرِسْ أنت كذا، واْصنَعْ أنت كذا، حتى يمرّ على أهل الصناعات؛ فيخرجون إلى دار الحكمة ويضَعون أيديَهم في تلك الأعمال، ويستعمِل الملك جميع ما يأمره القاطر. ويُشرَح ذلك اليوم في الصحيفة وتُطوَى وتُودَع في خِزانة الملك، فعلى ذلك كانت تجري أمورهم.

وكان الملك إذا نابَهُ[٢] أمرٌ جمعهم واْصطفّ الناسُ لهم في شارع المدينة، ثم يدخلون رُكباناً يقدُم بعضهم بعضًا، ويُضرب بين أيديهم بطبل الاجتماع، فيدخُل كلّ واحد منهم بأُعجوبة: فمنهم مَن يعلو وجهَه نورٌ كنور الشمس فلا يقدِر أحدٌ على النظر إليه، ومنهم مَن يكون عليه بَدَنةٌ[٣] جوهر أخضر أو أحمر أو من ذهب منسوج. ومنهم مَن يدخل راكبًا أسدًا متوشّحًا بحيّات عِظام. ومنهم مَن تكون عليه قبّة من نور أو من جوهر في صنوف من العجائب كثيرة. ويصنع كلّ واحد منهم ما يدلّه عليه كوكبُه الذي يعبدُه؛ فإذا دخلوا على الملك قالوا: أرادنا الملك لأمر كذا وقد علِمنا، أو أضمر الملك كذا والصواب فيه كذا. فكانوا مع ملوكهم على هذه الحال حتى ملك فِرْعان فأبعدهم. وكان فليمونُ رئيسَ الكهّان، فرأى فيما يرى النائم كأنّ مدينة أمسوس قد اْنقلبت بأهلها، وكأنّ الأصنام تهوِي على رؤوسها، وكأنّ ناسًا ينزلون من السماء معهم مَقامع[٤] فيضربون الناس بها، وكأنه قد تعلّق بأحدهم وقال له: ما لكم تفعلون بالخَلْق هذا! أما ترحمونهم؟ فقال: لأنهم كفَروا بإلٰههم. قال: أفما لهم من خلاص؟ قالوا: نعم، مَن أراد الخَلاص فليَلْحَق بصاحب السفينة، فاْنتبه وهو يخاطبه، فبقِيَ

---

(١) حذاء الشيء: ما يحاذيه؛ وحذاء القاطر، أي إزاءه.
(٢) نابه أمر: أي أصابه ونزل به.
(٣) البدنة البقيرة، هي قميص لا كمين له تلبسه النساء.
(٤) المقامع: جمع المقمعة، وهي خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه ليذلّ ويهان.

مرعوبًا مما رآه. وكان له ٱمرأة وولدان ذكر وأنثى ومعه تلاميذه، فأجمع على أن يَلْحَق بنوح عليه السلام، ثم نام أيضًا فرأى كأنه في رَوْضة خضراء، وكأنّ فيها طيورًا بيضاء تفُوح منها رائحة طيّبة، وكأنه تعجّب من حُسنها إذ تكلّم بعض الطيور فقال لأصحابه: سيروا بنا نُنْجِ المؤمنين. قال له فليمون: ومَن هؤلاء المؤمنون؟ قال: أصحاب السفينة. فٱنتبه مرعوبًا وأخبر أهله وتلاميذَه بذلك ثم نام.

فلمّا كان الغدُ أتى الملكَ فقال: إن رأى الملك أن يُنْفِذَني إلى درمسيل لأعرف حالَ هذا الرجل الذي عمل السفينة فأشاهده وأناظره على ما جاء به من هذا الدِّين الذي أظهره وأتبيّن حقيقة أمره فليفعل؛ فإني أرجو أن يكون ذلك سببًا لهلاكه ودفعه عما يدّعيه، فأعجب الملك ذلك منه وأذن له في الخروج، فسار بأهله وولده وتلاميذه حتى ٱنتهَوْا إلى أرض بابل وقصد نوحًا وسأله أن يشرح له دينه ففعل ذلك، فآمن به وجميعُ مَن معه، فقال نوح عليه السلام: من أراد اللّهُ عزّ وجل به الخيرَ لم يَصدُفْه[١] أحد عنه. فلم يزل فليمون مع نوح عليه السلام يخدمه هو وولده وتلاميذه إلى أن ركبوا السفينة.

وأمّا فِرْعان الملك فإنه أقام مُنهمكًا في ضلاله وظُلمه، مقبلاً على لَهْوه، وٱستخفّ بالكَهَنة والهياكل، وضاقت الدنيا بأهلها، وكثُر الهَرْج[٢] والظلم، وفسَدت الزروعِ، وأجدبت النواحي، وظلَم الناسُ بعضهم بعضًا، ولم يكن أحدٌ ينكر ذلك عليهم، وسُدّت الهياكل والبرابي، وطُيِّنت أبوابها، وجاءهم الطوفان. وأقبل المطر عليهم، وكان فِرْعان سكران فلم يقُم إلاّ بخرير الماء، فوثب مُبادرًا يريد الهرب إلى الهرم فتخلخلتِ الأرض به، وطلب الأبواب فخانته رجلاه وسقط على وجهه وجعل يخُور كما يخُور الثور، إلى أن أهلكه الله تعالى بالطوفان، ومَن دخل الأسراب منهم هلك بغَمّها[٣]، ولحق الماءُ من الأرض والأهرام إلى آخر التربيع، وهو ظاهر عليها إلى الآن، وٱنقرضت ملوك الدنيا أجمع بالطوفان ولم يسلم إلا أصحاب السفينة كما تقدّم. فعدّة مَن سُمّي لنا من ملوك مصر قبل الطوفان على هذا السِّياق تسعة عشر ملكًا، ثم ملكها بعد الطوفان مَن نذكره.

---

(١) لم يصدفه أحد عنه: لم يصرفه. (٢) الهرج: الفتنة والاختلاط.
(٣) غمّ السرب: أي اشتداد الحرّ فيه حتى ليكاد يأخذ بالنّفس.

ذكر مَن ملك مصر بعد الطوفان من الملوك

قال إبراهيم بن القاسم الكاتب: قال إبراهيم بن وَصِيف شاه: أجمع أهل الأثر أنّ أوّل مَن ملك مصر بعد الطوفان مصْرِيم بن بَيْصر بن حام بن نوح عليه السلام، وذلك بدعوة سبقت له من جدّه. وكان السبب في ذلك أنّ فليمون الكاهن سأل نوحًا عليه السلام أن يخلطه بأهله وولده وقال: يا نبيّ الله، إني قصدتك رغبةً في الإيمان بالله سبحانه وتعالى وتصديقك يا نبيّ الله، وتركت وطني وبلدي فاْجعل لي رفعةً وقدرًا أذكَر بهما من بعدي، فزوّجَ نوحٌ عليه السلام بَيْصرَ بن حام بنتَ فليمون لكاهن فولدت له ولدًا سمّاه فليمون مصريم باسم بلده، فلمّا أراد نوح قسمة الأرض بين بنيه قال له فليمون: ابعث معي يا نبيّ الله ابني حتى أمضِي به إلى بلدي وأُظهره على كنوزه وأُوقفه على علومه ورموزه، فأنفذه معه في جماعة من أهل بيته، وكان غلامًا مراهقًا، فلمّا قرُب من مصر بنى له عَرِيشًا من أغصان الشجر وستره بحشيش الأرض، ثم بنَى له بعد ذلك في الموضع مدينة وسمّاها دَرْسان[١]، أي باب الجنة؛ فزرعوا وغرسوا الأشجار والأجنّة[٢] من درسان إلى البحر. فصارت هناك زروع وأجنّة وعمارة وكان الذين مع مِصْريم جبابرة؛ فقطعوا الصخور وبنوا المعالم والمصانع وأقاموا في أرغد عَيْش.

ونكح مصريم امرأة من بنات الكَهَنة فولدت له ولدًا سمّاه قبطيم، ونكح قُبْطيم بعد سبعين سنة من عمره امرأة ولدت له أربعة نفر، وهم: قُفْطَريم، وأشمون، وأتريب، وصا، وكثروا وعمّروا الأرض وبُورك لهم فيها. وقيل: كان عدد مَن وصل مع مصريم ثلاثين نفرًا فبنَوْا مدينة سمَّوْها مافَهْ، ومعنى مافَهْ ثلاثون بلغتهم، وهي مَنف[٣]؛ وكشف أصحاب فليمون عن كنوز مصر وعلّموهم خطّ البرابي، وأثاروا لهم المعادن من الذهب والزبرجَد والفَيْروزَج[٤] والأسباد شم[٥] وغير ذلك، ووصفوا لهم

---

(١) درسان: هي مدينة العريش.

(٢) الأجنّة: قد يراد بها النخيل أو النبات الكثيف الملتف، أو العشب.

(٣) منف: بالفتح ثم السكون وفاء: اسم مدينة فرعون بمصر، قال القضاعي: أصلها بلغة القبط مافة فعربت فقيل منف... وقيل: هي أول مدينة عمرت بعد أن أغرق الله تعالى قوم نوح.. وآثار هذه المدينة وحجارة قصورها كانت ظاهرة في عصر ياقوت الحموي، وبين منف وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وبينها وبين عين شمس ستة فراسخ، وقيل إنه كان فيها أربعة أنهار يختلط ماؤها في موضع سرير فرعون... (معجم البلدان).

(٤) الفيروزج: حجر كريم غير شفاف معروف بلونه الأزرق كلون السماء أو أميل إلى الخضرة، يتحلى به.

(٥) الاسبادشمّ: نوع من الجواهر تتخذ منه النصول وغيرها.

عمل الصنعة، فجعل الملك أمرها إلى رجل من أهل بيته يقال له مقيطام، فكان يعمل الكيمياء في الجبل الشرقيّ فسُمّيَ به المُقطّم[١]، وعلّموهم أيضًا عمل الطّلّسمات. وكانت تخرُج من البحر دوابّ تفسد زرعهم وأجنّتهم وبنيانهم فعملوا لها الطّلّسمات فغابت ولم تعُد. وبنَوْا على عَبْر البحر مُدُنًا منها: رَقُودة مكان الإسكندرية، وجعلوا في وسطها قبّة على أساطين من نُحاس مُذهَب والقبّة مُذهَّبة، ونصبوا فوقها مرآة من أخلاط شتّى قُطْرها خمسة أشبار؛ وكان ٱرتفاع القبّة مائة ذراع؛ فكانوا إذا قصدهم قاصد من الأمم التي حولهم، فإن كان مما يهمّهم أو من البحر عملوا لتلك المرآة عملاً فألقت شُعاعها على ذلك الشيء فأحرقته؛ فلم تزل على حالها إلى أن غلب عليها البحر فنسفها. وقيل: إن الإسكندر إنما عمل المنارة تشبّهًا بها. وقد ذكرنا خبر المنارة فيما تقدّم من كتابنا هذا.

وقال: لما حضرت مِصْريم الوفاة عهد إلى ٱبنه قُبْطيم بن مصريم؛ فقسم قبطيم مصر بين بنيه الأربعة: فجعل لابنهِ قُفْطَريم من قِفْط إلى أُسوان إلى النُّوبة، ولأُشمون من أشمون إلى مَنْف، ولأَتْريب الحَوْف كلّه إلى الشجرتين إلى أيلة[٢] من الحجاز، ولِصَا من ناحية صَا البحيرة إلى قُرْب بَرْقة[٣]؛ وقال لأخيه فارق: لك من برقة إلى المغرب، فهو صاحب إفريقية. وولده الأفارق. وأمر كل واحد من بنيه أن يبني لنفسه

---

(١) المقطّم: بضم أوله، وفتح ثانيه، وتشديد الطاء المهملة وفتحها، وميم: وهو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة، وهو جبل يمتد من أسوان وبلاد الحبشة على شاطىء النيل الشرقي حتى يكون منقطعه طرف القاهرة ويسمى في كل موضع باسم وعليه مساجد وصوامع للنصارى لكنه لا نبت فيه ولا ماء غير عين صغيرة تنزّ في دير للنصارى بالصعيد. . . (معجم البلدان).

(٢) أيلة: بالفتح: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام؛ وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام. . قال أبو زيد: أيلة مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير، وهي مدينة لليهود الذين حرّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا فمسخوا قردة وخنازير؛ وقال أبو المنذر: سميت بأيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام؛ وقال أبو عبيدة: أيلة مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطىء بحر القلزم تعد في بلاد الشام. . (معجم ياقوت).

(٣) برقة: بفتح أوله والقاف: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية، واسم مدينتها انطابلس وتفسيره الخمس مدن؛ قال بطليموس: طول مدينة برقة ثلاث وستون درجة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وعشر دقائق تحت تسع درجات من السرطان وست وخمسون دقيقة يقابلها مثلها من الجدي. . . وفي برقة قبر رويفع صاحب النبي ﷺ؛ وأهلها يشربون من ماء السماء يجري في أودية ويفيض إلى برك بناها لهم الملوك، ولها آبار يرتفق بها الناس، ولها ساحل يقال له أجية. . . (معجم ياقوت).

مدينة في موضعه. وأمر مصريمُ عند موته أن يحفروا له في الأرض سَرَبًا وأن يفرشوه بالمرمر الأبيض ويجعلوا فيه جسده، ويدفنوا معه جميع ما في خزائنه من الذهب والجوهر، ويَزبروا عليه أسماء الله تعالى المانعةَ من أخذه. فحفروا له سربًا طوله مائة وخمسون ذراعًا، وجعلوا في وسَطه مجلسًا مصفّحًا بصفائح الذهب، وجعلوا له أربعة أبواب، على كل باب منها تمثال من ذهب عليه تاج مرصّع بالجوهر، جالس على كرسيّ من ذهب قوائمه من زَبرجَد، وزبروا في صدر كل تمثال آيات عظامًا مانعة، وجعلوا جسده في جُرْن من المرمر مُصفَّح بالذهب وَزَبَرُوا على مجلسه: مات مصريم بن بيصر بن حام بعد سبعمائة عام مضت من أيام الطوفان، ومات ولم يعبد الأصنام، إذ لا هرَم ولا سَقام، ولا حُزْن ولا اهتمام، وحصنه بأسماء الله العظام، لا يصل إليه إلا ملك ولدته سبعة ملوك يَدين بدين الملك الديّان، ويؤمن بالبعث[1] والفُرقان[2]، الداعي إلى الإيمان في آخر الزمان. وجعلوا معه في ذلك المجلس ألف قطعة من الزبرجَد المخروط، وألفَ تمثال من الجوهر النفيس، وألفَ بَرْنيّة مملوءة من الدرّ الفاخر والصَّنْعة الإلٰهية، والعقاقير البرّيّة، والطلّسمات العجيبة، وسبائك الذهب مكدّسةً بعضها على بعض، وسقّفوا ذلك بالصخور العظام وهالوا فوقها الرمال بين جبلين.

واستقلّ قبْطيم بالملك بعد أبيه.

ويقال: إنّ قِبْط مصر منسوبون إليه. وهو أوّل من عمل العجائب وأثار المعادن، وشقّ الأنهار. ويقال: إنه لحق البلبلة[3] وخرج منهم بهذه اللغة القِبْطية، وعمِل ما لم يعمله أبوه من نَصْب الأعلام والمنارات والعجائب والطلّسمات. ومَلَكهم قبطيم أربعمائة وثمانين سنة ومات؛ فاغتمّ عليه بنوه وأهله ودُفن في الشرق في سَرَب تحت الجبل الكبير الداخل، وصَفّحوه بالمرمر الملوّن وجعلت فيه منافذ للرِّياح؛ فهي تتخرّق فيه بدويّ عظيم هائل، وجُعل فيه من الكبريت الأحمر وأُكَر[4] من نحاس مطليّة بأدوية مُشعِلة لا تُطفأ، ولطّخوا جسده بالمرّ والكافور والمُومِيا[5]، وجعلوه في

(١) البعث: النشر، ويوم البعث يوم القيامة.

(٢) الفرقان: كل ما فرق بين الحق والباطل؛ وهو القرآن أيضًا.

(٣) البلبلة: اختلاط الألسن.

(٤) الأكر: جمع الأكرة، وهي الكرة.

(٥) موميا: لفظ يوناني معناه حافظ الأجساد وهو ماء أسود كالقار يقطر من سقف غور من بلد بأعمال إصطخر بفارس فيجمد قطعًا تستخرج يوم نزول الميزان بإذن الملك وأول ما عرفت هذه ثم وجد بساحل البحر الغربي من أعمال قرطبة وجبال المصمودة ما يشاكلها... وأجود الموميا البراق الشديد البياض الطيبة الرائحة تبقى قوتها أربعين سنة... (تذكرة داود الأنطاكي ص٣٢٥).

جُرْن من ذهب في ثياب منسوجة بالمَرجان[١] والدرّ، وكشفوا عن وجهه وجعلوه تحت قبّة ملوّنة، في وَسَطها درّة معلّقة تُضيء كالسراج، والقبّة على أعمدة بين كلّ عمودين تمثالٌ في يده أُعجوبة، وجعلوا حول الجُرْن توابيتَ مملوءة جوهرًا وذهبًا وتماثيل وصَنْعة وغيرَ ذلك، وحول ذلك مصاحف القِبْط والحكمة، وسدّوا عليه بالصخور والرّصاص وزَبَروا عليه كما زَبَروا على ناووس أبيه.

وملك بعده ابنه قُفْطريم بن قُبْطيم؛ وكان أكبرَ ولد أبيه؛ وكان جبّارًا عظيم الخَلْق، وهو الذي وضع أساسات الأهرام الدَّهْشوريّة وغيرها ليعمل منها كما عمل الأوّلون، وهو الذي بنى دَنْدَرة ومدينة الأصنام. ودَنْدَرة: بلد من بلاد إقليم قوص، وهي في البرّ الغربيّ مشهورة هناك. قال: وأثار من المعادن ما لم يُثِره غيره، وكان يجرّ من الذهب مثلَ حَجَر الرحى[٢]، ومن الزَّبرجَد كالأُسطوانة، ومن الأسباد شم في صحراء الغَرْب كالقلّة[٣]. وعمِل من العجائب شيئًا كثيرًا. وبَنى منارًا عاليًا على جبل قِفْط يُرى من البحر الشرقيّ، ووجَد هناك مَعدن زئبق فعمل منه بركة كبيرة، فيقال إنها هناك إلى الآن؛ وأما المنار فسقط. وعمل عجائب كثيرة. ويقال: إنه بنى المدائن الداخلة وعمل فيها عجائب كثيرة، منها: الماء الملفوف القائم كالعمود لا ينحلّ ولا يذوب، والبركة التي تسمّى فلسطين، أي صيّادة الطير، إذا مرّ عليها الطير سقط فيها ولم يمكنه أن يبرح حتى يؤخَذ. وعمل أيضًا عمودًا من نحاس عليه صورة طائر إذا قرُبت الأُسْد والحيّات والأشياء المضرّة من تلك المدينة صفر صفيرًا عاليًا فترجع تلك الدوابّ هاربة. وكان على أربعة أبواب هذه المدينة أربعةُ أصنام من نحاس لا يقرُب منها غريب إلاّ ألقى عليه النوم والسُّبات، فينام عندها ولا يستيقظ حتى يأتيه أهل المدينة وينفخون في وجهه فيقوم، وإن لم يفعلوا ذلك لم يزل نائمًا عند الأصنام حتى يهلك. وعمِل منارًا لطيفًا من زجاج ملوّن على قاعدة من نحاس، وعلى رأس المنارة صورة صنم من أخلاط كثيرة، وفي يده كالقوس كأنه يرمي عنها، فإن عاينه غريب وقف في موضعه لم يبرح حتى يُنجِيَه أهل المدينة. وكان ذلك الصنم يتوجّه إلى مهبّ الرياح الأربع من نفسه.

(١) المرجان: جنس حيوانات بحرية ثوابت، لها هيكل وكلس أحمر يعد من الأحجار الكريمة، ويكثر المرجان في البحر الأحمر.

(٢) الرحى: الأداة التي يطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب.

(٣) القلّة: إناء من الفخار يشرب منها.

قال وقيل: إن هذا الصنم على حالته إلى الآن، وإنّ الناس تحامَوْا تلك المدينة على كثرة ما فيها من الكنوز والعجائب الظاهرة خوفًا من ذلك الصنم أن تقع عين الإنسان عليه فلا يزال قائمًا حتى يتلف. قال: وكان بعض الملوك عمِل على قلعه فما أمكنه، وهلك لذلك خلق كثير. ويقال: إنه عَمِل في بعض المدن الداخلة مرآة من أخلاط ترى جميع ما يسأل الإنسان عنه وهي غربيّ البلد. قال: وعمِل خلف الواحات الداخلة مُدُنًا عمِل فيها عجائب كثيرة ووكّل بها الروحانيّين الذين يمنعون منها؛ فما يستطيع أحد أن يدنو منها ولا يدخلها أو يعملَ قرابين أولئك الروحانيين فيصل إليها حينئذ ويأخذ من كنوزها ما أحبّ من غير مشقّة ولا ضرر. قال: وأقام قفطريم ملكًا أربعمائة سنة. وأكثر العجائب عُملت في وقته ووقت أبنه البودَسِير. وكان الصعيد أكثرَ عجائب من أسفل الأرض. قال: وفي آخر أيام قفطريم هلكت عاد بالريح العقيم.

ولمّا حضرت قفطريم الوفاةُ عُمِل له ناووس من الجبل الغربيّ قرب مدينة الكَهَنة، كان عمله لنفسه قبل موته في سَرَب في الجبل كهيئة الدار الواسعة وجعل دورها خزائن منقورة، وجعل في سقوفها مسارب للرياح، وبنى ذلك بالمرمر، وجعل في وسط الدار مجلسًا على ثمانية أركان مصفحًا بالزجاج الملوّن المسبوك، وجعل في سقفه جواهر وحجارةً تسرج، وجعل في كل ركن من أركان المجلس تمثالاً من الذهب بيده كالبوق، وجعل تحت القبّة دكّة[1] مصفّحة بالذهب، وجعل لها حوافيَ زَبَرْجَد، وفرش فوق الدكّة فرش الحرير، وجعل عليها جسده بعد أن لُطخ بالأدوية الممسكة، ومن جوانبه آلات الكافور المخروطة، وسُدِلت عليه ثياب منسوجة بالذهب، ووجهه مكشوف وعلى رأسه تاج مُلكه، وعن جوانب الدكّة أربع تماثيل مجوّفات من زجاج مسبوك مثل صُوَر النساء وألوانهن، بأيديهن كالمراوح من ذهب، وعلى صدره من فوق الثياب سيف صاعقيّ قائمه[2] من الزبرجد، وجُعل في تلك الخزائن: من الزبرجد وسبائك الذهب والتيجان والجواهر وبراني الحِكَم وأصناف العقاقير والطِّلّسمات، ومن المصاحف الحاوية لجميع العلوم، ما لا يحصى قدره كثرة؛ وجُعل على باب المجلس ديك من ذهب على قاعدة من زجاج أخضر منشور الجناحين مزبور عليه آيات عظام مانعة، وجُعل على مدخل كل أَزَج صورتين من

(١) الدكة: مقعد مستطيل من خشب غالبًا يجلس عليه.

(٢) قائم السيف: مقبضه.

نحاس مشوّهتين بأيديهما سيفان كالبرق، ووراءهما بلاطة تحتها لوالب فمن وطئها ضرباه بأسيافهما فقتلاه، وفي سقف كل أَزَج كرة عليها لَطُوخ مدبّر يُسرَج، وسُدّ باب الأَزَج بالأساطين ورصُّوا على سقفه البلاط العظام وردموا فوقها الرمال، وزبروا على باب الأَزَج: هذا الداخل إلى جسد الملك العظيم المهيب الكريم الشديد قفطريم ذي الأَيْد والفخر، والغلبة والقهر، أفَل[1] نجمه وبقِيَ ذكره وعلمه، فلا يصل أحد إليه، ولا يقدر بحيلة عليه، وذلك بعد سبعمائة وسبعين، ودورات مضت من السنين.

قال: ولمّا مات قُفْطريم ملك بعده ابنه البُودسير بن قفطريم؛ فتجبّر وتكبّر وعمِل بالسحر واحتجب عن العيون، وقد كان أعمامه أشمون وأتريب وصاملوكا على أحيازهم[2] إلاّ أنه قهرهم بجبروته وقوّته، فكان الذكر له كما كان لأبيه. ويقال: إنه أرسل هِرْمِس الكاهن المصريّ إلى جبل القُمْر الذي يخرج النيل من تحته حتى عمِل هناك هيكل التماثيل النحاس، وعدل إلى البطيحة التي ينصبّ إليها ماء النيل. ويقال: إنه الذي عدّل جانبي النيل وقد كان يفيض في مواضع وينقطع في مواضع، وأمره البودسير أن يسير مغرّبًا فينظر إلى ما هناك، فوقع على أرض واسعة متخرّقة[3] بالمياه والعيون كثيرة العُشْب، فبنى منائر ومتنزهات، وحوّل إليها جماعة من أهل بيته فعمَروا تلك النواحي وبنَوْا فيها حتى صارت أرض الغرب كلها عمارة، وأقامت كذلك مدة كثيرة وخالطهم البربر فتناكحوا؛ ثم إنهم تحاسدوا وبغى بعضهم على بعض، وكانت بينهم حروب فخرب البلد وباد أهله إلا بقية منازل تسمى الواحات هي موجودة إلى وقتنا هذا.

ويقال: إنه عمل عجائب كثيرة في وقته، منها: قبّة لها أربعة أركان وفي كلّ ركن منها كوّة يخرج منها كالدخان الملتفّ في ألوان شتّى يستدلّون بكل لون على شيء؛ فما خرج منه أخضر دلّ على العمارة وحسن النبات والزرع وصلاحه، وإن خرج الدخان أبيض دلّ على الجدب وقلّة الزكاء[4]، وإن خرج أمر دلّ على الدماء والحروب وقَصْد الأعداء، وإن كان أسود دلّ على كثرة الأمطار والمياه وفساد بعض

---

(١) أفل النجم: غاب.
(٢) الحيز: كل جمع منضم بعضه إلى بعض، والمراد هنا ما كان تحت حكم الملك أو الأمير من المدن والقرى.
(٣) الأرض المتخرقة، أي التي بها الخريق، وهو مجرى الماء الذي ليس بقعير ولا يخلو من شجر.
(٤) الزكاء: النماء، يقال زكا الشيء يزكو زكاءً وزكوًا، نما.

الأرض بذلك، وإن كان أصفر دلّ على النيران وآفاتٍ[١] تحدُث في الفلَك، وما كان منها مختلطًا دلّ على مظالم الناس وتعدّى بعضُهم على بعض وإهمالِ ملوكهم لهم، وأشياء من هذا الضرب. وكانت هذه القبّة على منار أقام زمنًا طويلاً ثم هدمه بعض الملوك البربر؛ لأنه أراد غزو قوم بتلك الناحية فعلموا بحاله فانتقلوا عن ذلك الموضع إلى قُرب النيل فلمّا جاء ولم يجدهم هدمه.

ومما عُمِل له في الصحراء التي تقرُب منه ـ وكانت الوحش قد كثُرت وأفسدت عليهم زرعهم وكذلك خنازير الماء ـ شجرةٌ من نحاس عليها أمثالُ تلك الوحوش مُلجَمة أفواهُها بخيوط من نحاس، فما يجوز[٢] بها من الوحش لا يستطيع الحراكَ ولا البَراح[٣] من عندها حتى يُؤخَذ قَبْضًا ويُقتَل؛ فأشبع الناسَ في لحوم تلك الوحوش وانتفعوا بجلودها زمانًا طويلاً إلى أن انتزعها بعض ملوك الغرب سرًّا من أهل مصر وقدّر أن ينصبها في بلدهم فتعمل له مثل ذلك، فلمّا عمِلها بطَلت؛ لأنهم كانوا يعملون ما يعملون بطالع يأخذونه له، فلا يزال عمله مستقيمًا إلى أن تغيّر عن مكانه فبطَل عمله.

ومما عُمِل في وقته أنّ غرابًا نقَر عين صبيّ من أولاد الكهنة فقلعها، فعمِل شجرة من نحاس عليها تمثالُ غراب من نحاس في منقاره حربة بادية الطرفين، منشور الجناحين، وكتب على ظهره كتابًا؛ فكانت الغربان تَقَع على تلك الشجرة ولا تبرح حتى تؤخَذ فتُقتل، ففنِيَ أكثر الغربان وزالت عن تلك الناحية إلى ناحية الشام. ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن أصاب بعضَ ملوكهم علّةٌ ووُصِف له فيها لحمُ غراب يطبُخه ويأكله ويشرب من مرقه[٤] فلم يُوجَد، فوجّه إلى آخر العمل الذي بمصر من ناحية الشام من يأتيه بغراب فأبطأ عليه، فأمر بنزع الشجرة فرجع الغربان وأخذ منها ما عولج به الملك قبل أن يرجع رسوله.

ومما عُمِل في وقته ـ وكانت الرمال قد كثُرت عليهم من ناحية الغرب حتى ظهرت على زروعهم ـ فعَمِل لذلك صنمًا من صوّان أسود على قاعدة منه وعلى كتفه شبه القفّة فيها كالمسحاة، ونقش على جبهته وصدره وذراعيه وساقيه حروفًا، وأقامه الكاهن بطالع أخذه له ووجهه إلى الغرب؛ فانكشفت تلك الرمال ورجعت إلى

---

(١) الآفات: جمع الآفة: وهي كل ما يصيب شيئًا فيفسده، من عاهة أو مرض أو قحط.

(٢) جاز الموضع وبه: سار فيه وقطعه.

(٣) البراح: مفارقة المكان.

(٤) المرق: الماء أغلي فيه اللحم فصار دسمًا. النوع أو الجزء منه: مرقة.

ورائها. فتلك الأكداس العالية في صحراء الغرب منها. ولم تزل الرمال تندفع عنهم إلى أن زال ذلك الصنم عن موضعه. قال: وأقام البودسير مدّة وٱحتجب عن الناس، وكان يتجلّى لهم في صورة وجه عظيم، وربما خاطبهم ولا يروْنه، ثم غبر[١] مدّة وهم في طاعته إلى أن رآه ٱبنه عديم وهو يأمره بالجلوس على سرير الملك.

فجلس عديم بن البودسير على الملك وكان جبارًا لا يطاق، عظيم الخَلْق، فأمر بقطع الصخور ليعمل هرمًا كما عمل الأوّلون. قال: وكان في وقته الملكان اللذان هبطا من السماء، وكانا في بئر يقال لها أفناوه، وكانا يعلّمان أهل مصر السحر. ويقال: إن عديم استكثر من علمهما ثم نُقلا إلى بابل.

قال: وأهل مصر من القبط يقولون إنهما شيطانان يقال لهما: مُهلة ومَهَالة، وليس هما المَلَكين. والمَلَكان ببابل في بئر هناك يغشاها السحَرة إلى يوم الساعة.

ولنصل هذا الفصل بخبر هاروت وماروت وإن لم يكن منه؛ وإنما الشيء بالشيء يذكر. والله أعلم.

ذكر خبر هاروت وماروت

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢] الآية. قال أبو إسحاق الثعلبيّ[٢] في تفسيره: وكانت قصّتهما ـ على ما ذكره ٱبن عباس رضي الله عنه والمفسّرون ـ أنّ الملائكة رأوْا ما يصعَد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة؛ وذلك في زمن إدريس عليه السلام فيعيّرونهم بذلك، ودعت عليهم الملائكة وقالوا: هؤلاء الذين جعلتهم في الأرض وٱخترتهم فهم يعصونك؛ فقال الله عزّ وجل لهم: لو أنزلتكم إلى الأرض وركّبت فيكم ما ركّبت فيهم لركبتم ما ٱرتكبوا؛ فقالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك؛ قال الله تعالى: فٱختاروا مَلَكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض، فٱختاروا هاروت وماروت، وكانا من أصلح الملائكة

---

(١) غبر: مكث وبقي.

(٢) أبو إسحاق الثعلبي: هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المفسر المشهور؛ كان أوحد زمانه في علم التفسير، وصنف «التفسير الكبير». وله كتاب «العرائس» في قصص الأنبياء (ص)... والثعلبي صحيح النقل موثوق به. حدث عن أبي طاهر بن خزيمة والإمام أبي بكر بن مهران المقرىء، وكان كثير الحديث كثير الشيوخ. توفي سنة ٤٢٧ هجرية... (وفيات الأعيان ١: ٧٩).

وأعبدهم. قال: وقال الكلبيّ: قال الله لهم: اختاروا ثلاثة فٱختاروا عَزًّا وهو هاروت، وعَزَايا وهو ماروت، وغُيّر ٱسمهما لمّا قارفا الذنب، وعزاييل؛ فركّب الله فيهم الشهوة التي ركّبها في بني آدم وأهبطهم إلى الأرض، وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق. ونهاهم عن الشرك والقتل بغير حق، ونهاهم عن الزنى وشُرب الخمر. فأما عزاييل فإنه لمّا وقعتِ الشهوة في قلبه استقال ربَّه وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله ورفعه؛ فسجد أربعين سنة ثم رفع رأسه. ولم يزل بعد ذلك مطأطئًا رأسه حياءً من الله تعالى. وأما الآخران فإنهما بقيا على ذلك، وكانا يقضيان بين الناس يومَهما فإذا أمسيا ذكرا ٱسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء. قال قَتادة: فما مرّ عليهما أشهر حتى افتتنا.

قال الثعلبيّ: قالوا جميعًا: وذلك أنه اختصم إليهما ذات يوم الزُّهَرة، وكانت من أجمل النساء. قال عليّ رضي الله عنه: كانت من أهل فارس، وكانت ملكة في بلدها، فلمّا رأياها أخذت بقلوبهما، فراوداها عن نفسها فأبت وٱنصرفت، ثم عادت في اليوم الثاني ففعلا مثل ذلك، فأبت وقالت: لا! إلا تعبدا ما أعبد، وتصلّيا لهذا الصنم، وتقتلا النفس، وتشربا الخمر. فقالا: لا سبيل إلى هذه الأشياء؛ فإن الله عزّ وجل نهانا عنها، فٱنصرفت؛ ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفي أنفسهما من الميل إليها ما فيها، فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقالا: الصلاة لغير الله عظيم، وقتل النفس عظيم، وأهون الثلاثة شرب الخمر؛ فشربا فانتشيا ووقعا بالمرأة وزنيا، فلمّا فرغا رآهما إنسان فقتلاه. قال الربيع بن أنس: وسجدا للصنم فمسخ الله عزّ وجل الزُّهَرة كوكبًا.

وقال عليّ بن أبي طالب والسدّي والكلبيّ رضي الله عنهم: إنها قالت لهما: لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء. فقالا: بٱسم الله الأكبر. قالت: فما أنتما بمدركاني حتى تعلمانيه. فقال أحدهما لصاحبه: علّمها! قال: إني أخاف الله. قال الآخر: فأين رحمة الله! فعلّماها ذلك. فتكلّمت به وصعدت إلى السماء. فمسخها الله تعالى كوكبًا. فعلى قول هؤلاء هي الزُّهَرة بعينها، وقيّدوها فقالوا: هي هذه الكوكبة الحمراء واسمها بالفارسية «ناهيد»، وبالنبطية «بيدخت».

قال: ويدلّ على صحة هذا القول ما رواه الثعلبيّ بسنده إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان النبيّ ﷺ إذا رأى سُهَيلاً قال: «لعن الله سُهَيلاً إنه كان عشّارًا[1] باليمن ولعن الله الزُّهَرة فإنها فتنت مَلَكين».

---

(١) العشّار: من يأخذ على السلع مكسًا، وهي الضريبة؛ أو الذي يقبض عشر المال.

وقال مجاهد: كنت مع ٱبن عمر رضي الله عنهما ذاتَ ليلة فقال لي: ارمُقِ[١] الكوكبة فإذا طلعت فأيقظني، فلمّا طلعت أيقظته، فجعل ينظر إليها ويسبّها سبًّا شديدًا، فقلت: رحمك الله تسبّ نجمًا سامعًا مطيعًا لله؟ ما له يُسَبّ! فقال: إن هذه كانت بغيًا فلقِي المَلَكان منها ما لقِيا. وقال نافع: كان ٱبن عمر رضي الله عنهما إذا رأى الزُّهَرة قال: لا مرحبًا بها ولا أهلاً. وروى أبو عثمان النهدي عن ٱبن عباس رضي الله عنهما: أن المرأة التي فُتِن بها المَلَكان مُسِخَت، فهي هذه الكوكبةُ الحمراءُ، يعني الزُّهَرة.

قال الثعلبيّ: وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا: إن الزهرة من الكواكب السبعة السيّارة التي جعلها الله قِوامًا للعالَم، وإنما كانت هذه التي فَتَنت هاروت وماروت ٱمرأة، كانت تسمَّى زُهَرة من جمالها، فلمّا بغت جعلها الله تعالى شهابًا[٢]، فلما رأى رسول الله ﷺ الزهرة ذكر هذه المرأة لموافقة الاسمين فلعنها، وكذلك سُهَيل العشّار. والله أعلم.

قالوا: فلم أمسَى هاروت وماروت بعدما قارفا الذنب همّا بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما، فعلما ما حلّ بهما فقصدا إدريس عليه السلام فأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله عزّ وجل ففعل ذلك، فخيّرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فٱختارا عذاب الدنيا إذ علما أنه ينقطع، فهما ببابل يعذّبان. واختلف العلماء في كيفيّة عذابهما فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هما معلّقان بشعورهما إلى قيام الساعة. وقال قَتادة: كُبِّلا من أقدامهما إلى أصول أفخاذهما. وقال مجاهد: إن جُبًّا[٣] مُلىء نارًا فجُعلا فيه. وقال حُصَيف: معلّقان منكّسان في السلاسل. وقال عُمَير بن سعد: منكوسان يُضرَبان بسياط الحديد. ورُوي أنّ رجلاً أراد تعلم السحر فقصد هاروت وماروت فوجدهما معلّقين بأرجلهما، مُزرقّة أعينهما، مُسودّة جلودهما، ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلاّ قدرُ أربع أصابع، وهما يعذّبان بالعطش، فلمّا رأى ذلك هاله مكانهما فقال: لا إله إلا الله، وقد نُهِيَ عن ذكر الله هناك. فلمّا سمعا كلامه قالا: مَن أنت؟ قال: رجل من الناس. قالا: من أيّ أمة

(١) رمقه ببصره: أي أتبعه بصره بتعهده وينظر إليه ويرقبه.

(٢) الشهاب: النجم المضيء اللامع: أو هو جرم سماويّ يسبح في الفضاء، فإذا دخل في جوّ الأرض اشتعل، وصار رمادًا.

(٣) الجبّ: البئر الواسعة. جمع أجباب، وجباب، وجببة.

أنت؟ قال: من أمة محمد ﷺ. قالا: وقد بُعِث؟ قال نعم. قالا: الحمد لله! وقد أظهرا الاستبشار. فقال الرجل: وممّ استبشاركما؟ قالا: إنه نبيّ الساعة، وقد دنا أنقضاء عذابنا.

قال: وأمّا كيفية تعلّم السحر، فقد رُوِيَ فيه خبرٌ جامعٌ، وهو ما رواه أبو إسحاق بسنده عن هشام بن عُرْوة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدمت عليّ أمرأة من أهل دُومَة الجندل[١] جاءت تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر ولم نعمل به؛ قالت عائشة رضي الله عنها لعُروة: يا بن أختي، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ، فكانت تبكي حتى إني لأرحمها! تقول: إني أخاف أن أكون قد هلكت؛ قالت: كان لي زوج فغاب عنّي فدخلتْ عليّ عجوز فشكوت ذلك إليها فقالت: إن فعلتِ ما آمرك به فلعلّه يأتيك، فلمّا كان الليل جاءتني بكبشَيْن أسودَيْن فركبتُ أحدهما وركبتُ الآخر، فلم يكن كثير حتى وقفنا ببابِل، فإذا برجلين معلّقين بأرجلهما فقالا: ما جاء بكِ؟ فقلتَ: أتعلّم السحر، قالا: إنما نحن فتنة فلا تكفُري وأرجعي، فأبيت فقلت: لا، فقالا: إذهبي إلى ذلك التنُّور فبُولي فيه، فذهبت ففزِعت فلم أفعل، فرجعت إليهما فقالا: فعلتِ؟ قلت نعم، قالا: هل رأيتِ شيئًا؟ قلت: لم أرَ شيئًا، فقالا: لم تفعلي، إرجعي إلى بلادك فلا تكفُري، قالت: فأبيت، فقالا: إذهبي إلى ذلك التنُّور فبُولي فيه، فذهبت فأقشعرّ جلدي فرجعت إليهما فقلت: قد فعلت، فقالا: هل رأيتِ شيئًا؟ فقلت: لم أر شيئًا، فقالا: كذبتِ لم تفعلي، إرجعي إلى بلادك فلا تكفُري فإنك على رأس أمرك؛ قالت: فأبيت، فقالا: إذهبي إلى ذلك التنُّور فبُولي فيه، فذهبتُ إليه فبلتُ فرأيت فارسًا مقنّعًا بحديد خرج منّي حتى ذهب في السماء وغاب عنّي حتى ما أراه، فجئتهما فقلت: قد فعلت؛ قالا: فما رأيتِ؟ قلت: رأيتُ فارسًا مقنّعًا بالحديد خرج منّي حتى ذهب في السماء حتى ما أراه، قالا: صدقتِ، ذلك إيمانك خرج منك؛ اذهبي. فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئًا، وما قالا لي شيئًا. فقالت: لن تريدي شيئًا إلا كان؛ خذي هذا القمح فأبذُري، فبذَرْت، قلت: أطلُعي، فأطْلعت[٢]، فقلت: أحقِلي،

(١) دومة الجندل: بضم أوله وفتحه، وهي حصن على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول ﷺ. قال أبو عبيد السكوني: دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيّىء كانت به بنو كنانة من كلب. . . (معجم ياقوت).

(٢) يقال: أطلع الزرع، أي بدا.

فأحقَلت[١]، ثم قلت: أفركي[٢]، فأفركت، ثم قلت: أطحني، فأطحنت، ثم قلت: أخبزي، فأخبزت. فلما رأيت أني لا أريد شيئًا إلا كان، سُقِط في يدي وندِمت. والله يا أمّ المؤمنين ما فعلتُ شيئًا قطّ، ولا أفعله أبدًا.

قال: وقال بعضهم: إنهما لا يتعمّدان تعليم السحر ولكنهما يصفانه ويذكران بطلانه ويأمران بٱجتنابه، فيتعلّم الشقيّ منهما في خلال صفتهما ويترك موعظتهما ونصيحتهما، فلا يكون على هذا التأويل كفرًا وإنما يكون العمل به كفرًا. وقد أنكر بعضهم أن يكونا مَلَكين قال: وإنما كانا مَلِكَيْن. وقرىء في الشواذّ: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلِكَيْنِ﴾ (بكسر اللام). وقيل: كانا عِلْجين[٣] ببابل. حكاه القاضي عياض[٤] في كتاب الشفا. والله تعالى أعلم.

* * *

ولنرجع إلى أخبار عَدِيم بن البودسير الملك. قال: وعديم أوّل من صلب[٥]؛ وذلك أنّ ٱمرأة زَنَت برجل من أهل الصناعات، وكان لها زوج من أصحابه، فأمر بصلبهما على منارتين، وجعل ظهر كلّ منهما إلى ظهر صاحبه، وزَبَر على المنارتين ٱسمهما وما فعلاه وتاريخ الوقت الذي عُمِل ذلك بهما فيه، فٱنتهى الناس عن الزِّنى. قال: وبنى أربع مدائن وأودعها صنوفًا كثيرة من عجائب الأعمال والطِّلَّسمات وغير ذلك، وكنز فيها كنوزًا كثيرة. وعمِل في الشرق منارًا وأقام على رأسه صنمًا موجّهًا إلى الشرق، مادًّا يديه يمنع دوابّ البحر والرمال أن تتجاوز حدّه، وزبر في صدره تاريخ الوقت الذي نصبه فيه؛ ويقال: إن هذا المنار قائم إلى وقتنا هذا؛ ولولاه لغلب الماءُ المالح من البحر الشرقيّ على أرض مصر. وعمل قنطرة على النيل في أوّل بلاد النوبة ونصب عليها أربعة أصنام موجّهة إلى أربع جهات الدنيا في يدي كل صنم جرسٌ يضرب به إذا أتاهم آت من تلك الناحية؛ فلم تزل بحالها إلى أن هدمها فِرعَوْن

---

(١) يقال: أحقل الزرع: إذا تشعب ورقه قبل أن تغلظ سوقه.

(٢) أفرك الزرع: أي بلغ أن يفرك باليد.

(٣) العلج: كل جاف شديد من الرجال.

(٤) القاضي عياض: هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي؛ كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم وصنف التصانيف المفيدة منها «الإكمال في شرح كتاب مسلم» كمل به «المعلم في شرح مسلم» للمازري، ومنها «مشارق الأنوار» وهو كتاب مفيد جدًا في تفسير غريب الحديث المختص بالصحاح الثلاثة. . . (معجم البلدان ٣: ٤٨٣).

(٥) يعني لأجل الزنى.

موسى. وهو الذي عمل البربا على باب النوبة، ويقال: إنه عَمِل في إحدى المدائن الأربع التي ذكرناها حوضًا من صَوّان أسود مملوءًا ماء لا ينقُص على طول الدهر ولا يتغيّر؛ وكان أهل تلك الناحية يشربون منه ولا ينقُص ماؤه؛ وإنما عمل ذلك لبعدهم عن النيل وقُربهم من البحر المالح. وقد ذكر بعض كهنة القبط أن ذلك لقربهم من البحر المالح، لأن الشمس فيما ذكروا ترفع بحرّها بخارًا فيحصُل من ذلك البخار حرّ بالهندسة، وقيل بالسحر. وملكهم عَدِيم مائة سنة وأربعين سنة، ومات وهو ابن سبعمائة سنة وثلاثين سنة. وقيل: إنه دُفن في إحدى المدائن ذات العجائب في أَزَج من رخام ملوّن بزرقة، مبطّن برخام أصفر، وطُلِيَ جسده بما يُمسكه، وجُعل حوله كثير من ذخائره، وذلك وسط المدينة، فهي محروسة بما يمنع منها من الروحانيّين.

قال: وذكر بعض القبط أنّ عديمًا هذا عمل لنفسه في صحراء قِفْط[1] على وجه الأرض قبّة عظيمة من زجاج أخضر برّاق، معقودة على ثمانية آزاج من صِنفها، على رأسها أكرة من ذهب، عليها طائر من ذهب، متوشّح بجوهر، منشور الجناحين، يمنع من الدخول إليها، وقطرها مائة ذراع في مثلها، وجعل جسده في وسطها على سرير من ذهب مشبّك وهو مكشوف الوجه، وعليه ثياب منسوجة بذهب مغروزة بجوهر منظوم؛ والآزاج مفتحة، طول كل أَزَج ثمانية أذرع، وارتفاع القبّة أربعون ذراعًا تُلقي الشعاعَ على ما حولها من الأرض، وجُعل حوله في القبّة مائة وسبعون مصحفًا من مصاحف الحكمة، وسبع موائد عليها أوانيها، منها: مائدة من أدرك[2] رمّانيّ أحمر وآنيتها منها. ومائدة من ذهب فيلموني يخطَف البصر، وهو من الذهب الذي تعمل منه تيجان الحكماء، وآنيتها منها. ومائدة من حجر الشمس المضيء بآنيتها. ومائدة من الزبرجد المخروط الذي يخالطه شعاع أصفر بآنيتها، قال: وهذا الزبرجد إذا نظرت إليه الأفاعي سالت عيونها. ومائدة من كبريت أحمر مدبّر بآنيتها. ومائدة من ملح مدبّر برّاق يكاد نوره يخطف الأبصار بآنيتها. ومائدة من زئبق معقود وقوائمها وحافاتها من زئبق أصفر معقود مضيء، وعليها آنية من زئبق أحمر معقود. وجُعل في القبّة جواهر كثيرة ملوّنة وبرانيّ صنعة مدبّرة، وجُعل حوله سبعة أسياف صاعقية وكاهنية وأتراس

---

(١) قفط: بكسر أوله، وسكون ثانيه، كلمة عجمية لا يعرف في العربية لها أصلاً، وهي مسماة بقفط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام. وهي مدينة تقع ما بين الصعيد الأعلى وأسوان من الديار المصرية. كان الغالب على معيشة أهلها التجارة والسفر إلى الهند وليست على ضفة النيل بل بينهما نحو الميل، وبينها وبين قوص نحو الفرسخ... (معجم البلدان).

(٢) الأدرك: الحجر الأحمر.

من حديد أبيض مدبّر، وجُعل معه تماثيل أفراس من ذهب، عليها سروج من ذهب وسبع توابيت من الدنانير التي ضربها وصوّر عليها صورته، وجُعل معه من أصناف العقاقير والسمومات والأدوية في برانيّ الحَنْتم[١]، ومن أصناف الأحجار شيء كثير.

قال: وقد ذكر من رأى تلك القبة وأقاموا عليها أيامًا فما قدروا على الوصول إليها، وأنهم إذا قصدوها وكانوا منها على مقدار ثمانية أذرع دارت القبّة عن أيمانهم وشمائلهم وقد عاينوا ما فيها. ومن أعجب ما ذكروا أنهم كانوا يحاذون آزاجها أزَجًا أزَجًا فلا يرون غير الصورة التي يرونها من الأزَج الآخر على معنى واحد. وذكروا أنهم رأوا وجهه في قدر ذراع ونصف بالذراع الكبير، ولحيته كبيرة مكشوفة، وقدّروا طول بدنه عشرة أذرع وزيادة، وأنهم لمّا تهيأ أن يصلوا إليها فنيَ ماؤهم وخافوا على أنفسهم فرجعوا ليمتاروا[٢] ما يكفيهم من الزاد ففعلوا، ثم رجعوا فأقاموا أيامًا يطوفون تلك الصحراء، ثم أخبروا أنهم رأَوْا بها عجائب كثيرة وصنوفًا من الوحش لم يَرَوْا مثلها.

قال: وفي كتبهم أنهم لا يصلون إليها إلا بأن يُذبَح لها ديك أفرق[٣] ويبخّر بريشه من بعد، ثم يسأل من المرّيخ الوصول حتى يصل، وتكون الكواكب النيّرة على مثل ما كانت عليه وقتَ نَصَبَهَا من اجتماعها في البروج: يكون زُحَل والمُشْتَرِي والمرّيخ في بُرْج واحد، والشمسُ والقمر في بُرْج واحد، والزُّهَرة وعُطارد في بُرْج واحد، ويتكلّم عليها بصلاة الكهنة سبع مرّات، فإذا وصل إليها لطّخ حائطها بدم الديك الذي قرّبه لها ويأخذ ما شاء من المال والتماثيل ولا يكثر المقام فيها ولا يقيم غير ساعة واحدة.

قال: وذكر هؤلاء الذين رأَوْها أنهم لم يكونوا من تلك الناحية وإنما خرجوا يطلبون غيرها؛ فإنهم سألوا أهل قِفْط عنها فلم يجدوا مَن يعرفها ولا رآها غير رجل شيخ منهم، فإنه ذكر أن ابنًا له خرج في بعض الأمور ومعه جملٌ له فرآها ولم يصل إليها، وبحث عن أمرها فعرف أن قومًا من الشرق جاؤوا في طلبها وأنهم أقاموا يطوفون بقِفْط أيامًا وخرجوا إليها فما رجع أحدٌ منهم ولا عُرِف لهم خبر.

---

(١) الحنتم: جرار خضر تضرب إلى الحمرة.

(٢) امتار: لنفسه أو لأهله: جمع الميرة، وهي الطعام يجمع للسفر ونحوه.

(٣) الديك الأفرق: الذي انشق عرفة خلقة.

قال: وكان عديم قد أوصى إلى ٱبنه شدّاث عند موته أن ينصِبَ في كل حيّز من أحياز عمُومته منارًا ويزبرَ عليه ٱسمه، فٱنحدر إلى الأُشمونين فعمل منارًا وزبر عليه ٱسمه وعمل بها ملاعب، وعمل في صحرائها منارًا وأقام عليه صنمًا ذا رأسين بٱسم كوكبين كانا مقترنين في الوقت الذي خرج فيه إلى أتريب وبنى فيها قبّة عظيمة مرتفعة على عُمُد وأساطين بعضها فوق بعض، وجعل على رأسها صنمًا صغيرًا من ذهب، وعمل هيكلًا للكواكب. وكان أبوه البودسير أوّل من أقام للكواكب فأخذ ذلك عنه. ومضى إلى حيّز صا فعمل فيه منارًا على رأسه مرآة من أخلاط نورِي الأقاليم، ورجع إلى أبيه فعهد له بالملك.

فملك شدّاث بن عَدِيم وهو الذي بنى الأهرام الدهشوريّة من الحجارة التي قُطعت في زمان أبيه. قال: مَن أنكر أن يكون العادِيّة دخلوا مصر إنما غلطوا بٱسم شدّاث بن عديم فقالوا شدّاد بن عاد لأنه أكثر ما يجري على ألسنتهم، وقلة ما يجري على ألسنتهم شدّاث بن عديم؛ وإلا فما قدر أحد من الملوك يدخل مصر ولا قوي على أهلها غيرِ بُخْتَ نصّر. وشدّاث الذي عمل مصاحف النارنجيّات، وعمل هيكل أرمنت[1] وأقام فيه أصنامًا بأسماء الكواكب من ذهب وفضة وحديد أبيض ونحاس مذهب ورصاص مُصفّى وزئبق معقود. وهذه الأجساد المعدنيّة في طباع الكواكب وفي قسمتها. فلما فرغ منه زيّنه بأحسن زينة ونقشه بأحسن النقوش من الجواهر الملوّنة والزجاج المعمول الملوّن وكساه الوشي والديباج[2] ولم يترك شيئًا من التحف إلا عمله، وكذلك عمل في المدن الداخلة من أَنْصِنا[3] هيكلًا، والقبّة التي أقامها بأتريب[4] وهيكلًا شرقيّ الإسكندرية، وأقام لزُحَل صنمًا من صَوّان أسود على عبر النيل من الجانب الغربيّ. وبنى شدّاث من الجانب الشرقيّ مدائن وجعل فيها صورة

(١) أرمنت: بلدة بصعيد مصر الأعلى، بينها وبين الأقصر في سمت الجنوب بعض مرحلة، وبينها وبين أسوان مرحلتان. .

(٢) الديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير (فارسي معرب).

(٣) أنصنا: بلدة بالصعيد الأوسط وبها آثار عظيمة أولية، وهي على شط النيل من البر الشرَقي قبالة الأشمونين من البر الآخر، ولها مزدرع كثير، وهي المدينة المشهورة بمدينة السحرة ومنها جلبهم فرعون.

(٤) أتريب: بالفتح ثم السكون وكسر الراء وياء ساكنة وباء: اسم كورة في شرقي مصر مسماة بأثريب بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام. وقصبة هذه الكورة عين شمس، وعين شمس خراب لم يبق منها إلا آثار قديمة.

صنم قائم له إحليل إذا أتاه المعقود والمسحور ومن لا ينتشر فمسّه بكلتا يديه أزال عنه ذلك وانتشر وقَوِيَ على الباه، وجعل في إحداها بقرة لها ضَرْعان كبيران إذا مسحتهما المرأة التي ٱنعقد لبنها درّ وصلُح أمرها.

وفي أيامه بُنيت قُوص[١] العالية، بناها لابنٍ له كان سَخِط على أمّه فحوّلها إليها وأسكن معها قومًا من أهل الحكمة وأهل الصناعات. وقيل: إن شُطْب[٢] بُنيت في أيامه؛ وعمِل الصورتين الملتصقتين لكثرة النسل. وكانت الحبش والسودان عاثوا في بلده فأخرج لهم ٱبنه منقاوش في جيش عظيم فقتل منهم وسبى وٱستعبد الذين سباهم وصار ذلك سنّة لهم، واقتطع معدن الذهب من أرضهم وأقام ذلك السبْيَ يعملون فيه ويحملون الذهب إليه؛ وهو أوّل من أحَبّ الصيد وٱتخذ الجوارح، وولّد الكلاب السلوقية من الذئاب والكلاب الأهلية، وعمِل البَيْطرة وما تعالج به الدوابّ، وعمل من العجائب والطلّسمات لكل فنّ ما لا يُحصَى كثرة، وجمع التماسيح، بطلّسم عمله لها، إلى بركة بناحية أسيوط[٣] فكانت تنصبّ إليها من النيل انصبابًا فتقتلها، وتستعمَل جلودها في السفن وغيرها، وتستعمَل لحومها في الأدوية والعقاقير المؤلّفة. قال: وبعض القبط يَحكي أنه عمل بمصر اثنتي عشرة ألف أُعجوبة وطلّسمًا، ولم يعمل في بلد كما عمل فيها ولا تهيّأ لأهله ما تهيّأ لهم من ذلك.

قال: وأقام شدّاث في المُلْك تسعين سنة وخرج يَطرد[٤] فأكبّ فرسُه في وَهْدة[٥] فقتله. وفي بعض كتبهم: أنه أخذ بعض خدمه، وقد خالفه في أمر من الأمور، فأمر بطرحه من أعلى الجبل إلى أسفل فطُرح فتقطّع جسده، وندم على فعله ذلك فرأى في منامه أنه سيصيبه مثل ذلك فكان يتوقّاه، وآلى على نفسه ألا يعلو جبلاً، وأوصى إن أصابه شيء أن يُجعل ناووسه في الموضع الذي يلحقه فيه ما يلحقه، ويُزبر عليه: لبس ينبغي لذي القُدرة أن يخرج عن الواجب ويفعل ما لا يجوز

---

(١) قوص: أعظم مدائن الصعيد وهي على ضفة النيل الشرقية سميت باسم قوص بن قفط بن أخميم، وهي باب مكة واليمن وسواكن..

(٢) شطب: مدينة من المدن التي أخربها بخت نصر وأحرقها، وهي بالقرب من أسيوط.

(٣) أسيوط: مدينة في غربي النيل من نواحي صعيد مصر، وهي مدينة جليلة كبيرة، قيل فيها خمسًا وسبعين كنيسة للنصارى، وهم بها كثير، وقيل: صورت الدنيا للرشيد فلم يستحسن إلا كورة أسيوط... (معجم البلدان).

(٤) يطرد: يصطاد.

(٥) الوهدة: الأرض المنخفضة. جمع: وهد، ووهاد.

له فعله، وهذا ناووس شدّاث بن عَديم بن قفطريم الملك، عَمِل ما لا يحلّ له فكوفىء عليه بمثله.

قال: ولمّا هلك عُمِل له سَرَب في سفح الجبَل فيه قبّة على مجلس قد صُفّح بالفضّة وجُعل فيه على سرير مُلْكه، وجُعل معه من الأموال والجواهر والتماثيل وأصناف الحِكَم والمصاحف شيءٌ كثير. وكان له أربعمائة وأربعون سنة.

وملك بعده ٱبنه منقاوُش بن شدّاث؛ فملك بحزم وحُنْكة وأظهر مصاحف الحكَم وأمر بالنظر فيها، وأن يُنسَخ منها لهم بخطّ العامّة ليفهموها، وردّ الكهنة إلى مراتبهم. وهو أوّل مَن عُمل له الحمّام من ملوك مصر. وكان كثير النكاح؛ تزوّج عدّة نساء من بنات عمه وبنات الكهنة، وجعل لكل ٱمرأة منهن مكانًا بجميع ما يُصلِحه من البنيان العجيب والصور المتقنة والغروس الحسنة والآلات العجيبة، وأسكنهنّ فيها. وقد قال بعض أهل الأثر[١]: إنه الذي بنى منف[٢] لبناته وكنّ ثلاثين بنتًا ونقلهنّ إليها، وعَمِل مدنًا غيرها ومصانع، وعمل هيكلاً لصُوَر الكواكب وأصنامها على ثمانية فراسخ من منف، وعمل بتلك الناحية طلّسمات كثيرة وعجائب أغرب فيها بفضل حكمة أبيه وجدّه، وعمل في السنة اثني عشر عيدًا لكل شهر عيدٌ يُعمَل فيه من الأعمال ما كان موافقًا لبُرْج ذلك الشهر؛ وكان يُطعم الناس في تلك الأعياد ويوسّع عليهم، ففرح الناس به ورأَوْا معه ما لم يَروْه مع غيره، وفُتح عليه من المعادن ما لم يُفتَح على أحد، وألزم أصحاب الكيمياء العملَ فكانوا لا يفتُرُون[٣] ليلاً ولا نهارًا: فٱجتمع عنده أموال عظيمة وجوهرٌ كثيرٌ وزجاجٌ نفيس مسبوك وغير ذلك، فأحبّ كنزه فدعا أخًا له فقال له: قد ترى كثرة هذا الذهب والجوهر، وما عُمل من هذه التماثيل الكثيرة، ولست آمَنُ أن يتسامع بنا الملوك فيُغزُونا من أجله، فأمعِن في أرض الغرب ثم انظر مكانًا حريزًا[٤] خفيَّ الأثر ثم أحرزه فيه ثم ٱستره بعلامات وٱكتب صفة المكان وطريقه وعلامته. قال: ويقول أهل الأثر: إنه حمل معه ٱثنتي عشرة ألف

---

(١) الأثر: الخبر المرويّ والسنة الباقية.

(٢) منف: بالفتح ثم السكون وفاء: اسم مدينة فرعون بمصر، قال القضاعي: أصلها بلغة القبط مافة فعربت فقيل منف... وقيل: هي أول مدينة عمرت بعد أن أغرق الله تعالى قوم نوح. وبين منف وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وبينها وبين عين شمس ستة فراسخ، وقيل: إنه كان فيها أربعة أنهار يختلط ماؤها في موضع سرير فرعون..

(٣) لا يفترون: أي لا يسكنون ولا يلينون ولا يقصرون في أعمالهم.

(٤) الحريز: الحصين.

عجلة، منها من الجوهر ثلاثمائة عجلة، وسائرها من الذهب الإبريز الصفائح والمضروب، ومن آلات الملوك وطرائفهم وسلاحهم وأوانيهم؛ فسار في الجنوب يومًا ثم أخذ مغرّبًا[١] اليوم الثاني وبعض الثالث، فأنتهى إلى جبل أسود مُنيف ليس له مصعد بين جبال مستديرة حوله، فعمل تحت ذلك الجبل أسرابًا ومغاور ودفن فيها ما كان معه وردمها وزبر عليها ورجع؛ فمكث أربع سنين يبعث كل سنة عَجَلاً[٢] عظيمة تُدفَن في نواح شتّى.

وهو الذي عمل في أنديمس[٣] المدينة بيتًا تدور به تماثيل لجميع العِلَل، وكتب على رأس كل تمثال ما يصلُح له من العلاج، فأنتفع الناس بها زمانًا إلى أن أفسدها بعض الملوك ضنًا بالحكمة. وعمل في هذه المدينة صورة أمرأة مبتسمة لا يراها مهموم إلا زال همّه ونَسِيَه؛ وكان الناس يأتونها ويطوفون حولها ثم عبدوها من بعد. وعمل تمثالاً روحانيًا من صُفْر[٤] مُذهَب بجناحين لا يمرّ به زانٍ ولا زانية إلا كشف عورته بيده، وكان الناس يُمتحَنون به فامتنعوا من الزنى فَرَقًا[٥] منه، وأستمرّ كذلك إلى زمن كَلْكَمن الملك؛ وذلك أن بعض نسائه، وكانت حظية عنده، عشقت رجلاً من خدم الملك وخافت أن ينتهي إليه خبرها فيمتحنها بذلك الصنم فيقتلها، فأحتالت لذلك فخلا بها الملك في بعض الليالي، وهما يشربان، فأخذت في ذكر الزواني وجعلت تسبهنّ وتذمهنّ، فذكر الملك ذلك الصنمَ وما فيه من المنافع للناس، وما يستحقّ مَن عمله من الثناء والذكر الجميل؛ فقالت المرأة: إنه كذلك وقد صدق الملك، غير أن منقاوش لم يُصب الرأي في أمره؛ قال الملك: وكيف قلت ذلك؟ قالت: لأنه أتعب نفسه وحكماءه فيما جعله لصلاح العامّة دون نفسه، وهذا أكبر العجز؛ وإنما كان حُكْم هذا التمثال أن يُنصَب في دار الملك حيث تكون نساؤه وجواريه، فإن أقترفت إحداهنّ ذنبًا علم بها فيكون رادعًا لهنّ متى عرض بقلوبهنّ شيء من الشهوة؛ لأن شهواتهنّ أغلب وأكثر من شهوات الرجال؛ ولو حدث ـ وأعوذ بسعد الله الأعلى ـ في دار الملك شيء من هذا فأحبّ امتحانه فضح نفسه وشاع في الخاصّ والعامّ أمره، وإن عاقب بغير أمر يتحققه كان متعدّيًا آثمًا، وإن لم يمتحنه صبر

---

(١) غرّب القوم: أي ذهبوا ناحية المغرب.

(٢) العجل: جمع العجلة، وهي الدولاب، والمراد بها هنا العربة.

(٣) أنديمس: مدينة لم نقع على وصف لها فيما توفر لنا من المظان.

(٤) الصفر: النحاس الأصفر.

(٥) الفرق: الخوف والفزع.

على المكروه. قال الملك: صدقت، فكيف الوجه في هذا الأمر؟ قالت: يأمر الملك ينزع هذا الصنم من مكانه ونقله إلى داره ففعل فبطل عمله، وٱمتحن فلم يصنع شيئًا، فعملت المرأة ما كانت همت به وٱنهمكت فيه.

قال: ويقال: إن منقاوش بنى هيكلاً للسحَرة على جبل القصير وقدّم عليه رجلاً منهم يقال له مسّيس، فكانوا لا يطلقون الرياح للمراكب المقلعة إلاّ بضريبة يأخذونها منهم للملك. وكان الملك إذا ركب عمِلوا بين يديه التخاييل[١] العجيبةَ، فيجتمع الناس إليهم ويعجبون من أعمالهم، وأمر أن يُبنَى لهم هيكل للعبادة يكون لهم خصوصًا، وجعل فيه قبّة فيها صورة الشمس والكواكب، وجعل حولها أصنامًا وعجائب، وكان الملك يركب إليه ويقيم سبعة أيام، وجعل فيه عمودَيْن زبر عليهما تاريخ الوقت الذي عُمل فيه، وهما بعين شمس، ونقل منقاوش إلى عين شمس كنوزًا وجواهر وطلّسمات وعقاقير وعجائب ودفنها بها وبنواحيها.

قال: وكان منقاوش قسم خراج البلاد أرباعًا: فربع منه للملك خاصة يعمل منه ما يريد، وربع لأرزاق خدمه، وربع ينفق في مصالح الأرض وما يحتاج إليه من حفر ترعها وعمل جسورها وتقوية أهلها على العمارة، وربع يدفن لحادثة تحدُث وحاجة تنزل. وكان خراج البلد في ذلك الوقت مائة ألف ألف وثلاثة آلاف دينار. وهو مقسوم على مائة وثلاث كور[٢] بعدّة الآلاف. وأقام ملكًا إحدى وسبعين سنة، ومات من طاعون أصابه، وقيل: من سمّ جُعل له في طعامه، وعُمل له ناووس في صحراء المغرب، وقيل: في غربيّ قُوص[٣]؛ ودُفن معه من مصاحف الحكمة والصنعة المعمولة وتماثيل الذهب والجوهر. ومن الذهب المضروب شيء كثير، ودُفن معه روحانيّ الشمس من ذهب يلمع، وله جناحان من زَبَرْجَد، وصنم على صورة ٱمرأته التي كانت أحظى نسائه عنده وكان يحبّها، فأمر أن تُعمَل صورتها في هياكلهم جميعًا،

---

(١) التخاييل: هي التمويه بالحيل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني، فيخيل للناظر أنها بخلاف ما هي به، كالذي يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء، وكراكب السفينة السائرة سيرًا حقيقيًا يخيل إليه أن ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه.

(٢) الكور: جمع الكورة، وهي، فيما ذكر حمزة الأصبهاني، اسم فارسي بحت، يقع على قسم من أقسام الأستان، وقد استعارتها العرب وجعلتها اسمًا للأستان.. وقال صاحب معجم البلدان: الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة..

(٣) قوص: أعظم مدائن الصعيد وهي على ضفة النيل الشرقية سميت باسم قوص بن قفط بن إخميم...

فعُمل له تمثالها من ذهب بذؤابتين من ذهب أسود، وألبست حلّة من جواهر منظومة وجعلت جالسة على كرسيّ، فكانت تجعل بين يديه في موضع تجلس فيه يتسلّى بذلك عنها، فدُفنت معه عند رجليه.

وملك بعده ابنه مناوش بن منقاوش؛ ملك بوصيّة من أبيه، فطلب الحكمة على عادة أبيه واستخرج كتبها وأكرم أهلها، وبذل فيهم الجوائز وطلب الإغراب[١] في عمل العجائب، وكان كل واحد من ملوكهم يجهد جهده في أن تُعمَل له غريبة من الأعمال لم تُعمَل لمن كان قبله وتثبت في كتبهم وتزبر على الحجارة في تواريخهم. قال: ومناوش هذا أوّل من عبد البقر من أهل مصر، وكان السبب في ذلك أنه اعتلّ علّة يئس منه فيها، وأنه رأى في منامه صورة روحانيّ عظيم يخاطبه ويقول له: إنك لا يخرجك من علّتك إلا عبادة البقر لأن الطالع كان وقت حلولها بك في صورة ثور بقرنين؛ ففعل ذلك، وأمر بأخذ ثور أبلق[٢] حسن الصورة، وعمل له مجلسًا في قصره وسقفه بقبّة مذهبة، فكان يبخّره ويطيّب موضعه، ووكّل به سادنًا يقوم به ويكنس تحته، وكان يتعبّد له سرًا من أهل مملكته، فبرأ من علّته وعاد إلى أحسن أحواله.

ويقال: إنه أوّل من عمل العَجَل[٣] وضبّبها[٤] بالذهب، وعمل فيها قبابًا من الخُشب المذهبة وفُرشت بأحسن الفرش، وكان يركب عليها مع مَن أحبّ. وقيل: إنه عُمل له ذلك في علّته لأنه كان لا يقدر على الركوب؛ وكانت البقر تجرّه فإذا مرّ بالمكان النزِه أقام فيه، وإن مرّ بالمكان الخراب أمر بعمارته. وقيل: إنه نظر إلى ثور أبلق من البقر الذي يجرّ عجلته فأعجبه حُسن بَشَرته فأمر بترفيهه وسَوْقه بين يديه إلى كل موضع يسلكه إعجابًا به، وجعل عليه جُلاً[٥] من الدِّيباج المنسوج بالذهب، فلما كان في بعض الأيام ـ وقد خلا في موضع منفرد عن أتباعه والثور قائم بين يديه ـ إذ خاطبه الثور وقال: لو رفّهني الملك عن السير معه وجعلني في الهيكل وعبدني وأمر أهل مملكته بعبادتي كفيته جميع ما يريده، وعاونته على أمره، وقوّيته في مُلْكه،

---

(١) الإغراب: الإتيان بالشيء الغريب.

(٢) الثور الأبلق: الذي يكون فيه سواد وبياض.

(٣) العجل: جمع العجلة، وهي الدولاب؛ والمراد بها هنا العربة.

(٤) يقال: ضبّب الخشب ونحوه: أي ألبسه الحديد ونحوه.

(٥) الجلّ: ما تغطى به الدابة لتصان، جمع: جلال وأجلال.

وأزلت عنه جميع عِلَله؛ فأرتاع لذلك وأمر بالثور أن يُغسَل ويطيَّب وينظَّف ويدخل الهيكل، وأمر بعبادته. وعُبد ذلك الثور مدّة وصارت فيه آية(١) أنه لا يبول ولا يَرُوث ولا يأكل إلاّ أطراف ورق القصب الأخضر في كل شهر مرّتين، فأفتتن الناس به وصار ذلك أصلاً لعبادة البقر.

قال: وابتنى مناوش مواضع وكنز فيها كنوزًا وأقام أعلامًا. وبنى في صحراء الغرب مدينة يقال لها ديماس(٢) وأقام فيها منارًا ودفن حولها كنوزًا. قال: ويقال: إن هذه المدينة قائمة، وإن قومًا جازوا بها من نواحي الغرب وقد أضلّوا الطريق فسمعوا بها عَزِيف(٣) الجنّ ورأوْا أضواء نيرانهم. قال: وفي بعض كتبهم أنّ ذلك الثور، بعد مدّة من عبادتهم له، أمرهم أن يعملوا صورته من ذهب أجوف، ويُؤخَذ من رأسه هو شعرات، ومن ذنبه ومن نحاتة قرونه وأظلافه، ويُجعَل ذلك في التمثال، وعرّفهم أنه يُلحَق بعالَمه وأمرهم أن يجعلوا جسده في جُرن من حجر أحمر ويُدفَن في الهيكل ويُنصَب تمثاله عليه، ويكون ذلك وزُحَل في شَرفه والشمس مسعودة تنظر إليه من تثليث والقمر في الزيادة، ويُنقَش على التمثال علامات الكواكب السبعة ففعلوا ذلك، وعملت الصورة من ذهب ملمّع على شِبْه الثور، وجُعل له قرنان من ذهب وكُلّلا بأصناف الجواهر، وجعلوا عينيه جَزْعتين(٤) سوادًا في بياض، ودفن جسد الثور في الجرن الأحمر.

قال: وجعل في المدينة شجرة تُطْلِع(٥) كل لون من الفاكهة، ومنارًا في وسطها طوله ثمانون ذراعًا، وعلى رأسه قبّة تتلوّن في كل يوم لونًا حتى تمضي سبعة أيام ثم تعود إلى اللون الأوّل فيكسو المدينة من تلك الألوان، وجعل حول المنار ماء شقّه إليه من النيل، وجعل في ذلك الماء سمكًا من ذلك اللون، وجعل حول المدينة طِلّسمات رؤوسها رؤوس قِرَدة وأبدانها أبدان الناس، كل واحد منها لدفع مضرّة أو اجتلاب منفعة، وعمل على أبواب المدينة، وهي أربعة أبواب، على كل باب صنمًا،

---

(١) الآية: المعجزة، أو العلامة.

(٢) ديماس: اسم موضع في وسط عسقلان عالٍ يطلع إليه وفيه عمد بقرب الجامع؛ وقيل هو سجن كان للحجاج بواسط؛ هذا ما ذكره ياقوت في معجم البلدان.

(٣) عزيف الجنّ: أصواتها.

(٤) الجزعتين: مثنى الجزعة: وهي القطعة من عقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان.

(٥) أطلع الشجر: أورق..

ودفن تحت كلّ صنم كنزًا من الكنوز؛ وباب كل واحد منها على قياس مائة ذراع منه إلى الجهة التي وجهه منصرف إليها، وكتب على كل واحد منها قُربانه وبخوره والوصول إليه، وأسكنها السحرة فكانت تعرف بمدينة السحرة، ومنها كانت أصناف السحرة تخرج.

قال: وأقام مناوش في الملك سبعًا وثلاثين سنة وهلك، وعُمل له ناووس تحت الجبل الغربيّ، وجعل وصيّتَه إلى ٱبنه من بعده هِرْميس بن منقاوش، فملك إحدى عشرة سنة لم يبنِ بنيانًا ولا نصب منارًا ولا عمل في أيامه أعجوبة حتى إنه لم يكن يذكر في عداد ملوكهم. فهذا ما أورده في أخبار قفطريم بن قبطيم وبنيه على توالٍ وٱتساق فلنذكر أخبار أشمون.

ذكر أخبار أشمون ومَن ملك من بنيه

هو أُشمون بن قبطيم بن مِصْريم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، وهو أخو قفطريم أبي الملوك الذين قدّمنا ذكرهم. كان مُلْكه من أُشمونين إلى منف، ومن الشرق إلى البحر المالح، ومن الغرب إلى حدود برقة، وهو آخر حدّ مصر، ومن الصعيد إلى حدّ أخميم. وكان ينزل مدينة الأشمونين وله بُنيت وبٱسمه سُمِّيت، وكان طولها اثني عشر ميلاً في مثلها. قال إبراهيم: وأشمون أوّل من ٱتّخذ الملاعب بأنصنا[١] والبهنسا وغيرها، وبنى القصور وغرس الغروس، وبنى مدينة تُعرف بقمَنْطر ذات العجائب، وهي بالقُرب من مدينة السحَرة التي تقدّم ذكرها في أخبار منقاوش. قال: وفي وسط هذه المدينة قبّة تُمطر شتاءً وصيفًا مطرًا خفيفًا، وتحت القبّة مطهرةٌ فيها ماء أخضر يُتداوَى به من كل داء فيبرئه، وفي شرقها سَرَب[٢] لطيف له أربعة أبواب، لكل باب منها عِضادة[٣] صورة وجه يخاطب كل واحد منها صاحبه بما يحدُث في قومه، ومَن دخل تلك البربا على غير طهارة نفخوا عليه فأصابته عِلّة فظيعة لا تفارقه إلى أن يموت. وكانوا يقولون إنّ في وسطه مهبط النور وهو في صورة

---

(١) أنصنا: بلدة بالصعيد الأوسط، وبها آثار عظيمة أولية، وهي على شط النيل من البر الشرقي قبالة الأشمونين من البر الآخر، ولها مزدرع كثير، وهي المدينة المشهورة بمدينة السحرة ومنها جلبهم فرعون.

(٢) السرب: الحمر الخفيّ.

(٣) عضادتا الباب: خشبتان منصوبتان مثبتتان في الحائط على جانبيه.

العمود، مَن اعتنقه لم يحتجب عن نظره شيء من الروحانيّات، ويسمع كلامهم ويرى ما يعملون، وعلى كل باب من أبواب هذه المدينة صورة راهب في يده مصحف فيه علوم الكهنة، فمن أحبّ ذلك العلم أتى تلك الصورة فمسحها بيديه وأمرّهما على صدره، فيثبت ذلك العلم في صدره. ويقال: إن هاتين المدينتين قمَنْطر ومدينة السحَرة بُنيتا على اسم هِرْمِس وهو عُطارد، وأنهما بحالهما.

قال: وحُكي عن رجل أنه أتى عبد العزيز بن مروان، وهو على مصر، فعرّفه أنه تاه في صحراء الشرق وأنه وقع على مدينة خراب، وأنه وجد فيها شجرة تحمل من كل فاكهة، وأنه أكل منها وتزوّد؛ فقال له رجل من القبط: هذه إحدى مدينتي هِرْمس وفيها كنوز كثيرة؛ فوجّه عبد العزيز معه جماعة وحمل معهم زادًا وماءً، فأقاموا يطوفون شهرًا في تلك الصحارى فلم يقفوا لها على أثر. ويقال: إن أُشمون عمِل في وقته على باب الأشمونين إوزّة من نحاس، فكان الغريب إذا دخل المدينة صاحت الإوزّة وخفقت بجناحيها فيعلَم به، فإن أحبّوا منعوه، وإن أحبّوا تركوه.

قال: وفي أيامه كثُرت الحيّات فكانوا يصيدونها ويعملون من لحومها الأدوية والدّرياقات[١]، ثم ساقوها بسحرهم إلى وادي الحيّات في جبال لوبية ومراقية[٢] فسجنوها هناك. قال: وهو أوّل من عمل النوروز[٣] بمصر ورتبه سبعة أيام يدمنون فيها الأكل والشرب واللهو. وفي زمانه بُنيت البهنسا وأقام بها أسطوانات، وجعل فيها مجلسًا من زُجاج أصفر وعليه قبّة مذهبة، فكانت الشمس إذا طلعت على القبّة ألقت شعاعها على المدينة. وعمل فيها عجائب كثيرة يطول الشرح بذكرها.

قال: ويقال إن أشمون كان أوّل إخوته ملكًا، وكان أعدل بني أبيه وأرغبَهم في صنعة تبقَى ويبقَى ذكرها. وهو الذي بنى المجالس المصفّحة بالزجاج الملوّن في وسَط النيل. وتزعم القِبْط أنه بنى سَرَبًا تحت الأرض من الأُشمونين إلى أَنْصِنا تحت

---

(١) الدرياقات: جمع الدرياقة، وهي الترياق، أو الخمر.

(٢) مراقية: بالفتح، والقاف مكسورة، والياء مخففة، إذا قصد القاصد من الإسكندرية إلى إفريقية فأول بلد يلقاه مراقبة ثم لوبية؛ ينسب إليها أبو محمد عبد الله بن أبي رومان عبد الله بن يحيى بن هلال الإسكندري المراقي.

(٣) النوروز، أو النيروز (فارسي) معناه: اليوم الجديد، وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية. وعيد النوروز أو النيروز: أكبر الأعياد القومية للفرس.

النيل. وقيل: إنه عمله لبناته لأنهنّ كنّ يمضِينَ إلى هيكل الشمس. وكان هذا السرَب مبلّط الأرض والحِيطان والسقف بالزجاج الثخين الملوّن. وقيل: إنه كان أطول إخوته مُلْكًا. وقال أهل الأثر: إنه ملك ثمانمائة سنة، وإن قوم عاد انتزعوا منه المُلْك بعد ستمائة سنة من مُلْكه وأقاموا تسعين سنة وٱستوبؤوا(١) البلد فٱنتقلوا إلى الدَّثِينة(٢) من طريق الحجاز إلى وادي القرى(٣) فعمروها واتخذوا بها المنازل والمصانع فسلّط الله عليهم الذَّرّ فأهلكهم، وعاد ملك مصر إلى أُشمون بعد خروجهم من البلد. ويقال: إنه ملكهم ثمانمائة سنة وثلاثين سنة، ودُفن في أحد الأهرام الصِّغار القبليّة. وقيل: بل عُمل له ناووس في غربي الأشمونين ودُفن معه فيه من الأموال والعجائب شيء كثير، وأصنام الكواكب السبعة التي كانت في هيكل المرآة التي تُرى منها الأقاليم، ودُفن معه ألف سَرْج من ذهب وفضّة، وعشرة آلاف خابية صغار من ذهب وفضّة وزجاج، وألف عُقَّار مدبّرة لفنون الأعمال وزُبر عليه اسمه ومدّة مُلْكه والوقت الذي مات فيه.

وٱستخلف ٱبنه مناقيوس بن أشمون. وكان جَلْدًا محنّكًا فاستأنف العمارة وبنى القرى ونصَب الأعلام(٤)، وجمع الحكمة ومصاحف الملوك والحكماء وعمل العجائب، وبنى لنفسه مدينة وٱنفرد بها، وعمل عليها حصنًا ونصب عليه أربعة أعلام، في كل ركن من أركانه علَم، وبين تلك الأعلام ثمانون صنمًا من نحاس وأخلاط، في أيديها آلات السلاح وزبر على صدرها آياتها(٥).

قال: وكان بمنف رجل من أولاد الكهنة من أعلم الناس بالسحر وأبصرهم بأخذ التماسيح والسباع، وكان يعلّم الغلمان السحر فإذا حذقوا علّم غيرهم؛ فأمر الملك أن تُبنَى له مدينة ويحوّل إليها فبُنيت، وهي إخميم. وملك مناقيوس نيّفًا وأربعين سنة ومات فدُفن في الهرم المحاذي لإطفيح، ونُقِل معه شيء كثير من المال والجواهر والآنية والتماثيل، وزُبِر عليه ٱسمه والوقت الذي مات فيه.

---

(١) استوبأ فلان البلد: استوخمها، أو وجدها وبئة.
(٢) الدثينة: ناحية بين الجند وعدن.
(٣) وادي القرى: هو واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى.
(٤) الأعلام: واحدها: علم، وهو شيء منصوب في الطريق يهتدى به. أو الراية، أو الجبل.
(٥) الآية: العلامة أو المعجزة.

وملك بعده ابنه ـ ولم يُسمّه إبراهيم ـ فكان أحزم من أبيه، فعظُم في عيون أهل مصر. وهو أوّل مَن عمل المَيْدان[١] وأمر أصحابه برياضة أنفسهم فيه. وأوّل من عمل البِيمارستانات[٢] لعلاج المرضَى والزمْنَى[٣] وأودعها العقاقير ورتّب فيها الأطبّاء وأجرى عليهم ما يسعهم، وأقام الأمناء على ذلك، وصنع لنفسه عيدًا وسمّاه عيد الملك؛ فكان الناس يجتمعون إليه في يوم من السنة، فيأكلون ويشربون سبعة أيام وهو يُشرف عليهم في مجلس قد بُنيَ له على عمد قد طُوِّقت ذهبًا وأُلبست فاخر الذهب المنسوج، وعليه قبّة مصفّحة من داخلها وخارجها بالذهب والزجاج المسبوك، وكان يعطي كلّ قوم قسطهم من النظر ثم يُكثرون الدعاء له وينصرفون إلى مواضعهم.

وفي أيامه بنيت سَنْتَرِيّة[٤] في صحراء الواحات، عملها من حجارة بيض مربّعة على تقدير واحد، وجعل في كل حائط من حيطانها بابًا في وسطه شارع ينتهي إلى الحائط المجاور له من الجهة الأخرى، وجعل في كل شارع أبوابًا يَمنة ويَسرة تنتهي طرقاتها إلى داخل المدينة، وجعل في وسط هذه المدينة ملعبًا يدور به من كل ناحية سبع درج؛ وعمل عليه قبّة من خشب مدهون على عمد عظيمة من رخام، وفي وسطه منار من رخام عليه صنم من صوّان أسود يدور مع الشمس بدَوَرَانها، وبسائر نواحي القبّة صور معلّقة تصفر وتصيح بلغات مختلفة. وكان الملك يجلس على الدرجة العالية من الملعب وحوله بنوه وأقاربه وأبناء الملوك، وعلى الدرجة الثانية رؤساء الكهنة والوزراء، وعلى الثالثة رؤساء الجيش، وعلى الرابعة أصحاب الفلسفة والمنجّمون والأطبّاء وأصحاب العلوم، وعلى الخامسة أصحاب العمارات، وعلى السادسة أصحاب المِهَن، وعلى السابعة العامّة؛ فيقال لكل طائفة منهم: انظروا مَن دُونَكم ولا تنظروا مَن فَوْقكم، فإنكم لا تلحقونهم فكان في هذا ضربٌ من التأديب.

قال: وكان للملك عدّة نسوة، وكان يحبّ منهنّ امرأتين ويتخطاهما ويجمع بينهما في مجلس واحد، فمال لإحديهما في بعض الأيام دون الأخرى، فغارت وغَرَب عقلها وتناولت سكّينًا ودخلت إلى الملك وهو مغتر وتلك المرأة جالسة إلى جنبه فضربتها بالسكّين، وقام الملك دُونها ليمنعها منها فضربته على فؤاده فخرّ صريعًا، وقُبض على المرأة وحُبست، ومات الملك. وقد أوصى بقتل المرأة ووضع رأسها على ناووسه. ومدّة مُلكه ستون سنة.

---

(١) الميدان: فسحة من الأرض متسعة معدة للسباق أو للرياضة ونحوها.

(٢) البيمارستانات: جمع البيمارستان، وهي المستشفى. (فارسي معرب).

(٣) الزمنى: جمع الزَمِن، وهو الذي مرض مرضًا يدوم زمانًا طويلاً.

(٤) سنتيرية: مدينة في غربي الفيوم دون فزام السودان وهي آخر أعمال مصر.

وملك بعده أبنه مرقورة الملك؛ فدخل عليه العظماء وهنؤوه ودعَوْا له بدوام المُلْك والنعمة، وكان حازمًا عاقلاً، فأخذ في حُسْن التدبير وتقويم العمارة وترتيب المراتب، وجعل لرأس الكهّان الحكومة في أمر الدِّين. قال: وفي كتبهم أنه أوّل مَن ذلّل السباع بمصر وركبها. قال: وبنى المدن وعمّر الهياكل وأقام الأصنام التي غربي منف، وكان مُلْكه نيّفًا وثلاثين سنة، وعُمل له ناووس على طريق الغرب على مسافة يومين.

وقلّد ابنه بلاطس بن مرقورة، فملك وهو صبيّ. وكانت أمّه تدبّر الملك مع الوزراء والكهنة، وكانت حازمة مجرّبة، فأجرت الأمور على ما كانت في حياة أبيه، وأحسنت إلى الأولياء، وعدلت في الرعيّة، ووضعت عنهم بعض الخراج فأحبّوها. وعُملت في وقته البركة العظيمة في صحراء الغَرْب، وجُعل في وسطها عمود طوله ثلاثون ذراعًا، في أعلاه قصعة من حجارة يفور منها الماء فهي لا تنقُص أبدًا، وجُعل حولها أصنام حجارة ملوّنة من كل صنف على صُوَر الحيوان والوحش والطير، وكان كل جنس يأتي إلى صورته ويألفها فيُؤخَذ ولا يدري.

قال: ولمّا ترعرع الملك أحبّ الصيد ولَهِج[١] به، فعمِلت له أمّه متنزّهًا فيه مجالس مركّبة على أساطين من المرمر مصفّحة بالذهب، عليها قباب مرصّعة بالتصاوير العجيبة والنقوش المؤلّفة، يطلُع من تحتها الماء في فوّارات[٢] وتنصب إلى أنهار مصفّحة بالفضّة تُفضِي إلى حدائق فيها بدائع الغروس، عليها تماثيل تصفر بأصناف اللغات، ونُضِّدت بأنواع الفواكه، وأرخت عليها ستور الدِّيباج المنسوجة بالذهب، وأختارت له من بنات الملوك الحسان وأزوجته منهنّ، وبنت حول تلك الجنة مجالس يجلس فيها الوزراء والكهنة وأشراف أهل الصناعات يرفعون إليه ما يعملونه، فكان أكثر مقام الملك في تلك الجنة، فإذا فرغوا من أعمالهم نُقِل إليهم الطعام والشراب من مطبخه، ولا يزالون في أكل وشرب بقية يومهم وليلتهم، وأقاموا على ذلك والأمور جارية على السداد.

وكانت أيامه سعيدة كثيرة الخِصْب والسعة للناس والعدل فيهم والإحسان إليهم. وكان له يوم يخرج فيه إلى الصيد ويرجع إلى جنّته فيأمر لمن معه بالجوائز والأطعمة والأشربة، ويجلس يومًا للناس فينظر في أمورهم ومصالحهم ويقضي حوائجهم،

---

(١) يقال: لهج بالأمر: أي أولع به فثابر عليه واعتاده.

(٢) الفوارة من الماء: منبعه.

ويجلس يومًا للخلوة بنسائه، ثم جُدر[١] فمات؛ وعُمل له ناووس في جنّته وجعل فيه من الأموال والجواهر والصنعة والتماثيل كما كان يجعل لآبائه. وكان ملكه ثلاث عشرة سنة، وأنتقل المُلْك إلى أعمامه.

ذكر أخبار أتريب الملك

هو أتريب بن قِبْطيم بن مصريم بن بَيْصر بن حام بن نوح عليه السلام. قال: وكان أتريب قد انتقل إلى حيِّزه بعد وفاة أبيه قبطيم، وهي المدينة التي كان أبوه بناها له، وكان طولها آثني عشر ميلًا، ولها آثنا عشر بابًا، وفي شارعها الأعظم ثلاثُ قِباب عالية على عمد بعضها فوق بعض، منها قبّة في وسط المدينة، وقبّتان في طرفيها، وجعل على كل ركن منها مرقبًا[٢] كبيرًا يُوقَد ليلًا، وعلى كل باب من أبوابها حرسًا كثيرًا، وجعل في كل جانب منها ملعبًا ومجالس ومتنزّهات تشرف من تلك المجالس عليها، وشقّ في عرضها نهرًا وعمل عليه قناطر معقودة، وبنى فوقها مجالس يتّصل بعضها ببعض، وجعل حوله منازل تدور بالخليج متّصلة بالقناطر على رياض مزروعة وخلفها الأجنّة[٣] والبساتين، وعلى كل باب من أبوابها أعجوبة من تماثيل وأصنام متحرّكة وأصنام ينبع الماء من آذانها، ومن داخل كل باب صورة شيطانين من صُفْر، فكان إذا قصدها أحد من أهل الخير قهقه الشيطان الذي عن يَمنة الباب، وإن كان من أهل الريب بكى الشيطان الذي عن يَسرة الباب، وجعل في كل متنزّه منها من الوحوش الآلفة والطير المغرّدة كل مستحسَن، وجعل فوق قباب المدينة صورًا تصفر إذا هبّت الرياح، ونصب له فيها مرايا ترى البلدان البعيدة والعجائب الغريبة، وبنى حذاءها في الشرق مدينة وجعل فيها ملاعب وأصنامًا بارزة كثيرة في خلق مختلفة، وجعل في وسطها بركة إذا مرّ بها الطير سقط عليها فلا يبرح حتى يؤخذ، وجعل لها حصنًا بأثني عشر بابًا وجعل على كل باب من أبوابها تمثالًا يعمل أعجوبة وعمل حولها أجِنّة، وجعل ما يقرُب منها من ناحية الشرق مجلسًا منقوشًا على ثماني أساطين، وفوق المجلس قبّة عليها طائر منشور الجناحين يصفر كل يوم ثلاث صَفَرات: بكرة، ونصف النهار، وعند الغروب، وأقام فيها أصنامًا وعجائب كثيرة، وبنى مدنًا كثيرة وأكثر من العمارات، وأقام رجلًا يقال له برسان يعمل الكيمياء،

---

(١) جدر فلان: أي أصابه الجدري، وهو مرض جلدي معد يتميز بطفح حليمي يتقيح ويعقبه قشر.
(٢) المرقب: موضع المراقبة، جمع مراقب. (٣) الأجنة: الحدائق ذات النخل والشجر.

وضرب منها دنانير، في كل دينار سبعة مثاقيل[١] عليها صورته، وعمل منها تماثيل كثيرة. وعاش أتريب في الملك ثلاثمائة سنة وستين سنة، وكانت سنّه خمسمائة سنة. وعُمل له ناووس في جبل بالشرق حُفر له تحته سَرَب بُطّن بالزجاج والمرمر[٢] وجُعل على سرير من ذهب مرصّع وحُملت إليه ذخائره، وجُعل على بابه صورة تنّين[٣] لا يدنو منه أحد إلاّ أهلكه، وزبر عليه اسمه وتاريخ وقته، وسفَوْا[٤] عليه الرمال.

وملكت بعده ابنته تدرورة فدبّرت الملك وساسته بأيدٍ وقوّة خمسًا وثلاثين سنة ثم ماتت.

فقام بالملك بعدها أخوها فليمون بن أتريب؛ فردّ الوزراء إلى مراتبهم، وأقام الكهّان على مواضعهم ولم يخرج الأمر عن رأيهم، وجدّ في العمارات وطلب الحكَم وعمل بها. وفي أيامه بُنيت تنّيس[٥] الأولى التي غرّقها البحر، وكان بينها وبين البحر شيء كثير، وحولها الزروع والأشجار والكروم والقُرى ومعاصر الخمر وغيرها وعمارة لم يكن أحسن منها، فأمر الملك أن يُبنَى له في وسطها مجالس، ويُنصَب له عليها قباب، وتزيّن بأحسن الزينة والنقوش، وأمر بفرشها وإصلاحها، وكان إذا بدأ النيل في الزيادة انتقل الملك إليها فأقام بها إلى النَّوْروز ورجع. وكان للملك بها أمناء يقسّمون المياه ويُعطون كل قرية قسطها، وكان على تلك القُرَى حصن يدور بقناطر، وكان كل ملك يأتي يأمر بعمارتها والزيادة فيها ويجعلها له متنزّهًا.

ويقال: إن الجنّتين اللتين ذكرهما الله تعالى في كتابه كانتا لأخوين من أهل بيت الملك أقطعهما الملك ذلك الموضع. وقد تقدّم ذكر خبرهما عند ذكرنا لبحيرة تِنِّيس، وهو في الباب السادس من القسم الرابع من الفن الأوّل في ذكر البحار والجزائر وهو في السفر الأوّل من كتابنا هذا.

---

(١) المثقال: جمع المثاقيل؛ والمثقال: وزن مقداره درهم وثلاثة أسباع درهم.

(٢) المرمر: صخر رخامي جيريّ متحول يتركب من بلورات الكلسيت، يستعمل للزينة في البناء، ولصنع التماثيل.

(٣) التنين: حيوان أسطوري يجمع بين الزواحف والطير، ويقال: له مخالب أسد، وأجنحة نسر، وذنب أفعى. ويتخذ في بعض البلاد رمزًا قوميًا.

(٤) يقال: سفت الريح الرمل ونحوه؛ أي ذرته أو حملته.

(٥) تنيس: بكسرتين وتشديد النون، وياء ساكنة، والسين مهملة: جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين العزما ودمياط، والعزما في شرقيها، كانت تعمل بها الثياب الملونة والفرش البوقلمون؛ وقد سميت تنيس باسم تنيس بنت دلوكة الملكة، وهي العجوز صاحبة حائط العجوز بمصر.

قال: وفي زمان فليمون بُنيت دمياط على ٱسم غلام له كانت أمّه ساحرة لفليمون. قال: وملك فليمون تسعين سنة، وعمل لنفسه ناووسًا في الجبل الشرقيّ، وحوّل إليه من الأموال والجواهر وسائر الذخائر شيئًا كثيرًا، وجعل من داخله تماثيل تدور بلوالب في أيديها سيوف فمن دخلها قطّعته بسيوفها. وجعل عن يمينه ويساره أسدَين من نحاس مذهب بلوالب أيضًا فمن دنا منهما حطّماه، وزبر على الناووس: هذا قبر فليمون بن أتريب بن قبطيم بن مصريم، عمّر عمرًا، وبقي دهرًا، وأتاه الموت فما ٱستطاع له دفعًا، فمن وصل إليه فلا يسلبه ما عليه، وليأخذ مما بين يديه.

وصار المُلْك بعده إلى ٱبنه قرسون بن فليمون؛ وجلس على سرير الملك، ودخل إليه عظماء أهل البلد والخاص والعام فهنّؤوه بالملك، فتقدّم في أمر الهياكل والكهنة وطلب الحكمة؛ وكان حَدَثًا جميلاً فعشقته إحدى نساء أبيه، وكانت تتولى طيبة[1] وتزعم أن أباه أمرها بذلك، ثم بعثت إلى ساحرة من أعلم السحرة بمنف فسألتها أن تسحره لها وبذلت لها على ذلك أموالاً، وإذا الساحرة قد عشقته أشدّ من عشقها، فسَعَت بٱمرأة أبيه وعرّفته ما بذلت لها على ذلك، فأبعدها عن مجلسه ومنعها من الدخول إليه.

وبلغ ملكًا من ملوك حِمْير أن مُلْك مصر صار إلى غلام حَدَث غرّ فطمع فيه وسار إليه في جموع عظيمة، فخرج قرسون نحوه فٱلتقوا بأيلة وٱقتتلوا قتالاً شديدًا حتى تفانَى الفريقان، فأتت تلك الساحرة إلى الملك فقالت: ما تجعل لي إن أعنْتك على عدوّك حتى تفضّ جموعه وتظفر به؟ قال حُكْمك؛ فأخذت عليه بذلك العهود والمواثيق، وأصبحوا للحرب فدخّنت الساحرة بدخن عجيبة وأظهرت تخاييل هائلة، فهرب الحميريّ في نَفَر يسير من ثقاته، وقتل بقية أصحابه، وحاز جميع ما كان في خزائنهم، وعاد الملك إلى منف بالظفر والغنيمة، فأتته الساحرة فسألته الوفاء بالشرط فقال: احتكمي ما أحببتِ، فهذه الأموال والخزائن بين يديك؛ فقالت: ما أريد غير الملك؛ فقال: ويحك! إنك لست من أهل بيت الملك، وقد علمت ما في هذا على الملك؛ فقالت: قد كان الملوك قبلك يغصبون نساء الناس ويلدن منهم ولا يسألون عن ولاداتهم، وأنا ٱبنة فلان رئيس الكهنة، ويوشِك أن يحتاج الملك إليّ بعد هذا. ولم تزل به حتى انصرف قلبه إليها، فتزوّجها وأحبّها وحظيت عنده. فضاقت الأرض

(١) طيبة: هي ثيبة عاصمة الصعيد في أيام الفراعنة وذات المائة باب، وفي بعض مكانها الآن مدينة الأقصر..

بٱمرأة أبيه فأخذت في أعمال الحيلة عليها؛ فدسّت جارية لها عاقلة لطيفة على ساقي الملك الذي يتولّى شرابه، فاختلطت بجواريه حتى تمكّنت من إناء كان فيه شرابٌ للملك فألقت فيه سمًّا وعادت في الوقت إلى مولاتها وأخبرتها، فدخلت إلى الملك فسجدت له وقالت: قد كنتُ للملك ناصحة، وعليه مشفقة، فأقصاني وٱختصّ هذه الساحرة الفاجرة، وقد سمّت شرابه في إناء من صفته كذا وكذا، فليسقها الملك منه ليعلم صدقي؛ فدعا الملك بالإناء فوجده على ما ذكرت، فأحضر الساحرة وأمرها بشرب قدح منه فشربته ولم تعلم ما فيه فسقط لحمها عن عظمها. فأمر بدفنها في ناووس وزبر عليه اسمها وما همّت به وما صار أمرها إليه، وعاد ٱمرأة أبيه وتزوّج بها وحسنت حالها عنده.

قال: وفي أيامه عُمل المنار على بحر القُلزُم[١] وجُعلت على رأسه مرآة من أخلاط تجتذب المراكب على شاطىء البحر، فلا يمكنها أن تبرح أو تعشّر، فإذا عَشّرت[٢] سترت المرأة فتجوز المراكب.

قال: وأقام قرسون ملكًا مائتين وستين سنة؛ وقد كان عمل لنفسه ناووسًا خلف الجبل الأسود الشرقيّ، وجعل في وسطه قبّة فيها اثني عشر بيتًا، في كل بيت أعجوبة لا تشبه الأخرى، وزبر عليها اسمه ومدّة ملكه. قال: وملك بعده ثلاثة أو أربعة. فهؤلاء الذين سمّاهم من أولاد أتريب ممن ملك منهم. والله أعلم.

ذكر أخبار صا بن قبطيم بن مصريم بن بيصر بن حام ٱبن نوح عليه السلام

قال: ولمّا قسم قبطيم الأرض بين بنيه الأربعة كما تقدّم وانتقل كل واحد منهم إلى حيّزه، خرج صَا بأهله وولده وحشَمه إلى حيّزه، وهو بلد البحيرة وما يليها إلى برقة، ونزل مدينة صَا[٣]، وذلك قبل أن تُبنَى الإسكندرية. وكان صا أصغر ولد أبيه وأحبّهم إليه، فلمّا ملك حيّزه أمر بالنظر في العمارة، وبنى المدائن والبلدان والهياكل، وعمل في إظهار العجائب كما صنع إخوته، وطلب الزيادة في ذلك. وكان مرهون

---

(١) بحر القلزم: هو المعروف الآن بالبحر الأحمر.

(٢) عشرت: أي دفعت عشر الأموال.

(٣) صا: بالقصر: كورة بمصر يقال لها صا، وصا مسماة بصا بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام. وهي ما بين صا إلى البحر، وعدها القضاعي في كورة الحوف البحري.

الهندي صاحب بنائه، فبنى له من حدّ صا إلى حدّ لوبية[١] ومراقية على عبر البحر أعلامًا، وجعل على رؤوس تلك الأعلام مرايا من أخلاط شتّى: فكان منها ما يمنع من دوابّ البحر وأذاهم، ومنها ما إذا قصدهم عدوّ من الجزائر الداخلة وأصابها الشمس ألقت شعاعها على مراكبهم فأحرقتها، ومنها ما يُري المدائن التي تجاورهم من عدوة البحر وما يعمله أهلها، ومنها ما ينظر منها إلى إقليم مصر فيعلم ما يخصب وما يجدب منه في كل سنة. وجعل فيها حمامات تُوقد من نفسها ومستشرفات. وكان كل يوم في موضع منها بمن يخصّه من حشمه وخدمه، وجعل حولها بساتين وسرّح فيها الطيور المغرّدة والوحش المستوحش والمستأنس والأنهار المطردة والرياض المونقة، وجعل شرف القصر من حجارة ملوّنة تلمع إذا أصابتها الشمس فتنشر شعاعها على ما حولها؛ ولم يدع شيئًا من آلة النعمة والرفاهية إلا استعمله. فكانت العمارة ممتدّة إلى برقة في رمال من رشيد[٢] إلى الإسكندرية إلى برقة. وكان الرجل يسافر في أرض مصر لا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه والخيرات، ولا يسير إلا في ظلال تستره من الشمس. وعمل في تلك الصحارى قصورًا وغرس فيها غروسًا، وساق إليها من النيل أنهارًا. وكان يسلك من الجانب الغربيّ إلى حدّ الغرب في عمارة متصلة.

قال: فلما أنقرض[٣] أولئك القوم بقيت آثارهم في تلك الصحارى وخربت تلك المنازل وباد أهلها. قال: ولا يزال مَن دخل تلك الصحارى يَحكي ما رأى فيها من الآثار والعجائب.

قال: ومن ملوكهم مرقونس؛ وكان فاضلاً حكيمًا، محبًا للنجوم والحكمة، فعُمل في أيامه درهم إذا أبتاع به صاحبه شيئًا اشترط أن يزن له ما يبتاعه منه بوزن الدرهم ولا يطلب عليه زيادة، فيغترّ البائع بذلك ويقبل الشرط، فإذا تمّ ذلك بينهما وقع في وزن الدرهم أرطال كثيرة تساوي عشرة أضعافه، وإن أحبّ أن يُدخل في وزنه أضعاف تلك الأرطال دخل. قال: وقد وُجد هذا الدرهم في كنوزهم في أيام بني

---

(١) لوبية: بالضم ثم السكون، وياء موحدة، وياء مثناة من تحت: مدينة بين الإسكندرية وبرقة، ينسب إليها لوبيّ.

(٢) رشيد: بفتح أوله، وكسر ثانيه، بلفظ الرشيد ضد الغويّ: بليدة على ساحل البحر الأحمر والنيل قرب الإسكندرية؛ خرج منها جماعة من المحدثين، منهم: عبد الوارث بن إبراهيم بن فراس الرشيدي المرادي قاضي رشيد؛ ويحيى بن جابر بن مالك الرشيدي القاري من القارة قاضي رشيد أيضًا، وغيرهما..

(٣) انقرض القوم: ذهبوا ولم يبق منهم أحد.

أميّة، فكان الناس يتعجّبون منه. وقد كانوا وجدوا درهمًا آخر قيل إنه عُمل في وقته أيضًا يكون في ميزان الرجل، فإذا أراد أن يبتاع حاجة أخذ الدرهم من ميزانه وقلبه وقال: اذكر العهد، ومضى فأبتاع به ما أراد، فإذا أخذ السِّلْعة ومضى إلى بيته وجد الدرهم قد سبقه إلى منزله، ووجد البائع حيث وضعه ورقة آس(١) أو قرطاس أو مثل ذلك بدور الدرهم.

وقيل: إن في وقته عُملت الآنية الزجاج التي توزَن، فإذا مُلئت ثم وُزنت لم تزد على وزنها الأوّل شيئًا، وهي تحمل من الماء بوزنها. وعُمِل أيضًا في وقته الآنية التي إذا جُعل الماء فيها صار خمرًا في لونه ورائحته وسكره. قال: وقد وُجد من هذه الآنية بإطفيح(٢) في إمارة هارون بن خُمَارويه بن أحمد بن طولون شربة جَزْع(٣) بعُروة زرقاء ببياض. وكان الذي وجدها أبو الحسن الصائغ الخراسانيّ هو ونفرٌ معه، فجلسوا ليأكلوا على عَبْر النيل وشربوا الماء بها فوجدوه خمرًا فسكروا منه ورقصوا، فوقعت الشربة فأنكسرت على عدّة قطع، فاغتمّ الرجل وجاء بها إلى هارون مكسورةً، فأسف عليها وقال: لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض مُلْكي.

وفي أيامه عُمِلت الصورة الحنتمية من الضفادع والخنافس والذباب والعقارب وسائر الحشرات، فكانت إذا جُعلت في موضع من المواضع اُجتمع إليها ذلك الجنس بعينه ولا يقدر أن يفارقها حتى يُقتَل. وعمل في صحراء الغرب ملعبًا من زجاج ملوّن، وجعل في وسطه قبّة من الزجاج خضراء صافية اللون؛ وكانت إذا طلعت عليها الشمس ألقت شعاعها على المواضع البعيدة. وعمل من أربع جهاته أربعة مواضع عالية من الزجاج، كلّ مجلس منها بلون، ونقش كلّ مجلس منها بما يخالف لونه من الطلّسمات العجيبة والنقوش الغريبة والصور البديعة؛ كل ذلك من زجاج مطابَق يَشِفّ(٤). وكان يقصد هذا الملعب ويُقيم فيه الأيام الكثيرة. وعمل له ثلاثة أعياد في كل سنة، فكانوا يحجّون إليه ويذبحون له ويقيمون فيه سبعة أيام؛ فلم يزل ذلك الملعب بحاله تقصده الأمم لتنظر إليه لأنه لم يكن له نظير ولا شكل، ولا عُمل في العالم مثلهُ إلى أن هدمه بعض الملوك لأنه تعاطى مثله فلم يقدر على ذلك.

---

(١) الآس: شجر دائم الخضرة، بيضي الورق، أبيض الزهر أو ورديّه، عطري، وثماره لبية سود تؤكل غضة، وتجفف فتكون من التوابل؛ وهو من فصيلة الآسيات.

(٢) إطفيح: هي الآن إحدى بلاد مركز الصف بمديرية الجيزة.

(٣) سمي جزعًا لأنه مقطع بألوان مختلفة، أي قطع سواده بياضه وصفرته.

(٤) شفّ الشيء: أي رقّ حتى يرى ما خلفه.

وكانت أمّ مرقونس ابنة ملك النوبة، وكان أبوها يعبد نجمًا يقال له السُّها[١]، ويسمّيه إلٰهًا، فسألت ابنها أن يعمل لها هيكلاً ويفردها به، فعمله لها وصفّحه بالذهب والفضّة وأقام فيه صنمًا وأرخت عليه ستور الحرير، فكانت تدخل إليه مع جواريها وحشمِها وتسجُد له كل يوم ثلاث مرّات. وعَمِلت في كل شهر عيدًا تقرّب له فيه القرابين وتبخّره ليله ونهاره، ونصبَت له كاهنًا من النوبة فكان يقوم به ويبخّره ويقرّب له، ولم تزل بابنها حتى سجد له ودعا الناس إلى عبادته.

قال: ولمّا رأى الكاهن أن الأمر قد أُحكم له من جهة الملك في عبادة الكواكب، أحبّ أن يكون له مثالاً في الأرض على صورة شيء من الحيوان يتعبّد له ليكون حذاء[٢] عينيه؛ فأقام يعمل الحيلة في ذلك إلى أن اتفق بمصر كثرة العِقْبان[٣] حتى أضرّت بالناس، فأحضره الملك وسأله عن كثرتها فقال: إنّ إلٰهك أرسلها لتعمل له نظيرًا يُسجَد له. فقال الملك: إن كان ذلك يُرضيه فأفعله، فعمل تمثال عُقاب طوله ذراعان في عرض ذراع من ذهب مسبوك، وعمل عينيه من ياقوتتين، وعمل له وشاحين من لؤلؤ منظوم على أنابيب جوهر أخضر، وجعل في منقاره كرة معلّقة وسَرْوَله بأدرك أحمر، وأقامه على قاعدة من فضّة منقوشة، وركّبها على قائمة زجاج أزرق، وجعله في أزَج عن يمين الهيكل، وألقى عليه ستور الحرير، وجعل له دُخْنة[٤] معمولة من جميع الأفاويه والصمغ، وقرّب له بعجل أسود وبكارة الفراريج وبواكير الفواكه والرياحين. فلما تمّت له سبعة أيام دعاهم إلى السجود له فأجابوه. ولم يزل الكاهن يُجهد نفسه في عبادته، وعَمِل له عيدًا دعاهم فيه إلى أن يبخّر له في أنصاف الشهور بالمندَل[٥] وترشّ الهياكل بالخمر العتيقة التي تؤخذ من رؤوس الجوابي[٦]، ونطق لهم العُقاب وعرّفهم أنه أزال عنهم العِقبان وضررَها؛ وكذلك يفعل في غيرها ممّا يخافون؛ فسُرّ الكاهن بذلك ووجّه إلى أمّ الملك فعرّفها ذلك فصارت إلى الهيكل، فلمّا سمعت كلام العقاب سرّها ذلك وأعظمته، وبلغ الملك خبره فركب إلى الهيكل حتى خاطبه وأمره ونهاه، فسجد له وأقام له سَدَنة وأمر أن يزيّن بأصناف الزينة، وكان الملك يقوم بذلك الهيكل ويسجد لتلك الصورة ويسألها عمّا يريد فتخبره.

---

(١) السُّها: كوكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى أو الصغرى.

(٢) حذاء عينيه: أي إزاءهما.

(٣) العقبان: جمع عقاب، وهو طائر من كواسر الطير قويّ المخالب، له منقار قصير أعقف، حادّ البصر. (لفظه مؤنث للذكر والأنثى).

(٤) الدّخنة: ما يتبخر به من الطيب. (٥) المندل: العود الطيب الرائحة. جمع منادل.

(٦) الجوابي: مفردها الجابية، وهي الحوض يجبى فيه الماء.

وعمل من الكيمياء والذهب ما لم يعمله أحد من الملوك. فيقال: إنه دَفَن في صحراء الغرب خمسمائة دَفِين. ويقال: إنه عمل على باب صَا عمودًا وجعل عليه صنمًا في صورة امرأة جالسة وفي يدها مرآة ينظر فيها العليل أو ينظر له أحد فيها فإن كان يموت رآه ميّتًا، وإن كان يعيش رآه حيًا؛ والمسافر، فإن كان مُقبلاً بوجهه علموا أنه راجع، وإن رآه موليًا علموا أنه متماد، وإن كان مريضًا أو ميّتًا رأوه كذلك. وعمل بالإسكندرية صورة راهب جالس على قاعدة وعلى رأسه كالبرنس[١] وفي يده كالعكّاز[٢] إذا مرّ به رجل تاجر جعل بين يديه شيئًا من الذهب على قدر بضاعته، وإن حاذاه عن بُعْد ولم يفعل ذلك لم يقدر على الجواز ويبيت قائمًا مكانه، فكان يجتمع من ذلك مالٌ عظيم يفرّق في الزمْنَى والفقراء.

وعمل في وقته كل أعجوبة طريفة، وأمر أن يُزبَر اسمه عليها وعلى كل علَم وكل طِلّسم وصنم. وعمل لنفسه ناووسًا في داخل أرض الغرب عند جبل يقال له سدام، وعمل تحته رحًى طوله مائة ذراع في ارتفاع ثلاثين ذراعًا في عرض عشرين ذراعًا، وصفّحه بالمرمر والزجاج الملوّن المسبوك وسقفه بالحجارة الصافية، وعمل فيما دار به مصاطب[٣] لطافًا مبلّطة بالزجاج، وعمل على كل مصطبة فيها أعجوبة وتمثالاً مما عُمل في وقته، وعمل في وسط الأزَج دكّة[٤] من زجاج ملوّن، على كل ركن من أركانها صورة تمنع من الدنو إليها، وبين كل صورتين كالمنارة عليها حجرٌ مضيء، وجعل في وسَط الدكّة حوضًا من ذهب يكون جسده فيه بعد تضميده بالأدوية الممسكة، ونقل إليه ذخائره من الجوهر والذهب وغير ذلك، وأمر أن يُسَدّ باب الأزَج بالصخور والرّصاص وتُهال عليه الرمال. وكان مُلْكه ثلاثًا وسبعين سنة، وعمره مائتين وأربعين سنة، وكان جميلاً ذا وَفْرة[٥] حَسنة فنسَكت عامّة نسائه بعده ولَزِمن الهيكل.

وعهد بالملك إلى ابنه أنساد بن مرقونس؛ فملك بعد أبيه وهو غلام ابن خمس وأربعين سنة، وكان مُعجبًا جبّارًا طمّاح العين، فنكح امرأة من نساء أبيه وانكشف أمره معها، وكان أكبر همّه اللهو واللعب، فجمع كل مُلْهٍ كان في مملكته وقصده كل مَن

---

(١) البرنس: كل ثوب رأسه منه، ملتزق به. أو القلنسوة الطويلة.
(٢) العكاز: عصًا يتوكأ عليها. جمع عكاكيز.
(٣) المصاطب: جمع المصطبة، وهي بناء غير مرتفع يجلس عليه.
(٤) الدكّة: مقعد مستطيل من خشب غالبًا يجلس عليه.
(٥) الوفرة: الشعر المجتمع على الرأس، أو ما جاوز شحمة الأذن.

هذه سبيله، وجعل تدبير المُلْك إلى وزير له يقال له مسرور، ورفض العلوم والهياكل والكهنة والنظرَ في أمور الناس. وعمل قصورًا من خشب عليها قباب من خشب منقوشة مموّهة وجعلها على أطواف[١] في النيل، فكان يشرب عليها مع من يحبّه من نسائه وخدمه ومَن يُلهيه. وعمِل عَجَلاً في البرّ وحمل عليها الأروقة المذهبة وفرشها بفاخر الفرش، فكان يتنزّه عليها ويجرّها البقر ويقيم في نزهته شهورًا لا يمرّ بموضع نزِه إلاّ أقام فيه أيامًا. وولّد من الشجر توليدًا كثيرًا. وٱستنفد أكثر ما في خزائن أبيه لجوائز المُلْهِين والنفقات في غير وجه. فلمّا أسرف في ذلك اجتمع الناس إلى وزيره فأنكروا عليه حاله وسألوه مسألته والمشورة عليه أن يقع عمّا هو عليه فضمن لهم ذلك، وفاوضه فيه فلم ينته عنه، وسلّط أصحابه على الناس فأساءوا إليهم وأضروا بهم. وخرج في بعض الأيام إلى متنزّه كان له قد صفّح مجالسه بصفائح الذهب والفضة، وغريب الزجاج الملوّن، والجواهر المخروطة، والصهاريج المرخّمة الملوّنة، وأمال إليه المياه، وغرس فيه الرياحين والثمار، وفرش مجالسه بأصناف الفرش؛ وكان إذا أحبّ أن يخلو بٱمرأة من نسائه خلا بها هناك؛ فإنه في ذلك المكان، وقد أقام به أيامًا، إذ خرج غلام لبعض حُرَمه فأتى بعض التجّار في حاجة أراد أخذها بغير ثمن، فمنعه التجّار منها، فوثب بهم فضربوه حتى أسالوا دمه وحمل، وٱتصل الخبر بالوزير وصاحب الجيش فركبا إلى الموضع وأنكرا على الناس فأغلظوا لهما، فٱنصرفا وعرّفا الملك الخبر، فأراهما أنه لم يحفل بذلك، وأمر بالنداء في الناس مَن تعرّض لكم من خدم الملك وأصحابه بأذى فاقتلوه، فشكره الناس وحمدوا فعله على ذلك، وتواصَوْا بالوثوب على أصحابه، حتى إذا مضى لذلك أسبوع وجه الملك إلى الوزير وصاحب الجيش فعرّفهما أنه قد عزم على الركوب إلى صحراء الغرب يتصيّد هناك؛ وأمر أن يركب معه الجيش ويتزوّدوا لثلاثة أيام ففعلوا، وخرج إلى البريّة فسار حتى إذا اختلط الظلام رجع الجيش حتى وافى باب المدينة، وأمر أصحابه أن يضعوا السيف في الناس فقتلوا خلقًا كثيرًا، ثم أمر أن ينادَى: هذا جزاء مَن أقدم على الملوك من رعاياهم وأصحاب مهنهم، وأخرب الموضع الذي ضُرب فيه الغلام، فاستغاث به الناس، فتقدّم إلى وزيره أن يطرح نفسه بين يديه ويسأله فيهم، ففعل وأمّنهم وقال:

---

(١) الأطواف: جمع الطوف: وهو عبارة عن قرب ينفخ فيها حتى تمتلىء هواء وتسد سدًا محكمًا، ويشد بعضها إلى بعض ويجعل عليها خشب في صورة سطح يركب عليه الناس فوق الماء؛ ليعبروا نهرًا ونحوه، أو يسيروا فيه.

مَن عاد إلى مثل ما كان فقد حلّ لنا دمه، فدعَوْا له وٱنصرفوا. ثم ٱحتجب عن الناس وٱستخفّ بالكهنة والهياكل فأبغضته العامّة والخاصّة وبغَوْا الغوائلَ[١] فٱحتال عليه خاصّته بطبّاخه وساقيه فسمّاه وهو ابن مائة وعشرين سنة فمات.

وصار الملك من بعده إلى ٱبنه صا بن أنساد بن مرقونس؛ قال: وأكثر القبط تزعُم أن صا بن مرقونس أخو أنساد. فملك وهنّأه الناس، فوعدهم بالعدل فيهم، والإحسان إليهم، وحُسْن النظر لهم، وسكن منف وحكم الأحياز كلها، وعمِل بها عجائب وطِلَّسمات، وردّ الكهنة إلى مراتبهم، ونفى المُلْهِين وأهل الشرّ ممن كان يصحب أخاه، ونصب العُقاب الذي كان أبوه عمله، وشرف هيكله ودعا إليه. وعمل في منف مرآة كان يرى منها ما يُخصِب من بلده وما يُجدِب. وبنى بداخل الواحات مدينة غرس حولها نخلاً كثيرًا. ونصب قُرْب البحر أعلامًا كثيرة. وعمل خلف المقطّم[٢] صنمًا يقال له صنم الحِيلة، فكان كل من تعذّر عليه أمرٌ يأتيه فيبخّره فيتيسّر عليه ذلك الأمر. وجعل على أطراف مصر أصحاب أخبار يرفعون إليه ما يجري في حدودهم. وعمِل على غربي النيل منائر يُوقَد عليها إذا قصدهم قاصد أو نابهم أمرٌ. ويقال: إنه بنى أكثر منف وكل بنيان عظيم بالإسكندرية.

قال: وكان لمّا ملك البلد بأسره جمع الحكماء إليه ونظر في النجوم، وكان ـ حاذقًا ـ فرأى أن بلده لا بدّ أن تغرق بالطوفان من نيلها، ورأى أنها تحت يد رجل يأتي من ناحية الشأم، فجمع كل فاعل بمصر وبنى في ألواح الأقصى مدينة جعل طول حصنها في الارتفاع خمسين ذراعًا وأودعها جميع الحِكَم والأموال.

وبنى المدينة[٣] التي وقع عليها موسى بن نُصَير في زمن بني أميّة، وكان قد أخذ على ألواح الأقصى، وكان عنده علم منها، وأقام سبعة أيام يسير في رمال وصحَارى سَمتَ الغرب والجنوب إلى أن ظهرت له مدينة عليها حصنٌ وأبواب حديد،

---

(١) الغوائلُ: واحدتها الغائلة، وهي الفساد والشرّ؛ أو الداهية.

(٢) المقطم: بضم أوله، وفتح ثانيه، وتشديد الطاء المهملة وفتحها، وميم: وهو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة، وهو جبل يمتد من أسوان وبلاد الحبشة على شاطىء النيل الشرقي حتى يكون منقطعه طرف القاهرة ويسمى في كل موضع باسم وعليه مساجد وصوامع للنصارى لكنه لا نبت فيه ولا ماء غير عين صغيرة تنز في دير للنصارى بالصعيد.. (معجم البلدان).

(٣) هذه المدينة تسمى «مدينة النحاس» ويقال لها «مدينة الصفر» وتقع في بعض مفاوز الأندلس.

فأصعد إليها الرجال ليقِفوا على ما فيها لمّا لم يمكنه فتح أبوابها، ولغلبة الرمال على ما حولها؛ فكانوا إذا عَلُوا الحصن وأشرفوا عليها وثبوا إليها؛ وعَرْض حصنها عشرون ذراعًا؛ فلمّا أعياه أمرها تركها ومضى، فهلك في تلك الطريق جماعة من أصحابه. فلم يُسمَع بأحد بعد موسى بن نُصَير ولا قبله وقع عليها.

قال: وفي تلك الصحارى أكثر متنزّهاتهم ومدائنهم العجيبة؛ إلا أنّ الرمال غلبت عليها. ولم يبق بمصر ملك إلا وقد عمل للرمال دفعًا ثم تفسد طِلَّسماتهم على تقادُم الأيام.

وقال: وحكى قوم من التُّنَاء[١] في ضياع الغرب: أنّ عاملاً من عمّالهم عَنُفَ بهم فهربوا ودخلوا في صحراء الغرب وحملوا معهم زادًا إلى أن يصلح أمرهم ويرجعوا إلى بلادهم، وكانوا على يوم وبعض آخر قد لحِجوا[٢] في سفح الجبل، فوجدوا عَيْرًا[٣] أهليًّا قد خرج من بعض شِعابه، فتبعه نفر منهم، فأخرجهم إلى مساكن وأشجار ونخل ومياه تَطَّرِدُ[٤] وقوم يسكنون هناك ويزرعون، فخاطبوهم وعجبوا منهم وسألوهم عن حالهم فعرّفوهم أنهم منذ كانوا يسكنون تلك الناحية ويتناسلون ويزرعون ولا يطالبهم أحدٌ بخراج ولا يُؤذيهم، وأنهم لم يدخلوا إلى ضياع الغرب قطّ، وقالوا لهم أنتقلوا إلينا؛ فخرج القوم بعد أن صلحت أمورهم وأجتمعوا على الرجوع إلى ذلك الموضع والسكنَى فيه بأهليهم ومواشيهم، فخرجوا يطلبون الطريق مدّة فما عرفوا الطريق ولا تأتّى لهم الوصول إليه بعد ذلك فأسِفوا على ما فاتهم منه.

وحُكي أيضًا عن آخرين ضلّوا الطريق في الغرب، فوقفوا على مدينة عامرة، كثيرة الناس والمواشي والنخيل والشجرَ، فأضافوهم[٥] وأكلوا عندهم وشربوا، وباتوا في طاحونة يعمل فيها الخبز، فسكروا من الشراب وناموا، فلم ينتبهوا إلاّ عند طلوع الشمس، فوجدوا أنفسهم في مدينة كبيرة خراب ليس فيها أحدٌ، فأرتاعوا لذلك وخرجوا على وجوههم كالهاربين، وساروا يومهم على غير سَمْت[٦] حتى قرب

(١) يقال: تنأ: أي أقام في البلد وغيره؛ فهو ثانيء، جمع تُنّاء، وهم المقيمون.
(٢) يقال: لحج بالمكان: إذا لزمه.
(٣) العير: الحمار.
(٤) تطرد: تجري.
(٥) أضافوهم: أي أنزلوهم ضيوفًا عندهم.
(٦) السمت: الطريق الواضح؛ أو المذهب؛ أو الهيئة؛ أو السكينة والوقار.

المساء، فظهرت لهم مدينة أخرى عظيمة أكبر من الأولى وأعمر، وأكثر أهلاً ودوابّ ومواشِيَ وشجرًا ونخلاً، فأنِسُوا بهم وأخبروهم بخبر المدينة، فجعلوا يعجبون منهم ويضحكون؛ وإذا لبعض أهل المدينة وليمةٌ فٱنطلقوا بهم معهم، فأكلوا وشربوا وغنّوْهم بأصناف الملاهي، وسألوهم عن حالهم فحدّثوهم أنهم ضلّوا عن الطريق في هذه الصحَارِي، فقالوا لهم: الطريق بين أيديكم واضح مستقيم لا يمكن أن تغلطوا فيه، فإن أحببتم المسير وجّهنا معكم مَن يُوقفكم على سَنَن الطريق الكبير الذي يوصلكم إلى منازلكم، وإن أحببتم أن تقيموا عندنا رفدناكم[1] وكنتم إخواننا وأحبابنا. قالوا: فسُررنا بذلك من قولهم، وأجمع بعضنا على المُقام معهم، وأجمع من كان له منا أهلٌ وولدٌ على أن يسير إلى منزله ويحملَ أهله وولده ويعودَ إليهم. قال: وبتنا عندهم في خير مَبيت، فرِحين بما ساق الله إلينا. فلمّا كان من الغد انتبهنا فوجدنا أنفسنا في مدينة عظيمة ليس فيه أحدٌ من الناس وقد تشعّب بعض حصنها، إلاّ أن حولها نخلاً قد تساقط ثمره وتكدّس حَوله، فلحِقَنا من الخوف لذلك والارتياع ما ٱستوحشنا له، وخرجنا على وجوهنا هاربين مفكّرين فيما عاينّاه من أهلها، وإنّا لنجدُ روائح الشراب منّا ومعاني الخُمار[2] ظاهرة، فلم نزل نسير يومنا أجمع وليس بنا جوع ولا عطشٌ، حتى إذا كان المساء رأينا راعيًا يرعَى غنمًا فسألناه عن العمارة وعن الطريق فدلّنا على الطريق وقال: إنّ العمارة حذاؤكم؛ وإذا بنِقار[3] من ماء المطر فشربنا منه وبتنا عليها، ثم أصبحنا فإذا نحن في خلاف موضعنا الذي كنّا فيه، وإذا آثار العمارة والناس فما سرنا إلاّ بعض يوم حتى دخلنا مدينة الأشمونين[4] بالصعيد، فكنّا نحدّث الناس ولا يقبلون منا.

قال: وهذه مدائن القوم القديمة قد غلب عليها الجانّ، ومنها ما قد سترته عن العيون فلا ينظر إليها أحد.

---

(١) رفدناكم: أي أعطيناكم؛ أو أعتاكم.

(٢) الخُمار: ما يصيب شارب الخمر من ألمها وصداعها.

(٣) النقار: جمع نقرة، بضم النون، وهي الوهدة المستديرة في الأرض.

(٤) أشمون: بالنون، وأهل مصر يقولون الأشمونين: وهي مدينة قديمة أزلية عارمة آهلة إلى هذه الغاية، وهي قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل ذات بساتين ونخل كثير، سميت باسم عامرها وهو أشمن بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح... (معجم البلدان).

قال: وذكر بعض القبط أن رجلاً من بني الكهنة الذين قتلهم أنساد سار إلى ملك الإفْرَنْجة فذكر له كنوز مصر وعجائبها وخيرها، وضمِن له أن يوصّله إلى مُلْكها وأموالها، ويدفع عنه أذى طِلّسماتها حتى يبلُغ جميع ما يريده ويعرّفه مواضع الكنوز. فلمّا اتصل بصَا الملك أنّ صاحب الإفْرَنْجة يتجهّز إليه، عمد إلى جبل بين البحر المالح وشرقي النيل فأصعد إليه أكثر كنوزه وما في خزائنه، وبنى عليها قِبابًا وصفّحها بالرَّصاص، وأمر ففتحوا جوانب الجبل إلى منتهى خمسين ذراعًا، وجعلوا في انتهاء المنحوت منه شبه الطرر[1] البارزة خارجة من النحت بقدر مائة ذراع وهو بين جبال وعرة، فحصّن أمواله هناك. وتجهّز إليه صاحب الإفْرَنْجَة في ألف مركب، فكان لا يمرّ بشيء من أعلام مصر ومناراتها وأصنامها إلاّ هدمه وكسره بمعونة الكاهن له. حتى أتى الإسكندرية الأولى فعاث فيها وهدم كثيرًا من معالمها إلى أن دخل النيل من ناحية رشيد وصعد إلى منف فحاربه أهل النواحي، وجعل ينهَب ما مرّ به ويقتُل مَن قَدر عليه إلى أن طلب المدائن الداخلة ليأخذ كنوزها فوجدها ممتنعة بالطلّسمات الشداد والمياه العميقة والخنادق الشدّاخات[2]، فأقام عليها أيامًا كثيرة يعالج أن يصل إليها، فلمّا لم يُمكنه ذلك قتل الكاهنَ، وهلك جماعةٌ من أصحابه، واجتمع أهل النواحي على مراكبه وأصحابه فقتلوا منهم خلقًا وأحرقوا بعض المراكب. ولما تيقّن أهل مصر تلفَ الكاهن الذي كان معه أرسلوا إليه سحرهم وتهاويلَهم، وأتت مع ذلك رياح غرقت كثيرًا من مراكبه، وكان جَل مرامه أن ينجو بنفسه فما عاد إلى الإفرنجة إلا وَقِيذًا[3] بجراحات أصابته، ورجع الناس إلى منازلهم وقُراهم، ورجع صا إلى منف فأقام بها وترك ما كنزه على حاله.

قال: ولم يزل بعد ذلك يغزو بلاد الروم وأهل الجزائر ويخرّبها فهابته الملوك، وتتبّع الكهنة فقتل منهم خلقًا، وأقام سبعًا وستين سنة، وكانت سنه مائة وسبعين سنة وهلك، فدُفن بمنف في ناووس عمله وسَط المدينة من تحت الأرض، وجعل المدخل إليه من خارج المدينة من الجهة الغربية، وحمل إليه أموالاً عظيمة وجواهر كثيرة، وتماثيلَ وطلّسمات وغيرَ ذلك كما فعل أجداده. وكان فيه أربعةُ آلاف تمثال ذهب على صُوَر شتّى برّية وبحرية، وتمثال عُقاب من جوهر أخضر جُعل عند رأسه، وتمثال تنّين من ذهب مشبّك عند رجليه وزبر عليه اسمه وسيرته وغلبته للملوك.

---

(١) الطرر: مفردها: الطرّة: وهي اسم الشيء المقطوع؛ أو طرف كل شيء وحرفه؛ أو شفير الوادي وغيره.

(٢) الشداخات: واحدتها الشداخة، وهي التي تشدخ، والشدخ: الكسر أو الشجّ.

(٣) الوقيذ: الشديد المرض المشرف على الموت.

وعهد إلى ابنه تدارُس بن صا؛ فملك الأحياز كلها بعد أبيه وصفا له مُلْك مصر. وكان محنّكًا مجرّبًا ذا أيدٍ وقوّة ومعرفة بالأمور؛ فأظهر العدل، وأقام الهياكل وأهّلَها قيامًا حسنًا. وبنى غربي منف بيتًا عظيماً للزُّهَرة وزبر جميع الأكبار - وكان صنم الزهرة من لازَوَرْد[١] مذهّب متوّجًا بذهب - وسوّره بسوارين من الزَّبَرْجَد الأخضر؛ وكان في صورة امرأة لها ضفيرتان من ذهب أسود مدبّر، وفي رجليها خلخالان من حجر أحمر شفاف ونعلان من ذهب، وفي يدها قضيبُ مَرجان[٢] وهي تشير بسبّابتها كالمسلّمة على مَن في الهيكل، وجعل حذاءها من الجانب الآخر تمثال بقرة ذات قرنين وضَرعين من نحاس أحمر مموّه بذهب موشحة بحجر اللازورد، ووجه البقرة محاذيًا لوجه الزهرة، وجعل بينهما مطهرة من أخلاط للأجساد على عمود رُخام مجزّع[٣] فيها ماء مدبّر يُستشفَى به من كل داء، وفرش الهيكل بحشيشة الزهرة يبدلونها في كل سبعة أيام، وجعل فيه كراسيّ للكهنة مصفّحة بذهب وفضّة، وقرّب له ألف رأس من الضأن والمعز والوحش والطير، وكان يحضر يوم الزهرة ويطوف به. وكانت فُرش الهيكل وستوره عن يمين تمثال الزهرة ويساره. وكان في قبّته صورة رجل راكب على فرس له جناحان وله حربة في سنانها رأس إنسان معلق، وبقي هذا إلى زمان بُخْتَ نصر وهو الذي هدمه. ويقال: إن تدارُس الملك هذا هو الذي حفر خليج سخا[٤]، وارتفع مال البلد في أيامه مائة ألف ألف دينار وخمسين ألف ألف دينار. وقصده بعض عمالقة الشأم فخرج إليه واستباحه ودخل إلى فلسطين فقتل منها خلقًا كثيرًا وسبى بعض حكمائها وأسكنهم مصر وهابته الملوك.

قال: وعلى رأس ثلاثين سنة من مُلْكه طمع السودان من الزَّنج والنُّوبة في أرضه فعاثوا وأفسدوا، فأمر بجمع الجيوش وأعدّ المراكب ووجّه قائدًا من قوّاده يقال له: بلوطس في ثلاثمائة ألف، وقائدًا آخر في مثلها، ووجّه في البحر ثلاثمائة سفينة في

---

(١) اللازورد: من الأحجار الكريمة، لونه أزرق سماوي أو بنفسجي، يكثر في أفغانستان وأمريكا، يستعمل للزينة.

(٢) المرجان: جنس حيوانات بحرية ثوابت، من طائفة المرجانيات، لها هيكل وكلس أحمر يعد من الأحجار الكريمة؛ ويكثر المرجان في البحر الأحمر.

(٣) المجزّع: المضبب بالجزع، والجزع: ضرب من العقيق..

(٤) سخا: كورة بمصر وقصبتها سخا بأسفل مصر، وهي الآن (في عصر صاحب معجم البلدان)، قصبة كورة الغربية ودار الوالي بها، ذكر أن في جامع سخا حجر أسود عليه طلّسم يعلم إذا أخرج الحجر من الجامع دخلت إليه العصافير فإذا أعيد إلى الجامع خرجت منه..

كل سفينة كاهنٌ يعمل أعجوبة من العجائب ثم خرج في جيوش كثيرة، فلقي جموع السودان وكانوا في زُهاء ألف ألف فهزموهم، وقتلوا أكثرهم أبرح[١] قتل، وأسر منهم خلقًا كثيرًا، وتبعهم حتى وصل إلى أرض الفِيلة من بلاد الزَّنج[٢] فأخذ منها عدّة من النمور والوحش وذللها وساقها معه إلى مصر. وعمل على حدود بلده منارات وزبر عليها مسيرَه وظفرَه والوقتَ الذي سار فيه. ولمّا وصل إلى مصر اعتلّ ورأى رؤيا تدلّ على موته، فعمِل لنفسه ناووسًا ونقل إليه شيئًا كثيرًا من أصنام الكواكب والذهب والجوهر والصنعة والتماثيل وهلك؛ فحُمل إليه وزُبِر عليه اسمه وتاريخُ الوقت الذي هلك فيه، وجُعل عليه طِلَّسمًا تمنع منه.

وعهد إلى ابنه ماليق بن تدارس؛ فملك بعد أبيه. وكان غلامًا كريمًا حسنَ الوجه، مجرّبًا، مخالفًا لأبيه وأهل بلده في عبادة الكواكب والبقر. ويقال: إنه كان موحدًا على دين أجداده قبطيم ومصريم، وكانت القبط تذمّه لذلك. وكان سبب إيمانه فيما حُكي أنه رأى في منامه أن رجلين لهما أجنحة أتياه فاختطفاه وحملاه إلى الفلك، فأوقفاه بين يدي شيخ أسود أبيض الرأس واللحية، فقال: هل عرفتني؟ فدخلته فزعة الحداثة، وكانت سنه نيّفًا وثلاثين سنة، فقال له: ما أعرفك! فقال: أنا قرويس، يعني زُحَل، فقال: قد عرفتك، أنت إلٰهي، فقال: إنك وإن كنتَ تدعوني إلٰهًا فإني مربوب مثلك، وإلٰهي الذي خلق السماواتِ والأرضَ وخلقني وخلقك، فقال: وأين هو؟ فقال: هو في العلوّ لا تراه العيون، ولا تلحقه الأوهام، وهو الذي جعلنا سببًا لتدبير العالَم الأسفل. قال له ماليق الملك: فكيف أعمل؟ قال: تُضمِر في نفسك ربوبيّته علينا. وتُخلِص في وحدانيّته وتعرف بأزليّته. ثم إنه أمر الرجلين فأنزلاه؛ فانتبه وهو مذعور، فدعا رأس الكهنة فقصّ عليه رؤياه فقال: قد نهاك عن عبادة الأوثان فإنها لا تضُرّ ولا تنفع، فقال له: مَن أعبد؟ قال: الله الذي خلق السماواتِ والكواكب التي فيها والأرض ومَن عليها. فكان الملك يحضر الهيكل فإذا سجد انحرف عن الصنم وأضمر السجود لخالق السماواتِ والأرض دون غيره، ثم أخذ في الغزو والغيبة عن أهل مصر وجال في البلدان.

قال: وقال بعض أهل مصر: إنّ الله تعالى أيّده بملك من الملائكة يعضّده ويرشده، وربما أتاه في نومه، فأمره أن يأمر الناس باتخاذ كل فارهٍ[٣] من الخيل،

---

(١) أبرح قتل: أي أشده.

(٢) بلاد الزنج: هي الآن بلاد الصومال والحبشة وبلاد زنجبار.

(٣) الفاره من الخيل: الذي جمل وحسن؛ أو الذي خفّ ونشط.

واتخاذ السلاح وما يصلُح للأسفار، وإعداد الزاد، واّتخذ في بحر الغرب مائتي سفينة، وخرج في جيش عظيم في البرّ والبحر، فلقيه جموع البربر في جموع لا تُحصَى فهزمهم واستأصل أكثرهم، وبلغ إلى إفريقية وسار منها، وكان لا يمرّ بأمة إلاّ أبادها إلى أن عدّى من ناحية الأندلس يريد الإفْرَنْجَة، وكان بها ملك عظيم يقال له: أرقيوس، فأقام يحاربه شهرًا ثم طلب صلحه وأهدى له هدايا كثيرة فسار عنه، ودوّخ الأمم المتّصلة بالبحر الأخضر[١] وأطاعه أكثرها. ومرّ بأمّة عُراة لهم حوافر في أرجلهم، وقرون صغار، وشعور كشعور الدوابّ، ولهم أنياب بارزة من أفواههم، فقاتلهم قتالاً شديدًا حتى أثخنهم، فنَفِروا منه إلى غِيرانٍ[٢] لهم مظلمة عظام.

والقبط تذكر أنه رأى سبعين أعجوبة، وعمل أعلامًا على البحر وزبر عليها اسمه ومسيرَه، وخرب مدن البربر حيث كانت، وألجأهم إلى قرون الجبال ورجع؛ فتلقّاه أهل مصر بأصناف اللهو والطيب والرياحين، وفُرشت له الطرقات ولَقوه بابنه بلهقانس وكان وُلد بعد مسيره فسُرّ به. واتصل خبره بالملوك فهابوه وحملوا إليه الهدايا من كل وجه ومكان.

قال: وبلغه أن قومًا من البربر سحرةً لهم تخاييل عجيبة وبخورات يدلّون بها، وأنهم في مدينة لهم يقال لها: قرميدة[٣]، في الغرب من مصر، قد ملّكوا عليهم امرأة ساحرة يقال لها: اسطافا، فاتصل به كثرة أذاهم للناس فغزاهم، فلما قرب منهم ستروا عنه مدينتهم بسحرهم فلم يرها، وطمّوا مياههم فلم يعرفها، فهلك أكثر أصحابه عطشًا. فلما ستروا عنه البلد صعد إلى ناحية الجنوب، ثم رجع على غير الطريق التي سار إليهم فيها، فمرّ بهيكل كان لهم يحضرونه في أعيادهم، فهدم بعضه وسقط منه موضع على جماعة ممن تولّى هدمه فأهلكهم، فلما رأى ذلك تركهم وانصرف، وخرجوا إلى هيكلهم فبنَوْا ما سقط منه وحرسوه بطِلّسمات محكمة، ونصبوا فوق قبّته طِلَّسمًا من نحاس مذهب، وكان إذا قصده أحد صاح صياحًا منكرًا يَرْعَد منه مَن سمعه ويبهت فيخرجون إليه ويصطلمون[٤]. وكانت ملكتهم أحذق منهم بالسحر فقالت: إني أعمل الحيلة في إفساد مصر وأضرّ وآذي أهلها، فعملت أشياء وأرسلتها

---

(١) البحر الأخضر، ويقال له بحر الظلمات: هو المحيط الإطلنطي.
(٢) الغيران: جمع غار، وهو ما ينحت في الجبل شبه المغارة فإذا اتسع قيل كهف.
(٣) قد تكون سميت «قرميدة» لكثرة صخورها. لأن القرمد يعني الصخور.
(٤) يصطلمون: يستأصلون.

مع مَن ألقاها في النيل، ففاض النيل على مزارعهم وغلاّتهم، وكثرت فيه التماسيح والضفادع، وكثرت العلل في الناس، وأنبثّت فيهم الثعابين والعقارب، فأحضر ماليق الكهنة والحكماء وقال: أخبروني عن هذه الحوداث التي حدثت في بلادنا ما هي؟ ولِمَ لم تشرحوها في طالع السنة؟ فأجتمعوا في دار حكمتهم ونظروا حتى علموا أنه من ناحية الغرب، وأنّ أمرأة عملته وألقته في النيل، فعلم أنه من فعل تلك الساحرة، فقال لهم: اجهدوا أنفسكم في هلاكها فقد بلغت فيكم مرادَها، فأجتمعوا للهيكل الذي فيه صور الكواكب وأصنامها، وسألوا الملك الحضور معهم فلم يمكنه الخلافُ عليهم. فلما أمسى لبس مِسْحًا وافترش رمادًا وأستقبل مصلاه وأقبل على الابتهال إلى الله والتضرّع وقال: يا ربّ يا الله، أنت إله الآلهة، وخالق الخلق، ولا يكون شيء إلا بقضائك، أسألك أن تكفيني أمر هؤلاء القوم، وغلبه السهر فأغفى في مصلاه، فرأى آتيًا يقول له: قد رحم الله تضرّعك، وأجاب دعاءك، وهو مُهلك هؤلاء القوم ومدمّر عليهم، وصارف عنك الماء المفسد والدوابّ المضرّة. فلمّا أصبح الكهنة غَدَوْا عليه وسألوه حضور هيكلهم، فقال لهم: قد كفيتكم أمر عدوّكم وأهلكتهم، وأزلت الماء الفاسد والدوابّ المضرّة عنكم، ولن ترَوْا بعدها شيئًا تكرهونه، فنظر بعضهم إلى بعض كالمنكرين لقوله وقالوا: قد سررنا بما ذكره الملك، وهم يضمرون الأستهزاء به والتكذيب له، ومضَوْا إلى دار الحكمة فقال بعضهم: الرأي ألا تقولوا في هذا شيئًا، فإن كان حقًّا وقفتم عليه، وإن كان باطلاً اتسع لكم اللفظ في لومه، وسيتبين لكم أمره.

فلما كان بعد يومين انكشف ذلك الماء الفاسد، وهلكت تلك الدوابّ المضرّة، فعلموا أن الذي أخبرهم به حقّ؛ وأمر قائدًا من قوّاده ورجالاً من الكهنة أن يمضوا حتى يعلموا علم هؤلاء القوم، فأتوا المدينة فوجدوا حصنها قد سقط وقد هلكوا بأجمعهم واحترقوا وأسودّت وجوههم؛ ووجدوا الأصنام منكّسة على وجوهها، وأموالَهم ظاهرة بين أيديهم، فطرقوا المدينة فلم يجدوا فيها غير رجل واحد كان مخالفًا لهم بسبب رؤيا رآها؛ ووجدوا من الأموال والجواهر وأصنام الذهب والتماثيل ما لا يُحصى ولا تعرف له قيمة، ووجدوا صورة كاهن لهم من زبرجد أخضر على قائمة من حجر الأسباد شم؛ ووجدوا صورة روحانيّ من ذهب، ورأسه من جوهر أحمر، وله جناحان من درّ، وفي يده مصحف فيه كثير من علومهم في دفّتين مرصّعتين بجوهر ملوّن؛ ووجدوا مِطهرة من ياقوت أزرق على قاعدة من زجاج أخضر مسبوك، وفيها فضلة من الماء الدافع لأسقامهم، وفرسًا من فضّة مَن عزم عليه بعزائمه

ودخنه بدُخنة ورَكِبه طار به فيما يزعمون، وغير ذلك من العجائب والأصنام؛ فحملوا من ذلك ما قدروا عليه من الأموال والجواهر، وسأل الملك ذلك الرجل: ما أعجب ما رأيت من أعمالهم؟ فقال: نعم أخبرك أيها الملك؛ إنه قصدهم بعض ملوك البربر، وكان جبّارًا من أهل بيت سحر، فجاء بالجموع الكثيرة وتخاييل هائلة، فأغلق أهلُ مدينتنا حصنهم ولجأوا إلى أصنامهم يخضعون لها ويتضرّعون إليها، وكان لهم كاهن عظيم الشأن، فسار إليه رؤساؤهم وشكَوْا إليه ما دهمهم من عدوّهم، فأتى إلى بركة عظيمة بعيدة القعر كانوا يشربون منها، فجلس على حافّتها وأحاط رؤساء الكهنة بها وزمزم على ماء البركة، فلم يزل كذلك حتى فار الماء وفاض، وخرجت من وسطه نار تتأجج، وظهر من وسطها وجه كدارة الشمس وعلى صورتها وضوئها، فخرّ الجماعة وسجدوا لذلك الوجه، وتجلّلهم نور؛ وجعل يعظم حتى ملأ البركة، وصعد حتى خرق سقف القبّة، ثم ارتفع إلى رأسها وسمعتُه يقول: قد كفيتكم شرّ عدوّكم، وأمرهم أن يأخذوا دوابّهم ففعلوا ذلك، وهَلَكَ الملك الذي قصدهم وجميعُ مَن كان معه، وٱنصرفوا؛ فأقبلوا يأكلون ويشربون، فقلت لبعض الكهنة: لقد رأيت عجبًا من ذلك الوجه فما هو؟ فقال: تلك الشمس تبدّت لنا في صورتها وأهلكت عدوّنا، صاحت بهم صيحة أحرقتهم فأصبحوا خامدين.

قال: وكان هذا الرجل عاقلاً فاتخذه ماليق وزيرًا. ولم يزل ماليق على التوحيد، وهو مع ذلك يساير أهل البلد خوفًا من ٱضطراب مُلكه، وأمر أن يُعمَل له ناووس، فكان يقصِده ويتعبّد فيه، وأمر ألا يُدفَن معه ذهب ولا جوهر، فلم يُدفَن معه شيء سوى الطِّيب وصحيفة مكتوبة بخطه فيها: هذا ناووس ملك مصر ماليق، مات مؤمنًا بالله العظيم لا يعبد معه غيره، بريئًا من الأصنام وعبادتها، مؤمنًا بالبعث والحساب والمجازاة على الأعمال، عاش كذا وكذا سنة، ملك فيها كذا وكذا، فمن أحبّ النجاة من عذاب الآخرة فليدِن بما دان[1] به. وأوصى ألا يُدفَن معه في ناووسه أحد من أهله، وكان قد كنزَ كنوزًا عظيمة وزبر عليها أن تخرجها أمة النبيّ المبعوث في آخر الزمان.

وٱستخلف لابنه حِرْما بن ماليق. قال: وكان ليّنًا سهلَ الخُلُق، لم يمت أبوه حتى شرح له التوحيد، وأمره أن يدين به، ونهاه عن عبادة الأصنام؛ وكان معه على ذلك في حياته، ثم رجع عنه بعد وفاته إلى دينهم. وكان سبب رجوعه إلى عبادة

(١) دان به: أي اتخذه دينًا وتعبّد به.

الأصنام أنّ أمّه كانت من بنات كبار الكهّان، فنقلته بعد موت أبيه إلى دينها وغلبته على رأيه، وأمرت بتجديد الهياكل وتشدّدت في عبادة الأصنام. وتزوّج حرما آمرأة من بني عمّه فأحبّها حبًّا شديدًا وهام بها، فأفسدته على جميع نسائه، فاشتدّ ذلك على أمه، وكانت له قَهْرَمانة[١] من أهل سُيُوط[٢] ساحرة لا تطاق، وكانت تميل إلى هذه المرأة لأنها كانت تعشق أخاها؛ فزادت في سحرها لتلك المرأة فأوحشت ما بين الملك وأمّه حتى رفضها وآستخفّ بأمرها، وزاد الأمر حتى حلف ألاّ يجاورها، وأنه يغزو وينصرف فلا يرجع إلى مصر أو يتّصل به موتُها، ففعل ذلك وغزا بلد الهند وأرض السودان.

وكان سبب خروجه إلى الهند أن ملكًا من ملوكها يقال له مسور خرج في عدد كثير وسايرته مراكبه في البحر ففتح بلدانًا وجزائر، وأكثر القتل والسبي؛ وذُكِرت له مصرُ فقصدها وآعتلّ فرجع من طريقه، فأمر حرما الملكُ بعمل مائة سفينة على شكل سفن الهند، وتجهّز وركب وحمل معه المرأة ووجوه أصحابه وقوّاده، وآستخلف آبنَه كلكن على مصر وكان صبيًا، وجعل معه وزيرًا يقال له لاون، وكاهنًا يقال له ويسموس، وخرج فمرّ على ساحل اليمن وعاث في مدائنه. وكان لا يمرّ بمدينة إلا أقام صنمًا وزبر عليه آسمَه ومسيرَه ووقتَه، وبلغ سرنديب[٣] فأوقع بأهلها، وغَنِم منها مالاً وجوهرًا كثيرًا، وحمل معه حكيمًا لهم، وبلغ جزيرةً بين الهند والصين بها قوم سمرٌ طوال يجرّون شعورهم، ورأى لهم الدوابّ والطيور وشجر الطيب والنارَجيل[٤] والفواكه التي لا تكون إلا عندهم، فأذعنوا له بالطاعة وحملوا إليه أموالاً وهدايا فقبلها وسار عنهم. وأقبل يتنقّل في تلك الجزائر عدّة سنين؛ فقيل: إنه أقام في سفره سبعَ عشْرةَ سنة، ورجع إلى مصر بالظَّفَر والغنيمة، ووجد أمه قد هلكت، ووجد آبنه على الملك كما آستخلفه؛ فسُرَّ بذلك وهابه مَنْ حوله من الملوك. وبنى عدّة هياكل وأقام فيها أصنام الكواكب؛ لأنها ـ فيما زعم ـ هي التي أيّدته في سفره حتى ظَفِر بما ظفر

(١) القهرمانة: مدبرة البيت ومتولية شؤونه.

(٢) سيوط: بفتح أوله، وآخره طاء: كورة جليلة من صعيد مصر؛ تغنّى بجمالها الشعراء أمثال أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن الساعاتي.

(٣) سرنديب: هي جزيرة سيلان الآن.

(٤) النارجيل: جنس شجر من الفصيلة النخلية، فيه أنواع للتزيين، وفيه نوع مثمر، ومن أسمائه الشعصور، والرانج، ويزرع لثمره المسمى: جوز الهند. ويستخرج منه دهن من أجود الأدهان المسماة: سموناً نباتية. واحداته: نارجيلة.

به وغَنِم ما غنمه. وقد كان حمل معه من الهند حكيمًا وطبيبًا، وكان معهما من كتبهم وحكمهم ما أظهرا به في مصر عجائب مشهورة، وحمل معه صنمًا من أصنام الهند من الذهب مقرَّطًا بالجوهر، فنصبه على بعض الهياكل التي عملها. وكان حكيم الهند يقوم به ويخدِمُه ويقرّب له. وكان يخبرهم بما يريدون منه.

قال: وأقام حرما بعد مُنْصَرَفِه من الهند مدّة ثم غزا نواحيَ الشام فأطاعه أهلها وهادَوْه ورجع إلى مصر. ثم غزا نواحي النوبة والسودان فصالحوه على خراج يحملونه له، ورفع أقدار الكهنة وزاد في تعظيم دينهم؛ فصوّروه في هياكلهم ومضاجعهم، وملكهم خمسًا وسبعين سنة. وعمل لنفسه في صحراء الغرب ناووسًا، وعمل برقودة[١] مصانع وعجائب، وأقام بها إلى أن مات وٱبنُه كلكن بمنف، فضمد جسده بالموميا والكافور والمرّ[٢]، وجعل في تابوت من ذهب، وجُعِل معه مالٌ كثير، وجوهر نفيس، وسلاح عجيب، وتماثيلُ وصنعة وعقاقيرُ، ومصحف الحكمة. وصوّر في جانب الناووس صورًا وزبر عليها ذكرَ السفن التي سار فيها، والبلدانَ التي فتحها، وسدّ باب الناووس وزبر عليه اسمَه ومدّتَه وتاريخَ الوقت الذي هلك فيه، وقتل جماعةٌ من نسائه أنفسَهنّ عليه. وكان جميلاً سمح الأخلاق، وٱغتمّ عليه الكهنة لإكرامه لهم، وأهل المملكة لاتّباعه لهم.

وملك بعده ٱبنه كلكن بن حرما، وعقد التاج على رأسه بالإسكندرية بعد موت أبيه وأقام بها شهرًا ورجع إلى منف. وكان أصناميًا على دين أبيه وٱستبشر به أهل مصر. وكان يحبّ الحكمة وإظهار العجائب ويقرّب أهلها ويُكثر جوائزهم. ولم يزل يعمل الكيمياء في مدّة ملكه؛ فخزن أموالاً عظيمة بصحارى الغرب. وهو أوّل من أظهر علم الكيمياء بمصر وكان مكتومًا. وكان الملوك قبله أمروا بترك صنعتها لئلا تجتمعَ ملوك الأمم على غزوهم، فعملها كلكن وملا دور الحكمة منها حتى لم يكن الذهبُ بمصر أكثر منه في وقته ولا الخراجُ؛ لأنه كان في وقته ـ فيما حكاه القبط ـ مائةَ ألفِ ألفِ وبضعةَ عشَرَ ألفِ ألفِ مثقالٍ. قال: وكان المثقال الواحد من الصّنعة يطرح على القناطير الكثيرة فيصبغها، فٱستغنَوْا عن إثارة المعادن لقلّة حاجتهم إليها. وعمل من الحجارة المسبوكة الملوّنة الصمّ التي تَشِفّ[٣] شيئًا كثيرًا لم يعمله مثله أحدٌ

(١) رقودة: هي مدينة الإسكندرية.

(٢) المرّ: صمغ شجر، وهو دواء نافع للسعال ولسع العقرب ولديدان الأمعاء.

(٣) شفّ: أي رقّ حتى يرى ما خلفه.

ممن تقدّمه. وعمل من الأدرك الملوّن والفيروزج أشياء تخرج عن العقول، حتى كان يسمَّى حكيمَ الملوك. وغلب جميع الكهنة في علومهم، وكان يخبرهم بما يَغيب عنهم، فهابوه وٱحتاجوا إلى علمه. وكان نمروذ بن كنعان الذي أهلكه الله تعالى على يد إبراهيم الخليل عليه السلام في وقته، فيقال: إنه لما ٱتصل بنمروذ خبر حكمته استزاره فوجّه إليه أن يلقاه منفردًا من أهله وحشمه بموضع كذا، ففعل النمروذ ذلك وسار إلى الموضع الذي ذكره، وأقبل كلكن على أربعة أفراس تحمله ذواتِ أجنحة، وقد أحاط به نور كالنار، وحوله صُوَرٌ هائلة قد خَيَّل بها، وهو متوشّح بثعبان محتزمًا ببعضه، والثعبان فاغرٌ فاه، ومعه قضيب آس أخضر كلما حرّك الثعبان رأسه ضربه بالقضيب. فلما رآه النمروذ هاله أمره وخاطبه؛ فاعترف له بجليل الملك والحكمة، وسأله أن يكون ظهيرًا له.

وتقول القبط: إن كلكن الملك كان يرتفع ويجلس على الهرم الغربيّ في قبّة تلوح على رأسه. وكان أهل البلد إذا دهمهم أمر ٱجتمعوا حول الهرم. ويقولون: إنه ربما أقام على رأس الهرم أيامًا لا يأكل ولا يشرب، ثم ٱستتر عنهم مدّة حتى توهّموا أنه هَلَكَ. وكان يجول في الأرض وحده حتى طَمِعت الملوك التي حوله في ملكه؛ فقصده ملك من ملوك الغرب يقال له «سادوم» في جيش عظيم، وأقبل من ناحية المغرب من نحو وادي هبيب[1] ليكبس البلد، فأقبل حتى وافاهم، ثم جلّلهم بشيء من سحره كالغمام شديد الحرارة، فأقاموا تحته أيامًا لا يدرون أين يتوجّهون، فطار إلى مصر فٱستأنس الناس لمقدَمه، فعرّفهم ما جرى وأمرهم بالخروج إليهم ليعرفوا خبرهم، فوجدوهم ودوابَّهم أمواتًا فعجبوا لذلك، وهابه الكهنة هيبة لم يهابوها أحدًا قبله، وصوّروه في جميع الهياكل، وملكهم زمانًا.

وبنى في آخر عمره هيكلاً لزُحَل من صَوّان أسود في ناحية الغرب، وجعل له عيدًا، وجعل في وسطه ناووسًا، وحمل إليه ما أراد من ذهب وجوهر، وحِكَم وعقاقيرَ، وعرّفهم بموته، وجعل على باب الناووس طِلَّسمات تمنع منه، وغاب عنهم فلم يقفوا على موته.

وكان قد أوصى إلى ٱبنه ماليا بن كلكن فملك بعد أبيه. وكان شَرِهًا كثيرَ الأكل والشرب، منفردًا بالرفاهة، غيرَ ناظر في شيء من الحكمة، وجعل أمر البلد إلى وزير

---

(١) وادي هبيب: هو واد بالجانب الغربي من أرض مصر فيما بين مريوط والفيوم، يجلب منه الملح والنطرون.

له. وكان معجبًا بالنساء؛ وكان له ثمانون آمرأة، ثم آتخذ آمرأة من بنات الملوك التي بمنف وكانت عاقلة سديدة الرأي، وكان بها مُعْجَباً فحمته النساءَ. وكان له بنون وبنات، وكان أكبر بنيه يقال له: طوطيس، فكان يستجهل[1] أباه فأعمل الحيلة في قتله، وإنما حملته على ذلك أمه وجماعة نسائه وبعض وزراء أبيه؛ فهجم عليه في وزرائه وهو سكران وتلك المرأة عنده فقتله وقتل المرأة وصلبها.

وملك بعده آبنه طوطيس بن ماليا وجلس على سرير الملك. وكان جبّارًا جريئًا شديد البأس مهيبًا؛ فدخل عليه الأشراف وهنئوه ودعَوْا له، وأمرهم بالإقبال على مصالحهم وما يَعنيهم، ووعدهم الإحسانَ.

والقبط تزعم أنه أوّل الفراعنة بمصر، وهو فرعون إبراهيم الخليل عليه السلام. ويقولون إن الفراعنة سبعة هو أوّلهم. قال: ثم تذاكر الناس ما فعله بأبيه وأنكروه وآستقبحوا صلبَه المرأة فأنزلها ودفنها، واستخفّ بالكهنة والهياكل.

ولنذكر خبره مع إبراهيم الخليل عليه السلام في أمر سارة، ونورد من ذلك ما أورده أهل الأثر وما ورد في الحديث الصحيح النبويّ من هذه القصة. قال إبراهيم بن القاسم الكاتب في سياقه أخباره: لما فارق إبراهيم عليه السلام قومَه والنمروذَ بنَ كنعان ونزل الشام ثم خرج إلى مصر ومعه سارة امرأته وخلّف آبن أخيه لوطًا بالشام وسار إلى مصر، وكانت سارة أحسن نساء العالمين في وقتها، ويقال إن يوسف الصدّيق ورث جزءًا من حسنها لأنها جدّة أبيه. قال: فلما سار إبراهيم إلى مصر وأتى الحرس المقيمون على أبواب المدينة فرأوا سارة وعجبوا من حسنها ورفعوا خبرها إلى طوطيس. وقد روينا في ذلك حديثًا بسندنا الذي قدّمناه إلى أبي عبد الله البخاريّ رحمه الله قال: حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب قال: حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيّ ﷺ: «هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فقيل: دخل إبراهيم بآمرأة هي من أحسن النساء؛ فأرسل إليه أنْ يا إبراهيم مَنْ هذه التي معك؟ قال: أختي. ثم رجع إليها فقال: لا تكذّبي حديثي فإني أخبرتهم أنكِ أختي؛ والله إنْ على الأرض من مؤمن غيري وغيرك؛ فأرسل بها إليه فقام إليها فقامت تَوَضَّأُ وتصلي، فقالت: اللهم إن كنتُ آمنتُ بك وبرسولك وأحصنت فرجي

---

(١) استجهله: استخفه؛ أو وجده جاهلاً؛ أو حمله على الجهل.

إلا على زوجي فلا تسلِّط عليّ هذا الكافرَ، فغُطّ[١] حتى ركض[٢] برجله. قال الأعرج: قال أبو سلمة بن عبد الرحمٰن: إن أبا هريرة قال: قالت: اللهم إن يمت يقال هي قتلته فأرسل، ثم قام إليها فقامت تَوَضَّأُ وتصلي وتقول: اللهم إن كنتُ آمنتُ بك وبرسولك وأحصنتُ فرجي إلا على زوجي فلا تسلّط عليّ هذا الكافر، فغُط حتى ركض برجله. قال عبد الرحمٰن: قال أبو سلمة: قال أبو هريرة: فقالت: اللهم إن يمت فيقال هي قتلته فأُرسل في الثانية أو في الثالثة. فقال: والله ما أرسلتم إليَّ إلا شيطانًا! إرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها آجر، فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام فقالت: أشعَرْتَ أن الله كبَت الكافرَ وأخدم وليدةً». هذا ما رويناه من صحيح البخاري. وقد ورد في أخبار طوطيس زيادات نذكرها؛ وهو أن الملك لما أطلقته في المرة الثالثة قال لها: إن لك ربًّا عظيمًا لا يُضيِّعكِ؛ وأعظم قدرها وسألها عن إبراهيم فقالت: هو قريبي وزوجي. قال: فإنه ذكر أنك أخته. قال: صدق أنا أخته في الدين، وكل من كان على ديننا فهو أخ لنا. قال: نعم الدينُ دينكم! ووجهها إلى ابنته حوريا، وكانت من العقل والكمال بمكان كبير، فألقى الله تعالى محبة سارة في قلبها فعظّمتها حوريا وأضافتها أحسن ضيافة، ووهبت لها جوهرًا ومالاً، فأتت به إبراهيمَ عليه السلام فقال لها: رُدِّيه فلا حاجة لنا به فردته؛ فذكرت حوريا ذلك لأبيها فعجب منها وقال: هؤلاء من قوم كرام ومن أهل بيت طهارة فتحيّلي في برّها بكل حيلة، فوهبت لها جاريةً قبطيةً من أحسن الجواري يقال لها آجر، وهي هاجر أم إسماعيل عليه السلام، وعملت لها سِلالاً من الحلوى وقالت: يكون معك هذا للزاد. وجعلت تحت الحلوى جوهرًا نفيسًا وحليًا مصبوغًا مكلّلاً. فقالت: أشاور صاحبي؛ فأتت إبراهيم عليه السلام فشاورته فقال: إذا كان مأكولاً فخذيه، فقبلته منها وخرج إبراهيم عليه السلام. فلما أمعنوا في السير أخرجت سارة بعض تلك السلال فأصابت الجوهر والحليّ، فعرّفت إبراهيم ذلك، فباع بعضه وحفر من ثمنه البئر التي جعلها للسبيل وفرّق بعضَه في وجوه البرّ، وكان يُضيف كل من مرّ به.

قال: وعاش طوطيس إلى أن وجهت إليه هاجر من مكة تعرّفه أنها بمكان جدب وتستغيثه، فأمر بحفر نهر في شرقيّ مصر يمرّ بسفح الجبل حتى ينتهي إلى مرفأ السفن

(١) غطّ: بضم الغين المعجمة وتشديد الطاء المهملة، أي أخذ بمجاري نفسه حتى سمع له غطيط.
(٢) ركضه برجله: أي ضربه بها.

في البحر المالح، فكان يحمل إليهما الحنطةَ وأصناف الغلاّت فتصل إلى جُدّة[١] وتحمل من هناك على المطايا، فأحيا بلد الحجاز مدّة. ويقال: إن كل ما حُلِّيتْ به الكعبة في ذلك العصر هو مما أهداه ملك مصر. ويقال: إنه لكثرة ما كان طوطيس يحمله إلى الحجاز سمّته العرب «جُرْهُمَ الصادق» وكذلك يسمِّيه كثير من أهل الأثر. وقد تقدّم في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام أن اسم الملك صادوق، ويقال: إنه سأل إبراهيمَ عليه السلام أن يبارك له في بلده، فدعا بالبركة لمصر، وعرّفه إبراهيم أن ولده سيملكها ويصير أمرها إليه.

قال: وطوطيس أوّل الفراعنة بمصر؛ وذلك أنه أكثر القتل حتى قتل قراباتِه وأهلَ بيته وبني عمه وخدمه ونسائه، وأكثر الكهنة والحكماء. وكان حريصًا على الولد فلم يرزقه الله ولدًا غير اُبنته حوريا، وكانت عاقلة حكيمة تأخذ على يده كثيرًا وتمنعه من سفك الدماء، فأبغضته وأبغضه الخلق: الخاص والعام. فلما رأت أمرَه يزيد خافت على زوال ملكهم فسمّته فهلك. وكان ملكه سبعين سنة. ولما مات اختلفوا فيمن يملّكوه عليهم بعده فقالوا: لا يُمَلَّكُ علينا أحد من أهل بيته، وأرادوا تمليك بعض ولد أتريب؛ فقام بعض الوزراء ودعا إلى تمليك ابنته لصنيعها فيه، ولِمَا كانت تنكر عليه، وتبعه أكثر القوّاد والوجوه فتمّ لها الأمر.

وملكت حوريا بنة طوطيس وجلست على سرير الملك، ووعدت الناس بالإحسان، وأخذت في جمع الأموال وحفظها، فاجتمع لها من الأموال والجوهر والحليّ والطيب ما لم يجتمع لملك، وقدّمت الكهنةَ وأهلَ الحكمة ورؤساءَ السَّحَرة ورفعت أقدارهم، وأمرت بتجديد الهياكل وتعظيمها. وسار مَنْ لم يرضها إلى مدينة أتريب وملّكوا عليهم رجلاً من ولد أتريب يقال له أنداخس؛ فعَقد على رأسه تاجًا واُنضمّ إليه جماعة من بني عمه وأهل بيته، فأنفذت إليه جيشًا فحاربه؛ فلما رأى أنه لا طاقة له بها دعاها إلى الصلح وخطبها إلى نفسه وقال لها: إن الملك لا يقوم بالنساء، وخوّفها أن يزول ملكهم بمكانها؛ فعملت صنيعًا وأمرت أن يحضره الناس على منازلهم، فحضروا وأكلوا وشربوا وبذلت لهم الأموال وعرّفتهم ما جرى من

---

(١) جُدّة: بالضم، والتشديد؛ والجدّة في الأصل الطريقة، والجدة الخطة في ظهر الحمار تخالف سائر لونه. وجُدّة: بلد على ساحل بحر اليمن، وهي فرضة مكة، بينها وبين مكة ثلاث ليال؛ عن الزمخشري، وقال الحازمي: بينهما يوم وليلة، وهي في الإقليم الثاني... قال أبو المنذر: وبجدة ولد جدّة بن حزم بن ريان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة فسمي جدة باسم الموضع... (معجم البلدان).

خِطبتها، فبعضٌ صوّب الرأي، وبعضٌ امتنع وقالوا: لا يتولّى علينا غيرها لمعرفتنا بعقلها وحكمتها، وهي وارثة الملك؛ ووثبوا على نفر ممن خالفها فقتلوهم، وخرجوا في جيش كثيف فلقوا جيش الخارج بأتريب[١] فهزموه وقتلوا كثيرًا من أصحابه، فهرب إلى أرض الشام وبها الكنعانيون من ولد عمليق، فاستغاث بملكهم وضَمِن له أخذَ مصر وفتحها، فجهزه بجيش عظيم إلى مصر، فاجتمع الناس كلهم إلى حوريا، ففتحت خزائن أبيها وفرّقت ما فيها على الناس فأحبّوها، وقوّت السحرة بالمال ووعدتهم الإحسان.

فلما تقدّم أنداخس بالجيوش أمرت السَّحرةَ أن يعمَلوا له عملًا، وكان على جيوشهم قائدٌ من عظماء قوّاد ملكهم يقال له جيرون؛ فلما نزلوا أرض مصر بعثت ظئرًا[٢] لها من عقلاء النساء إلى جيرون سرًّا من أنداخس تعرّفه رغبتها في تزويجه، لأنها لا تختار أحدًا من أهل بيتها، وأنه إن قَتَل أنداخس تزوّجت به وسلمت إليه ملك مصر ومنعت منه صاحبه. فرغِب في ذلك وسمّ أنداخس بسمّ أنفذته إليه فقتله؛ فوجهت إليه أنه لا يجوز أن أتزوّجك حتى تُظهِرَ في بلدي قوّتَك وحكمتك وتبنيَ لي مدينة عجيبة ـ وكان افتخارهم حينئذ بالبنيان وإقامة الأعلام وعمل العجائب ـ وقالت له: انتقل من موضعك هذا إلى غربيّ بلدي فثَمّ آثار لنا كثيرة فاقتف تلك الأعمال الغريبة وابن عليها. ففعل ذلك وبنى لها مدينة بصحراء الغرب يقال لها تندومة[٣]، وجرّ إليها من النيل نهرًا وغرس عليها غروسًا كثيرة، وأقام بها منارًا عاليًا، وعمل فوقه مِنْظرًا وصفّحه بالذهب والفضة والصُفْر والرخام الملوّن والزجاج المسبوك وأبدع في عمله. وكانت تمدّه بالأموال وتكاتب صاحبه عنه وتهاديه وهو لا يعلم.

فلما فرغ من بناء المدينة قالت له: إن لنا مدينة حصينة كانت لأوائلنا وقد خَربت منها أمكنة وتشعّث حصنها فامض إليها واعمل في إصلاحها إلى أن أنتقلَ إلى هذه المدينة التي بنيتها وأنقل إليها جميع ما يُحتاج إليه، فإذا فرغتَ من إصلاح تلك المدينة فأنفذ إليّ جيشًا حتى أصير إليك وأنظرَ ما صنعته، وأبعد عن مدينتي وأهل بيتي فإني أكره أن آتيك بالقرب منهم. فمضى وجدّ في عمل الإسكندرية الثالثة.

---

(١) أتريب: بالفتح ثم السكون وكسر الراء وياء ساكنة وباء: اسم كورة في شرقي مصر مسماة بأثريب بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، وقصبة هذه الكورة عين شمس، وعين شمس خراب لم يبق منها إلا آثار قديمة.

(٢) الظئر: المرضعة لغير ولدها.

(٣) تندومة: لم تقع على هذه الكلمة فيما وصلنا من المعاجم والمظان؛ وقد يكون المراد «تندة»، وهي قرية كبيرة في غربي النيل من الصعيد الأدنى.

قال: وأهل التاريخ يسوقون شيئًا من أخبار أنداخس ويذكرون أنه الذي قصد الوليد بن دومع العمليقي، وهو ثاني الفراعنة. وكان سبب قصده له أنه كانت به علّة فوجّه إلى المواضع ليُحمل إليه من مياهها حتى يعرف ما يلائم جسده، فوجّه غلامًا له فأتى مملكة مصر ووقف على كثرة خيراتها وحمل إلى صاحبه من مائها وألطافها وعاد إليه، فعرّفه حالَ مصر فقصدها في جيش كثيف حتى حطّ عليها، وكاتب الملكة وخطب إليها نفسها، فوجهت إليه مَنْ أشرف على حاله فوجد قومًا عظامًا لا يقوم بحربهم، فأجابته إلى النرويج وألطفته وشرطت عليه أن يبنيَ لها مدينة يُظهر فيها أَيْدَه[1] وقوّته ويجعلها مهرًا لها، فأجابها ودخل مصر وانتهى إلى ناحية الغرب ليبنيَ لها المدينة ناحية الإسكندرية، فأمرت أن يُتلقّى بأصناف الرياحين والفواكه وتُخَلَّقَ[2] وجوه الخيل؛ فمضى إلى الإسكندرية ـ وقد خربت بعد خروج العاديّة[3] منها ـ فنقل منها ما كان من حجارتها ومعالمها وعمدها ووضع أساس مدينة عظيمة وبعث إليها مائة ألف فاعل، فأقام في بنائها مدّة وأنفق جميع ما كان معه من المال، وكان كلما بنى بناءً خرجت من البحر دوابُّ تقلعه فإذا أصبح لم يجد منه شيئًا؛ فاهتمّ[4] لذلك.

وكانت حوريا قد أنفذت إليه ألف رأس من المَعَزِ اللبون يستعمل ألبانها في مطبخه، وكانت مع راع يثق به، وكان ذلك الراعي يطوف بها ويرعاها هناك، فكان إذا أراد أن ينصرف عند المساء خرجت إليه من البحر جارية حسناء فتتوق نفسُه إليها، فإذا كلمها شرطت عليه أن تصارعه فإن صرعها كانت له وإن صرعته أخذت رأسين من المَعْزِ؛ فكانت على طول الأيام تَصرعه وتأخذ من الغنم حتى أخذت أكثر من نصفها وتغير باقيها لشَغَله بحب تلك الصورة عن رعيها، وتغير هو أيضًا في جسمه ونَحَل، فمرّ به صاحبه وسأله عن حاله وحال الغنم فخبّره الخبر خوف سطوته فقال: أي وقت تخرج؟ قال: قرب المساء. فلبس ثياب الراعي وتولّى رِعْيَة الغنم يومَه إلى المساء، وخرجت الجارية فشرطت عليه كما شرطت على الراعي، فأجابها وصارعها فصرعها وقبض عليها وشدّها فقالت له: إن كان لا بدّ من أخذي فسلِّمني لصاحبي الأوّل فإنه ألطف بي، وقد عذَّبتُه مرةً بعد مرة، فردّها إليه وقال له: سلْها عن هذا البنيان الذي بنيتُه ويزول من ليلته مَنْ يفعل به ذلك؛ وهل في بنائه من حيلة؟ فسألها

---

(١) أيده: أي قوته واشتداده.
(٢) يقال: خلّقه: أي طيبه بالخلوق، وهو ضرب من الطيب معظم أجزائه من الزعفران.
(٣) العادية: نسبة إلى قبيلة عاد البائدة.
(٤) أهتمّ الرجل: أي اغتمّ.

الراعي عن ذلك فقالت: إن دوابّ البحر التي تنزع بنيانكم. قال: فهل فيها من حيلة؟ قالت: نعم. قال: وما هي؟ قالت: تعمَل توابيتَ من زجاج كثيف بأغطية وتجعل فيها قومًا يُحسنون الصناعة في التصوير، وتجعل معهم صحفًا وأنقاشًا وزادًا يكفيهم أيامًا، وتجعل التوابيتَ في المراكب بعد أن تُشُدّها بالحبال، فإذا توسّطوا الماء صوّر المصوّرون جميع ما مرّ بهم وتُرفع تلك التوابيتُ من الماء، فإذا وقفتم على تلك الصور فأعملوا لها أشباهًا من الصُفْر[1] أو من الحجارة أو من الرصاص وآنصِبوها أمام البنيان الذي تبنونه من جانب البحر، فإن تلك الدوابّ إذا خرجت ورأت صورها هربت ولم تعد. فعرّفه الراعي ذلك ففعله، وتمّ بناء المدينة.

وقل قوم من أهل التاريخ: إن صاحب البناء والغنم جيرون المؤتفكيّ وكان قَصَدهم قبل الوليد، وإنما أتاهم بعد حوريا وقهرهم جيرون وملك مصر. وذكروا أن الأموال التي كانت مع جيرون نَفِدت كلها في تلك المدّة ولم يتم البناء، فأمر الراعي فسأل تلك الجارية فقالت: إن في المدينة التي خَرِبت ملعبًا مستديرًا حوله سبعة عَمُدٍ على رؤوسها تماثيلُ من صُفْرٍ قيام، فقرّب لكل تمثال منها ثورًا سمينًا ولطِّخ العمودَ الذي عليه التمثال من دم الثور، وبخّره بشعر من ذنبه وشيء من نُحاتة قرونه وأظلافه، وقل له: هذا قربانك فأطلق لي ما عندك، ثم قِسْ من كل عمود إلى الجهة التي يتوجّه إليها وجهُ التمثال مائةَ ذراع وآحفر، وليكن ذلك في وقت آمتلاء القمر واستقامة زُحَل؛ فإنك تنتهي بعد خمسين ذراعًا إلى بلاطة عظيمة فلطِّخها بمرارة الثور وأقلعها فإنك تنزل منها إلى سَرَب طوله خمسون ذراعًا في آخره خِزانة مقفلة ومفتاح القفلْ تحت عتبة الباب فخذه ولطّخ الباب ببقية مرارة الثور ودمه وبخره بنُحاتة قرونه وأظلافه وشعره، وآدخل الباب بعد أن تَخرُجَ الرياحُ التي فيه، فإنه يستقبلك صنم في عنقه لوحٌ من صُفْر معلقّ مكتوب فيه جميع ما في الخزانة من مال وجوهر وتمثال وأعجوبة، فخذ منه ما شئت ولا تتعرض لميت تجده ولا لما عليه؛ وكذلك فآفعل بكل عمود وتمثاله؛ فإنك تجد في تلك الخزائن نواويسَ سبعةٍ من الملوك وكنوزَهم. فلما سمع ذلك سُرّ به وفعله فوجد ما لا يُدرك وصفه، ووجد من العجائب شيئًا كثيرًا؛ فتم بناء المدينة. وآتصل ذلك بحوريا فساءها؛ وإنما كانت أرادت إتعابه وهلاكه بالحيلة عليه. فيقال: إنه فيما وُجِد من العجائب درجُ ذهب مختومٌ بطين ذهب فيه مكحلة زبرجد

(١) الصفر: النحاس الأصفر.

فيها ذَرورٌ[١] أخضر ومعها عِرقُ جوهر أحمرُ، من اكتحل من ذلك الذَّرور وكان أشيب عاد شابًا وآسودّ شعره وأضاء بصره حتى يدرك النظر إلى أصناف الروحانيين، ووُجِد تمثالٌ من الذهب إذا أُظهر غيمت السماء وأمطرت، وتمثال غراب من حجر إذا سئل عن شيء صوّت وأجاب عنه. ويقال: إنه كان في كل خِزانة عشر أعجوبات.

قال: فلما فرغ جيرون من بناء المدينة وجه إليها يعلمها ذلك ويحثّها على القدوم. فحملت إليه فُرُشًا فاخرة وقالت: ابسطها في المجلس الذي تجلس فيه، وأقسم جيشك أثلاثًا وأنفذ إليّ ثلثه، حتى إذا بلغتُ ثلث الطريق فأنفذ إليّ الثلث الآخر، فإذا جزتُ نصف الطريق فأنفذ إليّ الثلث الباقي، ويكونون من ورائي لئلا يراني أحد إذا دخلت عليك، ولا يكن عندك إلا صِبْيَةٌ تثق بهم يخدمونك فإني أوافيك في جوارٍ تكفيك الخدمة ولا أحتشمهنّ[٢]؛ ففعل. وأقامت تحمل إليه الجهاز والأموال حتى علم بمسيرها ووجه إليها ثلث جيشه فعملت لهم الأطعمة والأشربة المسمومة، فلما أتَوْها استنزلهم جواريها وحشمُها وأقبلوا عليهم بتلك الأطعمة والأشربة والطيب والكساء واللهو فلم يصبح منهم أحد يعيش، ولقيها الثلث الثاني والثالث بعده ففعلت بهم كذلك، وهي توجِّه إليه أنها أنفذت جيشه إلى قصرها ومملكتها يحفظونه. إلى أن دخلت عليه هي وظِئرها وجوارٍ كنّ معها، فنفخت ظِئرُها في وجهه نفخة بهث إليها ثم رشّت عليه ماء كان معها فآرتعدت مفاصله فقال: من ظنّ أنه يغلب النساء فقد كذبته نفسه وغلبته النساء، ثم فصدت[٣] عروقه وأسالت دمه وقالت: دماء الملوك شفاء. وأخذت رأسه فوجّهت به إلى قصرها فنُصِب عليه وحملت تلك الأموال إلى منف. وبنت منارًا بالإسكندرية وزبرت عليه آسمها وآسمه وما فعلت به وتاريخ الوقت.

قال: ولما آتصل خبرُها بالملوك الذين يتاخمون بلدها، هابوها وأذعنوا لها وهادَوْها. وعملت بمصر عجائب كثيرة، وأقطعت أهل بيتها وقوّادها وحشمها أقطاعًا كثيرة، وأمرت أن يبنى على حدّ مصر من ناحية النوبة حصنٌ وقنطرة يجري ماء النيل من تحتها. وآعتلت حوريا فاجتمع إليها أهل مملكتها وسألوها أن تقدِّم عليهم ملكًا،

(١) الذرور: ما يذر في العين وعلى الجرح من دواء يابس، وعلى الطعام من ملح مسحوق. جمع أذرّة.

(٢) احتشمهنّ: أي أستحيي منهن.

(٣) فصدت العرق: أي شقّته لتستخرج دمه وتشربه.

ولم يكن في ذلك الوقت من ولد أبيها وأهل بيته من يصلح لذلك، فقلدت عمتها دليفة بنت ماموم، وكانت عذراء من عقلاء النساء وكبراهنّ، فعهِدَت إليها وأخذت لها المواثيق على أهل مصر ألا يُسْلِمِوها وأن يتبعوا أمرها، وسلمت إليها مفاتيح خزائنها، وأطلعتها على مواضع كنوز آبائها وكنوزها، وأمرت أن يضمّد جسدها بالكافور وتحملَ إلى المدينة التي بنيت لها في صحراء الغرب، وقد كانت عملت لها فيها ناووسًا وعملت فيه عجائب ونقلت إليه أصنام الكواكب، وزينته بأحسن الزينة ونصّبت له قَوَمة، وأسكنت تلك المدينةَ جماعةً من الكهنة وأصحاب العلوم والمهن وبعض الجيش، وعمرت تلك المدينة فلم تزل على حالها من العمارة إلى أن خرّبها بُخْتَنَصّر وحمل بعض كنوزها.

وجلست دليفة بنت ماموم على سرير الملك بعد وفاة حوريا، واجتمعت الكلمة عليها وأحسنت إلى الناس ووضعت عنهم خراجَ سنة، وقام عليها أيمينُ يطلب بثأر خاله أنداخس، واستنصر بملك العمالقة فوجّه معه قائدًا من قوّاده في جيش كثيف، فأخرجت إليه دليفة بعضَ قوّادها فألْتقَوْا بالعريش(١)، وجعل سَحَرةُ الفريقين يُظهرون التخاييل الهائلة والعجائب العظيمة والأصوات التي تقرع الأسماع وتؤلمها، فأقاموا مدّة يتكافؤون الحرب ويتراجعون فهلك بينهم خلق كثير، ثم أنهزم أصحاب دليفة إلى منف وسار أصحاب أيمين في آثارهم، ومضت دليفة في جمع من جيوشها إلى ناحية الصعيد فنزلت الأشمونين وأنفذت من قدرت عليه من الجيوش ووقعت الحرب بينهم بناحية الفيوم وخلّى أصحابُ دليفة الماءَ بينهم وبين عدوّهم، وأستنجدت دليفة بأهل مدائن الصعيد فحاربوا أصحابَ أيمين حتى أزالوهم عن منف، وكانوا قد ظَفِروا بها وعاثوا فيها، فهزموهم حتى ركبوا المراكب وعدوا إلى ناحية الحَوْف(٢)، وكان معهم ساحر من أهل ناحية قِفط فأظهر بسحره نارًا حالت بينهم وبين أصحاب دليفة، فلما

---

(١) العريش: بفتح أوله، وكسر ثانيه، ثم شين معجمة بعد الياء المثناة من تحت: هي مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم في وسط الرمل؛ وهي مدينة جليلة، وهي آخر مدينة تتصل بالشام من أعمال مصر ويتقلدها والي الجفار وهي مستقرة، وفيها جامعان ومنبران، وهواؤها صحيح طيب، وماؤها حلو عذب، وبها سوق جامع كبير وفنادق جامعة كبيرة ووكلاء للتجار ونخل كثير، وفيها صنوف من التمور ورمان يحمل إلى كل بلد بحسبه. . . (معجم البلدان).

(٢) الحوف: بمصر حوفان: الشرقي والغربي، وهما متصلان، أول الشرقي من جهة الشام وآخر الغربي قرب دمياط، يشتملان على بلدان وقرى كثيرة. .

زاد الأمر وأشفق أهل مصر من خروجها عن أيديهم سَفَرَ[١] السفراء بينهم على أن يجعلوا البلد قِسْمةً بينهم فأجاب كل منهما إلى الصلح، ثم غدرت دليفة بعد ذلك بأيمين وأخرجت الأموال والجواهر وفرقتها في الناس، وكان بعضهم قد لامها في الصلح، فرجعت إلى الحرب فأقاموا ثلاثة أشهر ثم ظهر أيمين عليها وهزمها إلى ناحية قوص وسار خلفها وتمكن من المملكة، فلما رأت ذلك سمّت نفسها فهلكت.

وملك بعدها أيمين؛ فتجبر وقتل خلقًا كثيرًا ممن كان حاربه. وكان الوليد بن دومع العمليقي قد خرج في جيش كثيف يتنقل في البلدان ويقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها؛ فلما صار بالشام انتهى إليه خبر مصر وعظم قدرها، وأن أمرها قد صار إلى النساء، وبادت ملوكها، فوجه غلامًا له يقال له عون، فسار إلى مصر وفتحها وحوى أموالاً، ومولاه لا يعرف خبره ولا يشك في هلاكه وهلاك الجيش الذي معه، لِمَا كان يسمع عما بمصر من الطلّسمات والسحر؛ ثم اتصل به خبره فسار إلى مصر فتلقاه عون وعرّفه أنه كان عزم على المسير إليه وإنما أراد تعديل البلد وإصلاحه فقبل قوله ودخل.

وملك مصر الوليد بن دومع العمليقيّ، واستباح أهلها وأخذ أموالها وقتل جماعة من كهنتها، ثم سنح[٢] له أن يخرج فيقفَ على مصبّ النيل ويعرف ما بناحيته من الأمم ويغزوهم، فأقام ثلاث سنين يستعدّ لخروجه، وأصلح ما يحتاج إليه، واستخلف عونًا على البلد وخرج في جيش كثيف فلم يمرّ بأمة إلا أبادها[٣]. فيقال: إنه أقام في سفره سنين كثيرة، وإنه مرّ على أمم من السودان وجاوزهم، ومرّ على أرض الذهب وفيها قضبان نابتة؛ ولم يزل يسير حتى بلغ البطيحة[٤] التي ينصبّ ماء النيل إليها من الأنهار التي تخرج من تحت جبل القُمْر؛ ثم سار حتى بلغ هيكل الشمس فدخله. ويقال: إنه خوطب فيه. وسار حتى بلغ جبل القمر؛ وهو جبل عال. وإنما سمي جبل القُمْر لأن القمر لا يطلع عليه لخروجه عن خط الاستواء. ونظر إلى النيل يخرج من تحته. وقد تقدّم خبر النيل.

---

(١) سفر السفراء بينهم: أصلح بينهم.

(٢) سنح: عرض.   (٣) أبادها: أهلكها.

(٤) هي إحدى البحيرات الثلاث التي تسمى: البطيحة الغربية، والبطيحة الشرقية، وبينهما البطيحة الكبرى، وهي التي يخرج منها نهر النيل المصري، ونهر النيل السوداني.

قال: ودخل الوليد القصر الذي فيه تماثيل النحاس التي عَمِلها هِرْمِس الأوّل في وقت البودسير الأوّل بن قفطريم. قال: ولما بلغ الوليد جبل القُمْر رأى جبلاً عاليًا فأعمل الحيلة وصعد عليه ليرى ما خلفه، فأشرف على البحر الأسود الزفتيّ المنتن، ونظر إلى النيل يجري عليه كالأنهار الرقاق، وأتته من ذلك البحر روائحُ منتنة هلك كثير من أصحابه من ريحها فأسرع النزولَ بعد أن كاد يَهْلِك.

قال: وذكر قوم أنهم لم يروْا شمسًا ولا قمرًا وإنما رأوْا نورًا أحمر كنور الشمس عند مغيبها. وأقام الوليد في غيبته أربعين سنة. وأما عَوْن الذي استخلفه بمصر فإنه فعل في غيبة الوليد ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر خبر عون وما فعله في غيبة الوليد وخبر المدينة التي بناها

قال: ولما مضت من غيبة الوليد بن دومع سبعُ سنين تجبّر غلامه عونٌ بمصر، وادّعى أنه الملك، وأنكر أن يكون غلامًا للوليد، وأنه أخوه وقلّده الملك بعده، ووثب على الناس وغلبهم بالسحرة وأسنى[١] جوائزهم ولم يمنعهم محابَّهم؛ فمالوا إليه ووثّقوا أمره، فلم يترك امرأة من بنات ملوك مصر إلا نكحها، ولا مالاً إلا أخذه وقتل صاحبه. وكان مع ذلك يلزم الهياكل ويُكرم الكهنة، فكانوا يُمسكون عنه إشفاقًا منه وخوفًا من السحرة الذين معه؛ إلى أن رأى في منامه الوليدَ بن دومع وكأنه يقول له: مَنْ أمرك أن تتسمى باسم الملك، وقد علمتَ أنه من فعل ذلك استحق القتل، ونكحتَ بنات الملوك وأخذتَ الأموالَ بغير واجب، ثم أمر بقدور فملئت زيتًا وأُحميت على أنه يغمر فيها، فلما غلت أمر بنزع ثيابه فأتى طائر في صورة عُقاب فاختطفه من أيديهم وحلق به في الجوّ وجعله في هوّة على رأس جبل، وأنه سقط من رأس الجبل إلى واد فيه حية، فانتبه مرعوبًا طائر العقل. وقد كان في فعله ذلك وتملُّكِه إذا خطرت بقلبه من ذكر الوليد خطرةٌ كاد عقله يزول، خوفًا منه لِمَا يعلمه من فظاظته[٢] وبطشه وقوّته. ولم يتيقّن هلاكَه وأضمر في نفسه الهربَ من مصر بما معه من الأموال.

قال: ولما رأى الرؤيا لم يشك في حياة الوليد وأنه سيعود، فأطلع بعضَ السَّحَرَة ممن يثق به على أمره وقال: إني خائف من الوليد وقد عزمت على الخروج

---

(١) يقال: أسنى جوائزهم: أي رفعها. (٢) الفظاظة: القساوة والإساءة.

من مصر فما الوجه عندكم؟ قالوا: نحن نُنْجِيك منه على أن تقبل منا. قال: قولوا، قالوا: تعمل عُقابًا وتعبده؛ فإن الذي حصّنك منه أحدُ الروحانيين وهو يريد ذلك منك. قال عون: أشهد لقد قال لي وأنا معه: أعرفْ لي هذا المقام ولا تَنْسَه. قالوا: قد بينا لك. فأجابهم إلى ذلك وعمل عُقابًا من ذهب وعمل عينيه جوهرتين ووشّحه بأصناف من الجوهر، وعمل له هيكلًا لطيفًا وجعله في صدره وأرخى عليه ستور الحرير، وأقبل أولئك يبخّرونه ويقرّبون إليه ويَسْحَرُون إلى أن نطق لهم، فأقبل عون على عبادته ودعا الناس إليها فأجابوه.

فلما مضى لذلك مدّة أمره العقاب ببناء مدينة يحوله إليها وتكون مَعْقِلًا[١] له وحرزًا من كل أحد. فأمر عون أصحابه أن يخرجوا إلى صحارِي الغرب ويطلبوا كل أرض سهلة حسنة الاستواء، ويكون المدخل إليها بين هجُول[٢] صعبة وجبال وعرة، ويتوخَّوْا أن تكون قريبة من ناحية مَغِيض[٣] الماء التي هي اليوم الفيوم. وكانت مغيضًا لماء النيل حتى أصلحها يوسف عليه السلام على ما نذكره إن شاء الله. وإنما أراد عون بذلك ليجرَّ الماء منها إلى مدينته التي يبنيها؛ فخرج أصحابه وأقاموا شهرًا يطوفون الصحارى حتى وجدوا له بغيته، ولم يبق فاعل ولا مهندس ولا أحد ممن يبصُر البناء ويقطع الصخور وينحتها إلا وجّه به عون إليها، وأنفذ معهم ألف رجل من جيشه وسبعمائةَ ساحر يعاونونهم بالروحانيين الذين في طاعتهم، وأنفذ معهم جميع الآلات وأقام يحمل لهم الزاد إلى هناك شهورًا على العَجَل[٤]؛ وطريق العجل على الفيوم واضحةٌ في صحراء الغرب وخلف الأهرام - وهي التي يقصدها أصحاب المطالب - مشهورة.

قال: فلما تكامل له ما أراد من ذلك ومن نحت الأحجار خَطَوا المدينة فرسخين في فرسخين، وحفروا في الوسط بئرًا وجعلوا في تلك البئر تمثالَ خنزير من نحاس بأخلاط ونصبوه على قاعدة من نحاس وجعلوا وجهه إلى الشرق، وكان ذلك بطالع زُحَل واستقامته وسلامته من المتضادين له في شرفه، وأخذوا خنزيرًا فذبحوه له ولطخوا وجهه بدمه وبخروه بشعره، وأخذوا شيئًا من عظامه ولحمه ومرارته فجعلوه

---

(١) المعقل: الملجأ والحصن.
(٢) الهجول: جمع هجل، وهو المطمئن من الأرض.
(٣) المغيض: المكان الذي يغيض فيه الماء؛ وغاض الماء: أي نزل في الأرض وغاب فيها.
(٤) العجل: الدولاب، والمراد به هنا العربة.

في جوف ذلك الخنزير النحاس، وجعلوا في أذنيه شيئًا من مرارته، وأحرقوا بقية الخنزير، وجعلوا رماده في قلة[١] نحاس بين يدي الخنزير النحاس، ونقشوا عليه آيات زحل، ثم شقوا في البئر أخدودًا[٢] من أربعة وجوه شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالاً، ومدّوا تلك الأخاديد إلى حيطان المدينة، وعملوا على أفواهها مسارب تجتلب الرياحَ إليها، ثم سدّوا البئر وعملوا عليها قبة على عمد مربعة، وجعلوا منها شوارع كل شارع ينتهي إلى باب من أبواب المدينة وفصلوها بالطرقات والمنازل، وجعلوا حول القبة تماثيل فُرسان من نُحاس بأيديها حِرابٌ ووجوهها مقابلة لتلك الأبواب، وجعلوا أساس المدينة من حجر أسود وفوقه أحمر وفوقه أصفر وفوقه أخضر، وفوق الجميع أبيض يشفّ، مثبتة كلها بالرصاص المصبوب بين الحجارة، وقلوبَها أعمدة من حديد على وضع بناء الأهرام؛ وجعل طول حصنها ستين ذراعًا في عرض عشرين ذراعًا، ونُصب على كل رأس باب من أبوابها في أعلا الحصن تمثالُ عُقاب كبير من صفر وأخلاط ناشرَ الجناحين أجوفَ، وعلى كل ركن صورةُ فارس بيده حربة ووجهه إلى خارج المدينة؛ وساق الماء إلى ناحية الباب الشرقي ينحدر في صبَبٍ[٣] إلى الباب الغربي ويخرج إلى صهاريجَ[٤] هناك، وكذلك من الباب الجنوبي إلى الشمالي وقرّب لتلك العِقبان عقبانًا ذكورًا، واجتذب الرياح إلى أفواه التماثيل، فكانت الرياح إذا دخلتها سُمعت لها أصواتٌ شديدة لا يسمعها أحد إلا هالته، وصمّدها[٥] بعفاريت تمنع الداخل إليها إلا أن يكون من أهلها، ونصب العُقاب الذي كان يعبده تحت القبة التي في وسط المدينة على قاعدة لها أربعة أركان في كل ركن منها وجه شيطان، وجعلها على عمود يديرها، والعقاب يدور إلى كل الجهات الأربع، ويقيم فيها ربع السنة، يقرب إليه من جهتها.

فلما فرغ من ذلك كله حمل إليها جميع الأموال والجواهر المخزونة بمصر وما وجده في خزائن الملوك، ومن التماثيل والحكم وتراب الصنعة والعقاقير والسلاح وغير ذلك، وحوّل إليها كبارَ السحرة والكهنة وأصحاب الصنائع والتجار، وقسم المساكن بينهم لا يختلط أهلُ صنعة بغيرها، وعمل لها رَبَضًا[٦] يحيط بها، وبنى فيه

(١) القلة: إناء يشرب منها.
(٢) الأخدود: الشقّ المستطيل في الأرض، جمع أخاديد.
(٣) الصّبب: ما انحدر من الأرض. جمع أصباب.
(٤) الصهريج: حوض كبير للماء. جمع صهاريج.
(٥) صمّدها: سدّها.
(٦) المراد بالربض هنا: سور المدينة.

منازل لأصحاب المهن والزراعة، وعقد على تلك الأنهار قناطر يمرّ عليها الداخل إلى المدينة، وجعل الماء يدور حول الرَّبَض؛ ونصب عليها أعلامًا وحرسًا؛ ثم غرس وراء ذلك بالبرية النخل والكروم وأصناف الأشجار، ومن وراء ذلك مزارع الغلات من كل جهة، وكان يرتفع له بها في كل سنة ما يكفيه لعشر سنين، كل ذلك خوفًا من الوليد.

قال: وبين هذه المدينة وبين منف ثلاثة أيام؛ فكان عونٌ يخرج إليها فيقيم بها عشرة أيام ثم يعود إلى منف، وكان لها أربعة أعياد في السنة؛ وهي الأوقات التي يتحوّل العُقاب فيها. فلما تمّ ذلك كله لعَون اَطمأنّ قلبه، وسكنت نفسه.

ذكر عود الوليد إلى مصر وهرب عون إلى مدينته

قال: ثم وافا كتاب الوليد بن دومع من نواحي النوبة إلى عون يأمره أن يُنْفِذَ[١] إليه الأزوادَ[٢] وينصبَ له الأسواق؛ فوجّه إليه ذلك في المراكب وعلى الظهر[٣]، وحوّل جميع عياله ومن اَصطفاه من بنات ملوك مصر وكبرائها إلى المدينة، حتى إذا قرب دخولُ الوليد إلى مصر خرج عون إلى مدينته وخلّف خليفة على مصر يكون بين يدي الوليد. ودخل الوليد مدينة منَف وتلقاه أهل مصر وشكَوْا إليه عونًا وما حلّ بهم منه. قال: وأين هو؟ قالوا: فرّ منك. فغضب الوليد وأمر بجيش كثيف ينفذ إليه، فعرّفوه أن الجيش لا يصل إليه، وأخبروه خبر المدينة وكيف بناها وخبر السّحرة الذين معه. فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه ويحذّره التخلفَ عنه، ويُقسم أنه إن لم يفعل وظفر به بضَّع[٤] لحمه بِضَعًا. فردّ جوابه يقول: ما على الملك مني مؤنة، وأنا لا أتعرّض إلى بلده ولا أعيث فيه؛ لأني عبده، وأنا له في هذا الموضع أردّ كل عدوّ يأتيه من نواحي الغرب، ولا أقدر على المصير إليه لخوفي منه، فليقرَّني الملك بحالي كأحد عمّاله وأوجه إليه ما يلزمني من الخراج والهدايا. ووجه إليه بأموال جليلة وجوهر نفيس. فلما رأى ذلك كفّ عنه. وأقام الوليد بمصر فاَستعبد أهلها واَستباح حريمهم وأموالهم. وملكهم مائة وعشرين سنة فأبغضوه وسئموا أيامه. واَتفق أنه ركب

---

(١) ينفذ إليه: أي يرسل إليه.

(٢) الأزواد: جمع الزاد، وهو طعام يتخذ للسفر.

(٣) المراد بالظهر هنا: العير والدواب التي تحمل الأثقال في السفر على ظهرها.

(٤) يقال: بضّع اللحم: أي قطعه بضعًا.

في بعض الأيام إلى الصيد فألقاه فرسه في وهدة[١] فهلك. وكان ٱبنه الريان يُنكر عليه فعلَه ولا يرضاه. فلما هلك عمل له ناووسًا قرب الأهرام. وقيل: بل دفن في الهرم.

ثم ملك بعده ابنه الريان بن الوليد بن دومع؛ وهو فرعون يوسف عليه السلام، والقبط تسميه نهراوش[٢]، وجلس على سرير الملك. وكان عظيم الخَلْق، جميل الوجه، عاقلاً متمكنًا؛ فتكلم ومنَّى الناس وضمِن لهم الإحسان وأسقط عنهم الخراج ثلاث سنين، فأثنوْا عليه وشكروه، وأمر بفتح الخزائن وفرّق ما فيها على الخاصّ والعامّ، وتمكنت منه أرْيحيّة[٣] الصِّبا فملَّك على الرعية رجلاً من أهل بيته يقال له أطفين، وقيل في اسمه: قطفير، وقيل: قوطيفر، وهو الذي يسميه أهل الأثر العزيز. وكان من أولاد الوزراء. وكان عاقلاً أديبًا متمكنًا صائب الرأي كثير النزاهة مستعملاً للعدل والعِمارة والإصلاح. وأمر الريان أن يُنصب له في قصر الملك سرير من الفضة يجلس عليه ويغدو ويروح إلى باب الملك، ويخرج بجميع الوزراء والعمال والكتاب بين يديه؛ فكفى الريّانَ ما خلف سريره وقام بجميع أمره وأخلاه للذّاته؛ فأقام الريان منعكفًا على قصفه[٤] ولهوه منغمسًا في لذّته لا ينظر في عمل ولا يظهر للناس ولا يخاطبهم، فأقاموا بذلك حينًا. هذا والبلد عامر.

وبلغ الخراج في وقته سبعة وتسعين ألف ألف مثقال فجعلها أقسامًا، فما كان للملك وأسبابه وموائده حُمل إليه، وما كان في أرزاق الجيش والكهنة والفلاسفة وأصحاب الصنائع ومصالح البلد وأهل المهنة صُرف إليهم، والملك مع ذلك غير سائل عن شيء؛ قد عُمِلت له مجالسُ من الزجاج الملوّن وأُجْرِيَ حولها الماء وأُرسِلت فيها الأسمك المقرّطة[٥]، فكانت الشمس إذا وقعت على المجلس منها أرسل شعاعًا عجيبًا يبهَر العيون. وعملت له عدّة متنزهات على عدد أيام السنة، فكان كل يوم في موضع منها، وفي كل موضع منها من الفرش والآنية والآلات ما ليس في غيره.

---

(١) الوهدة: الأرض المنخفضة. جمع وهد، ووهاد.
(٢) نهراوش: هو أحد العمالقة، وهم ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام.
(٣) الأريحية: الارتياح للندى والنشاط إلى المعروف.
(٤) القصف: اللهو واللعب والافتنان في الطعام والشراب.
(٥) المقرطة: التي لها زنمتان معلقتان تشبهان القرط في الأذن.

فلما اتصل بملوك النواحي تشاغُل الريان بلذاته وتدبير العزيز لأمره، قصده رجل من العمالقة يقال له عاكن بن بيحوم وكنيته أبو قابوس، وقصد مصر حتى نزل على حدودها، فأنفذ إليه العزيز جيشًا كثيفًا وجعل عليه قائدًا يقال له بريانس، فأقام ثلاث سنين يحاربه، ثم ظفر به العمليقي ودخل من الحدود وهدم أعلامًا ومصانع كثيرة، وتمكن طمعه في البلد فأعظم أهلُ مصر ذلك وٱجتمعوا إلى قصر الملك وجعلوا يصيحون ويستغيثون ويرفعون أصواتهم حتى سمعها الملك فقال: ما بال الناس؟ فأُخبر خبر العمليقي وأنه قد دخل عَمَلَ مصر وعاث وأفسد المزارع والمصانع والأعلام، وأنه سار بجيشه إلى قصر الملك، فارتاع الريان لذلك وأنف منه وٱنتبه من غفلته وعرض جيوشه وأصلح أمره وخرج في ستمائة ألف مقاتل سوى الأتباع، فالتقَوْا من وراء الأحواف في تلك الصحراء، واقتتلوا قتالاً شديدًا فٱنهزم العمليقي وٱتبعه الريان إلى حدود الشام وقتل من أصحابه خلقًا وأفسد زرعهم وأكثرَ أشجار الفواكه والزيتون، وأحرق وصلب ونصب أعلامًا على الموضع الذي بلغه وزبر عليها: إني لِمَن يجاوز هذا المكان بالمرصاد. فلما تمّ له هذا الظفر هابته الملوك ولاطفوه وأعظموه. وقيل: إنه بلغ الموصل وضرب على الشام خراجًا وبنى عند العريش مدينة لطيفة وشحنها هي وتلك الناحية بالرجال، ورجع إلى مصر فحشد جنوده من جميع الأعمال، وٱستعدّ لغزو ملوك الغرب فخرج في تسعمائة ألف واتصل بالملوك خبره، فمنهم من تنحّى عن طريقه، ومنهم من دخل تحت طاعته. ومرّ بأرض البربر[1] فأجلى كثيرًا منهم، ووجه قائدًا يقال له مريطس في سفن فركب البحر من ناحية رقودة. ومرّ الريان بجزائر بني يافث فعاث فيها وٱصطلم أهلها، وخرج من ناحية أرض البربر فقتل بعضهم وصالح بعضهم وحملوا إليه الأموال، ومضى إلى إفريقية وقرطاجنّة فصالحوه على أموال وألطاف كثيرة حملوها إليه، ومرّ حتى بلغ مصبّ البحر الأخضر[2] وهو موضع الأصنام النحاس، فأقام هناك صنمًا وزبر عليه اسمه وتاريخَ الوقت الذي خرج فيه، وضرب على أهل تلك النواحي خراجًا، وعدّى إلى الأرض الكبيرة وصار في الإفرنجة، والأندلس في حوزهم وعليها لذريق الأصغر، فحاربه أيامًا وقتل من أصحابه خلقًا وصالحه بعد ذلك على ذهب مضروب، وعلى ألا يغزوَ مصر ويمنع من رام ذلك من جميع أهل النواحي، وٱنصرف مشرّقًا فشقّ بلد البربر فلم يمر بموضع إلا

---

(١) البربر: هو اسم يشتمل قبائل كثيرة في جبال المغرب، أولها برقة ثم إلى آخر المغرب والبحر المحيط وفي الجنوب إلى بلاد السودان، وهم أمم وقبائل لا تحصى، ينسب كل موضع إلى القبيلة التي تنزله، ويقال لمجموع بلادهم بلاد البربر.

(٢) البحر الأخضر: ويقال له بحر الظلمات: هو المحيط الإطلنطي.

خرج أهله بين يديه وأهدوا له ودخلوا تحت طاعته. ثم أخذ نحو الجنوب ومر ببلد الكوسانيين فحاربوه فقتل خلقًا كثيرًا، وبعث قائدًا إلى مدينة على عبر البحر الأخضر فخرج إليه ملك المدينة وأهلُها فعرّفهم حال الريان ومصالحة الملوك له فقالوا: ما بلغنا أحد قط، وسألهم هل ركب هذا البحر أحدٌ؟ فقالوا: ما يستطيع أحد أن يركبه، وأخبروه أنه ربما أظله الغمام فلا يرونه أيامًا، وأتى الريان فتلقَّوْه بهدايا وفاكهة أكثرها الموز؛ وحجارة سود فإذا جعلت في الماء صارت بيضاء، ثم تركهم وسار إلى أمم السودان حتى بلغ ملك الدمدم[1] الذين يأكلون الناس، فخرجوا إليه عُراة بأيديهم العمد الحديد، وخرج ملكهم على دابة وهو عظيم الخلق له قرون، وكان جسيمًا أحمر العينين، فظفِر بهم فانهزموا إلى أوحال وأدغال فلم يتهيأ له اتباعهم فيها، وجازهم إلى قوم على خلق القرود لهم أجنحة صغار يثبون بها من غير ريش. ومرّ على عبر[2] البحر المظلم فغشيهم منه غمام فرجع شمالاً حتى انتهى إلى جبل يقال له وسن، فرأى فوقه تمثالاً من حجر أحمر يومي بيده: إرجعوا، وعلى صدره مزبور: ما ورائي أحد. فتركه وسار راجعًا فانتهى إلى مدينة النحاس[3] فلم يصل إليها. ومضى حتى بلغ الواديَ المظلم فكانوا يسمعون منه جلبة عظيمة ولا يَرَوْن أحدًا لشدّة ظلمته. وسار حتى أنتهى إلى وادي الرمل ورأى على عَبْرِه أصنامًا عليها أسماء الملوك قبله فأقام معها صنمًا وزبر عليها أسمه. فلما أسبت[4] الرمل جاز عليه إلى الخراب المتصل بالبحر الأسود، وسمع جلبة وصياحًا هائلاً فخرج في شجعان أصحابه حتى أشرف على السباع المقرنة الأنوف، فإذا بعضها تهِرّ[5] وتأكل بعضها بعضًا، فعلم أنه لا مذهب له من ورائها فرجع، وعدّى واديَ الرمل ومرّ بأرض العقارب فهلَكَ بعض أصحابه ورفعوها عنهم بالرُّقَى[6] التي يعرفونها، ثم جاوزهم حتى أنتهى إلى مكان صلوفة وهي حية عظيمة، فهجموا عليها ولم يعرفوها وظنوا أنها جبل، ثم عرجوا عنها وتعوّذوا منها بالرُّقَى. قال: ويزعم القبط أنه منعها من الحركة بسحره وتركها فهلَكت. وقيل: إن تعريجَ هذه الحية مِيلٌ وأنها كانت تبتلع السباع هناك.

---

(١) دمدم: بدالين على وزن زمزم بزايين في شعر أمية حيث قال:
ولطت حجاب البيت من دون أهلها، تغيب عنهم في صحاريّ دمدم
(معجم البلدان).

(٢) العبر من النهر أو البحر: شاطئه وناحيته. (٣) مدينة النحاس: تقدم وصفها وتفسيرها.

(٤) المراد بقوله: أسبت الرمل، أي سكن ولم يتحرك.

(٥) تهر: أي تصوّت.

(٦) الرقى: واحدتها الرقيّة، وهي العوذة التي يرقى بها المريض ونحوه.

وسار حتى بلغ مدينة الكند[١]، وهي مدينة الحكماء، فتهاربوا منه إلى جبل صَعِدوه من مواضع يعرفونها من داخل مدينتهم لم يعرفها غيرهم، ولم يجد الريان ومن معه إلى الصعود إليها سبيلاً، فأقاموا عليها أيامًا وكادوا يهلِكون من العطش، فنزل إليهم من الجبل رجل يقال له مندوس، كان من أفاضل الحكماء وقد لبس شعرُه جسدَه، فقال: أين تريد أيها المغرور الممدود له في الأجل! المرزوق الكفاية! أتعبت نفسك وجيشك! ألا اقتنعت بما تملكه واتّكلت على خالقك وربحت الراحة وتركت العناء والغرور بهذا الخلق. فعجب الملك من قوله وسأله عن الماء فدلّه عليه، وسأله عن موضعهم فقال: موضع لا يصل إليه أحد ولا بلغه قبلك أحد. قال: فما عيشكم؟ قال: من أصول نبات لنا نعتصم به ونقنع بأكله ويكفينا اليسير. قال: فمن أين تشربون؟ قال: من نِقار[٢] الماء من الأمطار. قال: فلمَ هربتم منا؟ قال: رغبة عن[٣] خلطتكم وإلا فليس لنا ما نخاف عليه. قال: فكيف تكونون إذا حَمِيت عليكم الشمس؟ قال: في غِيرَانٍ[٤] تحت هذه الجبال. قال: فهل تحتاجون إلى مال أخلفه لكم؟ قال: إنما يريد المالَ أهلُ البذخ ونحن لا نستعمل منه شيئًا، اْستغنينا عنه بما قد اكتفينا به، وعندنا منه ما لو رأيتَه لحقَّرت ما عندك. قال: فأَرِنيه، فانطلق به مع نفر من أصحابه إلى أرض في سفح جبلهم فيها قضبان الذهب نابتة، وأراهم واديًا حافتاه حجارة الزبرجد والفيروذج[٥]، فأمر الرّيان أصحابه أن يأخذوا من كبار تلك الحجارة ففعلوا؛ ورآهم الحكيم يصلّون إلى صنم يحملونه معهم، فسألهم ألا يقيموا بأرضهم خوفًا من عبادة الأصنام؛ فسأله الملك أن يدله على الطريق ففعل، وودّع الحكيمَ وسار على السمت[٦] الذي وصفه له. فلم يمر بأُمة إلا أبادها وأثر فيها إلى أن بلغ بلدَ

---

(١) الكند: بالفتح: من نواحي خجندة، وتعرف بكند بادام وهو اللوز لكثرته بها، وهو لوز عجيب خفيف القشر يتقشر إذا فرك باليد. (معجم البلدان).

(٢) النقار: جمع النقرة، وهي الحفرة الصغيرة المستديرة في الأرض ونحوها، وقد يبقى فيها ماء السيل.

(٣) رغب عن الشيء: تركه متعمدًا وزهد فيه. ورغب بنفسه عن الشيء: ترفّع عنه.

(٤) الغيران: جمع غار، وهو ما ينحت في الجبل شبه المغارة، فإذا اتّسع قيل كهف.

(٥) الفيروذج: حجر كريم غير شفاف معروف بلونه الأزرق كلون السماء، أو أميل إلى الخضرة، يتحلى به.

(٦) السمت: الطريق الواضح، أو المذهب، أو الهيئة.

النوبة، فصالح أهلها على مال يحملونه إليه، ثم أتى دُنْقُلَةَ[١] فأقام بها عَلَمًا وزبر عليه ٱسمه ومسيره. ومرّ يريد منف؛ فكان أهل كل مدينة من مدائن مصر يتلقَّوْنه بالفرح والسرور والطيب والرياحين والملاهي إلى أن بلغ منف، فلم يبق أحد من أهلها إلا خرج إليه مع العزيز وتلقَّوْه بأصناف الطيب والبخورات والرياحين.

وكان العزيز قد بنى له مجلسًا من الزجاج الملوّن وفرشه بأحسن الفُرُش المذهبة، وغرس حوله جميع الأشجار والرياحين، وجعل فيه صِهْرِيجًا من زجاج سمائي، وجعل في أرضه شبه السمك من زجاج أبيضَ وأنزله فيه، وأقام الناس يأكلون ويشربون أيامًا كثيرة. وأمر بعرض جيشه فوجد أنه قد فُقِد منهم سبعون ألفًا، وكان قد خرج في ألف ألف، ووجد من ٱنضاف إليه من الغرباء والمأسورين نيّفًا وخمسين ألفًا، وكان مسيره وغيبته إحدى وعشرين سنة. فلما سمع الملوك بذكره وما فتح من البلاد وما أسر هابوه، وخافوا شدّة بأسه وعظم سلطانه. وتجبّر وبنى بالجانب الشرقي قصورًا من الرخام ونصب عليها أعلامًا، فكان يقيم بها الأيام الكثيرة. وكان الخراج قد بلغ في وقته سبعة وتسعين ألف ألف فأحبّ أن يتمه مائة ألف ألف دينار، فأمر بوجوه العمَارات وإصلاح الجسور والزيادة في ٱستنباط الأراضي حتى بلغ ذلك وزاد عليه.

ثم كان من خبر يوسف الصديق عليه السلام وبيعه بمصر وخبره مع ٱمرأة العزيز وسجنه وقصته مع صاحبي الملك ورؤيا الملك وتعبيرها وتولية الريان بن الوليد يوسفَ عليه السلام رتبةَ العزيز وخبرِ القحط، ما قدّمنا ذكره في أخبار يوسف عليه السلام، وهو في السفر الحادي عشر من نسخة الأصل. فلا فائدة في إعادته. إلا أنه قد وردت زيادات أخرُ لم ترد هناك نحن نذكرها الآن. وهو ما حكاه مؤلف هذا الكتاب الذي نقلنا منه إبراهيمُ بن القاسم[٢] الكاتب عن إبراهيم بن وصيف شاه قال:

---

(١) دنقلة: هي دمقلة: بضم أوله وسكون ثانيه، وضم قافه، ويروى بفتح أوله وثالثه أيضًا: مدينة كبيرة في بلاد النوبة، وإذا استقبلت الغرب كانت على يسارك في الجنوب، وهي منزلة ملك النوبة على شاطىء النيل، ولها أسوار عالية لا ترام مبنية بالحجارة، وطول بلادها على النيل مسيرة ثمانين ليلة... (معجم البلدان).

(٢) إبراهيم بن القاسم الكاتب: يعرف بالرقيق القيرواني، والرقيق لقب له، رجل فاضل، له تصانيف كثيرة في علم الأخبار، ومنها كتاب تاريخ إفريقية والمغرب، عدة مجلدات، وكتاب النساء كبير، وكتاب الراح والارتياح، كتاب بضم السلوك في مسامرة الملوك، أربع مجلدات؛ هو شاعر سهل الكلام محكمه، غلب عليه اسم الكتابة وعلم التأريخ وتأليف الأخبار... (معجم الأدباء: ١: ٢١٦).

إن يعقوب عليه السلام لما قدم مصر بأهله وولده، خرج يوسف عليه السلام في وجوه أهل مصر فتلقاه وأدخله على الملك؛ وكان يعقوب عليه السلام مَهِيبًا جميلاً فقرّبه الملك وعظّمه وقال له: يا شيخ، كم سنوك وما صناعتك وما تعبد؟ فقال: أما سنّي فعشرون ومائة سنة، وأما صناعتي فلنا غنم نرعاها وننتفع بها، وأما الذي أعبد فربُّ العالمين، وهو الذي خلقني وخلقك، وهو إله آبائي وإلٰهك وإله كل شيء.

قال: وكان في مجلس الملك فنيامين، وهو كاهن جليل القدر، فلما سمع كلامَ يعقوب ضاق به ذرعًا وقال للملك بلغتهم: أخاف أن يكون خرابُ مصر على يد ولد هذا. فقال له الملك: فأنّى لنا خبره. فقال الكاهن: أرنا إلٰهك أيها الشيخ. قال: إلهي أعظم من أن يُرى. قال: فإنا نحن نرى آلهتنا. قال: لأن آلهتكم ذهبٌ وفضة ونحاس وخشب، وما يعمله بنو آدم عبيدُ إلٰهي الذي احتجب عن خلقه بعزّ ربوبيته، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. قال له فنيامين: إن لكل شيء دليلاً، وكل شيء لا تراه العيون فليس بشيء، فغضِب يعقوب وقال: كذبتَ يا عدوَّ الله وطغيت في هذه الدنيا؛ إن الله سبحانه وتعالى شيءٌ وليس كالأشياء، وهو خالق كل شيء لا إله إلا هو. قال: فصفه لنا. قال: إنما يوصف المخلوقون ولا يوصف الخالق عزّ وجل؛ لأنه يرتفع عن الصفات؛ لأنه واحد قديم مدبّر للأشياء في كل مكان يَرَى ولا يُرَى. ثم قام يعقوب مُغْضَبًا، فأجلسه الملك وأمر فنيامينَ أن يكفّ عنه ويكونَ بين يديه ويأخذَ في غير هذا. ثم قال الملك: كم عدّةُ من دخل معك إلى مصر؟ قال ستّون رجلاً. قال الكاهن: كذلك نجده في كتبنا؛ إن خراب مصر يجري على أيديهم. قال الملك: فهل يكون في أيامنا؟ قال: لا، ولا إلى مدّة كبيرة. والصواب أن يقتله الملك ولا يستبقي من ذرّيته أحدًا. قال الملك: إن كان الأمر كما تقول فما يمكننا أن ندفعَه ولا نقتلَ هؤلاء، وإن لهم إلٰهًا عظيمًا، وقد قبل قلبي هذا الشيخَ، وما لي إلى قتله من سبيل، فخاطبه بألين الكلام؛ فجرت بينهما بعد ذلك مخاطبات ألان له فيها القول.

قال: ثم إن يعقوب عليه السلام أحبّ أن يعرفَ خبرَ مصر ومدائنها وكيف بُنيت وخبرَ طِلسّماتها وعجائبها. فسأله عن ذلك وسأله بحقّ الملك ألا يكتمه شيئًا من أمرها فأخبره. قال: وأقام يعقوب عليه السلام مع الريان بن الوليد الملك يعظّمه ويبجّله إلى أن حضرته الوفاة، فأوصى أن يُحمل إلى مكانه من الشأم، فحُمِل في تابوت وخرج معه يوسف عليه السلام ووجوه مصر حتى بلغ إلى موضعه ورجعوا. وقيل: إن عيصو منعهم من دفنه هناك لأن إسحاق عليه السلام كان قد وهبه الموضعَ فاشتراه يوسف عليه السلام منه. ويقال: إن الريان آمن بيوسف وكتم إيمانه خوفًا من فساد ملكه.

وملك الريّان مائة وعشرين سنة. وفي وقته عَمِل يوسف عليه السلام الفيوم لآبنه الملك، وكان أهل مصر قد وَشَوْا به وقالوا: قد كَبِر ونقص نفعه فآختبِرْه. فقال له الملك: قد وهبتُ هذه الناحيةَ لآبنتي، وكانت مغايضَ[1] للماء فدبِّرْها. قال: فقلع أدغالها، وساق المنهى[2]، وبنى اللاّهون[3]، وجعل الماء فيه مقسومًا موزونًا، وفرغ من ذلك كله في أربعة أشهر، فعجِبوا من حكمة يوسف عليه السلام.

قال: ولما مات الريان بن الوليد ملك بعده آبنه دريموس بن الريان ابن الوليد ويسميه أهل الأثر دارم، وهو الفرعون الرابع عندهم. قال: ولما ملك خالف سنّة أبيه، وكان يوسف عليه السلام خليفتَه كما كان مع أبيه، وذلك بأمر الريان. وكان يوسف يسدّده فربما قبل منه وربما خالفه، وظهر في وقته معدِن فضة على ثلاثة أيام من النيل فأبان منه شيئًا عظيمًا، وعمل منه صنمًا على آسم القمر؛ لأن طالعه كان بالسرطان، ونصبه على القصر الرخام الذي كان أبوه بناه في شرقي النيل، ونصب حوله أصنامًا كلَّها من الفضة وألبسها الحريرَ الأحمر، وعمل لها عيدًا في كل سنة، وهو إذا نزل القمرُ السرطان.

وكان يتنقّل إلى مواضع شتّى يتنزّه فيها، وإذا أراد أن يضرّ الناسَ بشيء منعه يوسفُ عليه السلام ودفعه عنه إلى أن تُوفِّي يوسف عليه السلام، كما تقدّم في خبر وفاته، فاستوزر الملك دارمُ بعده بلاطسَ بن منسا الكاهن، فكان بلاطس يُطلِق له ما كان يوسف يمنعه عنه، وحمله على أذى الناس وأخْذ أموالهم فبلغ منهم كل مبلغ. وعمل الوادي المنحوت بين الجبلين في الناحية الغربية وكنز الأموال فلا يُوصل إليها، وجعل صقالة من الوادي إلى باب الخباء، وجعل له بابًا من الحديد يُتوصّل إليه من تلك الصقالة، وصمده[4] بجماعة من العفاريت يمنعون من ذلك الخباء، فمن رامه من الناس سقط في الوادي. وقال آخرون: كنزها في موضع منه يُدخَل إليه ويُنظر إلى الأموال مكشوفةً مضروبةً، في كل دينار عشرة مثاقيل عليها صورته، فإن أخذ الداخل منها شيئًا انطبق عليه الباب فلم يقدر على الخروج، فإذا ردّه إلى موضعه انفتح له الباب. وهو بحاله إلى هذا الوقت كما زعموا.

---

(١) مغايض: جمع المغيض، وهو المكان الذي يغيض فيه الماء، أي ينزل في الأرض ويغيب فيها.

(٢) المنهى: اسم فم النهر الذي احتفره يوسف الصديق يفضي إلى الفيوم مأخذه من النيل.

(٣) اللاّهون: هو الكسر الذي بناه لردّ الماء إلى الفيوم.

(٤) صمده: سدّه.

قال: ثم زاد دارمُ في التجبّر إلى أن اختلع[١] كلَّ امرأة جميلة بمدينة منف من أهلها؛ ولا يسمع بامرأة حسناء في ناحية من النواحي إلا وجّه فحُملت إليه. وفشا ذلك في المملكة واضطرب الناس من فعله وشقّ عليهم أمره إلى أن شَغَبُوا عليه وعطّلوا الصنائع والأعمال والأسواق فعدا على جماعة منهم فقتلهم. وزاد الأمر حتى اجتمعوا على خلعه، فخاف بلاطس الوزير أن يَفْسُدَ أمر المملكة فدخل على الملك وأشار عليه أن يتودّد إلى الناس ويعتذر إليهم ويردّ نساءهم فأبى إلا مخالفتَه، وهمّ أن يخرج إلى الناس في خاصّته ويقتلَ منهم وقال: إنما هم عبيدي وعبيد آبائي. فلم يزل يرفُق به إلى أن سكن غضبه؛ فأمره أن يعتذر إلى الناس عنه، ففعل الوزير ذلك وذكر عنه جميلاً، فأبى الناس أن يقبلوا منه دون مخاطبتهم الملك فَضَمِن لهم ذلك وخاطبه وأشار به عليه، فأمره أن يناديَ في الناس بالحضور في يوم عيّنه، ثم لبس أرفعَ ثيابه وأكبر تيجانه وجلس ودخل الناس عليه فذكروا ما حلّ بهم من أخذ أموالهم، وعرّفوه أنه لم يجر عليهم من مَلِكٍ قبله مثلُ هذا، فاعتذر إليهم ووعدهم الإقلاعَ عما شكوا منه وأسقط عنهم خراج ثلاث سنين.

ثم أمر بعمل قصر من خشب على أساطين خشب ممدودة بأضلاع مسمّرة يتنزّه فيه، فعُمل ودُهن بالأدهان والأصباغ الملوّنة المذهبة، وضُبِّبَ[٢] بالفضة والنحاس المذهب، وعَمِل فوقه قبة من الفضة المذهبة مصوّرةً بالزجاج الملوّن وعلّق فيها الحجر المضيء الذي أتى به أبوه من المغرب. فلما فرغ القصر فرشه بأحسن الفرش وجعله طبقتين: طبقة له يجلس فيها مع من يحبّه، وطبقة لحشمه، وجعل حول ذلك أرْوقة[٣] ملصقة بالمجلس يجلس فيها من يريد؛ فكان يركب فيه بمن أحبّه من خاصته ونسائه ويُصعِّد فيه في الماء إلى ناحية الصعيد وتتبعه المراكب فيها أصحابه وغلمانه بالعُدد[٤] والسلاح وينحدر إلى أسفل الأرض، فإذا مرّ بمكان يستحسنه أقام فيه أيامًا.

واتفق أنه خرج في بعض الأيام مُصَعِّدًا فوثب رجل من الإسرائيليين على رجل من سَدَنَةِ الهياكل فضربه حتى أدماه وعاب دينَ الكهنة، فغضب القبط لذلك وخاطبوا خليفة الملك أن يُخرِجَهم من مصر فامتنع دون مشاورة الملك، وكتب إليه يعرّفه

---

(١) يقال اختلعت الزوجة، إذا طلقت بفدية من مالها.

(٢) ضبّب الخشب ونحوه: أي ألبسه الحديد ونحوه.

(٣) أروقة: جمع الرواق، وهو مقدم البيت؛ أو سقيفة للدراسة في مسجد أو معبد أو غيرهما.

(٤) العدد: جمع العدة، وهي الاستعداد؛ أو ما أعدّ لأمر يحدث.

ذلك، فكتب إليه ألا يُحدِث في القوم حادثة دون موافاته، فشَغَبوا وأجمعوا على خلعه وتمليك غيره، وتعرّض بعضهم إلى ذكر الملك فحشد أهلَ الصعيد وٱنحدر إليهم، فحاربوه فهَلَك بينهم خلق كثير. وعاونته ٱمرأة أبيه، وكانت ساحرة، فأظهرت من سحرها وتخاييلها ودُخَنِها ما أعماهم عن النظر، وأضعف حواسهم أسكرهم، فقتل خلقًا منهم وصلب خلقًا على عبر النيل، ورجع إلى أكثر مما كان عليه من ابتزاز النساء ونهب الأموال وٱستخدام الأشراف والوجوه من القبط ومن بني إسرائيل؛ فأجمع الكل على ذمه. وكانت الساحرة لا تُخلِّيه من معونتها إلى أن ركب في ذلك القصِر في بعض الليالي وقد أحدق النيل بالبلد، وهو من الجبل إلى الجبل، وامتدّ القمر على الماء، فأراد أن يعدّي من العُدِوة[١] إلى العدوة الأخرى فلم يتهيأ له سَوْقُ القصر بسرعة لعظمه، فركب مركبًا لطيفًا مع ثلاثة من خدمه والساحرة، فلما توسّط البحِرَ هاجت ريح عاصف فغرق هو ومن معه، وأصبح الناس شاكّين في أمره لا يعلمون ما نزل به، إلى أن وُجدت جثته بشَطَّنَوْف[٢] فعُرِف بخاتمه وبجوهر كان يتقلّد به فحمل إلى منف.

وملك بعده ٱبنه معاديوس بن دريموس؛ ويسميه أهل الأثر معدان بن دارم، وهو الفرعون الخامس. وذلك بتدبير الوزير؛ فأجلسه على سرير الملك وبايعه الجيش، وكان صبيًا فكرهه الناس ثم رَضُوا به، فأسقط عن الناس الخراج الذي كان أبوه أسقطه، وزادهم سنة وأحسن إليهم فأطاعوه؛ وٱستقام له الأمر وردّ نساءهم. وكان ينكر على أبيه فعله ولا يرضاه؛ فلذلك رضُوا به.

قال: وفي زمانه كان طوفانٌ أضرّ ببعض البلد فلزم الملك الإقبال على الهياكل والتعبد، وطلب القاطر[٣] ووجوه الكهنة بالحضور معه، وأنصف بعضَ الناس من بعض. وكثر بنو إسرائيل وعابوا الأصنام وثلبوها. وكان الوزير قد هلك فٱستوزر كاهنًا يقال له أملاده، فلما رأى ما فعله بنو إسرائيل أنكره وأمر أن يُفردوا بناحية من البلد لا

---

(١) العدوة: المكان المرتفع؛ أو شاطىء الوادي وجانبه.

(٢) شطنوف: بلدة ـ مركز أشمون ـ مديرية المنوفية: وشطنوف: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، وفتح النون، وآخره فاء: بلد بمصر من نواحي كورة الغربية عنده يفترق النيل فرقتين: فرقة تمضي شرقيًا إلى تنس، وفرقة تمضي غربياً إلى رشيد على فرسخين من القاهرة... (معجم البلدان).

(٣) القاطر: أي جامع العلوم، وهو الذي يعبد الكواكب السبعة لكل كوكب سبع سنين، وقد سبق أن ذكر ذلك المؤلف. وحذاء القاطر: أي إزاءه.

يختلط بهم أحد غيرهم، فأقطعهم موضعًا في قبليِّ منف، واجتمعوا إليه وعملوا لأنفسهم معبدًا كانوا يتلون فيه صحف إبراهيم عليه السلام، واتّفق أن رجلًا من أهل بيت الكهنة عشق امرأة من بني إسرائيل كانت قد جاءته لتشتكيَ أخاها أنه غصبها ميراثَها، وأرادت أن يعتنيَ بأمرها عند وزير الملك، فرآها ابنه فأحبها وسأل والده أن يزوّجه منها، فخطبها من أهلها فأبوا ذلك، فأنكر الناس فعلهم واجتمعوا إلى الوزير وقالوا: هؤلاء قوم يَعيبوننا ويرغبون عنّا، ولا نحب أن يجاورونا إلا أن يَدينوا بديننا. فقال الوزير: قد علمتم إكرام الريان الملك لجدّهم يوسف عليه السلام، وقد وقفتم على بركة جدّهم يوسف عليه السلام حتى جعلتم قبره وسط النيل فأخصب جانبا مصر بمكانه فلا تخوضوا في هذا، فأمسكوا.

قال: وتغلّب أحد ملوك الكنعانيين على الشام وامتنع أهله أن يحملوا الضريبة التي كانت عليهم لملك مصر، فأنكر أهل مصر ذلك وأشفقوا من غلبة صاحب الشام على بلدهم، فحضّوا الملك على غزو الشام فقال: إن رام أحد حدود بلدنا غزوناه، وما لنا في ذلك البلد من حاجة؛ فاستنقصوا رأيه. وأقام على ملازمة الهياكل والتعبّد فيها؛ فيزعم القبط أنه بيننا ذات يوم قائم في هيكل زُحَل حذاء صورته، وقد أجهد نفسه في التعبد، إذ تغشّاه النوم فتجلّى له زحل وخاطبه وقال: قد جعلتك ربًّا على أهلك وأهل بلدك، وحبوتك بالقدرة عليهم وعلى غيرهم، وسأرفعك إليّ فلا تخل من ذكري؛ فعظُم عند نفسه، واتّصل خبره بأهل البلد، وأخبرهم سَدَنَةُ الهيكل أنهم رأوا النور وسمعوا الخطاب، وأعظم الناس أمره، فتجبّر في نفسه وأمر الناس أن يسمّوه ربًّا، وترفّع أن ينظر في شيء من أمر المُلك، وأحضر الناس وقال: قد وقفتم على ما خُصِصت به دون الملوك، وهذه مَوْهبة يلزمني الشكر لواهبها عليها، ولست أتفرّغ للنظر في أموركم، وقد رأيت أن أجعل المُلك إلى ابني أكسامس، وأكون من ورائه إلى أن يغيب شخصي عنكم كما وُعِدْتُ، وقد أيدته بالقاطرين، فانظروا كيف تكونون، ولا تتظالموا[1] فإنكم مني بمرأى ومسمع، فرضُوا بذلك وقالوا: نحن عبيد الملك ومن رضيته الآلهة فحكم الخلق أن يَرْضوه ولا يخالفونه.

فملك ابنه أكسامس بن معاديوس؛ ويسميه أهل الأثر كاسم بن معدان، وهو الفرعون السادس، وجلس على سرير الملك وتُوّج بتاج أبيه وقام القاطرون بين يديه، فجعل لكل واحد منهم رتبةً، ورتّب الناس مراتب، وقسم الكُوَر والأعمال، وأمر

---

(١) لا تتظالموا: أي لا يظلم بعضكم بعضًا.

باستنباط العمارات وإظهار الصناعات، ووسع على الناس في أرزاقهم وعلى حاشيته وحاشية أبيه، وأمر بتنظيف الهياكل وتجديد لباسها وأوانيها، وزاد في القرابين؛ وكلما أتى شيئًا من ذلك لم تخالفه الكهنة وقدّروا أن ذلك عن أمر أبيه برضى الكواكب، وٱحتجب أبوه عن الناس. وأقام كاسم أعلامًا كثيرة حول منف وجعل عليها أساطين يُمَرُّ عليها من بعضها إلى بعض. وعمل برقُودة وصا ومدائن الصعيد وأسفل الأرض مدنًا كثيرة وأعلامًا ومنائر للوقود والطلّسمات. وعمل كُرَة من الفضة على عمل البيضة الفلكية ونقش عليها صور الكواكب الثابتة ودهنها بدُهن الصيني وركّبها على منار في وسط منف. وعمل في هيكل أبيه روحانيَّ زُحَل من ذهب أسودَ مدبَّر. وعمل في وقته الميزان الذي يعتبر به الناس، وجعلت كَفِّتاه من ذهب وعلائقه[1] من فِضّة وخيوطه سلاسل ذهب، وكان معلقًا في هيكل الشمس، وكتب على إحدى كَفِّتيه حقّ، والأخرى باطل، وتحته فصوص قد نقش عليها أسماء كل شيء من الكواكب؛ فيدخل الظالم والمظلوم ويأخذ كل واحد منهما فصًا من تلك الفصوص ويسمى عليها ما يريد، ويجعل أحد الفصين في كفّة والآخر في الأخرى، فتثقل كفة الظالم وترتفع كفة المظلوم. وكذلك من أراد سفرًا أخذ فصين فذكر على واحد ٱسم السفر، والآخر اسم الجلوس، ويجعل كل واحد في كفة، فإن لم يرتفع أحدهما على الآخر جلس، وإن ارتفعا خرج، وإن ارتفع أحدهما مكث شهرًا. ومن نحو هذا من غائب ودين وفساد وصلاح. ويقال إن بُخْتَنَصَّر لما ظَفِر بمصر حمله في جملة ما حمل إلى بابل وجعله في بيت من بيوت النار.

قال: وطالب كاسم الناسَ بلزوم الأعمال وإظهار الصنائع، فعُمِلت كل غريبة منها: التنّور[2] الذي يَشوي من غير نار فيه، والقدور التي يطبخ فيها من غير نار، والسكين التي تُنصب فإذا رآها شيء من البهائم أقبل حتى يذبح نفسه بها، والماء الذي يستحيل نارًا، والزجاج الذي يستحيل هواء، وأشياء من ذلك.

قال: فأقام في أوّل ولايته ثلاث سنين بأجمل أمر وأصلح حال، ومات وزير أبيه الذي كان معه فاستخلف رجلاً من أهل بيت المملكة يقال له طلما، وكان شجاعًا فارسًا كاهنًا كاتبًا حكيمًا دهيًا متصرّفًا في كل فنّ، وكانت نفسه تنازعه المُلْكَ فصلُح أمر المملكة بمكانه وأحبه الناس، فعمل معالم كثيرة وعمر خرابًا وبنى مدنًا من الجانبين. ورأى في نجومه أنه ستكون شدّةٌ فاستعمل ما ٱستعمله نهراوش، وبنى

---

(١) العلائق: واحدتها العلاقة، وهي ما تعلق به كفة الميزان، أو السيف أو نحوهما.

(٢) التنور: الفرن يخبز فيه. جمع تنانير.

بناحية رقودة والصعيد[١] ملاعب ومصانع. وشكا القبط إليه حال الإسرائيليين فقال: هم عبيد لكم، فكان القبطيّ إذا أراد حاجة سخر الإسرائيلي، وكان القبطيّ يضرب الإسرائيليَّ فلا يُنكر عليه أحد، وإن ضرب الإسرائيليُّ القبطيَّ قُتل، فكان أوّل من أذى بني إسرائيل، ويفعل نساء القبط بنساء بني إسرائيل ما يفعل الرجال بالرجال من السَّخَر والضرب.

قال: وفي أيام أكسامس بُنيت منارة الإسكندرية. وفي زمانه هاج البحر المالح فغرّق كثيرًا من القرى والجنان والمصانع. وحكي أن أكسامس تغيّب عن الناس مدّة. وقيل: مات وكتموا موته. وكانت مدّة ملكه إلى أن غاب إحدى وثلاثين سنة، وأقام طلما إحدى عشرة سنة يدبّر المملكة ثم اضطرب الناس على طلما وتغيّروا واتصل بهم أنه قَتَل الملك بسمّ سقاه إياه فأجتمعوا وقالوا: لا بدّ لنا من النظر إلى الملك، فعرّفهم أنه قد تخلّى عن المُلك وولّى ابنَه لاطس فلم يقبلوا ذلك.

فأمر طلما الجيوش فركبت في السلاح وأجلس لاطس بن أكسامس على سرير الملك ولبس التاج. وكان جريئًا معجَبًا فوعد الناس جميلاً وقال: أنا مستقيم لكم ما استقمتم، وإن ملتم عن الواجب ملت عنكم، وأمر ونهى وألزم الناس أعمالهم، وحطّ جماعة من الوجوه عن مراتبهم، وصرف طلما عن خلافة المملكة وٱستخلف رجلاً يقال له لاهوق من ولد صا الملك ودفع إليه خاتمه، وأنفذ طلما عاملاً على الصعيد وأنفذ معه جماعة من الإسرائيليين، وعمل الأعلام وأصلح الهياكل وبنى قرى كثيرة، وأُثيرت[٢] في أيامه معادنُ كثيرة وكنوز في صحراء المشرق، واستعمل آنية كثيرة من الجوهر الأخضر وأصناف الزجاج. وكان محبًّا للحكم ثم تجبّر وعلا، وأمر ألا يجلس أحد في مجلسه ولا في قصر الملك من الكهنة وغيرهم، بل يقومون على أرجلهم إلى

---

(١) الصعيد: قال الزجاج: الصعيد وجه الأرض؛ وقال ابن الأعرابي: الصعيد الأرض بعينها؛ وقال الفراء: الصعيد التراب، والصعيد الأرض، والصعيد الطريق يكون واسعًا أو ضيقًا؛ والصعيد الموضع العريض الواسع، والصعيد القبر؛ والصعيد: واد قرب وادي القرى فيه مسجد لرسول الله ﷺ عمّره في طريقه إلى تبوك. ويقول الأصمعي: الصعيد بمصر بلاد واسعة كبيرة فيها عدة مدن عظام منها أسوان، وهي أوله من ناحية الجنوب، ثم قوص وقفط وإخميم والبهنسا وغير ذلك، وهي تنقسم ثلاثة أقسام: الصعيد الأعلى وحدّه أسوان وآخره قرب إخميم، والثاني من إخميم إلى البهنسا، والأدنى من البهنسا إلى قرب الفسطاط... (معجم البلدان).

(٢) أثيرت: من الإثارة، وهي الإخراج من تحت الأرض.

أن ينصرفوا، وزاد في أذى الناس والعنف بهم، ثم منع الناس فُضولَ[١] ما بأيديهم وقصرهم على القوت، وجمع أموالهم وطلب النساء فانتزع كثيرًا منهنّ، وفعل في ذلك أكثر من فعل مَنْ تقدّمه من الملوك، وقهر الناس بالسطوة واستعبد بني إسرائيل وقتل جماعة من الكهنة فأبغضه الخاص والعامّ.

وكان طلما لما صرفه لاطس عن خلافته وَجَدَ[٢] في نفسه وأضمر الغدر به. فلما خرج إلى الصعيد احتجز الأموال فلم يحملها، وحال بين الملك وبين المعادن، وأراد أن يقيم ملكًا من ولد قبطريم ويجلسه في الملك، فأشار بعض الكهنة على طلما أن يطلب المُلك لنفسه وعرّفه أنه سيكون له حال. فلما شجّعه الكاهن وجرّأه على ذلك دعا إلى نفسه وكاتب وجوه أهل البلد، فبعض أجابه وبعض توقف، ورفع كل واحد من ولد الملوك رأسه وطمع في الملك.

قال: وفي بعض كتبهم أن بعض الروحانيين ظهر له وقال: إني أطيعك إن أطعتني، وأقلدك مصر زمانًا طويلاً، فأجابه إلى ما سأله وقرّب له أشياء ذكرها له، منها غلام إسرائيليّ؛ فعاونه حينئذ وكان له رسولاً إلى رؤساء مصر، فكان يُتصوّر بصور بعضهم ويشير بتمليكه عليهم إلى أن ٱستقام له الأمر، قال: ولما منع طلما لاطسَ من مال الصعيد كتب بصرفه عن العمل فأبى أن ينصرف، فوجه إليه قائدًا من أهل بيته وقلده مكانه وأمره أن يحمله إليه، فحاربه وأعانه الروحانيّ فظفر به طلما وٱعتقله ثم خلاّه وقرّبه وأدخله في جملته، وٱتصل الخبر بلاطس فأنفذ إليه قائدًا آخر فهزمه طلما وسار في أثره بجيش كثيف، وكاتب جميع القوّاد وأهل البلد وبذل لهم الأموال، وخرج إليه لاطس فحاربه طلما وعاونه الروحانيّ فظفر به طلما وقتله وسار حتى دخل منف وعاث فيها.

وملك طلما بن قومس؛ ونزل قصر المملكة وجلس على سرير الملك وحاز جميع ما كان في خزائنهم. قال: وطلما هذا هو ٱبن قومس، وهو الذي يذكر القبط أنه فرعون موسى عليه السلام. وأهل الأثر يسمونه الوليد بن مصعب وأنه من العمالقة. وذكروا أن الفراعنة سبعة فأوّلهم: طوطيس بن ماليا، ثم الوليد بن دومع، ثم ٱبنه الريان بن الوليد، ثم دريموس بن الريان، ثم معاديوس بن دريموس، ثم أكسامس بن معاديوس، ثم طلما.

---

(١) الفضول: الزيادة.

(٢) وجد بالتحريك: أي غضب.

قال: وكان طلما فيما زعموا قصيرًا. قيل: كان طوله أربعة أشبار، طويل اللحية، أشهل[١] العينين، صغير العين اليسرى، في جبينه شامة. ويقولون: إنه كان أعرج. وزعم قوم أنه من القبط. قال: والدليل على ذلك ميلُه إليهم ونكاحه فيهم؛ ونسبُ أهل بيته مشهورٌ عندهم.

وقد ٱختلف الناس في سبب ملكه وعمن تلقّى الملك، فقيل ما ذكرناه، وقيل ما قدّمناه في قصة موسى بن عمران عليه السلام، والله تعالى أعلم.

قال: ولما جلس طلما على سرير الملك اضطرب الناس عليه فبذل الأموال وأرغب من أطاعه، وقتل من خالفه، فاعتدل الأمر له. وكان أوّل ما عَمِل أن رتّب المراتب، وشيّد الأعلام، وبنى المدن، وخندق الخنادق، وعمل بناحية العريش حصنًا، وكذلك على حدود مصر، وٱستخلف هامان، وكان يَقْرُب منه في نفسه ونسبه، فأثار بعض الكنوز وصرفها في بناء المدن والعمارات، وحفر خلجانًا كثيرة. ويقال: إنه الذي حفر خليج السَّرْدُوس[٢]، وكان كلما عرَّجه إلى قرية من قرى الحوف[٣] حمل إليه أهلها مالاً؛ فاجتمع له من ذلك شيء كثير، فأمِرَ بردّه على أهله.

وٱنتهى الخراج في وقته إلى سبعة وتسعين ألف ألف دينار، وكان يُنزل الناس على مراتبهم. وهو أوّل من عرَّف العُرفَاء على الناس، وكان ممن صحبه من الإسرائيليين رجل يقال له إمري، وهو عمران أبو موسى عليه السلام، وهو أخو مزاحم لأبويه، ومزاحم أبو آسية، فهي ٱبنة عم موسى وبنت خالته، فجعل فرعون عمران حارسًا لقصره يتولى حفظه وفتحه وإغلاقه. وكان رأى في كهانته أن هلاكه على يد مولود من الإسرائيليين، فمنعهم المناكحة ثلاث سنين؛ لأنه رأى أن ذلك المولودَ يكون فيها. ثم كان من خبر موسى في حمل أمه به وولادته وغير ذلك من أمره ما قدّمنا ذكره في قصة موسى عليه السلام فلا فائدة في إعادته.

---

(١) الأشهل: الذي يشوب إنسان عينه حمرة.

(٢) خليج السردوس: هو أحد نزهات الدنيا، وهو خليج يسار فيه بين بساتين مشتبكة وأشجار ملتفة وفواكه دانية... (كتاب الانتصار لابن دقماق).

(٣) الحوف: بمصر حوفان: الشرقي والغربي، وهما متصلان، أول الشرقي من جهة الشام وآخر الغربي قرب دمياط؛ يشتملان على بلدان وقرى كثيرة...

وقد نقل أن موسى عليه السلام لمّا كبر عند فرعون عظُم شأنه وردّ فرعون إليه كثيرًا من أمره وجعله من قوّاده، وكانت له سطوة؛ ثم وجهه فرعون لغزو الكوثانيين، وكانوا قد عاثوا في أطراف مصر[١]، فخرج في جيش كثيف فرزقه الله عزّ وجل الظَّفَر، فقتل منهم خلقًا وأسر خلقًا وأنصرف سالمًا فسُرّ به فرعون وآسية. قال: وأستولى موسى وهو غلام على كثير من أمر فرعون وأراد أن يستخلفه حتى قتل رجلًا من أشراف القبط فكان من أمره ما تقدّم ذكره. والله أعلم.

هذا ما أورده إبراهيم[٢] في كتابه؛ ولم يذكر من أخبار ملوك مصر بعد غرق فرعون شيئًا ولا ذكر مَنْ ملك بعده. وقد أشار المسعودي[٣] في مروج الذهب إلى نبذة من أخبار مَنْ ملك مصر بعد غرق فرعون نحن نذكرها. وأما سياقة أخباره فيما كان قبل فرعون فهذا الذي ذكرناه أتمّ منه وأكثر استيعابًا.

ذكر نبذة من أخبار من ملك مصر بعد غرق فرعون

قال أبو الحسن علي بن عبد الله المسعودي في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر: لما أهلك الله تعالى فرعون وقومه بالغرق خشيَ من بقيَ بمصر من الذراري[٤] والنساء والعبيد أن يغزوهم ملوك الشام والمغرب؛ فملكوا عليهم أمرأة يقال لها دَلُوكة؛ فبنت على أرض مصر حائطًا يحيط بجميع البلاد من حدّ أرض رَفَح[٥] إلى برقة، وجعلت الحرّاس على مسافة كل ميل منها يصل أخبار بعضهم إلى بعض، فإذا حدث أمر في أوّل ملكها بليل رُفعت النيران في وقت حدوثه فعلم في آخر المملكة بالخبر من ليلته، وإن كان بالنهار دخن. وهذا الحائط موجود إلى حين

(١) عاثوا في أطراف مصر: أي أفسدوا فيها افتراسًا وتقتيلًا وسرقة ونهبًا وغير ذلك.

(٢) إبراهيم: هو إبراهيم بن القاسم الكاتب المعروف بالرقيق القيرواني. وقد تقدمت ترجمته.

(٣) المسعودي: هو علي بن الحسين بن عليّ المسعودي المؤرخ؛ أبو الحسن من ولد عبد الله بن مسعود صاحب النبي ﷺ. كانت وفاته سنة ٣٤٦ هجرية..

(٤) الذراري: جمع ذريّة، وهي النسل.

(٥) رفح: بفتح أوله وثانيه، وآخره حاء مهملة: منزل في طريق مصر بعد الداروم بينه وبين عسقلان يومان للقاصد مصر، وهو أول الرمل، خرب الآن... قال المهلبي: رفح مدينة عامرة فيها سوق وجامع ومنبر وفنادق، وأهلها من لخم وجذام.. ومن رفح إلى غزة ثمانية عشر يومًا.. (معجم البلدان).

وضعنا لهذا الكتاب ويسمى حائط العجوز[١]. وقيل فيه: حائط الحجوز. وقيل: إنها بنت هذا الحائط من خوفها على ولدها.

واتخذت دلوكة بمصر البرابيَ وصوّرت فيها الصور، وأحكمت آلات السحر، وجعلت في البرابي صُوَرَ من يرد في البر ودوابِّهم إبلًا كانت أو خيلًا، ومن يرد في البحر في المراكب من بلاد الغرب وسواحل الشام، وأحكمت جميع ذلك بحركات فلكيّة. فكان إذا ورد عليها عدوّ من نحو الحجاز واليمن عوّرت تلك الشخوص التي في البرابي من الإبل وغيرها فيحدث العَوَر[٢] في ذلك الجيش وتَهلِك دوابّهم، وكذلك كل من يقدُم عليها من البر والبحر إذا بلغها خبر مقدمه صنعت في تلك الصور ما يحدث مثله في ذلك الجيش من الآفات[٣]، فهابها سائر ملوك الأمم. وخبر هذه المرأة مشهور. وأكثر هذه البرابي باقٍ إلى وقتنا هذا وفيها التصاوير إلا أنها لا فعل لها. وقد قيل في البرابي: إنها اتخذت مع الأهرام قبل الطوفان. والله تعالى أعلم.

وقيل أيضًا: إن مما أنشأته هذه المرأة منارة الإسكندرية، وقد تقدّم ذكر خبرها في المباني القديمة وهو في السفر الأول من كتابنا هذا من هذه النسخة.

قال: وملكت هذه المرأة نحوًا من ثلاثين سنة، وقيل أقل من ذلك.

ولما هلكت دلوكة ملك بعدها دركوس بن بلوطس. ثم ملك بعد ولده بورش. ثم ملك بعده ولده بغاش بن بورش نحوًا من خمسين سنة. ثم ملك بعده دنيا بن بورش نحوًا من عشرين سنة. ثم ملك بعده بلوطس عشرين سنة. ثم ملك بعده بلوطس بن متناكيل أربعين سنة. ثم ملك بعده مالس بن بلوطس. ثم ملك بعده بوليه بن متناكيل؛ وكانت له حروب وسِيَرٌ في الأرض وهو فرعون الأعرج[٤] الذي غزا بني إسرائيل وخرّب بيت المقدس. ثم ملك بعده وينوس بن مرينوس ثمانين سنة. ثم ملك بعده قومس بن بغاس عشر سنين. ثم ملك بعده مكاييل وكانت له

---

(١) وهذا الحائط من العريش إلى أسوان شاملًا للديار المصرية من الجانب الشرقي.

(٢) العور: الشين والقبح.

(٣) الآفات: جمع الآفة، وهي كل ما يصيب شيئًا فيفسده، من عاهة أو مرض أو قحط.

(٤) قيل له الأعرج لأنه لما غزا بيت المقدس ونهبها وسبى ملكها همّ أن يصعد على كرسي نبيّ الله سليمان وكان بلولب لا يمكن أن يصعد عليه إلا برجليه جميعًا فصعد برجل واحدة وهي اليمنى فدار اللولب على ساقه الأخرى فاندقت، فلم يزل يخمع بها إلى أن مات فلذلك سمي الأعرج.

حروب مع ملوك الغرب، وهو الذي غزاه بختنصّر فقتله وقتل رجاله وخرّب أرض مصر، فقيل إنها خرّبت مدة أربعين سنة. وانقرض[١] ملك الفراعنة.

***

وملك الروم أرض مصر فتنصّر أهلها؛ ولم تزل بيد ملوك الروم إلى أن ملك كسرى أنو شروان فارسَ فغلبت جيوشه على الشام وسارت نحو مصر، فملك الفرسُ أرضَ مصر، وغلبوا عليها نحوًا من عشر سنين. وكانت بين الروم وفارس حروبٌ كثيرة، فصار أهل مصر يؤدّون خراجين: للروم وللفرس، ثم انجلت الفرس عن الشام ومصر لأمر حدث في بلادهم، فغلبت الروم على مصر والشام وأظهروا النصرانية، واستمرّ ذلك إلى أن جاء الله تعالى بالإسلام. وكان المقوقس ينوب عن ملك الروم، وهادى رسولَ الله ﷺ. ولم تزل الديار المصرية والشام بيد ملوك الروم إلى أن فُتحت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ما سنورد ذلك إن شاء الله تعالى في خلافة عمر في الباب الثاني من القسم الخامس من هذا الفن، وهو في السفر السابع عشر من هذه النسخة.

قال المسعودي رحمه الله: والذي اتفقت عليه التواريخ، مع تباين[٢] ما فيها، في عدد ملوك مصر إلى آخر أيام الفراعنة أنهم أثنان وثلاثون ملكًا. قال: فمن ملوك بابل إلى آخر أيام ابنة ماموم - يشير إلى دليفة - أحد عشر ملكًا وملكة. ومن العماليق أربعة ملوك. ومن الفراعنة من لَدُن الوليد بن مصعب فرعون موسى بن عمران عليه السلام، وإلى أن خرج بختنصّر الفارسيّ على مكاييل وقتله سبعة عشر ملكًا بما في ذلك من مُلْك دَلوكة، وهو إنما يشير إلى مَنْ ملكها بعد الطوفان. وأما مَن ملكها قبل الطوفان فإنه لم يتعرّض إلى ذكرهم. قال: وملكها من الروم سبعة ملوك. ومن اليونان عشرة ملوك. قال: وذلك قبل ظهور المسيح عليه السلام. قال: وملكها أناس من الفرس فكانت مدّة من ملكها من الفراعنة ومن بعدهم والعماليق والفرس والروم واليونان ألفي سنة وثلاثمائة سنة. والله أعلم بالصواب.

---

(١) انقرض القوم: أي ذهبوا ولم يبق منهم أحد.
(٢) التباين: الاختلاف، أو افتراقهما.

الباب الثالث

من القسم الرابع من الفن الخامس

في أخبار ملوك الأمم من الأعاجم؛ وهم ملوك الفرس الأول، وملوك الطوائف من الفرس، والملوك الساسانية واليونان والسريان والكلوانيين والروم والصقالبة والنوكبرد والإفرنجة والجلالقة وطوائف السودان

ذكر أخبار ملوك الفرس

وهم الفرس الأوَل

وقد اختلف الناس في الفرس وأنسابهم وكم من دولة كانت لهم. وسنذكر هاهنا مقالاتهم في ذلك وٱختلافهم. فمن الناس من زعم أنهم من فارس بن ياسور بن سام بن نوح، وهذا قول هشام بن محمد[١]. ومنهم من زعم أنهم من ولد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. ومنهم من زعم أنهم من ولد هدرام بن أرفخشد بن سام بن نوح وأنه وُلِد له بضعةُ عشر رجلًا كلهم كان فارسًا شجاعًا؛ فسمّوا الفرس لفروسيتهم، وفي ذلك يقول حِطّان بن المعلّى الفارسيّ:

وبنا سُمِّيَ الفوارس فُرسا ... نا ومنّا مناجِبُ الفتيان[٢]

وزعم قوم أن الفرس من ولد لوط من ٱبنتيه رشا ورغوشا. وذكر آخرون أنهم من ولد بوّان بن أران بن الأسود بن سام بن نوح، ولبوّان هذا ينسب شِعْب بوّان وهو أحد متنزّهات الدنيا. وقد تقدّم ذكره في باب الرياض من الفن الرابع.

---

(١) هشام بن محمد: هو هشام بن محمد بن السائب بن بشر بن عمر الكلبي، أبو المنذر الأخباري النسابة العلامة، كان عالمًا بالنسب، وأخبار العرب وأيامها، ووقائعها ومثالبها، أخذ عن أبيه أبي النضر محمد المفسر، وعن مجاهد، وعن محمد بن أبي السري البغدادي ومحمد بن سعد كاتب الواقدي وأبي الأشعث أحمد بن المقدام وغيرهم، وحدث عنه جماعة. ذكر ابن النديم له مصنفات كثيرة تزيد على مائة وخمسين مصنفًا. كانت وفاته سنة ٢٠٤ وقيل سنة ٢٠٦ هجرية. . (معجم الأدباء).

(٢) المناجب: أي الأفاضل.

ومن الناس من يرى أن الفرس من ولد إيران بن أفريدون، ولا خلاف بين الفرس أجمع أنهم من ولد كيومرث وهو الأشهر، وإليه يرجع جميع الفرس الأُوَل وملوك الطوائف والملوك الساسانية.

وأما التنازع في دولهم فمن الناس من زعم أنهم أربعة أصناف، وأن الصنف الأوّل منهم كان من كيومرث إلى أفريدون وهم الجرهانية، وقيل الجهدهانية. والصنف الثاني من كيان إلى دارا بن دارا وهم الكيانية. والصنف الثالث ملوك الطوائف. والصنف الرابع الساسانية. ومن الناس من جعلهم صنفين: فجعل الصنف الأوّل من كيومرث إلى دارا بن دارا. والصنف الثاني من أردشير بن بابك إلى يزدجرد بن شهريار المقتول في خلاف عثمان رضي الله عنه. فمدّة ملكهم في الدولة الأولى ثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة وستة وعشرون سنة. وعدّة ملوكهم عشرون ملكًا فيهم امرأة واحدة.

فأوّل مَلِك مَلَك من الفرس الأُوَل كيومرث وقيل فيه جيومرث.

وقد اختلف في نسبه، فمن الناس من قال: إنه ولد آدم لصلبه. ومنهم من قال: إنه ولد لاوذ بن إرم بن سام بن نوح. وقد قيل: إنه أوّل مَلِك ملَك من بني آدم. وكان السبب في ملكه أنه لمّا كثر البغي والظلم في الناس اجتمع أكابر أهل زمانه ورأَوْا أنه لا يُقيم أمرَهم إلا ملك يرجعون إليه فيما يأمر وينهي، فأتوْه وقالوا: أنت أكبر أهل زمانك وبقية أبينا، والناس قد بَغَى بعضهم على بعض، وأكل القويّ الضعيف، فضمّ أمرنا إليك وكن القائم بصلاحنا. فأخذ عليهم العهود والمواثيق بالسمع والطاعة له وترْك الخلاف عليه. فصنعوا له تاجًا ووضعوه على رأسه. وهو أوّل من وضع التاج على رأسه. فاستوثق له الأمر وقام بأمر الناس وحسُنَت سيرته فيهم. وكانت مدّة ملكه عليهم أربعين سنة. وكان ينزل إصطخر[1] من أرض فارس حتى مات. واُختُلِف في مقدار عمره، فقيل: إنه عاش ألف سنة، وقيل غير ذلك. والله تعالى أعلم.

---

(١) إصطخر: بالكسر، وسكون الخاء المعجمة، والنسبة إليها إصطخري وإصطخرزيّ بزيادة الزاي: بلدة بفارس من الإقليم الثالث، قيل: كان أول من أنشأها إصطخر بن طهمورث ملك الفرس، وطهمورث عند الفرس بمنزلة آدم... وإصطخر من أقدم مدن فارس وأشهرها، وبها كان مسكن ملك فارس حتى تحول أردشير إلى جور... (معجم البلدان).

فلما مات قام بالأمر من بعده أوشهنج ابنه وقيل: أخوه، وقيل: أوشهنج بن فيشداد بن كيومرث. وفي الناس من يزعم أنه أوّل مَلِكٍ ملَك من الفرس، وهو الذي جمع الأقاليم السبعة، ورتب المُلك ونظّم الأعمال، ولقِّب بفيشداد، وتفسيره بالعربية أوّل سيرة العدل. ويقال: إن أوشهنج هذا كان بعد الطوفان بمائتي سنة، وهو أوّل من قطع الحجر وبنى به، واستخرج المعادن، وبنى مدينتي بابل والسوس[1]. وكان فاضلاً حسن السياسة محمودَ الأثر. قال: ونزل الهند وتنقّل في البلاد وعقد التاج وجلس على السرير. وكان من حسن سياسته أنه نفى أهل الفساد والدعارة من البلدان وألجأهم إلى رؤوس الجبال وجزائر البحر، وٱستخدم منهم من كان يصلُح للخدمة وسمّاهم الشياطين والعفاريت، وقرّب أهل الخير والصلاح. وكانت مدّة ملكه أربعين سنة.

ولما مات ملك بعده طهمورث وقيل فيه طهورث بن أنوجهان بن أوشهنج، وقيل بل بينهما عدّة آباء. قال: ولما ملك سار في الناس سيرة جدّه أوشهنج. وكان ينزل نيسابور. وقيل إنه الذي أنشأها ثم جدّدها بعد ذلك سابور. وقيل: إنه أوّل من كتب بالفارسية ونفى أهل الدعارة والشرّ وٱستقام له نظام الملك. قيل: وفي أيامه ظهر بوداسف الذي أحدث دينَ الصابئة. وكان ملكه ثمانين سنة. وقيل ثلاثين سنة.

ولما مات ملك بعده أخوه جمشيد، وتفسير شيد: الشعاع، سمي بذلك لوضاءة وجهه. قال: ولما ملك سلك سيرة من تقدّم وزاد عليها بأن صنّف الناس وطبّقهم ورتّب منازل الكتّاب وأمر لكل واحد وظيفة وأمره أن يلزمها. وعمل أربعة خواتيم: خاتَمًا للحرب والشُّرَط[2] وكتب عليه الأناة، وخاتمًا للخراج وجباية الأموال وكتب عليه العمارة، وخاتمًا للبريد وكتب عليه ألوحا، وخاتمًا للمظالم وكتب عليه العدل. فبقيت هذه الرسوم في ملوك الفرس إلى أن جاء الإسلام.

وكان ملكه ستمائة سنة. وقيل سبعمائة سنة وستة أشهر. وقيل ألف سنة إلا

---

(١) السّوس: بضم أوله، وسكون ثانيه، وسين مهملة أخرى، بلفظ السّوس الذي يقع في الصوف: بلدة بخوزستان فيها قبر دانيال النبيّ عليه السلام.. قيل: أول من بنى كور السوس وحفر نهرها أردشير بن بهمن القديم بن أسفنديار بن كشتاسف... (معجم البلدان).

(٢) المراد بالشرط: أول كتيبة تشهد الحرب وتتهيّأ للموت.

عشر سنين. وفي أيامه أحدث النيروز[١] وجعله عيدًا، وأمر الناس أن يتنعموا فيه. ثم بدّل سيرته بالجَور بعد الإنصاف، والظلم بعد العدل، والإساءة بعد الإحسان، فثَقُلت وطأته على الناس. ثم أظهر الكِبْرَ على وزرائه وكتّابه وقوّاده. ثم أنهمك على لذّاته وترك مراعاة كثير من السياسة الملوكية التي جرت عادة الملك أن يتولاّها بنفسه. وقيل: إنه أدّعى الإلَهية فخرج عليه بيوراسب، وكان من جملة عمّاله، وأستجلب الناس وجمعهم عليه وأستصلحهم لنفسه، وقصد جمشيد بعد أن كثرت أتباعه وقويت شوكته، فهرب منه فأتبعه حتى أدركه وظَفِر به ونشره بمنشار.

وملك بعد جمشيد بيوراسب؛ وهو الذي يسمّيه العرب الضحّاك. قالوا: وهو بيوراسب بن أروندا سف بن بغاداس بن طوخ بن قروال بن ساعل بن فرس بن كيومرث، وهو الدَّهَاك، فعُرِّب اسمه فقيل الضحّاك. وقيل: إنه ملك ألف سنة. وزعم قوم أنه نمروذ. وزعم قوم آخرون أنه كان من عمّال بيوراسب على كثير من أعماله.

قال: ولما ملك بيوراسب ظهر منه خبث شديد وفجور كثير، وملك الأرض كلها، فسار فيها بالجَوْر والعَسْف[٢] وسَفْك الدماء والصلب، وهوّل على الناس ومحا سيرة من تقدّمه من الملوك، وسنّ الأعشار وأتخذ الملاهيَ والغناء. وكان على منكِبيه سِلعتان[٣] يحرّكهما إذا شاء كما يحرّك يده، فأدّعى أنهما حيَّتان تهويلاً على ضعفاء الناس. وقد تقدّم ذكره في الباب الرابع من القسم الثالث من الفنّ الأوّل، وهو في السفر الأوّل من نسخة الأصل في أخبار أعياد الفرس، فلا حاجة إلى إعادة ما قدّمنا ذكره من أمره.

قال: ولما عمّ الناس جَوْره كان من سوء عاقبة ذلك أن ظهر بأصبهان رجل يقال له كابي من عوامّ الناس. ويقال: إنه كان حدّادًا. وكان الضحاك قتل لكابي أبنين، فبلغ به الجزع على ولديه مبلغًا عظيمًا، فقام وأخذ عصا وعلّق عليها جرابًا.

---

(١) النيروز أو النوروز: بالفارسية: اليوم الجديد، وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية. وعيد النوروز أو النيروز: أكبر الأعياد القومية للفرس.

(٢) العسف: الأخذ بالعنف والقوة، والعسف: الظلم.

(٣) السلعتان: مثنى السلعة، وهي زيادة تحدث في الجسد مثل الغدة تمور بين الجلد واللحم إذا أضغطت، وتكون من قدر حمصة إلى بطيخة.

وقيل: بل علّق النِّطْع[١] الذي كان يشدّه على وسطه يتّقي به النار إذا صنع الحدادة. وقيل: بل كان جلد أسد. وقيل: بل جلد نمر، ودعا الناس إلى مجاهدة بيوراسب، فحمل الناسَ ما كانوا فيه من البلاء إن ٱتبعوه وأطاعوه، فاستفحل أمره، وكثرت أتباعه، وٱجتمع عليه أشراف الناس وأكابرهم؛ فقصد بيوراسب. فلما أشرف عليه هرب عن منازله، فجاء أشراف الناس إلى كابي الأصبهاني وٱجتمعوا عليه ليملّكوه، فامتنع من ذلك وقال: إني لست من بيت الملك، ولكن التمسوا من هو من بيت الملك فنولّيَه علينا. وكان أفريذون بن اثفيان قد استخفى من الضحاك في بعض النواحي، فجاء إلى كابي الأصبهانيّ ففرح الناس به وٱستبشروا بمقدَمه، وكان مرشحًا للملك فملّكوه عليهم، وصار كابي من جملة أعوان أفريذون.

قال: وتفاءل الفرس وتبركوا بذلك العلَم الذي كان قد رفعه كابي الأصبهاني وعظّموه ورصّعوه بعد ذلك بالجواهر وسمّوه الدِّرَفْس وجعلوه علمهم الأكبر الذي يتبرّكون به، وهو الذي صار إلى المسلمين في وقعة القادسيّة[٢]. وكانت الفرس لا ينشرونه إلا في الأمور العظيمة.

قال: ولما هرب بيوراسب ملك بعده أفريذون؛ وهو التاسع من ولد جمشيد. قال: فأوّل ما بدأ به أن ٱتبع بيوراسب فأدركه بدُنْبَاوَنْد[٣] وقتله. وفي يوم قتله أحدث المِهْرجان على ما قدّمناه. قال: ثم ردّ أفريذون مظالم الناس وأمر بالإنصاف وبسط العدل، ونظر إلى ما كان بيوراسب قد اغتصبه من أموال الناس وأملاكهم وأراضيهم، فردّ ذلك على أهله، وما لم يجد أهلَه وقفه على المساكين ومصالح العامة. وكان مؤثرًا للعلم وأهله. وكان صاحب طبّ وفلسفة ونجوم. وزعم بعض الفرس أن بيوراسب الضحاك هو النمروذ، وأن أفريذون هو إبراهيم عليه السلام. قال: ودام ملكه خمسمائة سنة. وقال: هو أوّل من تسمى بكَيْ، فكان يقال له: كَيْ أفريذون،

---

(١) النطع: بساط من الجلد.

(٢) القادسية: بلدة قرب الكوفة بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخًا، وبينها وبين العذيب أربعة أميال؛ كانت بها وقعة القادسية المعروفة بين المسلمين والفرس في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذه الوقعة من أعظم وقائع المسلمين خيرًا وبركة.

(٣) دنباوند: جبل من نواحي الريّ، وهو جبل عال مشرف شاهق شامخ لا يفارق أعلاه الثلج شتاءً ولا صيفًا، ويعرف بجبل البيوراسف يراه الناس من مرج القلعة ومن عقبة حمدان، والناظر إليه من الريّ يظن أنه مشرف عليه. . .

وهي كلمة يراد بها التنزيه؛ أي روحانيّ منزّه متصل بالروحانية. وهو أوّل من ذلّل الفِيَلة وقاتل بها الأعداء. قال: وكان لأفريذون ثلاثة أولاد وهم: سَرْم وقيل فيه سلم، وطوخ، وإيرج وقيل فيه إيران؛ فخشي أفريذون ألا يتفقوا بعده وأن يبغيَ بعضهم على بعض، وظن أنه إذا قسم الملك بينهم في حياته بقيَ الأمر بعده على انتظام واتساق فقسمه بينهم. فجعل الرومَ والشامَ وناحيةَ المغرب لسرم. وجعل التركَ والصينَ لطوخ. وجعل العراقَ والهندَ لإيرج، وهو صاحب التاج والسرير. ففي ذلك يقول شاعرهم:

وقَسَمنا ملكنا في دهرنا ... قسمة اللحم على ظهر الوَضَمْ[1]
فجعلنا الرومَ والشامَ إلى ... مغرب الشمس إلى المَلْكِ سَرَمْ
ولطوخ جُعِلَ التُّركُ له ... فبلادُ الصين يحويها ٱبنُ عم
ولإيرانَ جعلنا عنوة ... فارِسَ الملك وفزنا بالنعم

فلما مات أفريذون وثب طُوخ وسَرَم بأخيهما إيران فقتلاه وملكا الأرض بينهما، ولذلك نشأت العداوة بين الترك والروم، وقامت الحروب، وطلب بعضهم بعضًا بالدماء. فكان من سوء عاقبة غدرهما بأخيهما وتغلبهما على ملكه أن نشأ ٱبن لإيران بن أفريذون يقال له منوجهر، وقيل اسمه منواشجهر، وقيل فيه منوشهر، فغلب على ملك أبيه إيران.

وملك منوجهر بن إيران بلاد فارس، ثم نشأ ٱبن لطوخ التركي فنفى منوجهر عن بلاده وجرت بينهما حروب، ثم ظَفِر منوجهر وعاد إلى ملكه، ونفى ولدَ طوخ وقوي أمره وظهر ٱسمه. وكان منوجهر موصوفًا بالعدل والإحسان في مملكته. ويقال: إنه أوّل من خندق الخنادق، وجمع آلة الحروب، وأوّل من وضع الدّهقنة[2]، وجعل لكل قرية دِهقانًا، وجعل أهلها عبيدًا وخَوَلاً[3] وألبسهم لباس المذلّة. ولما قوي أمره سار نحو الترك وطلب بدم أبيه فقتل عمّيه اللذين قتلا أباه، وأدرك ثأره وٱنصرف إلى بلاده.

---

(١) الوضم: خشبة الجزار يقطع عليها اللحم.
(٢) الدهقنة: مصدر واسم من دهقن، والدهقان يراد به: رئيس الإقليم.
(٣) الخول: عطية الله من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الأتباع والحشم. (للواحد والجمع والذكر والأنثى).

ثم نشأ فراسياب بن ترك من ولد طوخ بن أفريذون وإليه ينسب الترك، فحارب منوجهر وحاصره بطَبَرِسْتان[١]، ثم اصطلحا وضربا بينهما حدًّا لا يجاوزه واحد منهما، وهو نهر بلخ[٢]، فانقطعت الحرب بين فراسياب ومنوجهر. وكان لمنوجهر هذا خُطَبٌ تدل على سداد رأيه، ووفور عقله، وجَوْدة فهمه؛ قد ذكرنا بعضَها في الباب الرابع من القسم الخامس من الفنّ الثاني في وصايا الملوك. قال: وفي أيام منوجهر ظهر موسى بن عمران عليه السلام.

قال: ولما مات منوجهر تغلّب فراسياب على إقليم بابل اّثنتي عشرة سنة، وأكثر الفساد، وخرّب البلاد، وطمّ الأنهار ودفن القُنَى[٣]، فقَحِط الناس إلى أن ظهر زوّ بن طهماسب فأخرجه عن بلاد فارس إلى تركستان.

وملك زوّ بن طهماسب وقيل فيه: زاع، وقيل فيه: زاب، وقيل: راسب، وهو من أولاد منوجهر، وبينه وبين منوجهر عدّة آباء. قال: ولما ملك ابتدأ في عمارة ما خرّبه فراسياب، وأمر ببناء ما هدم من الحصون، وحفر الأنهار والقُنَى، حتى عادت البلاد إلى أحسن ما كانت عليه، ووضع عن الناس الخراج سبع سنين، فعَمَرت البلاد في أيامه، ودرّت معايش الناس، واحتفر بالسواد[٤] نهرًا وسماه الزاب، وبنى على حافتيه مدينة وهي التي تسمى المدينة العتيقة، وكوّرها[٥] كورًا، وجعلها ثلاثة طساسيج[٦]: الزاب الأعلى، والزاب الأوسط، والزاب الأسفل، ونقل إليها بذور الرياحين، وأصول الأشجار.

وزوّ هذا أوّل من اتخذ ألوان الطبيخ، وأنواع الأطعمة، وقسم الغنائم على جنوده. وكانت مدّة ملكه ثلاث سنين.

---

(١) طبرستان: ناحية واسعة الأرجاء ببلاد فارس بين جرجان والديلم، على بحر قزوين الذي يسمى أيضًا باسمها «بحر طبرستان» وأشهر مدنها آمل، والدمغان، وقرمسان من مملكة إيران، فتحت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، قيل: بلخ في الإقليم الخامس.. وهي من أجمل مدن خراسان وأذكرها وأكثرها خيرًا وأوسعها غلة، تحمل غلتها إلى جميع خراسان وإلى خوارزم، وقيل: إن أول من بنى بلخ لهراسف الملك لما خرّب صاحبه بخت نصّر بيت المقدس... (معجم البلدان).

(٣) القنى: المجاري الضيقة للماء أو الواسعة. (٤) المراد بالسواد، **العراق**.

(٥) كوّرها: جعلها كورًا. (٦) طساسيج: جمع طسوج، وهي الناحية.

ثم ملك بعده كرشاسب بن أسباس؛ وأمه من سبط يامين بن يعقوب عليه السلام. قال: وكان مسكنه ببابل. ومدّة ملكه عشرون سنة. وبعض المؤرّخين لم يذكره في الملوك. وقال الشيخ أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه[1] في كتابه المترجم بتجارب الأمم: إن كرشاسب كان وزيرًا لزوّ بن طهماسب، وأنه من أولاد طوخ بن أفريذون. قال: وقد حكي أن زوًّا وكرشاسبًا اشتركا في الملك. قال: والصحيح من أمره أنه كان وزيرًا لزوّ ومعينًا له، والذي أثبت كرشاسب في الملوك الشيخ عبد الملك بن عبد الله بن عبدون الحضرمي الشلبي في كتابه المترجم بكمامة الزهَر وصدفة الدرر، وقال: ولم يذكره بعض المؤرّخين.

ثم ملك بعده كيقباذ بن زوّ؛ وقيل فيه: ٱبن زاب بن تور، وسلك سبيل أبيه فكوّر الكور، وبين حدودها، وأمر الناس بالعمارات، وأخذ العشر من الغلات لأرزاق الجند. وكان حريصًا على العمارة، مانعًا لحوزته. والملوكُ الكيّية[2] من نسله. وكان بينه وبين الترك حروب كثيرة. وكانت إقامته في الحدّ الذي بين مملكة الفرس والترك بناحية بلخ. وكان ملكه مائة وعشرين سنة ثم مات.

وملك بعده كيقابوس بن كينة بن كَيْقُباذ الملك. قال: ولما ملك شدّد على أعدائه، وقتل خلقًا كثيرًا من عظماء البلاد وسكن بلخ، وولد له ابن لم يُرَ مثله في عصره جمالاً وتمامَ خلقة، وسمّاه سياوخش وضمه إلى رستم الشديد بن دستان من ولد كرشاسب. وكان أصبهبذا[3] بسجستان وما يليها من قبل كيقابوس وأمره بتربيته. فمضى به رستم إلى سجستان وتخيّر له الحواضن والمراضع إلى أن عَقَلَ، فجمع له المعلمين، ثم علّمه الفروسية حتى فاق فيها، فقدم به على أبيه وهو كامل الصفات من العقل والأدب والفروسية، فٱمتحنه والده فوجده فوق ما يحب.

قال: وكان لكيقابوس زوجة بارعة الجمال يقال إنها بنت فراسياب ملك الترك؛ ويقال: إنها ٱبنة ملك اليمن، فهَوِيت سياوخش وهَوِيَها، ويقال: إنها كانت ساحرة فسحرته، وآل أمرهما إلى أن انكشف لأبيه كيقابوس وٱطّلع على ما كان من أمر ٱبنه

---

(١) ابن مسكوية: هو أحمد بن محمد، بن يعقوب، الملقب مسكوية، أبو علي الخازن، صاحب التجارب، مات سنة إحدى وعشرين وأربعماية. قال ياقوت الحموي: كان مسكوية مجوسيًا وأسلم... (معجم الأدباء، لياقوت ٥:٥).

(٢) الكيّية: الذين تبتدىء أسماؤهم بلفظة (كي) وهي كلمة يراد بها التنزيه.

(٣) الإصبهبذان: لغة لكل من ملك طبرستان، كما نعت ملك الفرس بكسرى، وملك الترك بخاقان، وملك الروم بقيصر.

وزوجته، فأشفق سياوخش على نفسه وخشي عاقبة أبيه فتلطف في البعد عنه، فسأل رستم أن يُشير على أبيه لإرساله لحرب فراسياب ملك الترك، وكان قد تجدّدت بين فراسياب وكيقابوس وَحْشَةٌ، ففعل رستم ذلك وخاطب كيقابوس فيه واستأذن له في جند يضمهم إليه، فأذن له وضمّ إليه جندًا كثيفًا وأشخص سياوخش إلى بلاد الترك، فسار حتى التقى بفراسياب فأنتظم الصلح بينهما من غير حرب، فكتب سياوخش إلى أبيه يخبره بما كان بينه وبين فراسياب من الصلح والاتفاق، فكتب إليه كيقابوس بإنكار ذلك عليه وأمره بمناهضتهِ[1] ومناجزته الحرب، فرأى سياوخش أنه إن فعل ما أمره به والده من الحرب ونقض الهدنة من غير سبب وقع يوجب نقضها، يكون ذلك عارًا عليه ومَنْقصَةً، فامتنع من إنفاذ أمر أبيه وأجمع رأيه على الهرب منه، فكتب إلى فراسياب ملك الترك يطلب منه الأمان لنفسه، وعرّفه أنه آثر اللحاق به فأجابه إلى ذلك. وكان السفير بينهما أحد عظماء الترك وأكابرهم يسمى قيران. فلما استوثق سياوخش من ملك الترك سار نحوه وأنصرف مَنْ كان معه من جند أبيه ورجعوا إليه. قال: ولما وصل سياوخش إلى فراسياب ملك الترك أكرمه وعظّمه وزوجه بابنته، وهي أم كيخسرو الذي ملك الفرس. ولم يزل على إكرامه إلى أن ظهر له من أدبه وحسن سياسته وجميل تلطفه ما أشفق[2] منه وخشِي على مُلكه لميل الناس إليه فقتله. وكانت أبنة الملك قد اشتملت من سياوخش على حَمْلٍ، فقصد أن يُسقطه وتحيّلوا في ذلك فلم تسقط؛ ثم جاء قيران، وهو الذي كان السفير في الصلح بين الترك وسياوخش، وأنكر ما كان من فعل الملك وحذّره عاقبة الغدر والطلب بالثأر، وأشار عليه أن يدفع ابنته زوجةَ سياوخش إليه لتكون عنده إلى أن تضع وقال: إذا أردت بعد ذلك قتل ولدها فاقتله؛ فأجابه الملك إلى ذلك وسلّم إليه أبنته، فكانت عنده إلى أن وضعت كيخسرو؛ فلما وضعته امتنع قيران من قتله وسترَ أمرَه، فكان عند قيران حتى بلغ، ثم احتال جدّه كيقابوس إلى أن أخرجه هو وأمّه من بلاد الترك.

قال أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه في كتابه المترجم بتجارب الأمم: وللفرس في أمر كيقابوس خرافاتٌ كثيرة منها: أنهم يزعمون أن الشياطين مسخوه، وقوم منهم يزعمون أن سليمان بن داود عليهما السلام أمرهم بذلك في خرافات كثيرة ظاهرة الإحالة: من الصعود إلى السماء، وبناء مدينة كنكر بأسوار من ذهب وفضة وحديد ونحاس وأنهار، وأنها ما بين السماء والأرض؛ وأشباه ذلك مما تُحيله العقول السليمة؛ لأن ذلك ليس في قدرة البشر.

---

(١) المناهضة: المخاصمة؛ ويقال: تناهض القوم: أي أسرع كل فريق إلى مقاومة خصمه.

(٢) يقا: أشفق منه: أي خاف وحذر منه.

قال: ولما تمّ لكيقابوس أكثرُ ما كان يقصده سار من خراسان ونزل بَابِلَ وترك ما كان يتولاه بنفسه من السياسات، واَحتجب عن الناس وتعاظم عليهم، وآثر الخلوة، فكان من عاقبة ذلك أن فسد عليه ملكه وغزته الملوك؛ فكان بعد ذلك يغزوهم فيظفَر بهم مرّة ويُنكَب أخرى، إلى أن غزا بلاد اليمن، والملك بها يومئذ ذو الأذعار بن أبرهة بن ذي المنار. فلما أتاه كيقابوس خرج إليه ذو الأذعار في جموعه من حِمْير وولد قحطان، فظَفِر به ذو الأذعار وأسره واَستباح عسكره وحبسه في بئر وأطبق عليه طبقًا، فخرج رستم الشديد من سجستان في جموع كثيرة من الفرس؛ فالفرس تزعم أنه أوغل في بلاد اليمن واستخرج كيقابوس من مَحبِسه، واليمن تقول غير ذلك، وأن ملكهم ذا الأذعار لما بلغه إقبالُ رستم خرج إليه في جموعه وجنود عظيمة، وخندق كل منهما على نفسه وعسكره، وأنهما أشفقا على جنديهما من البوَار[1]، فاتفقا على أن دفع لهم ملكُ اليمن كيقابوسَ وانصرف رستم من غير حرب ورجع بكيقابوس إلى بابل، فكتب له كيقابوس كتابًا بالعتْق وأقطعه سجستان. ونسخةُ الكتاب الذي كتبه: من كيقابوس بن كيقباذ إلى رستم. إني قد أعتقتك من العبودية، وملّكتك بلاد سجستان، واَجلس على سرير من فضة مموّه بالذهب، والبس قلنسوة من الحرير منسوجة بالذهب متوجة. قال: ومما يدل على صحة ما نقل من أمر كيقابوس قول الحسن بن هانىء[2]:

وقــاظ قــابــوسُ فــي سـلاسـلـنـا ... سنينَ سبعًا وَفَتْ لحاسبها[3]

ولما مات كيقابوس ملك بعده ولد اَبنه كيخسرو بن سياوخش بن كيقابوس. قال: ولما ملك عقد التاج على رأسه وخطب رعيته خطبة بليغة أعلمهم فيها أنه على الطلب بدم أبيه سياوخش قِبَل فراسياب ملك الترك، وكتب إلى جوذرز بأصبهان ـ وكان أصبهبذا على خراسان ـ يأمره بالمسير إليه، وأمره أن يعرض جنده وأن ينتخب ثلاثين

---

(١) البوار: الهلاك.

(٢) الحسن بن هانىء: هو أبو علي الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن الصباح المعروف بأبي نواس الحكمي الشاعر المشهور. ولد بالبصرة ونشأ بها ثم خرج إلى الكوفة مع والبة بن الحباب، ثم صار إلى بغداد، وهو في الطبقة الأولى من المولدين، وشعره عشرة أنواع، وهو مجيد في العشرة. . . (وفيات الأعيان ٢: ٩٥).

(٣) قاظ: أي أقام زمن القيظ.

ألف راجل ويضمهم إلى طوس بن نوذران وكان فيمن أشخص معه برزافره بن كيقابوس عمّ كيخسرو وابن جوذرز وجماعة من إخوته، وتقدّم كيخسرو إلى طوس، وأمره أن يقصد فراسياب وطراختنه[١] وحذره من ناحية ببلاد الترك فيها أخ له من أبيه سياوخش يقال له فروذ، وكان قد رُزِقه من بعض نساء الأتراك، كان سياوخش قد تزوّجها لما سار إلى فراسياب فولدت له فروذ، وأقام بموضعه إلى أن شبّ، فسار طوس وكان من غلطه الذي فعله أنه لما صار بالقرب من المدينة التي فيها فروذ حاربه فقُتِل فروذ في الوقعة. فلما اتصل الخبر بكيخسرو غضب لذلك وشقّ عليه، فكتب إلى عمه برزافره ذلك كتابًا غليظًا يخبره بما ورد عليه من خبر طوس ومخالفته له ومحاربته لأخيه فروذ وقتله إياه، وأمره بإشخاص[٢] طوس إليه مقيدًا مغلولاً، وأن يتقدّم هو على العسكر ويتوجه. ففعل برزافره ذلك وتولى أمر العسكر، وسار وعبر النهر المعروف بكاشرود، وانتهى خبره إلى فراسياب فوجه للقائه وحربه جماعة من إخوته وطراختنه، فالتقَوْا وفيهم قيران وإخوته، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وظهر من برزافره عمّ كيخسرو في ذلك اليوم فشلٌ لمّا اشتدت الحرب، فهرب وأنحاز بالعلم إلى رؤوس الجبال، واضطرب على ولد جوذرز الأمرُ، فقُتِل منهم في تلك الملحمة في وقعة واحدة سبعون رجلاً، وقتل خلق كثير، وأنصرف برزافره ومن أفلت معه إلى كيخسرو، فرُئيت الكآبة في وجهه وأمتنع عن الطعام والشراب أيامًا، ثم أتاه جوذرز وشكا إليه عمه برزافره وأنه كان سبب الهزيمة، ولاطفه كيخسرو وقال: إن حقك لازم لنا لخدمتك إيانا، وهذا جندنا وخزائننا مبذولة لك فاطلب تِرَتَك[٣] واستعِدَّ وتجهّز للتوجه إلى فراسياب. فنهض جوذرز وقبّل يده وقال: نحن رعيتك وعبيدك أيها الملك، فإن كانت آفة أو نازلة فلتكن بالعبيد دون الملوك، وأولادي الذين قُتلوا فداؤك، ونحن من وراء الانتقام من فراسياب والاستيفاء من الترك. فكتب كيخسرو إلى وجوه عساكره وأكابر أجناده يأمرهم بموافاته في صحراء تعرف بشاه أسطون من كورة بلخ في وقت وَقّته لهم، فوافَوْه في ذلك الوقت، وشخص كيخسرو بأصبهبذيته وأصحابهم وفيهم برزافره عمه وجوذرز وولده، فعرض كيخسرو الجند بنفسه حتى عرف عدّتهم وأطّلع على أحوالهم، ثم أحضر جوذرز وثلاثةَ نفر معه من القوّاد فأعلمهم أنه يريد إدخال العساكر على الترك من أربعة وجوه ليُحِيطوا بهم من جميع

(١) الطراخنة: جمع الطرخان، وهو زعيم القوم المعفى من الضرائب. (فارسي).

(٢) بإشخاصة مقيدًا: أي بإرساله إليه مقيدًا. (٣) المراد بالترة: الثأر.

جهاتهم، وقوّد على تلك العساكر، وجعل أعظمها إلى جوذرز، ودفع إليه يومئذ دِرَفْس[١] كابيان، ولم يكن يُدفع قبل ذلك لأحد من القوّاد، بل مع أولاد الملوك.

قال: وأمر أحدَ القوّاد بالدخول مما يلي الصين وضم إليه ثلاثين ألف رجل، وأمرهم بالدخول من ناحية الخزر[٢] من طريقٍ بين جوذرز وبين الذي دخل من طريق الصين، ودخل جوذرز من ناحية خراسان وبدأ بقيران والتحمت بينهما الحرب واشتدّ القتال، فقتل جوذرز أخًا لقيران، ثم قتل قيرانَ مبارزة، ثم قصد فراسياب والتحمت عليه العساكر من كل جهة، واتبع كيخسرو القومَ بنفسه وقصد الوجه الذي كان فيه جوذرز، وقد أثخن في القتل وقتل أصبهبذَ فراسياب والمرشحَ للملك بعده، وجماعةً كثيرة من إخوته وأولاده، وأسر برويز وهو الذي قتل سياوخش.

قال: ولما جاء كيخسرو وجد جوذرز قد أحصى الأسرى والقتلى وما غنم من الكُراع[٣] والأموال، فوجد ما في يده من الأسرى ثلاثين ألفًا، ومن القتلى خمسمائة ألف ونيفًا وستين ألفًا على ما تزعم الفرس، وحاز من الكُراع والأموال ما لا يحصى كثرة، وأمر كل واحد من الوجوه الذين كانوا معه أن يجعل أسيره ورأس قتيله عند علمه لينظر إلى ذلك كيخسرو عند موافاته. فلما وافى كيخسرو موضعَ الملحمة تلقاه جوذرز وعرض عليه الأسرى والقتلى، فرأى قيرانَ قتيلاً، وأُتي بقاتل أبيه الذي مثّل به بعد قتله. فقتله كيخسرو شرّ قِتْلة؛ قطعه عضوًا عضوًا ثم ذبحه، وأحسن صلة جوذرز وفوّض إليه الوزارة التي يقال لها بزر جفر مذار وجعل إليه مع ذلك أصبهان[٤] وجرجان[٥]، وأحسن لكل من أبلَى من قوّاده ورجاله، ثم أتته أخبار قوّاده الثلاثة

---

(١) الدرفس: الراية الكبيرة. جمع درافس؛ وقيل: الدرفس: العلم الأكبر الذي كان الفرس يحملونه في غزواتهم، ولم يكن يحمل إلا إذا كان الملك يقود الجيش بنفسه.

(٢) الخزر: بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدرنبد قريب من سدّ ذي القرنين، وملك الخزر اسمه خاقان، ولم يكن يظهر إلا في كل أربعة أشهر متنزهًا. . . (معجم البلدان).

(٣) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

(٤) أصبهان: هي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها؛ وهي اسم للإقليم بأسره، وكانت مدينتها أولاً جيًا ثم صارت اليهودية، وهي من نواحي الجبل في آخر الإقليم الرابع، وقد اختلف في سبب تسميتها. . . (معجم البلدان).

(٥) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، فبعض يعدّها من هذه وبعض يعدّها من هذه، وقيل: إن أول من أحدث بناءها يزيد بن الملهب بن أبي صفرة، وقد خرج منها خلق من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين. . . (معجم البلدان).

الأخر أنهم قد أحاطوا بفراسياب، وبرز فراسياب ومن بقي من ولده وعساكره وتوجه نحو كيخسرو بجيوش عظيمة، فيقال إن كيخسرو أشفق منه وهابه حتى ظن أنه لا قبل له به، ودام القتال بين العسكرين أربعة أيام، فقتل شيده مقدّم عسكر فراسياب، وكانت هذه الحرب معه، ثم أقبل فراسياب في جمع عظيم من الأتراك وٱلتقى هو وكيخسرو ونشِبت بينهما حروب عظيمة يقال إنه لم يُرَ مثلها قبلها قط على وجه الأرض، فكانت الدائرة على الترك، وٱنهزم فراسياب وكثر القتل في أصحابه وأتبعه كيخسرو حتى أدركه بأذربيجان[1] فظفر به واستوثق منه بالحديد ووبّخه على ما كان منه من قتل سياوخش، فلم يكن له حجة، فذبحه ثم ٱنصرف. وقد غنم غنائم عظيمة لا تحصى وأدرك بثأره.

قال: ولما فرغ كيخسرو من أمر الترك ورجع إلى بلاده واستقرّ بدار ملكه زَهِد في الملك وتنسّك، وأعلم وجوه أهل بيته وأكابر مملكته أنه قد عزم على التخلي والاّنفراد وتَرْك الملك؛ فجزِعوا من ذلك وسألوه ألا يفعل، فأبى عليهم. فلما أيسوا منه سألوه أن ينصب في الملك من يراه له أهلاً، فأشار بيده إلى لهراسف وأعلمهم أنه خاصته ووصيته، فقبل لهراسف ذلك وأقبل الناس عليه. وفُقِد كيخسرو. فمنهم من يقول: إنه غاب للتنسك، وبعضهم يقول غير ذلك، إلا أنه لم تُعلَم جهة وفاته. قال: وكان ملكه ستين سنة. قال: وفي أيام ملكه كان سليمان بن داود عليه السلام.

ثم ملك بعده لهراسف؛ وقيل فيه بهراسف بن تنوفي بن كيمش وهو ٱبن أخي كيقابوس ويلقب بكي لهراسف. قال: ولما ملك اتخذ سريرًا من ذهب مكللاً بالجوهر للجلوس عليه، وبنيت له بأرض خراسان مدينة، وسماها بلخ الحسناء.

قال: وهو أوّل من دوّن الدواوين، وقوّى ملكه بانتخاب الجنود، وعَمَر الأرض. وكانت شوكة الأتراك اشتدّت في زمانه، فنزل بلخ لمقاتلتهم، ووجه بختنصر أصبهبذًا ما بين الأهواز إلى أرض الروم، من غربيّ الفرات. وسنذكر أخباره إذا انتهت أخبار لهراسف.

---

(١) أذربيجان: بالفتح، ثم السكون، وفتح الراء، وكسر الباء الموحدة، وياء ساكنة، وجيم. قيل: آذر اسم النار بالفهلوية، وبايكان معناه الحافظ والخازن، فكأن معناه بيت النار، أو خازن النار. وحدّ أذربيجان من برذعة مشرقًا إلى أرزنجان مغربًا، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجيل، والطّرم، وهو إقليم واسع. ومن مشهور مدائنها تبريز وهي قصبتها قديمًا. . . (معجم البلدان).

قال: وكان لهراسف بعيد الهمة، طويل الفكرة، شديد القمع للملوك المحيطة لإيران شهر. وكانت ملوك الروم والمغرب والهند يؤدّون إليه إتاوة[١] معلومة في كل سنة، ويُقرّون له أنه ملك الملوك هيبةً له، واستمرّ في الملك إلى أن كَبِرت سنّه وأحس بالضعف فاعتزل الملك ونصب ٱبنه بشتاسب. وكان ملكه فيما ذكر مائة وعشرين سنة.

ذكر أخبار بختنصّر

ويقال في ٱسمه بالفارسية بخترشه، وكان مَرْزُبانًا للهراسف، ومعنى المرزبان أنه مَلِكٌ على ربع من أرباع المملكة. وقد قدّمنا أن الملك لهراسف كان قد جعله أصبهبذًا ما بين الأهواز[٢] إلى أرض الروم. قال: فسار حتى أتى دِمَشق فصالحه أهلها، ووجه قائدًا له فأتى بيتَ المقدس فصالح ملك بني إسرائيل، وهو رجل من بني داود النبيّ عليه السلام، وأخذ منه رهائن وانصرف. فلما بلغ طبَرية[٣] وثب بنو إسرائيل على مَلِكهم فقتلوه وقالوا له: إنك هادنت أهل الكفر وخذلتنا واستعدّوا للقتال؛ فكان عاقبة ذلك أن قائد بختنصر ـ لما بلغه ما كان من بني إسرائيل ـ كتب إليه يخبره بقتلهم مَلِكهم، فأجابه بختنصر أن يقيم بموضعه حتى يوافيَه، وأمره بضرب أعناق الرهائن الذين معه. وسار بختنصر حتى أتى بيت المقدس فأخذ المدينة عنوة وقتل المقاتِلة وسبى الذرّية وهرب الباقون إلى مصر، فكتب بختنصر إلى ملك مصر: أن عبيدًا لي هربوا مني إليك فسرِّحهم إليّ وإلا غزوتك وأوطأت خيلي بلادَك، فكتب إليه ملك مصر: إنهم ليسوا عبيدك، ولكنهم الأحرار أبناء الأحرار، وامتنع من إنفاذهم إليه، فغزاه بختنصر وقتله وسبى أهل مصر، ثم سار في أرض المغرب حتى بلغ أقصى نواحيها.

---

(١) الإتاوة: الجزية، أو الخراج جمع أتاوي.

(٢) الأهواز: كان اسمها في أيام الفرس خوزستان؛ وفي خوزستان مواضع يقال لكل واحد منها خوز كذا؛ منها خوز بني أسد وغيرها؛ فالأهواز اسم للكورة بأسرها، وأما البلد الذي يغلب عليه هذا الاسم عند العامة اليوم فإنما هو سوق الأهواز؛ وأصل الحوز في كلام العرب مصدر حاز الرجل الشيء يحوزه حوزًا إذا حصله وملكه. . . (معجم البلدان).

(٣) طبرية: هذه كلها أسماء أعجمية، وطبر في العربية بمعنى قفز واختبأ، وطبرية في الإقليم الثالث، طولها من جهة المغرب سبع وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة، وفتحت طبرية على يد شرحبيل بن حسنة في سنة ١٣ هجرية، صلحًا على إنصاف منازلهم وكنائسهم. . . (معجم البلدان).

قال صاحب كتاب تجارب الأمم: وقد حكى أهلُ التوراة وغيرهم في أمر بختنصر أقوالاً مختلفة، فذكروا منها: أن بختنصر لما خرّب بيت المقدس أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم تُرسه ترابًا ثم يقذفه في بيت المقدس، فقذفوا فيه من التراب ما ملأه. قال: ولما ٱنصرف إلى بابل ٱجتمع معه سبايا بيتِ المقدس من بني إسرائيل وغيرهم، فاختار منهم سبعين ألف صبيّ، فلما فرّق الغنائم على جنوده سألوه أن يقسم فيهم الصبيان، فقسمهم في الملوك منهم، فأصاب كل رجل منهم أربعة، وكان من أولئك الغِلْمة الذين سباهم، دانيال النبيّ وحنين ومنشايل، وسبعة آلاف من أهل بيت داود، وأحد عشر ألفًا من سبط بشر بن يعقوب. ثم غزا بختنصر العرب، وذلك في زمن معدّ بن عدنان.

قال: وكانت مدّة غلبة بختنصر إلى أن مات أربعين سنة، ثم قام ٱبن له يقال له أونمروذ ثم هلك، وملك مكانه ٱبن له يقال له بلتنصر، وذلك في زمن بهمن، فلم يرض بهمن أمره فعزله وملك مكانه كيرش، وتقدّم إليه بهمن أن يرفُق ببني إسرائيل ويمكّنَهم من النزول حيث سألوا، أو الرجوع إلى أرضهم، وأن يولّيَ عليهم من يختارونه، فاختاروا دانيال فولاه أمرهم. فكانت مدّة خراب بيت المقدس سبعين سنة. وقيل غير ذلك. ولنرجع إلى أخبار الفرس.

ولما ٱعتزل لهراسف المُلك كما ذكرناه، ملك بعده كي بشتاسف بن كي لهراسف. قال: ولما ملك بنى مدينة فسا[١]، وهو أوّل من بسط دواوين الكتاب لا سيما ديوان الرسائل، وكان له ديوانان أحدهما: ديوان الخراج، والآخر ديوان النفقات، فكل ما يَرِد فإلى ديوان الخراج، وكل ما يصرف فمن ديوان النفقات. وكان له كاتب موكل بدار المملكة، فإن وقع تقصير بأحد في منزلته، أو حُطَّ من درجته رجع إلى ذلك الكاتب ليبين له حال مرتبته فيجري على رسمه وعادته.

وفي أيامه ظهر زرادشت بعد ثلاثين سنة من ملكه فٱدّعى النبوّة فأراده على قبول دينه فامتنع من ذلك ثم صدّقه وقَبِل دعواه، وأتاه بكتاب يكتب في جلد ٱثنتي عشرة ألف بقرة حفرًا في الجلود ونقشًا بالذهب، فصير بشتاسف ذلك الكتاب بإصخطر ووكل به الهرابذة[٢]، ومنع من تعليمه العامة. وبنى ببلاد الهند بيوتًا للنيران، وتنسّك

---

(١) فسا: مدينة بفارس أنزه مدينة بها فيما قيل، بينها وبين شيراز أربع مراحل، وهي مدينة واسعة الشوارع تقارب في الكبر شيراز، وهي أصح منها.

(٢) الهرابذة: جمع الهربذ: هم خدّام النار؛ وقيل: هم حكام المجوس الذين يصلون بهم.

واشتغل بالعبادة، وهادن كي خرزاسف بن كي سواسف ٱبن أخي فراسياب ملك الترك على ضروب من الصلح، وفي جملة شريطة الصلح ألا يكون ببلاد خرزاسف دابة موقوفة في منزلة الدوابّ التي تكون على أبواب الملوك، وغير ذلك مما وقعت عليه المهادنة. فأشار زرادشت على بشتاسف بنقض الهدنة ومفاسدة ملك الترك، فبلغ ملكَ الترك ذلك، فغضب وكتب إليه كتابًا غليظًا من جملته أن يوجه إليه زرادشت، وأقسم إن متنع أن يغزوَه حتى يسفك دمه ودماء أهل بيته؛ فأجابه بشتاسف بجواب أغظ من كتابه وآذنه بالحرب وأعلمه أنه غير ممسك عنه إن أمسك هو. فسار كل منهما إلى الآخر، ومع كل واحد منهما إخوته وأهل بيته، والتقَوْا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فكانت الدائرة على الترك، وقتل اسفنديار بن بشتاسف بيدرفش الساحر مبارزة؛ وقُتِلت التركُ قتلاً ذريعًا، وهرب ملكهم خرزاسف ورجع بشتاسف إلى بلخ.

قال: فلما مضت لتلك الحرب سنون سعى رجل يقال له فروخ بإسفنديار إلى بشتاسف ونسبه أنه تطاول للملك، وزعم أنه أحقُّ به، فأفسد بذلك قلب بشتاسف عليه، وصدق مقالة فروخ، فأخذ في التدبير على إسفنديار وجعل يرسله إلى حرب بعد حرب، وهو يظفر وينجح ويرجع بالغنائم، ثم أمر بتقييده فقُيِّد، وصيره في الحبس في حصن من حصونه، وسار بشتاسف إلى جبل يقال له طميدر لدراسة دينه والتنسك هناك، وخلّف أباه لهراسف في مدينة بلخ، وقد كبرت سنه وهرم وعجز.

قال: فاتصل هذا الخبر بخرزاسف ملك الترك، فجمع من الجنود ما لا يحصى كثرة، وشَخَص من بلاده نحو بلخ حتى إذا انتهى إلى تخوم[1] ملك فارس قدّم أمامه جوهرمز أخيه، وكان مرشحًا للملك، في جماعة كثيرة من المقاتلة، وأمرهم أن يُغِذُّوا[2] السير حتى يتوسطوا المملكة، ثم يوقعوا بأهلها ويُشنوا الغارة على المدن والقرى. ففعل جوهرمز ذلك وسفك الدماء وٱستباح الحرم، وسبى ما لا يحصى، وأتبعه خرزاسف ملك الترك حتى انتهى إلى مدينة بلخ، فأحرق الدواوين وقتل لهراسف والهرابذة، وهدم بيوت النيران، واستولى على الأموال الكنوز، وسبى ٱبنتين لبشتاسف وأخذ دِرَفْس كابيان، وسار في طلب بشتاسف فتحصن منه في جبل طميدر؛ فعند ذلك ندم بشتاسف على ما كان منه في حق ٱبنه إسفنديار؛ فيقال: إنه وجه من استخرجه من محبسه، وجاءه به؛ فلما دخل عليه اعتذر منه ووعده عقْدَ التاج على

---

(١) التخوم: جمع التّخم، وهي المعالم يهتدى بها، أو الحدّ الفاصل بين أرضين.

(٢) يقال: غذّ الرجل والحيوان غذوًا، وغذوانًا: أي أسرع.

رأسه، وأن يفعل معه كما فعل لهراسف به. وقلده أمر عساكره وندبه لحرب ملك الترك. فطابت نفس إسفنديار بكلام أبيه له، وتأهب لوقته، وسار بالجنود صبيحة النهار نحو الترك. فلما قَرُب منهم تبادروا لحربه؛ فكان ممن خرج إليه منهم جوهرمز واندرمان، فالتقَوْا والتحمت بينهم الحرب، فانقضّ إسفنديار على عساكر الترك بنفسه واختلط بهم، وقاتل حتى ثلم فيهم ثُلمة عظيمة، وفشا في الترك أن إسفنديار قد أُطلق من مَحبِسه، وأنه هو الذي يقاتلهم، فانهزموا لا يلوون على شيء. واسترجع إسفنديار من الترك الدِّرَفْس وعاد إلى أبيه، فاستبشر وأمره باتّباع القوم وقتال خرزاسف وقتله - إن ظَفِر به - بجدّه لهراسف، وقَتْل جوهرمز واندرمان بمن قُتل من ولده، وأن يهدم حصون الترك ويحرّق مدنهم ويقتل أهلها بمن قتلوا من أهل بلاده، ويستنقذ من سَبَوْه من بناته. فدخل إسفنديار بلاد الترك ورام ما لم يَرُمْهُ أحد قبله، واعترض العنقاء[١] ورماها على ما يزعم الفرس، ودخل مدينة الصفر[٢] عنوة، وقتل ملكها وأخوته ومقاتِلته، واستباح أمواله وسبَى ذراريه ونساءه واستنقذ أختيه، وكتب بالفتح إلى أبيه. ولم يستقل إسفنديار هذا بالملك.

والذي ملك الفرس بعد بشتاسف أردشير بَهْمَن بن إسفنديار بن بشتاسف. وتفسير بهمن بالعربية: الحَسَن النيّة.

قال: ولما ملك أردشير انبسطت يده وتناول الممالك حتى ملك الأقاليم. وكانت ملوك الأرض تحمل إليه الإتاوة، وابتنى بالسواد مدينة وهي المعروفة بهمينيا[٣]، وهو أبو دارا الأكبر، وأبو ساسان. قال: وكان بهمن كريمًا متواضعًا. وكانت تخرج كتبه: من أردشير بهمن عبد الله وخادم الله والسائس لأمركم. ويقال: إنه غزا رومية الداخلة في ألف ألف مقاتل. ومن المؤرّخين من ذهب إلى أن بهمن هذا هو الذي جهّز بختنصّر لغزو العرب وغيرهم. وكانت مدّة ملك أردشير مائة واثنتي عشرة سنة.

---

(١) العنقاء: طائر متوهم لا وجود له.

(٢) الصفر: بالضم ثم الفتح والتشديد، موضع بين دمشق والجولان. والصفر: بفتح أوله وثانيه جبل أحمر من جبال ملل قرب المدينة. والصفر: بكسر الفاء: جبل بنجد في ديار بني أسد. وقد يكون المراد مدينة النحاس التي تقدم تفسيرها، لأن الصفر يعني النحاس الأصفر.

(٣) همينيا: قرية كبيرة كالبلدة بين بغداد والنعمانية في وسط البريّة ليس بقربها شيء من العمارات، وهي في ضفة دجلة.

ولما مات ملكت بعده ٱبنته جماز هرازاد، وهي جماني أمّ ٱبنه دارا. قال: وكانت قد حملت منه بدارا الأكبر وسألته أن يعقد التاج للذي في بطنها ويؤثره بالملك، ففعل أردشير ذلك. وكان ٱبنه ساسان يتصنع للملك ولا يشكّ أنه يكون هو الملك بعد أبيه. فلما رأى ما فعل أبوه شقّ ذلك عليه، فلحِق بإصطخر وتزهّد، وخرج عن حلية الملوك، وٱتخذ غُنَيْمَةً وكان يتولاّها بنفسه، فاستشنع الناس ذلك من فعله وقالوا: صار ساسان راعيًا، ولم تزل جماني قائمة بأمر الملك، ضابطة له، وأغزت الروم جيشًا بعد جيش وأوتيت ظَفَرًا، فقمعت الأعداءَ وشغلتهم عن التطرّق إلى شيء من بلادها، ونال رعيّتها بتدبيرها رفاهية وأمنٌ إلى أن كبر ٱبنها.

فملك دارا بن أردشير بهمن. قال: ولما كبر حُوِّل التاجُ إلى رأسه ونزل بابل. وكان ضابطًا لملكه. قاهرًا لمن حوله من الملوك، يؤدون إليه الخراج. وٱبتنى بفارس مدينة وسماها دارا بَجِرْد. ورتّب دوابّ البريد. وكانت مدّة ملكه ٱثنتي عشرة سنة.

وملك بعده ٱبنه دارا بن دارا بن أردشير؛ وكان دارا هذا حقودًا جبارًا، فملّه قومه. وغزاه الإسكندر بن فيلبس اليوناني، والتقَوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتل دارا بن دارا. وسنذكر خبر مقتله في أخبار الإسكندر.

فهؤلاء ملوك الفرس الأول. ثم تبدّد ملك الفرس وٱنتشر[1] لقتل دارا بن دارا، واستقل الإسكندر بالملك. وملك بعده مَنْ نذكره من ملوك اليونان، وتفرّق مُلك الفرس أربعمائة سنة إلى أن عاد إلى بني ساسان. وها أنا ذاكر خبر ملوك الطوائف ما بين دارا بن دارا وأردشير بن بابك.

ذكر أخبار ملوك الطوائف

وملوك الطوائف هم الذين ملكوا بلاد فارس ما بين دارا بن دارا وأردشير بن بابك الذي جمع مُلك الفرس بعد تبدّده، ونَظَمه بعد انتشاره. وكان من خبرهم أن الإسكندر لما قتل دارا بن دارا وغلب على بلاد الفرس همّ بقتل أكابرهم، فكتب إلى معلّمه أرسطاطاليس يستشيره في ذلك، فنهاه عن قتلهم وقال: هذا من الفساد في الأرض، وإذا قتلتَهم أنبتت أرضُ بابل أمثالهم؛ وأشار عليه أن يفرّق المملكة بين أولاد الملوك، فإنهم يتنافسون المُلكَ فلا يجتمعون على مَلِكٍ واحد منهم، فمتى خالفك واحد كانت مؤنته[2] عليك خفيفة؛ ففعل ذلك، وفرّق المُلك حتى أمكنه أن

(١) انتشر: تفرّق. (٢) المؤنة: الاتقاء والحذر.

يتجاوز أرض فارس إلى بلاد الهند والصين. فكانت ملوك الطوائف في إقليم بابل لا يَدِين بعضهم إلى بعض.

فكان من ملوكهم الذين ملكهم الإسكندر: أشك بن دارا الأكبر؛ فقَوِي أشك هذا وعظّمته الملوك وقدّموه على أنفسهم، وبدؤوا به في كتبهم إليه إجلالاً له، وبدأ في كتبه إليهم بنفسه، وسَمَّوْه ملكًا، وأهْدَوْا إليه من غير أن يُطيعوه أو يستعمل أحدًا منهم أو يَعزِله، وكثرت جموعه وسار إلى أنطيخس، وكان مقيمًا بسواد العراق من قبل الروم، وتقدّم أنطيخس إليه وٱلتقيا ببلاد الموصل وٱقتتلا فقُتِل أنطيخس، وغلب أشك على السواد، وصار في يده من الموصل إلى الريّ[1] وأصفهان، ولذلك عظّمته ملوك الطوائف.

ثم ملك جوذرز بن أشكان. وهو الذي غزا بني إسرائيل المرة الثانية؛ وذلك بعد قتلهم يحيى بن زكريا عليهما السلام، فسلطه الله تعالى عليهم فأكثر فيهم القتل فلم يَعُدْ لهم جماعة بعد ذلك، ورفع الله عنهم النبوّة وأنزل بهم الذل.

وكان من سُنَّة الفرس بعد الإسكندر أن يخضعوا لمن ملك بلاد الجبل، وهم الأشغانية؛ فأوّلهم أشك بن أشكان، ثم سابور بن أشكان، وفي أيامه ظهر المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بأرض فِلَسطين. ثم ملك جوذرز بن أشغانان الأكبر. ثم ملك بيزن الأشغاني. ثم ملك جوذرز الأشغاني. ثم نرسي الأشغاني. ثم هرمز. ثم أردوان الأشغاني. ثم كسرى الأشغاني. ثم بلاش الأشغاني. ثم أردوان الأصغر الأشغاني. ثم أردشير بن بابك. فكانت مدة هؤلاء، إلى أن وثب أردشير بن بابَك على الأردوان فقتله، مائتين وستًا وستين سنة.

وفي أيام ملوك الطوائف اصطُلِمت[2] طسم وجديس. وسنذكر إن شاء الله خبرهم.

---

(١) الريّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا، وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخًا، ومن قزوين إلى أبهر اثنا عشر فرسخًا ومن أبهر إلى زنجان خمسة عشر فرسخًا... (معجم البلدان).

(٢) اصطلمت طسم وجديس: أي أبيدتا.

ذكر أخبار الملوك الساسانية

وهم الفرس الأخر. وأوّل من ملك منهم أردشير بن بابك بن ساسان الأصغر. وكان من أعظم ملوك الطوائف وملوك الأشغانية، فوثب بالأردوان وقتله واستولى على الممالك وقاد الملوك إلى طاعته رغبةً ورهبةً. وكتب إلى ملوك الطوائف يدعوهم إلى الاجتماع إليه: بسم الله وليّ الرحمة. من أردشير المستأثَرِ دونه بحقه، المغلوبِ على تراث آبائه، الداعي إلى قوام دين الله وسنته، المستنصِر بالله، الذي وعد المحقّين الفَلَح[١]، وجعل لهم العواقب؛ إلى مَنْ بلغه كتابي هذا من ملوك الطوائف. سلام عليكم بقدر ما تستوجبون بمعرفة الحق، وإنكار الباطل والجَوْر[٢]. ودعاهم إلى الطاعة: فمنهم من أقرّ له بالطاعة، ومنهم من تربّص[٣] حتى قَدِم عليه، ومنهم من عصاه فكانت عاقبة أمره إلى القتل والهلاك؛ حتى استوثق له الأمر. فكانت طائفة الأشكانية ممن اَمتنعت من طاعة أردشير، فأقسم أنه لا يُبقي منهم ـ إن قدر عليهم ـ رجلًا ولا اَمرأة. فلما غَلَب عليهم ما نجا منهم إلا من أخفَى اَسمه ونسبه. وقد كان أخذ في جملة من أخذ منهم ابنةُ ملكهم، وكانت بارعة الجمال، وافرة العقل. فلما رآها قال لها: أنت من بنات ملوكهم؟ قالت: بل من خدمهم. فاصطفاها لنفسه، فحملت منه. فلما علمت بالحمل شهرت نفسها وقالت: أنا اَبنة ملكهم. فعند ذلك أمر شيخًا من رجاله الذين يثق بهم يقال له هرجند بن سام بأن يودعها في بطن الأرض إشارة إلى قتلها. فقالت: أيها الشيخ، إنني قد حملت من الملك فلا تُبطِل زرعَه. فعَمِل لها سَرَبًا[٤] تحت الأرض وجعلها فيه، ثم عَمَد إلى مذاكيره[٥] فجبّها[٦] ووضعها في حُقّ[٧] وختم عليه ورجع إلى الملك وقال: قد أودعتها بطن الأرض؛ ودفع له الحُقّ وقال: إن فيه وديعةً وأحب أن يكون عند الملك إلى أن أحتاج إليه،

---

(١) الفلح: الفوز بما يغتبط به وفيه صلاح الحال.
(٢) الجور: الظلم والفساد.
(٣) تربّص: أي انتظر به خيرًا أو شرًا يحلّ به.
(٤) السرب: الحفير تحت الأرض لا منفذ له.
(٥) المراد بالمذاكير: المذكرات.
(٦) المراد بقوله: جبّها: أي طواها.
(٧) الحقّ: وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما.

فاستودعه الملكَ؛ وأقامت الجارية في السَّرَب حتى كملت مدّة حملها، فوضعت غلامًا فسماه الشيخ: شاه بور، أي ولد الملك؛ فسماه الناس سابور. وبقي أردشير هذا دهرًا لا يُولَد له، فرآه الشيخ في بعض الأيام وقد ظهر عليه الحزن، وكان خاصًا به، فقال له: ما هذا الحزن سرّك الله أيها الملك وعَمَرك. فقال: من أجل أنه ليس لي ولد يرث ملكي. فقال له الشيخ: إن لك عندي ولدًا طيبًا فأدع بالحقّ. وأمر أردشير بإحضاره فأحضر، ففضّ ختمه فإذا فيه مذاكيرُ الشيخ وكتاب فيه: إنه لما أمرني الملك بقتل المرأة الأشكانية التي عَلِقَتْ من ملك الملوك أردشير لم أرَ أن أبطل زرع الملك الطيب فأودعتها بطن الأرض كما أمرني، وتبرأت إليه من نفسي لئلا يجد عائب إلى عيبها سبيلاً؛ فسرّ أردشير بذلك، وأمر الشيخَ أن يجعل الغلام بين مائة غلام من أشباهه في الهيئة وأقرانه في السن، ثم يُدخلَهم عليه، ففعل ذلك، فعرفه أردشير من بينهم وقبلته نفسه، ثم أمرهم أن يلعبوا في حجرة الإيوان بالصَّوالج[١]، فدخلت الأكرة[٢] الإيوان، فأحجم الغلمان عن دخولهم وأقدم سابور، فأمر أردشير عند ذلك بعقد التاج له.

وكان أردشير من أهل العقل والمعرفة وحسن التدبير، وله وصايا ومكاتبات صدرت عنه تدل على حكمة ورجاحة عقل. وقد تقدّم إيرادها في الباب الرابع من القسم الخامس من الفنّ الثاني في وصايا الملوك. وكانت مدّة ملكه أربع عشْرة سنة وستة أشهر.

ثم ملك بعده ابنه سابور بن أردشير، والعرب تسميه سابور الجنود. وسابور هذا هو الذي حصر الضَّيْزن[٣]، وملك حِصْن الحَضْر، وهو من مباني العرب المشهورة. وقد تقدّم ذكره في الباب الثالث من القسم الخامس من الفنّ الأوّل، وهو في السفر الأوّل. فلا حاجة إلى إعادة ذكره.

وفي أيامِه ظهر ماني[٤] الزِّنديق تلميذ قاردون وقال بالاثنين، فرجع سابور إلى مذهب ماني والقول بالنور والبراءة من الظلمة، ثم عاد إلى دين المجوسية وترك

---

(١) الصوالج: جمع الصولج، وهي عصا معقوف طرفها يضرب بها الفارس الكرة.

(٢) الأكرة: أي الكرة، وهي الطابة يلعب بها الأولاد.

(٣) الضّيزن: هو الضيزن بن معاوية بن العبيد من قبيلة قضاعة ويلقب بالساطرون.

(٤) ماني: هو ماني بن فاتك الحكيم، ظهر في زمان سابور بن أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور.

المانَوِيَّة[١]، وهو المسمى عندهم بدين الثَّنَوِيّة. وكانت مدّة ملكه ثلاثين سنة. وقيل إحدى وثلاثين سنة ونصف سنة وثمانية عشر يومًا.

ثم ملك بعده ٱبنه هرمز بن سابور؛ وهو الذي يدعى هرمز البطل، ويلقّب أيضًا بالجريء. وبنى مدينة رامهرمز بين كَوْرِ الأهواز. وكانت مدة ملكه سنة وعشرة أشهر.

ثم ملك بعده ٱبنه بهرام بن هرمز. قال: ولما ملك جاءه ماني الزنديق فعرض عليه مذاهب الثنوية فأجابه إلى ذلك احتيالاً منه عليه، إلى أن أحضر له دعاته المتفرقين في البلاد الذين يدعون الناس إلى مذاهب الثنوية. فلما أحضرهم إليه قتلهم وقتل ماني وسلخه.

وفي أيام ماني هذا ظهر اسم الزنادقة الذين أضيفت إليهم الزندقة. وذلك أن الفرس كان لهم كتاب يسمونه السنا، وكان له شرح يسمى الزند. فكان من أتاهم بزيادة على ما في كتابهم يسمونه زنديًا. فلما جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس فعربته وقال زنديق. فالثنوية هم الزنادقة، فألحق هذا الاسم بسائر من اعتقد القِدَمَ وأبى حدوث العالم وأنكر البعث.

والذي أتى الفرسَ بهذا الكتاب زرادشت[٢] في زمن الفرس الأوّل. وقد قدّمنا ذكره في أخبار بشتاسف. وهذا زرادشت هو الذي تزعم المجوس أنه نبيُّها الذي أرسل إليها. وكان زرادشت خادم شعيا فدعا شعيا عليه فبَرِصَ. وكان صاحب نِيرَجات[٣] وسحر. وكان يحزِرُ[٤] بعض الكوائن قبل أن تقع مما كان قد سمعه من شعيا وقت خدمته له، وٱدّعى النبوّة في المجوس وعمل لهم الكتاب الذي قدّمنا ذكره، وزعم أَنه أُنزِل عليه من السماء، وجعل كلامه فيه يدور على نيّف وسبعين حرفًا، فلم يقدر أحد منهم على قراءته فٱختصره لهم وسمي مختصره الزند.

فلما قام ماني بدين الثنوية سمته المجوس «زندين» وسموا أصحابه الزنادنة لأنه

---

(١) المانويّة: هم أصحاب ماني بن فاتك، وهم يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس، فإنهم قالوا بحدوث الظلام، وذكروا سبب حدوثه، وقالوا كذلك بتساويهما في القدم، واختلافهما في الجوهر والطبع والفعل والخبر والمكان والأجناس والأبدان والأرواح.. (الملل والنحل للشهرستاني ١:٢٤٤).

(٢) زرادشت: هو زردشت بن يورشب الذي ظهر في زمان كشتاسب بن لهراسب الملك. وأبوه كان من أذربيجان، وأمه من الريّ واسمها: دغدوية (الملل والنحل للشهرستاني ١:٢٣٦).

(٣) النيرجات: جمع نيرج. والنيرج: أخذ كالسحر وليس بسحر، إنما هو تشبيه وتلبيس.

(٤) يقال: حرز الشيء: أي قدّره بالحدس.

زاد في شرعهم الذي شرعهم لهم زرادشت، فقتل بهرام هذا مانيًا وصلبه على باب من أبواب مدينة من مدنه بالعراق؛ فيُدعى ذلك الباب إلى آخر وقت بابَ ماني. وكانت مدة ملك بهرام ثلاثًا وثلاثين سنة وثلاثة أشهر.

ثم ملك بعده ابنه بهرام بن بهرام. قال: ولما ملك أقبل في أوّل ملكه على اللهو والصيد والنُّزَه، وترك ملكه لا يفكر فيه ولا في رعيته؛ فخربت البلاد ونقصت بيوت الأموال. فلما كان في بعض الأحيان ركب إلى بعض متنزهاته وصيده فجنّه[١] الليل وهو يسير نحو المدائن، وكانت ليلة قمراء[٢]. فدعا بالمُوبَذِ لأمر خطر بباله، والموبذ عند المجوس كالقسيس عند النصارى، فجعل يحادثه فتوسطا في مسيرهم بين خرابات كانت من أمهات الضياع فخربت في ملكه، وإذا بُومٌ يصيح وآخر يجاوبه، فقال الملك: أَتُرى أحدًا من الناس أعْطِيَ فَهْمَ ما يقول هذا الطائر؟ فقال الموبذ: أنا أيها الملك ممن خصه الله تعالى بذلك. قال: فما يقول هذا الطائر، وما يقول الآخر؟ فقال الموبذ: هذا بوم ذكر يخاطب بومة أنثى ويقول: متِّعيني من نفسك حتى يخرج من بيننا أولاد يسبحون الله تعالى. فأجابته البومة: إن الذي دعوتني إليه هو الحظ الأكبر، والنصيب الأوفر، إلا أنني أشترط عليك شرائطَ. فقال: وما هي؟ فقالت: أن تُقطِعَني[٣]. من خرابات أمهات الديار عشرين قرية مما خَرِبت في أيام هذا الملِك السعيد. فقال له المَلك: فما الذي قال الذكر؟ قال الموبذ: كان من قوله لها: إن دامت أيام هذا الملك السعيد أقطعتُكِ منها ألف قرية، فما تصنعين بها؟ قالت: في اجتماعنا ظهور النسل وكثرة الولد، فنُقطع كل واحد من الأولاد ضَيْعة. فقال الذكر: هذا سهل ما حييَ الملك.

فلما سمع الملك هذا الكلام من الموبذ عَمِل في نفسه وفكر فيما خوطب به، فنزل من ساعته وخلا بالموبذ وقال له: ما هذا الكلام الذي خاطبتني به؟ فقد حركت مني ما كان ساكنًا. فقال: صادفت من الملك وقتَ سعدٍ بالعباد والبلاد، فجعلت الكلام مثلاً وموقظًا على لسان الطائر عند سؤال الملك إياي. فقال له الملك: أيها الناصح للملك، المنبه على ما أغفله من أمور ملكه، وأضاعه من أمور بلاده ورعيته، اكشف لي عن هذا الغرض ما المراد منه. فقال له: أيها الملك! إن المُلك لا يتمّ إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته، ولا قِوام للشريعة إلا بالملِك، ولا عزّ للملك إلا

(١) جنّه الليل: أي ستره.
(٢) الليلة القمراءة: أي المقمرة.
(٣) يقال: أقطعه فلان أرضًا: إذا ملّكه إياها.

بالرجال، ولا قيام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل هو الميزان المنصوب بين البرية، نصبه الربّ وجعل له قيّمًا وهو المَلِك.

قال: أما ما وصفت فحقّ، فأَبِنْ لي عما إليه تقصد، وأوضح لي في البيان. قال: نعم أيها الملك! عمدتَ إلى الضياع فأقطعتها الخدمَ وأهل البطالة فعمدوا إلى ما تعجل من غلاتها فاستعجلوا المنفعة وتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يُصلح الضياع، وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك، ووقع الحيف[1] على الرعية وعُمّار الضياع فانْجَلوا عن ضياعهم، وقلّت الأموال، وهلكت الجند والرعية، وطمِع في ملك فارس من طمع فيه من الملوك والأمم، لعلمهم بانقطاع المواد التي بها تستقيم دعائم الملك. فلما سمع الملك ذلك أقام في موضعه ثلاثة أيام، وأحضر الوزراء والكتّاب وأرباب الدواوين، فانتُزِعت الضياع من أيدي الخاصة والحاشية ورُدّت إلى أربابها، وحُمِلوا على رسومهم[2] السالفة، وأُخِذوا بالعمارة، وقَوِيَ من ضعف منهم، وعَمَرت البلاد، وكثرت الأموال، وقويت الجند، وانتظم ملكه حتى كانت أيامه تدعى بالأعياد، لما عمّ الناسَ من الخصب، وشملهم من العدل. وكان ملكه سبع عشرة سنة.

ثم ملك اْبنه بهرام بن بهرام بن بهرام البطل، وكان يدعى شكان شاه، وهو الذي يقال له شاهنشاه[3]. فكان ملكه أربعين سنة وأربعة أشهر.

ثم ملك بعده أخوه ترسي بن بهرام الثاني فكان ملكه تسع سنين. وقيل سبع سنين وخمسة أشهر.

ثم ملك بعده اْبنه هرمز بن نرسي. قال: وكان فظًا إلا أنه كان يرفُق بالرعية، وكان حسن السيرة فيهم. وكان ملكه سبع سنين وخمسة أشهر.

ثم ملك بعده اْبنه سابور بن هرمز؛ وهو الملقب بذي الأكتاف. وكان هرمز قد تركه حمْلاً في بطن أمه، فعقدوا التاج على بطنها، وقام الوزراء بتدبير الأمر مدّة حملها، وفي مدّة رضاع سابور وطفولته وصغره حتى كبر؛ فكتب إليه الناس الكتب من الآفاق وأجابهم، ووجه البريد إلى الآفاق والأطراف، ورتّب الوزراء والكتّاب وقرّر العمال.

---

(١) الحيف: التنقّص.

(٢) الرسوم: جمع الرسم، وهو ما أمر به، والمراد به المرسوم.

(٣) شاهنشاه: لفظ فارسي معناه ملك الملوك.

قال: وكان قد شاع في الممالك أن ملك الفرس صغيرُ السنّ، وأنه يتدبّر برأي وزرائه، ولا يدري ما يراد منه، ولا ما يكون من الأمر، فطمِع في مملكة الفرس الترك والروم والعرب. وكانت أدنى بلاد الأعداء إلى الفرس بلادُ العرب. وكانت العرب من أحوج الأمم إلى تناول شيء من المعايش لسوء حالهم وشظف عيشهم، فانبسطت أيديهم في البلاد وغلبوا أهلها عليها واتسعت حالهم وكثرت مواشيهم، وأفسدوا في بلاد فارس، ومكثوا كذلك حينًا، وقد أمنوا جانب الفرس واطمأنوا من قتالهم لقلة هيبتهم. وكان الذي غلب على سواد العراق من العرب جمرةُ[١] العرب ولدُ إياد بن نزار. وكان يقال لها طبق لإطباقها على البلاد، ومَلِكُها يومئذ الحارث بن الأغر الإيادي. قال: ولما ترعرع سابور جعل الوزراء يعرضون عليه أمر الجنود الذين في الثغور، وأن الأخبار وردت عليهم أن أكثرهم قد أخلّ، وعظّموا عليه الأمر وهوّلوه، فقال لهم: لا يَهُولنَّكم ذلك، فالخطب فيه غيرُ جسيم، والحيلة في ذلك يسيرة. وأمر الكتّاب أن يكتبوا إلى أولئك الجنود أنه قد انتهى إليّ طولُ مكثكم في النواحي التي أنتم فيها، وعِظَمُ عنائكم وذبُّكم عن إخوانكم وأوليائكم، فمن أحب منكم الانصراف إلى أهله فلينصرف مأذونًا له في ذلك، ومن أحبّ أن يستكمل الفضل بالصبر في موضعه عرفنا له ذلك؛ وتقدّم إلى من اختار الانصراف منهم بلزوم أهله وبلاده إلى وقت الحاجة إليه. فلما سمع الوزراء قوله ورأيه استحسنوه وقالوا: لو كان هذا قد أطال تجربة الأمور وسياسة الجنود ما زاد على ما سمعناه. ثم تتابعت آراؤه في تقويم أصحابه وقمع أعدائه؛ حتى إذا تمت له ستُّ عشْرة سنة جمع أساوِرَته وأمرهم بالاستعداد لقتال العرب. وكانت إياد تَصِيف بالجزيرة وتَشْتو بالعراق. وكان في جيش سابور رجل منهم يقال له لَقيط[٢]، فكتب إلى إياد شعرًا ينذرهم وهو: [من الوافر]

سلامٌ في الصحيفة من لَقِيطٍ ... إلى مَنْ بالجزيرة من إياد

بأن الليث آتيكم دَليفًا ... فلا يحبسْكُمُ سَوْقُ النِّقاد[٣]

أتاكم منهمُ سبعون ألفًا ... يُزَجُّون الكتائب كالجراد[٤]

---

(١) يقال: جمرة القوم: أي انضموا فصاروا يدًا واحدة ولم يحالفوا غيرهم. ويقال: هم جمرة: أي أهل منعة وشدّة.

(٢) لقيط: هو لقيط بن معمر من إياد، وكانت إياد أكثر نزار عددًا وأحسنهم وجوهًا وأمدهم وأشدهم وأمنعهم، وكانوا لقاحًا لا يؤدون خرجًا؛ وهم أول معدي خرج من تهامة فنزلوا السواد وغلبوا على ما بين البحرين إلى سنداد والخورنق، وسنداد نهر كان بين الحيرة إلى الأُبُلّة... (الشعر والشعراء).

(٣) المراد بقوله: آتيكم دليفًا: أي يمشي مشي القيد. والنقاد: الغنم.

(٤) يقال: زجا الشيء زجوًا: أي ساقه ودفعه: أو ساقه يرفق.

فلم يعبئوا بكتابه، وسراياهم تُكرّ نحو العراق وتُغير على السواد. فلما تجهّز القوم نحوهم ظفر بهم سابور فعمّهم بالقتل، وما أُفلت منهم إلا نفرٌ لحِقوا بأرض وَبَارِ(١)، وخلع سابور أكتاف كثير منهم، فلذلك سُمِّي ذا الأكتاف. وكان سابور في مسيره أتى البحرين وفيها بنو تميم فهربوا، وشيخُها يومئذ عمرو بن تميم بن مرة وعمره ثلاثمائة سنة، وكان يُعلَّق في عمود البيت في قُفّة، فأرادوا حمله فأبى عليهم إلا أن يتركوه في ديارهم وقال لهم: أنا هالك اليوم أو غدًا فتركوه. فلما صبحت خيل سابور الديار لقوها خالية، فلما سمع عمرو صهيل الخيل جعل يصيح بصوت ضعيف، فحمل إلى سابور، فلما نظر إلى دلائل الهَرَم ومرور الأيام عليه قال له: من أنت أيها الفاني؟ قال: أنا عمرو بن تميم بن مرة، قد بلغت من الكِبَر ما ترى، وقد هرب الناس منك لإسرافك في القتل، فآثرت الفناء على يديك ليبقى من بقي من قومي، ولعل الله يُجري على يديك فَرَجهم، وأنا سائلك عن أمر إن أذنت فيه؛ فقال سابور: قُلْ نَسمعْ؛ فقال: ما الذي حملك على قتل رعيتك من رجال العرب؟ فقال سابور: أقتلهم لما ارتكبوا في بلادي وأهل مملكتي؛ فقال عمرو: فعلوا ذلك ولستَ بقيِّم عليهم؛ فلما ملكت وقفوا عما كانوا عليه من الفساد هيبة لك؛ قال سابور: وأقتلهم لأنا نجد في مخزون علمنا وما سلف من أنباء أوائلنا أن العرب ستُدَال علينا. فقال عمرو: هذا أمر تظنه أم تتحققه؟ قال: بل أتحققه ولا بدّ أن يكون؛ فقال عمرو: فلِمَ تسيءُ إليها؟ والله لئن تُبقي عليها وتُحسن إليها ليكافئون قومك عند إدالة الدولة إليهم بإحسانك، وإن أنت طالت بك المدّة كافؤوك عند مصير الأمر إليهم إن كان حقًا، وإن كان باطلاً فلِمَ تتعجل الإثم وتَسفِك دماء رعيتك؟ فقال سابور: الأمر صحيح والحقّ ما قلت، ولقد صدقتَ في القول ونصحتَ. فنادى منادي سابور بأمان الناس ورَفْعِ السيف. ويقال: إن عمرًا بقي بعد هذا الوقت ثمانين سنة.

ثم سار سابور إلى أرض الروم ففتح المدن وقتل خلائق من الروم وقال لمن معه: إني أريد أن أدخل بلاد الروم متنكرًا لأتعرّفَ أحوالهم وسيرهم ومسالك بلادهم، فإذا بلغتُ من ذلك حاجتي انصرفت إلى بلدي فسرت إليهم بالجنود؛ فحذّروه التغرير بنفسه فلم يقبل قولهم. وسار متنكرًا إلى أرض القسطنطينية(٢) فصادف وليمة لِقَيْصَرَ

---

(١) الوبار: أرض واقعة ما بين الشحر إلى تخوم صغد.

(٢) القسطنطينية: وهي بزنطية، وسميت أسطنبول، وهي دار ملك الروم، بينها وبين بلاد المسلمين البحر المالح، عمّرها ملك من ملوك الروم يقال له قسطنطين فسميت باسمه... (معجم البلدان).

اجتمع فيها الخاص والعامّ، فدخل في جملتهم وجلس على بعض موائدهم، وقد كان قيصرُ أمر مصوّرًا أتى عسكر سابور فصوّره وجاء إلى قيصَر بالصورة، فأمر بها فصوِّرت على آنية الشراب من الذهب والفضة، وأتى بعضُ من كان على المائدة التي عليها سابور بكأس، فنظر بعض الخدم إلى الصورة التي على الكأس، وسابور مقابل له، فانطبعت مثالاً لصورة سابور، فقام إلى الملك فأخبره، فمَثَل بين يدي الملك، فسأله عن خبر فقال: أنا من أساورة سابور وهربت منه لأمر خِفْته منه. فلم يقبل ذلك منه، وقُدِّم إلى السيف فأقرّ بنفسه، فجُعِل في جلد بقرة، وسار قيصر في جنود حتى توسط العراق، فافتتح المدن، وشنّ الغارات، وعقر النخل، وانتهى إلى مدينة نيسابور، وقد تحصن بها وجوه فارس، فنزل عليها وحضر عيدًا للنصارى فأغفل الموكّلون بسابور أمرَه، وأخذ منهم الشراب، وكان بالقرب من سابور أُسارى من الفرس، فراطنهم[1] بالفارسية أن يَحُلَّ بعضهم بعضًا، وأمرهم أن يصبّوا عليه زِقَاق[2] الزيت ففعلوا، فَلانَ عليه الجلد وتخلص، وأتى المدينة فراطنهم فرفعوه بالحبال، ففتح خزائن السلاح وخرج على الروم فكبس جيشهم عند ضرب النواقيس[3]، فانهزم الروم، وأُتِيَ بقيصر أسيرًا، فأبقى عليه وضمّ إليه من أُسِرَ من أصحابه، وأخذهم بغرس الزيتون بالعراق بدلاً من النخل التي عقروها؛ ولم يكن الزيتون بالعراق قبل ذلك. وفي فعل سابور ودخوله إلى أرض الروم يقول بعض شعراء الفرس: [من البسيط]

وكان سابورَ صفوًا في أُرومته ... اختير منها فأضحى خيرَ مختار
إذ كان بالروم جاسوسًا يجول بها ... حوم المنيّة من ذي كيد مَكّار
فاستأسروه، وكانت كبوة عجبًا ... وزَلّة سبقت من غير عَثّار[4]
وأصبح الملِكُ الروميُّ مغتربًا ... أرضَ العراق على هول وأخطار
فراطن الفرسَ بالأبواب فافترقوا ... كما تَجَاوَبُ أُسْدُ الغاب بالغار[5]
فجذّ بالسيف أصلَ الروم فامتُحِقوا ... لله دَرُّكَ من طَلاّب أوتار[6]
إذ يغرِسون من الزيتون ما عَضَدُوا ... من النخيل وما حَفُّوا بمنشار

(١) راطنه: أي خاطبه بالأعجمية.
(٢) الزقاق: جمع الزق، وهو جلد يجز ولا ينتف يستعمل للشراب وغيره.
(٣) النواقيس: جمع الناقوس، وهو مضراب النصارى الذي يضربونه إيذانًا بحلول وقت الصلاة.
(٤) العثّار: الذي يعثر؛ وعثر: زلّ وكبا.
(٥) الغار: مثل البيت المنقور في الجبل.
(٦) امتحق: أي نقص وذهبت بركته.

وسابور هذا هو الذي بنى الإيوان المعروف بإيوان كسرى، وبنى السّوس[١] والكرج[٢] ونيسابور. قال صاحب كتاب تجارب الأمم: وبنى بالسواد مدينة نرجس سابور، وبنى الأنبار[٣]. قال: وبنى مدائن أُخر بالسند وسجستان، ونقل طبيبًا من الهند وأسكنه السوس، فورِث طِبَّه أهلُ السوس. وهلك سابور بعد ٱثنتين وسبعين سنة من ملكه.

ثم ملك بعده أردشير بن هرمز وهو أخو سابور بن هرمز هذا. قال: ولما ملك ظهر منه شرّ كثير وقتل من العظماء وذوي الرياسة خلقًا كثيرًا، فاجتمع الناس على خلعه فخلعوه بعد أن ملك أربع سنين.

ثم ملّكوا عليهم بعده سابور بن سابور. قال: ولما ملك استبشرت الرعية برجوع ملك أبيه إليه، فأحسن السيرة وَرَفق بالرعيّة. وكانت له حروب كثيرة مع إياد بن نزار وغيرها من العرب، وفيه يقول شاعر إياديّ:

على رغم سابور بنِ سابور أصبحت قِبابُ إياد حولها الخيل والنَّعَمْ[٤]

وكان ملكه خمس سنين وأربعة أشهر، وسقط عليه فُسطاط كان ضرب عليه فمات.

وملك بعده أخوه بهرام بن سابور ذي الأكتاف، وهو الملقّب كِرْمان شاه؛ لأن سابور كان ولاّه كِرْمان[٥]. قال: وكان حسن السيرة، جميل السياسة، محمود الأثر، محبَّبًا للرعية. وكان ملكه عشر سنين. وقيل إحدى عشْرة سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يومًا.

وملك بعده ٱبنه يزدجرد بن بهرام المعروف بالأثيم. قال: وكان فظًّا غليظًا، ذا عيوب كثيرة، وكان من أشدّ عيوبه وصنعُه ما آتاه الله من ذكاء ذهن وحسن أدب في غير موضعهما؛ وذلك أنه كان كثير الرَّوِيّة في المضارّ من الأمور، واستعمل الذي

---

(١) يقال: عضد الشجرة عضدًا: أي قطعها بالمعضد.

(٢) الكرج: هي بين جبال القبج من الشمال وأرمينية وأران من الجنوب، وأشهر مدنها تفليس...

(٣) الأنبار: مدينة بالعراق بينها وبين بغداد ١٠ فراسخ على نهر الفرات قرب مخرج نهر عيسى.

(٤) النعم: المال السائم؛ وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل: جمع أنعام وأناعيم.

(٥) كرمان: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان، فشرقيها مكران ومفازة ما بين مكران والبحر من وراء البلوص، وغربيها أرض فارس، وشماليها مفازة خراسان، وجنوبيها بحر فارس... (معجم البلدان).

أوتيه في الدهاء والحِيَل، واستخف بكل علمٍ كان عند الناس، واْحتقر آدابهم، وتعاظم عليهم واستطال بما عنده. وكان مُعْجَبًا بنفسه سيىء الخلق، حتى بلغ من شدته وحدّته أنه كان يستعظم صغار الزلات، ولا يرضى في عقوبتها إلا بما لا يُستطاع. وكان لا يقدر أحد من بطانته ـ وإن كان لطيف المنزَلة منه ـ أن يشفع عنده لمن اْبْتُلِيَ به وإن كان ذنب المُبتلِيَ به يسيرًا، ولم يكن يأتمن أحدًا على شيء اْلبتّة، ولا يكافىء على حسن البلاء. وكان يعتدّ بالخسيس من المعروف إذا أولاه ويستجزل ذلك، فإن جَسَرَ على كلامه أحد في أمر قال له: ما قدر جَعَالتك[١] في هذا الأمر الذي كلمتنا فيه، وما الذي بُذِل لك بسببه؟ وما أشبه ذلك. فلما اشتدت بليّة الناس به، وكثرت إهانته للعظماء، وأكثر من سفك الدماء، واستعمل الضعفاء في الأعمال الشاقة، وحمّلهم ما لا طاقة لهم به، تضرّعوا إلى الله عزّ وجل وسألوه أن يُنقِذهم منه. فزعم الفرس أنه كان ذات يوم مطلعًا من قصره إذ رأى فرسًا عائرًا لم يُرَ مثله قط في الخيل من حسن الصورة وتمام الخلقة حتى وقف على بابه، فتعجب الناس من ذلك، فأمر يزدجرد أن يُسرج ويُلجم ويُدخل عليه به، فحاول السوّاس وأصحاب المراكيب أن يُلجموه أو يُسرجوه فعجِزوا عن ذلك، ولا مكّنهم الفرس من نفسه، فخرج يزدجرد بنفسه إلى الفرس وتقدم إليه وأسرجه وألجمه ولبّبه[٢] وهو لم يتحرّك، فلما استدار ورفع ذنبه لِيُثْفِرَه[٣] رمحه[٤] الفَرَسُ على فؤاده رَمْحَةً فهلك منها لساعته، ثم لم يُعاين الفرس بعد ذلك؛ فأكثرت الفُرْس في حديثه فظنّوا الظنون. وكان أحسنهم مذهبًا وأمثلهم طريقة مَنْ قال: إنما استجاب الله عزّ وجل دعاءنا. فكان ملكه إلى أن هلك إحدى عشْرة سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يومًا. وقيل اثنتين وعشرين سنة غير شهرين.

قال: وكان اْبنه بهرام جور في حِجْرِ النعمان بن المنذر بن ماء السماء أسلمه أبوه إليه ليربِّيَه بالحيرة لصحة هوائها. وقد تقدّم خبره في ذكر بناء الخورنق[٥]

---

(١) الجعالة: ما يجعل على العمل من أجر أو رشوة. جمع جعائل.

(٢) لبّبه: أي ضرب لبته؛ واللبة: موضع القلادة من العنق.

(٣) أثفره: أي وضع الثفر تحت ذنبه؛ والثفر: السير الذي يوضع في مؤخر الرحل وتحت ذنب الدابة.

(٤) رمحه: أي رفسه.

(٥) الخورنق: قصر كان بظهر الحيرة. والسدير: بفتح أوله، وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت، وآخره راء: هو قصر، وهو معرب وأصله بالفارسية سه دله، أي فيه قباب مداخله مثل الجاري بكمين... (معجم البلدان).

والسدير. فعدل الفرس عنه لسوء أثر يزدجرد فيهم وملّكوا عليهم كسرى، وهو رجل من عِترة[١] ساسان، فاستعان بهرام جور بالعرب وأرسل إلى الفُرس وأعلمهم إنكارَه سيرة أبيه، ووعدهم بإصلاح ما فسد، وأنه إن مضى لملكه سنة ولم يَفِ لهم بما بذل تبرّأ من المُلك طائعًا، فمال إليه قوم وبقيت طائفة مع كسرى، فتراضوا أن يوضع تاج الملك بين أسدين مُشْبِلَيْن فمن تناوله فهو الملك. وكان بهرام جور شجاعًا بطلاً، فلما وقف هو وكسرى إلى جانب الأسدين هابهما كسرى، فوثب بهرام جور فإذا هو على ظهر الأسد وعصر جنبيه بفخذيه، فلما تمكّن منه قبض على أذنيه، ولم يزل يضرب رأس الأسد برأس الآخر حتى قتلهما. فكان كسرى أوّل من هتف به وأذعن له.

فملك بهرام جور بن يزدجرد؛ فأحسن السيرةَ، وجلس سبعة أيام متوالية للجند والرعيّة، يَعِدُهم الخير من نفسه ويحضّهم على تقوى الله وطاعته. وكان جلوسه على سرير الملك وهو أبن عشرين سنة، فَغَبر زمانًا وهو يحسن السيرة، ويَعْمُر البلاد، ويدرّ الأرزاق، ثم آثر اللهو على ذلك وكثرت خلواته بأصحاب الملاهي حتى كثُرت عليه الملامة من أرباب دولته، وطَمِع مَنْ حوله من الملوك في استباحة بلاده والغلبة على مُلْكه. وكان أوّلَ من سبق إلى مغالبته ومكاثرته خاقانُ ملك الترك، وغزاه في مائتي ألف وخمسين ألفًا من الأتراك، فبلغ الفُرْسَ إقبالُ الترك في هذه الجموع العظيمة فهالهم ذلك، ودخل على بهرام جور جماعة من عظماء الفرس وأهل الرأي والنجدة وقالوا: أيها الملك، قد أرهقك من بائقة[٢] عدوّك ما يشغَلك عما أنت فيه من اللهو والتلذذ، فتأهّب له لئلا يلحقك منه أمر يلزمك فيه مسبّة وعار. وكان بهرام لثقته بنفسه ورأيه يجيب القوم بأن يقول: الله ربنا قويّ ونحن أولياؤه. ثم يقبل على ما هو عليه من اللهو والصيد.

قال: ثم أظهر بهرام جور التجهز إلى أذربيجان ليتنسّك في بيت نارها، ويتوجه منها إلى أرمينية ويتصيّدَ في آجامها[٣]، وسار في سبعة رَهْطٍ من عظماء الفرس وأهل البيوتات، وثلاثمائة رجل من رابطته ذوي بأس وشدّة ونجدة، واستخلف أخًا له يقال له نرسي على ملكه، فما شك الناس ـ لما بلغهم ذلك ـ أنه هرب من خاقان، فتآمر الفرس في مراسلة خاقان والانقياد إلى طاعته والإقرار له بالخراج؛ مخافة منه أن

---

(١) العترة: نسل الرجل ورهطه وعشيرته. (٢) البائقة: الداهية.
(٣) الآجام: جمع الأجمة، وهي الشجر الكثير الملتفّ.

يستبيح بلادهم، فاتصل هذا الخبر بخاقان فاطمأنّ وترك التحفظ والاستعداد وآثر المسالمة. وتعرّف بهرام خبرَ خاقان وحال جنده وما هم عليه من الطمأنينة والفتور وعدم الاستعداد، فسار بمن معه وبيَّت[١] خاقان وقتله بيده. فلما علم الأتراك أن ملكهم خاقان قد قتل انهزموا لا يَلْوُون على شيء وخلّفوا أثقالهم وأموالهم. فأكثر بهرام فيهم القتل وأمعن في طلبهم، وحاز غنائم لم يسمع بمثلها، وسبى من ذرّيتهم كثيرًا. وكان مما غَنِمه تاجُ خاقان وإكليلُه، وغلب على بلاد الترك وانصرف بالظفر والغنائم، وكتب إلى أهل مملكته يعلمهم بما حصل له من الظفر بخاقان وجموعه بمن كان معه من أولئك القوم الذين استصحبهم معه.

وكان بهرام يتكلّم بلغات كثيرة، منها اللغة العربية. ومما حُفِظَ من شعره يوم ظَفَره بخاقان: [من الكامل]

أقول لهُ لمّا فَضَضْتُ جموعَهُ ... كأنك لم تسمع بصولات بهرام[٢]

وأنّيَ حامي مُلْكَ فارسَ كلِّها ... وما خير مُلْكٍ لا يكون له حامي

ومن شعره أيضًا: [من الوافر]

لقد علم الأنامُ بكلّ أرضٍ ... بأنّهمُ قد أضحَوْا لي عبيدا

ملكتُ ملوكَهم وقهرتُ منهم ... عزيزَهم المُسوّدَ والمَسُودا

فتلك أسودهم تبغي حِذَاري ... وترهب من مخافتِيَ الوُرودا

وكنتُ إذا تشاوس مَلْكُ أرضٍ ... عَبَأْتُ له الكتائبَ والجنودا[٣]

فيعطيني المقادةَ أو أوافي ... به يشكو السلاسلَ والقيودا

قال: ولما قُتِل خاقان بعث بهرام جور أحدَ قوّاده إلى ما وراء النهر فغزاهم وأقرّوا لبهرام بالعبودية وأداء الجزية. قال: وأسقط بهرام جور عن رعيته إثر هذا الظفَرِ خراج ثلاث سنين، وترك ما كان قد بقي من الخراج ولم يُستخرج من قسط تلك السنة، وكان سبعين ألف ألف درهم، وقسم في الفقراء مالاً عظيمًا وفي أهل البيوتات والأحساب عشرين ألف ألف درهم؛ ونَحَل[٤] بيت النار بأذربيجان جميعَ ما غنمه من الترك من اليواقيت والجواهر والتاج والإكليل. ويقال إن بهرام دخل إلى أرض الهند متنكرًا فمكث حينًا لا يُعرف حتى بلغه أن فيلاً قد هاج وقطع السُّبُل وأهلك الناس،

---

(١) يقال: بيّت القوم: أي أوقع بهم ليلاً بغتة. (٢) فضضت جموعه: أي فرقتهم.

(٣) تشاوس إليه: نظر إليه بمؤخر العين تكبرًا. (٤) نحل: تبرع.

فسألهم أن يَدُلوه عليه، فرُفِع أمره إلى الملك فأرسل معه رسولاً، فلما انتهى إليه أوفى[١] الرسول على شجرة لينظر ما يصنع بهرام مع الفيل، فصرخ بالفيل فخرج إليه، فجعل يرميه ويثبّت النُشّاب[٢] بين عينيه، ثم دنا وأخذ بمِشْفره[٣] وجذبه جذبة خرّ منها الفيل، ثم أحتز رأسه وأقبل به إلى الملك فحباه وأحسن إليه.

ثم إن ملكًا من أعداء ذلك الملك أقبل لغزوه فَجَزِع ذلك الملك من كثرة جنود الملك الذي أتى نحوه، فقال له بهرام: لا يهولنّك أيها الملك أمره؛ فركب بهرام وقال لأساورة الهند: احموا ظهري، وانظروا إلى عملي، وكانوا لا يُحسِنون الرمي، وأكثرهم رَجّالة، فحمل عليهم حملة هدّهم بها، ثم جعل يضرب الرجل فيقطعه نصفين، ويأتي الفيل فيضرب مِشفره ويكُبّه[٤] ويأخذ مَنْ عليه فيقتله، ويأخذ الفارس فيذبحه على قَرَبوس[٥] سرجه، ويتناول الرجلين فيضرب أحدهما بالآخر فيموتان جميعًا، ويرمي فلا تقع له نُشابة إلا في رَجُلٍ، فولَّوْا أمامه منهزمين، وحمل الذين كانوا يحرُسون ظهره عليهم فأكثروا القتل فيهم، فزوّجه ملك الهند بنته ونَحَلَه الدَّيبُل[٦] ومُكران[٧] وما يليهما من أرض السند وأشهد له بذلك، وأنصرف بهرام جور إلى مملكته وضمّ ذلك إلى بلاده وحمل خراجها إليه، ثم أغزى بهرام جور أخاه نرسِي إلى بلاد الروم في أربعين ألفًا فدخل القسطنطينية وهادن ملك الروم على إتاوة يحملها إلى أخيه. ثم مضى بهرام جور إلى أرض السودان على طريق اليمن فأوقع بهم وعاد إلى مملكته وهلك بعد ذلك في ماءٍ. وذلك أنه توجه إلى الصيد فشدّ على عَيْر وأمعن في طلبه، فارتطم في ماء في سبخة[٨] فغرق فيه، فسارت أمه إلى ذلك الموضع بمال عظيم ونزلت بالقرب منه، أمرت بإنفاق تلك الأموال على من يخرجه، فنقلوا طينًا عظيمًا وحمأة كثيرة حتى صار من ذلك آكامًا عظامًا ولم يقدروا على استنقاذ جثته. وكان ملكه ثلاثًا وعشرين سنة.

---

(١) أوفى: أشرف عليها.
(٢) النشاب: النبل، واحدته نشابة.
(٣) المشفر: شفة البعير الغليظة.
(٤) كبّه: أي ألقاه وصرعه.
(٥) القربوس: حنو السرج، وهما قربوسان؛ جمع: قرابيس.
(٦) الديبل: بلد صغير شديد الحرّ على شط ماء السند، وهي من أكبر فرضة وأشهرها، وبها سمسم كثير، ويجلب إليها التمر من البصرة، ويجلب منها المتاع الديلبي.
(٧) مكران: بلدة من بلاد كرمان؛ وهي ناحية واسعة عريضة، والغالب عليها المفاوز والقحط..
(٨) السبخ: المكان يظهر فيه الملح وتسوح فيه الأقدام؛ والسنجة: ما يعلو الماء من طحلب ونحوه، جمع: سباخ.

وحُكي عنه في صغره ما يدلّ على نباهته، وجَوْدة فكرته وجميل رأيه. فمن ذلك أنه قال للنعمان بن المنذر لما بلغ عمره خمسَ سنين: أحضر لي مؤدّبين ليعلّموني الكتابة والفقه والرمي والفروسية. فقال له المنذر: إنك بعدُ صغير السنّ، ولم يَأْنِ لك ذلك بعدُ. فقال له بهرام: أَمَا تعلم أيها الرجل أني من ولد الملوك، وأن المُلك صائر إليّ، وأولى ما كُلِّف به الملوك وطلبوه صالحُ العلم؛ لأنه زَيْنٌ لهم وركن، وبه يُعرفون. أما تعلم أن كل ما يُتقدّم في طلبه، ينالُ في وقته، وما لم يُتقدّم فيه ويُطلب في وقته، يُنال في غير وقته، وما يُفرّط فيه وفي طلبه يفوت ولا يُنال؟ عجِّل عليّ بما سألتك. فبعث المنذر من ساعته إلى باب الملك من أتاه برهط من المعلمين الفقهاء والرماة، وجمع له حكماء الروم وفارس وغيرهم، وألزمهم إياه، ووقّت أوقاتًا لكل منهم؛ فتعلّم بهرام من كل عِلْم أحسنه، وسمع الحكمة ووعى ما سمع منها، وثقُف كلَّ ما علم بأيسر شيء، وبلغ أربعَ عشرة سنة، وقد فاق معلّميه، وحفظ للنعمان حقّ التربية، فملّكه على العرب لمّا صار الملك إليه.

ولما هلك بهرام جور ملك بعده ابنه يزدجرد بن بهرام جور؛ فسار بسيرة أبيه؛ ولم يزل قامعًا لعدوّه، كثير الرفق برعيته. وكان له ابنان أحدهما يسمَّى هرمز، والآخر فيروز. ودام ملك يزدجرد تسعَ عشْرة سنة، وقيل ثماني عشْرة سنة وأربعة أشهر وثمانية عشر يومًا ثم هلك.

فتغلّب على الملك بعده ابنه هرمز بن يزدجرد. ولما ملك هرمز هرب منه فيروز ولحق ببلاد الهياطلة[١]، وأخبر ملكها بقصته وقصة أخيه هرمز، وذكر أنه أحقُّ منه بالملك، وسأله أن يمدّه بجيش يقاتل به أخاه، فأبى عليه ملك الهياطلة وقال: سأعلم خبره ثم آمرك بعد ذلك بما تفعل. وكشف ملك الهياطلة عن خبر هرمز وتعرّف أحواله فبلغه أنه غَشوم ظَلوم؛ فقال عند ذلك: إن الجور لا يرضاه الله تعالى، ولا يصلح عليه الملك، ولا تقوم به سياسته؛ وأمدّ فيروز بالعساكر ودفع له الطالقان[٢]؛ فأقبل فيروز من عنده بجيش طخارستان[٣] وطوائف خراسان، فظفر بأخيه فحبسه.

(١) الهياطلة: الصغد، وهم بين بخارى وسمرقند.

(٢) الطالقان: بلدة بخراسان بين مرو والروز وبلخ، بينها وبين مرو والروز ثلاث مراحل، وهي أكبر مدينة بطخارستان.

(٣) طخارستان: هي ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد، وهي من نواحي خراسان، وهي طخارستان العليا والسفلى، فالعليا شرقي بلخ وغربي نهر جيحون، وأما السفلى فهي أيضًا غربي جيحون إلا أنها أبعد من بلخ وأضرب في الشرق من العليا.. (معجم البلدان لياقوت).

وملك فيروز بن يزدجرد. ولما ملك أظهر العدل وحسن السيرة، وكان يتديّن إلا أنه كان مشؤومًا على رعيته، فقحِطَ الناسُ في زمانه سبع سنين، فأحسن فيها إلى الناس، وقسم ما في بيوت الأموال. ويقال: إن الأنهار غارت في مدّة القحط، وكذلك القُنى والعيون، وقحِلت الأشجار والغياض، وهلكت الوحوش والطير، وجاعت الدوابّ حتى كادت لا تطيق الحُمولة، وعمّ أهلَ البلاد الجهدُ والمجاعةُ، فبلغ من حسن سياسة فيروز لهذا الأمر أن كتب إلى جميع الرعية: أنه لا خراج عليكم ولا جزية ولا سخرة، وأنه قد ملّكهم أنفسهم، وأمرهم بالسعي فيما يَقُوتهم ويُصلحهم، وكتب بإخراج ما في المطامير[1] من الأطعمة وقسمها في الناس، وترك الاستئثار عنهم وتساوَى بهم، وأخبر أهل الغنى والشرف، بكل مدينة وقرية، أنه إن بلغه أن إنسانًا مات جوعًا عاقب أهل تلك المدينة أو الجهة التي يموت بها، ويُنَكِّل بهم أشدّ النكال. فقيل إنه لم يَهْلِك في هذا القحط والمجاعة من رعيته إلا رجل واحد من رُستاق[2].

قال: ثم أغاثه الله فأمطرت السماء، وجرت الأنهار ونبعت العيون، وصَلُحت الأشجار، وسمِنت المواشي؛ فاستوثق له الملك، وأخذ في غزو أعدائه وقهرهم. وبنى مدنًا إحداها بين جرجان وباب صول وأخرى بناحية آذربيجان[3]. ثم سار بجنوده نحو خراسان لقصد حرب أخشنوار ملك الهياطلة لأشياءَ كانت في نفسه، ولأن الهياطلة كانوا يأتون الذُّكران ويركبون الفواحش فسار إليهم؛ فلما بلغ أخشنوار ملكُ الهياطلة خبره خافه واشتدّ رعبه منه، وعلم أنه لا طاقة له به، وأن جيشه يضعف عن مقابلة الجيوش التي أقبل بها فيروز فحار في أمره؛ فتقدّم إليه رجل كبير السنّ من أهل بلاده وقال: أنا أفدي الملك وأهل مملكته بنفسي، فليأمر الملك بقطع يديّ ورجليّ ويؤثر في جسدي آثار العقوبة بضرب السياط، ويُلْقِني في الطريق التي يمرّ فيروز بها، ويُحسِن إلى ولدي وعيالي الذين أخلفهم؛ ففعل به ذلك وأمر بإلقائه في الطريق. فلما مرّ به فيروز أنكر حاله، فأخبره أن أخشنوار فعل به ذلك؛ لأنه أشار عليه بالانقياد إلى

---

(١) المطامير: واحدتها المطمورة، وهي مكان تحت الأرض قد هيىء ليطمر فيه البرّ والفول ونحوه.

(٢) رستاق: مدينة بفارس من ناحية كرمان.

(٣) أذربيجان: لفظ فارسي معناه: بيت النار، أو خازن النار، وحدّ أذربيجان من برذعة مشرقًا إلى أوزنجان مغربًا؛ ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجيل والطرّم، وهو إقليم واسع؛ ومن أشهر مدنها تبريز، وهي قصبتها وأكبر مدنها... (معجم البلدان).

طاعة فيروز والإقرار بعبوديته، وأن يحمل إليه من الأموال والتحف ما يُرضيه؛ فرقّ له الملك فيروز ورَحِمَه وأمر بحمله معه، فنهاه أكابر قومه عن تقريبه فلم يرجع إليهم، ثم قال له ذلك الأقطع كالمتنصّح[١] له: أنا أدُلّ الملك على طريق مختصر تدخل منه في مفازة إلى بلاد أخشنوار، فتصادف غِرّته؛ وسأله أن يشتفيَ له منه. فاغترّ فيروز بذلك؛ وأخذ الأقطعُ بفيروز ومن معه وعدل بهم عن الطريق الجادّة وشرع يقطع بهم مفازة بعد مفازة. فلما شَكَوْا العطشَ منّاهم بقرب الماء وقطع المفازة. ولم يزل يتقدّم بهم حتى بلغ بهم موضعًا علم أنهم لا يقدرون فيه على التقدّم ولا الرجوع، فتبين لهم أمره، فعندها سُقِطَ في أيدي القوم وقالوا لفيروز: ألم نَنْهَك عن هذا الرجل فلم تنته؟ فهلك أكثر أصحابه من العطش، ومضى على وجهه بمن نجا معه؛ فوافى[٢] أخشنوار وقومَه؛ وهو ومن نجا معه على أسوإ حال، وقد أجهدهم العطش، فدعَوْا أخشنوار إلى الصلح على أن يُخليَ سبيلهم وينصرفوا إلى بلادهم، وعاهدوه على ألا يغزوَهم أبدًا، فرضي أخشنوار بذلك وحصل اتفاقهما على أن يجعلا بينهما حدًّا لا يتجاوزه واحدٌ منهما، ووُضِعَ عند الحدّ حجر، وحلّفه أخشنوار أنه لا يتجاوز ذلك الحجر، فحلف له وأخذ عليه العهود والمواثيق وأطلقه أخشنوار، فعاد فيروز إلى بلاده.

فلما سار إلى مملكته داخلته الحمِيّة وحملته الأنفة على محاربة أخشنوار والغدر به، فنهاه أهل مملكته عن ذلك وقبّحوا عليه نقضَ العهود والمواثيق، فلم يرجع إلى أقوالهم وأبى إلا غزوَه. وسار بجيوشه حتى أتى الحدَّ الذي بينهما والحجر الذي حلف أنه لا يتجاوزه إلى بلاد الهياطلة، فأمر فيروز بالحجر أن يصمُد[٣] فيه خمسون فيلاً وثلاثمائة رجل، فجره أمامه وأمر العسكر ألا يتجاوز ذلك الحجرَ ولا يتقدّم الفيلةَ، وزعم أنه يكون قد وفى بيمينه ولم يتجاوز ما عاهد عليه. فلما بلغ أخشنوار ذلك أرسل إليه يقول: إن الله عزّ وجل لا يُخادَع ولا يُماكَر، ونهاه عن الغدر وقبّحه عليه، وهو لا يكترث بقوله، وأحجم أخشنوار عن محاربة فيروز وكرهها، ثم أعمل الفكرة وأخذ يفكر في وجوه[٤] المكايد والمكر والخداع، فحفر حول عسكره خندقًا عَرضه عشرة أذرع، وعمقه عشرون ذراعًا، وغطاه بخشب ضعيف وألقى عليه التراب، ثم ارتحل بمن معه ومضى غير بعيد، فبلغ فيروز رحيل أخشنوار بجنده من معسكره،

---

(١) المتنصح: الذي يتشبه بالنصحاء.

(٢) وافى فلانًا: فاجأه؛ ووافى القوم: أتاهم؛ ووافى الموت: أدركه.

(٣) يصمد فيه: أي يثبت فيه.

(٤) الوجوه: جمع وجه، وهو الأول والأفضل.

فما شك أنه انهزم منه، فركب في طلبه وأغذّ[١] السير بجنوده ـ وكان مسلكهم على الخندق ـ فلما مروا عليه تردّى فيروز وعامة جنوده فيه فهلكوا عن آخرهم وعطف عليهم أخشنوار وٱحتوى على كل شيء كان في معسكر فيروز، وأسر مُوبَذَانَ مُوبَذَ وجماعةً من نساء فيروز منهنّ دخت ٱبنة فيروز، فكان هذا عاقبة مكره. وكان ملكه سبعًا وعشرين سنة.

ولما هلك تنازع الملك بعده ٱبناه قباذ وبلاش؛ فملك بلاش بن فيروز بن يزدجرد. وكان حسن السيرة حريصًا على العمارة؛ وبلغ من حسن نظره أنه كان لا يبلغه أن بيتًا خَرِب وجلا عنه أهله إلا عاقب صاحب القرية التي فيها ذلك البيت على تركهم إنعاشَ أهله وسدَّ فاقتهم[٢] حتى لا يُضطرون إلى الجلاء عن أوطانهم. ثم هلك بعد أربع سنين.

وملك بعده أخوه قُباذ بن فيروز. قال: وكان قباذ لما ملك أخوه بلاش سار إلى خاقان[٣] يستنصره على أخيه ويذكر أنه أحقّ منه بالملك؛ فمَطَلَه بذلك أربع سنين ثم جهزه بجيش، فلما عاد وبلغ نيسابور بلغه وفاة أخيه بلاش. وكان قباذ في مسيره إلى خاقان مرّ على نيسابور متنكرًا وتزوّج بها بٱبنة رجل من الأساورة وواقعها، فحملت منه بأنو شِرْوان وتركها بنيسابور، فلما عاد في هذا الوقت سأل عن الجارية فأُتِيَ بها وٱبنه منها أنو شروان، فتبرّك بهما وفرح بابنه، ثم عاد إلى بلاد فارس وبنى مدينة أرّجان[٤] وحُلوان وعدّة مدن أخر.

قال: وكان لقباذ خال يقال له سوخرا وقيل فيه: ساخورا، وكان يخلُف فيروز والد قباذ على مدينة الملك بالمدائن، فجمع جموعًا كثيرة من الفرس وقصد أخشنوار ملكَ الهياطلة وحاربه وٱنتقم منه وٱستنقذ جميع من كان أسره من الفرس ومن سباه من نساء فيروز، وأكثر ما كان قد ٱحتوى عليه أخشنوار من خزائن فيروز؛ فعظُمَ قدره عند الفرس، وحَسُنَ فيهم أثره، وكبُرت منزلته عند بلاش وقباذ إلى أن لم يبق بينه وبين الملك إلا مرتبةٌ واحدة، وتولى سياسة الأمر بحُنْكة وتجربة؛ ومال إليه الناس

---

(١) أغذّ السير: أسرع.
(٢) الفاقة: الفقر والحاجة.
(٣) خاقان: لقب ملك الترك.
(٤) أرجان: مدينة كبيرة كثيرة الخير، بها نخيل كثير وزيتون وفواكه الجروم والصرود، وهي برية بحرية، سهلية جبلية، ماؤها يسيح، بينها وبين البحر مرحلة، وبينها وبين شيراز ستون فرسخًا، وبينها وبين سوق الأهواز ستون فرسخًا. قيل: إن أول من أنشأها قباذ بن فيروز والد أنو شروان العادل. . . (معجم البلدان).

وأطاعوه، واستخفوا بقباذ ولم يعبأوا بأمره، وهان عندهم فما حملت نفسه هذه الإهانةَ والذُّلَّ، فأخذ في التدبير على ساخورا وكتب إلى سابور الرازي، وهو الذي يقال له اللبيب، وهو أصبهبذُ البلاد، في القدوم عليه بمن قِبَله من الجند، فقدم بهم سابور فخاطبه قباذ في أمر خاله، فوافقه سابور عليه، فأمره قباذ بالتلطف في هذا الأمر وكتمانه، وإعمال الحيلة وحسن التدبير فيه، فغدا سابور على قباذ فوجد خاله ساخورا عنده، فتقدّم سابور إليه وهو آمن، فألقى وهَقا[١] في عنقه واجتذبه وأوثقه بالحديد ثم أودعه السجن، وقتله قباذ وخافته الفرس بعده.

وفي أيام قباذ ظهر مَزدق ـ ويقال فيه: مَزْدَك، وتفسيره: حديد الملك؛ وإليه تضاف المزدقية، ويقال لهم العدلية ـ وقال: إن الله تعالى إنما جعل الأرزاق في الأرض مبسوطة ليقسِّمها عبادُه بينهم بالسوية، ولكن الناس يظلِمون؛ واستأثر بعضهم على بعض، فانضم إليه جماعة وقالوا: نحن نقسِم بين الناس بالسويّة ونردّ على الفقراء حقوقهم من الأغنياء، ومَنْ عنده فضلٌ من المال والقوت والنساء والمتاع وغيرِ ذلك فليس هو له ولا أولى به من غيره؛ فافترص[٢] السِّفْلة ذلك واغتنموه واتبعوا مَزْدَكَ وأصحابه، فقوِيَ أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلِبونه على ما فيها من ماله ونسائه ولا يستطيع أن يردّهم عنه ولا يدافعهم. ورأى الملك قباذُ رأي مزدك وأصحابه وتابعهم فازداد قوة، فلم يلبث الناس إلا قليلاً حتى صار الأب لا يعرف ولده، ولا الولد يعرف والده، ولا يملِك أحد شيئًا، وصيّرت العدليةُ قباذَ في مكان لا يصل إليه غيرُهم. فاجتمعت الفرس على خلع قباذ من الملك ففعلوا ذلك.

وملّكوا عليهم عند ذلك جاماسف بن فيروز. وهو أخو قباذ. وقيل: إن المزدكية هم الذين أجلسوه. قال: ولما ملك جاماسف قبض على أخيه قباذ وحبسه فاحتالت أخت قباذ في خلاصه. وذلك أنها أتت إلى الحبس الذي هو فيه وحاولت الدخول إلى أخيها، فمنعها الموكَّلُ به من الدخول إليه، وطمِع أنه يَفضحها، وأعلمها أنه لا يمكّنها من العبور إليه إلا إن وافقته على قصده، فأطمعته في نفسها وقالت: إني لا أخالفك في شيء مما تهواه مني، فمكّنها من الدخول إلى السجن والاجتماع بأخيها قِباذ، فدخلت إليه وأقامت عنده أيامًا، ثم لفته في بساط أمرت بعض الغلمان أن يحمله فحمله على عاتقه[٣]، فلما مر الغلام بالموكَّل بالحبس سأله عن حمله

---

(١) الوهق: الحبل في طرفيه أنشوطة يطرح في عنق الدابة والإنسان حتى تؤخذ.

(٢) افترص: اغتنمها فرصة. (٣) العاتق: ما بين المنكب والعنق.

فاضطرب الغلام فلحقته وقالت: إنه فِراشٌ كنت أفرِشه تحتي وَعَركْت[١] فيه؛ وأنها خرجت لتتطهرَ وتعودَ، فصدّقها ولم يَمَسّ البساط ولم يَدْنُ منه استقذارًا له على مذهبهم في ذلك، فمضى الغلام به وخرجت أخته في أثَرِه، وهرب قباذ فلحق بأرض الهياطلة يستمد ملكها ليمده بجيش يحارب من خالفه، ويقال: إن زواجه بأمّ كسرى أنو شروان كان في هذه السفرة لا في تلك، وأنه تزوّجها بأَبْرَشَهرْ[٢]، وهي ابنة رجل من عظمائها، وأنه رجع به وبأمه عند عوده من بلاد الهياطلة. قال: وسار قباذ إلى ملك الهياطلة فأقام عنده عدّة سنين، ثم عاد إلى بلاده بأمداده، فغلب على أخيه ونزعه من الملك بعد أن ملك ستَّ سنين.

ثم عاد قباذ إلى الملك ثانيًا، ولما عاد إلى الملك وجد ٱبن ساخورا قد وثب في جماعة من أصحابه على مَزْدَك فقتله، فسُعِيَ به إلى قباذ فقتله بمزدك. قال: ثم غزا الروم وافتتح آمد[٣]، ثم أدبر ملكه لسوء عقيدته. وهلك قباذ إثر ذلك.

وكان سبب هلاكه أن الحارث بن عمرو الكنديّ قتل النعمان بن المنذر بن ٱمرىء القيس، ومَلَك العربَ وما كان ملَكه النعمان، فبعث قباذ بن فيروز إلى الحارث بن عمرو يقول: إنه كان بيننا وبين الملك الذي كان قبلك عَهْدٌ، وإني أحبّ لقاءك؛ وخرج للقائه في عَدَد وعُدّة، وجاءه الحارث والتقيا بمكان، فأمر قباذ بطبق من تمر فنُزِع نواه وبطبق آخر على حالته، فوُضِعا بين أيديهما، وجُعل المنزوع بين يدي قباذ، والذي هو بنواه بين يدي الحارث، فجعل الحارث يأكل التمر ويُلقي النوى، وقباذ يأكل التمر ولا يحتاج إلى إلقاء شيء. فقال للحارث: ما لك لا تأكل كما آكل؟ فقال الحارث: إنما يأكل النوى إبِلُنا وغنمنا، وعلم أن قباذ يهزأ به. ثم ٱفترقا على الصلح على ألا يجاوز الحارث وأصحابه الفرات، إلا أن الحارث استضعف قباذ وطمع فيه، فأمر أصحابه أن يعبروا الفرات ويُغيروا على قرى السواد ففعلوا ذلك، فجاء الصريخ إلى قباذ وهو بالمدائن، فكتب إلى الحارث بن عمرو أن لصوصًا من العرب قد أغاروا على السواد، وأنه يحب لقاءه فلقيه، فقال قباذ كالعاتب له: قد صنعتَ صنيعًا ما صنعه أحد قبلك، فطمِع الحارث فيه من لين كلامه وقال: ما علمتُ بذلك ولا شعرتُ به، وإني لا أستطيع ضبط لصوص العرب، وما كل العرب

---

(١) عركت المرأة: أي حاضت. (٢) أبرشهر: هي نيسابور؛ وقد تقدم تفسيرها.

(٣) آمد: هي أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدرًا وأشهرها ذكرًا: وآمد بلد قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود على نشر دجلة محيطة بأكثره مستديرة به كالهلال، وفي وسطه عيون وآبار قريبة نحو الذراعين، يتناول ماؤها باليد، وفيها بساتين يحيط بها السور. . . (معجم البلدان لياقوت).

تحت طاعتي، ولا أتمكن منهم إلا بالمال والجنود. فقال له قباذ: فما الذي تريد؟ قال: أريد أن تعطيَني من السواد ما أتخذ به سلاحًا، فأمر له بما يلي جانب العرب من أسفل الفرات؛ وهو ستة طساسيج[١]؛ فعند ذلك زاد طمع العرب فيه، وأرسل الحارث بن عمرو إلى تُبَّع وهو باليمن: إني قد طمِعت في ملك الأعاجم، وقد أخذت منه ست طساسيج، فأجمع الجنود وأقبل فإنه ليس دون ملكهم شيء؛ لأن الملك عليهم لا يأكل اللحم ولا يستحل هراقة الدماء، وله دين يمنعه من ضبط الملك؛ فبادر إليه بجندِك وعدّتك، وأطمعَه في الفرس. فجمع تُبّع جنوده وسار حتى نزل الحيرة[٢]، وقرب من الفرات، فآذاه البقّ، فأمر الحارث بن عمرو أن يُشق له نهر الحيرة فنزل عليه، ووجه ٱبن أخته شَمِرًا ذا الجناح إلى قُباذ فقاتله فهزمه شمر حتى لحق بالريّ، ثم أدركه بها فقتله.

وملك بعده ٱبنه كسرى أنو شروان بن قباذ بن فيروز. ولما ملك استقبل الأمر بجِدّ وسياسة وحزم. وكان جيّد الرأي، كثير النظر، صائب التدبير، طويل الفكر؛ فجدّد سيرة أردشير وعمِل بها، ونظر في عهده وأخذ نفسه به، وأدّب رعيته وبطانته، وبحث عن سياسات الأمم فاستصلح لنفسه منها ما رضيه، ونظر في تدابير أسلافه المستحسنة فاقتدى بها. وكان أوّل ما بدأ به أن أبطل مِلّة زرادشت الثاني الذي كان من أهل فَسَا[٣]، وأبطل ملة المزدكية وقتل على ذلك خلقًا كثير، وسفك من الدماء بسبب إبطال هذين المذهبين ما لا يحصى كثرةً، وقتل قومًا من المانَوِيَّة، وثبّت ملة المجوسية القديمة، وكتب في ذلك كتبًا بليغة إلى أصحاب الولايات والأصبهبذين[٤]، وقوّى مُلك الفرس بعد ضعفه بإدامة النظر وهَجْرِ الملاذّ وترك اللهو، وقوّى جنوده بالأسلحة والأمتعة والكُراع، وعمّر البلاد وحفظ الأموال وثمّرها، وسدّ الثغور وٱستعاد كثيرًا من الأطراف التي غلب عليها الأمم.

---

(١) الطساسيج: جمع الطسوج، وهو حبتان من الدوانيق. والدانق: أربعة طساسيج.

(٢) الحيرة: بالكسر ثم السكون وراء: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف زعموا أن بحر فارس كان يتصل به، وبالحيرة الخورنق يقرب منها مما يلي الشرق على نحو ميل، والسدير في وسط البرية التي بينها وبين الشام، كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية. . . (معجم البلدان).

(٣) فسا: بالفتح والقصر، كلمة عجمية: هي مدينة بفارس أنزه مدينة بها فيما قيل، بينها وبين شيراز أربع مراحل، وهي في الإقليم الرابع؛ قيل: هي مدينة مفترشة البناء واسعة الشوارع تقارب في الكبر شيراز. . . (معجم البلدان).

(٤) الأصبهبذ: تقدم تفسيرها.

قال: وأما تدبيره في أمر المزدكية وإبطال ما فعلوه فإنه ضرب أعناق رؤسائهم، وقسّم أموالهم في أهل الحاجة، وقتل جماعة كثيرة ممن عَرَف من الذين كانوا يدخلون على الناس في بيوتهم، ويشاركونهم في أموالهم وأهاليهم، وردّ الأموال إلى أربابها. وأمر بكلّ مولود ٱختُلِف فيه أن يُلحق بمن هو في سيمائه، وأمر بكل ٱمرأة غُلِب عليها أن يؤخذ الغالب عليها حتى يَغرَم لها مهر مثلها، ثم تُخير المرأة بين الإقامة عنده وبين تزويج غيره؛ إلا أن يكون لها زوج أوّل فترُدَّ إليه. وأمر بكل من أضرّ برجل في ماله أو ظلمه أن يؤخذ منه الحق؛ ويعاقب الظالم بعد ذلك بقدر جرمه. وأمر بعيال ذوي الأحساب الذين مات قيِّمهم[١] فكُتِبوا له فأنكح بناتِهم للأكفاء وجعل جهازهم من بيت المال، وأنكح بنيهم من بيوتات الأشراف وأغنيائهم. وأمرهم بملازمة بابه ليستعين بهم في أعماله، وخيّر نساء والده أن يقمن مع نسائه فيواسَيْن ويصيّرن في الأحرار، ويبتغي لهنّ الأكفاء من البعول، ثم أمر بكرْي[٢] الأنهار وحفر القُنَى. وأمر بإعادة كل جسر قطع، أو قنطرة خَرِبت أن تردّ إلى أحسن ما كانت عليه، وتخيّر الحكام والعمال وأمرهم أن يسيروا بسيرة أردشير ووصاياه.

فلما ٱنتظمت له هذه الأمور وٱستوثق له الملك ووَثِق بجنده سار نحو أنطاكية[٣] فافتتحها، وأمر أن تصوّر له المدينة على هيئتها وذَرْعها وطرقها وعدّة منازلها، وأن تُبنى له مدينة على صفتها إلى جانب المدائن، فبنيت المدينة المعروفة بالرومية، ثم نقل أهل أنطاكية إليها. فلما دخلوا باب المدينة مضى كل أهل بيت إلى ما يشبه منازلهم التي كانوا فيها بأنطاكية. وفتح مدينة هرقل ثم الإسكندرية، ثم أخذ نحو الخزَر، ثم إلى الهياطلة فقتل ملكهم بفيروز، وصاهر خاقانَ ملك الترك، وتجاوز بلخ وأنزل جنوده فَرْغانة[٤]، وبنى بابَ الأبواب. وقد ذكرناه في المباني القديمة.

---

(١) قيمهم: أي سيدهم.

(٢) يقال: كرى النهر: أي حفر فيه حفرة جديدة.

(٣) أنطاكية: بالفتح ثم السكون، والياء مخففة: بلد عظيم ذو سور وفصيل ولسوره ثلاثمائة وستون برجًا يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس، ينفذون من القسطنطينية من حضرة الملك يضمنون حراسة البلد سنة، ويستبدل بهم في السنة الثانية، وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل... (معجم البلدان لياقوت).

(٤) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك، كثيرة الخير واسعة الرستاق...

ولما بنى هذا السورَ هابته الملوك وراسلته وهادنته؛ فورد عليه رسول ملك الروم بهدايا فنظر إلى إيوانه فرأى في ميزانه اعوجاجًا، فقال: ما هذا الاْعوجاج؟ فقيل له: إن عجوزًا لها منزل في جانب هذا الاعوجاج فأرادها الملك على بيعه وأرغبها في الثمن فأبت، فلم يُكْرِهْها وبقي الاعوجاج على ما ترى. فقال الروميُّ: هذا الاْعوجاج أحسن من هذا الاستواء. وكتب إليه ملك الصين: من نقفور ملك الصين، صاحِب قصر الدرّ والجوهر، الذي يخرج من قصره نهران يسقيان العود[١] والكافور، والذي توجد رائحته على فرسخين، والذي يخدِمُه بنات ألف ملك، والذي في مَرْبِطه ألف فيل أبيض، إلى أخيه كسرى أنوشروان. وأهدى إليه هدايا عظيمة. وكتب إليه ملك الهند: من ملك الهند وعظيم ملوك الشرق، وصاحب قصر الذهب، وأبواب الياقوت والدرّ، إلى أخيه كسرى أنوشروان ملكِ فارس، صاحبِ التاج والراية. وأهدى إليه هدايا؛ منها ألف مَنٍّ[٢] من العود يذوب على النار كالشمْع، ويختم عليه كما يختم على الشمع. وجامٌ[٣] من الياقوت الأحمر فتحته شبر مملوء درًّا، وعشرة أمنانِ كافور كالفستق، وجاريةٌ طولها سبعة أذرع تضرِب أشفارُ عينيها خدّيها، وكأن بين أجفانها لمعان البرق مع إتقان شكلها، مقرونةُ الحاجبين، لها ضفائر تجرها؛ وفراشٌ من جلود الحيّات ألين من الحرير وأحسن من الوَشْي. وكان كتابه في لِحَا الشجر المعروف بالكاذي[٤] مكتوبًا بالذهب. وكتب إليه ملك التُّبَّتِ[٥]: من ملك التبت ومشارقِ الأرض المتاخمة للصين والهند، إلى أخيه كسرى المحمودِ السيرة والقدر، ملكِ المملكة المتوسطة في الأقاليم السبعة، أنوشروان. وأهدى إليه أنواعًا مما عُمِلَ من عجائب أرض تبت، منها مائةُ جوشن[٦] ومائة ترس تُبَّتِيَّةٍ مذهبة، وأربعة آلاف مَنٍّ من المسك من نوافِجَ[٧] غزلانية. واْستغاث به ابن ذي يَزَنٍ يستصرخه على الحبشة فبعث معه قائدًا من قوّاده. وسنورد ذلك إن شاء الله في خبر سيف بن ذي يزن.

---

(١) العود: ضرب من الطيب يتبخّر به.
(٢) المنّ: لغة من المنا الذي يوزن به، وهو رطلان.
(٣) الجام: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها. وقد غلب استعمالها في قدح الشراب.
(٤) الكاذي: نوع من النبات عجيب، قشره أرق من الورق الصيني تتكاتب فيه ملوك الصين والهند، وهذا الشجر ينبت في أرض الصين والهند.
(٥) التُّبّت: مملكة متاخمة لمملكة الصين ومتاخمة من إحدى جهاتها لأرض الهند ومن جهة المشرق لبلاد الهياطلة ومن جهة المغرب لبلاد الترك... (معجم البلدان).
(٦) الجوش: الدرع؛ أو الصدر.
(٧) النوافج: جمع النافجة، وهو وعاء المسك في جسم الظبي.

ولما استتبَّ له الأمر ووظّف الوظائفَ على الترك والخزر والهند والروم وغيرهم، نظر في الخراج وأبواب المال. وكانت رسوم الناس جارية على الثلث من البقاع، ومن بعضها الربع والخمس والسدس على حسب العمارة. وكان قباذ أبوه قد مسح[١] الأرض وهَلَك قبل أن يستحكم له أمر تلك المساحة؛ فجمع أنوشروان أهل الرأي فاتفقوا على أن جعلوا على كل جَرِيب[٢] من الحنطة والشعير درهمًا، وعلى الجريب من الكرم ثمانية دراهم، وعلى الرِّطَاب[٣] تسعة دراهم، وعلى كل أربع نَخَلات فارسية درهمًا، وعلى كل ستّ نَخَلاتِ دَقَلٍ[٤] مثل ذلك، وعلى كل ستة أصول زيتونٍ مثل ذلك، ولم يضعوا إلا على نخل في صديقة، أو مجتمِع غير شاذّ، وتركوا فيما سوى ذلك من الغلاّت السبع، وألزموا النّاس الجزية ما خلا أهل البيوتات والعظماء والمقاتِلَة والهرابذة والكتّاب، ومن كان في خدمة الملك، وصيروها على طبقات: اثني عشر درهمًا، وثمانية دراهم، وستة دراهم، وأربعة دراهم، على قدر إكثار الرجل وإقلاله، ولم يُلزِموا الجزيةَ من كان أتى له من السنين دون العشرين أو فوق الخمسين، ورفعوا هذه الوضائعَ إلى كسرى فرضيَها وأمر بإمضائها وجباية مبلغها في ثلاثة أنجم[٥] في كل سنة، وسماها أبراسيار. ومعنى ذلك الأمر المُتراضَى به.

وكان أنو شروان ـ لما أراد أن يضع هذه الوضائع ـ أمر بإتمام المساحة التي بدأ بها قباذ، وأحصى النخل والزيتون وغير ذلك، والجماجم[٦]؛ ثم أمر الكتاب فأخرجوا جُمَلَ ذلك غير تفصيله، وأذِنَ للناس إذنًا عامًّا، وأمر كاتب خراجه أن يقرأ عليهم الجمل المستخرجة من أصناف الغلاّت وعدد النخل والزيتون والجماجم، فقرأ ذلك عليهم. ثم قال كسرى: إنا قد رأينا أن نضع على ما أُحْصِيَ من جِرْبان هذه المساحة وضائعَ، ونأمرَ بإنجامها في السنة ثلاثة أنجم، ونجمعَ في بيوت أموالنا من الأموال ما لو أتانا عن ثغر من الثغور أو طَرَفٍ من الأطراف فتقٌ[٧] أو ما نكرهه واحتجنا إلى تداركه أو حسمه بذلنا الأموال التي عندنا ولم نحتج إلى استئناف جبايتها، فما الذي ترون فيما رأيناه من ذلك وأجمعنا عليه؟ فلم يُشِرْ عليه أحد منهم بمشورة، ولا نطق

---

(١) مسح الأرض: أي قاسها بالذراع ونحوه. (٢) الجريب: مكيال قدر أربعة أقفزة.
(٣) الرطاب: جمع الرطب، وهو ثمر النخل إذا أدرك ونضج قبل أن يصير تمرًا.
(٤) الدّقل: أردأ التمر. (٥) النجم: الوقت المعين لأداء دين أو عمل.
(٦) الجماجم: جمع الجمجمة، وهي ضرب من المكاييل.
(٧) يقال: فتق بين القوم: أي شقّ عصاهم فرجعت الحرب بينهم.

بكلمة. فكرر كسرى عليهم القول ثلاثًا، فقام رجل من عُرْضهم[١] وقال: أتضع أيها الملك ـ عمرك الله ـ خالدًا من هذا على الفاني؟ من كرم يموت، وزرع يَهِيج[٢]، ونهر يَغِيض[٣]، وعين أو قناة ينقطع ماؤها. فقال له كسرى: يا ذا الكُلْفَة المشؤوم، من أيّ طبقات الناس أنت؟ فقال: من الكتّاب. فقال كسرى: اضربوه بالدُّوِيّ[٤] حتى يموت، فضربه الكتاب خاصة تبرؤًا منهم إلى كسرى من رأيه، وما صدر من مقالته حتى قتلوه. وقال الناس: نحن راضون بما ألزمتنا أيها الملك به من خراج. ثم اجتمعت الآراء على وضع ما ذكرناه من الوضائع، فاستقرّت على ذلك إلى أن جاء الإسلام، وبها أخذ عمر رضي الله عنه لما فتحت بلاد فارس.

ذكر قطعة من سِيَر كسرى أنو شروان وسياسته

قال الشيخ أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه في كتابه المترجم بتجارب الأمم: إنه قرأ فيما كتبه أنو شروان من سيرة نفسه في كتاب عَمِلَه في سيرته وما ساس به مملكته: قال كسرى: كنت يومًا جالسًا بالدَّسْكرة[٥] وأنا سائر إلى هَمَذان لنَصِيفَ هناك؛ وقد أُعدّ الطعام للرسل الذين بالباب من قِبَل خاقان والهياطلة والصين وقيصر ونقفور؛ ودخل رجل من الأساورة مخترطًا سيفه حتى وصل إلى السِّتر في ثلاثة أماكن، وأراد الدخولَ حيث نحن والوثوبَ علينا، فأشار عليّ بعض خدمي أن أخرجَ إليه بسيفي، فعلمت أنه إن كان إنما هو رجل واحد فسوف يحال بيننا وبينه، وإن كانوا جماعة فإنّ سيفي لا يغني شيئًا؛ فلم أَخَف ولم أتحرّك من مكاني؛ وأخذه بعض الحرس فإذا هو رجل رازيٌّ من حشمنا[٦] وخاصّتنا، فلم يشكّوا أنّ على رأيه كثيرًا من الناس، فسألوني ألاّ أجلسَ ولا أحضُر للشرب حتى يستبين الأمر، فلم أُجبهم إلى ذلك لئلاّ ترى الرسُل منّي جُبْنًا، فخرجت لِشَرْبِي[٧]، فلما فرغنا هدّدت الرازيَّ بالعقوبة وقطع اليمين، وسألته أن يَصْدُقني عن الذي حمله على ذلك، وأنه إن صَدَقني لم تنله عقوبة بعد ذلك؛ فذكر أنّ قومًا وضعوا من قِبَل أنفسهم كتبًا وكلامًا، وذكروا

---

(١) عُرضُ الناس: معظمهم. (٢) هاج الزرع: أي يبس واصفرّ.
(٣) غاض الماء: أي نزل في الأرض وغاب فيها.
(٤) الدويّ: جمع الدواة، وهي المحبرة.
(٥) الدسكرة: بناء كالقصر حوله بيوت للأعاجم فيها الشراب والملاهي، يكون للملوك.
(٦) حشم الرجل: خاصته الذين يغضبون لغضبه ولما يصيبه من مكروه، من عبيد أو أهل أو جيرة.
(٧) المراد بالشراب: الجماعة الذين يشربون الخمر.

أنه من عند الله، أشاروا عليه بذلك وأخبروه أني إن قتلته وإن قتلني أدخل الجنة. فلما فحصت عن ذلك وجدته حقًّا؛ فأمرت بتخلية الرازيّ وبردّ ما أخذ منه، وتقدّمت بضرب رقاب أولئك الذين أشاروا عليه حتى لم أدع منهم أحدًا.

وقال أنو شروان: إني لما أحضرت القوم الذين اختلفوا في الدين وجمعتهم للنظر فيما يقولونه، بلغ من جرأتهم وخبثهم وقوّة شياطينهم أنْ لم يبالوا بالقتل والموت في إظهار دينهم الخبيث، حتى إني سألت أفضلَهم رجلاً على رؤوس الناس عن استحلاله قتلي، فقال: نعم، استحلّ قتلك وقتل من لا يطاوعنا على ديننا! فلم آمر بقتله حتى إذا حضر وقت الغداء أمرت أن يُحْبس الغداء وأرسلت إليه بطُرف[1] الطعام، وأمرت الرسول أن يبلّغه عنّي أنّ بقائي له أنفعُ مما ذكر؛ فأجاب الرسولَ إنّ ذلك حقٌّ، ولكن سألني الملك أن أَصْدُقَه عن ذات نفسي ولا أكتمه شيئًا مما أدين به، وإنما أدين بما أخذته من مؤدّبي.

قال أنو شروان: لمّا غدر بي قيصر وغزوته فذَلَّ وطلب الصلح وأنفذ[2] إليّ بمال وأقرّ بالخراج والدية، تصدّقت على مساكين الروم وضعفائهم وضعفاء مزارعيهم مما بعث به قيصر بعشرة آلاف دينار، وذلك فيما وطِئتُه من أرض الروم دون غيرها.

وقال: لمّا أمرت بتصفح أمر الرعية بنفسي ورفع البلاء والظلم عنهم، وما ينوبهم من ثِقل الخراج؛ فإنّ فيه مع الأجر تزيين أهل المملكة وغناهم وقدرة الوالي على أن يستخرج منهم إنْ هو احتاج إلى ذلك ـ وقد كان في آبائنا من يرى أنّ وضع الخراج عنهم السنة والسنتين والتخفيف أحيانًا مما يقوّيهم على عمارة أرضيهم ـ جمعت العمال ومن يؤدّي الخراج فرأيت من تخليطهم ما لم أرَ له حيلة إلا التعديلَ والمقاطعةَ على بلدة بلدة، وكورة[3] كورة، ورُستاق رُستاق، وقرية قرية، ورجل رجل؛ فاستعملت عليهم أهل الثقة والأمانة في نفسي، وجعلت في كل بلد مع كل عامل أمناء يحفظون عليه، ووليت قاضيَ القضاة بكل كورة النظرَ في أهل كورته، وأمرت أهل الخراج أن يرفعوا ما يحتاجون إلى رفعه إلينا إلى القاضي الذي وليته أمرَ كُوَرِهم حتى لا يقدِرَ العالم أن يزيد شيئًا، وأن يؤدّوا الخراج بمشهد من القاضي، وأن

---

(١) الطرف: جمع الطريف، وهو الطيب النادر؛ والطرف: جمع الطرفة، وهي كل شيء مستحدث عجيب.

(٢) أنفذ إليه المال: أرسله.

(٣) الكورة: البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال؛ أو الصقع.

تعطى به البراءة، وأن يرفع خراج من هلك منهم، ولا يزاد الخراج ممن لم يُدْرِكْ من الأحداث، وأن يرفع القاضي وكاتبُ الكورة وكاتبُ أهل الكورة وكاتب أهل البلد والعامل محاسبتهم إلى ديواننا وقت الكَتْب بذلك.

وقال: رفع إلينا مُوبَذان مُوبَذ أنّ قومًا سمّاهم من أهل الشرف، بعضهم بالباب كان شاهدًا وبعضهم ببلاد أخر، دينهم مخالف لما رويناه عن نبينا وعلمائنا، وأنهم يتكلمون بدينهم سرًّا ويَدعون إليه الناس، وأن ذلك مَفْسدةٌ للملك، وحيث لا تقوم الرعيّة إلا على هوًى واحد، فيحرّمون جميعًا ما يحرّم الملك، ويستحلّون ما يستحلّ الملك في دينه؛ فإنّ ذلك إذا اجتمع للملك قَوِيَ بجنده لأجل الموافقة بينهم وبين الملك، فاْستظهر على قتال الأعداء؛ فأحضرتُ أولئك المختلفين في الأهواء، وأمرتُ أن يخاصَموا حتى يقفوا على الحقّ ويُقرّوا به، وأمرت أن يُقْصَوْا عن مدينتي وعن بلادي ومملكتي، ويُتبع كل من هو على هواهم فيُفعل به ذلك.

وقال: إن الترك الذين في ناحية الشمال كتبوا إلينا بما أصابهم من الحاجة، وأنهم لا يجدون بدًّا - إن لم نعطهم شيئًا - من أن يغزونا، وسألوا خصالاً إحداها أن نتخذهم في جندنا، ونُجرِيَ عليهم ما يعيشون به، وأن نُعطيَهم من أرض الكَرَج[1] ويَلَنْجَر[2] وتلك الناحية ما يعيشون به، فرأيت أن أسير في ذلك الطريق إلى باب صُول[3]، وأحببت أن يَعرِف مَنْ قبلنا من الملوك هناك نشاطنا للأَسفار وقوّتنا عليها متى هممنا، وأن يَرَوْا مَا رأوْا من هيبة الملوك وكثرة الجنود وتمام العُدَّة وكمال السلاح ما يقوَوْن به على أعدائهم، ويعرفون به قوّة مَنْ خلفهم إن هم اْحتاجوا إليه، وأحببنا بمسيرنا أن نُجريَ لهم على أيدينا الجوائز والحُمْلان[4]، والقربَ من المجلس واللطفَ في الكلام ليزيدَهم ذلك مودّة لنا ورغبةً فينا، وحرصًا على قتال أعدائنا، وأحببت أيضًا التعهدَ لحصونهم، وأن أسأل أهل الخراج عن أمرهم في مسيرنا. فسرت في طريق همذان[5] وأذربيجان. فلما بلغت إلى باب الصول ومدينة فيروز

---

(١) الكرج: مدينة بين همذان وأصفهان في نصف الطريق وإلى همذان أقرب.

(٢) بلنجر: وراء مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب.

(٣) صول: مدينة في بلاد الخزر في نواحي باب الأبواب وهو الدربند.

(٤) الحملان: ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة.

(٥) همذان: كانت همذان أكبر مدينة بالجبال وكانت أربعة فراسخ في مثلها، طولها من الجبل إلى قرية يقال لها زينواباذ، وكان صنف التجار بها وصنف الصيارف بسنجاباذ، وكان صنف البزازين في قرية يقال لها برشيقان... (معجم البلدان لياقوت).

خسرو يمّمت تلك المدائنَ العتيقة، وتلك الحدود، وأمرت ببناء حصون أُخَر. فلما بلغ خاقانَ الخَزَر نزولُنا هناك تخوّف أن نغزوَه، فكتب أنه لم يزل ـ منذ ملكتُ ـ يحب موادَعتي، وأنه يرى الدخول في طاعتي؛ ورأى بعضُ قوّاده ـ لمّا شاهد حاله ـ تركَه وأتانا في ألفين من أصحابه؛ فقبلناه وأنزلناه في تلك الناحية، وأجريت عليه وعلى أصحابه الرزق، وأمرت لهم بحصن هناك، وأمرت بمصلّى لأهل ديننا، وجعلت فيه مُوبَذًا وقومًا نسّاكًا، وأمرتُهم أن يُعلِموا من دخل من الترك في طاعتنا ما في طاعة الولاة من المنفعة العاجلة في الدنيا، والثواب الآجل في الأخرى، وأن يَحثُّوهم على المودّة والصحبة والعدل والنصيحة ومجاهدة العدوّ، وأن يُعلِّموا أحداثهم رأينا ومذهبنا، وأقمت لهم في تلك التخوم(١) الأسواقَ، وأصلحت طرقهم وقوّمت السكك(٢). ونظرنا فيما اجتمع لنا هناك من الخيل والرجال فإذا هو بحيث لو كان بوسط فارس لكان منزلنا بها فاضلاً.

وقال: فلما أتى لمُلْكنا ثمانٍ وعشرون سنة جدّدتُ النظرَ في أمر المملكة والعدلَ على الرعية، والنظرَ في أمرهم، وإحصاءَ مظالمهم، وإنصافَهم. وأمرتُ مُوبَذَ كل ثغر ومدينة وبلد وجُنْدٍ بإنهاء ذلك إليّ. وأمرتُ بعرض الجند، من كان منهم بالباب بمشهدٍ مني، ومَن غاب في الثغور والأطراف بمشهدٍ من القائد وبادوستان والقاضي وأمينٍ من قِبَلنا. وأمرت بجمع أهل كُوَرِ الخراج في كل ناحية من مملكتي إلى مصرها(٣) مع القائد وقاضي البلد والكاتب والأمين. وسرّحتُ من قِبَلي مَنْ عرفتُ صحبتَه وأمانته ونُسُكَه وعلمه، ومن جرّبت ذلك منه إلى كل مصر ومدينة حيث أولئك العمالُ والغلمانُ وأهلُ الأرض ليجمعوا بينهم وبين أهل أراضيهم وبين وضيعهم وشريفهم، وأن يُرْفع الأمرُ كلُّه على حقّه وصدقه، فما نفذ لهم فيه أمر أو صَحّ فيه القضاءُ فرضيَ به أهلُه فرَغوا منه هنالك، وما أَشكل عليهم رفعوه إليّ.

وبلغ اهتمامي بتفقّد ذلك ما لولا الذي أُدارِي من الأعداء والثغور لباشرت أمرَ الخراج والرعية بنفسي قريةً قريةً حتى أتعهدَها وأكلّم رجلاً رجلاً من أهل مملكتي؛ غير أني تخوّفت أن يضيع بذلك السببِ أمرٌ هو أعظم منه، الأمر الذي لا يُغني(٤) فيه

---

(١) التخوم: جمع التخم، وهو الحد الفاصل بين أرضين.

(٢) المراد بالسكك: الطرق.

(٣) المصر: الكورة الكبيرة تقام فيها الدور والأسواق والمدارس وغيرها من المرافق العامة.

(٤) يقال: أغنى عنه غناء: أي ناب عنه.

أحدٌ غنائي ولا يقدِر على إحكامه غيري، ولا يكفينيه كافٍ، مع الذي في الشخوص إلى قريةٍ قريةٍ من المؤونة على الرعية من جندنا، ومَنْ لا نجد بدًّا من إخراجه معنا. وكرهنا أيضًا إشخاصَهم إلينا مع تخوّفنا أن يشتغل أهل الخراج عن عِمارة أراضيهم، أو يكونَ فيهم من يدخُل عليه من ذلك مؤونة في تكلُّف السير إلى بابنا، وقد ضيّع قُرَاه وأنهاره وما لا يجد بدًّا من تعهده في السنة كلها في أوقات العمارة، ففعلنا ذلك بهم ووكّلنا مُوبَذان[١] مُوبَذ بذلك، وكتبنا به الكتب وسرَّحنا مَنْ وَثِقْنا به، ورجونا أن يجري مجرانا وأشخصناه وقلّدناه ذلك.

قال: ولما أمّن الله جميعَ أهل مملكتنا من الأعداء فلم يبق منهم إلا نحو ألفي رجل من الديلم[٢] الذي عَسُر افتتاحُ حصونهم لصعوبة الجبال عليها، لم نجد شيئًا أنفع لمملكتنا من أن نفحص عن الرعية، وأولئك الأمناءِ الذين وصّيناهم بإنصاف أهل الخراج. وكان بلغنا أن أولئك الأمناءَ لم يبالغوا على قدر رأينا في ذلك، فأمرت بالكَتْبِ إلى قاضي كورةٍ كورةٍ أن يجمع أهلَ الكورة بغير علم عاملهم وأُولي أمرهم فيسألَهم عن مظالمهم وما استُخرِج منهم، ويفحصَ عن ذلك بمجهود رأيه ويبالغَ فيه، ويكتبَ حالَ رجلٍ رجلٍ منهم ويختِمَ عليه بخاتمه وخاتم الرضا من أهل تلك الكورة، ويبعثَ به إليّ ويسرّحَ ممن يجتمع رأي أهل الكورة عليه بالرضا نفرًا، وإن أحبّوا أن يكون فيمن يُشْخَصُ بعضُ سِفلتهم أيضًا فعل ذلك.

فلما حضروا جلست للناس وأذِنت لهم بمشهد من عظماء أرضنا وملوكهم وقضاتهم وأحرارهم وأشرافهم، ونظرت في تلك الكتب والمظالم، فأيّة مظلمة كانت من العمال ومن وكلائنا، أو من وكلاء أولادنا ونسائنا وأهل بيتنا حططناها عنهم بغير بينة[٣]؛ لعلمنا بضعف أهل الخراج منهم، وظلم أهل القوّة من السلطان لهم، وأيّةُ مظلمة[٤] كانت لبعضهم من بعض ووَضحَت لنا، أمرت بإنصافهم قبل البرَاح، وما أشكل وأوجب الفحصُ عنه شهودَ البلد وقاضيها سرّحت معه أمينًا من الكتاب، وأمينًا من فقهاء ديننا وأمينًا ممن وثقنا به من خدمنا وحاشيتنا، فأحكمت ذلك إحكامًا وثيقًا.

---

(١) موبذان موبذ: قاضي القضاة في دولة الفرس قبل الإسلام.

(٢) الديلم: في الإقليم الرابع، طولها خمس وسبعون درجة، وعرضها ست وثلاثون درجة وعشر دقائق. وقيل: الديلم: جيل سمّوا بأرضهم في قول بعض أهل الأثر وليس باسم أب لهم... (معجم البلدان).

(٣) البينة: الحجة الواضحة.

(٤) المظلمة: أي الظلامة، وهي ما يطلبه المظلوم، وهو اسم ما أخذ منه ظلمًا.

ولم يجعل الله لذوي قرابتنا ورحمنا وخدمنا وحاشيتنا منزلة عندنا دون الحقّ والعدل؛ فإن من شأن قرابة الملك وحاشيته أن يستطيلوا[١] بعزّته وقوّته، فإذا أهمل السلطان أمرَهم هَلَكَ من جاوره إلاّ أن يكون فيهم متأدّب بأدب مَلِكه، محافظ على دينه، شفيق على رعيّته، وأولئك قليل؛ فدعانا الذي أطلعنا عليه من ظلم أولئك ألا نطلبَ البيّنةَ عليهم فيما ادُّعِيَ قِبَلهم. ولم نزل نردّ المظالم، ولم نرِد أيضًا ظلم أحد ممن كان عزيزًا بنا، منيعًا بمكانه ومنزلته عندنا، فإن الحقّ واسع للضعفاء والأقوياء والفقراء والأغنياء؛ ولكنا لما أشكلت الأمور في ذلك علينا كان الحَمْلُ على خواصّنا وخدمنا أحبَّ إلينا من أن نحمل على ضعفاء الناس ومساكينهم، وأهل الفاقة والحاجة منهم. وعلمنا أن أولئك الضعفاء لا يقدرون على ظلم مَنْ حولنا. وعلمنا مع ذلك أن الذين أَعْدَينا[٢] عليهم من خاصّتنا يرجعون من نعمتنا وكرامتنا إلى ما لا يرجع إليه أولئك. ولعمري إن خواصّنا إلينا، وآثر خَدَمِنا في أنفسنا الذين يحفظون سيرتنا في الرعية، ويرحمون أهل الفاقة والمسكنة وينصفونهم؛ فإنه قد ظلمنا مَنْ ظلمهم، وجار علينا مَنْ جار عليهم، وأراد تعطيل ذمتنا التي هي حرزُهم[٣] وملجأهم.

قال: ثم كَتَب إلينا على رأس سبع وثلاثين سنة من ملكنا، أربعةُ أصناف من الترك من ناحية الخزر، ولكل صِنْف منهم ملك، يذكرون ما دخل عليهم من الحاجة، وما لهم من الحظ في عبوديتنا، وسألوا أن نأذن لهم في القدوم بأصحابهم لخدمتنا، والعمل لما نأمرهم به، وألا نحقِد عليهم ما سلف منهم قِبَل مُلكنا، وأن نُنزلهم منزلة سائر عبيدنا، فإنا سنرى في كل ما نأمرهم به من قتال وغيره كأفضل ما نرى من أهل نصيحتنا، فرأيت في قبولي إياهم عدة منافع، منها: جلَدُهم[٤] وبأسُهم، ومنها: أني تخوّفت أن تحملهم الحاجة على إتيان قيصر أو بعضِ الملوك فيقوَوْا بهم علينا، وقد كان فيما سلف يستأجر منهم قيصر لقتال ملوك ناحيتنا بأغلى الأجرة. وكان لهم في ذلك القتال بعضُ الشوكة بسبب أولئك الأتراك؛ لأن الترك ليس عندهم لذةٌ للحياة، فهو الذي يجرئهم مع شقاء معايشهم على الموت؛ فكتبت إليهم إنّا نقبل من دخل في طاعتنا، ولا نبخل على أحد بما عندنا، وكتبت إلى مَرزُبان[٥] الباب آمره بأن يُدخِلهم أوّلاً أوّلاً، فكتب إليّ إنه قد أتاه منهم خمسون ألفًا بنسائهم وأولادهم وعيالهم. ولما

(١) استطال عليه: أي تكبر وترفع؛ أو اعتدى. (٢) يقال: أعدينا عليهم: أي ظلمناهم.

(٣) الحرز: المكان المنيع يلجأ إليه؛ أو العوذة.

(٤) الجلد: الصبر على المكروه. (٥) المرزبان: الرئيس من الفرس.

بلغني ذلك أحببت أن أقرِّبهم إليّ ليعرفوا إحساني إليهم، وأعظِّمَهم ليطمئنّوا إلى قوّادنا، حتى إذا أردنا تسريحهم مع بعض قوّادنا كان كل واحد بصاحبه واثقًا، فشخصنا إلى أذربيجان، فلما نزلتها أذنت لهم في القدوم، وأتاني عند ذلك طرائف من هدايا قيصر، وأتاني رسول خاقان الأكبر، ورسول صاحب الروم، ورسول صاحب خوارزم، ورسول ملك الهند، والداوَر[1]، وكابل[2] شاه، وصاحب سَرَنْديب[3]، وصاحب كله[4]، وكثير من الرسل، وتسعة وعشرون ملكًا في يوم واحد، وانتهيت إلى أولئك الأتراك الثلاثة والخمسين ألفًا فأمرت أن يُصَفُّوا هناك وركبت لذلك، فكان يومئذ من أصحابي وممن قدم عليَّ ومن دخل في طاعتي وعبوديّتي مَنْ لم يسعهم مَرْجٌ كان طوله عشرة فراسخ، فحمَدت الله كثيرًا وأمرت أن يُصَفّ أولئك الأتراك في أهل بيوتاتهم على سبع مراتبَ، ورأست عليهم منهم، وأقطعتهم وكسوت أصحابهم، وأجريت عليهم الأرزاق، وأمرت لهم بالمياه والأَرضين، وأسكنت بعضهم مع قائد لي باللان[5]، وقسمتهم في كل ما احتجنا إليه من الثغور، وضممتهم إلى المرزُبان؛ فلم أزل أرى من مناصحتهم واجتهادهم فيما نوجههم له ما يسرنا في جميع البلدان والثغور وغيرها.

قال: وكتب إليّ خاقان الأكبر يعتذر إليّ من بعض غَدَراته ويسأل المراجعةَ والتجاوزَ؛ وذكر في كتابه ورسالته أن الذي حمله على عداوتي وغزو أرضي مَنْ لم يُنظَر له، وناشدني الله أن أتجاوز عنه، وتوثَّق لي بما أطمئنّ إليه. وذكر أن قيصر قد أرسل إليه وزعم أنه يستأذنني في قبول رسله، وأنه لا يعمل في قبول رسل أحد إلا بما آمره، ولا يجاوز أمري، ولا يرغب في الأموال ولا في المودّات لأحد إلا برضائي، وكان دَسِيسٌ[6] لي في الترك يكاتبني بندم خاقان وندم أصحابه على غدره وعداوته إياي، فأجبته: إني لعَمْرِي ما أبالي إن طبيعة نفسك وغريزتَك غدرت بنا أم

---

(١) الداور: هي ولاية واسعة ذات بلدان وقرى مجاورة لولاية رخج وبست والغور.

(٢) كابل: ولاية ذات مروج كبيرة بين هند وغزنة؛ وقيل هي من ثغور صخارستان. وبها العود والنارجيل والزعفران والإهليلج...

(٣) سرنديب: هي جزيرة سيلان المعروفة.

(٤) كله: فرضة بالهند، وهي في منتصف الطريق بين عمان والصين، يسكنها المسلمون والهند والفرس، وبها معادن الرصاص ومنابت الخيزران وشجر الكافور.

(٥) اللان: بلاد واسعة في طرف أرمينية، قرب باب الأبواب..

(٦) الدسيس: الذي تدسه ليأتيك بالأخبار.

أطعتَ غيرك في ذلك، وما ذنبك في طاعة مَنْ أطعتَ في ذلك إلا كِذْبتك فيما فعلتَه برأي نفسك، وإني قد استحققتُ أشد العقوبة. وكتبتُ أني لا أظن شيئًا من الوثيقة تفي لكم إلا وقد كنتَ ضيعتَه، ولا أظن شيئًا وثقت لنا به من قبل اليوم ثم غدرتم، فكيف نطمئنّ إليك ونثق بقولك؟ ولسنا نأمنك على مثل ما فعلت من الغدر ونقض العهد والكذب في اليمين. وذكرتَ أن رسل قيصر عندك، ووقفنا على استئذانك إيانا فيهم؛ وإني لست أنهاك عن مودّة أحد. وكرهت أن يُرى أني أتخوّف مصادقته وأهاب ذلك منه. وأحببت أن أعلمه أني لا أبالي بشيء مما جرى بينهما. ثم سرحت لمرمّة[١] المدائن والحصون التي بخراسان وجمع الأطعمة والأعلاف إليها ما يحتاج إليه الجند، وأمرت أن يكونوا على استعداد وحذر، ولا يكون من غفلتهم ما كان في المرة الأولى وهم على حال الصلح.

قال: وكان شكري لله تعالى لما وهب لي وأعطاني متصلاً بنعمه الأول التي وهبها لي في أوّل خلقه إياي؛ فإنما الشكر والنِّعم عِدْلا كِفَّتَي الميزان أيهما رجح بصاحبه احتاج الأخفّ إلى أن يُزاد فيه حتى يعادلَ صاحبه، فإذا كانت النعم كثيرة والشكر قليلاً انقطع الحِمْل وهلك ظهرُ الحامل، وإذا كان ذلك مستويًا استمرّ الحامل. وكثيرُ النعم يحتاج صاحبها إلى كثير الشكر، وكثيرُ الشكر يجلب كثير النعم. ولما وجدت الشكر بعضه بالقول، وبعضه بالعمل، ونظرت في أحبّ الأعمال إلى الله وجدته الشيءَ الذي أقام به السماوات والأرضَ، وأرسى به الجبال، وأجرى به الأنهار وبرأ[٢] به البريّة. وذلك الحقُّ والعدلُ فلزمتهما. ورأيت ثمرة الحقّ والعدل عمارة البلدان التي بها معايش الناس والدوابّ والطير وسكان الأرض.

ولما نظرت في ذلك وجدت المقاتِلة[٣] أُجَراء أهل العمارة، ووجدت أهل العمارة أجراء المقاتلة، فإنهم يطلبون أجورهم من أهل الخراج وسكان البلدان لمدافعتهم عنهم، ومجاهدتهم من ورائهم، فحَقٌّ على أهل العمارة أن يوفُّوَهم أجورهم؛ فإن عمارتهم تتمّ بهم، وإن أبطؤوا عليهم بذلك أو هنوهم[٤] فقوي عدوّهم؛ فرأيت من الحق على أهل الخراج ألا يكون لهم من عمارتهم إلا ما أقام معايشهم، وعمروا به بلدانهم، ورأيت ألا أجتاحهم وأستفرغَ ذات أيديهم للخزائن

(١) المرمّة: موضع الرمّ.
(٢) برأ البرية: خلقها.
(٣) المقاتلة: جمع المقاتل: وهو من يصلح للقتال أو يباشره.
(٤) أوهنوهم: أضعفوهم في الأمر والعمل والبدن.

والمقاتلة، فإني إذا فعلت ذلك ظلمت المقاتلة مع ظلم أهل الخراج؛ وذلك أنه إذا فسد العامر فسد المعمور، وكذلك أهل الأرض والأرض، فإنه إذا لم يكن لأهل الخراج ما يعيشهم ويعمرون به بلادهم هلكت المقاتلة الذين قوّتهم بعمارة الأرض؛ فلا عمارة للأرض إلا بفضل ما في يد أهل الخراج؛ فمن الإحسان إلى المقاتلة والإكرام لهم أن أرفُق بأهل الخراج وأعمر بلادهم، وأَدَع لهم فضلاً في معايشهم؛ فأهل الأرض وذوو الخراج أيدي المقاتلة والجند وقوتُهم، والمقاتلة أيضًا أيدي أهل الخراج وقوتُهم.

ولقد ميزت ذلك بجهدي وطاقتي، وفكرت فيه فما رأيت أن أفضّل هؤلاء على هؤلاء إذ وجدتهما كاليدين المتعاونتين والرجلين المترادفتين.

ولعمري ما أعفى أهلَ الخراج من الظلم من أضرّ بالمقاتلة، ولا كفّ الظلمُ عن المقاتلة مَنْ تعدّى على أهل الخراج. ولولا سفهاء الأساورة[١] لأبقوا على أهل الخراج والبلاد إبقاء الرجل على ضيعته التي منها معيشته وحياته وقوّته، ولولا جهّال أهل الخراج لكفّوا عن أنفسهم بعض ما يحتاجون إليه من المعايش إيثارًا للمقاتلة على أنفسهم.

قال: ولما فرغنا من إصلاح العامة والخاصة بهذين الركنين من أهل الخراج والمقاتلة كان ذلك ثمرةَ العدل والحقّ الذي دبّر الله العظيمُ خلائقه به، وشكرت الله على نعمته والمقاتلةَ في أداء حقه على مواهبه، وأحكمنا أمر المقاتلة وأهلِ الخراج ببسط العدل، وأقبلنا بعد ذلك على السِّيرَ والسُّنَن، ثم بدأنا بالأعظم فالأعظم من أمورنا، والأكبرَ فالأكبر عائدًا على جندنا ورعيتنا، ونظرنا في سِيَر آبائنا من لَدُنْ بستاسف إلى مُلْكِ قُباذ أقربِ آبائنا. ثم لم نترك إصلاحًا في شيء من ذلك إلا أخذناه، ولا فسادًا إلا أعرضنا عنه، ولم يَدْعُنا حبّ الآباء إلى قبول ما لا خير فيه من السنن، ولكنّا آثرنا حبَّ الله وشكره وطاعته.

ولما فرغنا من النظر في سير آبائنا وبدأنا بهم، وكانوا أحق بذلك، فلم نَدَع حقًا إلا آثرناه، ووجدنا الحق أقرب القرابة. نظرنا في سير أهل الروم والهند فاصطفينا محمودها، وجعلنا عيار[٢] ذلك عقولنا، وميزانه بأحلامنا، فأخذنا من جميع ذلك ما

---

(١) الأساورة: جمع الإسْوار، وهو قائد الفرس؛ والأصل أساورة الفرس وكانوا رماة الحدق.

(٢) عيار: أي المعيار، وهو ما جعل نظامًا للشيء يقاس به ويسوى.

زيّن سلطاننا، وجعلناه سنة وعادة، ولم تنازعنا[1] أنفسنا إلى ما تميل به أهواؤنا، وأعلمناهم ذلك وأخبرناهم به، وكتبنا إليهم بما كرهنا لهم من السِّيَر ونهيناهم عنه وتقدّمنا إليهم فيه؛ غير أنا لم نُكرِه أحدًا على غير دينه وملّته، ولم نحسُدهم ما قِبَلنا، ولا منع ذلك أنقباضٌ[2] بعلم ما عندهم، فإن الإقرار بمعرفة الحقّ والعلم والاتباع له من أعظم ما تزيّنت به الملوك. ومن أعظم المضرة على الملوك الأَنَفةُ[3] من العلم والحميّة من طلبه، ولا يكون عالمًا من لا يتعلّم.

ولما استقصيت ما عند هاتين الأمتين من حكمة التدبير والسياسة، ووصلت بين مكارم أسلافي، وما أحدثتُه بالرأي، وأخذت به نفسي، وقبلته عن الملوك الذين لم يكونوا منا، وثبت على الأمر الذي نلت به الظفر والخير، ورفضت سائر الأمم لأني لم أجد عندهم رأيًا ولا عقولاً ولا أحلامًا[4]، ووجدتهم أصحاب بَغْي وحَسَد وكَلَب وحرص وشحّ وسوء تدبير وجهالة ولؤم عهد وقلة مكافأة. وهذه أمور لا تصلح عليها ولاية، ولا تتمّ لها نعمة.

قال أبن مسكويه[5]: وقرأت مع هذه السير في آخر هذا الكتاب الذي كتبه أنو شروان في سيرة نفسه أن أنو شروان لما فرغ من أمور المملكة وهذبها جمع إليه الأساورة مع القوّاد والعظماء والمرازبة والنساك والموابذة وأماثل الناس معهم فخطبهم فقال:

ذكر خطبة أنو شروان

قال: أيها الناس، أَحْضِروني فهمَكم، وأرعَوْني أسماعَكم، وناصحوني أنفسَكم، فإني لم أزل واضعًا سيفي على عنقي منذ وَلِيتُ عليكم غرضًا للسيوف والأسنة، وكل ذلك للمدافعة عنكم، والإبقاء عليكم، وإصلاح بلادكم مرة بأقصى الشرق، وتارة في آخر المغرب، وأخرى في نهاية الجنوب، ومثلها في جانب الشمال، ونقلت الذين اتهمتهم إلى غير بلادهم، ووضعت الوضائع في بلدان الترك، وأقمت بيوت النيران بقسطنطنية، ولم أزل أصعد جبلاً شامخًا وأنزل عنه، وأطأ

---

(١) تنازعنا أنفسنا: أي تشوقنا.
(٢) الانقباض: الإمساك.
(٣) الأنفة: العزّة والحميّة.
(٤) الأحلام: جمع الحلم، وهو العقل؛ أو الأناة وضبط النفس، والأول هو المراد.
(٥) ابن مسكويه: هو أحمد بن محمد بن يعقوب، الملقب مسكويه.. وقد تقدمت ترجمته.

حزونه[١] بعد سهوله، وأصبر على المخمصة[٢] والمخافة، وأكابد البرد والحر، وأركب هول البحر وخطر المفازة؛ إرادة هذا الأمر الذي قد أتمه الله لكم: من الإثخان[٣] في الأعداء، والتمكن في البلاد، والسعَة في المعاش، ودَرْك[٤] العز، وبلوغ ما نلتم؛ فقد أصبحتم بحمد الله ونعمته على الشرف الأعلى من النعمة، والفضل الأكبر من الكرامة والأمن، وقد هزم الله أعداءكم وقتّلهم؛ فهم بين مقتول هالك، وحيّ مطيع لكم سامع؛ وقد بقي لكم عدوّ عددهم قليل، وبأسهم شديد، وشوكتهم عظيمة؛ وهؤلاء الذين بقَوْا أخوف عندي عليكم، وأحرى أن يهزِموكم ويغلِبوكم من الذين غلبتموهم من أعدائكم، وأصحاب السيوف والرماح والخيول؛ وإن أنتم أيها الناس غلبتم عدوّكم هذا الباقي، غَلَبَتكم لعدوّكم الذين قاتلتم وحاصرتم، فقد تمّ الظَّفَر والنصر، وتمّت فيكم القوّة، وتمّ بكم العزّ، وتمّت عليكم النعمة، وتمّ لكم الفضل، وتمّ لكم الاجتماع والألفة والصحة والسلامة؛ وإن أنتم قصّرتم ووهنتم[٥]، وظفِرَ هذا العدوّ بكم فأين الظَّفَر الذي كان منكم، فاطلبوا أن تقتلوا من هذا العدو الباقي مثل ما قتلتم من ذلك العدوّ الماضي؛ وليكن جدّكم في هذا واجتهادكم واحتشادكم أكبرَ وأجلّ وأحزم وأعزم وأصح وأشدّ، فإن أحق الأعداء بالاستعداد له أعظمُهم مكِيدة، وأشدهم شوكة، وليس الذي كنتم تخافون من عدوّكم الذي قاتِلتم بقريب من هؤلاء الذين آمركم بقتالهم الآن؛ فاطلبوه وصلوا ظفرًا بظفر، ونصرًا بنصر، وبقوّة بقوّة، وتأييدًا بتأييد، وعزمًا بحزم وعزم، وجهادًا بجهاد؛ فإن بذلك اجتماعَ إصلاحكم، وتمامَ النعمة عليكم، والزيادة في الكرامة من الله لكم، والفوزَ برضوانه في الآخرة.

ثم اعلموا أن عدوّكم من الترك والروم والهند وسائر الأمم لم يكونوا ليبلغوا منكم ـ إن ظهروا[٦] عليكم وغلبوكم ـ مثل الذي يبلغ هذا العدوّ منكم إن غلبكم وظهر عليكم؛ فإن بأسَ هذا العدوّ أشدُّ، وكيدَه أكبرُ، وأمرَه أخوف من ذلك العدوّ.

يا أيّها الناس، إني قد نَصِبْتُ[٧] لكم كما رأيتم، ولقِيتُ ما قد علمتم بالسيف والرُّمح والمفاوز والبحار والسهولة والجبال؛ أقارع عدوًّا عدوًّا، وأُكالب جنْدًا جنْدًا،

---

(١) الحزون: جمع الحزن، وهو من الأرض ما غلظ.
(٢) المخمصة: خلاء البطن جوعًا. (٣) يقال: أثخن في العدو: أي بالغ في قتاله.
(٤) الدرك: اسم مصدر من الإدراك. (٥) وهنتم: أي ضعفتم.
(٦) يقال: ظهر على عدوّه: أي غلبه.
(٧) يقال: نصب الرجل بكسر الصاد، أي أعيا وتعب.

وأكابد ملِكًا ملِكًا، لمْ أتضرّعَ إليكم هذا التضرّعَ في قتال أولئك الجنود والملوك، ولم أسألْكم هذه المسألةَ في طلب الجِدّ منكم، والاّجتهادِ والاّحتفالِ والاّحتشادِ، وإنما فعلت هذا لعِظَم خطره، وشدّة شوكته، ومخافةِ صولتِه بكم. وإن أنا أيها الناس لم أغلِبْ هذا العدوَّ وأنْفِه عنكم، فقد أبقيت فيكمْ أكبر الأعداء، ونفيت عنكم أضعفها، فأعينوني على نفي هذا العدوّ المَخُوفِ عليكم، القريبِ الدار منكم؛ فأُنشِدكم اللّهَ أيها الناس لَمّا اّعتنموني عليه حتى أنفيَه عنكم، وأخرجَه من بين أظهركم[1] فيتمَّ بلائي عندكم، وبلاءُ الله فيكم عندي، وتتمّ النعمةُ عليّ وعليكم، والكرامةُ من الله لي ولكم، ويتمّ هذا العز والنصر، وهذا الشرفُ والتمكين، وهذه الثروة والمنزلة.

يا أيّها الناس، إني تفكرت بعد فراغي من كتابي هذا، وما وصفتُ من نعمة الله علينا في الأمر الذي لمّا غلب دارا الملوكَ والأممَ وقهرها، واستولى على بلادها، ولمّا تحكّم أمر هذا العدوّ، هلك وهلكت جنوده بعد السلامة والظّفَر والنصر والغلبة؛ وذلك أنه لم يرض بالأمر الذي تمّ له به المُلك، واشتدّ به السلطان، وقوي به على الأعداء، وتمّت عليه به النعمةُ، وفاضت عليه من وجوه الدنيا كلِّها الكرامةُ، حتى اّحتال له بوجوه النميمة والبغي[2]؛ فدعا البغي والحسد فتقوّى به وتمكّن، ودعا الحسدُ بغضَ أهل الفقر لأهل الغنى، وأهل الخمول لأهل الشرف؛ ثم أتاهم الإسكندر وهم على ذلك من تفرُّق الأهواء، واّختلاف الأمور، وظهور البغضاء وقوّة العداوة فيما بينهم والفساد منهم. ثم اّرتفع ذلك إلى أن قتله صاحب حرسه وأمينه على دمه، للذي شمل قلوب العامة من الشر والضغينة[3]، ونبت فيها من العداوة والفُرقة، وكفى الإسكندر مؤونة نفسه؛ وقد اتعظتُ بذلك اليوم وذكرتُه.

يا أيُّها الناس، فلا أسمعنّ في هذه النعمة تفرقًا ولا بغيًا ولا حسدًا ظاهرًا، ولا وشاية ولا سعاية، فإن الله قد طهّر من ذلك أخلاقنا ومُلْكنا، وأكرم عنه ولايتنا، وما نلت ما نِلت بنعمة ربنا وحمده بشيء من الأمور الخبيثة التي نفتها العلماء، وعافتها الحكماء؛ ولكن نلت هذه الرتبة بالصحة والسلامة، والحب للرعية، والوفاء والعدل والاستقامة والتؤدة. وإنما تركنا أن نأخذ عن هذه الأمم التي سميناها، أعني من الترك والبربر والزنج والجبال وغيرهم، مثل ما أخذنا عن الهند والروم لظهور هذه الأخلاق فيهم وغلبتها عليهم. ولا تصلح أمة قط وملكها على ظهور هذه الأخلاق التي هي أعدى أعدائكم.

---

(١) بين أظهركم: أي بينكم.
(٢) البغي: تجاوز الحد، والاعتداء؛ أو التسلط والظلم.
(٣) الضعينة: الحقد الشديد.

يا أيُّها الناس، إن فيما بسط الله علينا بالسلامة والعافية والاستصلاح غِنًى لنا عما نطلب بهذه الأخلاق الرديئة المشؤومة؛ فأكفوني في ذلك أنفسَكم، فإنّ قهرُ هذه الأعداء أحبُّ إليّ وخير لكم من قهر أعدائكم من الترك والروم. فأما أنها أيها الناس فقد طِبتُ نفسًا بترك هذه الأمور ومحقها[١] وقمعها ونفيها عنكم.

يا أيُّها الناس، إني قد أحببت أن أنفيَ عدوّكم الظاهر والباطن؛ فأما الظاهر منهما فإنّا بحمد الله ونعمته قد نفيناه وأعاننا الله عليه وحصد لنا شوكته، وأحسنتم فيه وأجملتم وآسيتم وأجهدتم، فٱفعلوا في هذا العدوّ كما فعلتم في ذلك العدوّ، وٱعمَلوا فيه كالذي عَمِلتم في ذلك، وٱحفظوا عنّي ما أوصيكم به فإني شفيق عليكم ناصح لكم.

أيها الناس، من أحيا هذه الأمورَ فينا فقد أفسد بلاءَه عندنا بقتاله مَنْ كان يقاتلنا من أعدائنا، فإن هذه أكثر مضرةً، وأشدّ شوكةً، وأعظم بليةً، وأضر تَبِعةً. وٱعلموا أن خيركم يا أيها الناس من جمع إلى بلائه السالف عندنا المعونةَ لنا على نفسه في هذا الغابر[٢]. وٱعلموا أن من غلبه هذا غلبه ذاك، ومن غلب هذا فقد قهر ذاك؛ وذلك أن بالسلامة والألفة والمودّة والاجتماع والتناصح منكم يكون العزّ والقدرة والسلطان، ومع التحاسد والبَغْي والنميمة والسبِّ يكون ذهاب العزّ، وٱنقطاع القوّة وهلاك الدنيا والآخرة؛ فعليكم بما أمرناكم به، وٱحذروا ما نهيناكم عنه، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، عليكم بمواساة أهل الفاقة[٣]، وضيافة السابلة[٤]، وأكرموا جوار من جاوركم، وأحسنوا صحبة من دخل فيكم من الأمم، فإنهم في ذمّتي، ولا تَجْبَهوهم ولا تظلموهم، ولا تَسَلَّطوا عليهم، ولا تُحرجوهم، فإن الإحراج يدعو إلى المعصية، ولكن اصبِروا لهم على بعض الأذى، واحفظوا أمانتكم وعهدكم، واحفظوا ما عَهِدت إليكم من هذه الأخلاق، فلا تَصلُحوا إلا معها، وبالله تعالى ثقتنا في الأمور كلها. ثم هلك أنو شروان بعد ثمان وأربعين سنة من ملكه.

* * *

ثم ملك بعده ابنه هرمز بن كسرى أنو شروان. وأمه قاقم ابنة خاقان ملك الترك. وقيل: بل ابنة ملك من ملوك الخزر. قال: وكان كثيرَ الأدب، حسن السياسة، جميل النية، وافر الإحسان إلى الضعفاء والمساكين.

---

(١) محق الشيء: أي أبطله ومحاه. (٢) الغابر: الباقي.
(٣) الفاقة: الفقر والحاجة.
(٤) المراد بالسابلة هنا: المارون على الطريق المسلوك.

وكان من سيرته المرتضاة أنه يُجري الخير والعدل على الرعية، ويشدّد على العظماء المتسلطين على الضعفاء. وبلغ من عدله أنه كان يسير إلى المياه لِيَصِيفَ[١] هناك، فأمر فنودِي في مسيره أن يُتحامى مواضعُ الحروث[٢]، ولا يسيرُ فيها الراكب لئلا يضروا بأحد، ووكّل بتعهد ما يجري في عسكره، ومعاقبةِ من تعدّى أمره وتغريمه لصاحب الحرث عوضًا عما أفسده له. وكان ٱبنه كسرى أبرويز في عسكره فغار مركَبٌ من مراكبه ووقع في حرث كان على الطريق، فأفسد ما مرّ عليه، فأُخذ ودُفع إلى الرجل الموكل من جهة هرمز بمعاقبة من أفسد هو أو دوابُّه شيئًا من الحرث، فلم يجسر الرجل الموكل من جهة هرمز أن ينفِّذ أمر هرمز في ٱبنه أبرويز، فرفع الأمر إلى هرمز فأمره أن يجدع[٣] أذنيه، ويبتُرَ ذنبَه، ويغرّم كسرى أبرويز لصاحب الحرث؛ فخرج الرجل لإنفاذ الأمر، فدس له كسرى رهطًا[٤] من العظماء يسألونه التثبت في الأمر، فكلّموه فلم يُجِب إلى ذلك، فسألوه تأخير ذلك الأمر في المركَبِ حتى يكلموا هرمز، ففعل، ولقي أولئك الرهطُ هرمزًا وأعلموه أن ذلك المركب الذي غار إنما غار زَعارَةً[٥]، وأنه أُخِذَ لوقته، وسألوه أن يأمر بالكف عن جدعه وبتره، لما في ذلك من سوء الطِّيرَةِ[٦] فلم يجبهم إلى ما سألوه، وأمر بالمركب فجدعت أذناه وبتر ذنبه، وغَرِم كسرى كما يغرَم غيره من الجند ثم ارتحل.

قال: وركب ذات يوم في أوان إيناع الكَرْم يريد ساباط[٧] المدائن، وكان ممرُّه على بساتين وكروم، فنظر بعض الأَساوِرَة إلى كرم فرأى حِصْرِما، فأصاب منه عناقيدَ ودفعها إلى غلامه وقال: اذهب بها إلى المنزلة وٱطبخها بلحم وٱصنع منها مرقة فإنها نافعة في هذا الإبّان، فأتاه حافظ ذلك الكرم فلزمه وصاح به، فبلغ إشفاق الأُسوار من عقوبة هرمز أن دفع إلى حافظ الكرم مِنْطَقة[٨] محلاةً بالذهب كانت في وسطه، وسأله أن يأخذها عوضًا عما أخذه من الحِصْرِم، ولا يرفع الأمر إلى الملك.

---

(١) صيف بالمكان: أي أقام به صيفًا. (٢) الحروث: جمع الحرث، وهي الزّرع.

(٣) جدع أنفه: أي قطعه.

(٤) الرهط: الجماعة من ثلاثة أو سبعة إلى عشرة، أو ما دون العشرة.

(٥) زعارة: أي شراسة وسوء خلق. (٦) الطّيرة: طيرة الغضب أو الشباب ونحوه.

(٧) ساباط: أي ساباط كسرى: وهو بالمدائن، موضع معروف؛ قال أبو المنذر: إنما سمّي ساباط الذي بالمدائن بساباط بن باطا كان ينزله فسمّي به، وهو أخو النخيرجان بن باطا الذي لقي العرب في جمع من أهل المدائن. والساباط عند العرب: سقيفة بين دارين من تحتها طريق نافذ. (معجم البلدان لياقوت).

(٨) المنطقة: ما يشد به الوسط.

فهذه كانت سيرته في العدل، وهذا كان خوف جنده وأساورته منه. وكان مظفَّرًا منصورًا، وكان أديبًا داهيًا، إلا أنه كان مُقْصِيًا للأشراف وأهل البيوتات والعلماء. وقيل: إنه قتل ثلاثة عشر ألف رجل وستمائة رجل منهم، ولم يكن له رأي إلا في تآلف السِّفْلة وأسقاط الناس واستصلاحِهم. وحبس خلقًا كثيرًا من العظماء، وحطّ مراتب جماعة كبيرة، وقصّر بالأساورة ففسدت عليه نيات أكابر جنده وعظماء مملكته، فكان عاقبة سوء هذا التدبير أن خرج عليه جماعة من الملوك منهم شابه شاه ملك الترك في ثلاثمائة ألف مقاتل، وسار إلى باذَغِيس[1]، وذلك بعد مضيّ إحدى عشْرة سنة من ملكه، وخرج عليه ملك الروم في ثمانين ألف مقاتل، وخرج عليه ملك الخزر حتى سار إلى باب الأبواب، وخرج عليه من العرب خلق كثير، فنزلوا في شاطىء الفُرات وشنّوا الغارات على أهل السواد، فاجترأ عليه أعداؤه وغزوا بلاده.

فأما شابه شاه ملك الترك فإنه أرسل إلى هرمز وإلى عظماء مُلكه من الفرس يؤذنهم بإقباله في جيوشه زُمَرًا زُمَرًا، وأعلمهم أنه يريد غزو الروم، ويسلك إليهم من بلادهم، وأمرهم أن يعقدوا له قناطر على كل نهر يمرّ عليه في بلادهم من الأنهار التي لا قناطر عليها، وكذلك في الأودية، وأن يسهّلوا له الطرق والمسالك وقال: فإنني قد أجمعت على المسير إلى بلاد الروم من بلادكم، فاستفظع هرمز ما ورد عليه من ذلك، وجمع أكابر مملكته وعرض ذلك عليهم، وشاورهم فيما يفعله، فاجتمعت الآراء على قصد ملك الترك وحربه، فندب إليه رجلًا من أهل الرأي والنجدة يقال له بهرام جُوبين، فاختار بهرام من العسكر اثني عشر ألفًا من الكهول دون الشباب، وسار بهم حتى انتهى إلى هَراة[2] وباذغيس، ولم يشعر شابه شاه ملك الترك ببهرام حتى وافاه ونزل بالقرب من معسكره، فكانت بينهما حروب كثيرة آخرها أن بِهرام جوبين قتال شابه شاه برمية رماه بها فاستباح عسكره، وأقام بهرام موضعه، فوافاه برموذة بن شابه وكان يعدل بأبيه، فحاربه فهزمه بهرام جوبين وحصره في بعض الحصون، ثم ألحّ عليه حتى استسلم له، فوجهه أسيرًا إلى هرمز، وغَنِم كنوزًا عظيمة، فيقال إنه حمل إلى هرمز من الأموال والجواهر والأواني وسائر الأمتعة وقر[3] مائتي ألف وخمسين ألف بعير في مدّة تلك الأيام، فشكره هرمز على ذلك، وأمره أن يتقدّم بمن معه إلى بلاد الترك فلم يره بهرام صوابًا، ثم خاف سطوة هرمز.

---

(١) باذغيس: ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة ومرو الروذ.

(٢) هراة: مدينة عظيمة مشهورة بخراسان خربها التتر.

(٣) الوقر: أي الحمل الثقيل، جمع أوقار.

وحُكِيَ له أن الملك يستقلّ ما حمله إليه من الغنائم في جنب ما وصل إليه منها، وأنه يقول في مجالسه قد ترفّه بهرام واستطاب الدَّعة، وبلغ ذلك الجند فخافوا مثل خوفه. فيقال إن بهرام جمع ذات يوم وجوه عسكره وأجلسهم على مراتبهم ثم خرج عليهم في زيّ النساء بيده مِغْزلٌ وقطن حتى جلس في موضعه؛ وحُمِل إلى كل واحد من أولئك القوم مِغزل وقطن ووضع بين أيديهم، فامتعضوا من ذلك وأنكروه وقالوا: ما هذا الزيّ! فقال بهرام: إن كتاب الملك ورد عليّ بذلك ولا بدّ من امتثالي أمره إن كنتم طائعين له، فأظهروا أنفة وحميّة وأجمعوا كلهم على خلع هرمز، فخلعوه وأظهروا أن ابنه كسرى أبرويز أصلح للملك منه، وساعدهم على ذلك خلق كثير ممن كان بحضرة هرمز.

ولما اتصل ذلك بهرمز أنفذ جيشًا كثيفًا مع بعض قوّاده لمحاربة بهرام جوبين، فأشفق أبرويز من الحديث وخاف سطوة أبيه ببهرام، فهرب إلى أذربيجان، فاجتمع إليه هناك عدّة من المَرازِبة ومن الأصبهبذين، فأعطوْه بيعتهم ولم يُظهر أبرويز شيئًا، وأقام بمكانه إلى أن بلغه قتل القائد الذي كان قد بعثه هرمز لمحاربة بهرام جوبين، وهو أذبيحشيش، وهزيمة الجيش الذي كان معه واضطراب أمر هرمز أبيه، وكتبت أخت أذبيحشيش إلى كسرى أبرويز تخبره بضعف أبيه هرمز، وأعلمته أن العظماء والوجوه قد أجمعوا على خلعه، وأن بهرام جوبين إن سبقه إلى المدائن احتوى على الملك. قال: ولم يلبث العظماء أن وثبت على هرمز وفيهم بِنْدَوَيْه وبسطام خالا أبرويز وخلعوه وسملوا عينيه، وتركوه تحرّجًا من قتله. فكان ملكه إلى أن خُلِع وسُمِل اثنتي عشرة سنة.

* * *

ثم ملك بعده ابنه كسرى أبرويز بن هرمز بن كسرى أنو شروان. قال: ولما ملك بادر بمن معه إلى المدائن وسبق إليها بهرام جوبين وتتوّج وجمع إليه الوجوه والأشراف، وجلس على السرير ومنّاهم، وأمرهم بالسمع والطاعة، فاستبشر الناس به ودعَوْا له وأجابوه ودخلوا تحت طاعته. فلما كان في اليوم الثاني أتى إلى أبيه فسجد له، واعتذر وقال: إنك تعلم أيها الملك إنني بريء مما جناه إليك هؤلاء القوم الذين فعلوا بك ما فعلوا، وإنما هربتُ خوفًا منك وإشفاقًا على نفسي، فصدّقه هرمز وقال: يا بنيّ! إن لي إليك حاجتين فاسعفني بهما، إحداهما: أن تنتقم لي ممن عاون على خلعي وسمَل عينيّ ولا تأخذك بهم رأفة، والأخرى تُؤْنسني كل يوم بثلاثة نفر ممن لهم أصالة رأي، وتأذن لهم بالدخول إليّ؛ فتواضع له أبرويز وقال: عمرك اللّهَ أيها

الملك، إن المارِق[١] بهرام قد أطلنا[٢] ومعه أهل الشجاعة والنجدة، ولسنا نقدِر أن نمدّ يدًا إلى من أتى إليك ما أتى؛ فإنهم وجوه أصحابك؛ ولكن إن أمكنني الله من المنافق فأنا خليفتك وطوع أمرك.

قال: وأما بهرام جوبين فإنه ورد إلى النهروان[٣]، فخرج كسرى أبرويز إليه وواقفه بها وجعل النهر بينه وبينه، ودار بينهما كلام كثير. كل ذلك في استصلاح بهرام ورجوعه إلى الطاعة، وهو لا يُجيب إلى ذلك ولا يردّ إلا ما يسوء أبرويز حتى يئس منه وأجمع على حربه والتقَوْا واقتتلوا. وكان بينهما أخبار كثيرة وأحاديث طويلة آخرها أن أبرويز ضَعُفَ عنه بعد أن قتل بيده ثلاثة نفر من الأتراك، وكانوا من أشدهم وأعظمهم شجاعة ووَسامة، وكانوا قد التزموا لبهرام بقتل أبرويز، وضمن لهم بهرام على ذلك أموالاً عظيمة.

قال: ثم رأى أبرويز من أصحابه فتورًا فسار إلى أبيه وشاوره فرأى المسير إلى الروم، وأحرز[٤] نساءه وشخَص في عدّة يسيرة فيهم بِنْدَوَيْه وبسطام وكُرْدى أخو بهرام؛ لأنه كان معاديًا لأخيه، شديد الطاعة والنصيحة لأبرويز. فلما خرجوا من المدائن خاف القوم من بهرام، وأشفقوا أن يردّ هرمز إلى الملك، ويكاتب ملك الروم عن هرمز في ردّهم فيتلفوا؛ فذكروا ذلك لأبرويز واستأذنوه في إتلاف هرمز فلم يُحِرْ جوابًا، فانصرف بِنْدَوَيْه وبسطام وطائفة معهما إلى هرمز فخنقوه ثم رجعوا إلى كسرى فقالوا: سر على خير طالع، وأيمن طائر؛ فحثّوا[٥] دوابّهم وساروا إلى الفُرات فقطعوه، وأخذوا طريق المفازة بدلالة رجل يقال له: خُرْشِيذان وساروا إلى بعض الديارات التي في أطراف العمارة، فلما أوطنوه للراحة لحقتهم خيل بهرام جوبين، فلما نَذِروا بهم أَنْبَه بندويه أبرويزَ من نومه وقال له: احتل لنفسك فإن القوم قد طلبوك. فقال كسرى: ما عندي حيلة. فقال بندويه: إني سأحتال لك بأن أبذل نفسي دونك؛ قال: وكيف ذلك؟ قال: تدفع لي ثوبك وزينتك لأعلُوَ الدير وتنجو أنت ومن معك من وراء الدير، فإن القوم إذا وصلوا ورأوا هيئتك عليّ اشتغلوا بي عن غيري،

---

(١) المارق: الخارج من دينه. (٢) أطلنا: أشرف علينا.

(٣) النهروان: هي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي حدها الأعلى متصل ببغداد وفيها عدة بلاد متوسطة؛ وقد أورد صاحب معجم البلدان قصة طريفة في سبب تسميتها بذلك..

(٤) يقال: حرز حرازة: إذا امتنع وتحصّن؛ ويقال: احترز منه: إذا توقاه.

(٥) حثّه: أي أعجله إعجالاً متصلاً.

وطاولتهم حتى تفوتهم، ففعل ذلك. وخرج أبرويز ومن معه، ثم وافت خيل بهرام الدير وعليهم قائد لهم يقال له بهرام بن سِياوش فاطلع عليهم بندويه من فوق الدير وعليه زينة أبرويز وثيابه، وأوهمهم أنه هو، وسأله أن يُنظِره إلى غد ليصير في يده سليمًا ويسير به إلى بهرام جوبين، فأمسك عنه وحفظ الدير ليلة كاملة بالحرس. فلما أصبح اطلع عليه في بزّته وحليته وقال: إن عليّ وعلى أصحابي بقيةَ شغل من استعداد وصلوات وعبادات فأمهلنا ولم يزل يدافعه حتى مضى عامة النهار وأمعن أبرويز، وعلم بندويه أنه قد فاتهم، ففتح الباب حينئذ وأعلم بهرام سياوش بأمره، فانصرف به إلى بهرام جوبين فحبسه.

وأما بهرام جوبين فإنه دخل المدائن وجلس على سرير الملك، وجمع العظماء فخطبهم وذمّ أبرويز ودار بينهم كلام، فكان كلهم منصرفًا عنه إلا أن بهرام تتوّج وانقاد له الناس خوفًا، ثم إن بهرام بن سياوش واطأ بندويه على الفتك ببهرام جوبين، فظهر بهرام على ذلك، فقتل سياوش وأفلت بندويه ولحق بأذربيجان، وسار أبرويز حتى أتى أنطاكية فكاتب ملك الروم منها، وراسله بجميع من كان معه وسأله نصرته، فأجابه إلى ذلك وزوّجه ابنته مريم وحملها إليه، وأمدّه بثياذوس أخيه ومعه ستون ألفًا من المقاتلة[1]، عليهم رجل يقال له سرجس، يتولى تدبير أمرهم، ورجل آخر من أبطال الروم، كان يعدّ بينهم بألف رجل، وسأله ترك الأتاوة التي كان أبوه ومَنْ قبله من ملوك الفرس يستأدونها من ملوك الروم إذا هو مَلَك، فأجابه إلى ذلك، وفرح بالجيش الذي أمدّهُ به ملك الروم، واغتبط بهم وأراحهم خمسة أيام، ثم عرضهم وعرّف عليهم العرفاء وسار بهم حتى نزل من أذربيجان في صحراء تدعى الدنق فوافاه هناك بندويه ورجل من أصبهبذي الناحية يقال له موسيل في أربعين ألف مقاتل، فانضمّوا إليه، ووافاه الناس بالخيل من أصبهان وفارس، وانتهى إلى بهرام جوبين مكانه بصحراء الدنق، فشخص نحوه من المدائن، فجرت بينهما حروب شديدة قتل فيها الكميّ[2] الروميّ بضربة ضربه بها بعض الفرس على رأسه فقدّ رأسه وبدنه، وعاد فرسُه بنصف بدنه الباقي إلى المعركة.

فلما رآه أبرويز استضحك؛ فعظم ذلك على الروم وعاتبوا أبرويز وقالوا له: هذا جزاؤنا منك! يقتل كميُّنا وواحد عصره في طاعتك وبين يديك ونصحك ونصرتك

---

(١) يقال: واطأ فلانًا على الأمر: إذا وافقه.

(٢) الكميّ: الشجاع المقدام الجريء، كان عليه سلاح أو لم يكن.

وأنت تضحك لقتله! فاعتذر بأن قال: إني والله ما ضحكت لما تكرهون. ولقد شقّ عليّ أن فَقَدتُ مثله أكثر مما شقّ عليكم، ولكني رأيتكم تستصغرون شأن جوبين وتُنكرون هربي منه، فذكرت ذلك من قولكم الآن وعلمت أنكم برؤيتكم هذه الضربة تعذرونني وتعلمون يقينًا أن هربي إنما كان من أمثال هؤلاء القوم الذين هذا مبلغ نكايتهم[١] في الأبطال. ويقال إن أبرويز حارب بهرام منفردًا عن العسكر بأربعة عشر رجلاً منهم كردي أخو جوبين وبندويه وبسطام حربًا شديدًا وصل فيها بعضهم إلى بعض، وآخر الأمر أن أبرويز استظهر استظهارًا يئس منه بهرام جوبين، وعلم أنه لا حيلة له فيه ولا قدرة عليه، فانحاز عنه نحو خراسان، ثم سار إلى الترك، وسار أبرويز إلى المدائن بعد أن فرق في الجنود من الروم أموالاً عظيمة وصرفهم إلى ملك الروم.

قال: ولبث بهرام جوبين في الترك مكرمًا عند الملك حتى احتال عليه كسرى[٢] أبرويز بتوجيهه رجلاً يقال له هرمز إلى الترك بجوهر نفيس وغيره من الهدايا إلى امرأة ملك الترك حتى دسّت لبهرام من قتله؛ فاغتمّ خاقان لموته وأرسل إلى أخته كردية وامرأته يعلمهما بلوغ الحوادث ببهرام، وسأل كردية أخت بهرام أن يتزوّجها وفارق امرأته خاتون بهذا السبب، فأجابته كردية جوابًا لينًا، ثم ضمت إليها مَنْ كان مع أخيها بهرام من المقاتلة، وخرجت بهم من بلاد الترك إلى حدود مملكة فارس، فأتبعها ملك الترك أخاه نطرا في اثني عشر ألف فارس. فيقال إن كردية قاتلت وقتلت نطرًا بيدها، ومضت لوجهها حتى بلغت حدود أرض فارس، وكتبت إلى أخيها كردي فأخذ لها أمانًا من أبرويز، فلما قدِمت عليه اغتبط بها وتزوّج بها أبرويز.

قال: ولم يزل أبرويز يلاطف ملك الروم الذي نصره وأمدّه ويهاديه إلى أن وثبت الروم عليه[٣] في شيء أنكروه منه فقتلوه وملّكوا غيره، فبلغ ذلك أبرويز فتألم له وأوى إلى أبرويز ابن الملك المقتول، فتوجه أبرويز وملّكه على الروم، ووجّه معه جنودًا كثيفة مع شهرياز فدوّخ بهم البلاد. وملك صاحب كسرى بيت المقدس وأخذ خشبة الصلب وبعث بها إلى كسرى، وذلك في أربع وعشرين سنة من ملكه، ثم

---

(١) النكاية في الأبطال: الإيقاع بهم، وغلبتهم وهزيمتهم.

(٢) كسرى: المراد به لقب شاهنشاه الفرس، وهو أبرويز بن كسرى أبرويز بن هرمز بن كسرى أنو شروان.

(٣) وثب عليه: أي غالبه وساوره.

احتوى على مصر والإسكندرية وبلاد النوبة، وبعث مفاتيح ثغر الإسكندرية إلى كسرى في سنة ثمان وعشرين من ملكه، وقصد قسطنطينية فأناخ[١] على ضفة الخليج الذي هو بالقرب منها وخيم هنالك، فأمره كسرى فخرّب بلاد الروم غضبًا على أهلها لما انتهكوا من ملكهم وانتقامًا له، ومع ذلك لم يخضعوا لأبن ملكهم المقتول ولا منحوه الطاعة، ولا مال إليه واحد منهم؛ غير أنهم قتلوا الملك الذي ملّكوه عليهم بعد أبيه المسمى قوقالما ظهر لهم من فجوره وسوء تدبيره؛ وملّكوا عليهم رجلاً يقال له هرقل. فلما رأى هرقل عظم ما فيه أهل بلاد الروم من تخريب جنود فارس بلادَهم، وقتْلِهم مقاتِلتهم، وسبيِهم ذراريهم، واستباحتِهم أموالهم تضرّع إلى الله وأكثر الدعاء وابتهل. فيقال إنه رأى في منامه رجلاً ضخم الجثة رفيع المجلس قد دخل عليه، فدخل عليهما داخل فألقى ذلك الرجل عن مجلسه وقال لهرقل: إني قد أسلمته في يدك، فلم يقصص رؤياه تلك في يقظته على أحد حتى توالت عليه أمثالها، فرأى في بعض لياليه كأن رجلاً دخل عليهما وبيده سلسلة طويلة فألقاها في عنق صاحبه، أعني صاحب المجلس الرفيع، ثم دفعه إليه وقال له: ها قد دفعت إليك كسرى برقبته.

فلما تتابعت هذه الأحلام قصّها على عظماء الروم وذوي العلم منهم، فأشاروا عليه أن يغزوَه، فٱستعدّ هرقل وٱستخلف ٱبنه على مدينة قسطنطينية، وأخذ عن الطريق الذي فيه شهرياز صاحب كسرى وعدل إلى غيرها، وسار حتى أوغل في بلاد أرمينية ونزل نصيبين، وكان صاحب ذلك الثغر من قبل كسرى استُدْعِيَ لِمَوْجِدة كانت من كسرى عليه. وأما شهرياز فقد كانت كتُبُ كسرى ترد عليه في الجثوم على الموضع الذي هو به وترك البراح، ثم بلغه أن هرقل قد أقام بجنوده بنصيبين، فوجه كسرى لمحاربة هرقل رجلاً من قوّاده يقال له: راهزار في ٱثني عشر ألف رجل من الأنجاد[٢]، وأمره أن يقيم بنِينَوى - وهي الموصل - على شاطىء دجلة ويمنع الروم أن يجوزوها. وكان كسرى بلغه خبرُ هرقل، وهو يومذاك بدَسْكَرة[٣] المُلْك، فنفذ الجيش لمنعه من جواز دجلة، فعسكروا حيث أمرهم كسرى، فقطع هرقل دجلة من موضع آخر إلى الناحية التي فيها جنود فارس، فأذكى راهزار العيون عليه، فأخبروه أن هرقل في سبعين ألف مقاتل، فأيقن راهزار ومن معه من الجند أنهم عاجزون عن

---

(١) يقال: أناخ بالمكان: إذا أقام فيه.

(٢) الأنجاد: جمع النّجد، وهو الرجل الماضي فيما لا يستطيعه سواه.

(٣) دسكره: تقدم تفسيرها.

مناهضته، فكتب إلى كسرى غير مرة أن هرقل قد دهمه بما لا طاقة له به ولا قبل من الجنود الكثيرة. كل ذلك يجيبه كسرى بأنه إن عجَزَ عن الروم فلن يعجِزَ عن استقبالهم، وبَذْلِ دماء الفرس في طاعته.

فلما تتابعت على راهزار أجوبة كسرى بذلك عبّأ[1] جنده وناهض الروم بهم؛ فقتلت الروم راهزار وستة آلاف رجل من الفرس، وانهزم بقيتهم وهربوا على وجوههم لا يلوون على شيء، وبلغ كسرى ذلك فانحاز من دسكرة المُلك إلى المدائن[2]، وتحصّن بها لعجزه عن محاربة هرقل، وسار هرقل بجيوش الروم حتى كان قريبًا من المدائن، فاستعدّ كسرى لقتاله، فلما بلغه ذلك أنصرف إلى أرض الروم، وكتب كسرى إلى قوّاد الجند الذين انهزموا يأمرهم أن يَدُلّوه على كل رجل انهزم منهم، ومن فَشِل في تلك الحرب، ولم يرابط مركَزه، وأمر بعقوبتهم بحسب ما استوجبوا، فأحوجهم بهذا الكتاب إلى الخلاف عليه، وطلب الحِيَل لنجاة أنفسهم منه، وكتب إلى شهرياز يأمره بالقدوم عليه ويستعجله في ذلك ويصف ما نال هرقل منه ومن بلاده.

وقد حكي أن كسرى عرِّف أن له أمرأة في فارس لا تلد إلا الملوك والأبطال فدعاها وقال: إنّي أريد أن أبعث إلى الروم جيشًا وأستعمل عليهم رَجُلاً من بَنِيك فأشِيرِي عليّ أيُهم أستعمل، فوصفتْ له أولادُها فقالت: هذا فَرُخان أنفذ من سِنان؛ وهذا شَهْرَياز أَحْكَم من كذا، وهذا فلان أَرْوَغُ من كذا؛ فأستعمل شَهْرَياز؛ فسار إلى الروم فظهر عليهم وهزمهم وخرّب مدائنهم.

فلمّا ظهرتْ فارس على الروم جلس في بعض الأيام فَرُخان يشرب؛ فقال فَرُخان لأصحابه: لقد رأيتُ أنّي جالس على سرير كِسْرى، فبلغتْ كلمتُه كِسْرى، فكتب إلى شَهْرَياز: إذا أتاك كتابي هذا فأبعث إليّ برأس فَرُخان، فكتب إليه: أيها الملك، إنك لن تجد مثل فرّخان، وإن له نكايةً في العدوّ وصيتًا فلا تفعل، فكتب

---

(١) عبّأ الجيش: جهزه في مواضعه وهيأه للحرب.

(٢) المدائن: موضع كان مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية وغيرهم، فكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها وسماها باسم، فأولها المدينة العتيقة التي لزاب، ثم مدينة الإسكندر، ثم طيسفون من مدائنها ثم أسفانبر ثم مدينة يقال لها رومية فسميت المدائن بذلك. . (معجم البلدان).

إليه: إنّ في رجال فارس خَلَفًا منه، فعجِّل إليّ برأسه، فراجعه فغضب كسرى ولم يُجِبه، وبعث بَرِيدًا إلى أهل فارس: إنّي قد نزعتُ عنكم شهرياز وٱستعملتُ فَرُّخان، فٱنقَاد له شهرياز وقال: سمعًا وطاعةً، ونزل عن سريره وجلس عليه فَرُّخان، ثم دفع البريد(١) صحيفةً صغيرةً إلى فرّخان كان كسرى قد أعطاها له وقال له: إذا ٱنقاد شهرياز إلى طاعة فَرُّخان فأعط فَرُّخان هذه الصحيفة، فلما قرأها فرّخان قال: عليّ بشهرياز! فأُتي به فقُدِّم ليضرب عنقه فقال: لا تعجِّل عليّ حتى أكتب وصيّتي، ثم دعا بسَفَط(٢) وأخرج منه ثلاث صحائف، وهي التي كان كِسْرى أمر شَهْرَياز فيها بقتل فَرُّخان وقال له: كلّ هذه راجعت كسرى فيها عنك، وأنت تريد أن تقتلني بكتاب واحد؟ فردَّ المُلْك إلى أخيه وٱعتذر منه، فكتب شهرياز إلى هِرَقْل ملك الروم: إنّ لي إليك حاجة لا تحملها البُرُد(٣)، ولا تُبَلِّغها الصُّحُف، فألقِني ولا تأتيني إلاّ في خمسين روميًا، فإنّي أيضًا ألقاك في خمسين فارسيًا، فأقبل هِرَقْل في خمسمائة ألف روميّ، وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق، وخاف أن يكون قد مَكَر به، فأتته عيونه(٤) أنه ليس مع شَهْرياز إلا خمسين رجلاً.

قال: ثم ٱلتقيَا وقد بُسِط لهما في قُبّة من الدِّيباج ضُربت لهما، فٱجتمعا ومع كلّ واحدٍ منهما سِكِّين، ودعَوْا تُرْجُمانًا يترجم لكلٍّ منهما عن قول الآخر؛ فقال شهرياز لهرقل: إنّ الذين خرَّبوا مدينتك وبلغوا منك ومن جندك ما بلغوا أنا وأخي بشجاعتنا وكَيْدنا، وإنّ كِسْرى حَسَدَنا وأراد قَتْلَ أخي وكتب إليّ بقتله فأبيتُ، ثم أمر أخي أن يقتلني وقد خلعناه جميعًا ونحن نقاتله معك. قال: قد أصبتما ووفِّقتما، ثم أشار أحدهما إلى صاحبه: إنّ السرّ إنما يكون بين ٱثنين فإذا جاوز ٱثنين فشا، قال الآخر: نعم، فقاما جميعًا إلى الترجمان بسكِّينَيْهما فقتلاه، وٱتفقا على قتال كسرى أبرويز.

ومما ٱتفق في أيامه من الحوادث يوم ذي قار، وسنذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ في أيام العرب ووقائعها، ولم نذكر في هذا الموضع يوم ذي قار على سبيل الإيراد له بل على سبيل التنبيه عليه.

---

(١) المراد بالبريد هنا: الرسول.

(٢) السفط: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء.

(٣) البرد: جمع البريد، وهو الرسول. (٤) العيون: يراد بها الجواسيس.

ذكر حيلة لأبرويز على ملك الروم

قال: كان أبرويز وجّه رجلاً من جِلّة[١] أصحابه في جيش جرّار إلى بلاد الروم، فنكأ[٢] فيهم، وبلغ منهم، وفتح الشام، وبلغ الدرب في آثار الروم، فعظُم أمرُه حتى خافه أبرويز، فكاتبه بكتابين، يأمره في أحدهما أن يستخلف على جيشه مَنْ يثق به، ويُقبل إليه، ويأمره في الكتاب الآخر أن يُقيم بمكانه، وأنه لمّا تدبَّر أمره، وأجال الرأي لم ير مَنْ يسُدُّ مَسَدّه، ولم يأمن الخَلل إن غاب عن موضعه، وأرسل بالكتابين رسولاً من ثِقاته وقال له: أعطِه الكتاب الأوّل بالأمر بالقدوم، فإن أجاب إلى ذلك فهو ما أردت، وإن كَرِه وتثاقلَ عن الطاعة فاْسكُت عليه أيامًا وأعلمه أن الكتاب الثاني ورد عليك وأوصله إليه ليقيم بموضعه. فخرج رسول كسرى حتى أتى صاحب الجيش ببلاد الشام فأوصل إليه الكتاب، فلمّا قرأه قال: إمّا أن يكون كسرى قد تغيَّر لي وكَرِه موضعي، أو يكون قد اْختلط عقلُه بصرف مثلي وأنا في نَحْر العدوّ؛ فدعا أصحابه وقرأ عليهم الكتاب فأنكروه. فلما كان بعد ثلاثة أيام أوصل إليه الكتاب الثاني بالمقام وأوهمه أنّ رسولاً ورد به. فلمّا قرأه قال: هذا تخليط[٣] ولم يقع منه موقعًا، ودسّ إلى ملك الروم من باطنه في إيقاع الصلح بينهما على أن يُخلي الطريق لملك الروم حتى يدخل إلى بلاد العراق على غِرّة من كِسْرى، وعلى أنّ لملك الروم ما يغلب عليه من دون العراق، وللفارسيّ ما وراءَ ذلك من بلاد فارس، فأجابه ملك الروم إلى ذلك وتنحّى الفارسيّ عنه في ناحية من الجزيرة، وأخذ أفواه الطريق، فلم يعلم كسرى حتى ورد خبر ملك الروم من ناحية قرقيسيا[٤]، وكسرى على غير استعداد، وجُنده متفرّقون في أعماله. فلما أتاه الخبر وثب عن سريره وقال: هذا وقت حيلة ومكيدة، لا وقت شدّة، وجعل ينكُث الأرض مليًا، ثم دعا برقٍّ[٥] فكتب فيه كتابًا صغيرًا بخطّ دقيق إلى صاحبه بالجزيرة يقول فيه: قد علمتَ ما كنتَ أمرتُك به من مواصلة صاحب

---

(١) الجلة: العظام السادة ذوو السلطان.

(٢) يقال: نكأ في العدو: أي قتل فيهم وجرح وأثخن.

(٣) المراد بالتخليط: فساد العقل واضطرابه.

(٤) قرقيسيا: مدينة بالجزيرة مصب نهر الخابور بالفرات. وقرقيسيا: معرب كركيسيا وهو مأخوذ من كركيس وهو اسم لإرسال الخيل المسمى بالعربية الحلبة؛ وقرقيسيا من الإقليم الرابع...

(٥) الرّق: بتشديد الراء وكسرها وتشديد القاف: جلد رقيق يكتب فيه؛ أو الصحيفة البيضاء.

الروم وأطماعهم في نفسك، وتخليَة الطريق حتى إذا تُولج بلادنا أخذته من أمامه، وأخذته ومَن ندبناه معك من خَلْفه فيكون في ذلك بوارُه، وقد تمّ في هذا الوقت ما دبّرناه، وميعادك في الإيقاع به يوم كذا وكذا، ثم دعا راهبًا في دَيْر بجوار مدينته وقال له: أيّ جارٍ كنتُ لك، قال: أفضل جار، فقال: قد بدتْ لنا إليك حاجة، فقال الراهب: الملك أجلّ من أن يكون له إليّ حاجة، ولكن عندي بذل نفسي، فما الذي يأمر به الملك؟ قال كسرى: تحمل لي كتابًا إلى فلان صاحبي، قال نعم، قال كسرى: ستمرّ بأصحابك النصارى فأخفه، فلما ولّى عنه الراهب قال له كسرى: أعلمتَ ما في الكتاب؟ قال لا، قال: فلا تحمله حتى تعلم ما فيه. فلما قرأه أدخله في جيبه ثم مضى. فلما صار في عسكر الروم ونظر إلى الصُّلبان والقِسِّيسِين وضَجِيجِهم بالتقديس والصلوات أحترق قلب الراهب وأشفق عليهم وقال في نفسه: أنا شرّ الناس إنْ حملتُ بيدي حَتْفَ النصرانية، وهلاك هؤلاء الخلق؛ فصاح الراهب: أنا لم يُحملني الملك كسرى رسالة ولا معي كتاب، فأخذوه فوجدوا الكتاب معه، وقد كان كسرى أيضًا وجّه رسولاً قبل ذلك وأمره أن يمرّ بعسكر الروم كأنه رسولٌ إلى كسرى من صاحبه الذي وافق ملك الروم ومعه كتابٌ فيه: إنّ الملك كان قد أمرني بمقاربة ملك الروم، وأن أخدعه وأُخلي له الطريق، فيأخذه الملك من أمامه وآخذه أنا من خَلْفه، وقد فعلتُ ذلك، فرأى الملك في إعلامي وقت خروجه إليه. فأخذ ملك الروم الرسول وقرأ الكتاب وقال: قد عجبتُ من أن يكون هذا الفارسيّ معي على كسرى، ووافاه كسرى أبرويز فيمن أمكنه من جُنده، فوجد ملك الروم قد ولّى هاربًا فأتبعه يقتل ويأسر مَن أدرك، وبلغ صاحب كسرى هزيمة الروم فأحبّ أن يُخليَ نفسه ويستر ذنبه. فلمّا فاته ما دبَّر خرج خلف ملك الروم يقتل فيهم ويأسر، فلم يسلم منهم إلاّ القليل.

ذكر سبب هلاك أبرويز وقتله

قال: وكان سبب ذلك تجبّره وأحتقاره للعلماء وعُتُوّه، وذلك أنه استخفّ بما لا يستخفّ به الملك الحازم، وكان قد جمع من المال ما لم يجمعه أحدٌ من الملوك، وبلغتْ خيله إلى قسطنطينية وإفريقية، وكانت له أثنتا عشرة ألف أمرأة وجارية، وألف فيل إلاّ فيل واحد، وخمسون ألف دابّة، ومن الجواهر والأواني والآلات ما يليق بذلك، وأمر أن يُحْصِي ما جُبِيَ من بلاده وسائر أبواب المال سنة ثماني عشرة من

مُلْكه، فرُفع إليه أنّ الذي جُبِيَ في تلك السنة من الخراج وسائر الأبواب كان ستمائة ألف ألف درهم، وأمر أن يُحوَّل إلى بيت مالٍ بُنِيَ بمدينة طَيْسَفون[١] من ضَرْب فَيْروز بن يَزْدَجِرْد وقُباذ بن فَيْروز اثنتي عشرة ألف بَدْرة[٢] من أنواع الجواهر وغير ذلك.

قال: فعتا وتجبّر وٱستهان بالناس والأحرار، وبلغ من جُرأته أنه رأى رجلاً كان على حَرَس باب الخاصّة، يقال له: زاذان فَرُّوخ، فأمره أن يقتل كل مقيّد في سجنٍ من سجونه، فأحصَوْا مَن بالسجون من المقيّدين فبلغوا ستّة وثلاثين ألفًا، فلم يقدِر زاذان فَرُّوخ على قتلهم، وتوقّف عن إمضاء أمر كِسْرى وأعَدّ عِللاً له فيما أمره به فيهم، فكان هذا أحد الأسباب التي كسب بها كسرى عداوة أهل مملكته مع وجود ٱحتقاره إيّاهم، وٱستخفافه بهم، وٱطّراحه لعظمائهم. ومن ذلك أنه سلّط عِلْجًا[٣]، يقال له: فَرُّخان زاذ، على الخراج فاستخرج بقاياهم منهم بعُنْف وعذاب. ومن ذلك أنه أجمع على قتل الفَلّ[٤] الذين ٱنصرفوا إليه من قِبَل هِرَقْل، فأكّدت هذه الأسباب بغضه، وٱستطال الناس مدّته فكان نتيجة ذلك أنّ قومًا من العظماء ٱنصرفوا إلى عَقْر بابِل[٥]، وفيه شِيرَي بن أَبَرْوِيز مع إخوته، وقد كان كسرى أَبَرْويز وكّلَ بهم مؤدّبين وأساورة، يُحولون بينهم وبين من يجتمع بهم من الناس، ويمنعونهم من البراح، فأخذه العظماء وأقبلوا به إلى مدينة بَهُرَسير[٦] ودخلوها ليلاً، فخلّى عمّن كان في سجونها وأخرجهم، وٱجتمع إليه الفلّ الذين كانوا غلبوا وفرّوا من هِرَقْل وأمر كسرى بقتلهم، فنادوا: قُبَاذ شَاهَنْشَاه، وصاروا كلّهم عندَ الصباح إلى رَحَبةِ كِسْرى، فهرَب الحرس، وانحاز كسرى بنفسه إلى باغ[٧] له بالقُرْب من قصره، يعرف بباغ الهِنْدُوَان، فارًّا مرعوبًا، فأُخِذ وحُبِس بمكانٍ غيرِ دار المملكة، في دار رجل يقال له: ماراسْفَنْد،

---

(١) طيسفون: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وسين مهملة، وفاء، وآخره نون: هي مدينة كسرى التي فيها الإيوان، بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ.. (معجم البلدان).

(٢) البدرة: كيس فيه مقدار من المال، يتعامل به، ويقدم في العطايا، ويختلف باختلاف العهود.

(٣) العلج من الرجال: الشديد الكثير الصرع لأقرانه.

(٤) الفَلّ: المنهزم، وقد يكون المراد هنا الجماعة.

(٥) عقر بابل: موضع قرب كربلاء من الكوفة.

(٦) بهر سير: من نواحي سواد بغداد قرب المدائن. وقيل: هي إحدى المدائن السبع التي سميت بها المدائن.

(٧) الباغ: البستان.

إلى أن قُتل بعد حديث طويل ومراسلات كانت بينه وبين ٱبنه شِيرَي بمواطأة العظماء، بعد تقريع عظيم، وتوبيخ كثير، على ما كان منه، ومن سوء تدبيره، وقُبْح فعاله، وهو يجيبهم بأجوبة إقناعيّة، وله مراسلاتٌ ووصايا كتبها إلى ٱبنه من السجن؛ قد ذكرنا بعضها فيما سَلَف من هذا الكتاب. وكان هلاكه بعدَ ثمانٍ وثلاثين سنةً من مُلْكه. وبمضيّ ٱثنتين وثلاثين سنة وخمسةَ أشهر وخمسةَ عشرَ يومًا من مُلْكه، كانت هجرة سيّدنا رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة.

قال: ولمّا قُبِض على كِسْرى خلّف في بيت المال من الوَرِق أربعمائة ألف بَدْرة سِوَى الكنوز والذخائر والجواهر والآلات.

وكان وزيرُه والقائمُ بتدبير دولته بُزُرْجِمِهْر الحكيم. ولبُزُرْجِمِهْر هذا قضايا وحِكَم ومواعظَ في أيدي الناس. ويقال: إنَّ بُزُرْجِمِهْر هذا إنما كان وزيرًا لكسرى أنوشِرْوان، وهو الذي قتله. وذلك أنّ بُزُرْجِمِهْر ترك المجوسيّة ورجع إلى دين عيسى ابن مريم عليه السلام ودان به، فقتله كسرى لذلك. ويقال: إنه وُجِد في مِنْطَقَتِه لمّا قُتِل كتابٌ فيه: إذا كان القَدَرُ حقًّا فالحِرْصُ باطلٌ، وإذ كان الغَدْرُ في الناس طباعًا فالثِّقةُ بكلّ أحدٍ عَجْزٌ، وإذا كان الموتُ نازلاً فالطُّمأنينةُ إلى الدنيا حُمْقٌ.

قالوا: ولمّا بلغ بُزُرْجِمِهْر من العُمْر خمسَ عشرةَ سنةً دخل على كسرى، وقد جلستْ الوزراء على كَراسيها والمَرَازبة في مجالسها، فوقف وحيّا الملِك بتحيّة الملوك ثم قال: الحمدُ لله المأمونِ نِعَمُه، المَرْهوبِ نِقَمُه، الدالّ عليه، بالرغبة إليه، المؤيِّد المُلْك، بسعوده في الفُلْك، حتّى رفعَ شأنَه، وعَظُم سلطانُه، وأنار به البلاد، وأنعش به العباد، وقسَّم به في التقدير، وجوه التدبير، فرعى رعيّته بفضل نعمته، وحَماها الموبِلات، وأوردها المُعْشِبات، وذاد عنها الأكّالين، وألّفها بالرِّفْق واللين، إنعامًا من الله عليه، وتثبيتًا لما في يديه. وأسأله أن يبارك له فيما آتاه، ويخيِّر له فيما ٱسترعاه، ويرفع قدرَه في السماء، ويسير ذكره على وجه الماء، حتى لا يبقى له بينهما مناوي، ولا يُوجَد له مساوي. وأستوهب الله له حياةً لا يتنغّص فيها، وقُدرة لا يَحِيد أحدٌ عنها، ومُلْكًا لا بُؤْس فيه، وعافيةً تُدِيم له البقاء، وتُكثِر له النَّماء؛ وعزًّا يؤمّنه من ٱنقلاب رعيّته، أو هجوم بليّته، فإنه مُؤتِي الخير، ودافعُ الشرّ.

فلمّا سمعه كسرى أمر فحُشِيَ فمُه بنفيس الجواهر، ولم تمنعه حداثةُ سنّه أن ٱستوزره، وقلّده خيرَه وشرَّه؛ فكان أوّلَ داخل، وآخرَ خارج. وكان أبوه خاملَ القَدْر، وَضِيعَ الحال، سَفِيهَ المنطق، ٱسمه البَخْتكان.

قال: ولـمّا قُبِض على أَبرويز ملك بعده ابنه: قُبَاذ بن أبرويز ويُعرَف قُبَاذ بشيرويه. وقُبَاذ هذا هو القابضُ على أبيه والقاتلُ له، وقتل سبعةَ عشرَ أخًا له، وقيل ثمانيةَ عشرَ، ذوي آدابٍ وشجاعة؛ فكان عاقبةُ ذلك أنّ الله عزّ وجلّ ٱبتلاه بالأسقام، فٱنتقض عليه بدنه، ولم يلتذ بشيء من ملاذّ الدنيا، وجَزَع بعد قتل إخوته جَزَعًا شديدًا؛ وكان يبكي حتى يرمَى التاج عن رأسه، وعاش ما عاش مهمومًا حزينًا مُدنَفًا[١]. وفي أيامه فشا الطاعون فأهلك أكثر الفُرْس. وكان مُلْكه ثمانيةَ أشهر، وقيل أكثر من ذلك.

وملك بعد وفاته ٱبنه أَرْدَشِير بن شِيرَوَيْه وهو ٱبن سبع سنين ولم يوجد من بيت الملك غيره.

قال: ولـمّا ملَّكته الفُرْس عليها حضنه رجلٌ يقال له: مِهْآذَرْجُشْنَس، فأحسن سياسة المُلْك. وكان شَهْر بَراز المقيم بثَغْر الروم في جُنْدٍ ضمّهم إليه كِسْرى أبرويز وٱبنه شِيرَوَيْه، وكانا يكتبان إليه ويستشيرانه في الأمر الذي يهمهما ويعملان برأيه. فلمّا مات شِيرَوَيْه وملَّكتْ الفُرْس عليها ٱبنه أردشير - مع حداثة سنه - لم يشاوره عظماء الفرس في ذلك، فعظُم عليه ٱنفرادهم عنه، وجعل ذلك ذنبًا لهم، وبسط يده وطمع في المُلْك، وٱستهان بعظماء الفرس، ودعا الناس لنفسه، وأقبل بجُنده نحو المدائن، فعمد مِهْآذَرْجُشْنَس إلى مدينة طَيْسَبُون[٢]، فحصّنها وحوّل أردشير ومَنْ بَقِيَ من نَسْل الملوك ونسائهم والأموال والخزائن والكُرَاع وغير ذلك إليها؛ فورد شَهْربَراز إلى مدينة طَيْسَبُون وحاصرها ونصَب عليها المجانيق[٣]، فعجزَ عنها لحصانتها، فأخذ في أعمال المكايد والحِيَل، فلم يزل يتلطّف برجل يقال له: نِيوخسرو ويراسله هو وغيره، حتى فتحوا له باب المدينة فدخلها، وقتل جماعة من الرؤساء وٱستصفى أموالهم وقتل أردشير بن شيرويه. وكان مُلْكه سنة ونصفًا، وقيل: إنما ملك نصف سنة، وقيل: خمسة أشهر.

وملك بعده شَهْربَراز، وقيل فيه: شَهْريار، ولم يكن من أهل بيت المملكة.

---

(١) المدنف: المريض الذي أصابه مرض شديد ولزمه.
(٢) طيسبون: تقدم تفسيرها ووصفها.
(٣) المجانيق: أو المجاليق: جمع المنجليق، أو المنجنيق، وهي آلة من آلات الحصار، ترمى بها الحجارة؛ وهي مؤنثة وقد تذكر.

قال: ولمّا جلس على سرير المُلْك ضرب عليه بطنَه، وبلغ من شدّة ذلك عليه أنه لم يقدر على إتيان الخلاء؛ فدعا بالطست، فوُضع أمام ذلك السرير، ومدّ أمامه ما يستتر به، وبقي يتبرّز في ذلك الطست.

قال: ثم ٱمتعضَ[١] رجلٌ يقال له: فُسْفرّوخ بن ماخُرْشيذان وأخَوان له من قتل شَهربَراز أردشير بن شِيرَويه وغلبته على المُلْك، فتحالَفوا على قتله. وكان من السنّة[٢] إذا ركب الملك أن يقف له حرسه سمَاطين[٣] عليهم الدروع والبِيض، وبأيديهم السيوف والتِّراس[٤] والرِّماح؛ فإذا حاذاهم الملك وضع كلّ واحدٍ منهم تُرْسه على قَرْبُوس[٥] سَرْجه، ثم يضع جبهته عليه كهيئة السجود.

قال: وٱتفق ركوب شَهْربَراز في بعض الأيام فوقف فُسْفرُوخ وأخواه وهم بالقُرْب من بعضهم بعضًا، فلمّا حازاهم شهربراز طعنه فُسْفرُوخ، ثم طعنه أخواه فسقط عن دابّته، فشدّوا رجله بحبل وجرّوه إقبالاً وإدبارًا ساعةً، وساعدهم العظماء على ذلك، وقتلوا جماعةً ممن كان قد ساعد شَهْربَراز على قتل أردشير. فكان مُلْكه أربعين يومًا، وقيل عشرين يومًا.

وملكتْ بعده بُوران بنت كسرى أبرويز ويقال لها: بوران دخت.

قال: فأحسنتِ السِّيرة وبسطتِ العدل، وأمرت برمّ[٦] القناطر والجسور، وإعادة ما تشعَّث من العمارات، ووضعتْ بقايا الخَرَاج، وكتبت إلى الناس عامّة كتبًا تعلمهم ما هي عليه من الإحسان، وأنها ترجو أن يريَهُم الله من الرفاهية والاستقامة بمكانها، ومن العدل وحفظ الثغور ما يعلمون أنه ليس ببطش الرجال تُدوّخ البلاد، ولا ببأسهم تُستبَاح العساكر، ولا بمكائدهم ينال الظفَر وتُطفَأ النوائر؛ ولكنّ ذلك بالله عزّ وجلّ، وحُسْن النيّة واستقامة التدبير. وأمرتْ بالمُناصحة وحُسْن الطاعة، وردّت خشبة الصليب على مَلِك الروم. وكان مُلْكها سنةً وأربعةَ أشهر.

---

(١) امتعض: غضب وتألم.

(٢) السنّة: الطريقة؛ أو السيرة حميدة كانت أو ذميمة.

(٣) سماطين: مثنى السماط، وهو الصفّ.

(٤) التراس: جمع الترس، وهو صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل للوقاية من السيف ونحوه.

(٥) القربوس: صنو السرج. جمع قرابيس. وللسرج قربوسان، فأما القربوس المقدم ففيه العضدان، وهما رجلا السرج؛ والقربوس الآخر فيه رجلا المؤخرة، وهما صنواه..

(٦) رمّ الشيء: أي أصلحه وقد فسد بعضه. يقال: رمّ المنزل ونحوه.

ثم ملك رجلٌ يقال له: جُشْنَسْدِه وهو ٱبن عمّ أبرويز، وكان مُلْكه أقلّ من شهر، وقيل: إن الذي ملك يَزْدَجِرْد بن كسرى وهو طفل.

ثم ملكتْ بعده آزَرْمِيدُخْت بنت كسرى أبرويز، وكانت من أجمل نساء دهرها، وكان عظيم فارس يومئذ فَرُّخَ هُرْمُز أصْبِهْبذ خراسان؛ فأرسل إليها يسألها أن تزوّجه نفسها، فأرسلت إليه: التزويج للملكة غير جائز، وقد علمتُ أن أرِيَك فيما ذهبتَ إليه قضاء حاجتك منّي؛ فصِرْ إليّ ليلة كذا وكذا، ففعل وركِب إليها في تلك الليلة، وتقدّمت إلى صاحب حرسها أن يرصده في الليلة التي تواعدا للٱلتقاء فيها، فإذا رآه يقتله، فرصده صاحبُ الحرس؛ فلمّا جاء قتله وجرّ برجله وطرحه في رحبة دار المُلْك.

فلمّا أصبح الناس ورأَوْه علموا أنه لم يُقتَل إلاّ لأمر عظيم، ثم أمرتْ بتغييب جثّته فغُيِّبت. وكان رُسْتَم بن فَرّخ هُرْمُز هذا - وهو رُسْتَم صاحب القادسيّة - عظيم البأس، قويًّا في نفسه، فلمّا بلغه ما صُنع بأبيه أقبل في جُنْد عظيم حتى نزل المدائن؛ فقبض على آزَرْمِيدُخْت وسَمَل عينيها وقتلها بعد ذلك. فكانت مدّة مُلْكها ستةَ أشهر.

واختُلف فيمَن ملك بعد آزَرْمِيدُخْت، فقيل رجل من عَقِب أردشير بن بابك كان ينزل الأهواز يقال له: كِسْرَى بن مِهْرجُشْنَس، فلبس التاج وقتل بعد أيام. ويقال: بل كان رجل يسكن مَيْسان[1] يقال له فَيْروز، فملّكوه كُرْهًا. وكان ضخم الرأس، فلمّا تُوِّج قال: ما أضيقَ هذا التاج! فتطيّر العلماء من ٱفتتاح الأمر بالضيق وقتلوه. ثم أُتِيَ برجُل من أولاد كِسْرى كان قد لجأ إلى موضع من الغرب بالقرب من نَصِيبين، يقال له: «حصن الحجارة» حين قَتَل شِيرَويْه بن كِسرى أبرويز إخْوَتَه، وهو فَرُّخْ زاباذ خُسْرَوْ بن كِسْرى أبرويز، فٱنقاد الناس له طَوْعًا زمانًا يسيرًا ثم ٱستعصَوْا عليه وخالفوه. وكان مُلْكه ستةَ أشهر. وكان أهل اصطخر قد ظفروا بيَزْدَجِرْد بن شَهْريار بن أبرويز بٱصطخر، وكان قد هرب إليها حين قَتَل شِيرَويه إخوته. فلمّا بلغ عظماء أهل اصطخر أنّ مَن بالمدائن خالفوا الملك فَرُّخْ زاد خُسْرَوْ أتَوْا يَزْدَجِرْد ببيت نار أردشير، فتوَّجوه هناك وملّكوه، وكان حَدَثًا[2]، ثم أقبلوا به إلى المدائن وقتلوا فَرُّخْ زاد خُسْرَوْ بحيل احتالوها عليه.

---

(١) ميسان: بالفتح ثم السكون، وسين مهملة، وآخره نون: اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط قصبتها ميسان، وفي هذه الكورة أيضًا قبر عزير النبي عليه السلام. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الحدث: الصغير السنّ.

ومَلَك يَزْدَجِرْد بن شَهْريَار بن كسرى أبرويز بن هُرمُز بن كِسْرى أنوشِرْان بن بَهْرام بن يزدجرد بن سابور بن هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك، فمَلك وكان العظماء والوزراء يدبِّرون المُلْك لحداثة سنِّه، وهو آخرُ الملوك الساسانيّة وعليه آنقرضتْ دولتهم، فلم تقُم لهم قائمة، وتردّد إلى بلاد خراسان وإلى بلاد الترك، وعاد فقُتِل بمَرْو[1] من بلاد خراسان في سنة إحدى وثلاثين من الهجرة لسبع سنين خلت من خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه.

وكانت مدّة مُلْك يَزْدَجِرْد منذ ملك وإلى أن قُتِل عشرين سنةً، إلاّ أنّ فيها مدّة لا يعدّ فيها مع الملوك؛ لأنه كان مشرّدًا طريدًا على ما نذكر أخباره مفصّلة، وكيف فُتحتْ بلاده ومُدُنه بلدًا بلدًا، ومدينةً مدينةً في خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان رضي الله عنهما.

فعِدّة ملوك الفرس الأُوَل والساسانيّة على هذا المساق الذي ذكرناه آثنان وخمسون ملِكًا منهم ثلاث نسوة. فالفرس الأُوَل عشرون مَلِكًا منهم آمرأة واحدة. والملوك الساسانيّة آثنان وثلاثون ملكًا فيهم آمرأتان. وذكر بعض المؤرّخين أنّ ملوك الفرس ستّون ملكًا، وأنّ مدّة مُلْكهم أربعة آلاف سنة وسبعون سنة وشهورًا. والله أعلم.

ذكر أخبار ملوك اليونان وأنسابهم

قد تنازَع الناس في اليونانيّين، فذهبتْ طائفة منهم أنهم ينتمون إلى الروم ويضافون إلى ولد إسحاق؛ وقالت طائفة: إنّ يونان هو آبن يافث بن نوح. وقال آخرون: إنه يافث بن الأصغر. وذهب قوم إلى أنهم من ولد أوراش بن ماذان بن سام بن نوح. وذهب آخرون إلى أنهم من قبيل متقدّم في الزمن الأوّل.

وقال المسعوديّ: وقد ذكر أنّ يونان أخو قحطان، وأنه من ولد عابر بن شالخ، وأن أمره في الآنفصال عن دار أخيه كان سبب الشكّ في الشركة في النسب، وأنه خرج من أرض اليمن. وكان يونان جبّارًا عظيمًا، وَسِيمًا جسيمًا. وكان جَزْل الرأي،

(١) مرو: المراد مرو الشاهجان: وهي مرو العظمى أشهر مدن خراسان وقصبتها. والنسبة إليها مروزيّ على غير قياس، والثوب مرويّ على القياس، وبين مرو ونيسابور سبعون فرسخًا ومنها إلى سرخس ثلاثون فرسخًا وإلى بلخ مائة واثنان وعشرون فرسخًا اثنان وعشرون منزلاً. . . (معجم البلدان لياقوت).

كبير الهمّة، عظيم القَدْر. وهكذا ذكر يعقوب بن إسحاق الكِنْدِيّ في نسب يونان أنه أخٌ لقحطان، وردّ عليه أبو العباس عبد الله بن محمد الناشىء في قصيدته حيث قال: [من الطويل]

أبا يوسفٍ إنّي نظرتُ فلم أجدْ ... على الفَحْص رأيًا صحّ منك ولا عَقْدَا
وصرتَ حكيمًا عند قوم إذا امرؤٌ ... بلاهم جميعًا لم يجد عندهم عَهْدَا
أتَقْرِنُ إلحادًا بدين محمدٍ ... لقد جئت شيئًا - يا أخا كِنْدَةَ - إدّا
وتخلط قَحطانًا بيُونان ضِلّةً ... لَعَمْرِي لقد باعدتَ بينهما جِدّا

قيل: ولمّا كثُر ولد يونان خرج يطلب موضعًا يسكنه، فأتى إلى موضع من الغرب، فأقام به هو ومَن معه من ولده، وكثُر نسلُه إلى أن أدركه الموت، فجعل وصيّته إلى الأكبر من ولده واسمه جريبوش، وأوصاه بأولاده ونَسْله، ومات وبقي ابنه على مكانه، وكثُر نسلُهم فغَلَبوا على بلاد الغرب من الفِرِنْجة والنُّوكَبَرْد والصقالبة وغيرهم.

وذكر بطليموس في كتابه: أن أوّل مِلكٍ ملَك من ملوك اليونانيين فِيلبُّس وتفسيره محبّ الفرس، وقيل اسمه نفليص، وقيل فيلفوس. وكانت مدّة ملكه سبع سنين.

ثم ملك بعده ابنه الإسكندر ذو القرنين وليس هو صاحب الخِضْر رضي الله عنه. والإسكندر هذا هو الذي قتل دارًا بن دارًا ملك الفُرْس، ونثر عِقْد مملكة فارس، وقرّر ملوك الطوائف فيما ذكرناه.

وكان سبب قتله لدارا أن سائر الملوك كانت تؤدّي الإتاوة[1] إلى ملوك الفرس منذُ دوّخ بُخْتنصّر البلاد، وذلّل لهم الملوك على ما ذكرناه آنفًا في أخبار الفرس، ولا حاجة إلى إعادته.

قالوا: وكان فِيلبُّس أبو الإسكندر قد صالح دارًا على إتاوة يؤدّيها إليه في كل سنة. فلمّا وليَ الإسكندر وظهر أمره، وكان بعيد الهمّة، فامتنع أن يؤدّيَ إلى دارا الخراج الذي كان يحمله أبوه إليه، فأسخط دارا ذلك، فكتب إليه يؤنّبه بسوء صنيعه بتركه حمل ما كان أبوه يحمله من الخراج وقال في كتابه: إنما دعاك إلى حبس ذلك الصِّبا[2] والجهل، وبعث إليه بصَوْلجان وكُرَة وبقَفِيز[3] من السمسم. يُعلمه بذلك أنه

---

(١) الإتاوة: الجزية أو الخراج: أو الرشوة. (٢) الصِّبا: الحداثة.

(٣) القفيز: مكيال كان يكال به قديمًا، ويختلف مقداره في البلاد، ويعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلوجرامًا.

إنما ينبغي لك أن تلعب مع الصبيان بالصولجان ولا تتقلّد الملك ولا تلبث به، ويُعلمه أنه إن لم يقتصر على ما أمره به وتعاطى الملك بعد أن أمره بٱعتزاله بعث إليه بمَن يأتيه به في وثاق. وأنّ عِدّة جنوده الذين يبعث بهم إليه كعِدّة حبّ السمسم الذي بعث به إليه.

فكتب إليه الإسكندر في جواب ذلك: أنه قد فهم ما كتب به، ونظر إلى ما أرسله إليه من الصَّوْلجان والكُرَة وتيمّن به لإلقاء الملقي الكُرَة إلى الصَّوْلجان وإحرازه إيّاها، وأنه شبّه الأرض بالكرة، وتفاءل بملكه إياهَا وٱحتوائه عليها، وأنه يجترّ مُلْك دارا إلى مُلْكه، وبلاده إلى حيّزه؛ وأنه نظر إلى السمسم الذي بعث به كنظره إلى الصولجان والكرة لدسَمَه، وبُعْده عن المرارة والحَرَافة[1]، وبعث إلى دَارا مع كتابه بصُرّة من خَرْدل، وأعلمه في الجواب أنّ ما بعث به إليه قليل، غير أن ذلك مثل الذي بعث به في القوّة والحَرَافة والمرارة، وأنّ جنوده فيما وصف به منه.

فلمّا وصل إلى دارا جواب كتاب الإسكندر، جمع جُنْده وتأهّب لحربه وسار نحو بلاده، وتأهّب الإسكندر أيضًا للقائه وسار نحو دارا، فٱلتقيا جميعًا بأرض الجزيرة[2] وٱقتتلا سنة، وقد كان دارا مَلَّه قومُه وأحبّوا الراحة منه، فلحق كثير من وجوه الفرس بالإسكندر وأطلعوه على عَوْرة دارا وقوّوْه عليه، ثم وثبَ على دارا حاجِباه فقتلاه وتقرّبا برأسه إلى الإسكندر، فلما أتَوْه بها أمر بقتلهما وقال: هذا جزاء مَن تجرّأ على مَلِكه.

وقد ذُكر أنه سِيق إليه أسيرٌ غَدَر به صاحبُ شُرْطته، فقال له الإسكندر: بما ٱجترأ عليك صاحبُ شُرْطتك؟ قال: بتركي ترهيبَه وقتَ إساءته، وإعطائي إيّاه وقتَ الإحسان بالسير من فعله نهايةَ رغبته، فقال الإسكندر: نعم العَوْنُ على إصلاح القلوب الموغَرَةِ الترغيبُ بالأموال، وأصلحُ منه الترهيبُ وقتَ الحاجة، ثم أمر الإسكندر بقتله.

وقد قيل: إنه لمّا هزمه الإسكندر فرّ جريحًا فخرج في طلبه في ستّة آلاف حتى أدركه، ثم لم يلبث دارا أن هلك، فأظهر الإسكندر عليه الحزن ودفَنَه في مقابر الملوك.

---

(١) الحرافة: طعم يحرق اللسان والفم.

(٢) المراد بأرض الجزيرة: أرض الجزيرة الحالية التي عاصمتها بغداد.

وقيل: إنّ الإسكندر كان قد نادَى ألاّ يُقتَل دارًا وأن يُؤسَر. فلمّا عَلِم الإسكندر بما تمّ على دارًا سار حتى وقف عنده فرآه يجود بنفسه فنزل الإسكندر عن دابته وجلس عند رأسه، وأخبره أنه ما أمر بقتله، وأنّ الذي أصابه لم يكن عن رأيه. وقال: سَلْني ما بدا لك فإنّي أسعفك به، فقال له دارا: لي إليك حاجتان: إحداهما أن تنتقم لي من الرجلَيْن اللذَيْن قتلاني وسمّاهما له، والأخرى أن تتزوّج ٱبنتي روشنك، فأجابه إلى ذلك، وأمر بصلب الرجلَيْن اللذَيْن فتكا بدارا. ويقال: إنّ الرجلَيْن اللذَيْن قتلاه إنما فعلا ذلك عن رأي الإسكندر، وأنه كان شرط لهما شرطًا على قتله، فلمّا طعناه دفع إليهما ما كان شرطه لهما ثم قال: قد وفَيتُ لكما بالشرط ولم تكونا شرطتما لأنفسكما وأنا قاتلُكما لا محالة، فإنه ليس ينبغي لقتَلَة المَلِك أن يُستبقوا إلاّ بذمّة لا تُخفَر[1]، فقتلهما وصلبهما.

ويقال: إن الإسكندر في الأيّام التي نازل فيها دارا كان يسير إليه بنفسه على أنه رسولٌ فيتوسّط العسكر ويعرف كثيرًا مما يحتاج إليه، فكان دارا يَستحسن سَمْته، ويُحسن صِلَته ومجازاته، ثم ٱتّهمه، وأحسّ الإسكندر بذلك فما عاد إليه بعدها.

ذكر شيء من مكايد الإسكندر وحِيَله في حروبه

من ذلك أنه لمّا التقى بدارا يوم الحرب أمر مناديه فنادى: يا معشر الفرس، قد علمتم ما كتبنا لكم من الأمانات، فمن كان منكم على الوفاء فليعتزل عن العسكر وله منّا الوفاء بما ضمنّاه، فٱتهمت الفرس بعضها بعضًا، وكان ذلك أوّل ٱضطراب حدث فيهم.

ومن ذلك أنه لمّا شَخَص[2] عن فارس إلى أرض الهند تلقاه ملكها قور في جمع عظيم من الهنود ومعه ألف فيل عليها المقاتلة بالسلاح وفي خراطيمها السيوف والعمد، فلم تقف لها دوابّ الإسكندر وفرّت فكانت الهزيمة عليه، فلمّا بلغ الإسكندر مأمنه أمر بٱتّخاذ فِيَلة من نحاس مجوّفة وربط خيله بين تلك التماثيل حتى ألفتها، ثم أمر فمُلِئت نِفْطًا وكبريتًا، وألبسها الدروع وجرت على العَجَل[3]، وعاود حرب الهند، وجعل بين كلّ تمثالين جماعة من أصحابه. فلمّ نشبت الحرب أمر بإشعال النيران في أجواف تلك التماثيل وٱنكشف أصحابه عنها وغشيتها فيلة الهند،

---

(١) يقال: خفر بالعهد: إذا وفى به. (٢) شخص عن فارس: خرج منها.

(٣) العجل: أي الدولاب؛ والمراد هنا العربة.

فخرجت النيران من خراطيم التماثيل فولّت الفِيَلة مُدْبِرة ورجعت على أصحابها، فكانت الدائرة على الهند وقتل ملكهم قور.

ومما يُحكَى عنه أنه نزل على مدينة حصينة فتحصَّن فيها أهلها، فتعرَّف خبرها فقيل له: إن فيها من المِيرة[١] ما يكفيهم زمنًا طويلاً، وإنّ بها من العيون والأنهار ما لا يقدر على قطعه، فارتحل عنها ودسّ جماعة من التجّار متنكّرين، فدخلوها وأمدّهم بالأموال الكثيرة، وأمرهم أن يبتاعوا الأقوات ويغالوا في أثمانها، ففعلوا ذلك حتى حازوا أكثر ما فيها. فلما علم الإسكندر بذلك كتب إليهم يأمرهم بإحراق ما حصلوه من الأقوات وأن يهربوا، ففعلوا كما أمرهم، وعاد إلى المدينة وحاصرها وزحف عليها فأعطوه الطاعة وملك المدينة. وكان إذا أراد أن يحاصر مدينة شرَّد مَن حولها من أهل القرى وتهدّدهم بالسبي فيلجأوا إلى المدينة ويعتصموا بها، فلا يزال كذلك حتى يعلم أنه قد دخلها أضعاف أهلها وأسرعوا في المِيرة فيحاصرهم حينئذ فيفتح المدينة.

ومما يُحكَى عنه أنه كتب إلى معلِّمه أرسطاطاليس[٢]، وكان الإسكندر يشاوره في كثير من أموره، ويقتدي بآرائه، ويعمل بما يشير به عليه ولا يعدل عنه. وأرسطاطاليس هذا هو تلميذ أفلاطون، وأفلاطون صاحب الفِرَاسة تلميذ سقراط.

ويُحكَى عن أفلاطون أنه كان يصوّر له صورة إنسان لم يره قطّ ولا عرفه فيقول: صاحب هذه الصورة من أخلاقه كذا، ومن هيئته كذا، فيكون الرجل كما أخبر عنه، فيقال: إنه صوِّر له صورة نفسه، فلمّا عاينها قال: هذا رجل محبّ في الزّنى فقيل له: إنها صورتك، فقال: نعم أنا كذلك، ولولا أني أملك نفسي لفعلت وإني لمحبّ فيه.

* * *

نرجع إلى أخبار الإسكندر فيما كتب به إلى أرسطاطاليس وما أجابه به قالوا: إنه كتب إليه يخبره أنّ في عسكره من الروم جماعة من خاصّته لا يأمنهم على نفسه لِمَا يرى من بُعْدِ هِمَمِهم في شجاعتهم وكثرة آلتهم، وأنه لا يرى لهم عقولاً تفي بتلك الفضائل التي تمنعهم من الإقدام والجُرأة عليه، وأنه يكره الإقدام عليهم بالقتل بمجرَّد الظِّنّة مع وجوب الحُرْمة.

---

(١) الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه.

(٢) أرسطاطاليس: من أعظم الحكماء الأقدمين، ورأس الفلاسفة المعروفين بالمشائين. ويعرف بالمعلم الأول لأنه أول من وضع التعاليم المنطقية.

فكتب إليه أرسطاطاليس: قد فهمتُ كتابك، وما وصفتَ به أصحابك. أمّا ما ذكرتَ من بُعْد هِمَمِهم فإنّ الوفاء من بُعْد الهمّة. وأمّا ما ذكرتَ من شجاعتهم ونَقْص عقولهم عنها، فمن كانت هذه حالُهُ فرفّهه في معيشته وأخْصُصْه بحِسَان النساء، فإنّ رفاهيَة العيش تُوهِن[١] العزْم، وتحبب السلامةَ، وتباعد من ركوب الخطَر والغَرَر[٢]، وليكن خُلُقك حسنًا تخلص إليك النيّات، ولا تتناول من لذيذ العيش ما لا يمكن أوساط إخوتك مثلَه، فليس ينبغي مع الاْستئثار محبّة، ولا مع المواساة بغضة. واْعلم أنّ المملوك إذا اْشتُري لم يسأل عن مال مولاه، وإنما يسأل عن خُلُقه.

وكتب إليه الإسكندر يُعلمه أنه شاهد بإيران شهر[٣] رجالاً ذوي أصالة في الرأي، وجمال في الوجوه، ولهم مع ذلك صَرامةٌ وشجاعةٌ، وأنه رأى لهم هيئات وخِلَقًا لو كان عرف حقيقتها لما غزاهم، وأنه إنما ملكهم بحُسْن الاْتفاق والبخت[٤]، وأنه لا يأمن إذا ظعن[٥] عنهم وُثُوبَهم ولا تسكُن نفسُه إلاّ ببوارهم.

فكتب إليه أرسطاطاليس: فهمتُ كتابك في رجال فارس؛ فأما قتلهم فهو من الفساد في الأرض، ولو قتلتهم لأنبتَتْ أرضُ فارسَ أمثالَهم، لأنّ إقليم بابل يُولد أمثال هؤلاء الرجال من أهل العقل، والسداد في الرأي، والاْعتدال في التركيب؛ فصاروا أعداءك وأعداءَ عَقِبك بالطبع، لأنك تكون قد وترتَ[٦] القوم وكثُّرت الأحقاد على أرض الروم منهم وممَّن بعدَهم، وإخراجك إيّاهم في عسكرك مخاطرة بنفسك وأصحابك؛ ولكنّي أشير عليك برأي هو أبلغ لك في كل ما تريد من القتل وغيره، وهو أن تستدعيَ أولاد الملوك منهم وممّن يُستصلَح للمُلْك ويُترشَّح له، فتقلِّدهم البلدانَ وتولِّيهم الولايات ليصير كلّ واحدٍ منهم ملكًا برأسه، فتتفرّق كلمتهم، ويجتمعوا على الطاعة لك، ولا يؤدِّي بعضُهم إلى بعض طاعةً، ولا يتفقوا على أمر واحد، ولا تجتمع كلمتُهم. ففعل الإسكندر ذلك، فتمّ أمرُه وأمكنه أن يتجاوز أرضَ فارس إلى أرض الهند حتى قتل ملكَها مبارزةً بعد حروب عظيمة. ثم صار إلى أرض الصِّين وطاف مما يلي القُطْبَ الشماليَّ ورجع إلى العراق فمات في طريقه بشَهْرُزُور[٧]،

---

(١) توهن: تضعف. (٢) الغرر: التعريض للهلكة.

(٣) إيران شهر: هي بلاد العراق وفارس والجبال وخراسان.

(٤) البخت: الحظ، جمع بخوت. (٥) ظعن عنهم: سار وارتحل.

(٦) وترت القوم: أي قتلت حميمهم.

(٧) شهرزور: بلدة بين الموصل وبين همذان، بناها زور بن الضحاك.

ويقال: بل في قرية من قُرَى بابل. وكان عمره ستًّا وثلاثين سنة. وفي بعض النسخ ثلاثًا وثلاثين سنة. وكان ملكه ثلاث عشرة سنة وشهورًا. وقيل: سبعة عشر سنة. وقَتَلَ دارًا في السنة الثالثة من مُلْكه.

قال: وبنى الإسكندر اثنتي عشرة مدينة وسمّاها كلّها الإسكندرية منها: مدينة جَيّ[١] بأصبهان، وثلاث مُدُن بخراسان وهي: هَرَاة[٢] ومَرْو[٣] وسَمَرْقَنْد. وبنى بأرض بابل مدينة لروشنك. وبنى بأرض يونان سبعَ مُدُن.

ومن عجيب ما قيل في نسب الإسكندر: أنه من ولد دارا الأكبر، وأنه أخو دارا الأصغر، وذلك أن دارا الأكبر بن أردشير تزوّج ببنت ملك الزّنج هَلاَي، فلمّا حملت منه استخبث رِيحَها، فأمر أن تحتال لذلك، فكانت تغتسل بماء السندروس[٤] فأذهبَ ذلك كثيرًا من دفرها[٥]، ثم عافَها وردّها إلى أهلها وقد عَلِقت منه بالإسكندر فقيل له الإسكندروس. هذا ما نقله عبد الملك بن عبدون في كتابه المترجم بكلمة الزهر وصدفة الدرّ، قال: واختلف في مدّته فذكر الخوارزميّ في تاريخه أنه كان قبل الهجرة بتسعمائة سنة، وثلاث وثلاثين سنة. وذكر أبو محمد[٦] بن قتيبة في كتاب المعارف: أن بينه وبين الهجرة أربعمائة سنة. والله أعلم بالصواب.

ذكر شيء من أخبار الإسكندر وما اتفق له مع ملكي الهند والصين

فأما خبره مع ملك الهند قال عبد الملك بن عبدون: إن الإسكندر لمّا دوّخ البلاد وقهر الملوك سار نحو الهند وقتل ملكها الأعظم فُورًا صاحب مدينة

---

(١) جيّ: اسم مدينة ناحية أصبهان القديم، وهي الآن كالخراب منفردة، وتسمى عند العجم شهرستان..

(٢) هراة: كانت مدينة عظيمة مشهورة بخراسان خربها التتر.

(٣) مرو: هي مرو الشاهجان: وقد تقدم وصفها وتفسيرها.

(٤) السندروس: صمغ أصفر يشبه الكهرباء في قوته إلا أنه أرخى منه، وفيه شيء من مرارة، وله عدة فوائد..

(٥) الدفر بسكون الفاء وفتحها: خبث الرائحة.

(٦) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري؛ ويقال المروزي، نسبة إلى مرو، النحوي اللغويّ. سكن بغداد وحدّث بها عن إسحاق بن راهوية، ومحمد بن زياد بن عبيد الله، المعروف بالزيادي، وأبي حاتم السجستاني. واشتغل بالتدريس، وتولى قضاء الدينور، وكانت له تصانيف عديدة. كانت وفاته سنة ٢٧٠ هجرية.

المانكير[١]. فلما دانت له ملوك الهند بلغه أنّ بأقاصي ديارها مَلِكًا من ملوكها ذا حكمة وسياسة وإنصاف لرعيّته، وأنه ليس في بلاد الهند من فلاسفتهم وحكمائهم مثله يقال له كندكان، وأنه قاهر لنفسه مانع لها من الشهوة الغضبية، فكتب إليه الإسكندر كتابًا يقول فيه: أما بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فإن كنت قائمًا فلا تقعد، وإن كنت ماشيًا فلا تلتفت حتى تدخل في طاعتي، وإلاّ مزّقتُ مُلْكَك وألحقتُك بمن مضى من ملوك الهند من قبلك.

فلمّا ورد عليه الكتاب أجاب بأحسن جواب، وخاطبه بملك الملوك، وأعلمه أنه قد ٱجتمع عنده أشياء لم تجتمع عند غيره مثلها: فمن ذلك ٱبنةٌ له لم تطلُع الشمس على أحسن منها؛ وفيلسوفٌ يخبرك بمرادك قبل أن تسأله لحِدّة مزاجه وحسن قريحته، وٱعتداله في بِنْيته، وٱتساعه في علمه؛ وطبيبٌ لا يُخشَى عليه معه داء ولا شيءٌ من العوارض إلا ما يطرأ من الفناء والدثور[٢] الواقع بهذه البِنْية، وحلّ العقدة التي عقدها المبدع لها المخترع لهذا الجسم الحسّيّ، وإذا كانت بِنْية الإنسان وهيكلُه قد نُصِبَا في هذا العالَم غرضًا للآفات والحتوف والبلايا؛ وقدحٌ إذا ملأتَه شرب منه عسكرك بجمعه ولا ينقُص منه شيء، وإنّي منفذ جميع ذلك إلى الملك وصائر إليه.

فلمّا قرأ الإسكندر كتابه قال: كون هذه الأشياء عندي ونجاة هذا الحكيم من صَوْلتي أحبّ إليّ من ألا تكون عندي ويهلك. فأنفذ إليه الإسكندر جماعة من الحكماء اليونانيين والروم في عدّة من الرجال وتقدّم إليهم أنه إن كان قد صدق فيما كتب به إليّ فٱحملوا ذلك إلى عندي وٱتركوه في موضعه، وإن تبيّنتم الأمر على خلاف ذلك، وأنه أخبر عن الشيء على خلاف ما هو به فقد خرج عن حَدّ الحكمة فأَشخصوه[٣] إليّ. فلمّا انتهَوْا إلى مملكة الملك خرج إليهم وتلقّاهم بأحسن لقاء، وأنزلهم بأحسن منزل. فلما كان في اليوم الثالث جلس لهم مجلسًا خاصًّا للحكماء دون من كان معهم من المقاتلة. فقال بعضهم لبعض: إن صَدَقَنا في الأوّل صَدَقَنا فيما بعد ذلك مما ذكر.

فلمّا أخذت الحكماء مراتبَها واستقرّت بها مجالسَها أقبل عليهم مباحثًا في أصول العلوم الفلسفية وفروعها، وعلى كم فنّ يحتوي العلم الفلسفيّ في أصوله، وإلى كم يتفرّع.

(١) ويقال لها أيضًا: بلهر باسم ملك من ملوك الهند، وكان يقيم فيها.

(٢) الدثور: البلى، أو الدرس، أو التهدم.

(٣) أشخص فلانًا إليه: أي بعث به.

قال عبد الملك بن عبد الله بن عَبْدون ـ رحمه الله ـ: وقد ذكر أن العلم الفلسفيّ ينقسم على أربعة أنواع: أحدها الرياضيّات، والثاني المنطقيّات، والثالث الطبيعيّات، والرابع الإلٰهيّات. قال:

فأما الرياضيّات فأربعة أنواع: الواحد علم الحساب، والثاني علم الهندسة، والأصل فيه النقطة، وهي فيه كالواحد في علم الحساب، والثالث علم النجوم، والرابع علم الموسيقى، وهو علم تأليف الألحان.

وأما العلوم المنطقيّات فخمسة أنواع: الواحد معرفة صناعة الشعر، وأنواع البديع كالتكافؤ والتفريع والحَشْو والتتبيع والتسميط والترصيع والالتفاتة والإشارة والمقابلة والاستعارة والتبليغ والتلويح والتصدير والتوشيح والتجنيس والتضادّ والترديد والاستطراد والتقسيم والتسهيم والإحالةِ والتتميم. والثاني معرفة صناعة الخطابة. والثالث صناعة الجَدَل. والرابع صناعة البرهان. والخامس صناعة المغالطين في الناظرة والجَدَل.

وأما العلوم الطبيعيّات فسبعة أنواع: الواحد علم المبادىء الجسمانيّة، وهي خمسة أشياء: الهَيُولَى[1] والصورة والزمان والمكان والحركة. والثاني علم السماء والأرض، وهو معرفة ماهية جواهر الأفلاك والكواكب وكيفيتها وكيفية تركيبها وعلّة دورانها، وهل تقبل الكَوْن والفساد كما تقبل الأركان الأربعة التي دون فلك القمر أو لا، وما علّة حركات الكواكب واختلافها في السرعة والإبطاء، وما علّة سكون الأرض في وَسَط الفلك في المركز، وهل خارج العالم جسم آخر أم لا. وهل في الكَوْن والفساد موضع فارغٌ لا شيء فيه، وما شاكل هذه المباحث. والثالث علم الكون والفساد وهو علم معرفة جواهر الأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض. والرابع علم حدوث الجواهر بتغيّرات الهواء وتأثيرات الكواكب بحركاتها ومطارح شعاعاتها على الأركان الأربعة وانفعالاتها بعضها ببعض بقدرة الله تعالى. والخامس علم المعادن التي تنعقد من البخارات المختنقة في بطن الأرض والعصارات المتحلّلة من الهواء. والسادس علم النبات على اختلاف أنواعه في هيآته وأشكاله واختلاف صموغه وطعومه وخواصّه وروائحه ومنافعه ومضارّه. السابع علم الحيوان،

---

(١) الهيولى: مادة الشيء التي يصنع منها، كالخشب لكرسي، والحديد للمسمار، والقطن للملابس القطنية. والهيولى عند القدماء، وهذا هو المراد: مادة ليس لها شكل ولا صورة معينة، قابلة للتشكيل والتصوير في شتّى الصور، وهي التي صنع الله تعالى منها أجزاء العالم الماديّة.

وهو معرفة كلّ جسم يغتذي ويحسّ ويعيش ويتحرّك على ٱختلاف أنواعه، وما شاكل ذلك مما ينسب إلى علم الطبيعيّات كعلم الطبّ والبيطرة وسياسة الدوابّ والسباع والطيور والحرث والنسل وعلم الصنائع أجمع داخل في علم الطبيعيات.

وأما العلوم الإلٰهيّات فخمسة أنواع؛ أوّلها: معرفة الباري سبحانه وتعالى بجميع صفاته، وأنه أوّل كلّ شيء وآخر كلّ شيء، والخالق لكلّ شيء، والعالم بكلّ شيء، وأنه ليس كمثله شيء. والثاني علم الروحانيّات من الجواهر البسيطة العقليّة، وهي الصورة المجرّدة من الهيولَى المستعملة للأجسام المطهّرة، ومعرفة ٱرتباط بعضها ببعض، وقبض بعضها عن بعض، وهي أفلاك روحانيّة تحيط بأفلاك جسمانيّة. والثالث علم النفوس والأرواح السارية في الأجسام الفلكيّة والطبيعيّة من لَدُن الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض. والرابع علم السياسة وهي خمسة أنواع: أولها: السياسة النبويّة، والسياسة الملوكيّة، والسياسة العامّيّة، والسياسة الخاصّيّة، والسياسة الذاتيّة. فأما السياسة النبويّة فالله تبارك وتعالى يختصّ بها من يشاء من عباده ويهدي لأتباعهم مَن يشاء لا معقّب لحكمه، لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون. وأما السياسة الملوكية فهي حفظ الشريعة على الأمة وإحياء السنّة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأما السياسة العامّيّة فهي الرياسات على الجماعات كرياسة الأمراء على البُلدان وقادة الجيوش وترتيب أحوالهم على ما يجب وينبغي من الأمور وإتقان التدبير. وأما السياسة الخاصّيّة فهي معرفة كلّ إنسان بنفسه، وتدبيره أمر غلمانه وأولاده، ومَنْ يليهم من أتباعه وقضاء حقوق الإخوان. وأما السياسة الذاتية فهي أن يتفقّد الإنسان أفعالَه وأحوالَه وأخلاقَه وشهوتَه فيزمّها[1] بزمام عقله، وغضبَه فيردعه وما شاكل ذلك. والخامس من العلوم الإلٰهيات علم المعاد وكيفية ٱنبعاث الأرواح وقيام الأجساد وحشرها للحساب يومَ الدين، ومعرفة حقيقة جزاء المحسنين وعقاب المسيئين.

* * *

نرجع إلى خبر الملك الهنديّ مع أصحاب الإسكندر، قال: ولمّا تكلّم مع الحكماء اليونانيين في العلوم الفلسفية وطال الخطب في مناظرتهم أخرج الجارية إليهم، فلمّا ظهرت لأبصارهم لم يقع طَرْف كلّ واحد منهم على عضو من أعضائها

---

(١) يقال: زمّ فلانًا كلمته: أي جعل لها من الصواب غرضًا يرمي إليه. يقال: ما تكلمت بكلمة حتى أزمها وأخطمها.

فتعدّى ببصره إلى غير ذلك العضو اشتغالاً بحسنه عمّا سواه حتى خاف القوم على عقولهم، ثم رجعوا إلى أنفسهم وقهروا سلطان هواهم، ثم أراهم بعد ذلك ما تقدّم الوعد به وصرفهم، وبعث بالفيلسوف والطبيب والجارية والقدح معهم.

فلمّا وردوا على الإسكندر أمر بإنزال الفيلسوف والطبيب، ونظر إلى الجارية فحار عند مشاهدتها، فأمر قيّمة[١] الجواري بالقيام عليها، ثم صرف همّته إلى الفيلسوف والطبيب وإلى علم ما عندهما، وقصّ عليه الحكماء ما جرى لهم مع الملك الهنديّ من المباحث في العلوم الفلسفيّة، فأعجبه ذلك وتأمّل أغراض القوم ومقاصدَهم، وأقبل ينظر في مطاردة[٢] الهند يعلّلها في معلولاتها، وما يصفه اليونانيون أيضًا من عِلَلها في معلولاتها على حَسَب ما قدّمتُ من أوضاعها، ثم أراد مِحْنة[٣] الفيلسوف على حسب ما خُبِّر عنه، فأجال فكره فيما يختبره به، فدعا بقَدَح فملأه سمنًا ولم يجعل للزيادة عليه موضعًا، ودفعه لرسولٍ وقال: احمل هذا إلى الفيلسوف ولا تكلِّمه بشيء، فلمّا دفعه إليه دعا الفيلسوف بألف إبرة فغرزها في السمن وصرفه إليه، فأمر الإسكندر بضَرْبِ تلك الإبر كُرَةً متساويةَ الأجزاء وردّها إليه، فأمر الفيلسوف ببسطها وجلائها حتى صارت جسمًا تردّ صورة مقابليها لصفائها وردّها إلى الإسكندر، فدعا بطست وجعل تلك المرآة فيه وصبّ عليها الماء حتى غمرها وردّها إليه، فأخذها الفيلسوف وعَمِل منها طَرْجهارة[٤] طافية على الماء وصرفها إليه، فملأها الإسكندر ترابًا وردّها إليه، فلمّا نظر الفيلسوف إلى التراب تغيّر لونه وبكى ثم ردّها إلى الإسكندر ولم يضع فيها شيئًا.

فلمّا كان في اليوم الثاني جلس الإسكندر جلوسًا خاصًّا ودعا بالفيلسوف، ولم يكن رآه قبل ذلك اليوم، فلمّا أقبل نظر الإسكندر من الفيلسوف إلى رجلٍ طويلِ الجسم رَحْبِ الجبين معتدلِ البِنْية فقال في نفسه: هذه بِنْيةٌ تضادّ[٥] الحكمة، فإذا اجتمع له حُسْن الصورة والفهم كان أوحد زمانه، فأدار الفيلسوف إصبعه حول وجهه ثم وضعه على أرنبة أنفه وأسرع نحو الإسكندر وحيّاه بتحية الملك، فأشار إليه

---

(١) قيّمة الجواري: التي تتولّى أمرهم.

(٢) المراد بمطاردة الهند: الوقوف على مدى صحة آرائهم ومواقفهم الفلسفية أو العكس.

(٣) المحنة: الاختبار والتجربة.

(٤) الطرجهارة: نوع من الصفحات أو الصحون يقطع عليها اللبن المتجمد.

(٥) تضادّ: تخالف؛ والضدّ: المخالف والمنافي.

بالجلوس وقال: لِمَ أدرتَ إصبعك حولَ وجهك ووضعتها على أرنبة أنفك؟ قال: علمتُ أنك تقول في نفسك، إذا نظرت إلى حُسْن صورتي وإتقان بِنْيتي قلّما تجتمع هذه الخِلْقة مع الحكمة، وإذا كان على هذا كان صاحبها أوحدَ زمانه، فأريتُك مصداقًا لِمَا سَنَح[١] لك أنه كما ليس لك في الوجه إلا أنف واحدٌ فكذلك ليس في ديار الهند على هذه الصفة أحدٌ غيري.

فقال الإسكندر: حَسَنٌ ما أتيتَ به! فما بالك حين بعثتُ إليك بالقدح السمن غرزتَ فيه الإبر وردّدتَه؟ قال الفيلسوف: علمتُ أنك تقول إنّ قلبي قد امتلأ علمًا فليس لأحد فيه مستزاد، فأعلمتُك أنّ علمي سيزيد فيه كما زادتْ هذه الإبر في هذا السمن. قال: فما بالك حين عَمِلتُ لك الإبر كُرَة صنعتَ منها مرآةً صقيلةً وصرفتَها إليّ؟ قال الفيلسوف: علمتُ أنك تقول إنّ قلبي قد قسا من سَفْك الدماء واشتغل بهذا العالَم فلا يقبل العلم ولا يرغب فيه، فأخبرتك أني سأعمل الحِيلَة في ذلك، كما جعلتُ من الكُرَة مرآةً مُورِيةً[٢] للأجسام. قال: فما بالك حين جعلتها لك في الطست وصببتُ عليها الماء جعلتها طَرْجهارةً طافيةً على الماء؟ قال الفيلسوف: علمتُ أنك تقول إنّ الأيام قد قَصُرت والأجل قريب، ولا يُدرَك العلم الكثير في المهل القليل، فأخبرتُك أني سأعمل الحيلةَ فيه في غير مدّة طويلة، كما جعلتُ هذه المرآة الراسبة طافيةً في أسرع وقت. قال: فما بالك حين ملأتُ ذلك الإناء ترابًا ردّدته إليّ ولم تُحدث فيه شيئًا؟ قال: علمتُ أنك تقول: ثم الموت، وأنه لا بدّ منه، فأخبرتك أن لا حِيلَةَ في ذلك. قال الإسكندر: قد أجبتَني على مُرادي في جميع ذلك ولأُحسنَنّ إلى الهند من أجلك، وأمر له بجوائز كثيرة. فقال له الفيلسوف: لو أحببتُ المال لَمَا كنتُ عالمًا، ولستُ أُدخِل على علمي ما يضادّه، فإن القنية[٣] تُوجب الخدمة، وقد ملكتَ أيها الملك الرحيم بسيفك أجسام رعيّتك فأملك قلوبهم بإحسانك فهو خِزَانة سلطانك، واحذر العامّة فإنها إذا قَدَرَتْ أن تقول قَدَرَتْ أن تفعل فاحترزْ من أن تقول تأمَنْ أن تفعل، فالملكُ السعيدُ من مَلَك الرعيّة بالرغبة والرهبة، وأشبهُ الأشياء من أفعال الناس بأفعال بارئهم الإحسان، فخيَّره الإسكندرُ في المُقَام معه، أو الانصراف إلى بلاده، فاختار الرجوع إلى موضعه.

---

(١) سنح لك: عرض لك.

(٢) يقال: ورّى الشيء: جعله وراءه وستره.

(٣) القنية: أي القنوة، وهي ما اكتسب.

وأمّا القدحُ فملأهُ ماءً ثم أورد عليه الناسَ فلم ينقُص شربهم منه شيئًا، فيقال إنه كان معمولاً من خواصّ الهند الروحانيّة مما تدّعيه الهند. ويقال إنه كان لآدم أبي البشر عليه السلام، مبارَكٌ له فيه حين كان بأرض سَرَنْدِيبَ، فوُرِثَ عنه إلى أن أنتهى إلى هذا الملك الهنديّ.

وأما الطبيبُ فإنه كان له معه مناظراتٌ دلّت على ثبوت قدمه في علمه، وأنه كما وَصَف صاحبُه أو كاد. هذا خبره مع ملك الهند.

* * *

وأما خبره مع ملك الصين؛ قال أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه في كتابه المترجم بتجارب الأمم: وفي الرواية الصحيحة أن الإسكندر لمّا أنتهى إلى بلاد الصين أتاه حاجبُه وقد مَضَى من الليل شَطْرُه فقال: هذا رسولُ ملِكِ الصين بالباب يستأذنُ في الدخول عليك، قال: أدخلْه، فأدخلَه فوقف بين يدي الإسكندر وسلَّم ثم قال: إن رأى الملك أن يَستخليني فعل، فأمر الإسكندر مَن بحضرته أن ينصرفوا، فانصرفوا كلّهم عنه وبقي حاجبُه فقال: إنّ الذي جئتُ له لا يحتمل أن يسمعه غيرُك، فأمر الإسكندر أن يُفتَّش ففتِّش، فلم يجد معه سلاحًا، فوضع بين يديه سيفًا مسلولاً وقال له: قِفْ مكانك وقُلْ ما شِئتَ، وأخرج الحاجبَ ومن كان قد بَقِيَ عنده، فلمّا خلا المجلس قال له: أنا ملكُ الصين لا رسولُه، جئتُ لأسألك عما تريد، فإن كان ممّا يمكن عَمَلُه ولو على أصعَب الوجوه عَمِلْتُه وأغنيتُك عن الحرب، فقال له الإسكندر: وما الذي آمنَك منّي؟ قال: علمي بأنك عاقلٌ حكيمٌ، ولم تك بيننا عداوةٌ ولا مطالبةٌ بذَحل[1]، وأنك تعلم أنك إن قتلتني لم يكن ذلك سببًا لتسليم أهل الصين إليك مُلْكَهم، ولم يمنعهم قتلي من أن ينصبوا لأنفسهم مَلِكًا غيري ثم تنسب أنت إلى غير الجميل وضدّ الحزم. فأطرق الإسكندر وعلم أنه رجلٌ عاقلٌ، ثم قال له: إن الذي أريد منك ارتفاع[2] مملكتك لثلاث سنين عاجلًا ونصف أرتفاع مملكتك لكلّ سنة. قال: هل غير هذا؟ قال لا، قال: قد أجبتُك، ولكن سَلْني كيف تكون حالُك، قال: كيف تكون؟ قال: أكون أوّلَ قتيلِ مُحارب، وأوّلَ أَكِيلة مُفترس. قال: فإن قنعتُ منك بأرتفاع سنتين. قال: أكون أصلحَ قليلاً وأفسحَ مدّة. قال: فإن قنعتُ بأرتفاع سنة. قال: يكون في ذلك بقاءُ مُلْكي، وذهابٌ لجميع لذّتي. قال: فإن قنعتُ منك بثلث الأرتفاع كيف تكون حالك؟ قال: يكون السدس للفقراء ومصالح العبّاد، ويكون الباقي لجيشي ولسائر أسباب الملك. قال الإسكندر: قد أقتصرتُ منك على هذا، فشكره وأنصرف.

---

(١) الذحل: الثأر.

(٢) المراد بالارتفاع: ما يرفع ويحمل إلى خزائن الملك من الأعشار والجزية والخراج..

فلمّا طلعت الشمس أقبل جيش الصين وقد طبَّق الأرض وأحاط بجيش الإسكندر حتى خافوا الهلاك، وتواثبَ أصحابه فركبوا الخيل واستعدّوا للحرب بعد الأمن والطمأنينة إلى السِّلْم. فبينما هم كذلك إذ طلع ملك الصين وهو راكب وعليه التاج، فلمّا تراءى الجمعان نظر الإسكندر إلى مَلِك الصين فظنّ أنه حضر للحرب، فصاح به: أغدرتَ؟ فترجَّل ملك الصين وقال: لا والله، قال: فأدْنُ منّي فدنا منه، فقال له الإسكندر: ما هذا الجيش الكثير؟ فقال: إنّي أردتُ أن أريَك أنّي لم أطعك من قِلّة وضَعْف، ولكنّي رأيتُ العالَم العُلْوِيّ مقبلاً عليك ممكِّنًا لك ممن هو أقوَى منك وأكثر عددًا، ومَن حاربَ العالم العُلْويّ غُلِب، فأردتُ طاعته بطاعتك، والتذلّل له بالتذلّل لك، فقال الإسكندر له: ليس مثلك مَن يُسَام الذّل، ولا مَن يؤدّي الجزية، فما رأيتُ بيني وبين الملوك مَن يستحقّ التفضيل والوصف بالعقل غيرك، وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك وأنا منصرفٌ عنك. فقال ملك الصين: ولستَ تخسر إذًا ثم انصرف عنه الإسكندر. فبعث إليه ملك الصين بضعف ما قرّر معه وانصرف عن الصين.

كلام الحكماء عند وفاة الإسكندر

قال: لمّا تُوُفّي الإسكندر جُعل في تابوت من الذهب، واجتمع الحكماء فتقدّم الأوّل[١] فقال: قد كان الإسكندر يخبأ الذهب، وقد أصبح الآن يخبؤه الذهب. وتقدّم الثاني[٢] إليه والناس يبكون ويجزعون فقال: حرّكنا بسكونه. وتقدّم الثالث[٣] إليه

(١) هوديوجانس: كان حكيمًا فاضلاً متقشفًا لا يقتني شيئًا، ولا يأوي إلى منزل، وكأنه من قدرية الفلاسفة لما يوجد في مدارج كلامه من الميل إلى القدر... (الملل والنحل للشهرستاني).

(٢) هو أفلاطون بن أرسطن بن أرسطوقليس من أثينية، وهو آخر المتقدمين الأوائل الأساطين، معروف بالتوحيد والحكمة. ولد في زمان أردشير بن دارا في سنة ستة عشر من ملكه. كان تلميذًا لسقراط. ولما اغتيل سقراط بالسم ومات قام مقامه، وجلس على كرسيّه.. (الملل والنحل للشهرستاني ص٨٨).

(٣) هو سقراط بن سفرنيسقوس الحكيم الفاضل؛ ولد في أثينا حوالي سنة ٤٧٠ق.م. من أب يحترف صناعة التماثيل، وأم قابلة. احترف حرفة أبيه ولبث يزاولها حينًا قصيرًا. ثم ترك هذه المهنة وتخصص للفلسفة التي اعتبرها رسالته في الحياة. اتهم بإنكار آلهة اليونانيين والدعوة إلى آلهة جديدة فحكم عليه بالإعدام وأعدم. وكان قبيح المنظر، قصير دميم بدين، بارز العين، كبير الأنف، واسع الفم، بالي الثياب. كان عادلاً حتى لا يؤثر عنه أنه ظلم أحدًا.. وكانت مواهبه العقلية لا تقل عن مواهبه الأخلاقية...

فقال: قد كان يَعِظنا في حياته، وهو اليوم أوعظُ منه أمس. وتقدّم إليه الرابع فقال: قد جاب الأَرَضِين وسلكها، ثم حصل منها في أربعة قوائم. ووقف عليه الخامس فقال: انظروا إلى حُلْم النائم كيف انقضى، وإلى ظِلّ الغمام كيف انجلَى. ووقف عليه السادس فقال: قد أمات هذا الميِّت كثيرًا من الناس لئلاّ يموتَ، وقد مات الآن. ووقف عليه السابع فقال: ما لك لا تقلّ[1] عضوًا من أعضائك، وقد كنتَ تستقلّ بمُلْك العباد. وقال الثامن: ما لك لا ترغبُ بنفسك عن المكان الضيِّق، وقد كنتَ ترغب بها عن رَحْب البلاد. وقال التاسع: كان لا يُقدَر عنده على الكلام، واليوم لا يُقدَر عنده على الصَّمْت. وقال العاشر: قد كان غالبًا فصار مغلوبًا، وآكلاً فصار مأكولاً. وقال الحادي عشر: ما كان أقبحَ إفراطُك في التجبُّر أمس مع شدّة خضوعك اليوم!. وقالت بنت دارا: ما كنتُ أحسَبُ أنّ غالبَ أبي يُغلَبُ. وقال رئيس الطبّاخين: قد نضَّدتُ النضائد[2]، وألقيتُ الوسائد، ونَصَبتُ الموائد، ولستُ أرى عميدَ القوم.

قال: ولما مات الإسكندر عُرِض المُلْك على ابنه من بعده فأباه واختار العبادة والنُّسك.

فملك بعد الإسكندر على اليونانيين بطليموس، وهذه التسمية لكلّ من ملك اليونان ككِسْرى للأكاسرة من الفُرْس، وقَيْصر للروم، وخاقان للترك، وطَرْخان للخزَر، والنجاشيّ للحبشة.

قال: وكان بطليموسُ هذا شابًا مدبّرًا حكيمًا عالمًا. وكان مُلْكه أربعين سنة، وقيل عشرين سنة، وقيل إنه أوّل من اقتنى البُزَاة[3] وضرّاها[4] ولعب بها.

ثم ملك بعده بطليموس الثاني، وهو الذي يقال له: محبّ الأخ، واسمه هِيقْلوس، وكان مُلْكه ستًّا وعشرين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس محبّ الأب، وكانت مدّةُ ملكه سبعَ عشرةَ سنة.

ثم ملك بعده بطليموس، وهو صاحبُ علم الفلك والنجوم وكتاب المجسطي. فكان ملكه أربعًا وعشرين سنة.

---

(١) يقال: أقلّ الشيء: إذا حمله ورفعه.
(٢) النضائد: جمع النضيدة، وهي ما حشي من المتاع أو الوسادة.
(٣) البزاة: جمع الباز، وهو ضرب من الصقور يستعمل في الصيد.
(٤) الضرّ: الشديد، أو الداهية الفطن.

ثم ملك بعده بطليموس محبّ الأمّ. فكان ملكه خمسًا وثلاثين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس الصائغ. فكان مُلْكه سبعًا وعشرين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس الإسكندرانيّ. فكان ملكه اثنتي عشرةَ سنة.

ثم ملك بعده بطليموس الحديديّ. فكانت مدّة مُلْكه ثمانين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس الجوّال. فكان ملكه أيضًا ثمانين سنة، وقيل أقلّ من ذلك.

ثم ملك بعده بطليموس الحرب. فكانت مدّة ملكه ثلاثين سنة.

ثم ملكت بعده ٱبنته قُلُوبَطْرة، وكانت حكيمة متفلسفة معظّمة للحكماء، ولها كتب مصنّفة في الطبّ والزينة وغير ذلك، مترجمة بٱسمها ومنسوبة إليها، وكان زوجها بطليموس ويسمّى أنطونيوس مشاركًا لها في مُلْك مقدونية وهي مصر.

فلمّا أراد الله تعالى ذهاب ملك اليونانيين أيّد عليهم مَلِك رومية وهو أغسطس، فسار إليها، وكان له مع الملكة قلوبطرة وزوجها حروبٌ كثيرة، فقُتل زوج قلوبطرة، فأراد ملك الروم أن يتزوّجها لعلمه بحكمتها وليتعلّم منها، فراسلها فعلمتْ مرادَه منها، فطلبت حيّة تكون بالحجاز ومصر والشام، وهي نوع من الحيّات تراعي[1] الإنسان حتى إذا نظرت إلى عضو من أعضائه قَفَزت أذرُعًا نحوه فلم تخطىء ذلك العضو بعينه حتى تثفُل[2] عليه سمًّا فيموت لوقته ولا يُعلَم ما خبره، فيتوهّم الناس أنه مات فجأة حَتْفَ أنفه. فٱحتُمِلَت لها. فلمّا كان في اليوم الذي علمت فيه أن أغسطس يدخل في قصرها أمرتْ بأنواع الرياحين والزهور أن تُبسَط في مجلسها وأمامَ سريرها، وجلست على سرير مُلْكها والتاجُ على رأسها وفرّقتْ حشَمَها وقرّبت يدها من الإناء الذي فيه تلك الحيّة فضربتها فماتت لوقتها، وٱنسابتْ الحيّة في تلك الرياحين ودخل أغسطس حتى ٱنتهى إلى المجلس، فنظر إليها جالسةً وهو يظنّ أنها باقية، فدنا منها فتبيّن له أنها قد ماتت، فنظر إلى تلك الرياحين فقَفَزت عليه تلك الحيّة فرمتْه بسمّها وقد خفّ، فبطل شقّه الذي ضربته من جهته، ولولا أنّ سمّها كان قد نَقُصَ لمات، فعجب من قتلها لنفسها وما كادته به من إلقاء الحيّة. وكانت قلوبطرة هذه آخر مَنْ مَلَك من اليونانيين. والله أعلم.

---

(١) راعاه: راقبه؛ أو لاحظه.

(٢) تثفل السّم: أي تنثره مرة واحدة.

ذكر أخبار ملوك السُّريان

قال أبو الحسن عليّ بن عبد الله المسعوديّ في كتابه المترجم بمروج الذهب:

ذكر ذوو العناية بأخبار ملوك العالَم أنّ أول الملوك بعد الطوفان ملوك اليونان، قال: وقد تُنوزِع فيهم وفي النبَط، فمن الناس مَن رأى أنّ السريانيين هم النَّبَط، ومنهم من رأى أنهم إخوةٌ لولد ماس بن نَبِيط، ومنهم مَن رأى غير ذلك على حسب تبايُن الناس في الأجيال الماضية والقرون لخالية.

قال: فكان أوّلَ مَن ملك منهم رجلٌ يقال له سُوشان، وهو أوّل من وضع التاج على رأسه في تاريخ السريانيّين. قال: وأنقاد له ملوك الأرض، فكان ملكه ستّ عشرةَ سنة باغيًا في الأرض، ومفسدًا في البلاد، وسفّاكًا للدماء.

ثم ملك بعده يريز، وكان ملكه إلى أن هلك عشرين سنة.

ثم ملك بعده سماسير بن أبوبا. فكان ملكه تسع سنين.

ثم ملك بعده أهريمون فخطّ الخطط[١]، وكوّر[٢] الكُوَر، وجدّ في أمره، وأتقن مُلْكه، وعمر أرضه. فلمّا استقامت له الأحوال وأنتظم ملكه بلغ بعض ملوك الهند وهو رُتبيل، وهو أسم لمن يملك هذه الجهة من الهند، ما القومُ عليه من القوّة، وما بلادُهم عليه من العمارة، وأنهم يحاولون الممالك، وقد كان هذا الملك الهنديّ غَلَب على مَن حوله من ممالك الهند وأنقادتْ إلى أحكامه، وذلك أنّ ملكه كان مما يلي بلاد الهند والسِّند، فسار نحو بلاد بُسْت[٣] وغَزْنين[٤] ونَغر[٥] وبلاد الداوَر[٦] على النهر المعروف بالهِنْدمِنْد، وهو نهر ببلاد سِجِسْتان ويُعرَف بنهر بُسْت تجري فيه السفن منها إلى سِجِسْتان.

قال: وكان بين ملك الهند وملك السريانِيّين حروبٌ كثيرةٌ نحوًا من سنة ثم أجلتْ الحرب عن قتل السريانيّ وأحتوى الهنديّ على الصُّقع ومَلَكه، فكان مُلْك أهريمون عشر سنين.

---

(١) الخطط: جمع الخطة، وهي القطيعة.

(٢) الكور: جمع الكورة، وهي الصقع، أو البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال.

(٣) بست: هي مدينة بين سجستان وغزنين وهراة، وهي من البلاد الحارة المزاج.

(٤) غزنين: مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند.

(٥) نغر: مدينة ببلاد السند بينها وبين غزنين ستة أيام.

(٦) هي ولاية واسعة ذات بلدان وقرى مجاورة لولاية رخّج وبست والغور.

قال: وبقي ذلك الصُّقع بيد الملك الهنديّ حتى سار إلى بعض الملوك فأتى[١] عليه وملك العراق وردّ السريانيين.

فملّكوا عليهم تسنوا بن سماسير. فكان مُلْكه إلى أن هلك ثماني سنين.

ثم ملك بعده أهريمون. فكانت مدّة مُلْكه أثنتي عشرة سنة.

ثم ملك بعده أبنه هوريا فزاد في العمارة وأحسن للرعايا وغَرَس الأشجار. فكان ملكه اثنتين وعشرين سنة.

ثم ملك بعده ماروت وأستولى على المُلْك. فكان مُلْكه خمس عشرة سنة. وقيل أكثر من ذلك.

ثم ملك بعده أزور وسلحاس، ويقال إنهما كانا أخوَيْن. قال: فأحسنا السيرة، وتعاضَدَا على تدبير المُلْك. ويقال: إنّ أحد هذين الملِكَيْن كان جالسًا ذاتَ يوم في أعلا قصره فنظر إلى طائر قد فرّخ[٢] هنالك، وهو يصيح ويضرب بجناحه، فنظر إلى حيّة تنساب إلى الوَكْر لتأكل الفراخ التي للطائر، فدعا بقَوْس وسهم ورمى الحيّة فقتلها، وسلمت الفراخ، وغاب الطائر وعاد إلى الملك بعد هُنَيهة وفي منقاره حبّةٌ وفي مخاليبه حبّتان، وطار حتى وازَى الملك، وألقى الحبّ بين يديه فتناوله الملك وقال: ما ألقى هذا الطائر هذا الحبّ إلا لأمر قصد به مكافأتنا على ما فعلناه من خلاص فراخه، ولم يعرف ما هو ذلك الحبّ، وأستدعى الحكماء وأراهم فما عَرَفوه، فقال له حكيم: ينبغي أن يُزرَع هذا الحبّ ببطن الأرض ليُنظَرَ ما يكون منه، فأحضر الأَكَرَة[٣] وأمرهم بزرعه فزَرَعوه، والملك يراعيه حتى طلع[٤] وأزهرَ وحصرمَ وأعنبَ، وهم لا يقرُبونه خشية أن يكون متُلفًا، فأمر الملك أن يُعصَر ماؤه ويُودَع الآنيةَ وأُخرجَ الحبّ منه وتُرِك بعضُه على حاله. فلمّا صار في الآنية غلا وقذف بالزبد وفاحت له روائح عَبِقَة، فقال الملك: عليّ بشيخ كبير، فأُتِيَ به، فسقاه من هذا العصير. فلمّا شرب منه ثلاثًا صال وتكلّم وصفّق بيديه وحرّك رأسه ووقع برجليه على الأرض،

(١) أتى عليه: مرّ به؛ أو أنفده.

(٢) أفرخ الطائر وفرّخ: أي صار ذا أفراخ.

(٣) الأكرة: جمع الأكار، وهو الحرّاث.

(٤) طلع النخل: أي خرج طلعها؛ والطلع: غلاف يشبه الكوز ينفتح عن حبّ منضود فيه مادة إخصاب النخلة.

فظهر عليه الطَّرَب والفرح وتغنّى. فقال الملك: هذا شرابٌ مذهبُ للعقل، وأخلقْ[١] به أن يكون قتّالاً، ألاَ تَرَوْنَ إلى هذا الشيخ كيف عاد إلى حال الصِّبا وقُوّة الشباب، ثم أمر الملك بالشيخ فرقَد، فسكن ونام. فقال الملك: هَلَك، ثم أفاق الشيخ وطلب الزيادة من الشراب وقال: لقد شربتُه فكشف عنّي الهموم والغموم، وأزال عنّي الأحزان. فقال الملك: هذا أشرفُ شراب الرجل، فأكثر من غَرْس الكروم، وٱختصّ به دون غيره من الناس، وٱستعمله بقيّة أيامه، ثم نما بعد ذلك وكثُر في أيدي الناس. وهذا آخر ما أورده المسعوديّ من أخبار السُّريان.

ذكر أخبار الملوك الكلدانيين
وهم ملوك النَّبَط وملوك بابِل

قال المسعوديّ، ذهب جماعةٌ من أهل البحث والعناية بأخبار ملوك العالَم أنهم ملوك العالَم الذين مهّدوا الأرض بالعمارة، وأنّ الفُرْس الأوَل إنما أخذوا المُلْك من هؤلاء كأَخْذ الروم المُلْك من اليونان.

فكان أوّلَ مَن ملك منهم نُمْروذ الجبّار. فكان مُلْكه نحوًا من ستين سنة. وقد قدّمنا أخبار نُمْروذ في قصّة إبراهيم عليه السلام.

قال: ونُمْروذ هذا هو الذي احتفر أنهارًا بالعراق آخذةً من الفُرات، فيقال: إنّ من ذلك نهر كُوثى[٢] على طريق الكوفة، وهو بين قصر[٣] ٱبن هُبَيرة وبغداد.

ثم ملك بعده أبولس، وكان عظيم البطش جبّارًا في الأرض. وكان مُلْكه نحوًا من سبعين سنة.

ثم ملك بعده فيزمنوس. وكان باغيًا في الأرض، ملك نحوًا من مائة سنة.

ثم ملك بعده سوسوس. فكان مُلْكه نحوًا من تسعين سنة.

ثم ملك بعده كورس. فكان ملكه نحوًا من خمسين سنة.

---

(١) يقال: أخلق به: أي ما أجدره وما أولاه.

(٢) نهر كوثى: هو أول نهر أخرج بالعراق من الفرات، وسمي بكوثى من بني أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، وهو الذي كراه فنسب إليه.

(٣) قصر ابن هبيرة: ينسب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة، بناه بالقرب من جسر سورا لما ولي العراق من قبل مروان بن محمد.

ثم ملك بعده اذفرنجوا. فكان ملكه نحوًا من عشر سنين.

ثم ملك بعده سيهزم. فكان ملكه نحوًا من أربعين سنة، وقيل أكثر.

ثم ملك بعده قوسيس. فكان ملكه نحوًا من سبعين سنة.

ثم ملك بعده أنبوش. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده إيلاوس. فكان ملكه نحوًا من خمس عشرة سنة.

ثم ملك بعده الجلوس. وكان مُلْكه نحوًا من أربعين سنة.

ثم ملك بعده أونوبس. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده بعنكلوس. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين شهرًا.

ثم ملك بعده سفرين. فكان ملكه نحوًا من أربعين سنة، وقيل أقلّ.

ثم ملك بعده مارنوس. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده رسطاليم. فكان ملكه نحوًا من أربعين سنة.

ثم ملك بعده أسطوس. فكان ملكه نحوًا من خمسين سنة.

ثم ملك بعده تاولوس. فكان ملكه نحوًا من خمسين سنة.

ثم ملك بعده العداس. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده أطيروس. فكان ملكه نحوًا من ستين سنة.

ثم ملك بعده ساوساس. فكان ملكه نحوًا من عشرين سنة.

ثم ملك بعده فارينوس. فكان ملكه نحوًا من خمسين سنة، وقيل خمسًا وأربعين سنة.

ثم ملك بعده أدرموس. فكان ملكه نحوًا من أربعين سنة. وغزاه ملك من ملوك فارس في عُقْر داره.

ثم ملك بعده مسروس. فكان ملكه نحوًا من خمسين سنة.

ثم ملك بعده أفروس. فكان ملكه نحوًا من أربعين سنة.

ثم ملك بعده طاطاوس. فكان ملكه نحوًا من أربعين سنة.

ثم ملك بعده لاوسيس. فكان ملكه نحوًا من خمسين سنة، وقيل خمسًا وأربعين سنة.

ثم ملك بعده قريطوس. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده قروطاوس. فكان ملكه نحوًا من عشرين سنة.

ثم ملك بعده قراقريس. فكان ملكه نحوًا من خمسين سنة، وقيل اْثنتين وأربعين سنة.

ثم ملك بعده بوليس قنطروس. فكان ملكه نحوًا من عشرين سنة.

ثم ملك بعده قولا قسما. فكان ملكه نحوًا من ستين سنة.

ثم ملك بعده هيقلس. فكان ملكه خمسًا وثلاثين سنة، وقيل خمسين سنة. وكانت له حروب مع ملوك الصقالبة.

ثم ملك بعده سموجد. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده مردوج. فكان ملكه نحوًا من أربعين سنة، وقيل أقلّ من ذلك.

ثم ملك بعده سنحاريب. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين سنة، وهو الذي اْبتنى بيت المقدس.

ثم ملك بعده منوشا. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين سنة، وقيل أقلّ من ذلك.

ثم ملك بعده بُخْتَنَصَّر الجبّار. فكان ملكه خمسًا وأربعين سنة، وقد تقدّم أن بختنصّر لم يكن ملكًا وإنما كان مَرْزُبانًا لملوك الفُرْس الأُوَل، إلا أن يكون هذا غير ذاك. والله أعلم.

ثم ملك بعده بيطسقر. فكانت مدّة ملكه نحوًا من ستّين سنة، وقيل أقل من ذلك.

ثم ملك بعده دارنوس. فكان مُلْكه إحدى وثلاثين سنة، وقيل أكثر من ذلك.

ثم ملك بعده كشرخوش فكان ملكه عشرين سنة.

ثم ملك بعده قرطاسية تسعة أشهر.

ثم ملك بعده فيجسمنه. فكان ملكه إحدى وأربعين سنة.

ثم ملك بعده أجرست. فكان ملكه ثلاثًا وستين سنة.

ثم ملك بعده شعيا. فكان ملكه ثلاثين سنة، وقيل تسعة أشهر.

ثم ملك بعده داريوس. فكان ملكه عشرين سنة، وقيل تسع عشرة سنة.

ثم ملك بعده أنطجست. فكان ملكه تسعًا وعشرين سنة.

ثم ملك بعده اليسع. فكان ملكه خمس عشرة سنة، وقيل عشرين سنة.

قال المسعوديّ: فهؤلاء الملوك الذين أتينا على أسمائهم، وذكرنا مدّة ملكهم، هم الذين شيّدوا البنيان، ومدّنوا المدن، وكوّروا الكُوَر، وحفروا الأنهار، وغرسوا الأشجار، وٱستنبطوا[١] المياه، وأثاروا[٢] الأرض، وٱستخرجوا المعادن من الحديد والنحاس والرصاص وغير ذلك، وطبعوا[٣] السيوف، واتّخذوا عدّة الحرب، ونصبوا قوانين الحروب، ورتّبوا الميمنة والميسرة والأجنحة، وجعلوا ذلك مثالاً لأجزاء أعضاء الإنسان، ورتّبوا الأعلام؛ فجعلوا أعلام القلب على صورة الفيلة والنسور وما عظُم من أجناس الحيوان؛ وجعلوا أعلام الميمنة والميسرة على صورة السباع؛ وجعلوا في الأجنحة أمثال ما لطف منها كالنمر والذئب؛ وجعلوا في الطلائع كصُوَر الحيّات وما خَفيَ فعله من هوامّ الأرض؛ وتغلغل القوم في هذه المعاني.

قال: والذي ذكرناه من أخبارهم هو المشهور. والله تعالى أعلم.

ذكر أخبار ملوك الروم وأنسابهم

قال المسعوديّ: قد تنازع الناس في الروم ولأيّ عِلّة سُمّوا بهذا الاَسم، فقيل لإضافتهم لمدينة رُومِيَة[٤] وٱسمها بالرومية روماس. فعُرّب هذا الاَسم فسُمِّي مَن كان بها روما، والروم لا يسمّون أنفسهم في لغتهم إلاّ رومس. ومنهم مَن رأى أن هذا الاَسم ٱسم الأب الأوّل، وهو روم بن شماخلين بن هُوبان بن علفا بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. ومنهم مَن رأى أنهم سُمّوا بٱسم جدّهم رومس بن لبطى بن نويفل بن روميّ بن الأصغر بن النفر بن العيص، وقيل غير ذلك. وقد ذكرنا في الأنساب شيئًا من ذلك.

قال المسعوديّ: وغلبت الروم على ملك اليونانيين، فكان أوّل مَن ملك منهم طوخاس وهو جانيوس الأصغر بن روم بن شماخلين، فكان مُلْكه ٱثنتين وعشرين سنة.

---

(١) استنبط الماء: أي استخرجه. (٢) أثار الأرض: حرثها للزراعة.
(٣) طبع الشيء: صنعه، أو نقشه ورسمه، أو صاغه.
(٤) رومية: هي مدينة رياسة الروم، حسب قول الأصمعي؛ قيل: هي مسماة باسم رومي بن لنطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام، وقيل: إنما سمي الروم رومًا لإضافتهم إلى مدينة رومية واسمها رومانس بالروميّة، وهي شمالي وغربي القسطنطينية بينهما مسيرة خمسين يومًا أو أكثر... (معجم ياقوت).

وقيل إنّ أوّل مَن ملك من ملوم الروم قَيْصَر، واسمه غالوس أوليوس. فكان مُلْكه ثماني عشرة سنة.

وقيل أوّل مَن ملك منهم بعد ملوك اليونانيين برومية بوليس. فكان مُلْكه سبع سنين ونصفًا. قال: ورومية بنيت قبل الروم بأربعمائة سنة.

ثم ملك بعده ٱبنه أغسطس قَيْصَر. وكان مُلْكه ستًّا وخمسين سنة، وهو أوّل مَن تَسمَّى بقَيْصَر، وإنما سُمّي بذلك لأنّ أمّه ماتت وهي حامل به فشُقّ بطنُها عنه، ومعنى قَيْصَر بقر[١]، وكان يفتخر بأنّ النساء لم تلده، وحقيقة هذه اللفظة بالعجمية جَيْشَر، قيل إنما سمي جيشر لأنه ولد بشعر يبلُغ عينيه، وٱسم الشعر بالعجميّة حساريه وقيل جشايره، فعرِّب فقيل قَيْصَر، وهو صاحب قُلُوبَطْرَة ملكة اليونان على ما ذكرناه. وٱحتوى هذا الملك على مَقْدُونية وهي مصر والإسكندرية، وحاز ما فيهما من الخزائن، وكانت له حروبٌ كثيرةٌ، وكان يعبد الأوثان. وبنى بأرض الروم مُدُنًا تنسب إليه، وكوّرَ كُورًا. فمن مُدُنه قَيْسارية[٢]. ولاٱثنتين وأربعين سنة خلت من مُلْكه ولد المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام، وعاش هذا الملك بقيّة عمره وقد بطل شقّه لما ثقُلت عليه الحيّة على ما قدّمناه في أخبار قُلُوبَطْرَة.

ثم ملك بعده طياريس. فكان مُلْكه ٱثنتين وعشرين سنة. قال: ولثلاث سنين بقيتْ من ملكه رُفِع المسيح عليه السلام. قال: ولمّا هلك هذا الملك برُومِيَة اختلفت الروم وتحزّبت وأقاموا على ٱختلاف الكلمة والتنازُع مائتَيْ سنة وثمانيًا وأربعين سنة لا نظام لهم ولا ملك يجمعهم.

ثم ملّكوا عليهم طباريس عابس بمدينة رُومِيَة. فكانت مُدّة ملكه أربع سنين.

ثم ملك بعده قلورس برومية. فكان ملكه أربع عشرة سنة، وهو أوّل مَلِك من ملوك الروم شرع في قتل النصارى وأتباع المسيح عليه السلام، فقتل منهم خلقًا كثيرًا، وكانت الروم تعبد التماثيل.

---

(١) بقر الشيء: أي شقه.

(٢) قيسارية: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم، وهي كرسي بني سلجوق ملوك الروم أولاد قليج أرسلان وبها موضع يقولون إنه حبس محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب وجامع أبي محمد البطال وفيه الحمام الذي ذكروا أن بليانس الحكيم عمله للملك قيصر يحمى بسراج... (معجم البلدان).

ولما هلك هذا الملك ملك بعده نيرون. قال: وٱستقام مُلْكه ورغب في عبادة التماثيل والأصنام، وكان ملكه أربع عشرة سنة وشهورًا.

ثم ملك بعده ططس واسبابوس مشتركَيْن في المُلْك. فكان ملكهما ثلاث عشرة سنة، ولسنة من ملكهما سارا إلى الشام، فكانت لهما حروب عظيمة مع بني إسرائيل قتل فيها من بني إسرائيل ثلاثمائة ألف وخرّبا بيت المقدس وأزالا رسمه، وكانا يعبدان الأصنام.

قال المسعوديّ: وذكر في بعض التواريخ أنّ الله تعالى عاقب الروم من ذلك اليوم الذي خرّبوا فيه بيت المقدس أن يُسبى منهم في كلّ يوم سَبْيٌ فلا يومٌ إلاّ والسَّبْيُ واقعٌ فيهم قلّ ذلك أو كَثُر.

ثم ملك بعدهما ذو مطيانس. فكانت مدّة ملكه خمس عشرة سنة.

ثم ملك بعده تبرنوس. فكانت مدّة ملكه سنة واحدة.

ثم ملك من بعده طومانوس. فكانت مدّة ملكه تسع عشرة سنة.

ثم ملك بعده أذربالس. فكانت مدّة ملكه إحدى عشرة سنة، وخرَّب سائر ما بَقِيَ بالشام لبني إسرائيل.

ثم ملك بعده أبطونيس. فكان ملكه ثلاثًا وعشرين سنة. قال: وبنى بيت المقدس وسمّاه إيلياء.

ثم ملك بعده قرمودس. فكانت مدّة ملكه ثلاث عشرة سنة.

ثم ملك بعده سيريرس. فكانت مدّة ملكه ثماني عشرة سنة.

ثم ملك بعده ولده أنطويس. فكانت مدّة ملكه تسع سنين.

ثم ملك بعده أنطويس الثاني. فكانت مدّة ملكه أربع سنين، وفي آخر ملكه مات جالينوس الطبيب.

ثم ملك بعده الإسكندر ماماياس، وتفسير ماماياس العاجز. فكانت مدّة ملكه ثلاث عشرة سنة.

ثم ملك بعده عردياس. فكانت مدّة ملكه ستّ سنين.

ثم ملك بعده ديقيوس وقيل فيه دقيوس. فكانت مدّة ملكه ستين سنة. قال: فأمعن في قتل النصارى، ومن هذا الملك هرب أصحاب الكهف.

ذكر خبر أصحاب الكهف

قال الشيخ عبد الوهّاب بن المبارك بن أحمد بن الحسين الأنماطيّ[١] في كتاب المبتدإ يرفعه إلى وَهْب بن مُنَبِّه[٢]: إنّ أصحاب الكهف كانوا فِتْية من الروم، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز فقال: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣] الآيات التي في سورة الكهف. قال: وكان في إيمانهم عِبْرةٌ وتفكُّر منهم في عِظَم الله وجلالِه ومُلْكه وسلطانِه وأصنافِ خَلْقه، لم يأتهم بذلك وَحْي ولم يقرؤوا كتابًا، ولم يُدْرِكوا زمانَ نبوّة، وكانوا في زمن فترة قبل أن يبعث الله عزّ وجل عيسى ابن مريم عليه السلام، وهذا القول مخالفٌ لما ذكرناه آنفًا، فإنّ المساق الذي قدّمناه من أخبار ملوك الروم يقتضي أن بين رفع عيسى عليه السلام وبين مُلْك دقيوس ما يزيد على مائتي سنة. والله عزّ وجلّ أعلم.

قال: وكانوا شبّانًا متقاربين في السنّ قلّما يتفاوتون، وكانوا من فصيلة[٣] واحدة يجمعهم النسَب، وكانوا في حَسَبٍ عظيم من أحساب الروم، من ولد عظمائهم وملوكهم وأشرافهم، وكان للروم فيهم هوى وصبابةٌ شديدةٌ. وكان مُلْك الروم الأوّل في آباء أولئك الفتْية ويُنقَل في فَصِيلتهم التي كانوا منها أكثر من أربعمائة عام حتى انقرضت تلك الفصيلة وزال الملك عنهم، فكان أولئك الفِتْيةُ عَقِبَ أولئك الملوك وبقيَّتهم، وكان الروم يتمنَّوْنَ مُلْكهم ويمدُّون إليهم أعناقهم لما قد بلغهم ما كان الناس فيه في زمن أسلافهم من الخَفْض[٤] والدعة والعافية والبَسْط والأمن والسَّعة، فكانوا يؤمِّلونهم ويرجونهم، وكانت ملوك الروم قد جَفَوْهم وحرموهم وأقصوهم وأضرُّوا بهم مخافةً منهم على مُلْكهم لما يعلمون من رأي الروم فيهم، وكانوا مع ذلك يكفُّون عنهم أذاهم، ويعرفون أنهم مَفْزَعُ[٥] الروم إن اختلفوا ومُعَوّلهم عليهم، فلم تزل تلك

---

(١) هو عبد الوهاب بن المبارك بن أحمد بن الحسين الأنماطي البغدادي (أبو البركات) محدث، حافظ. توفي ببغداد في ١١ المحرم سنة ٥٣٨ هجرية. من آثاره: تخاريج في الحديث، فوائد في الحديث، وكتاب في الإجازات.

(٢) وهب بن منبّه: هو أبو عبد الله وهب بن منبه اليماني، صاحب الأخبار والقصص، وكانت له معرفة بأخبار الأوائل وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء (ص) وسير الملوك. رأى له ابن قتيبة، على حدّ قوله تصنيفًا في مجلد واحد يذكر فيه الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم. . . (وفيات الأعيان ٦: ٣٥).

(٣) الفصيلة: عشيرة الرجل ورهطه الأدنون وأقرب آله إليه.

(٤) الخفض: الدّعة وسعة العيش.

(٥) المفزع: من يُلجأ إليه عند نزول الخطب. (للواحد والجمع والمذكر والمؤنث).

حالهم فيما بينهم وبين ملوكهم وقومِهم حتى أراد الله تعالى بهم ما أراد من هُدَاهم والإيمانِ الذي نوّره الله في قلوبهم.

قال قائلٌ منهم: إني قد رأيتُ رأيًا وقع في قلبي وأمرًا ثبت فيه، فلستُ أبصِرُ غيرَه، وليس يُخْرِجُه من قلبي شيء، اسمعوا أعرِضُ عليكم، إنّي فكّرتُ في خلق السماواتِ والأرضِ، واختلافِ الليل والنهارِ، والشمسِ والقمرِ، والنجومِ والسحابِ والمطرِ، والأحياءِ والأمواتِ، والنباتِ، والصِّغار والكِبَار، والبقاءِ والفناءِ، والشدّةِ والرخاءِ، وتقلُّبِ الدنيا بأهلِها، والأطباقِ[1] التي تنصرف عليها الخلق طَبَقًا بعد طَبَق، وقومًا عن قوم: من مَوْتٍ وحياةٍ، ونَقْصٍ وزيادة، وخَفْضٍ ورَفع، وغِنًى وفقرٍ، وطُولِ عُمْر ونَقْصٍ آخر، ومَوْتِ صغير وهَرَم كبير، وأشباهٍ لذلك كثيرة. وهي أكثر من أن تُعَدّ وتُوصَف أو تحصَى؛ فلمّا نَظرتُ فيها وأعملتُ الرأي والنظرَ أجمع رأيي على أنّ لها خالقًا بديعًا ابتدعها؛ وربًّا يملكها ويُدَبِّرها، ويخلقها ويرزقها، ويُغْنِيها ويُفْقِرُها، ويَرْفعها ويَخْفِضُها، ويُحْيِيها ويُمِيتها ويُفْنِيها، تتقلّب في قَبْضته وتعيش برزقه؛ فلمّا تمّ لي الرأي نظرتُ في عظمة هذا الربّ الذي ابتدع هذا الخلقَ وضَبَطَه، ودبَّره وأحكم أمرَه، فإذا قُدْرتُه تأتي من وراء ذلك كلِّه، ليس من هذا الخلقِ شيءٌ يفُوتها ولا يخرج منها، وإذا هي محيطةٌ بكلّ شيء ومن وراء كلّ شيء، ثم نظرتُ في عظمة الربّ هل أصفها كما وصفتها القُدرة، وهل أعلم كُنْهَهَا[2]؟ فتحيَّرتُ فيها، وعجز عنها الحلم والعلم، وحَسَر عنها العقلُ والنظر، وما بَقِيَ مما لم أذكره لكم معرفة القلب ولا نَصِفُه إلاّ أنه قد أُلهِم بمعرفته وأُسِرّ بها أكثر وأعظم وأعجب مما وصفتُ وشرحتُ لكم، فماذا تقولون، وماذا تعرفون، وماذا تفعلون؟.

قالوا: قد قُلتَ قولاً عظيمًا ووصفتَ أمرًا عجيبًا، وما نَحسَبك إلاّ قد أصبتَ فيه الرأيَ والنظرَ، وقد صدّقناك وتابعناك ورأينا رأيكَ وواقعُ قلوبَنا منه ومن معرفته مثلَ الذي عرفتَ وواقعُ قلبَك، وإن كنّا لنرى مثلَ الذي رأيتَ من أعاجيب هذا الخَلْق وعظمة هذا الخالق، وإن كان ليكثُر أن يخطُر على قلوبنا منه مثلُ ما خطرَ على قلبك، ولكِنّا لم نشرح منه ما شرحتَ ولم نصف منه ما وصفت، ولم نعمل الرأيَ والنظرَ في معرفته مثلَ ما أعملتَ وعرفتَ. ولكنّ اللّهَ أراد هُداك وتفضيلكَ وإكرامك بما سبقتَ إليه من هذا القول وهذا العلم وهذه المعرفة، ولكن حدِّثنا عمّا نسألك

---

(١) الأطباق: جمع الطبق، وهي الحال والمنزلة.

(٢) الكنه: الحقيقة.

عنه. وإنما نظرنا فيه بعدَما سمعنا قولَك؛ هل ينبغي لهذا الربّ الذي وَصَفتَه بما وَصَفتَه من العظمة أن يكون له شريكٌ في مُلْكه، أو حاجةٌ إلى شيء من خَلْقه، أو هل يَغْلبه شيءٌ يستعين عليه بغيره؟

قال لهم: لو كان له شريكٌ في شيء من أمره لَضَبَط[١] ما ضَبَط، ولو كانت به حاجةٌ إلى أحدٍ من خَلْقه لكان مثلَهم. ولو كان يستعين على شيء يغلبه بغيره إذًا ما بَلَغَتْ قُدْرتُه ما بَلَغَتْ، ولا أحاطتْ بما أحاطتْ به، ولا وَسع ما اتّسع له من أمر خَلْقه، وتدبير ما خَلَقَ ورَزَق وأماتَ وأحيا.

قالوا له: صدقت وعرفنا ما تقول وثبت في قلوبنا، ولكن حدّثنا ما بال خلقه يشركون به وهم يعرفونه حقّ معرفته. قال: لأنه خلق فيهم الأهواء وطبع فيهم الشهوات، وجبَلهم[٢] على الضَّعف، وثَبَّتَ معهم الشيطان. فمن قِبَلَ هذا عدلُوا به وهم يعرفون أنّ الذين يدعون من دونه لا يُحيُونهم ولا يُميتونهم، ولا يخلقونهم ولا يرزقونهم، ولا يضرُّونهم ولا ينفعونهم. إذا مسّهم الضُرُّ فإيّاه يدْعون وإليه يَجْأرون، فعند ذلك اجتمع رأيهم على أن يأووا إلى الكهف، وأن يعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله، فعندها قالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤] إلى قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥] قال: فلما اْعتزلوهم وما يعبُدون من دون الله آوَوْا إلى الكهف رجاءَ أن ينشُر لهم ربهم من رحمته ويهيِّىء لهم من أمرهم مِرْفقا[٣]. قال: وأرادوا أن يكونوا في عُزْلة من قومهم وشِرْكهم حتى يفرق لهم رأيُهم، فألقى الله عليهم السُّبَات.

قال: وهم من مدينة من مدائن الروم يقال لها أفْسُوس[٤]، ومِلِك الروم يومئذ دقيوس، ويقال ـ والله أعلم ـ إنّ عدّتهم سبعة، كان عبد الله بن عباس يسمّيهم بأسمائِهم ويقول: ما يعلمهم إلا قليل وأنا من أولئك القليل، منهم مرطالوس، ونونوس، ودانيوس، وسراقيون، وأسطاطالوس، ومكسلميس، وتمليخا، وهو الذي بعثوه بِوَرَقِهم[٥] إلى المدينة ليرتادَ[٦] لهم. هذا قول اْبن عباس، قال: وكانوا قومًا

(١) ضبط الشيء: أحكمه وأتقنه.
(٢) جبلهم على الضعف: طبعهم عليه.
(٣) المرفق: حسن الصنيع، أو ما يرتفق به من غذاء أو عشاء، وهو المراد.
(٤) أفسوس: مدينة في جزيرة باسمها في البحر الأبيض على مقربة من ساحل آسيا الصغرى.
(٥) الورق: المراد بها النقود المضروبة من الفضّة.
(٦) المراد: ليطلب لهم الغذاء.

يطلبون الصَّيد لِمَا مسَّهم من الضُّرّ والحاجة ليس لهم كبيرُ معيشةٍ غيرَه، فقالوا قولهم هذا ونظروا ما نظروا، وهم يومئذ في الجبل الذي فيه كَهْفُهم يطلبون الصيد ومعهم كلابهم وبُزاتُهم وقِسِيُّهم[(١)] ونَبْلُهم. فلمّا أجمع رأيُهم أن يأوُوا إلى الكَهْف ليأتمروا[(٢)] فيه، هل يُقيمون مع قومهم على شِرْكهم، أم يفارقونهم فينتجعون[(٣)] ناحيةً من الأرض يحِلُّون فيها ويوحِّدون فيها ربَّهم. فبينا هُمْ على ذلك ألقَى الله عليهم السُّباتَ وأخفَى على جميع خَلْقه مكانهم، وصَرَف عنهم الأبصار والعقول، فليس يُبصرهم أحدٌ ولا يَفْطِن بمكانهم، فلَبِثوا في كَهفهم ثلاثمائةِ سنينَ وٱزدادوا تِسْعًا، حتى ٱنقرَضَتِ الأمّةُ التي كانوا فيها والمَلِك الذي كان عليهم، وظهر المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام وآمنَ به الناس وٱتّبعوا ملّته ورفعه الله إليه وذهب زمانُه وزمانُ أهل ملّته وهم في كهفهم.

قال: وقد كان عيسى ابن مريم عليه السلام قبلَ أن يرفعه الله يحدّث عنهم وعن إيمانهم وبصيرتهم[(٤)]، وكيف تفكّروا في عظمة إلٰههم، وكيف ألقَى الله عليهم السُّباتَ في كهفهم، وكيف أخفَى مكانهم عن الناس، ولا ينبغي لأحد أن يَهْتدي إليهم ولا يعرفَ مكانهم، وكان يخبر أنّ الله سيردّ إليهم أرواحهم ويدلّ على كهفهم ليكونوا عِبْرة لمن خَلْفهم إن أراد أن يعتبر بهم.

قال: فردّ الله إليهم أرواحهم بعد أن لَبِثوا في كهفهم العِدّة التي ذكرها الله عزّ وجلّ في القرآن ولَزِمَهم كلبُهم، فلبِثَ سِنِيهم كلّها، كما أخبر الله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ﴾ [الكهف: ١٨] والوصيد: فناء الكَهْف الذي فيه موضع الباب، وكان الكلب من كلاب صَيْدهم ولم يطعم ولم يشرب ليجعله الله آية من آياتهم.

قال: فلمّا ردّ الله عليهم أرواحهم ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠] وهم حينئذ يظنون أنّ قومهم أحياء، وأنهم على ما يَعهَدون من حالهم وشِركهم وعُتُوّ مَلِكهم، فٱنطلق رجل منهم يقال له تمليخا، وكان أشدّهم وأنجدَهم[(٥)]، فتوجّه حتى إذا خالط رَبَضَ[(٦)]

---

(١) القسيّ: جمع القوس، وهو آلة على هيئة هلال ترمى بها السهام (تذكر وتؤنث).
(٢) ليأتمروا فيه: أي ليتشاوروا.
(٣) انتجع: قصد.
(٤) البصيرة: العقيدة والرأي.
(٥) أنجدهم: أي أشجعهم.
(٦) ربض المدينة: ما حولها.

المدينة أنكره وأنكر ما وجد به من الناس والدوابّ والبُنيان وغير ذلك، ووجد الناس على حال لم يكن يَعْهدها وسُنّةٍ لم يكن يَعْرفها، ووجدهم يبتاعون بوَرِقٍ لا يُشْبِه الوَرِق الذي معه. فتحيَّر وأنكر وأقبلَ وأدبر، وأبطأ على أصحابه حتى خافوا عليه، وظنّوا أنه فُطِن به وقُدِر عليه. فلمّا طال عليه ذلك دخل المدينةَ من ناحيةٍ أخرى من نواحيها خِفْيَةً فوجد حالَ أهل المدينة على حال أهل الرَّبَضِ في كلّ شيء، فلمّا شكّ وٱرتاب وٱلتبس عليه رأيُه عَمِد إلى مشيخةٍ من أهل المدينة توسَّم فيه الخير ليتجسّس ويسمعَ قولهم. فوجد معهم الإنجيل يقرؤونه، فسمع ما فيه من توحيد الله وعظمته وعذابه وسُنّته وشرائِعه وحلاله وحرامِه، فعرف ذلك وأذعَنَ إليه وأنصتَ يسمع حتى إذا فَرَغوا من قراءتهم سألهم عن كتابهم فقالوا: هذا كتاب الله الإنجيل الذي أُنزِل على عيسى ابن مريم عليه السلام نبيّه. قال: وأين عيسى؟ قالوا: قد رفعه الله تعالى إليه. قال: وكم لبث فيكم؟ قالوا: ثلاثًا وثلاثين سنة. قال: وهل رأيتموه وأتيتموه وأدركتم زمانه؟ قالوا: لا، كان قبل أن نُولَد، ووجدنا كتابه في أيدي آبائنا. قال: أفكلّ هذه المدينة تؤمن بهذا النبيّ وبهذا الكتاب وتعمل بما فيه مما أسمع من حلاله وحرامه؟ قالوا: نعم، إلاّ مستحقًّا بذنب أو ظالمًا لنفسه. قال: فهل سمعتم بالمِلك الذي يقال له دقيوس؟ قالوا: نعم. قال: فكم له منذ هلك؟ قالوا: أكثر من ثلاثمائة عام. قال: فهل بَقِيَ له عَقِبٌ، أو لأحدٍ من أهل مملكته يعمل بعمله؟ قالوا: لا. قال: فلو أراد أحد أن يعمل بمثل عمله ما كنتم تفعلون به؟ قالوا: نقتله أو نخرجه من بين[1] أظهرنا.

فلمّا آمنهم واطمأنّ إليهم ورأى سَمْتَ[2] الإسلام وهَدْيَه عليهم وفّقه الله وهداه لمسألة سألهم عنها. قال: أخبروني، هل كان نبيّكم عيسى عليه السلام يخبركم عن سبعة رَهْط خرجوا من هذه المدينة في زمن دقيوس وقومه، وهربوا إلى الله بأنفسهم ودينهم فرارًا من دقيوس وقومه، وما كانوا يعبُدون من دون الله حتى آوَوْا إلى الكهف في هذه الجبال فٱستخفُوا فيها. فلمّا قال لهم هذا أوجسوا[3] في أنفسهم أنه منهم، قالوا: نعم، قد كان يخبرنا عنهم فلعلك منهم فإنّا ننكر حالك كلّه. قال: فهل كان عيسى عليه السلام فيما بلّغكم سَمَّى أصحاب الكهف؟ قالوا: نعم؛ قال: فسمّوهم لي

(١) من بين أظهرنا: أي من بيننا.
(٢) السّمت: المذهب، أو الطريق الواضح.
(٣) أوجسوا في أنفسهم: أي أحسّوا.

بأسمائهم، فسمّوهم حتى إذا ذكروا اسمه تمليخا قال: فأنا تمليخا وأنا أحدهم، فخرُّوا له سجَّدًا كما صنع إخوة يوسف بيوسف يوم دخلوا عليه؛ وكانت تحيّتهم فيما بينهم السجودَ يومئذ، ثم أدخلوه مسجدهم وعظّموه ووقّروه وأكرموه ورفعوه وجمعوا له أهلَ مدينتهم وقرّاءهم وفقهاءهم، فتبرّكوا به، وجعلوا له عيدًا عظيمًا، وأقام أيامًا بين أظهرهم ثم قال لهم: إنّ أصحابي الذين يحدّثكم عنهم عيسى عليه السلام لا أراهم إلاّ وقد خافوا عليّ وساء ظنّهم وهم يظنّون أنّ دقيوس حيّ؛ وأنّ الزمان زمانُه، وأنّ الدين دينُه، فانطلقوا بنا نُعلمهم كيف أهلكه الله وقومَه وطهَّر الأرضَ منهم، وكيف اُستبدل الله به وبأهل ملّته أمّة يوحِّدونه ويعرفونه ويَهدون بالحقّ وبه يَعدِلون. فانطلقوا معه حتى انتهَوْا إلى الكهف فوجدوا كلبَهم باسطًا ذراعَيْه بالوصيد فقالوا حين رأَوْه: وهذا الكلبُ أيضًا من علاماتكم التي كان يحدّثنا عنها عيسى عليه السلام، وقد كان يحدِّث أنّ أصحاب الكهف لا ينظر إليهم أحدٌ من خلق الله من يوم يدخلون الكهف إلى أن ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام إلا رجلٌ واحدٌ منهم، وهو الذي يدلّ عليهم وعلى مكانهم، وأنت هو؛ فدخل على أصحابه فأخبرهم بما رأى وما لَقِيَ، ثم كان آخر العهد بهم. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١]. قال: فبنوه حول الكهف وجعلوا الكهف في وسطه وكتبوا القصّة على حيطانه.

قال وهب: فبلغني ـ والله أعلم ـ أنّ النبيّ ﷺ قال: إنّ نزول أخي عيسى ابن مريم عليه السلام عِلْمٌ للساعة، وإنّ الله يبشّرهم عند نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، وإنه يحجّ في سبعين ألفًا فيهم أصحابُ الكهف لأنهم لم يموتوا، ثم تُقبل ريحٌ صفراءُ يمانيّة، ألين من الحرير، وريحُها ريحُ المسك فتقبِض روح عيسى عليه السلام وأرواحَ مَنْ معه. انتهى خبر أصحاب الكهف، فلنرجع إلى ما كنّا فيه من أخبار ملوك الروم.

قال: ثم ملك بعد دقيوس جالش. فكانت مدّة ملكه ثلاث سنين. ثم ملك بعده قليطانس. فكانت مدّة ملكه عشرَ سنين. ثم كانت بعده ملوك الروم المتنصِّرة.

ذكر أخبار ملوك الروم المتنصِّرة وهم ملوك القسطنطينية

قال المسعوديّ: لمّا هلك قليطانس ملك بعده قسطنطين برُومِيَة، وهو أوّل من ٱنتقل من ملوك الروم عن رومية إلى بِيزَنْطِيَا، وهي القسطنطينية، فبناها هذا الملك وسمّاها بهذا الٱسم. قال: وكان خروجه من رومية ودخوله في دين النصرانية لستّ[١] خلتْ من مُلْكه، وذلك أنّ أمّه هلانا خرجتْ إلى أرض الشام وبنت الكنائس وسارت إلى بيت المقدس وطلبت الخشبة التي تزعُم النصارى أنّ عيسى عليه السلام صُلِبَ عليها، فلمّا ظفِرتْ بها حَلَّتها[٢] بالذهب والفضة وٱتّخذت يومَ وجودها عيدًا، وهو عيدُ الصليب، لأربع عشرة ليلة خلت من أيلول. وهي التي ٱبتنت كنيسة حِمْص على أربعة أركان، وٱستخرجت الدفائن بمصر والشام، وصرفت ذلك في بناء الكنائس وتشييد دين النصرانية، فكلّ كنيسة بالشام ومصر من بناء هذه الملكة هلانا.

قال: ولسبع عشرة سنة خَلَتْ من مُلْك قُسْطَنطين ٱجتمع ثلاثمائة وثمانية عشر أسقُفًا بمدينة نِيقْيَة[٣] بأرض الروم فأقاموا دين النصرانية. وهذا الٱجتماع أوّل الٱجتماعات الستة التي تذكرها الروم في كلامهم وتسمِّيها القوانين، ومعنى هذه الٱجتماعات السُنودسات واحدها سونودس. فالأوّل بنِيقْيَة وكان الٱجتماع فيه على أرنوس، وهذا ٱتفاق من سائر أهل دين النصرانية. والسُنودس الثاني بقسطنطينية على مقدونس، وعِدّة المجتمعين فيه من الأساقفة مائة وخمسون رجلاً. والثالث بأقسيس وعِدّة مَن ٱجتمع فيه من الأساقفة مائة رجل. والرابع بخلقدونية وعددهم ستمائة وستون رجلاً. والخامس بقسطنطينية وعددهم مائة وستة وأربعون رجلاً. والسادس كان في ملكة المدن، وعِدّتهم مائتان وثمانون رجلاً.

قال: وكان السبب في دخول قسطنطين في دين النصرانية أنه خرج في بعض حروب أبرجان أو غيرهم من الأمم، فكانت الحرب بينهم سجالاً نحوًا من سنة، ثم كانت عليه في بعض الأيام فقُتل من أصحابه خلق كثير وخاف البوار فرأى في نومه

---

(١) أي لست سنوات. (٢) حلّتها: أي زينتها.

(٣) نيقية: مدينة من أعمال إسطنبول على البرّ الشرقي، وهي المدينة التي اجتمع بها آباء الملة المسيحية.

كأنّ رماحًا نزلت من السماء فيها عَذَب[١] وأعلامٌ على رأسها صُلبان من الذهب والفضة والحديد والنحاس وأنواع الجواهر والخشب، وقيل له: خذ هذه الرماح وقاتل بها عدوّك تنتصر، فجعل يحارب في النوم فرأى عدوّه قد آنهزم، فآستيقظ من نومه ودعا بالرماح وركّب عليها الصُّلبان مثل ما رأى، ورفعها في عسكره وزحف إلى عدوّه فكسرهم وأخذهم السيف، فرجع إلى مدينة نِيقْيَة وسأل عن تلك الصُّلبان وهل يعرفون ذلك في شيء من الآراء والنِّحَل؟ فقيل له: إنّ بيت المقدس من أرض الشام يجمع هذا المذهب، وأخبروه بما فعله مَنْ قبله من الملوك من قتل النصارى، فبعث إلى الشام وبيت المقدس وحشر له ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا فأتَوْه بنِيقْيَة فقصّ عليهم أمره فشرعوا له دين النصرانيّة؛ فهذا هو السُّنودس[٢] الأوّل.

وقيل: إنّ أمّه كانت قد تنصّرت وأخفت ذلك عنه قبل هذه الرؤيا. وكان ملكه إلى أن هلك إحدى وثلاثين سنة، وقيل خمسًا وعشرين.

ثم ملك بعده قُسْطنطين بن قُسْطنطين. فكانت مُدّة ملكه أربعًا وعشرين سنة. وابتنى كنائس كثيرة وشيّد دين النصرانيّة.

ثم ملك بعده آبن عمه بوليانس المعروف بالحُنَيفي ويسمّى البِرْباط. قال: ولمّا ملك رجع عن دين النصرانية وغيّر رسومها وغزا العراق في ملك سابور بن أردشير فأتاه سَهْم غَرْب[٣] فذبحه. ولمّا هلك جَزِع مَن كان معه من الملوك والبطارقة ففزعوا[٤] إلى بِطْريق كان معظَّمًا عندهم يقال له يونياس، وقيل: إنه كان كاتبًا للملك الماضي، فأبى عليهم إلاّ أن يرجعوا إلى دين النصرانية، فأجابوه إلى ذلك فملّك عليهم يونياس المذكور.

قال: ولمّا ملَك كان له مراسلات مع سابور ومُهادنة وآجتماع، ثم آنصرف بجيوش النصرانيّة موادعًا لسابور وأخلفَ عليه ما أتلفَ الملك الماضي من أرضه بأموال حَمَلها إليه وهدايا من ألطاف الروم، وشيّد النصرانيّة وأعاد معالمها، ومنع من عبادة الأصنام والتماثيل. وقَتَلَ مَن كان على عبادتها. فكان مُلْكه سنة.

ثم ملك بعده أوالس قال: ولمّا ملك كان على دين النصرانيّة ثم رجع عنه، وهلك في بعضِ حروبه، فكان مُلْكه إلى أن هلك أربع عشرة سنة. وقيل: إن في أيامه آستيقظ أهل الكهف.

---

(١) عذب: جمع عذبة، وعذبة الرمح خرقة تشدّ على رأسه.

(٢) المراد بالسنودس: الاجتماع.

(٣) سهم غرب: أي لا يدرى راميه.

(٤) فزع إليه: أي لجأ واستغاث.

ثم ملك بعده غراطيانس. فكانت مدّة مُلْكه خمس عشرة سنة، ولسنةٍ من مُلْكه كان اَجتماع النصرانيّة، وهو آخر الاَجتماعات، فأتمّوا القول في روح القدس، وهو السُّنودس الثاني.

ثم ملك بعده بدرسيس الأكبر، وتفسير هذا الاَسم عطيّة الله. قال: ولما ملك قام بدين النصرانية وعظّم أمرها واَبتنى الكنائس، ولم يكن من أهل بيت المقدس ولا من الروم؛ بل كان أصله من الأشبان، وهم بعض الأمم السالفة. قال: وقد كانت ممن ملكت الشام ومصر والمغرب والأندلس. وقد تنازع الناس فيهم، فذكر الواقديّ[١] في كتاب فتوح الأمصار أنّ بدءهم من أهل أصبهان، وأنهم ناقلة من هنالك، وهذا يُوجِب أنهم من قِبَل ملوك فارس.

قال: وذكر عُبَيد الله[٢] بن خُرّدَاذْبَه نحو ذلك، وساعدهما على ذلك جماعة من أهل السِّير والأخبار.

قال المسعوديّ: والأشهر من أمرهم أنهم من ولد يافث بن نوح، وهم اللذارقة ملوك الأندلس واحدهم لَذْرِيق، وقد تُنُوزع في دياناتهم، فمنهم من رأى أنهم على دين المجوس، ومنهم مَن رأى أنهم على مذهب الصابئة وغيرهم من عَبَدَة الأصنام. قال: وكان مُلْك بدرسيس إلى أن هلك تسعَ عشرةَ سنة.

ثم ملك بعده أوقاديس. فكان مُلْكه أربعَ عشرةَ سنة وكان على دين النصرانية.

ثم ملك بعده بدرسيس الأصغر، وذلك بمدينة أقسس، وجمع مائتي أسقف وهو الاَجتماع الثالث من الأسنودسات، ولعن فيه نسطورس البطرك، وإليه تنسب النسطوريّة من النصارى. وكان مُلْك هذا الملك إلى أن هلك اثنتين وأربعين سنة.

ثم ملك بعده مرقياقس وزوجته بلجاريا. فكانت ملكة معه. وكان مُلْكهما سبع سنين، وفي أيامهما كان خبر اليعاقبة ووقوع الخلاف بينهم في الثالوث. قال: وأكثر

---

(١) الواقدي: هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هشام، وقيل مولى بني سهم بن أسلم؛ كان إمامًا عالمًا له التصانيف في المغازي وغيرها، وله كتاب «الردة» ذكر فيه ارتداد العرب بعد وفاة النبي ﷺ ومحاربة الصحابة رضي الله عنهم، لطليحة بن خويلد الأزدي والأسود العنسي ومسيلمة الكذاب، وما أقصر فيه... (وفيات الأعيان ٤:٣٤٨).

(٢) هو عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه الخراساني (أبو القاسم) مؤرخ، كاتب، راوية للأخبار والآداب. توفي في حدود سنة ٣٠٠ هجرية. من مصنفاته: المسالك والممالك، الندماء والجلساء، اللّهو والملاهي، كتاب الطبيخ، وأدب السماع.

اليعاقبة من النصارى بالعراق وتكريت والموصل والجزيرة ومصر وأقباطها إلا اليسير فإنهم مَلَكيّة، والنوبة والأرمن يعاقبة؛ ومطران اليعاقبة بين الموصل وبغداد وتكريت، وكان لهم بالقرب من رأس[١] عَيْن واحد فمات، وٱنتقل مطرانها إلى بلاد حلب وقِنّسْرِين[٢] والعواصم.

قال المسعوديّ: وكرسي اليعاقبة رسمه أن يكون بمدينة أنطاكية، وكذلك لهم كرسي بمصر.

ثم ملكا بعدهما ليون الأصغر بن ليون. فكان ملكه ستَّ عشرةَ سنة، وفي أيامه أحرم مسعدة اليعقوبيّ بطرك الإسكندرية، وٱجتمع له من الأساقفة ستمائة وثلاثون أسقفًا. وفي تاريخ الروم أنّ عدّة المجتمعة ستمائة وستون رجلًا، وذلك بخلقدونية، وهذا الاجتماع هو السُّنودس الرابع عند الملكية. واليعاقبة لا تعتدّ بهذا السنودس.

قال: واليعاقبة أضيفتْ إلى يعقوب البرذعيّ وبه عُرفت، وكان من أهل أنطاكية، وكان يعمل البراذع[٣] بها.

ثم ملك بعده ابنٌ له على دين الملكية. فكانت مدّة مُلْكه إلى أن هلك سنة.

ثم ملك بعده بير وهو من بلاد الأَرْمِينان، وكان ملكه سبعَ عشرةَ سنة، وكان يميل إلى رأي اليعاقبة، وكان له حروب مع خَوارجَ خرجوا عليه في دار مُلْكه فظفِر بهم.

ثم ملك بعده نسطاس، وكان يذهب إلى مذهب اليعاقبة، وهو الذي بنى مدينة عَمُّورِيّة[٤]، وأصاب كنوزًا ودفائن عظيمة. وكان ملكه تسعًا وعشرين سنة.

---

(١) رأس عين: هي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين ودنيسر، وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخًا وقريب من ذلك بينها وبين حران، وهي إلى دنيسر أقرب، بينهما نحو عشرة فراسخ، وفي رأس عين عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نحو الخابور... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) قنسرين: كانت مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم، وبعض يدخل قنسرين في العواصم، وما زالت عامرة آهلة إلى أن كانت سنة ٣٥١، وغلبت الروم على مدينة حلب وقتلت جميع ما كان بربضها فخاف أهل قنسرين وتفرقوا في البلاد... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) البراذع: جمع البرذعة، وهي ما يوضع على الحمار أو البغل، ليركب عليه، كالسرّج للفرس.

(٤) عمورية: هي المدينة التي فتحها المعتصم سنة ٢٢٣؛ وعمورية: بليدة على شاطىء العاصي بين فامية وشيزر فيها آثار خراب لها دخل وافر ولها رحى تغل مالاً... (معجم البلدان لياقوت).

ثم ملك بعده نوسطيانس تسع سنين.

ثم ملك بعده سطيانس. فكان ملكه تسعًا وثلاثين سنة، وبنى كنائس كثيرة، وشيّد دين النصرانيّة وأظهر مذاهب الملكية، وبنى كنيسة الرُّها[١]، وهي إحدى عجائب مباني العالَم.

قال: وقد كان في هذه الكنيسة مِنديل يعظّمه أهل دين النصرانية، وهو أن اليسوع الناصريّ حين أُخرج من ماء المعموديّة نُشِّف به، فلم يزل هذا المنْديل يُتداوَل إلى أن قرّر على كنيسة الرُّها؛ فلمّا اشتدّ أمر الروم على المسلمين وحاصروا الرُّها في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة أعطي هذا المنديل للروم فوقعت الهدنة عليه، وفرح الروم به فرحًا عظيمًا.

ولما هلك هذا الملك ملك بعده قوسطيس وهو ابن أخيه، وكان ملكه إلى أن هلك ثلاث عشرةَ سنة.

ثم ملك بعده طباريس. فكان ملكه أربع سنين، وأظهر في مدّة ملكه أنواعًا من اللباس والآلات وآنيةِ الذهب والفضة وغير ذلك من آلات الملوك.

ثم ملك بعده مورقيس، وقيل فيه موريقس. فكانت مدّة ملكه عشرين سنة، وهو الذي نصَّر كِسْرى أبرويز على بَهْرام جُوبِين على ما قدّمناه، ثم قُتل وانتصر أبرويز لولده وبعث بجيوش الفرس، وكانت له حروب ذكرناها.

ثم ملك بعده قرقاس. فكان ملكه إلى أن قُتل أيضًا ثماني سنين.

ثم ملك بعده هِرَقْلُ وكان بطريقًا في بعض الجزائر قبل ذلك. قال: ولمّا ملك عمّر بيت المقدس وذلك بعد انكشاف[٢] الفرس عن الشام، وبنى الكنائس. ولسبع سنين خلت من ملكه كانت هجرة سيدنا رسول الله ﷺ.

ذكر ملوك الروم بعد ظهور الإسلام

قال المسعوديّ: وجدتُ في كتب التواريخ تنازُعًا في مولد النبيّ ﷺ وفي عصر مَن كان من ملوك الروم؛ فمنهم من ذهب إلى ما قدّمناه، ومنهم من رأى أنّ مولده ﷺ كان في مُلْك نوسطينوس. وكان ملكه سبعًا وعشرين سنة.

---

(١) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ سميت باسم الذي استحدثها، وهو الرهاء بن البلندي بن مالك بن دعر... (معجم البلدان).

(٢) أي بعد انهزامهم منها.

ثم ملك بعده نوسطينوس الثاني، وكان ملكه عشرين سنة.

ثم ملك بعده هِرَقْلُ بن نوسطينوس، وهو الذي ضرب الدنانير والدراهم الهِرَقْلِيّة. وكان ملكه خمس عشرة سنة.

ثم ملك بعده ٱبنه مورق بن هِرقْل، وهو الذي كتب الزِّيجات في النجوم، وعليه يَعمَل أهل الحساب. وفي تواريخ ملوك الروم فيمن سلف وخلف أنّ المَلِك للروم كان في وقت ظهور الإسلام وخلافة أبي بكر وعمر هِرَقْلُ. وليس هذا الترتيب فيما عداها من كتب تواريخ أهل السِّيَر. وفي تواريخ أصحاب السِّيَر أنّ رسول الله ﷺ هاجر وملك الروم قيصر بن فوق.

ثم ملك بعده قيصر بن قيصر، وذلك في أيام أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه.

ثم ملك بعده هرقل بن قيصر في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الذي حاربه أمراء الإسلام الذين فتحوا الشام على ما نذكره إن شاء الله تعالى في خلافة عمر رضي الله عنه.

ثم ملك بعده مورق بن هِرَقْل في خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه.

ثم ملك بعده فوق بن مورق في خلافة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأيام معاوية بن أبي سفيان.

ثم ملك بعده فلقط بن مورق بقيّة أيام معاوية بن أبي سفيان، وكانت بينهما مراسلات ومُهادنات، وكان مُلْكه في آخر أيام معاوية وأيام يزيد ٱبنه ومعاوية بن يزيد ومَرْوان بن الحكم وصَدْرًا من أيام ٱبنه عبد الملك بن مَرْوان.

ثم ملك بعده لاوِي بن فلقط في بقيّة أيام عبد الملك بن مروان.

ثم ملك بعده جيرون بن لاوِي في أيام الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك أخيه وعمر بن عبد العزيز، ثم ٱضطرب مُلْك الروم لما كان من أمر مَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان وغَزْو المسلمين لهم في البرّ والبحر، فملّكوا عليهم رجلًا من غير أهل بيت المُلْك من أهل مَرْعَش[1] يقال له جرجس. فكان مُلْكه تسع عشرة سنة. ولم يزل مُلْك الروم في ٱضطراب إلى أن مَلَك عليهم قسطنطين بن اليون، وذلك في خلافة أبي العباس السفّاح وأبي جعفر المنصور.

(١) مرعش: بلدة من الشام.

ثم ملك بعده اليُون بن قُسطنطين، وكانت أمّه أرسى ملكةً معه ومشاركةً له في المُلْك لصغر سنّه. وملك في أيام المهدي والهادي.

ثم ملك بعده قسطنطين بن اليون بن قسطنطين، وكانت أمّه مشاركة له وسملت عيناها بعد موته.

ثم ملك بعده نقفور بن استبراق، وكان لهذا الملك مراسلاتٌ وحروبٌ مع الرشيد، وغزاه الرشيد فأعطى القَوَد[1] من نفسه من بعد بَغْي كان منه في بعض مراسلاته، فٱنصرف الرشيد عنه ثم غدر ونَقَض ما كان أعطاه من الانْقياد، فكتم الرشيد أمره لعارض عِلّة كان وَجَدَها بالرَّقّة، ثم تجهّز وغزاه فنزل على هِرَقْلَة[2]؛ وذلك في سنة سبعين ومائة، فحاصرهما سبعةَ عشرَ يومًا فأصيبَ خلقٌ من المسلمين وفَنِيتْ الأزواد والعلوفات، ثم فتحها عَنْوة. وقيل: إنهم بادروا لمّا فَتَحها بطلب الأمان فأُمِّنوا. والأشهر أنه فتحها عَنْوة.

ثم ملك بعده استبراق بن نقفور بن استبراق. وكان مُلْكه في أيام الأمين، ولم يزل ملكًا حتى غَلَب على المُلْك قسطنطين بن فلقط، وكان مُلْكه في خلافة المأمون.

ثم ملك بعده توقيل وذلك في خلافة المعتصم، وهو الذي فتح زِبطرة[3] وغزاه المعتصم بعد فتح عَمُّورِية.

ثم ملك بعده ميخائيل بن توقيل، وذلك في خلافة الواثق والمتوكّل والمنتصر والمستعين، ثم كان بين الروم تنازُعٌ في الملك، فملّكوا عليهم توقيل بن ميخائيل بن توقيل.

ثم غلب على الملك بسيل الصقلبيّ ولم يكن من أهل بيت الملك. وكان مُلْكه في أيام المعتزّ والمهتدي وبعضِ أيام المعتمد.

---

(١) القود: أي القصاص.

(٢) هرقلة: مدينة ببلاد الروم سميت بهرقلة بنت الروم بن أليفز بن سام بن نوح عليه السلام، وكان الرشيد غزاها بنفسه ثم افتتحها عنوة بعد حصار وحرب شديد ورمي بالنار والنفط حتى غلب عليها. . . (معجم البلدان).

(٣) زبطرة: هي أرض مستوية والجبال تحيط بها والشعرة من جميع جهاتها على القرب منها وهي في الجنوب عن ملطية على نحو مرحلتين، وهي في جهة الغرب عن حصن منصور على مرحلتين أيضًا، وبينها وبين حصن منصور الجبل والدربند. . .

ثم ملك بعده اليون بن بسيل. فكان مُلْكه بقيّة أيام المعتمد وصَدْرًا من أيام المعتضد إلى أن هَلَك.

ثم ملك بعده الإسكندروس فلم تَحمد الروم أمره فخلعوه.

وملّكوا عليهم أخاه لاوي بن اليون بن بسيل الصقلبيّ. فكان ملكه بقيّة أيام المعتضد وأيام المكتفي وصَدْرًا من أيام المقتدر.

ثم هلك وخلّف ولدًا صغيرًا يقال له قسطنطين فملك وغلب على مشاركته في الملك أرمنوس بطْريق البحر صاحب حربه. قال: فزوّج قسطنطين الصبيّ بأبنته، وذلك في بقيّة أيام المقتدر وأيام القاهر والراضي والمتقي، وذلك في سنة أثنين وثلاثين وثلاثمائة.

قال المسعوديّ: فملوك الروم في هذا الوقت ثلاثة، فالأكبر منهم والمدبّر للأمور أرمنوس المتغلّب على المُلْك، ثم قسطنطين بن لاوي بن اليون بن بسيل، والثالث أبنٌ لأرمنوس يُخاطَب بالمَلِك أسمه أسطفانس وجعل أرمنوس أبنًا له آخر صاحب الكرسيّ بالقسطنطينية، وهو البطريك الأكبر الذي يأخذون عنه دينهم، وقد كان خصاه قبل ذلك أبوه وقرّبه إلى الكنيسة. وهذا آخر من ذكره المسعوديّ من ملوك الروم ولم نجد من ضبط أمرهم بعده على أتساق فنذكره.

قال: فعدّة ملوك الروم المتنصّرة من قسطنطين بن هلاي الذي أظهر دين النصرانيّة بالروم إلى هذا الوقت أحد وأربعون ملكًا، ولم يعدّ ابن أرمنوس. وسنيهم خمسمائة سنة وسبع سنين.

وقال في ملوك رُومِيَة: والذي وجدت في أكثر كتب التواريخ مما أتفقوا عليه أن عدّة ملوك الروم الذين ملكوا مدينة رُومِيَة، وهم الذين ذكرهم في كتابه وذكرناهم نحن في كتابنا هذا، تسعة وأربعون ملكًا، وجميع عدد سني مُلْكهم، من أوّل مَن مَلَكهم على حسب ما ذكرناه من الخلاف في صدر هذا الفصل إلى قسطنطين بن هلاي، أربعمائة سنة وثلاثون سنة وسبعة أشهر وستة أيام. والله أعلم.

ذكر أخبار ملوك الصَّقَالِبَة والنُّوكَبَرْد

قال المسعوديّ: الصقالبة من ولد ماراي بن يافث بن نوح، وإليه يرجع سائر أجناس الصقالبة وبه يُلْحَقُون في أنسابهم. ومنهم من ينقاد إلى دين النصرانيّة اليعاقبة، ومنهم من لا كتابَ له ولا ينقاد إلى شريعة. وهم أجناس: فمنهم جنس كان المُلْك

فيهم قديمًا في صَدْر الزمان، وكان مَلِكهم يُدعَى ماجك، وهذا الجِنْس يدعى لبنانا، كان يتلو هذا الجنس قديمًا في صَدْر الزمان سائر أجناس الصقالبة وهم اصطبرانة، ومَلِكُهم يُدعَى بصقلائح. وجنسٌ يقال له نامجين، ومَلِكُهم يدعى عرابة، وهذا الجنس أشجعُ الصقالية، وجنس يدعى مَنَاي، وملكهم رتبيل، ثم جنْس يقال له سِرْتين، وهو جِنْسٌ مَهيبٌ عندهم، ثم جِنْسٌ يقال له مراوة، ثم جروانيق وصَاصِين وخشانين ونرانجابين.

قال: والجِنْس الذي يُدعَى سِرتين يحرقون أنفسهم بالنار، وإذا مات لهم ملك أو رئيس يحرقونه ويحرقون دوابّه، ولهم أفعالٌ كأفعال الهند.

قال: ومن الصقالية جِنْسٌ ٱلتحق بالخَزَر والروس. قال: والأوّل من ملوك الصقالية ملك الدير، وله مُدُن واسعة وعمائر كثيرة، وهو يحارب الروم والفرنج والنوكبرد وغيرهم من الأمم، والحرب بينهم سِجَال: ثم يلي هذا الملك من بلاد الصقالية ملوك الترك. قال: والصقالية أجناس كثيرة، ثم اختلفت الكلمة بين أجناسهم فزال نظامهم وملّك كلّ جِنْس منهم عليهم ملكًا.

هذا ما أورده المسعودي من أخبار الصقالية. والله أعلم.

* * *

وأما النُوكَبَرْد فقال المسعوديّ فيهم: إنهم أيضًا من ولد يافث وبلادهم متّصلة ببلاد المغرب، ولهم جزائر كثيرةٌ فيها أممٌ من الناس. وهم ذو بأس شديد ومَنَعَة[١]، ولهم مُدُنٌ كثيرةٌ ويجمعهم بلدٌ واحدٌ.

قال: وأسماء ملوكهم في سائر الأعصار أريكس، والمدينة العُظْمَى من مُدُنهم ودار مملكتهم تُبَّت وهي مدينةٌ عظيمةٌ يخترقها نهر عظيم من أعظم الأنهار ٱسمه سابيط والمدينة على جانبيه.

قال: ومن مُدُنهم التي كان المسلمون ببلاد الأندلس قد غلبوهم عليها وسلبوها منهم وسكنوها ثم ٱستعادها النُوكَبَرْد بعد ذلك من المسلمين مدينة تارة ومدينة طارينو ومدينة سيرنية، ولم يذكُر من أمرهم خلافَ ذلك فنذكره.

---

(١) المنعة: القوة التي يمتنع بها على من يريده.

ذكر خبر ملوك الإفرنجة والجلالقة

قال المسعوديّ: لا خلافَ أنّ الإفْرِنْجةَ والجلالِقَة والصقاليَة والنُوكَبَرْد والأسبان والترك والخَزَر وبُرْجان واللان ويأجوج ومأجوج وغيرَ مَن ذكرنا ممن سكن بلاد الشمال من ولد يافث بن نوح.

قال: والإفرنجةُ أشدّ هؤلاء الأجناس بأسًا، وأمنعُهم وأكثرُهم عُدّة، وأوسعُهم مُلْكًا، وأحسنُهم نظامًا، وأنقيادًا لملوكهم، وأكثرُهم طاعةً.

قال: والجلالقةُ أشدُّ من الإفرنجة وأعظمُ منهم نِكايةً. والرجلُ الواحدُ من الجلالقة يقاوم عِدّة من الإفْرِنْجَة. ثم قال: وكلمة الإفرنجة متّفقةٌ على ملك واحد لا تنازع بينهم في ذلك، ومُدُنهم تزيد على مائة وخمسين مدينة غير الكُور. وكانت أوائل بلادهم قبل ظهور الإسلام في البحر في جزيرة رودس وجزيرة إقريطش[١]، ثم ملكوا بلاد الغرب وأستولوا عليها.

قال: وأوّل ملوك الإفرنجة قلويا وكان مجوسيًا فنصّرته أمرأته عرضلة.

ثم ملك بعده أبنه لذريق.

ثم ملك بعده أبنه دفسوت.

ثم ملك بعده أبنه قادله.

ثم ملك بعده أبنه بيبق.

ثم ملك بعده قادله. وكانت ولايته ستًّا وعشرين سنة، وذلك في أيّام الحَكَم صاحب الأندلس، وتدافع أولادُه بعده ووقع الأختلاف بينهم حتى تفانت الإفرنجة بسببهم.

وسار لذريق بن قادله فملك ثمانيًا وعشرين سنة وستة أشهر، وهو الذي أقبل إلى طرطوشة[٢] فحاصرها.

---

(١) إقريطش: بفتح الهمزة وتكسر، والقاف ساكنة، والراء مكسورة، وياء ساكنة، وطاء مكسورة، وشين معجمة: اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من برّ إفريقية لوبيا، وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى، وينسب إليها جماعة من العلماء. . . (معجم البلدان).

(٢) طرطوشة: مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية وهي شرقي بلنسية وقرطبة قريبة من البحر متقنة العمارة مبنية على نهر أيره ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد في جملتها تحلها التجار وتسافر منها إلى سائر الأمصار. . . (معجم ياقوت).

ثم ملك بعده قادله بن لذريق تسعًا وثلاثين سنة وستّة أشهر.

ثم ملك بعده ٱبنه لذريق ستّة أعوام، ثم خرج عليه قائدٌ للإفرنجة يسمّى يُوسَة فملك الإفرنجة وأقام في الملك ثماني سنين. وهو الذي صالح المجوس على بلده سبع سنين بستمائة رطل ذهبًا وستمائة رطل فضّة يؤدّيها صاحب الإفرنجة إليهم.

ثم ولي بعده قادله وأقام في الملك إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر.

ثم ولي بعده لذريق بن قادله وٱستمرّ في الملك إلى سنة ستّ وثلاثين وثلاثمائة.

هذا ما أورده المسعوديّ من أخبارهم في كتابه المترجم بمروج الذهب ومعادن الجوهر.

ثم اتسعت بعد ذلك ممالكهم وٱنبسطت أيديهم وٱستولوا على أكثر بلاد الغرب وغيرها.

ذكر طوائف السودان وشيء من أخبارهم ونسبهم

قال المسعوديّ: لمّا تفرّق ولدُ نوح في الأرض سار ولدُ كُوش بن كَنْعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر. ثم ٱفترقوا فسارتْ طائفةٌ منهم ميمّمين[1] المشرق، وهم النُّوبة والحَبَشة والزنج. وسار فريقٌ منهم نحو المغرب، وهم أنواع كثيرة: الزغاوَة والكانِم ومَرْنَك وكَوْكَوْ والحِمَى وغانَة وغير ذلك من أنواع الأحابش والدمادِم، ثم افترق الذين يمّموا بين المشرق والمغرب، فصارت الزَّنْج من المكمين والمسكو ودبرا وغيرهم من أنواع الزَّنْج.

قال: ومن مدنهم بَرْبَرا وهي مدينة على خليج من البحر الحبشيّ يسمَّى الخليج البربريّ، طوله خمسمائة ميل وعرضه مائة ميل.

قال: وليستْ هذه بَرْبَرَا هي التي تُنسَب إليها البرابرة الذين بالمغرب من أرض إفريقية. قال: ولباسُ هؤلاء الزَّنْج جلود النمورة، وهي جلودٌ كبيرةٌ تُحمَل من أرضهم إلى بلاد الإسلام. قال: وأقاصِي بلاد الزنج بلاد سفالة وأقاصيه بلاد الواق واق، وهي أرض كثيرةُ الذهب كثيرةُ العجائب والخصب، حارّة. وٱتّخذ بها الزنج دار مملكة وملّكوا عليهم مَلِكًا ٱسمه «وَقْلِيمِي» وهي نسبةٌ لسائر ملوكهم في سائر الأعصار.

---

(١) يمّ الناحية: قصدها، أو توخاها وتعمدها دون من سواها.

قال: ويركب وَقْلِيمِي وهو ملك من ملوك الزنج في ثلاثمائة ألف راكب، ودوابّهم البقر، وليس في أرضهم خيلٌ ولا بغالٌ ولا إبِلٌ ولا يعرفونها، وإنما يركبون البقر بالسروج واللُّجُم[١]، ويقاتلون عليها وهي تعدو بهم كالخيل.

قال المسعوديّ: رأيتُ بالريّ نوعًا من هذه البقر تبرِك كما يبرِك الجملُ وتحمِل وتثُور بأحمالها، وتحمل عليها الميتة من الخيل والإبل وغيرها فتنهض بحملها. والغالبُ على هذا النوع من البقر حُمْرة الحدَق وسائر البقر تنفِر منها. قال: ولا يقع البردُ في بلاد الزَّنْج. قال: ومنهم ناسٌ مُحدَّدو الأسنان يأكل بعضُهم بعضًا. قال: ومساكن الزَّنْج من حدّ الخليج المشعَّب من أعلى النيل إلى بلاد سفالة والواق واق، ومقدار مسافة مساكنهم واتصالها في الطول والعرض سبعمائة فرسخ[٢]: بَرٌّ وأودِيَةٌ وجبالٌ ورِمالٌ.

قال المسعوديّ: ومعنى تسمية ملك الزنج «وَقْلِيمِي» أي ٱبن الربّ الكبير؛ لأنه ٱختارهم لملكهم والعدل فيهم، فمتى جار الملك عليهم في حُكمه أو حادَ عن الحقّ قتلوه وحرَّموا عَقِبَه المُلْك. وزعموا أنه إذا فعل ذلك فقد بَطَل أن يكون ٱبن الربّ الذي هو ملك السماء والأرض، ويسمّون الخالق عزّ وجلّ (مكليجو) وتفسيره الربّ الكبير.

قال: والزَّنْج أولو فصاحةٍ في ألسنتهم وفيهم خطباءُ بلغتهم؛ يقف الرجلُ الزاهدُ منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم يرغِّبهم في القُرْب من ربِّهم ويَبْعثهم على طاعته، ويُرْهبهم من عقابه، ويذكِّرهم مَن سَلَف من ملوكهم وأسلافهم، وليس لهم شريعةٌ يرجعون إليها بل رسومٌ لملوكهم، وأنواعٌ من السياسات يرجعون إليها ويَسُوسُون بها رعيَّتهم، وأكثرُ أكلهم المَوْز، وهو كثيرٌ ببلدهم، وغالبُ أقواتهم الذُّرَة ونَبْتٌ يقال له الكلاري[٣] يُقتلَع من الأرض كالكَمأة[٤] والراسِن[٥]، ويأكلون العسلَ واللحم.

---

(١) اللجم: جمع اللجام، واللجام: الحديدة في فم الفرس، ثم سمّوها مع ما يتصل بها من سيور وآلة لجامًا.

(٢) الفرسخ: يراد به مقدار طول الفرسخ الذي هو علم لهذه المسافة المحدودة. وقيل: الفرسخ: سبعة آلاف خطوة؛ وقيل: الفرسخ ثلاثة أميال.

(٣) الكلاري: ثمر يشبه القلقاس الذي يكون بالشام ومصر.

(٤) الكمأة: جمع الكمء: وهو فطر من الفصيلة الكمشية، وهي أرضية تنتفخ حاملة أبواغها، فتجنى وتؤكل مطبوخة، ويختلف حجمها بحسب الأنواع.

(٥) الراسن: نبات يشبه الزنجبيل.

قال: ومَن هَوَى منهم شيئًا من نباتٍ أو حيوانٍ أو جمادٍ عَبَدَه. وجزائرُهم لا تُحصَى كثرةً وفيها النارْجِيل[١].

وأمّا النّوبة وما قيل فيها فٱفترقَتْ فرقتين في شرقيِّ النيل وغربيِّه وأناخت على شطِّيه وٱتَّصلتْ ديارُها بديار مصر، وٱتّسعتْ مساكنُها على شاطىء النيل مُصعدةً. ومدينتهم دُنْقُله. والفريق الآخر من النوبة يقال له غَلْوة وينزل مدينة الملك وٱسمها سُرْتة.

وأمّا البُجَة وما قيل فيها فإنّها نزلتْ بينَ بحر القُلْزُم ونِيلِ مصر وتشعَّبوا فِرَقًا وملَّكوا عليهم ملوكًا، وفي أرضهم معادن الذهب. قال: وٱنضافَ إلى البُجَة طائفةٌ من العرب من ربيعة بن نزار بن معدّ بن عَدْنان وتزوّجوا من البُجَة.

وأمّا الحبَشَة وما قيل فيها فإنّ دارَ مُلْكهم كَعْبُر، وهي مدينة عظيمة، وهي دارُ مملكة النجاشيّ. وللحبَشة مُدُنٌ كثيرةٌ وعمائرُ واسعةٌ، ويتّصل مُلْك النجاشيّ بالبحر الحَبَشِيّ، وله ساحلٌ فيه مدينةٌ كبيرةٌ، وهو مقابلٌ لبلاد اليمن. فمن مُدُن الحبشة على الساحل: الزَّيْلَع والدَّهْلَك وناصِع، وفي هذه المُدُن جماعةٌ من المسلمين إلاّ أنهم في ذمّة الحبشة.

قال: وبين ساحل الحبشة ومدينة غَلافقة، وهي ساحل زبيد من أرض اليمن، ثلاثة أيام عرض البحر. قال: ومنه عَبَرت الحبشة إلى اليمن حين ملكته في أيام ذي نُوَاس، وهذا الموضع هو أقلّ هذا البحر عرضًا.

قال: وهنالك جزائر بين الساحلين منها: جزيرة العقل فيها ماء يُشرب فيفعَل في القرائح والذكاء فعلاً جميلاً، وبها جزيرة أسقطرة. وأما غير هؤلاء من الحبشة فمنهم من أمعن في المغرب مثل: الزّغاوَة والكَوْكَوْ والقراقر ومديدة ومريس والمبرس والملانة والقوماطين ودُوَيْلة والقرمة. قال: ولكل طائفة من هؤلاء الطوائف وغيرهم ملكٌ يرجعون إليه.

* * *

---

(١) النارجيل: جنس شجر من الفصيلة النخلية، فيه أنواع للتزيين، وفيه نوع مثمر، ومن أسمائه: الشعصور، والرانج، ويزرع لثمره المسمى: جوز الهند، ويستخرج منه دهن من أجود الأدهان المسماة: سمونًا نباتية.

الباب الرابع
من القسم الرابع من الفنّ الخامس
في أخبار ملوك العرب ويتّصل بهذا الباب خبر سَيْل العَرِم

ذكر أخبار ملوك قَحْطان

قال المؤرّخون: لم يكن للعرب مُلْك حقيقيّ، وإنما كان من مَلَك حِمْير في بلاد اليمن سُمِّي مَلِكًا، وقد كانوا في بعض الأوقات يخرجون من بلادهم ويَسِيحون[١] في الأرض حتّى بلغوا أقصى المغرب، وبلغوا من حدود المشرق سَمَرْقَند[٢]، وبلغوا باب الأبواب، ودخلوا بلادَ الهند ولم يستقرّوا في غير بلادهم، فلا يُعدّ ذلك مُلْكًا، وإنما هو غارة.

فأوّلُ ملوك قَحْطانَ عبدُ شمس، وهو سبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، وإنما سُمِّي سبأ لأنه أوّل مَن أدخل بلاد اليمن السَّبْي. قال عبد الملك بن عَبْدون في كتابه المترجم بكمامة الزهر وصدفة الدرّ: إنّ عبد شمس هذا ملك أربعمائة سنة وأربعًا وثمانين سنة. قال: وقد اختلف في أوّل مَن ملك منهم، فقيل يَعْرُب بن قَحْطان. قال: وهو أوّل من نطق بالعربية، وأوّل مَن حيّاه ولده بتحية الملك: أبَيْتَ اللّعن، وأَنْعِم صباحًا[٣]. والأشهر أنّ عبد شمس سبأ هو أوّل ملوكهم. والله أعلم.

ثم ملك بعده ابنه حِمْير بن سبأ، قال: وكان أشجعَ الناس في وقته، وأفرسَهُم وأجملهم. وقيل: إنه إنما سُمِّي حِمْير لكثرة لباسه الأحمر من الثياب، وكان يلقَّب بالعَرَنْجَج، وهو أوّل مَن وضع تاجَ الذهب على رأسه من ملوك اليمن. وكان مُلْكه خمسين سنة، وذلك في عصر قَيْذار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

ثم ملك بعده أخوه كَهْلاَن بن سبأ. فكان مُلْكه إلى أن هلك ثلاثمائة سنة.

---

(١) ساح في الأرض: أي ذهب وسار؛ أو ذهب فيها للتعبّد والذهب.

(٢) سمرقند: هو قصبة الصغد مبنية على جنوبي وادي الصغد مرتفعة عليه؛ قال الأزهري: بناها شمر أو كرب فسميت شمر فأعربت فقيل سمرقند. وبالبطيحة من أرض كسكر قرية تسمى سمرقند أيضًا، ذكره المفجع في كتاب المنقذ من الإيمان في أخبار ملوك اليمن. . . (معجم ياقوت).

(٣) يقال: نعم به: إذا سرّ واستمتع.

واختلف فيمن مَلَك بعده، فقيل: ملك بعده أبو مالك بن عسكر بن سبأ. فكان ملكه ثلاثمائة سنة. وقيل ملك بعد كَهْلانَ الرائشُ وهو الحارث بن شدّاد، وكان الحارث أوّلَ مَن غزا منهم، وأصاب الغنائم، وأدخلها اليمن، وبينه وبين حِمْير خمسة عشر أبًا، وسُمِّي الرائشَ لأنه لمّا أدخل الغنائمَ والأموالَ والسَّبْي بلادَ اليمن فراش(١) الناسَ في أيامه. وفي عصره مات لقمانُ النسور. قال: وذكر الرائشُ هذا نبيَّنا ﷺ في شعره، فقال من قصيدته: [من الوافر]

ويملك بعدَهم رجلٌ عظيمٌ ... نبيٌ لا يرخِّص في الحرام(٢)
يسمَّى أحمدًا يا ليتَ أنّي ... أعمَّر بعد مخرجه بعام

قال: وكان مُلْكه مائةً وخمسًا وعشرين سنة. هكذا نقل عبد الملك بن عبدون وذكر الخلاف في أبي مالك والرائش على ما ذكرناه. وأمّا غيرُه فإنه لم يذكر كَهْلان بن سبأ ولا أبا مالك، بل قال: إنّ حِمْير عهد إلى ٱبن ٱبنه المِلْطاط بن عمرو بن حمير. قال: وفي أيامه ٱنقرض مُلْك صحار وجاسم ٱبْنَيْ دارم وبادوا.

قالوا: ثم ملك بعده ٱبنه أَبْرَهَة ويقال له ذو المنار. قالوا: سُمِّي بذلك لأنه أوّل مَن أقام المنار في مغازِيه على الطريق، وذلك أنه أوغَلَ في بلاد المغرب والسودان، وٱتّخذها ليهتديَ بذلك في قُفوله. وكان مُلْكه مائةً وثلاثين سنة، وقيل مائة وثلاثًا وثمانين سنة. هكذا ذكر ٱبن قتيبة في كتاب المعارف أن الذي ملك أبرهة. وقال المسعوديّ: إنّ الذي ملك بعد الرائش جبّار بن غالب بن زيد بن كهلان وقال: إنّ مُلْكه كان مائة وعشرين سنة. والله أعلم.

ثم ملك بعد أبرهة على ما ذكر ٱبن حمدون في تذكرته ٱبنه إفْرِيقِش، وهو ذوا الأذعار. قال: سُمِّي بذلك لأنه خرج نحو بلاد المغرب وأوقع بقوم لهم خِلَقٌ منكرةٌ فذُعر الناس منهم وفرّقوا. قال ٱبن عبدون: وغزا إفريقش بلاد المغرب حتى أتى طَنْجة ونقل البربر من أرض فلسطين ومصر والساحل إلى مساكنهم ببلاد المغرب. وكان البربر بقيّة مَن قَتَل يوشع بن نون. قال: وإفريقش هو الذي بنى إفريقية وبه سُمِّيت.

---

(١) راش فلان: أي استغنى.

(٢) يقال: رخص له في كذا: أي أذن له فيه بعد النهي عنه.

ثم ملك بعده ٱبنه العبد ويلقَّب ذا الشناتر، وهي الأصابع في لغة حِمْير. قال: وخرج نحو العراق فٱحتُضِر في طريقه. هكذا ذكر ٱبن حمدون. وقال عبد الملك: إنّ الذي ملك بعد إفريقش أخوه العبد بن أبرهة. قال: وهو ذو الأذعار، سُمِّي بذلك لأنه كان فيما ذكر أهلُ الأخبار غزا بلاد النسناس فقتل منهم مقتلةً عظيمةً، ورجع إلى اليمن من سَبْيِهم بقوم وجوههم في صدورهم فذُعِر الناسُ منهم فسُمِّي بذي الأذعار. وكان مُلْكه خمسًا وعشرين سنة. وقد قدّمنا أنّ ذا الأذعار هو إفريقش. والله أعلم.

ثم ملك بعده الهدهاد بن عمرو بن شُرَحْبِيل. هكذا قال ٱبن حمدون والمسعوديّ، إلاّ أنّ المسعوديّ لم يذكر عمرًا وقال الهدهاد بن شُرَحْبيل. وسمّاه ابن قتيبة هدَّاد بن شرحبيل بن عمرو بن الرائش، وهو أبو بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام. وكانت مُدّة ملكه عشرين سنة، وقيل سبعة، وقيل ستة. وقد قدّمنا خبر بلقيس وأنها ٱبنة ذي أَشْرَح، وأنّ والدها لم يكن ملكًا وإنما كان وزيرًا لملك حمير وهو شراحي الحمْيَرِيّ. والله تعالى أعلم.

وٱختُلِفَ فيمن ملك بعد الهدهاد، قال المسعوديّ: تُبَّع الأوّل. وكان مُلْكه أربعمائة سنة. وقال ٱبن قتيبة أقلّ من ذلك، وقال: ملك بعد الهدهاد ٱبنته بلقيس وهي صاحبة سليمان بن داود عليهما السلام. وكان مُلْكُها مائةً وعشرين سنة. وقد أتينا على أخبارها فيما سلف من هذا الكتاب في قصّة سليمان عليه السلام.

ثم ملك بعدها ياسر بن عمرو بن شُرحبيل وهو ناشِر النِّعم، قالوا: سُمِّي بذلك لإنعامه على العرب، وكان شديد السلطان، وسار غازيًا أوغلَ في بلاد المغرب حتى بلغ وادي الرمل ولم يبلغه أحدٌ قبلَه، وهو رَمْلٌ جارٍ، ولم يجد وراء ذلك مجازًا لكثرة الرمل وجَرَيانه، فبينما هو مُقيم إذ ٱنكشف الرمل فأمرَ بعضَ أهلِ بيته أن يعبُر هو وأصحابُه فعبروا فلم يعودوا إليه وهلكوا عن آخرهم، فأمر بصنم من نحاس فنُصِبَ على صخْرة عظيمة على شفير الوادي وكتَب على صدره بقلم المسنَد[١]: هذا الصنمُ لناشِر النِّعَم الحِمْيَرِيّ ليس وراءه مذهبٌ[٢] ولا يتكلّفَنّ أحدٌ ذلك فيعطَب[٣]، ورجع من هناك. وكان مُلْكه خمسًا وثمانين سنة على رواية ٱبن قتيبة. وقال المسعوديّ: خمسًا وثلاثين.

---

(١) المراد بالمسند: الخط الحميري. (٢) المراد بالمذهب: الطريق.
(٣) فيعطب: فيهلك.

ثم ملك بعده أبو كرب شَمِر بن إفريقش، ويسمَّى يرعش لٱرتعاشٍ كان به. قال: وخرج نحو العراق في زمن بستاسف أحد ملوك الفرس فأعطاه بستاسف الطاعة، وسار نحو الصين حتى نزل في طريقه ببلاد الصغد، فأجتمع أهل تلك الأرض بمدينة سَمَرْقَنْد فأحاط بهم شَمِر وٱفتتحها عَنْوة وأسرف في القتل وخرَّب المدينة وهدَمها فسمِّيت شَمِرْكَنْد، وعُرِّبت بعد ذلك فقالوا: سَمَرْقَنْد. ومعنى شمركند، أي خرّبها شَمِر. وفيه يقول دِعْبِل[1] بن عليّ يفتخر باليمن من قصيدة: [من الوافر]

همو كتبوا الكتاب بباب مَرْوٍ وبابِ الشاش كانوا كاتبينا[2]
وهم سَمُّوا بشَمْرٍ سَمَرْقَنْدًا وهم غَرَسُوا هناك التُّبَّتِينا[3]

قال: ولما فرغ من بلاد الصُغْد سار نحو الصين فأيقن مَلِكُهَا بالبَوَار، فٱحتال وزيرٌ له بأن جَدَع أنفه وأتى إلى شَمِر، وهو بمفازة بينها وبين الصين عشر مراحل، ومتّ[4] إليه بأن ملك الصين فعل به ذلك لأنه نصحه ألاّ يحارب شمر وخالف رأيه، فسأله شمر عن الطريق والماء، فقال له: بينك وبين الماء ثلاث مراحل، فتزوّد لثلاثة أيام، فلمّا قطعها أعوزه الماء وكشف له الرجل أمره فمات هو وأصحابه عطشًا.

قال ٱبن قتيبة: وكانت مدّة مُلْكه مائةً وسبعًا وثلاثين سنة. وقال المسعوديّ: ثلاثًا وخمسين سنة.

ثم ملك بعده ٱبنه أبو مالك بن شمر، قال: وتأهّب للأخذ بثأر أبيه فبلغه أنّ بالمغرب واديًا من الزبرجد، فحمله الشَّرَه على طلبه وترك ما عَزَم عليه فمات في طريقه.

ثم ملك بعده ٱبنُه تُبَّع الأقرن بن أبي مالك بن شمر. قال: وطلب ثأر جدّه وأتى سمرقند فعمَّرها وجدّد بناءها، ثم أتى الصين وأخرب مدينتها وٱبتنى هناك مدينة أسكن فيها ثلاثين ألف رجل. قال الحمدونيّ في كتابه المترجم بالتذكرة: هم إلى

---

(١) هو أبو علي دعبل بن علي بن رزين بن سليمان الخزاعي الشاعر المشهور. أصله من الكوفة، ويقال من قرقيسيا وأقام ببغداد. كان شاعرًا مجيدًا، إلا أنه كان بذيّ اللسان مولعًا بالهجو والحط من أقدار الناس، وهجا الخلفاء فمن دونهم. كانت وفاته سنة ٢٤٦ هجرية بالطيب، وهي بلدة بين واسط والعراق وكور الأهواز... (وفيات الأعيان ٢:٢٦٨).

(٢) الشاش: مدينة جليلة من عمل سمرقند، وهي في أرض سهلة وعامة دورها يجري فيها الماء، وهي من أنزه بلاد ما وراء النهر..

(٣) التبتينا: أي مدينة التبت التي يفخر بها الشاعر، وقد تقدم وصف هذه المدينة وتفسيرها.

(٤) متّ: أي توسّل.

اليوم هناك في زيّ العرب، ولهم بأس وشدّة ـ يعني يوم صنّف كتابه وهو في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة أو نحو ذلك ـ قال: وفي أوانه كان بَوَار طَسْم وجَدِيس على ما نذكره في وقائع العرب.

قال: وفي أوانه أيضًا كان سَيْلُ العَرِم وتفرُّقُ سبأ. وسيأتي ذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

قال ٱبن قُتَيبة: وكان مُلك تُبَّع الأَقْرَن ثلاثًا وخمسين سنة. قال المسعوديّ: إنّ مُلكه كان مائةً وثلاثًا وستّين سنة. ولم يذكرا المَلِك الذي كان قبله، ونسبا هذا الملِك أنه ٱبن شَمِر.

ثم ملك بعده على ما رواه ٱبن حَمْدون[١] ـ وهو إن شاء الله أشبه بالصواب ـ أسعد بن عمرو. قال: وملك والمُلْك متشتّت فٱستفزّ قومه فنهضوا معه في ملوك اليمن حتى قتلهم مَلِكًا مَلِكًا، وٱنتظم له مُلْك اليمن، فوجّه بٱبن عمّ له يقال له القَيْطون إلى الحجاز فبغى وظلم فقتله اليهود. ولمّا بلغ أسعد ذلك غضب وحلف ليقتلنّ كلّ يهوديّ في الأرض، وتجهّز في مائة ألف حتّى وَرَد يَثْرِبَ، فٱجتمعَ الأَوْسُ والخَزْرَجُ وأخبروه بقصّة ابن عمّه وفُجْره وظُلْمه فعفا عن اليهود وقال: لستُ أرضَى بالظلم ولو علمتُ ذلك منه لقتلتُه، وأتاه بنو هُذَيل بن مدركة فرغّبوه في الكعبة وما فيها من الذهب والجَوْهر، فقدِمَ مكّة لذلك، فٱجتمع إليه أخبارُ اليهود وقالوا: إنّ هذا البيتَ العتيقَ الذي ليس لله عزّ وجلّ بيتٌ في الأرض غيرُه وقد رامَ إفسادَه كثيرٌ من الملوكِ فأبادهم الله. وفي هذه البلدة يكون مَوْلدُ نبيٍّ آخرِ الزمان ٱسمُه محمدٌ وأحمدُ من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو خاتَم الرسُل، وإنّما أراد مَن دلّك على ذلك هلاكَك، فضرب أعناقَ الهُذَليّين وأقام بمكة ستّة شهور يَنْحَر في كلّ يوم ألفَ ناقة، وكسا البيت وعلّق عليه بابًا من الذهب.

ولمّا هَلَك مَلَك بعده ٱبنُ عمّه مَرْثد بنِ عَبْدِ كَلَال بن تُبَّع الأَقْرَن المعروف بذي الأعواد. قال: وكان مُلْكه أربعين سنة. ولمّا هَلَك مَلَك بعده أولاده وكانوا أربعةً مشتركين في المُلْك على كلّ واحد منهم تاجٌ. قال: وخرجوا إلى مكة ليقلعوا الحجرَ الأسودَ ويبتنوا بيتًا بصنعاء يكون حجّ الناس إليه؛ فاجتمعتْ كِنَانةُ وقلّدوا أمرهم فِهْرَ بنِ مالك وٱلتقَوْا فقُتِل ثلاثةٌ من الملوك وأُسِرَ الرابع.

---

(١) ابن حمدون: هو الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن حمدون البغدادي (أبو سعد تاج الدين) عالم، أديب، من آثاره «التذكرة» كانت وفاته سنة ٦٠٨ هجرية.

ولمّا أُسِر هؤلاء ملكتْ بعدهم أختهم أبضعةُ ٱبنةُ ذي الأعواد. قال: وكانت فاجرة فقتلها قومُها.

ثم ملك بعد أولاد ذي الأعواد مَلْكِيكَرب بن عمرو بن سعد بن عمرو، وكانت مُدّة مُلْكه عشرين سنة، وتحرَّج عن سَفْكَ الدماء فلم يَغْزُ ولم يخرُج من اليمن.

ثم ملك بعده تُبّع أسعد بن ملكيكرب. قال: ولمّا ملك غزا بني معدّ بتهامة في ثلاثمائة ألفٍ طالبًا لدماء الملوك الأربعة، وأجتمع بنو معدّ وعَقَدوا الرِّياسة لأميّة بن عَوْف الكِنانيّ المعروف بالعنسيّ، ثم نَفِسَتْ[1] ربيعةُ أن تكون الرِّياسة في مُضَر فقعَدَت عنهم، فضَعُفَتْ مُضَر عن تُبّع وسألوه الصلح على أن يؤدّوا إليه عقلَ[2] الملوك الأربعة، عن كلّ ملكٍ ألفَ ناقة. وكذلك كانت دِيَة الملوك في الجاهليّة. ودِيَاتُ مَن قُتِل معهم من الجنود لكلّ رجُلٍ مائة ناقة، فقبِلَ تُبّع ما بذلوه وٱنصرف إلى أرضه ووقع الشرّ بين الحيّين: ربيعة ومُضَر، فأرسلَتْ ربيعةُ إلى تُبّع رُسُلًا فعقَد بينهم حِلْفًا وعَقْدًا، وهو الحِلْف الباقي بين ربيعةَ واليمن إلى أن جاء الإسلام. وأقام تُبّع هذا بأرض الشام ما شاء الله، ثم سار إلى الهند في البحر وباشرَ الحربَ بنفسه فبرَزَ إليه مَلِك الهند، وهو ٱبنُ فَوْز الذي قتل الإسكندر أباه فقتله تُبّع بيده، وتحصّنت اليهود بمدينتهم وحاصرَهم تُبّع شهرًا حتى سألوه الأمان فآمنهم وقَفَل إلى بلاده.

ثم ملك بعده ٱبنُه حسّان بن تُبّع. قال: فغزا العراق في ثلاثمائة ألف وأتى في طريقه مكة، وقد عادت إليها خُزاعة عند وفاة فِهرِ بنِ مالك، فأعطاه بنو نِزَار الطاعة. ورُوِيَ عنه شعر يخبر فيه ببعثة نبيّنا ﷺ:

شَهِدْتُ على أحمدٍ أنّه ... رسولٌ من الله بارِي النَّسَمْ
فلو مُدّ عُمْرِي إلى عُمْرِه ... لكنتُ وزيرًا له وٱبنَ عَمّ

قال: ولمّا وَرَد العراق وَجَد الفُرْس وسلطانَهم واهٍ[3] وقد مات هُرْمُز وولدت ٱمرأته غلامًا، وهو سابور ذو الأكتاف، ومُرَبِّيه أحدُ عظماء الفُرْس، فلم يقُم بضبط المُلك؛ فٱستقبلوه بالطاعة وأقرُّوا له بالخراج، فأقام بالعراق حَوْلاً وعزم على غَزْو الصين فساء ذلك حِمْير وقالوا: نَغِيب عن أولادنا وعيالنا ولا ندري ما يحدُث بهم، فمشَوْا إلى عمرو أخي حسّان الملك وبعثوه على قتل أخيه على أن يملّكوه عليهم

(١) أي حسدت مضر على الرياسة ورأت أنها ليست أهلاً لها.
(٢) العقل: أي الدّية.
(٣) واه: أي ضعيف.

ويعود بهم إلى بلادهم، وأعطوه العهود والمواثيق إلاّ رجلٌ يقال له ذو رُعَين، فقال لهم: إنكم إن قتلتم مَلِكَكم ظلمًا خرج الأمرُ منكم فلم يحفِلوا به، فأقبل بصحيفة مختومة وقال لعمرو بن تُبّع: لتكن هذه الصحيفةُ وديعةً لي عندك إلى وقت حاجتي إليها، وأقبل عمرو ليلاً إلى أخيه حسّان وهو نائمٌ في فراشه فقتله وٱنصرفتْ حِمْير إلى بلادها. هكذا نقل ٱبن حمدون في تذكرته.

وقال أبو عليّ أحمد بن محمد بن مِسْكويه في كتابه المترجم بتجارب الأمم في أخبار الفرس: إنّ ملك الفُرْس يومَ ذاك هو قُبَاذ بن فَيْروز وهو أبو كِسْرَى أنو شروان، وإنّ الملك الذي غزاه من ملوك حمير هو تُبّع والد حسّان، وكان معه لما غزا الفُرْسَ ٱبنُه حسّان وٱبنُ أخيه شَمِر. قال: فسار تُبّع حتى نزل الحِيرَة ووجّه ٱبنَ أخيه شَمِرًا ذا الجناح إلى قُبَاذ فقاتله فهزمه شَمِر حتى لحق بالريّ، ثم أدركه بها فقتله.

قال: ثم إنّ تُبّعًا أمضى[١] شَمرًا ذا الجناح وٱبنَه حسّان إلى الصُّغْد وقال: أيّكما سبق إلى الصين فهو عليها. وكان كلّ واحد منهما في جيش عظيم يقال إنهما ستمائة ألف وأربعون ألفًا، وبعث ٱبن أخيه - وٱسمه يَعْفُر - إلى الروم.

قال: فأمّا يَعْفُر فإنه سار حتى أتى القسطنطينية، فأعطَوْه الطاعةَ والأتاوَة ومضى إلى رُوميَة فحاصرها، ثم أصابهم جوعٌ ووقع فيهم الطاعون فتفرّقوا، وعلم الروم بذلك فوثَبوا عليهم فلم يُفْلِت منهم أحدٌ.

وأمّا شَمِرٌ ذو الجناح فإنه سار حتى ٱنتهى إلى سَمَرْقَنْد فحاصرها فلم يَظْفَر منها بشيء، فلمّا رأى ذلك طاف بالحَرَس حتى أخذ رجلاً من أهلها فٱستمالَ قلبَه ثم سأله عن المدينة ومَلِكَها فقال: أمّا مَلِكُها فأحمقُ الناس ليس له همّ إلاّ الأكل والشرب والجماع، ولكن له بنتٌ هي التي تقضي أمر الناس، فمنّاه ووعده حتى طابتْ نفسُه، ثم بعث معه هديّة إليها وقال: أخبرها أني إنما جئتُ من أرض العرب للذي بلغني من عقلها لتنكحني نفسَها، فأصيب منها غلامًا يملك العرب والعجم، وإنّي لم أجىء ألتمسُ مالاً، وإنّ معي من المال أربعةَ آلاف تابوت ذهبًا وفضّة هاهنا، وأنا أدفعها إليها وأمضي إلى الصين، فإن كانت لي الأرض كانت ٱمرأتي، وإن هلكتُ كان المال لها. فلمّا ٱنتهت رسالته إليها قالت: قد أجبته فليبعث بالمال، فأرسل إليها بأربعة آلاف تابوت، في كلّ تابوت رجلان، وكان بسَمَرْقَنْدَ أربعةُ أبواب على كلّ باب منها

(١) أمضى الأمر: أي أنفذه؛ وأمضى فلانًا: أي أرسله.

أربعةُ آلاف رجل. قال: وجعل شَمِرٌ العلامة بينه وبينهم أن يضرب لهم بالجُلْجُل[١]، وتقدّم بذلك إلى رُسُله الذين وجّههم، فلمّا صاروا بالمدينة ضرب لهم بالجُلْجُل فخرجوا وأخذُوا بالأبواب، ونَهِد[٢] شَمِرٌ في الناس فدخل المدينة وقتل أهلها، واْحتَوى على ما فيها. ثم سار إلى الصين فلقِيَ الترك فهزمهم، واْنتهى إلى حسّان بن تُبَّع بالصين فوجده قد سبقه إليها بثلاث سنين.

قال: وفي بعض الروايات وهي المجتمع عليها: إنّ حسّان وشَمِرًا اْنصرفا في الطريق الذي كانا أخذا فيه حتى قَدِما على تُبّع بما حازا من الأموال بالصين وصنوف الجوهر والطِّيب والسَّبْي، ثم اْنصرفوا جميعًا إلى بلادهم، فكانت وفاة تُبّع باليمن. وكان مُلْكه مائة سنة وإحدى وعشرين سنة.

قال: وأمّا في الرواية الأخرى فإنّ تُبّعًا أقام وواطأ اْبنه حسّان وابنَ أخيه شمر أن يملكا الصين ويحملا إليه الغنائم، ونَصَب بينه وبينهم المنار، فكان إذا حَدَثَ حَدَثٌ أوقَدوا النار، فأتى الخبر في ليلة.

قال: وقد ذكر بعضُ الرُّواة أنّ الذي سار في المشرق من التبابعة تُبّع الأخير؛ وهو تُبّع تبّان أسعد أبو كَرِب بن مليك بن زَيد بن عمرو بن ذي الأذعار، وهو أبو حسّان. اْنتهى ما أورده ابنُ مِسكويه من أخبارهم، فلنرجع إلى مساق ما قدّمناه مما نقله اْبن حمدون.

قال: ثم ملك بعده حسّان بن تُبّع أخوه، فقتله عمرو بن تُبّع. قال: واْنصرفَ بالقوم إلى بلادهم فسلّط الله عليه السَّهَر فكان لا ينام، فجمع الكَهَنة والقِيَاف[٣] والعرّافين فسألهم عن ذلك فلم يعرفوه، فقال له رجلٌ منهم: إنه يقال مَن قتل أخاه ظلمًا سلّط الله عليه السهر وحُرِمَ النومَ، فأحال بالذنب على حِمْير وجعل يقتل مَن أشار عليه بقتل أخيه واحدًا بعدَ واحد، ثم أرسلَ إلى ذي رُعَين ليُلْحِقَه بمَن قُتِل من أصحابه، فقال: أيّها الملك إنّي خالفتُ القوم فيما زيّنوا لك من قتل أخيك. قال: ومَن يعلم ذلك؟ قال: الصحيفةُ التي أودعتُها عندك، فأخرجها فقرأها فإذا فيها: [من الوافر]

ألاَ مَـنْ يَـشْـتَـرِي سَـهَـرًا بـنَـوْمٍ ... خَـلـيٌّ مَـنْ يَـبِـيـتُ قَـرِيـرَ عَـيْـنِ[٤]
فـإنْ تَـكُ حِـمْـيَـر غَـدَرَتْ وخـانَـتْ ... فـمـعـذرةُ الإلٰـه لِـذِي رُعَـيْـنِ

(١) الجلجل: الجرس الصغير.
(٢) نهد: نهض ومضى.
(٣) القياف: الذين يتتبعون الآثار.
(٤) قرير العين: الذي سرّ ورضي.

قال: فخلّى عمرو سبيلَه.

قال: ولمّا قَتَل عمرو أشرافَ قومه وصناديدَهم[١] تضعضع أمرُ حِمْير وَوَهَى مُلْكُها، فطَمِعَ فيه بنو كَهْلان بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان، فوثَبَ ربيعةُ بنُ نصر بن الحارث بن عمرو بن عديّ بن مُرّة بن زَيْد بن مُذْحِج بن كَهْلان في قومه وجمعهم من أقطار الأرض، وجمع له عمرو بن تُبّع وٱلتقَوْا فقُتِلَ عمرو بنُ تُبّع.

وملك بعده ربيعةُ بن نصر المقدّم ذكره قال: وكان قد رأى رؤيا أزعجتْه وعُبِّرت له أنّ الحبشةَ تملِك بلادَه؛ فوجّه ٱبنَ أخيه جَذِيمةَ بن عمرو بن نصر ومعه ٱبنُه عديُّ بنُ ربيعة وهو صبيّ، ووجّه معهما حَرَمَه وخزائنه، وكتب لهم إلى سابور ذي الأكتاف، فأسكنهم سابورُ الحِيرَة وملّكهم ما حَوْلها.

قال: ولمّا بلغ عَدِيُّ بنُ ربيعة الحُلُم زوّجه جَذِيمةُ أختَه رَقَاش فولدت له عمرو بنَ عديّ. وهؤلاء ملوك الحِيرةَ على ما نذكره في أخبارهم.

قال: ولمّا مات ربيعةُ بنُ نصر تجمّعت حِمْير فآذنتْ كَهْلانَ بحربٍ أو إعادة المُلْك فيهم، ودخل بينهم السفراءُ فسلّموا المُلْك إلى حِمْير فملّكتْ حِمْيرُ عليها أبرهة ابن الصّبّاح بن لَهِيعة بن شَيْبةَ الحَمْد بن مَرْثَد بن الحَيْر بن سيف بن مصلح بن عمرو بن مالك بن زَيْد بن سعد بن عَوْف بن عديّ بن مالك بن زيد بن سعد بن زُرْعة بن ذي المنار.

قال: فملك عليهم ومكث طولَ أيّام سابور ذي الأكتاف ثم مات.

فملك بعده ابن عمه صُهْبان بن محرّث. قال: فبعث عمّاله على أرض العرب، وٱستعمل على ولد سعد بن عدنان ٱبنَ خاله الحارثَ بن عمرو بن معاوية بن كِنْدة بن عَديّ بن مُرّة بن زَيْد بن مَذْحِج بن كَهْلان، وكان الحارث يلقَّب بآكل المرار، وهو جدّ ٱمرىء القيس الشاعر بن حُجْر بن الحارث، وهو جدّ الأشعث بن قيس بن مَعْدِيكرب بن جَبَلَة بن عَدِيّ بن الحارث المذكور؛ فقسّم الحارث مملكته بين ولده، وكانوا ثلاثة: فملّك ٱبنَه حُجْرًا على أسَدٍ وكِنَانةَ، وملّك شُرَحْبيل على قَيْس وتميم، وملّك سَلَمة على ربيعة، فمكثوا كذلك حينًا حتى مات أبوهم الحارث فوثبتْ بنو أَسَد على حُجْر فقتلوه، ووثبتْ قيس وتميم على شُرَحْبيل فطردوه، فغضب صُهْبان وتجهّز للمسير إلى مُضَر، فٱستغاثت مُضَر بربيعة وجاءت وفودهم إليهم وٱستنصروهم،

(١) الصناديد: جمع الصنديد، وهو الشريف الشجاع.

ورئيسُهم كُلَيب بن ربيعة بن الحارث بن زُهَير بن جُشَم بن بكر بن حَبيب بن عمرو بن غَنْم بن تغلب بن وائل، وٱجتمعتْ ربيعة ومُضَر والرياسة على الحيَّين لكُلَيب؛ فقاتلوا صُهْبان وعظماءَ قومه، وهو اليومُ المشهور في العرب، فقُتِل صُهْبان. وفي هذا اليوم يقول عمرو بن كُلْثوم: [من الوافر]

ونحنُ غداةَ أُوقِد في خَزَازٍ رَفَدْنا فوقَ رِفْدِ الرافِدينا[1]
فكُنّا الأَيْمَنِينَ إذا ٱلتَقَيْنا وكان الأيسرين بنوا أَبينا[2]
فآبُوا بالنِّهاب وبالسَّبَايا وأُبْنَا بالملوك مُصَفَّدِينا[3]

قال: ولمّا قُتل صُهْبان بن مُحَرِّث ملك بعده الصَّبَّاح بن أبرهة بن الصَّبّاح. قال: وكان نَجْدًا[4] جَلْدًا، فسار إلى مَعَدّ في مئتَيْ ألف يطلب ثأر صُهْبان. قال: وتجمَّعت مَعَدّ ورئيسهم كُلَيب أيضًا، وكانت الحرب بينهم بموضع يسمَّى الكُلاَب، فانهزمت اليمن. وهذان اليومان من مفاخر نِزَار على اليمن، وامتنعتْ معدّ بعد ذلك على اليمن حتى قتل كُلَيب بن ربيعة.

قال: ولما مات الصَّبّاح ملك بعده ٱبنُ عمّ له فاسقٌ، وقيل: إن الذي ملك لَخْنِيعة ذو شناتر، قال: ولم يكن من أهل بيت المُلْك، فأغْرِيَ بحبّ الأحداث[5] من أبناء الملوكِ، فكان يطالبهم بما يُطالَب به النسوان، وكان لا يسمع بأحد من فتْيان العرب وأولادِ الملوك حَسَن الصورة إلاّ ٱستدعاه وطالبه بهذا الفعل القبيح، ولم يزل على هذه الطريقةِ المذمومةِ حتّى نشأ غلامٌ من أبناء ملوك حِمْير ٱسمُه زُرْعة. ابن كعب ويُدعَى ذا نواس؛ سُمِّي بذلك لأنه كان له ذؤابتان تَنُوسان[6] على عاتقه، وكان وضيئًا[7]، فٱستدعاه لمثل ما كان يدعو إليه غيرَه، فجعل تحتَ إخْمِصِه[8] سِكِّينًا، فلمّا خلا به الملك واثبَه ذو نُوَاس فقتله ثم حَزَّ رأسَه، وكان له كُوّة يُشرِف منها على عَبيده إذا قَضَى حاجتَه من الغلام الذي يكون عنده ويضع مِسْواكًا في فيهِ، فلمّا قتلَه

(١) خزاز: جبل لغنىّ أحمر وله هضبات حمر، وفي أصله ماء لغنىّ يقال له خزازة، وهو في ناحية منعج دون أمرة وفوق عاقل على يسار طريق البصرة إلى المدينة.
(٢) الأيمنون: أي المتقدمون؛ والأيسرون: أي المتخلفون.
(٣) آبوا: عادوا؛ والمصفَّد: المقيّد.
(٤) النجد: الكرّاب لصعاب الأمور.
(٥) الأحداث: صغار السنّ.
(٦) تنوس: تتحرك وتتذبذب.
(٧) الوضيء: الذي نظف وجمل وحَسُن.
(٨) الأخمص: باطن القدم الذي يتجافى عن الأرض.

ذو نواس جعل السواك في فِيهِ، وجعل رأسه في تلك الكُوّة التي كان يُشْرِف منها على عَبيده، ثم خرج على العبيد فقالوا له: ذو نُوَاس، أَرَطْبٌ أم يَبَاس؟ فقال لهم: سل نخماس، استرطبان ذو نواس. استرطبان لاباس. وتفسير ذلك: سلوا الرأس التي في الكُوّة تخبركم وٱتركوا ذا نواس، قال: فأجمعت حِمْير عليه أمرها وقالوا: ينبغي أن نملّكه لأنه أراحنا من هذا الفاسق.

فملك عليهم ذو نُوَاس زُرْعة هذا. قال: ولمّا ملك وٱستتبّ له الأمرُ فارق عبادةَ الأوثان ودخل في دين اليهوديّة وقتل مَنْ كان في بلاد اليمن على دين عيسى ابن مريم عليه السلام ممن ٱمتنع من موافقته، ثم قصد نَجْران وبها عبد الله بن الثامر وأصحابُه وهم على دين عيسى عليه السلام، فسألهم الدخولَ في الهيوديّة فٱمتنعوا، فقَتَلَ عبدَ الله بن الثامر بالسيف وأضرمَ للباقين نارًا عظيمةً فألقاهم فيها، وهم أصحابُ الأُخدود الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز فقال: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٤ ـ ٨]. قال: ولم ينجُ منهم إلا نفرٌ قليلٌ.

وكان سببُ تَهوُّده أنّ حِمْير كان لها بيتُ نارٍ فيه أصنامهم، وكان يخرج من تلك النار عُنُقٌ يُمَدّ مقدار فرسخين، فحضر عنده قومٌ من اليهود وقالوا: أيها الملك إنّ هذا العنقَ من النار شيطانٌ، فطلب منهم تبيان ذلك، فنشروا التوراةَ وقرؤوها فتراجع ذلك العُنُق وطُفِئت تلك النار، فأعظم ذو نُوَاس ذلك ودخل في دين اليهوديّة.

قالوا: ثم إنّ أحدَ الناجِين من نَجْرانَ ـ ويُعْرف بدوس بن ذي ثعلبان ـ قصد قَيْصرَ ملك الروم مُستنجدًا به، ومُعظِّمًا عنده ما جَرَى على قومه وهم على دينه، فاعتذر إليه ببُعد دياره وقال: سأكتب لك إلى ملكٍ على دينك قريبٍ من ديارك، فكتب إلى النجاشيّ ملك الحبشة، فلمّا عَرَض عليه الكتاب وحدّثه بما جرى على أهل ملّته غضِب وحَمِيَ لأهل دينه، وندَب[1] من جنوده سبعين ألف رجل مع ابن عمّه أرياط، وتقدّم إليه بأن يقتل كلَّ مَن باليمن على دين اليهوديّة، فركب أرياط في البحر حتى ٱنتهى إلى عَدَن فأحرق السفنَ وقال: يا معشرَ الحبشة، العدوّ أمامكم، والبحرُ وراءكم، ولا مَنْجَى لكم إلاّ الصبر حتى تظفَروا أو تموتوا كرامًا. قال: وٱلتقَوْا وٱقتتلوا فٱنهزمتْ حِمْير بعد حربٍ عظيمةٍ وقَتَل منهم خلقًا كثيرًا.

---

(١) ندب، أي انتدب واختار.

قال: وٱقتحم ذو نُوَاس البحر بفرسه وقال: واللّهِ الغَرَقُ أفضلُ من أَسر السُّودان، فغَرِق. وكان مُلْكه مائتي سنة وستين سنة، وهو آخر مَن ملك اليمن من قَحْطان. فجميع ما ملكوا من السنين ثلاثةُ آلاف سنة واثنتان وثمانون سنة.

وٱستولت الحبشة على مُلك اليمن ففرّق أرياط الأموالَ على أشراف الحبشة وحَرَم الضعفاء، فجمع أَبْرَهَةُ أحدُ قوّاد الحبشة جمعًا منهم وخرج على أرياط وحاربه فقتله أبرهةُ بيده وٱستولَى أبرهة على مُلْك اليمن.

ولمّا بلغ خبرهما النجاشيّ غضب لقتل أرياط وحَلَف لأَطأنّ أرضَ أبرهة سَهْلَها وجَبَلَها برجلي، ولأَجُزّنّ(١) ناصيتَه بيدي، ولأُهرِقَنّ دمَه بكفّي، وتجهَّز للمسير إلى أرض اليمن، فبلغ ذلك أبرهة فملأ جِرَابَيْن(٢) من تراب السَّهْل والجَبَل، وعمد إلى ناصيته فجزّها ووضعها في حُقّ(٣)، وٱحتجم وجعل دمَه في قارورة وختَمَ عليه وعلى الحقّ الذي فيه ناصيته بالمسك، وبعث بذلك إلى النجاشيّ وكتب إليه يعتذر مما فعله أرياط وأنه خالف سيرتك في العدل، وقد بلغني ما حلفت، وقد بعثتُ إليك بجِرَابَيْن من تراب السهل والجبل، فطأْها هنالك برِجلك، وجُزّ ناصيتي بيدك، وأهرقْ دَمِي بكفّك، وبرّ في يمينك، ولطِّفْ غضبك عنّي فإنما أنا عبدٌ من عبيدك، وعاملٌ من عمّالك. فأعجبَ النجاشيّ عقل أبرهة وأقرّه على مكانه ورضِيَ عنه؛ فبقيَ إلى زمان كسْرَى أنو شِرْوانَ وهو صاحبُ الفيل.

وكانت قصّته أنه نظر إلى أهل اليمن يتأهّبون للحجّ، فسأل عن أمرهم، فأخبر أنهم يخرجون حجّاجًا إلى مكة فقال: أنا أكفِيهم تجشّم هذا السفر البعيد ببيعةٍ(٤) أَبنِيها بصنعاء فيكون حِجُّ اليمن إليها، وأمر ببنائها فبُنِيتْ. وقد تقدّم وصفها في الفنّ الأوّل في المباني، ونصبَ عند المذبح دُرّةً عظيمةً تُضيء في الليلة الظلماء كما يُضيء السِّراج، ثم نادى في أهل مملكته بالحجّ إليها، فغضِب العرب لذلك، فٱنطلق رجُلان من خَثْعَم فأحدثا في البيت الذي بناه ولطّخاه بالعَذِرة.

وقيل: إنّ الذي فعل ذلك رجلٌ من كِنَانة، فٱتّهم أَبْرَهَةُ قريشًا بذلك، وكان حينئذ بصنعاء تجّارٌ من قريش فيه هشامُ بنُ المغيرة، فأحضرهم وسألهم عمّن أحدَث في بيعته، فأنكروا أن يكونوا عَلِمُوا بشيء من ذلك، فقال أبرهة: ظننتُ أنكم فعلتم

---

(١) لأجزن: أي لأقطعن.

(٢) الجراب: وعاء يحفظ فيه الزاد.

(٣) الحقّ: وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما.

(٤) البيعة: معبد النصارى.

ذلك غضبًا لبيتكم الذي يحجّ إليه العرب، فقال هشام بن المغيرة: إنّ بيتنا حِرْزٌ[١] تجتمع فيه السِّباع مع الوُحُوش، وجوارحُ الطير مع البُغَاث[٢]، ولا يعرض منها شيءٌ لصاحبه، وإنما ينبغي أن يحجّ إلى بيعتك هذه مَن كان على دينك، فأمّا من كان على دين العرب فلا يؤثر على ذلك شيئًا. فأقسم أبرهةُ ليسيرنّ إلى البيت فيهدِمَه حَجَرًا حَجَرًا. فقال له هشام بن المغيرة: إنه قد رام ذلك غيرُ واحدٍ من الملوك فما وصَلوا إليه لأنّ له ربًّا يمنعُه. فخرج أَبْرَهَةُ في أربعين ألفًا وسار بالفيل، فغضبت لفعله هَمْدان وجمعتْ إليها قبائل من اليمن ـ وكان ملكهم رجلاً من أشراف اليمن يقال له ذو نفر ـ فٱستقبلوه فحاربوه فهزمهم وظفر بذي نفر ملك هَمْدان ونُفَيل بن حبيب سيِّد خَثْعَم أسيرين فأمر بضرب عنقهما. فقالا: أيها الملك، استبقنا لندُلّك على الطريق فإنّا من أدلّ العرب، ففعل ذلك. فلمّا صاروا في مَفْرَق الطريقَيْن: مكة والطائف، قال ذو نفر لٱبن حبيب: كفى بنا عارًا أن ننطلق بهذا الأسود إلى بيت الله تعالى فيهدِمَه! قال ٱبن حبيب: هلمّ بنا لنأخذ به طريق الطائف فيشتغل بثُقِيف ولعلّه يرى ما يسوءه، فلم يشعُر أهلُ الطائف صباحًا إلاّ والجيوشُ قد وَرَدَت عليهم، فخرج أبو مسعود الثقفيّ في نَفَر منهم، فأعلم أبرهة أنها ليست طريقَهُ، وسار أبرهةُ حتى أتى مكة وٱستاق السوائم[٣] ونزل على حدّ الحَرَم؛ فكان فيما ساق مائتا ناقةٍ لعبد المطّلب بن هاشم، فركب عبدُ المطّلب فرسَه وقصد العسكر ودخل على أبرهة فأعجبَه جماله وأكرمه ونزل عن سرير كان عليه وجلس دُونه حتى لا يرفع عبد المطلب إليه، ثم قال له: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن يَرُدّ عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي. فلمّا قال له ذلك، قال له أبرهة: قد كان بلغني شرفك في العرب وفضلك فأحببتك، ثم دخلتَ عليّ فرأيتُ من جمالك ووسامتك ما زادني حبًّا، فنقصتَ عندي في سؤالك إيايَ مائتي ناقة وتركتَ أن تسألني في الرجوع عمّا هممتُ به من هَدْم هذا البيت الذي هو شرفُك وعزُّك! قال عبد المطلب: أيها الملك، إنّ لهذا البيتِ ربًّا سيمنعه منك وأنا ربّ إبِلِي، وقد رامَ هَدْمَه مَن لا يُحصَى من الملوك فرجعوا بين أسيرٍ وقَتِيل، فردّ إبلَه؛ وٱجتمع إلى عبد المطّلب أشرافُ قومه فقالوا: اجعل له مالاً نجمعه له ليرجع عمّا هَمّ

---

(١) الحرز: المكان المنيع يلجأ إليه.

(٢) البغاث: طائر أبغث اللون، أي فيه بقع بيض وسود، أصغر من الرخم بطيء الطيران.

(٣) السوائم: جمع السائمة: وهي كل إبل أو ماشية ترسل للرعي ولا تعلف.

به من هَدْم هذا البيت. قال لهم عبد المطلب: وما عسى أن نجعل له من المال مع عِظَم ما هو فيه من المُلْك والسلطان! اطمئنُّوا، الله أمددكم[١]، فوالله لا يصل إليه أبدًا. ثم أنشد عبد المطلب يقول: [من مجزوء الكامل]

يــا ربّ إنّ الــمــرءَ يــمــ ... نــعُ جــارَه فــامْــنَــعْ حِــلالَــكْ[٢]

لا يَــغْــلِــبَــنَّ صَــلِــيــبُــهــم ... بَــغْــيًــا ومــا جــمــعــوا مِــحــالَــكْ[٣]

إن كــنــتَ تــاركــهــم وقِــبْــ ... لَــتَــنــا فــأمــرٌ مــا بَــدَا لَــكْ

ثم عَلاَ جبلَ أبي قُبَيس هو وحَكِيمُ بنُ حِزَام ونفرٌ من سادات قُرَيش، وهَرب الناس فلحقوا برؤوس الجبال، وأمّ أَبْرَهَةُ البيتَ وقدّم أمامه الفيل، وكان أكبرَ فيل رآه الناس كالجبل العظيم، واسمه بلسان الحَبَشة محمود؛ فلمّا انتهى الفيلُ إلى طَرَف الحَرَم بَرَك[٤]، فكانوا ينخسونه، فإذا أخذوا به يمينًا وشمالاً هَرْوَل، وإذا أقْحموه بَرَك. فلم يزل كذلك بقيّة يومهم. فلمّا قاربَ المساء نظروا إلى طَيْرٍ قد أقبلتْ من نحو البحر لا تُحْصَى كثرةً أصغرُ من الحمام، فعجِبُوا من كثرتها ولم يعرفوها ولا رَأَوْا على خِلْقتها طيورًا، وكان مع كلّ طَيْر ثلاثةُ أحجار: حَجَران في رجلَيْه، وحجرٌ في مِنْقاره، على مقدار الحمص، فرفرفت على رؤوسهم وأظلّت عسكرَهم، ثم قذفت بالحجارة عليهم، وهبَّتْ ريحٌ شديدةٌ فزادت الحجارة صعوبةً وقوّة، فكان الحجر منها إذا وقع على رأس الرجل منهم نَفَذ حتى يخرُج من دُبُره، فإذا سقط على بطنه خرج من ناحية ظهره؛ فكان ما أخبر الله عزّ وجلّ عنهم في سورة الفِيل: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: ٥]. وخرج عبدُ المطّلب وأصحابُه فملؤوا أيديَهم من المال، وأرسل إلى قريش فجاؤوه من الجبال وغَنِموا ما شاؤوا، فعظُمَت قريش في أعيُن العرب وسمَّوْهم آلَ الله، وازدادَ عبدُ المطّلب وأصحابُه شرفًا. ووُلِد رسول الله ﷺ بعد قدومهم بخمس وخمسين ليلةً. وكان ذلك بعد عشرين سنة من مُلْك أنو شِرْوَان.

وملك اليمن بعد أبْرَهَةَ ابنُه يَكْسُوم.

ثم ملك بعده مسروق بن أبرهة، وهو الذي زال مُلْكه عَلى يد سَيْفِ بنِ ذي يَزَن على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) يقال: أمدّ فلانًا: أي أعانه وأغاثه؛ وأمدّ الجيش: أي أعانه بمدد يقويه.

(٢) منعه: أي حماه وصيّره منيعًا. (٣) محالك: أي قوتك، وعقابك.

(٤) المراد بقبلتنا: الكعبة، لأن المسلمين يستقبلونها في صلاتهم.

ذكرُ خبرِ سَيْفِ بنِ ذي يَزَنٍ وعَوْدُ المُلْك إلى حِمْيَر

وذلك أنّ حِمْيَرَ لمّا رأتْ مُلْك الحَبَشة قد دام عليهم وتوارَثُوه فيهم، اجتمع ساداتُهم إلى سَيْف بن ذي يَزَن ـ وهو من أولاد ذي نُوَاس الذي غَلَب الحبشةَ على اليمن في أيام مُلْكه ـ وبذلوا له أن يجمعوا له نفقةً تُقيمه ليسير إلى بعض الملوك فيستنجدَه ففعل ذلك، وسار حتى وافَى القُسْطَنْطينية إلى قَيْصر ملك الروم، فٱستنجدَه فقال له قَيْصر: إنّ الجيش على دِيني، وما كنتُ لأُعِينَك عليهم، وأمرَ له بعشرة آلاف درهم، فأبَى أن يقبلها وقال: إذا لم تنصُرْني فلا حاجةَ لي إلى مالك. وٱنصرف إلى كِسْرَى وٱستنجدَه، فقال له كِسْرَى: بَعُدَت بلادُك عن بلادنا مع قِلّة خيرها، إنما فيها الشاءُ والبعيرُ وما لا حاجةَ لي فيه. فقال له سَيْف: لا تزهَدَن أيها الملك في بلادي فإنها فُرْضَة[1] العرب، وأرضُ التبابعة الذين مَلَكوا أقطار أقاليم الأرض، ودانَ لهم أهلُ الشرق والغرب. قال كِسْرَى: ما كنتُ لأغرِّرَ بجُنْدي فيما لا ينفعني وأمرَ له بعشرة آلاف درهم. فلمّا ٱنتهى إلى باب القصر نَثَرَها في الناس حتى أتَى عليها، فبلغ ذلك كسرى فغَضِب وقال له: ما الذي حملك على ٱستخفافك بصِلَتي[2] حتى نثرتَها في الناس؟ قال: ما أصنعُ بالمال وترابُ أرضي ذهبٌ وفضّة! ثم خَنَقَتْه العَبْرة، فرقّ له كسرى ووعده بالٱنتصار له، فأشار عليه بعضُ وزرائه فقال: إنّ في سجونك بشرًا كثيرًا ممن ٱستوجَبَ القَتْل، فمُرْ بإطلاقهم، وقوّهم بالمال والكُرَاع[3] والسِّلاح، ووجِّهم مع هذا العربيّ، فإن ظَفِروا كان ذلك زيادةً في مُلْكك، وإن قُتِلوا كان ذلك جزاءً عن جرائمهم. فأعجبَ كِسْرَى هذا الرأي وعَمِل به وقدّم عليهم وَهْرِزَ بنَ كامخان، وكان من فُرسان العَجَم وأهلِ البيوتات، وقد أناف[4] على المائة من السنين، وكانت عِدّتهم ثلاثةَ آلاف وستمائة رجُل، فركبوا البحر في سبع سُفُن، وأرسل سَيْفٌ إلى اليمن ومخَالِيفها[5]، فأتَوْه من أقاصي اليمن وأدانيها حتى صاروا في عشرين ألفًا، وتجهَّز إليهم مَسْروقٌ، فلمّا التقيَا قال وَهْرِز لسيف: أَرِني مَلِكَهم، فأراه إيّاه؛ وهو على فِيلٍ وعلى رأسه التاجُ وفيه ياقوتةٌ حمراءُ مدلاةٌ على جبينه، فلبِث

---

(١) فرضة النهر: ثلمته التي منها يستقى، والفرضة من البحر: محط السفن؛ ومن الدواة: محلّ المداد.

(٢) الصلة: العطية، أو الجائزة.

(٣) الكراع: المراد بها الخيل.

(٤) أناف على الماء المائة: أي زاد عليها.

(٥) المخاليف: جمع المخلاف، وهي الكورة.

ساعةً ثم تحوّل إلى فرس ثم تحوّل إلى بَغْلة، فقال وَهْرِز: ذلّ الأسودُ وباد مُلْكُه، وأنا أرْمِيه فتأمّل الرَّمْية، فإن رأيتَ أصحابه تصدّعوا عنه وحاصُوا[١] يمينًا وشمالاً فأعلم أنّي قتلتُه، وإن لم يتحرّكوا من منازلهم فلم أصنع شيئًا؛ ورماه، ففلَقَ السهمُ الياقوتةَ نصفَيْن وخرج من مؤخَّر رأس مسروق، وأضطربت الحَبَشة وماجُوا، وحمِلَ عليهم وَهْرِز ومَن معه والعربُ فولّوا منهزمين، ودخلوا صَنْعاء وقتلوا كلّ أسود يُوجد في اليمن. وكتب وَهْرِز إلى كسرى بالفتح، فكتب إليه كسرى أن يسأل عن سَيْفِ بنِ ذي يَزَن، فإن كان من أبناء الملوك فأقرّه على مُلْكه وأنصرِفْ عنه، وإن لم يكن من أبنائهم فأضْرِب عنقَه وأقم في الأرض متولّيًا لهم.

قال: فسلّم وَهْرِز إليه مُلْكَه وخلف من كان معه منَ العجم بصنعاء وأنصرف إلى كسرى، وملك سَيْفٌ اليمن لكسرى، وتداولتها الوُلاة بعده من قبل كسرى. وكان مُلْك الحبشة على اليمن أثنتين وسبعين سنة ثم أنتزع عنهم.

ذكر أخبار ملوك الشام من ملوك قحطان

قال عبد الملك بن عَبْدون في كتابه المترجم بكُمَامة الزهر وصَدَفَة الدرّ: ومن أهل اليمن مَن خرج منها فملك الشام، وهم آل جَفْنَة وأوّلهم: الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة بن أمرىء القيس بن مازِن بن الأَزْد بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك بن زَيْد بن كَهْلان بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان، ويكنى الحارث بأبي شَمِر. ثم تداولها منهم سبعٌ وثلاثون ملكًا. ومُدّة ما ملكوا من السنين ستمائة سنة وست عشرة سنة إلى أن كان آخرهم جَبَلَة بن الأَيْهم، وهو الذي تنصّر في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن كان قد أقبل إلى عمر وأسلم.

ثم إنه كان في الطواف فداس رجلٌ طَرْفَ ردائه فلطمه جَبَلَةُ، فأتى الرجلُ عمرَ رضي الله عنه فطلب جَبَلَةَ ليقِيدَه[٢] منه فتنصّر جبلةُ ولحق بهِرَقْل صاحب القسطنطينية، فأقطعه هِرَقْل الأموال والضياع والرباع، ثم نَدِم جبلة على ما كان منه وقال: [من الطويل]

تَنَصَّرتِ الأشرافُ من أجل لَطْمةٍ ما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ
تكنّفني منها لَجَاجٌ ونَخْوَةٌ فبِعتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ[٣]

---

(١) يقال: حاص عنه: أي حاد وعدل. (٢) ليقيده منه: أي ليقاصصه.
(٣) اللجاج: التمادي في الخصومة.

فيا ليتَ أمّي لم تلدني وليتني رجعتُ إلى القول الذي قاله عُمَرْ
ويا ليتني أرعَى المخاضَ بقفرةٍ وكنتُ أسيرًا في ربيعة أو مُضَرْ(١)
ويا ليتَ لي بالشام أدنَى معيشةٍ أجالسُ قومي ذاهب السَّمع والبَصَرْ

وحُكي أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى هِرَقْل رسولاً يدعوه إلى الإسلام أو إلى الجِزْية فأجاب إلى الجزية، فلمّا أراد الرسول الانصراف قال له هرقل: ألَقِيتَ ٱبنَ عمّك هذا الذي عندنا ـ يعني جَبَلة ـ الذي أتانا راغبًا في ديننا؟ فقال: ما لَقيتُه. قال ألْقِه، قال الرسول: فذهبتُ إلى باب جَبَلة فإذا عليه من القهارمة(٢) والحجّاب والبهجة وكَثْرةِ الجمع مثل ما على باب هرقل. قال: فتلطّفت في الدخول عليه حتى أذِنَ لي، فدخلتُ فرأيتُه أصْهَبَ(٣) اللحية، وكان عهدي به أسودَ اللحية والرأسِ، فأنكرتُه وإذا هو قد ذرّ سُحَالة(٤) الذهب على لحيته حتى صار أصْهَبَ، وهو قاعدٌ على سرير من قوارير، قوائمُه أربعةُ أسود من الذهب. قال: فلمّا عَرَفني رفعني معه على السرير. قال: وجعل يسألني عن المسلمين وعن عُمَر رضي الله عنه؛ فذكرتُ خيرًا وعرّفته أنّ المسلمين كَثُرُوا. ثم ٱنحدرتُ عن السرير فقال لي: لِمَ تأبى الكرامة التي أكرمناك بها؛ قلتُ: إنّ رسول الله ﷺ نَهَى عن هذا. قال: نعم! ﷺ، ولكن نَقِّ قلبك من الدنَس ولا تُبالِ على ما قعدتَ. فلمّا سَمِعتُه يصلّي على النبيّ ﷺ طمعتُ فيه فقلتُ له: ويْحَك يا جبَلة! ألا تُسْلِمُ وقد عرفتَ الإسلامَ وفضلَه؟ قال: أبعدَ ما كان منّي؟ قلتُ: نعم. قال: إن كنتَ تضمن لي أن يزوّجني عمرُ ٱبنتَه ويُوَلِّيني الإمْرةَ بعدَه رجَعْتُ إلى الإسلام. قال الرسول: فضَمِنْتُ له التزويج ولم أضمَن له الإمْرة. قال: ثم أومأ إلى خادم كان على رأسه فذهب مُسْرعًا فإذا خدّامٌ قد جاؤوا يحملون الصناديق فيها الطعام، فوُضِعَتْ ونُصِبَتْ موائدُ الذهب وصِحَاف الفضّة، وقال لي: كُلْ. فقبضتُ يدي وقلتُ: إنّ رسول الله ﷺ نَهَى عن الأكل في آنية الذهب والفضّة. قال: نعم! ﷺ، ولكن نَقِّ قلبَك وكُلْ فيما أحببتَ. قال: فأكل في الذهب وأكلت في الخَلْنج(٥)، ثم جيء بطسّات الذهب وأباريقَ الفضّة فغَسَل يده فيها وغَسَلتُ في الصُّفر، ثم أومأ إلى خادم فمرّ مُسْرعًا فإذا خَدَمٌ معهم كراسيّ الذهب مُرَصَّعةٌ

(١) المخاض: الإبل التي ترد الماء.
(٢) القهارمة: جمع القهرمان، وهو أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه.
(٣) الأصهب: ذو اللون الأصفر الضارب إلى شيء من الحمرة والبياض.
(٤) السحالة: ما سقط من برادة الذهب.
(٥) الخلنج: شجر بين صفرة وحمرة يكون بأطراف الهند والصين، وورقه كالطرفاء، وزهره أحمر وأصفر وأبيض.

بالجواهر، فوُضِعَت عشرةٌ عن يمينه وعشرةٌ عن شماله، ثم جاءت الجواري عليهنّ تِيجانُ الذهب مُرَصَّعةٌ بالجواهر، فقَعَدْنَ عن يمينه وعن شماله على تلك الكراسي، ثم جاءت جاريةٌ كأنها الشمس حُسْنًا على رأسها تاج، على ذلك التاج طائرٌ وفي يدها اليمنى جامةٌ[1] فيها مِسْك فَتِيت، وفي يدها اليسرى جامةٌ فيها ماء ورد؛ فأومأتِ الجاريةُ أو صَفَّرت بالطائر الذي على تاجها فوقع في جام ماءِ الوردِ فٱضْطرب فيه، ثم أومأتْ إليه أو صَفّرت فوقع في جام المسك فتمرّغ فيه، ثم أومأتْ فطار حتى نزل على تاج جَبَلَة، فلم يزل يُرَفْرِف حتى نفض ما عليه في رأسه، فضحك جَبَلَةُ سرورًا به، ثم ٱلتفتَ إلى الجواري اللواتي عن يمينه وقال لهنّ: بالله أضحِكْننا، فٱندفعْنَ يغنِّين بخَفْق عيدانهنّ ويَقُلْنَ: [من الكامل]

لِـلّـهِ دَرُّ عِـصَـابـةٍ نـادَمْـتُـهُـمْ ... يـومًـا بِـجِـلِّـقْ فـي الـزَّمـان الأوّلِ[2]
يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الـبَـرِيـصَ عـلـيـهِـمُ ... بَرَدَى يُصَفَّق بالرّحيقِ السَّلْسلِ[3]
يُـغْـشَـوْنَ حـتـى مـا تَـهِـرّ كِـلابُـهُـمْ ... لا يَسْأَلُونَ عن السَّوَادِ المُقْبِلِ[4]
بـيـضُ الـوُجُـوهِ كَـريـمـةٌ أحـسـابُـهُـمْ ... شُـمُّ الأُنُـوفِ مـن الـطِّـرَازِ الأَوّلِ
أولادُ جَـفْـنَـةَ عـنـدَ قَـبْـرِ أبـيـهِـمُ ... قَبْرِ ٱبنِ ماريَةَ الكريمِ المُفْضِلِ[5]

قال: فضحك حتى بَدَت نواجذُه[6] ثم قال: أتدري مَنْ يقول هذا؟ قلت لا؛ قال: حسّان بنُ ثابت، ثم أشار إلى الجواري اللواتي عن يساره فقال لهنّ: بالله أبكِيننا، فٱندفعْنَ يغنِّين بخَفْق عيدانهنّ ويَقُلْن: [من الخفيف]

لِـمَـنِ الـدار أقْـفَـرَتْ بِـمُـعَـانِ ... بين أعلَى اليَرْمُوكِ فالخَمّانِ[7]
ذاك مَـغْـنًـى لآل جَـفْـنَـةَ فـي الـدهـ ... ـر وحَـقٌّ تَـعَـاقُـبُ الأزمـانِ
قـد أرانـي هـنـاك دهـرًا مَـكِـيـنًـا ... عندَ ذي التاج مَقْعَدِي ومكاني[8]

---

(١) الجامّ: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها، وهي مؤنثة؛ وقد غلب استعمالها في قدح الشراب. وكذلك الجامّة.

(٢) جلّق: اسم لكورة الغوطة كلها؛ وقيل: بل هي دمشق نفسها؛ وقيل: موضع من قرى دمشق.

(٣) البريص: اسم غوطة دمشق.

(٤) هرّ الكلب: أي نبح وكشّر عن أنيابه.

(٥) ابن مارية: هو الحارث بن أبي شمّر الغساني.

(٦) النواجذ: جمع الناجذ، وهو الضرس؛ ويقال: ضحك حتى بدت نواجذه: أي استغرق في الضحك.

(٧) معان: حصن كبير من أرض فلسطين؛ واليرموك: واد بناحية الشام؛ والخمان: موضع بالشام.

(٨) المكين: أي العظيم.

قال: فبكى حتى سالت دموعه على لحيته، ثم قال: أتدري مَن يقول هذا؟ قلت: لا، قال: حسّان، ثم أنشد: تنصّرت الأشراف الأبيات ثم سألني عن حسّان أحيٌّ هو؟ قلت: نعم، فأمر له بكسوة ولي بمثلها، وأمر بمالٍ لحسّان ونُوقٍ مُوقَرة[1] بُرًّا ثم قال: إنْ وجدتَه حيًّا فٱدفَعْ الهديّة إليه، وإنْ وجدتَه ميتًا فٱدفعها إلى أهله وٱنحَرِ النُّوق على قبره.

قال: فلمّا أخبرتُ عُمَرَ بخبره وما ٱشترط عليّ وما ضَمَنْتُ له قال: فهلاّ ضَمَنْتَ له الأمر فإذا أفاء الله به قَضَى الله علينا بحكمه! ثم جهَّزني عُمَرُ إلى القسطنطينية إلى هِرَقْل ثانيةً وأمرني أن أضمن له ما ٱشترط، فلمّا دخلتُ القسطنطينية وجدتُ الناس قد ٱنصرفوا من جنازته، فعلمتُ أنّ الشقاء غَلَبَ عليه في أمّ الكتاب.

ذكر أخبار ملوك الحيرَة
وهم من آل قحطان

وأوّلهم مالكُ بن فَهْم بن غَنْم بن دَوْس بن الأَزْد بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك بن زَيْد بن كَهْلان بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان. وكان قد خرج من اليمن مع عمرو بن عامر حين أحسُّوا بسَيْل العَرِم، وقد ذكرنا أنّ الملك ربيعةَ بن نصر كان قد بعثهم إلى سابور فأسكنهم الحيرة ومَلَكُوا ما حَوْلها. والله أعلم. قال: وكان مُلْك مالك على الحيرة عشرين سنة.

ثم ملك بعده ٱبنُه جَذِيمةُ وهو الوضّاح. قال: وكان يقال له ذلك لبَرَصٍ[2] كان به؛ ويقال أيضًا فيه الأبرش، وكان ينزِل الأنبار، وكان لا يُنادِم أحدًا من الناس ذهابًا بنفسه على الندماء، وكان ينادِم الفَرْقَدَيْن[3] فإذا شَرِبَ قدحًا صَبَّ في الأرض لهذا قدحًا ولهذا قدحًا. ويقال: إنه أوّل مَن عَمِلَ المِنْجَنِيق[4] من الملوك، وأوّل من حُذِيتْ له النِّعال. وأوّل مَن وُقِدَ بين يديه الشمع، وهو الذي قتلته الزَّبّاء بحيلة.

ثم ملك بعده ٱبنُ أخته عمرو بن عَدِيّ بن ربيعة. قالوا: وعمرو هذا هو الذي

---

(١) الموقرة: أي تحمل حملاً ثقيلاً.

(٢) البرص: بياض يقع في الجسد لعلّة.

(٣) الفرقد: نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريبًا، ولذا يهتدى به، وبقربه نجم آخر مماثل له وأصغر منه؛ وهما الفرقدان.

(٤) المنجنيق: آلة قديمة من آلات الحصار، كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها.

استهوته الجنّ دهرًا طويلاً ثم رَجَع؛ فبينما مالك وعَقِيل ابنا فارح وقيل - قالح - يَقْصدان جَذِيمَة المَلِك بهديّة إذ نزلا على ماء ومعهما قَيْنة[1] يقال لها: أمّ عمرو، فتعرّض لهما عمرو، وقد طالت أظفارُه وشعرُه وساءتْ حالتُه وهيئتُه، فجلس إليهما - وكانا يأكلان - فمدّ إليهما يَدَه مُستطعمًا فناولتْه تلك الجارية طعامًا فأكله، ثم مدّ يده ثانية فقالت: إنْ يُعْطَ العبدُ كُرَاعًا[2] يَبْتَغِ ذراعًا! ثم ناولتْ صاحبيها من شرابها وأوكأت[3] سقاءها، فقال عمرو: [من الوافر]

صَـدَدْتِ الـكـأسَ عـنّـا أُمّ عَـمْـرو ... وكـان الـكـأسُ مَجْرَاها الـيـمـيـنـا[4]
ومـا شَـرُّ الـثـلاثـةِ أمّ عَـمْـرو ... بـصـاحِـبِـكِ الـذي لا تَـصْـبَـحِـيـنـا[5]

فقالوا له: مَنْ أنت؟ فانتسب لهما، ففرِحَا به وأقبلا على خاله - وقد كان جعل الجعائل[6] لمن يأتيه به - فلمّا أتياه به قال جَذِيمة لهما: لكما حُكْمكما. فقالا: مُنادمتك. فكانا كما اختارا، وسار بهما المثل. ويقال: إنهما نادَماه أربعين سنة، فما أعادا عليه حديثًا ما حدّثاه به مرّة أخرى، بل كانا يحدّثانه بحديث جديد لم يسمعه منهما قَبْلُ.

وعَمْرٌو هذا هو الذي أخذ بثأر خاله جَذِيمة من الزّبّاء وقَتَلَها. وذلك أنّ قَصِيرَ ابنَ سعد كان من غِلْمان جَذِيمة قال لعمرو: اضرِبْ ظهري واقْطَعْ أرنبةَ أنفي واتركني والزّبّاء، فإنّي سأحتال لك عليها، ففعل به ذلك، ففرّ قَصِيرٌ إلى الزّبّاء وصار في جملة رجالها وأراها النصح والاجتهاد في حوائجها، وأنه غاشٌّ لعمرو بن عَدِيّ؛ وجعل يتّجر لها ويذهب لعمرو في السرّ فيُعطيه الأموال فيأتيها بها، كأنّ ذلك من اجتهاده وحِذْقِه في التجارة حتى اطمأنّتْ له؛ فذهب إلى عمرو وأخذه وأخذ معه ألفَيْ رَجُلٍ وجعلهم في جَوَالق[7] على ألف جمل، ومعهم دروعُهم وسيوفُهم وجاء بهم على طريق يقال له الغُوَير[8]، ولم يكن يسلكه قبل ذلك، فلمّا قَرُبَ من حصنها تقدّم إليها وأعلمها أنه قد أتاها بمالٍ صامتٍ، فأشرفتْ من أعلى قصرها تنظر إلى الجمال، فرأتْها

---

(١) القينة: المغنية.
(٢) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.
(٣) أوكأت سقاءها: شدت فمه بسير أو خيط، أي ربطته.
(٤) صدّ: أعرض.
(٥) تصبحين: أي تسقينه الصبوح، وهو شراب الصباح.
(٦) الجعائل: جمع الجعالة، وهي ما جعل على العمل من أجر أو رشوة.
(٧) الجوالق: أي الغرائر؛ والغرائر: جمع الغرارة، وهي وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح.
(٨) الغوير: موضع على الفرات.

وكأنّها تَنْزِع أَرْجُلَها من أوحالٍ لِثِقَل ما عليها، فقالت: «عَسَى الغُوَيْر أَبْؤُسًا». فذهبتْ مثلاً. ثم قالت: [من الرّجز]

مـا لِـلْـمَـطَـايَـا مَـشْـيُـهـا وَئِـيـدَا أَجَـنْـدَلاً يَـحْـمِـلْـنَ أمْ حَـدِيـدَا[١]

أم صَـرَفـانًـا بـارِدًا شَـدِيـدَا أَمْ الـرِّجـالَ جُـثَّـمًـا قُـعُـودَا[٢]

وقد كان قَصِيرٌ قال لها قبل ذلك كالناصح: ما ينبغي لمثلك إلا أن يكون له موضع ليوم، فإنه لا يَدْري ما تُحْدِثه الأيام؛ فأرته سِرْبًا في ناحيةِ قَصْرِها قد نفذت فيه إلى حصن أختها ـ وكانا على ضَفَّتي الفُرَات ـ قال: فلما دخلتْ الإبل على البوّاب ضجر لكثرتها، حتى إذا كان آخرها طَعَن في جوالق بعُود كان في يده، فقابلتْ الطعنة خاصرةَ الرجُل الذي كان في الجوالق فحنق فقال البوّاب: لشنا لشنا؛ أي شيء في الجوالق، فثارت الرجال من الجوالق بأيديهم السيوف، فهربت الزّبّاء إلى ذلك السِّرْب فإذا هي بقَصِير عند النفق ومعه عمرو بنُ عديّ، والسيف في يده، فمصَّتْ خاتَمًا كان في يدها فيه سمّ ساعة وقالت: «بِيَدِي لا بِيَدِ عمرو». وفي ذلك يقول المُتَلَمِّس[٣]: [من الطويل]

وفـي طَـلَـبِ الأوتـارِ مـا حَـزَّ أنْـفَـهُ قَصِيرٌ ورَامَ الموتَ بالسيف بَيْهَسُ[٤]

وعمروٌ هذا هو الذي يقال فيه: «شَبَّ عمروٌ عن الطَّوْق». وكانت مدّة مُلْكه مائة سنة.

ثم ملك بعده ٱبنُه ٱمرؤ القيس. فكان مُلْكه ستين سنة.

ثم ملك بعده ٱبنُه عمرُو بنُ ٱمرىء القيس وهو مُحَرِّق[٥] العرب. وكان مُلْكه خمسًا وعشرين سنة، وكانت أمّه مَارِيَة التي يُضْرب المثلُ بقُرْطَيْها.

---

(١) الجندل: مكان في مجرى النهر فيه حجارة يشتد عندها جريان النهر، والمراد هنا: الحجارة.

(٢) الصرفان: الرصاص القلعي؛ وقيل: هو النحاس.

(٣) المتلمس: هو جرير بن عبد المسيح من بني ضبيعة وأخواله بنو يشكر، وكان ينادم عمرو بن هند ملك الحيرة، وهو الذي كان كتب له إلى عامل البحرين مع طرفة بقتله. وكان دفع كتابه إلى غلام بالحيرة ليقرأه، فعرف فحواه، فنبذ الصحيفة في نهر الحيرة. . . (الشعر والشعراء لابن قتيبة).

(٤) البيهس: الأسد، أو الشجاع؛ أو المتبختر؛ ويقال رجل بيهس وامرأة بيهس. جمع بياهس.

(٥) سمّي محرقًا لأنه أول من عاقب بالنار.

ثم ملك بعده النعمان بن المنذر فارس حليمة، وهو الذي بنى الخَوَرْنَق وَكَرْدَس[١] الكراديس. وكان أعور، ويقال: إنه أشرف في بعض الأيّام على ما حَوْل الخَوَرْنَق فقال: أكلّ ما أرى إلى نَفَاد[٢]؟ قيل: نعم. قال: فأيُّ خير في مُلْك يكون آخره إلى نَفَاد! ثم ٱنخلع من مُلْكه ولبس المَسُوح[٣] وسار في الأرض. وقد ذكره عديّ بن زَيْد فقال: [من الخفيف]

وتَـفَـكَّـرْ رَبُّ الـخَـورْنَـقِ إذ أَشْـ ... ـرَفَ يـومًـا وَلِـلْـهُـدَى تـفـكِـيـرُ
سَـرَّهُ حـالُـهُ وكَـثْـرَةُ مـا يَـمْـ ... ـلِك والبحرُ مُعْرِضًا والسَّديرُ[٤]
فـٱرْعَـوَى قـلـبُـه وقـال: فـمـا غِـبْـ ... ـطَةُ حَيٍّ إلى المَمَات يَصِيرُ[٥]؟

وكان مُلْكه خمسًا وثلاثين سنة.

ثم ملك الأسودُ بنُ النعمان. فكان ملكه عشرين سنة. ويقال: إنّ الأسودَ هذا هو الذي ٱنتصر على غَسّانَ وأَسَر عِدّةً من ملوكهم، وأراد أن يَعْفُوَ عنهم، وكان للأسود ٱبنُ عمٍّ يقال له: أبو أُذَيْنة، قد قَتَلَ آلُ غَسّانَ له أخًا في بعض الوقائع، فقال قصيدته المشهورة يُغْرِي بهم الأَسْودَ بن النعمان: [من البسيط]

ما كلُّ يوم ينال المرءُ ما طَلَبَا ... ولا يُسَوّغُهُ المِقْدارُ ما وَهَبَا[٦]
وأحزَمُ النَّاسِ مَنْ إن فُرْصَةٌ عَرَضَتْ ... لم يجعل السببَ المَوْصُولَ مُقْتضبَا
وأنصفُ الناسِ في كلّ المواطن مَنْ ... سَقَى المُعَادِين بالكأس الذي شَرِبَا
وليس يَظْلِمُهم مَنْ رَاحَ يَضْرِبُهم ... بحدّ سَيْفٍ به مَنْ قَبْلَهم ضُرِبَا
والعفوُ إلاّ عن الأكفاءِ مَكْرُمةٌ ... مَنْ قال غير الذي قد قُلْتُه كَذِبَا
قتلتَ عمرًا وتَسْتَبْقي يَزِيدَ لقد ... رأيتَ رأيًا يجرُّ الوَيْلَ والحَرَبَا
لا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ الأفعَى وتُرْسِلَها ... إن كنتَ شَهْمًا فأَتْبِعْ رأسَها الذَّنَبَا
هُمْ جَرَّدُوا السيفَ فٱجعَلْهُم له جَزَرًا ... وأَوْقَدُوا النارَ فٱجْعَلْهم لها حَطَبَا[٧]
إن تَعْفُ عنهم تقول الناسُ كلُّهُمُ ... لم يَعْفُ حِلْمًا ولكن عَفْوُهُ رَهَبَا[٨]

---

(١) الكراديس: جمع الكردس، وهو الواحد من الخيل؛ وكردس الكراديس: أي جعلها كتيبة كتيبة.
(٢) النفاد: الزوال.
(٣) المسوح: جمع المسح، وهو الكساء من الشعر؛ أو ثوب الراهب، وهو المراد.
(٤) المعرض: أي المتسع. والسدير: قصر، وقد تقدم وصفه وتفسيره.
(٥) ارعوى: كفّ وارتدع.
(٦) المراد بالمقدار: أي القدر.
(٧) جزرًا: أي قطعًا.
(٨) رهبًا: أي خوفًا.

وكان أحْسَنَ مِنْ ذا العفو لو هربوا ... لكنَّهم أنِفُوا مِنْ مِثْلِكَ الهَرَبَا[١]

هُمُو أهِلّةُ غَسّانَ ومَجْدُهُمُ ... عال فإن حالوا مُلْكًا فلا عَجَبَا[٢]

وعَرَضُوا بِفِدَاءٍ واصِفِين لنا ... خَيْلًا وإبلًا يَرُوقُ العُجْمَ والعَرَبَا

أيَحْلِبُونَ دَمًا منّا ونَحْلِبُهُمْ ... رِسْلًا لقد شَرَّفُونَا في الوَرَى حَلَبَا[٣]

عَلامَ تَقْبَلُ منهم فِدْيَةً وهُمُو ... لا فِضَّةً قَبِلُوا منّا ولا ذَهَبَا

فلمّا أنشده هذه القصيدة رجع عن رأيه في العفو عنهم وقَبُولِ الفِدَاء منهم وقَتَلَهُم. والله أعلم.

ثم ملك بعده المنذرُ بنُ الأسود؛ وكانت أمُّه ماء السماء. وكانت مدّة مُلْكه أربعًا وثلاثين سنة.

ثم ملك بعده عمرُو بنُ المنذر. فكان مُلْكه أربعًا وعشرين سنة.

ثم ملك بعده المنذرُ بنُ عمرو بن المنذر. وكان مُلْكه ستّين سنة.

ثم ملك بعده قابوسُ بنُ المنذر. فكانت مدّة ملكه ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده أخوه المنذرُ بنُ المنذرِ بنِ ماء السماء.

ثم ملك بعده النعمانُ بنُ المنذِر؛ وهو الذي قيل له: «أبيتَ اللّعْنَ» وهو آخر مَنْ ملك من آلهم. وكان مُلْكه ٱثنتين وعشرين سنة. وها نحن نذكر ما قيل في سبب مُلْكه وزواله.

قالوا: وكان عديّ بنُ زَيْد العُبَّاديّ وٱبنُه زيد بن عديّ سَبَبَ ولايته وسَبَبَ هلاكه. وذلك أنّ عديًا وأخَوَيْه، وهما عَمّار وعمرو، كانوا في خدمة الأكاسرة ولهم من جهتهم قطائع[٤]، وكان قابوسُ الأكبر عمّ النعمان بعث إلى كسرى أبرويز بعديّ بن زَيْد وأخَوَيْه ليكونوا في كتّابه يترجمون له، فلمّا مات المنذِر ترك من الأولاد ٱثْنَيْ عشر رجلًا، وهُمُ الأشاهِبُ[٥]، سُمُّوا بذلك لجمالهم، وفيهم يقول الأعشى: [من الخفيف]

وبنو المنذِرِ الأشاهِبُ بالحِـ ... ـيرة يَمْشُونَ غُدْوَةً كالسيوفِ[٦]

---

(١) أنف: استنكف واستكبر؛ أو تنزّه عنه وكرهه.

(٢) حال الملك: أي أنيط به.

(٣) الرسل: اللبن. والحلب: استخراج ما في الضرع من اللبن.

(٤) القطائع: جمع القطيعة، وهي الجزء من الأرض يملكه الحاكم لمن يريد من أتباعه منحة.

(٥) سمّوا الأشاهب لبياض وجوههم.

(٦) الغدوة: الغداة: ما بين الفجر وطلوع الشمس.

فجعل المنذرُ ٱبنَه النعمان في حجر عديّ بن زيد هذا، وجعل ٱبنه الأسود في حجر رجل يقال له: عديّ بن أوْس بن مَرِينا، وبنو مَرِينا[١] قومٌ لهم شَرَف، وهم من لَخْم، وترك المنذر بقيَّةَ بنِيهِ، وهم عشرة، يستقلّ كلّ واحد منهم بنفسه، وجعل المنذر على أمره كلّه إياس بن قَبِيصة الطائيّ، فلمّا مات قابوس طلب كسرى مَنْ يملِّكه على العرب، فدعا عديّ بن زيد فقال له: مَنْ بَقِيَ من بني المنذر، وما هم؟ وهل فيهم خيرٌ؟ فقال: بقيتهم في ولد هذا الميِّت، يعني المنذر، وهم رجالٌ نجباء[٢]؛ فكتب إليهم بالقدوم عليه، فقَدِمُوا فأنزلهم، على عديّ بن زيد، وكان عديّ يرى موضع النعمان لأنه في حِجْره ويختاره على بقيّة إخوته في الباطن، وهو يُظهر لهم خلاف ذلك ويفضِّلهم عليه في الظاهر، ويكرم نُزُلَهم ويخلو بهم ويريهم أنه لا يرجو النعمان، كلّ ذلك، ليطمئنّوا إليه ويرجعوا إلى رأيه، ثم خلا بكلّ منهم على ٱنفراده وقال لهم: إنْ سألكم المَلك: أتكفوني العرب فقولوا: نكفيهم إلاّ النعمان، وقال للنعمان: إن سألك الملك عن إخوتك فَقُل له: إنْ عجزتُ عنهم فإنّي عن غيرهم أعجز.

قال: وكان عديُّ بن أوْس بن مَرِينا داهيةً أريبًا، وكان يُوصي الأسود بن المنذر ويقول: قد عرفتُ أنّي لك راجٍ، وأنّ طُلْبتي إليك ورغبتي أن تخلف عديّ بنُ زيد فيما يشير به عليك، فإنه والله لا ينصح لك أبدًا، فلم يلتفت الأسودُ إلى قوله. فلمّا أمر كسرى عديّ بن زَيْد أن يُدْخلهم عليه قدّمهم رجلاً رجلاً، وكسرى يرى رجالاً قلّما رأى مثلهم، فإذا سألهم هل تكفوني العرب قالوا: نكفيك العرب كلّها إلاّ النعمان. فلمّا دخل النعمان عليه رأى رجلاً دميمًا قَصيرًا أحمرَ الشعر فكلّمه وقال: هل تستطيع أن تكفيني العرب؟ قال نعم، قال: فكيف تصنع بإخوتك؟ قال: أيّها الملك إن عجزتُ عنهم فإنّي عن غيرهم أعجز. فملكه وكساه وألبسه تاجًا قيمته ستّون ألف درهم. فلمّا خرج وملك على العرب قال عديّ بن أوْس بن مَرِينا للأسود بن المنذر: دونك فإنك خالفتَ الرأي.

قال: ثم إنّ عديّ بن زيد صنع طعامًا في بَيْعة وأرسل إلى ابن أوْس أن ٱئتني مع مَن أحببتَ فإن لي حاجةً، فأتاه في أناس فتغدَّوْا في البَيْعة، فقال عديّ بن زَيْد لعديّ بن أوْس: يا عديّ إنّ أحق مَن عَرَف الحق ثم لم يَلُم عليه مَن كان مثلك، إنّي

---

(١) بنو مرينا: قوم من أهل الحيرة من قبائل العباد.

(٢) النجباء: جمع النجيب، وهو الفاضل على مثله النفيس في نوعه.

عرفتُ أنّ صاحبك الأسودَ كان أحبّ إليك أن يُمَلَّك من صاحبي النعمان، فلا تَلُمني على شيء كنتَ على مثله، وأنا أحبّ ألاّ تَحْقِد عليّ شيئًا لو قَدِرْت عليه ركبتَه، وأحبّ أن تعطِيَني من نفسك ما أعطيك من نفسي، فإنّ نصيبي من هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك. فقام عديّ بن زَيْد إلى البيعة وحلف ألاّ يهجُوَه ولا يبغِيه غائلةً أبدًا، ولا يَرْوِي عنه خيرًا، وحلف عديّ بن أوس على مثل يمينه ألاّ يزال يهجوه أبدًا ويبغيه الغوائل ما بَقِيَ. وخرج النعمان حتى أتى منزله بالحيرة، وٱفترق العديّان على وحشة، فقال عديّ بن أوس للأسود: إن لم تظفَر أفلا تعجَز أن تطلب بثأرك من هذا المعدِّيّ الذي عَمل بك ما عَمل؟ فقد كنتُ أخبرتك أن معدًّا لا تنام عن مكرها، وأمرتُك أن تخالفه فعصيتني. قال: فما تريد؟ قال: ألاّ تأتيك فائدة من مُلْكك ولا أرضك إلاّ عرضتها عليّ، ففعل. وكان عديُّ بنُ أوْس كثير المال، فلم يمرّ به يومٌ إلاّ بعث فيه إلى النعمان هديّة أو تُحْفة. فلمّا توالَى ذلك وكثُرت هداياه عند النعمان صار من أكرم الناس عليه، وصار لا يقضي في مُلْكه شيئًا إلاّ برأي عديّ بن أوس. فلمّا رأى مَن يطيف بالنعمان منزلة ٱبن أوس عنده تابعوه ولَزِمُوه؛ فكان يقول لمن يثق به من أصحاب النعمان: إذا رأيتموني أذكر عديَّ بنَ زيد عند الملك بخير فقولوا: إنه لكما يقول ولكنّه لا يُسَلِّم عليه أحد، وإنه يقول: إن الملك ـ يعني النعمان ـ إنما هو عاملُه، وإنه هو الذي ولاّه ما ولاّه.

فلم يزالوا بهذا وأشباهه حتى أضغنوا النعمان عليه. ثم إنهم كتبوا كتابًا عن عديّ إلى قَهْرمان كان له، ودسّوا مَنْ أخذ الكتاب وأتى به النعمان فقرأه فغضِب، وأرسل إلى عديّ بن زيد يقول: عزمتُ عليك إلاّ زرتَني فإني قد اشتقتُ إليك، وكان عند كسرى، فاستأذنه في زيارة النعمان فأذِنَ له، فلمّا أتاه لم ينظر إليه حتى حبسه، فجعل يقول الشعر ويستعطفه به، فكان مما قاله: [من الرّمل]

أَبْلِغ النُّعمانَ عنّي مَألُكا ... إنه قد طالَ حَبْسِي وٱنتِظَارِي[1]
لو بغير الماءِ حَلْقي شَرِقٌ ... كنتُ كالغصّان بالماء ٱعْتِصَارِي[2]

وقال أشعارًا كثيرةً كانت تبلُغ النعمان فندِمَ على حبسه وعَلِمَ أنه كِيدَ فيه، فكان يُرْسِل إليه ويَعِدُه ويُمَنِّيه، فلمّا طال سجنُه وأعياه التضرُّع إلى النعمان كتب إلى أخيه أُبَيّ ـ وهو عَمّار ـ وهو مع كِسْرَى يخبره بحاله، ويبعثه على السعي في خلاصه،

(١) المألك: الرسالة.
(٢) الاعتصار: أن يغصّ الإنسان بالطعام فيعتصر الماء، أي أن يشربه قليلاً قليلاً ليسيغه.

فدخل أُبَيّ على كسرى وكلّمه، فكتب إلى النعمان في أمره وبعث رسولاً بكتابه، فقال له أُبَيّ: ابدأ بعديّ وٱنظُره قبل أن تجتمع بالنعمان، ورشاه على ذلك، ففعل الرسولُ ذلك ودخل إلى الحبس وٱجتمع بعديّ وقال له: ما تحبّ أن أصنع؟ قال: أُحِبّ ألاّ تخرُج من عندي، وأعطِني كتاب كسرى لأُرسله من قِبَلِي. قال: لا أستطيع ذلك. قال: فإنك إن خرجتَ من عندي قُتِلتَ. فقال: لا بدّ أن آتِيَ النعمانَ وأُوَصّله الكتابَ من يدي، فٱنطلَقَ إلى النعمان وأوصله الكتابَ فقَبّله وقال: سمعًا وطاعةً، ووَصَلَه بأربعة آلاف مثقال ذهبًا وجاريةٍ حسناء وقال: إذا كان من غدٍ فٱدخُل عليه وأخرِجْه بنفسك. وكان أعداء عَدِيّ أَتَوْا النعمان وأخبروه أنّ رسول كسرى دخل إلى عديّ وأنه إن خرج من الحبس لم يَسْتبِق منّا أحدًا، ولم تنجُ أنتَ ولا غيرُك، فأمرَهم النعمانُ بقتله، فدخلوا عليه لمّا خرج الرسولُ من عنده وغَمُّوه(١) حتى مات، فلمّا أصبح الرسولُ دخل السجن فقال له الحَرَس: إنّ عديًّا قد مات منذ أيام، ولم نجرؤ أن نُخبر النعمان فَرِقًا(٢) منه لعلمنا بكراهيته لذلك، فرجع الرسولُ إلى النعمان فقال: إنّي كنتُ بدأتُ به فدخلتُ عليه وهو حيٌّ. فقال له النعمان: يبعثك الملك إليّ فتدخُلَ إليه قبلي، كذبتَ! ولكنّك ٱرتشَيْتَ وتهدّده، ثم ٱستدعاه بعد ذلك وزاده جائزةً وكسوةً وٱستوثَق منه وصَرَفَه إلى كِسْرَى. فلمّا رجع إليه قال له: قد مات قبل مقدَمِي على النعمان.

قال: ثم نَدِم النعمان على قَتْل عديّ ندمًا شديدًا وٱجترأ أعداءُ عديّ على النعمان وهابهم، ثم ركب النعمانُ في بعض أيّامه للصَّيد فلقِيَ ٱبنًا لعديّ بنِ زيد، فكلّمه فإذا هو غلامٌ ظريفٌ ففرِحَ به النعمان وقرَّبه ووَصَلَه وٱعتذر إليه، ثم جهّزه(٣) إلى كسرى وكتب إليه: إنّ عَدِيًّا كان ممن أُعِينَ به الملك في نصيحته ورأيه، فٱنقضت مُدَّتُه وٱنقطع أجله، ولم يُصَبْ به أحدٌ أشدّ من مصيبتي، وإنّ المَلِك لم يكن ليَفقِدَ رجلاً من عبِيده إلاّ جعل الله له منه خَلَفًا، وقد أدرك له ٱبنٌ ليس هو دُونه، وقد سرَّحته إلى المَلِك فإن رأى أن يجعله مكانَ أبيه ويصرِفَ عمَّه إلى عَمَلٍ آخر فَعَل. فأجابه كسرى إلى ذلك ورتَّبه في وظيفة أبيه، وسأله عن النعمان فأحسن الثناء عليه، فمكث سنوات على منزلة أبيه وأُعجِبَ به كسرى. وكان لصاحب هذه الرُّتْبة على

(١) المراد بقوله: غموه، أي أنهم غطوا وجهه بشيء حتى اختنق.

(٢) فرقًا منه: فزعًا منه.

(٣) جهّزه: أعدّ له معدات السفر.

العرب وظيفةٌ في كلّ سنةٍ من الأفراس والمهارة[١] والكَمْأة[٢] والأَقِطِ[٣] والأُدْمِ[٤] وغير ذلك، وهو يلي ما يُكتَب عن كسرى إلى العرب.

قال: ثم تمكَّن زَيْدُ بنُ عديّ بن زَيْد عند كسرى حتى كان يجتمع به في أوقات خَلَوَاته، فدخل عليه في بعض الأيّام فكلَّمه فيما دخل بسببه؛ ثم جرى ذكر النساء. وكانت عند الأكاسرة صفاتُ أمرأة، ومن رَسْمهم أن يطلبوا للملك مَنْ هي متَّصفةٌ بتلك الصفات وكانت الصفةُ أنّ المنذرَ الأكبرَ أهدى إلى أَنُو شِرْوَانَ جارية كان أصابها[٥] لمّا أغار على الحارث الأكبر الغَسَّانيّ، فكتب إلى أَنُو شِرْوَانَ بصفة الجارية فقال: هي معتدلةُ الخَلْق، نقيَّةُ اللَّوْن والثَّغر، بيضاءُ قمراءُ[٦] وَطْفاءُ[٧] دعْجاءُ[٨] حَوْراءُ[٩] عَيْناءُ قَنْواءُ[١٠] شَمّاءُ[١١] بَرْجاءُ[١٢] زَجّاءُ[١٣] أَسِيلةُ الخدّ، شهيّةُ المقبَّل جَثْلَةُ[١٤] الشَّعْر، عظيمةُ الهامة، بعيدةُ مَهْوَى القُرْط عَيْطاءُ[١٥]، عريضةُ الصدر، كاعبُ الثدي، ضخمةُ مُشَاشِ[١٦] المَنْكِب والعضِد، حسنةُ المِعْصَم، لطيفةُ الكفّ، سَبْطَةُ البَنَان، لطيفةُ طيِّ البطن، خَمِيصةُ[١٧] الخَصْر، غَرْثَى[١٨] الوِشاح، رَدَاحُ[١٩] الأقبال، رابيةُ الكفَل، مُفْعَمَةُ الساق[٢٠]، لَفَّاءُ الفَخِذين. رَيَّا الروادِف، ضخمةُ المَأْكِمَتَيْن[٢١]،

---

(١) المهارة: جمع المهر، وهو أول ما ينتج من الخيل والحمر الأهلية وغيرها.
(٢) الكمء: فطر من الفصيلة الكمشية، وهي أرضية تنتفخ حاملة أبواغها، فتجنى وتؤكل مطبوخة، ويختلف حجمها بحسب الأنواع. جمع الكمأة.
(٣) الأقط: الذي انسحقت أسنانه حتى ظهرت درادرها.
(٤) الأدم: جمع أدماء أو آدم، وهو الذي اشتدت سمرته.
(٥) المراد: أخذها من جملة السبايا. (٦) القمراء: التي يشبه وجهها القمر في إشراقه.
(٧) الوطفاء: غزيرة الأهداب وشعر الحاجبين.
(٨) الدعجاء: التي في عينها دعج، والدعج شدة سواد العين وشدة بياض بياضها.
(٩) الحوراء من النساء البيضاء، ولا يقصد بذلك حور عينيها.
(١٠) القنواء التي في أعلى أنفها ارتفاع وفي وسطه احديداب وفي طرفه سبوغ.
(١١) الشماء: التي ارتفعت قصبة أنفها وحسنت. (١٢) البرجاء: الجميلة الحسنة الوجه.
(١٣) الزجاء: دقيقة الحاجبين في طول. (١٤) جثلة الشعر: كثيفة الشعر سوداؤه.
(١٥) العيطاء: الطويلة العنق.
(١٦) المشاش: رؤوس العظام مثل المنكبين والمرفقين.
(١٧) الخميصة التي ضمر خصرها. (١٨) غرثى الوشاح: يراد دقة الخصر.
(١٩) الرداح: الثقيلة الأوراك التامة الخلق. (٢٠) مفعمة الساق: ممتلئتها.
(٢١) المأكمة: اللحمة التي على رأس الورك.

عظيمةُ الركبة، مُشبَعَةُ[١] الخَلْخال، لطيفةُ الكعب والقدم، قَطُوف[٢] المشي، مِكسَالُ[٣] الضُّحَى، بَضَّةُ[٤] المتجرِّد، سَمُوعٌ للسيّد، ليست بخَنْسَاءَ[٥] ولا سَفْعَاءَ[٦]، رقيقةُ الأنف، عزيزةُ النفس، لم تُغذَّ في بؤسٍ، حَيِيَّةٌ رَزِينةٌ، حليمةٌ رَكينةٌ[٧]، كريمةُ الخال، تقتصر بنسب أبيها، وبفصيلتها دون جِمَاع قبيلتها، قد أحكمتها التجارِبُ في الأدب، رأيها رأيُ أهل الشرف، وعملُها عملُ أهل الحاجة، صَنَاعُ الكفَّين، قَطِيعةُ[٨] اللسان، رَهْوَةُ[٩] الصوت ساكنته، تَزِينُ البيتَ وتَشينُ العدوَّ إن أردتَها اشتهتْ، وإن تركتَها انتهتْ، تُحَمْلِقُ[١٠] عيناها، وتحمرُّ وجنتاها، وتَذَبْذَبُ[١١] شفتاها، وتبادِرُكَ الوثبةُ إذا قمتَ، ولا تجلسُ إلا بأمرك إذا جلستَ. فقبِلَها أَنُو شِرْوَانُ وأمر بإثبات هذه الصفة في ديوانه، فكانت تتوارثُ حتى انتهى المُلْك إلى كِسْرى أَبْرَوِيز بن هُرْمُز. فلمّا قُرِئتْ هذه الصفة عليه قال له زَيْد بن عديّ: أيها الملك، أنا أخبر بآل المنذر، وعند عبدك النعمان من بناته وبنات عمّه وأهله أكثرُ من عشرين امرأة على هذه الصفة. فقال له كسرى: اكتب فيهنّ إليه. فقال: أيها الملك، إنّ شرّ شيء في العرب وفي النعمان خاصّةً أنهم يتكرّمون[١٢] ـ زعموا في أنفسهم ـ عن العجم، فابعثني إليه وابعثْ معي رجلاً من ثِقاتك يفقه العربية. فبعث معه رجلاً جَلْدًا فَهِمًا، فخرج به زيد حتى أتى الحِيرة ودخل على النعمان؛ فلما دخل عليه عظّم الرسول أمر كسرى وقال له: إنه قد احتاج إلى نساء لأهله وولده فأراد كرامتكَ بصِهْره وبعث إليك فيهنّ. فقال النعمان: وما صفةُ هؤلاء النِّسوة؟ قال: هذه صفتهُنَّ قد جئناك بها، وقرأها على زَيْد بن عديّ، فشقّ ذلك على النعمان وقال لزيد وللرسول: أمَا في مَهَا[١٣] السَّواد وعِين[١٤] فارسَ ما تبلُغون به حاجتَكم؟ فقال الرسولُ لزيد: ما المَهَا والعَينُ؟ قال: البقر. فقال زيد للنعمان: إنما أراد الملِكُ كرامتَكَ، ولو عَلِمَ أنّ

---

(١) المشبعة الخلخال: الملأى سُمنًا. (٢) القطوف: أي تقارب الخطو.

(٣) المكسال: المرأة التي لا تكاد تبرح مجلسها.

(٤) بضّة المتجرد: أي ناعمة عند التجرد.

(٥) الخنساء: التي تأخر أنفها إلى الرأس وارتفع عن الشفة وليس بطويل ولا مشرف.

(٦) السفع: السواد والشحوب. (٧) الركينة: الساكنة الوقورة.

(٨) قطيعة اللسان: أي ليست سليطة. (٩) رهوة الصوت: رقيقته سهلته.

(١٠) المحملق من الأعين: ما حول مقلتيها بياض لم يخالطه سواد.

(١١) تذبذب شفتاها: تحركهما في اضطراب. (١٢) يتكرمون عن العجم: يتنزهون عنهم.

(١٣) المها: جمع المهاة، وهي البقرة الوحشية.

(١٤) العين: جمع عيناء، وهي التي اتسعت عينها وحسنت، والمراد بها هنا البقرة الوحشية.

ذلك يشُقُّ عليكَ لَمَا كَتَبَ إليكَ، فأنزلهما يومين عنده ثم كتب إلى كسرى: إنّ الذي طلب الملكُ ليس عندي. ثم قال لزيد: أعذِرْني عنده. فلمّا رجعا إلى كِسْرَى قال لزيد: أين ما كنتَ أخبرتَني به؟ قال: قد كنتُ أخبرتكَ بضِنَّتِهم[١] بنسائهم على غيرهم، وإنّ ذلك من شقائهم، فسَلْ هذا الرسول عن مقالة النعمان فإني أكره أن أواجه الملك بما قاله، فقال للرسولَ: وما قال؟ قال إنه قال: أما في بقَرِ السواد وفارِسَ ما يكفي الملك حتى يطلبَ ما عندنا! فعُرِفَ الغضبُ في وجه كسرى ثم قال: رُبَّ عبدٍ قد قال هذا فصار أمره إلى التَّبَاب[٢]، فبلغ كلامُه النعمانَ. وسكتَ كسرى على ذلك أشهُرًا، وهو يستعدّ ويتوقَّعُ حتى أتاه كتابُ كسرى يستدعيه، فانطلق النعمانُ حتى أتَى جبال طَيِّىء وهو متزوِّج منهم، فأرادهم أن يمنعوه فأبَوْا ذلك وقالوا: لولا صِهْرُكَ لقتلناكَ، فإنه لا حاجة لنا في مُعَاداة كسرى، فأقبل يَعرِض نفسه على العرب فلا يقبلوه، حتى نزل بذِي قَارٍ[٣] ببَنِي شَيْبانَ سِرًّا فلقِيَ هانىءَ بن قَبِيصة بن هانىء بن مسعود فأودعه سلاحه وتوجه إلى كسرى فلقِيَ زَيْد بن عديّ على قنطرة سَابَاطَ[٤]، فقال له: انجُ نُعَيمُ! فقال: أنت يا زيدُ فعلتَ هذا! أمَا والله لئن أُفلت لأَسقينَّك بكأس أبيك! فقال له زَيْد: اِمضِ نُعيم، فقد والله وضعتُ لك عنده أَخِيَّةً[٥] لا يقطَعُها المُهْرُ الأرِنُ[٦]. قال: فلما بلغ كسرى أنه بالباب أمر به فقُيِّد وأبعده إلى خَانِقِين[٧]، فلم يزل بالسجن حتى مات بالطاعون.

قال ٱبن مِسْكَوَيْه في كتاب تجارب الأمم: والناس يظنون أنه مات بسَابَاطَ لبيتٍ قاله الأعشى. والصحيح ما قلناه.

وقال ٱبن عَبْدون: إنّ النعمان لمّا أقبل إلى المدائن[٨] صفَّ له كِسْرَى ثمانية آلاف جارية عليهنّ المصبَّغات وجعلهنّ صَفَّيْن، فلمّا صار النعمان بينهنّ قُلْنَ له: أمَا فينا للملك غِنىً عن بقر السَّوَاد؟ وأنّ كِسْرَى أمر بالنعمان فحُبِسَ بسَابَاط المدائن، ثم

---

(١) ضنتهم: أي بخلهم. (٢) التباب: الهلاك والخسران.

(٣) ذو قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط.

(٤) ساباط: موضع بالمدائن، وقد تقدم وصفه وتفسيره.

(٥) الأخيّة: عود يعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة وتشد إليه الدابّة.

(٦) الأرن: النشيط.

(٧) خانقين: بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد، بينها وبين قصر شيرين ستة فراسخ وبها عين للنقط عظيمة كثيرة الدخل.

(٨) المدائن: تقدم تفسيرها.

أمر به فرمِي بين أرجلِ الفِيلة فوطئته حتى مات. وفي ذلك يقول سَلاَمة بن جَنْدَل[(١)] وذكر قَتْلَ كسْرَى أبرويز للنُّعمان فقال:

هو المُدْخِل النُّعمان بَيْتًا سَماؤه نُحُورُ الفُيولِ بَعْدَ بَيْتٍ مُسَرْدَقِ[(٢)]

ثم ملك بعده إياسُ بنُ قَبِيصة وأتى الله تعالى بالإسلام. فهؤلاء ملوك العرب باليمن والشام والحِيرَة.

ذكر خبر سَدّ مَأرب وسَيْل العَرِم

قد ذكر الله عزّ وجلّ ذلك في كتابه العزيز فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٥ و١٦] الآية. رُوِيَ عن فَرْوَة بن مُسَيك[(٣)] عن رسول الله ﷺ أنه لمّا أنزل في سبأ ما أنزل قال رجل: يا رسول الله، وما سبأ؟ أرضٌ أو امرأة؟ فقال: «ليس بأرضٍ ولا امرأةٍ، ولكنّه رجلٌ وَلَدَ عشرة من العرب فتيامَنَ[(٤)] منهم ستّة وتَشاءم منهم أربعة، فأمّا الذين تشاءموا فلَخْم وجُذام وغَسّان وعامِلَة، وأمّا الذين تيامَنُوا فالأزْد والأشعرون وحِمْير وكِنْدة ومَذْحِج وأنمار» فقال رجلٌ: يا رسول الله، وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خَثْعم وبَجِيلة». أخرجه أبو داود في سننه والترمذي في جامعه.

وكانت أرض مأرِبَ من بلاد اليمن متّصلةَ العمارةِ مسيرةَ ستّة أشهر، وقيل أزيد من شهرين للراكب المجدّ، وكانوا يَقتَبِسون النار بعضهم من بعض مسيرةَ ستّة أشهر؛ فكانت المرأة إذا أرادت أن تَجْتَنِيَ من ثمارها شيئًا وَضَعتِ المِكْتَل[(٥)] على رأسها وخرجت تمشِي بين الأشجار وهي تَغزِل وتعمَل ما شاءت، فلا ترجِع إلاّ وقد امتلأ مِكْتَلُها مما يتساقط فيه من الثمار.

---

(١) سلامة بن جندل: هو من بني عامر بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، جاهلي قديم وهو من فرسان تميم المعدودين وأخوه أحمر بن جندل من الشعراء والفرسان... (الشعر والشعراء لابن قتيبة).

(٢) المسردق: هو الذي يكون أعلاه وأسفله مشدودًا كله.

(٣) هو فروة بن مسيك بن الحارث بن سلمة بن الحارث بن كريت بن مالك بن منبه بن عطيف المرادي روى عن النبي ﷺ.

(٤) تيامن: ذهب ذات اليمين، أو تبرّك، ضدّ تطيّر وهو المعنى المراد.

(٥) المكتل: زنبيل يعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيره.

واختُلِف في مأرِب، فقيل: إنه ٱسمُ مَلِك تلك الأرض فسُمِّيت به، قال الشاعر[١]:

مِنْ سَبَأَ الحاضِرِين مأرِبَ إذ   يَبْنُون مِن دُونِ سَيْلِهِ العَرِما[٢]

وقيل: هو ٱسمٌ لقصر الملك، وفيه يقول أبو الطَّمَحان[٣]:

ألم ترَوْا مأرِبًا ما كان أَحْصَنَهُ   وما حَوالَيْهِ من سُورٍ وبُنيانِ

قال: وكان أوّل مَنْ خرج من اليمن بسبب سَيْل العَرم عمرو بن عامر مُزَيْقِيَا، وقد ذكرناه في الأنساب، وإنّ سببَ تسميته مُزَيْقِيَا أنه كان يلبس في كلّ يوم حُلّة وقيل حُلّتين، وهو الأشهر، ثم يمزّقهما عشيّة نهاره لئلاّ يلبسهما غيره، فكان هذا دأبه في كلّ يوم.

وكان سببُ خروجه من اليمن وٱطّلاعه على خبر سَيْلِ العَرِم قبلَ حدوثه دُونَ غيره من الناس أنه كان له ٱمرأةٌ كاهنةٌ يقال لها: طُرَيف الخير، وكانت قد رأتْ في منامها أنّ سحابةً غَشِيتْ أرضَهم فأرعَدَتْ وأبرقَتْ ثم أصعَقَتْ[٤] فأحرقَتْ كلّ ما وقَعَتْ عليه، ففَزِعَتْ طُرَيفةُ الخيرِ لذلك فَزَعًا شديدًا وأتتْ إلى زوجها عمرو بن عامر وقالت: ما رأيتُ اليومَ أزال عني النوم. فقال لها: ما رأيتِ؟ قالت: رأيتُ غَيمًا أرعدَ وأبرقَ طويلاً ثم أصعَقَ فما وقع على شيء إلاّ ٱحترق. قال: فلمّا رأى ما داخَلَها من الرَّوْع والفَزَع سكّنها.

ثم إنّ عَمرًا بعد ذلك دخل حديقةً له ومعه جاريةٌ من بعض جوارِيهِ، فبلغ ذلك ٱمرأتَه طُرَيفةَ فخرجتْ إليه ومعها وَصِيفٌ[٥] لها ٱسمه سنان، فلمّا برزت من بيتها عَرَض لها ثلاثَ مناجد[٦] منتصباتٍ على أرجلها، واضعاتٍ أيديها على أعينها. قال:

---

(١) هو النابغة الجعدي، شاعر إسلامي.

(٢) العرم: جمع العرمة وهي السكر والمسناة التي تسدّ بها المياه؛ وقيل العرم اسم واد بعينه؛ وقيل: العرم: اسم للجرذ الذي نقب السكر عليهم وهو الذي يقال له الخلد؛ وقيل: العرم ماء أحمر حفر في الأرض حتى ارتفعت عنه الجنان فلم يسقها فيبست وليس الماء الأحمر من السدّ ولكنه كان عذابًا أرسل عليهم. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٣) أبو الطمحان: هو حنظلة بن الشرقي. كان نديمًا للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية، ثم أدرك الإسلام. وهو أحد المعمرين (الأغاني ١١: ١٢٥).

(٤) أصعقت: أي أحدثت صاعقة، وهي نار تسقط من السماء.

(٥) الوصيف: الخادم.

(٦) المناجد: جمع الخلد، وهو ضرب من الفئرة، أو هو الفأرة العمياء.

والمناجد: دوابّ تشبه اليرابيع[١]. فلمّا نظرت طُريفة إليها قعدت إلى الأرض ووضعت يديها على عينيها وقالت لغلامها: إذا ذهبت هذه المناجد فأخبرني، فلمّا ذهبت أعلمها فأنطلقتْ مسرعة، فلمّا عارضها خليج الحديقة التي فيها عمرو وثبت سُلَحفاةٌ من الماء فوقعتْ في الطريق على ظهرها وجعلتْ تَرُوم الأنقلاب ولا تستطيع، وتَسْتعفِر بيديها وتحثُو التراب على بطنها من جَنَباته وتَقذِف بالبَوْل. فلمّا رأتْها طُرَيفة الخير جلست إلى الأرض. فلمّا عادتِ السُلَحفاةُ إلى الماء مَضَتْ طُرَيفة حتى دخلَتِ الحديقة على عمرو حين أنتصَفَ النهار في ساعةٍ شديدةِ الحرّ فإذا الشجرُ يتكافأ من غير ريح، فلمّا رآها عمرو أستحيى منها وأمر الجارية بالتنحّي ثم قال لها: ما أتى بكِ يا طُرَيفة؟ فكَهِنَتْ وقالت: والنورُ والظلماء، والأرضُ والسماء، إنّ الشجرَ لهالك، وليعودنّ الماء كما كان في الزمن السالك. قال لها عمرو: ومَن خبَّركِ بهذا؟ قالت: أخبرني المناجيدُ بسنين شدائد، يقطع فيها الولدُ الوالد. قال: فما تقولين؟ قالت: أقول قولَ النُّدمان لَهْفًا، لقد رأيتُ سُلَحفاةً تَجرِف التراب جَرْفًا، وتَقذِفُ بالبَوْل قَذْفًا، فدخَلَتِ الحديقة فإذا الشجرُ من غير ريح يتكافأ. قال عمرو: وما تَرَيْنِ في ذلك؟ قالت: هي داهيةٌ[٢] دهياءُ من أمورٍ جسيمة، ومصائبَ عظيمة. قال: وما هو وَيْلك؟ قالت: أجل، إنّ فيه الويل، وما لك فيه من نيل، وإنّ الويل فيما يجيء به السيل. فألقى عمرو نفسه على فراشه وقال: ما هذا يا طُرَيفة؟ قالت: هو خَطْبٌ جليل، وخِزْيٌ طويل، وخَلَفٌ قليل، والقليلُ خيرٌ من تركه. قال: وما علامةُ ما تذكُرِينَ؟ قالت: اذهبْ إلى السدّ فإن رأيتَ جُرَذًا يكثر بيديه في السدّ الحَفْر، ويَقْلِب برجليه مَرَاجِلَ[٣] الصَّخْر، فأعلم أن الغُمر[٤] غمر، وإن قد وقع الأمر. قال: وما هذا الذي تذكُرِينَ؟ قالت: وَعْدٌ من الله نَزَل، وباطلٌ بطَل، ونكالٌ بنا نكَل. قال: فأنطلق عمرو إلى السدّ فحرسه[٥] فإذ الجُرَذ يَقْلِب برجليه صخرةً ما يَقْلِبها خمسون رجلًا، فرجع إليها وهو يقول: [من الرّجز]

أبصرتُ أمرًا عادني منه أَلَمْ ... وهاجَ لي من هوله برحُ السَّقَمْ
من جُرَذٍ كفَحْل خنزير الأجَمْ ... أو كَبْشِ صَرم من أفاويق الغَنَمْ[٦]

---

(١) اليرابيع: جمع اليربوع، وهو حيوان من الفصيلة اليربوعية، صغير على هيئة الجرذ الصغير، وله ذنب طويل ينتهي بخصلة من الشعر، وهو قصير اليدين طويل الرجلين.

(٢) قوله: (مراجل الصخر) المراجل القدور التي يطبخ فيها وقد تكون من حجارة فكأنه يريد الصخر الذي تتخذ منه مراجل. وفيه من التكلف ما فيه. فلعل كلمة (مراجل) محرّفة عن جلامد ونحوها.

(٣) الداهية: الأمر المنكر العظيم. (٤) الغمر: الماء الكثير.

(٥) حرسه: أي حفظه.

(٦) الأفاويق: جمع الفيقة، وهي اللبن الذي يجتمع في الضرع بين الحلبتين.

يَقْلِب صَخْرًا من جلاميد العَرِمْ لـه مـخـالـيـبٌ وأنـيـابُ قُـضُـمْ[١]

* مـا فـاتـه صَـخْـرٌ مـن الـصـخـر قَـصَـمْ *[٢]

فقالت طُرَيفة: وإنّ من علامة ما ذكرتُ لك أن تجلس فتأمرَ بزجاجة بين يديك؛ فإنّ الريح تملؤها بتراب البَطْحاء[٣] من سهل الوادي ورَمْله، وقد علمتُ أنّ الجنانَ مُظَلّلةٌ ما يدخلها شمسٌ ولا ريحٌ. فأمر عمرو بزُجاجةٍ فوُضِعَتْ بين يديه فلم تمكُث إلاّ قليلًا حتى آمتلأتْ من تراب البطحاء. فقال لها عمرو: متى يكون هلاكُ السدّ؟ فقالت: فيما بينك وبين سبع سنين. فقال: ففي أيّها يكون؟ فقالت: لا يعلم ذلك إلاّ اللّهُ، ولو علمه أحدٌ لعلمتُه، ولا تأتي عليّ ليلةٌ فيما بيني وبين السبع سنين إلاّ ظننتُ أنّ هلاكنا في غَدِهَا أو مَسائها.

ثم رأى عمرو بعد ذلك في منامه سَيل العَرِم وقيل له: آيةُ ذلك أن ترى الحَصْباء[٤] قد ظَهَرت في سَعَف النخل وكَرَبِه[٥]، فنظر إليها فوجد الحَصْباءَ قد ظَهَرتْ فيها فعَلِم أنّ ذلك واقعٌ، وأنّ بلادَهم ستُخْرَب لا محالةَ؛ فكتم ذلك وأخفاه وأجمع على بيع كلّ شيء له بأرض مَأْرِب ويخرج منها هو وولَدُه، ثم خَشِيَ أن ينكر الناسُ حاله فصنع وليمة جمع الناس لها وقرّر مع أحد أولاده أنه يأمره بأمر في ملأ القوم فيخالفه فإذا لطَمَه عمرو فيلطمَه الآخر، ففعل ذلك. فلمّا لطمه آبنُه ـ وكان اسمه مالكًا ـ صاح عمرو: واذُلاّه! يومَ فَخْرِ عمرو يُهِينُه صبيّ ويَضرِبُ وجهه! وحلف ليقتلنّه، فسأله القوم ألاّ يفعل، فحلف ألاّ يقيم بموضع صُنِع به فيه هذا، وليبيعَنّ أموالَه حتى لا يُورَث بعدَه. فقال الناس بعضُهم لبعض: اغتنموا غَضْبةَ عمرو وآشتروا منه قبل أن يرضَى، فابتاع الناسُ منه جميعَ ما هو له بأرض مأرِبَ، وفشا بعضُ حديثه فباع أُناس من الأزْد، فلما كثُر البَيْع آستنكر الناسُ ذلك فأمسكوا عن الشراء، فلمّا آجتمعت لعمرو أموالَه أخبر الناسَ بشأن سَيْل العَرِم وخرج من اليمن، وخرج لخروجه منها خَلْقٌ كثيرٌ فنزلوا أرضَ عَكّ[٦] حتى مات عمرو بن عامر وتفرّقوا بعده في البلاد؛ فمنهم مَن صار إلى الشام، وهم أولادُ جَفْنة بن عمرو بن عامر، ومنهم من صار إلى يَثْرِبَ، وهم أبناء قيلة الأوْس والخَزْرَج، وأبوهما حارثةُ بنُ ثعلبة بن عمرو بن عامر،

---

(١) الجلاميد: جمع الجلمود، وهو الحجر الكبير.

(٢) قصم: كسر.

(٣) البطحاء: المكان المتّسع يمر به السيل.

(٤) الحصباء: حمى حادة طفحية، يصحبها زكام وسعال وغيرهما من علامات النزلة.

(٥) الكرب: أصول السعف الغلاض العراض التي تقطع معها.

(٦) عك: قبيلة يضاف إليها مخلاف باليمن ومقابله مرساها دهلك.

وصارت أَزْدُ الشَّرَاة إلى أرض الشَّراة، وأزْدُ عُمَان إلى عُمَان، ومالك بن فهم إلى العراق.

ثم خرجتْ بعدَ عمرو بيسير من أرض اليمن طيِّىء فنزلت بجبلَيْ طيِّىء: أجَا وسَلْمَى، ونزل ربيعةُ بنُ حارثة بن عمرو بن عامر تِهَامة، وسُمُّوا خُزَاعة لانخزاعهم[١] من أخواتهم، وتمزَّقوا في البلاد كما أخبر الله تعالى عنهم فقال: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ٧] ثم أرسل الله عزّ وجلّ السيلَ على السدّ فهدمه.

واُختُلِفَ في العَرِم ما هو؟ فقيل: السدّ واحدتُه عَرِمَة، وقيل: هو الجُرَذ. وكان السدّ فيما يُذكَر قد بناه لُقْمانُ الأكبرُ بن عاد، وكان صفّه لحجارة السدّ بالرّصاص فرسخًا في فرسخ. ويقال: إنّ الذي بناه كان من ملوك حِمْير. وقد ذكر ذلك ميمون بن قيس الأعشى فقال: [من المتقارب]

وفي ذاك للمؤتسي أُسوةٌ ... ومأرِبُ عفَّى عليها العرِمْ[٢]
رُخامٌ بَنَتْهُ لهم حِمْيرٌ ... إذا جاء مَوّاره لم يُرَمْ[٣]
فصاروا أيادي ما يقدرو ... ن منه على شُرْب طِفْلٍ فُطِمْ
فأروَى الزروعَ وأعنابَها ... على سعةٍ ماؤها إذ قُسِمْ

الباب الخامس

من القسم الرابع من الفنّ الخامس

في أيام العرب ووقائعها في الجاهليّة، وأنها لمن مآثرها السنيّة، وإذا تأمّلها المتأمِّل دلَّته على مكارم أخلاقهم وكَرَمِ نجارهم[٤]، وحقَّقتْ عنده أنهم ما أحجموا عن طلبِ أوتارهم، وعلم مكافأتهم للأقران، وسماحتهم بالنفوس والأبدان، وإقدامهم على الموت، ومبادرتهم عند الإمكان خشيةَ الفَوْت

وقيل لبعض الصحابة رضي الله عنهم: ما كنتم تتحدّثون به إذا خَلَوتم في مجالسكم؟ فقال: نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليّتنا.

---

(١) انخزع: انقطع.
(٢) عفّى: زال وامحى.
(٣) لم يرم: أي لم يبرح.
(٤) النجّار: الأصل والحسب.

وقال بعضهم: وددت أنّ لنا مع إسلامنا كَرَمَ أخلاق آبائنا في الجاهليّة. ألا ترى أنّ عنترةَ الفوارس جاهليّ لا دينَ له، والحسَنَ بنَ هانىء إسلاميّ، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع ٱبن هانىء دينه، فإنّ عنترة يقول: [من الكامل]

وأغُضُّ طَرْفِي إنْ بَدَتْ لي جارتي ... حتى يُوَارِي جارتي مأواها[1]

وقال أبو نُوَاس الحسن بن هانىء: [من الكامل]

كأنّ الشباب مَطيّةُ الجهل ... ومُحَسِّن الضَّحَكَاتِ والهَزْلِ
والباعِثِي والناسُ قد هَجَعُوا ... حتى أبيتَ خليفةَ البَعْلِ[2]

وسأذكر من وقائعهم ما يُقَوِّي الجَنَان[3]، ويبعث الجبان.

ذكر وقعة طَسْم وجَدِيس

وطسْمُ بنُ لاَوَذ بنِ إرَمَ بنِ سامِ بن نُوحٍ عليه السلامُ، وجَدِيسُ بنُ عابِر بنِ إرَمَ بنِ سام بنِ نُوحٍ عليه السلام، وهم العربُ العاربة، على ما ذكر بعض المؤرّخين. وكان منزلهما اليمامة[4]، وٱسمُها في وقتهم جَوّ؛ وكان الملك عليهما رجلاً من طَسْم يقال له: عِمْلِيق، وكان غَشومًا ظَلومًا. وكان سبب فنائهما أنّ عِمْليقًا أتته ذاتَ يوم ٱمرأةٌ ٱسمُها هُزَيْلة بنت مازن مع زوج لها ٱسمه ماش، وكان قد طلّقها وأراد أخذ ولده منها، فترافعا إليه ليحكم بينهما، فقالت هُزَيْلة: «أيها الملك، هذا ٱبني حملته تسعًا، ووضعته دَفْعًا، وأرضعته شَفْعًا، ولم أنل منه نفعًا، حتى إذا تَمّت أوصالُه، واستوَتْ خِصالُه، أراد أن يأخذه منّي قَهْرًا[5] ويَسْلُبنِيه سرًّا، ويترك يدي منه صِفْرًا». فقال الزوج: «قد أخذتِ المَهْرَ كاملاً، ولم أنَلْ منكِ طائلاً، إلاّ ولدًا جاهلاً، فٱفعلْ ما كنتَ فاعلاً». فأمر الملك أن يجعل الولد في غلمانه، فقالت هُزَيْلة: [من الطويل]

أتينا أخا طَسْمٍ ليَحْكُمَ بيننا ... فأبرمَ حُكْمًا في هُزَيْلَةَ ظالما
لَعَمْرِي لقد حُكِّمْتَ لا مُتَوَرِّعًا ... ولا فَهِمًا عندَ الحكومةِ عالما[6]

---

(١) واراه: أخفاه.
(٢) هجعوا: رقدوا.
(٣) الجنان: القلب.
(٤) اليمامة: مدينة بالبادية من بلاد العوالي، وبها قد تبنى مسيلمة الكذاب، وتبعد عن البصرة ست عشرة مرحلة، وعن الكوفة مثل ذلك.
(٥) قهرًا: أي كرهًا.
(٦) حكّمت: أي جُعلت حكمًا.

نَدِمْتُ فلم أقدِر على مُتَزَحْزَحٍ   وأصبح زَوْجِي عاثرَ الرأي نادما(١)

فلمّا بلغ عِمْليقًا ذلك غَضِبَ وأقسم أنه لا تُهْدَى عَرُوسٌ في جَدِيس لبعلها حتى يكون هو الذي يبدأ بها قبل زَوْجها. فلم يزل على ذلك دهرًا حتى أُهْدِيت عُفَيرةُ بنت عَفَار الجَدِيسيّة أخت الأَسْوَد بن عَفَار سيِّد جَدِيس إلى بعلها، ويقال: إنّ اسمها الشَّمُوس، فحُمِلَتْ إلى عِمْلِيقٍ، فلمّا اْفترعها وخلَّى سبيلَها خرجتْ على قومها في دمائها شاقَّة جيبها(٢) عن قُبُلِها ودُبُرِها وهي تقول: [من الرجز]

لا أحدٌ أذَلّ من جَدِيسِ   هكذا يُفْعَلُ بالعَرُوسِ
يرضَى بهذا يا لَقَوْمِي حُرُّ   أَهْدَى وقد أعطَى وسِيقَ المَهْرُ
لأخذةُ الموتِ كذا لنفسه   خيرٌ مِنَ أنْ يُفْعَلَ ذا بعِرْسِهِ

ثم قالت تحرِّض جَدِيسًا على طَسْم: [من الطويل]

أيَصْلُحُ ما يُؤتَى إلى فَتَيَاتِكم   وأنتم رجالٌ فيكُمُ عَدَدُ الرَّمْلِ
أيَصْلُحُ تَمْشِي في الدِّما فتياتُكم   صَبِيحةَ زُفَّتْ في النساء إلى البعل
فإن كنتمو لا تغضَبُوا عند هذه   فكونوا نساءً لا تَفِيق من الكُحْل
ودونكم طِيبُ العروس فإنّما   خُلِقتم لأثواب العرائس والغِسْل
فلو أننا كُنّا رجالاً وكنتم   نساءً لَكُنّا لا نُقِرّ على الذُّلّ(٣)
فقُبْحًا وسُحْقًا للذي ليس دافعًا   ويختال يَمْشِي بيننا مِشْيَةَ الفَحْل
فموتُوا كِرامًا واْصبِرُوا لعدوّكم   لحربٍ تلظَّى بالضِّرام من الجَزْل(٤)
ولا تجزَعُوا في الحرب يا قومُ إنها   تقوم بأقوامٍ كرامٍ على رِجْل

فاْجتمعتْ جَدِيسٌ فقال لهم الأسود بن عَفَار، وكان مُطاعًا فيهم: لتُطِيعُنّني فيما آمركم به أو لأَتَّكِئَنَّ على سيفي حتى يخرُج من ظهري. قالوا: فإنّا نُطِيعك. قال: إنّ طَسْمًا ليسوا بأعزّ منكم، ولكن مُلْك صاحبِهم هو الذي يُذْعِنُنا(٥) إليهم بالطاعة، ولو اْمتنعتم منهم لكان لكم النَّصَفُ(٦). قالوا: إنّ القوم أكثرُ منّا عَدَدًا وعُدَدًا. قال:

---

(١) تزحزح: تنحى وتباعد.
(٢) جيب القميص: ما يدخل منه الرأس عند لبسه.
(٣) نقر: نرضى.
(٤) الجزل: ما عظم من الحطب ويبس.
(٥) أذعن: انقاد وسلس.
(٦) النصف: إعطاء الحق.

إنّي صانعٌ طعامًا فأدعوهم إليه، فإذا جاؤوكم متفضّلين[(١)] في الحُلَلِ نهضنا إليهم بأسيافنا. فقالت عَفِيرة لأخيها: لا تفعل! فإنّ الغَدْر ذِلّة وعارٌ، ولكن كاثروا القومَ في ديارهم فتظفَروا أو تموتوا كِرامًا. قال: بل نمكُر بهم فنكون أمكنَ منهم. ثم صنع الأسودُ طعامًا وأمر قومه أن يخترِطُوا[(٢)] سيوفَهم ثم يدفنوها في الرمل. ودعا عِمْلِيقًا وقومه، فلمّا أتَوْا اَستثارتْ جَدِيسٌ السيوفَ وشدُّوا عليهم فما أفلت منهم إلاّ رِيَاح بن مُرّة، ففرّ إلى حسّان بن تُبّع فاَستغاث به وأخبره بما صنعتْه جَدِيس بطَسْم فوعده النصرة، ثم نادى حسّان في حِمْير بالمسير وأخبرهم بما صَنَعَتْ جَدِيسُ بطَسْم؛ فقالوا: وما جَدِيسٌ وطَسْم؟ قال: هما أخَوَان. قالوا: فما لنا في هذا من أَرَب[(٣)]. قال حسّان: أرأيتم لو كان هذا فيكم أكان حَسَنًا لملِكِكُم أن يُهْدِر دماءكم. وما علينا في الحُكْم إلاّ أن نُنْصف بعضَهم من بعض. فقالوا: الأمرُ أمرُك أيّها الملك فمُرْنا بما أحْبَبْتَ. فأمرَهم بالمسير، فساروا حتى إذا كانوا من اليمامة على ثلاث ليالٍ قال رِيَاحُ بن مرّة لحسّان بن تُبّع: أبيتَ اللعن! إنّ لي أختًا متزوِّجةً في جَدِيس تنظُر الراكب على مسيرة ثلاثِ ليالٍ وأخاف أن تُنذِر قومَها، فأمُر كلَّ إنسان أن يقتلع شجرةً من الأرض ويجعلَها أمامَه، فأمرَهم حسّان بذلك. ثم ساروا، فنظرتْ أختُ رِيَاح فقالت: يا جَدِيس! لقد سارتْ إليكم الشَّجَر. فقالوا لها: وما ذاك؟ قالت: أرَى شَجَرًا، من ورائه بَشَرًا، وإنّي لأَرى رجُلاً من وراء شجرة يَنْهَشُ كَتِفًا أو يَخْصِفُ[(٤)] نَعْلاً، فكذّبوها وغَفِلُوا عن أَخْذِ أُهْبَةِ الحرب حتى صبّحتهم حِمْير. ففي ذلك تقول زَرْقاءُ اليمامة: [من البسيط]

خُذُوا لهم حِذْرَكُمْ يا قَوْمُ يَنْفَعُكُمْ ... فليسَ ما قد أراه اليومَ يُحْتَقَرُ
إنّي أرَى شَجَرًا من خَلْفه بَشَرٌ ... فكيفَ تَجْتَمِعُ الأشجارُ والبَشَرُ
صُفُّوا الطوائفَ منكم قبلَ داهيةٍ ... من الأمور التي يُخْشَى وتُنْتَظَرُ
إنّي أرَى رَجُلاً في كَفِّهِ كَتِفٌ ... أو يَخْصِفُ النَّعْلَ خَصْفًا ليس يُعْتَذَرُ[(٥)]
ثُورُوا بأَجْمَعِكُمْ في وَجْهِ أوّلِهِمْ ... فإنّ ذلك منكم ـ فاَعْلَمُوا ـ ظَفَرُ

---

(١) تفضل: لبس الفضال، وهو الثوب الواحد المتبذل يلبسه الرجل أو المرأة في بيته للخدمة والنوم.

(٢) اخترط السيف: استلّه من غمده.

(٣) الأرب: الحاجة الشديدة؛ أو البغية والأمنية.

(٤) خصف النعل: خرزها بالمخصف.

(٥) ليس يعتذر: المراد لا عذر له في خصفها.

وغَـوِّرُوا كـلَّ مـاءٍ دُونَ مَـنْـزِلِـهِـمْ　　فليس من دُونه نَحْسٌ ولا ضَرَرُ(١)
أو عاجِلُوا القومَ عندَ الليل إنْ رَقَدُوا　　ولا تَـخَـافُـوا لـهـا حَـرْبًـا وإن كَـثُـرُوا

فلمّا كان حسّانٌ على مسيرة ليلةٍ عبَّأَ جيشه ثم صبحَّهم فٱستباح اليمامةَ قَتْلاً وسَبْيًا، وهرب الأَسْودُ حتى نزل بطيّيء فأجاروه مِن كلّ مَنْ يطلبه وهم لا يعرفونه. وقبيلتُه في طيّيء مذكورة. ثم إنّ حسانًا أمر باليمامة فنزع عينَيْها فإذا في داخلها عروقٌ سُودٌ، فسألها عن ذلك فقالت: حَجَرٌ أَسْوَدُ كنتُ أكتحل به يقال له الإثْمِد فثبَّت لي بصري. وقيل: إنها أوّل مَن ٱكتحَلَ بالإثْمِد؛ فأمر بها فصُلِبَتْ على باب جَوّ. وقيل: سُمِّي جَوّ باليمامة من ذلك الوقت. وفي ذلك يقول رِيَاح بن مُرّة لمّا أخذ بثأره: [من الخفيف]

غَـدَرَ الـحَـيُّ مـن جَـدِيـسٍ بِـطَـسْـمٍ　　آلَ طَـسْـمٍ كـمـا تُـدَانَـى تُـدِيـنِـي
قـد أتـيـنـاهـم بـيـوم كـيـوم　　تُـركُـوا فـيـهِ مِـثْـلَ مـا تَـرَكُـونِـي
لـيـتَ طَـسْـمًـا عـلـى مـنـازلـهـا تَـعْـ　　لَـمُ أنّـي قَـضَـيْـتُ عَـنّـي دُيُـونِـي

وقد كرّرت الشعراء قصة هذه المرأة وجَوّ. فمن ذلك قول الأعشى على رواية ٱبن قُتَيبة: [من البسيط]

قـالـتْ أرَى رجُـلاً فـي كـفِّـه كَـتِـفٌ　　أو يَخْصِفُ النَّعْلَ لَهْفِي آيةَ صَنَعَا(٢)
فـكـذَّبـوهـا بـمـا قـالـتْ فَـصَـبَّـحَـهُـمْ　　ذُو آلِ حَسّانَ يُزْجِي السمّ والسَّلَعا(٣)
فـٱسْتَنْزَلُوا آلَ جَوٍّ من مساكنهم　　وهـدَّمُـوا رافِـعَ الْـبُـنْـيَـانِ فـٱتَّـضَـعَـا

وروى ٱبن إسحاق: [من البسيط]

كُوني كمثل التي إنْ غاب واحدُها　　أهـدتْ لـه مـن بـعـيـدٍ نـظـرةً جَـزَعَـا

ثم أتى بالأبيات التي ذكرها ٱبن قتيبة. وقال المُسَيَّبُ بنُ عَلَس: [من الطويل]

لقد نَظَرَتْ عينٌ إلى الجِزْع نَظْرةً　　إلى مثل مَوْج المُفْعَم المتلاطِم(٤)

---

(١) يقال: غار الماء: أي ذهب في الأرض وسفل فيها.
(٢) الكتف: السناد والدعامة.
(٣) السلع: شجر مر وله ثمر مثل عناقيد العنب صغار، فإذا أينع اسود فتأكله القرود ولا تأكله الناس. ولا السائمة.
(٤) المفعم: الممتليء.

إلى حِمْير إذ وُجِّهوا من بلادهم تَضيقُ بهم لأيًا فروجُ المخارِمِ[١]

وفيها يقول النَّمِرُ بنُ تَوْلَب: [من الكامل]

وفتاتُهم عنزٌ غَداةَ تبيَّنت من بعد مَرْأى في الفضاء ومَسْمَع
قالتْ أرى رَجُلاً يُقلِّبُ نعلَهُ تَقْليبَ ذي وَصْلٍ له ومُشَسِّع[٢]
ورأتْ مقدّمة الخَميسِ ودُونها رَكْضَ الجِيَاد إلى الصَّباح يُتَّبَع[٣]

ذكر حروب قيس في الجاهلية

يومُ مَنْعِجٍ لِغَنِيّ على عَبْس

يومُ مَنْعِج[٤]. هو يوم الرَّدْهَة وفيه قُتِلَ شأس بن زُهَير بن جَذِيمة بن رَواحة العَبْسيّ؛ قتله رِيَاح بن الأَشَلّ الغَنَوِيّ. وذلك أنّ شأسًا أقبلَ من عند النعمان بن المنذر وقد أجزل حِبَاءَه. وكان من حِبَائه قَطيفةٌ حمراءُ ذات هُدْب[٥] وطيبٌ؛ فورد مَنْعِجًا ـ وهو ماء لغنيّ ـ فأناخ راحلتَه إلى جانب الرَّدْهة وعليها خباء[٦] لرياح بن الأشلّ، وجعل يغتسل وامرأةُ رِيَاح تنظُر إليه، وهو كالثَّوْر الأبيض، فانتزعه رِيَاح بسهم فقتله، وضمَّ متاعه ونحر ناقتَه وأكلها وغيَّب أثره. وفُقِدَ شأس بن زُهَير، حتى وجدوا القطيفةَ[٧] الحمراء بسوق عُكَاظ قد باعتها امرأةُ رياح، فعلمُوا أنّ رياحًا صاحبَ ثأرهم، فَغَزَتْ بنو عَبْس غَنِيًا قبل أن يطلبوا قَوَدًا أو دِيَةً، مع الحُصَين بن زُهَير بن جَذِيمة والحُصَين بن أُسِيد بن جَذِيمة. فلمّا بلغ ذلك غَنيًا قالوا لرِيَاح: انْجُ، لعلّنا نُصالح القومَ على شيء أو نرضيهم بدية. فخرج رياح رَدِيفًا[٨] لرجل من بني كِلاَب، وهما يظنّان أنهما قد خالفا وجهةَ القوم؛ فمرّ صُرَدٌ[٩] على رؤُوسهما فصَرْصَرَ[١٠]، فما راعهما إلاّ خيلُ بني عَبْس، فقال الكِلاَبيّ لرِيَاح: انحدرْ من خَلْفي والْتمسْ نَفَقًا

---

(١) المخارم: جمع المخرم، وهو منقطع أنف الجبل.

(٢) شسع النعل، أي جعل لها شسعًا، والشسع: سير يمسك النعل بأصابع القدم.

(٣) الخميس: الجيش الجرار؛ سمّي بذلك لأنه خمس فرق: المقدمة، والقلب والميمنة، والميسرة، والساق.

(٤) منعج: واد يأخذ بين جفر أبي موسى والنباج ويدفع في بطن فلج.

(٥) الهدب: أطراف الثوب مما يلي طرفه.

(٦) الخباء: بيت من وبر أو شعر أو صوف، يكون على عمودين أو ثلاثة.

(٧) القطيفة: كساء له أهداب. (٨) الرديف: الراكب خلف الراكب.

(٩) الصرد: طائر أبقع ضخم الرأس يكون في الشجر، نصفه أبيض ونصفه أسود، وهو من سباع الطير، ضخم المنقار عظيم البرثن.

(١٠) صرصر: صاح بصوت شديد متقطع.

في الأرض فإني شاغلٌ القومَ عنك، فأنحدر رِيَاح من عَجُز الجمل حتى أتى ضَفَّةً[١] فأحتفر تحتها مثل مكان الأرنب ووَلجَ فيه، ومضى صاحبُه، فسألوه فقال: هذه غَنِيٌّ جامعة، وقد أستمكنتم منهم، فصدّقوه وخَلَّوْا سبيله، فلمّا وَلَّى رأَوْا مركب الرجل خلفه فقالوا: مَنِ الذي كان خلفك؟ فقال: لا كَذِبَ! رياح بن الأشلّ، وهو في أولئك الصُّعُدَات[٢]. فقال الحُصَيْنان لمن معهما: قد مكّننا اللّهُ من ثأرنا ولا نريد أن يَشْركَنا فيه أحد، فوقفوا عنهما، ومضَيَا فجعلا يُريغَان رياحًا بين الصُّعُدات، فقال لهما: هذا غزالكما الذي تُريغانه، فأبتدراه فرمَى أحدَهما بسهم فأقْصَدَه[٣]، فطعنه الآخر فأخطأه، ومرّت به الفَرَس، فاستدبره رِيَاحٌ بسهم فقتله ثم أتى قومه. ففي ذلك يقول الكُمَيْتُ بنُ زَيْدٍ الأَسَديُّ، وكانت له أُمَّان من غَنِيٍّ: [من الطويل]

أنـا أَبـنُ غَـنِـيٍّ والـدايَ كـلاهـمـا ... لأَمَّيْنِ منهم في الفُروع وفي الأَصْل

هم أستودعوا زهرا نسيب بن سالم ... وهـم عدَلوا بين الحُصَيْنِين بالنَّبْل

وهـم قَتَلوا شَأسَ الملوك ورَغَّمُوا ... أبـاه زُهَـيْـرًا بـالـمَـذَلَّـة والـثُّـكْـل[٤]

يوم النَّفْرَاوات

لبني عامر على بني عبس

فيه قُتِل زُهَيْر بنُ جَذِيمَة بن رَوَاحة العَبْسيّ. وكانت هَوَازنُ تُؤَدِّي إليه إتاوة، فأتته عَجُوزٌ رَهيش[٥] من بني نَصْر بن معاوية بَسَمْن في نِحْي[٦]، وَشَكَتْ سنين تتابعتْ على الناس، فذاقه فلم يَرْضَ طَعْمَه، فدعّها[٧] بقَوْسٍ في يده عُطُلٍ[٨] في صدرها، فأستلْقَتْ على قفاها مُنْكشفةً[٩]، فتألّى[١٠] خالدُ بن جعفر وقال: والله

(١) قوله (حتى أتى ضفّةً فاحتفر تحتها) الضفّة جانب الوادي. قال المصحح: وفي الأصل (حتى أتى صُعُدة) أقول: والصعدة هو الصواب وهي بضمتين أو بضم فسكون ضرب من الشجر وجمعها صُعُدات وإنما رجحنا (الصُّعُدة) لما يأتي من قوله بعد (وهو في أولئك الصُّعُدات) وقوله (فجعلا يريغان رياحًا بين الصُّعُدات) فرياح خَرَج من حفرته وأفلت بين الشجرات التي احتفر تحتها. وقوله (تحتها) يناسب الاحتفار تحت الشجرات لا تحت الضفة يقال احتفر في الضفّة واحتفر تحت الشجرة.

(٢) الصعدات: مفردها الصعدة، وهي القناة تنبت مستوية فلا تحتاج إلى تثقيف؛ أو القصبة.

(٣) يقال: أقصدت الرجل: إذا طعنته أو رميته بسهم فلم تخطىء مقاتلة.

(٤) الثكل: فقد الحبيب.

(٥) عجوز رهيش: ضعيفة أو مهزولة.

(٦) النحى: الزق الذي يجعل فيه السمن.

(٧) دعّ الشيء: دفعه بعنف.

(٨) القوس العطل: التي لا وتر فيها.

(٩) المراد انكشاف العورة.

(١٠) تألى: أقسم.

لأجعلنَّ ذراعي في عُنُقه حتى يُقْتَل أو أُقْتَل. وكان زُهَير مِقْدامًا فتفرّد من قومه ببنِيه وبني أخوَيْه أَسيدٍ وزنْباع يُرِيغ[١] الغيثَ في عُشَرَاوَاتٍ[٢] له وشَوْل[٣]؛ فأتاه الحارث بن عمرو بن الشَّرِيد، وكانت تُمَاضرُ ابْنَةُ عمرو بن الشَّرِيد تَحْتَ زُهَير، فلمّا عَرَف الحارث مكانه أنذر عليه بني عامر بن صعصعة رَهْط خالد بن جعفر، فركب منهم ستَّةُ فوارسَ فيهم خالدُ بنُ جعفر وصَخْر بن الشَّرِيد وحُنْدُجُ بنُ البَكّاء ومعاويةُ بنُ عُبَادة بن عُقَيْل فارس الهَرّار. ويقال لمعاوية: الأَخْيَل، وهو جَدّ ليلى الأخيليّة. فقال أَسِيدٌ لزُهَير: أَعْلَمْتني راعيةُ غَنَمي أنها رأتْ على رأس الثنيّة[٤] أشباحًا ولا أحسبها إلاّ خيلَ بني عامر، فألحقْ بنا بقومنا. فقال له زُهَير: «كُلُّ أَزَبَّ[٥] نَفُورٌ» وكان أشعر القفا، فذهبتْ مثلاً، فتحمَّل أسيد بمن معه وبقي زُهَير وابناه ورقاءُ والحارثُ. وصبَّحتهم الفوارس فأرمدّت[٦] بزهير فرسُه القَعْساءُ ولحقه خالد ومعاوية الأَخْيَل، فطعَن معاويةُ القعساءَ فقلبت زهيرًا، وخرّ خالدٌ فرفع المغْفَرَ[٧] عن رأس زهير وقال: يا لَعامرٍ اقتلونا جميعًا! وأقبل معاويةُ فضرب زُهَيرًا على مَفْرق رأسه ضربةً بلغتْ الدِّماغ، وأقبل ورقاءُ بنُ زهير فضرب خالدًا وعليه درْعَان فلم تُغْن شيئًا، وأجهض[٨] أبنا زهير القوم عن زهير واحتملاه وقد أثخنته الضربةُ فمنعوه الماء فقال: اسقُوني وإن كانت نفسي فيه، فسَقَوْه فمات بعد ثالثة من الأيام، فقال في ذلك ورقاءُ بن زُهَيْر: [من الطويل]

رأيتُ زُهَيْرًا تحتَ كَلْكَلِ خالدٍ ... فأقبلتُ أسعَى كالعَجُولِ أُبادِرُ[٩]
فشَلَّتْ يَميني يومَ أضرِبُ خالدًا ... ويمنعه منِّي الحديدُ المُظَاهِرُ
فيا ليتَ أني قبلَ أيام خالدٍ ... ويومِ زُهَيْرٍ لم تَلِدني تُمَاضِرُ
لَعَمْرِي لقد بُشِّرتِ بي إذ وَلَدْتِني ... فماذا الذي رَدّتْ عليكِ البشائرُ

وقال خالد بن جعفر في قتله زهيرًا: [من الكامل]

بل كيف تكفُرني هوازنُ بعدما ... أعتقتُهم فتَوَالَدُوا أحرارا

---

(١) يريغ الغيث: يطلبه.
(٢) العشراوات: واحدتها العشراء، وهي الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر.
(٣) الشول: واحدتها شائلة؛ وهي الناقة التي أتى عليها من يوم نتاجها سبعة أشهر فخفّ لبنها وارتفع ضرعها.
(٤) الثنية: الطريق في الجبل.
(٥) البعير الأزب: الذي يكثر شعر حاجبيه.
(٦) ارمدّت: عدت عدو الرمد، وهو النعام.
(٧) المغفر: زرد ينسج من الدروس على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة.
(٨) يقال: أجهضه عن فلان: إذا نحاه عنه.
(٩) العجول: الواله التي فقدت ولدها، الثكلى لعجلتها في جيئتها وذهابها جزعًا.

وقتلتْ رَبَّهُمُ زهيرًا بعدما ... جَدَعَ الأُنوف وأكثر الأوتارا[١]
وجعلتْ مَهْرَ بناتهم ودياتهم ... عَقْلَ الملوك هجائنًا وبكارا[٢]

يومُ بطنِ عاقل[٣]
لذُبْيانَ على بني عامر

فيه قُتِل خالدُ بنُ جعفر ببطنِ عاقل. وذلك أنه قدِمَ على الأسود بنِ المُنذِر أخي النعمان ومعه عُرْوةُ الرَّحال بن عتبةَ بن جعفر، فٱلتقى خالدُ بنُ جعفر والحارثُ بن ظالم بن غيط بن مُرّة بن سعد بن ذُبْيان عند الأسود بنِ المنذر، فجعل خالد يقول للحارث بن ظالم: يا حارِ، أما تشكر يدي عندك أنْ قتلتُ عنك سيّد قَومِك زهيرًا وتركتُك سيِّدَهم؟ فقال: سأُجزيك شكرَ ذلك. فلمّا خرج الحارثُ قال الأسودُ لخالد: ما دعاك إلى أن تتحرّش بهذا الكلبِ وأنتَ ضيفي؟ فقال: إنما هو عبدٌ من عبيدي، ولو وَجَدَني نائمًا ما أيقظني. وٱنصرف خالد إلى قُبَّته فلامه عُرْوةُ الرّحال، ثم ناما وأشْرَجَت[٤] عليهما القُبّةُ، وكان مع الحارثِ تبيع له من بني مُحارِب يقال له خِرَاش، فلمّا هدأت العيونُ أخرج الحارث ناقتَه وقال لخِرَاش: كن لي بمكان كذا، فإن طلع كوكبُ الصبح ولم آتك فٱنظُر أحبَّ البلادِ إليك فٱعْمِد لها؛ ثم ٱنطلق الحارثُ حتى أتى قُبّةَ خالدٍ فهتكَ شَرجَها ثم وَلجَها وقتله، فنادى عُرْوةُ عند ذلك: واجوَارَ الملك! فأقبل إليه الناسُ، وسمع الأسود الهُتّافَ وعنده ٱمرأةٌ من بني عامرٍ يقال لها: المُتَجرِّدة، فشقَّتْ جَيْبَها. ففي ذلك يقول عبد الله بنُ جَعْدَةَ: [من الكامل]

شَقّتْ عَلَيْكَ العامِريّةُ جَيْبَها ... أَسَفًا وَمَا تَبْكِي عليك ضَلالَا[٥]
يا حارِ لو نَبَّهته لَوَجَدْتَهُ ... لا طائشًا رَعِشًا ولا مِعْزَالا[٦]
وٱغْرَوْرَقَتْ عينايَ لمّا أُخبِرَتْ ... بالجَعْفَرِيّ وأسْبلت إسْبالا[٧]
فلنقتُلَنَّ بخالدٍ سَرَوَاتِكم ... ولَنَجْعَلَنْ للظالمين نَكَالا[٨]
فإذا رأيتُمْ عارضًا متهلِّلًا ... منّا فإنّا لا نُحَاوِلُ مالاَ

---

(١) الوتر: قتل الحميم. جمع أوتار. (٢) العقل: الدية.
(٣) بطن عاقل: موضع على طريق حاج البصرة بين رامتين وإمرة.
(٤) أشرجت: جمعت.
(٥) جيب القميص: ما يدخل منه الرأس عند اللبس.
(٦) المعزال: من لا رمح له. والرعش: الجبان.
(٧) أسبلت العين: إذا سال دمعها.
(٨) النكال: العقاب أو النازلة.

يومُ رَحْرَحانَ(١)
لعامر على تميم

ولمّا هَرَب الحارثُ بنُ ظالم ونَبَتْ به البلادُ لجأ إلى مَعْبَد بنِ زُرَارة فأجاره؛ فقالت بنو تميم لمعبد: ما لك أوَيْتَ هذا المشؤومَ الأنكد وأغْرَيْتَ بنا الأسْوَد؟ وخذلوه غير بني ماوِيَة وبني عبد الله بن دارِم. وبلغ الأحوصَ بنَ جعفر بن كلاب مكان الحارث بن ظالم، وأنه عند مَعْبَد بنِ زُرَارة، فغزا مَعْبَدًا فألتقَوْا برَحْرَحان فانهزمت بنو تميم وأُسِرَ مَعْبَدُ بنُ زُرَارة، أسره عامر والطُّفَيل ابنا مالك بن جعفر بن كلاب، فوفد لَقِيط بن زُرَارة عليهما في فدائه فقال لهما: لكما عندي مائتا بعير، فقالا: أبا نَهْشَل، أنتَ سيِّد الناس، وأخوك مَعْبَدٌ سيِّدُ مُضَر فلا تقبل فيه إلا دِيَة ملك، فأبى أن يزيدهم وقال: إنّ أبانا أوصانا ألا نزيد أحدًا في ديتنا على مائتي بعير، وقال: لا توكلوا العرب أنفسكم ولا تزيدوا بفدائكم على فداء رجل منكم، ورحل لقيط عن القوم.

قال: فمنعوا معبدًا الماءَ وضَارُوه(٢) حتى مات هُزَالاً. وقيل: بل أَبَى معبدٌ أنْ يُطْعَمَ شيئًا أو يُشْرَبَ حتى مات هُزَالاً. ففي ذلك يقول عامرُ بنُ الطفيل: [من الوافر]

قَضَيْنَا الجَوْنَ عَنْ عَبْسٍ وكانتْ ... مَنِيَّةُ مَعْبَدٍ فينَا هُزَالاً(٣)

وقال جرير: [من الطويل]

ولَيْلَةَ وادِي رَحْرَحانَ رَفَعْتُمُ ... فِرارًا ولم تَلْوُوا رَفِيقَ النَّعائِمِ(٤)
تَرَكْتُمْ أبا القَعْقَاعِ في الغُلِّ مَعْبَدًا ... وأيّ أخٍ لم تُسْلِمُوا للأداهِمِ(٥)

وقال أيضًا: [من الكامل]

وبِرَحْرَحانَ غَدَاةَ كُبِّلَ مَعْبَدٌ ... نُكِحَتْ فَتَاتُكُمْ بِغَيْرِ مُهُورِ

(١) رحرحان: جبل قريب من عكاظ خلف عرفات.
(٢) ضارّه: ضامه وضايقه، أو ألحق به الأذى.
(٣) الجون: من الأضداد، وهو الأبيض أو الأسود، والنور أو الظلمة.
(٤) النعائم: جمع النعامة: طائر كبير الجسم طويل العنق والوظيف، قصير الجناح، شديد العدو؛ وهو مركب من خلقة الطير والجمل.
(٥) الأداهم: جمع الأدهم، وهو القيد.

يومُ شِعْبِ جَبَلَةَ(١)
لعامرٍ وعَبْسٍ على ذُبْيان وتميم

قال أبو عُبَيدة مَعْمَرُ بنُ المُثَنَّى: يومُ جَبَلة أعظمُ أيام العرب، وذلك أنه لمّا أنقضتْ وَقْعة رَحْرَحان جمع لَقِيطُ بنُ زُرَارةَ لبني عامر وألّب عليهم. وبينَ يوم رَحْرَحان ويوم جَبَلة سنة. ويومُ جَبَلَة قبل الإسلام بأربعين سنة، وهو عامُ مَوْلدِ رسول الله ﷺ. وكانت بنو عَبْسٍ يومئذ في بني عامر حُلَفاءَ لهم، فأستعدَى(٢) لَقِيطٌ بني ذُبْيان لعَدَاوتهم لبني عَبْس من أجل حَرْب داحِس، فأجابته غَطَفانُ كلّها غيرَ بني بدر، وتجمَّعت لهم تميمٌ كلُّها غيرَ بني سعد، وخرجت معه بنو أسَد لحِلْف كان بينهم وبين غَطَفان، ثم أتى لَقيطُ الجَوْنَ الكِنْدِيّ وهو ملك هَجَر(٣) وكان يَجبِي مَن بها من العرب فقال له: هل لك في قوم عادِين قد ملؤوا الأرض نَعَمًا(٤) وشاءً، فأرسل معي أبْنَيك فما أصبنا من مالٍ وسَبْيٍ فلَهما، وما أصبنا من دَم فلي، فأجابه الجَوْن إلى ذلك وجعل له موعدًا رأسَ الحَوْل، ثم أتى لَقِيطٌ النعمانَ بنَ المُنْذِر فأستنجده وأطمعه في الغنائم، وكان لَقيطٌ وجيهًا عند الملوك، فلمّا كان على قَرْن(٥) الحَوْل من يوم رَحْرَحان أقبلتْ الجيوش إلى لَقيط، وأقبل سِنَان بن أبي حارثة المُرّيّ في غَطَفان وجاءت بنو أسَد، وأرسل الجَوْنُ أبنيه معاويةَ وعَمْرًا، وأرسل النعمانُ أخاه لأمّه حسّانَ بن وَبْرة الكَلْبيّ. فلمّا توافَوْا خرجوا إلى بني عامر وقد أنذروا بهم وتأهّبوا لهم، فقال الأحوصُ بنُ جعفر، وهو يومئذ رَحَى(٦) هَوَازِن لقيس بن زُهَير: ما ترى؟ فإنك تزعُم أنه لم يُعرَض لك أمران إلاّ وجدتَ في أحدهما المَخْرَج! فقال قيس بن زُهَير: الرأي أن نَرْحَل بالعِيال والأموال حتى تدخُل شِعْبَ جَبَلة فتقاتل القوم دونها من وجه واحد، فإنهم داخلون عليك الشِّعْب، وإنّ لَقِيطًا رجلٌ فيه طَيْش فسيقتحم عليك الجبل. فأرَى أن تأمر بالإبل فلا ترعَى ولا تُسْقَى وتُعْقَل(٧)، ثم تجعل الذراري وراءَ ظهورنا وتأمر بالرجّالة فتأخذ بأذناب الإبل، فإذا دخلوا علينا الشِّعب حلّت الرجّالةُ عُقُلَ الإبل ثم لَزِمت أذنابها فإنها تنحدر عليهم وتَحِنّ إلى مراعِيها ووِرْدِها، ولا يرُدّ وجوهها شيء، ويخرج الفُرْسان في أثر الرجّالة الذين خَلْف الإبل فإنها تُحَطِّم ما

---

(١) جبلة: هضبة حمراء بنجد بين الشريف والشرف.
(٢) استعداه: استعانه واستنصره.
(٣) هجر: مدينة بالبحرين.
(٤) النعم: الإبل خاصة.
(٥) قرن الحول: أوله.
(٦) رحى هوازن: سيدها، ورحى القوم: سيدهم.
(٧) عقل البعير: ضمّ رسغ يده إلى عضده وربطهما معًا بالعقال ليبقى باركًا.

لَقِيَتْ وتُقبِل عليهم الخيل وقد حُطِّموا من عَلٍ. فقال الأحوص: نِعْمَ ما رأيتَ وأخذ برأيه، وكان مع بني عامرٍ يومئذٍ بنو عَبْس، وغَنِيٌّ في بني كلاب، وباهلةُ في بني صَعْب، والأبناء أبناء صَعْصَعة. وكان رَهْط المُعَقِّر البارقيّ يومئذ في بني نُمَير بن عامر، وكانت قبائل بَجِيلة كلّها فيهم غير قيس.

قال أبو عُبَيدة[1]: وأقبل لَقِيطٌ والملوكُ ومَن معهم فوجدوا بني عامرٍ قد دخلوا شِعْبَ جَبَلَة فنزلوا على فَمِه، فقال لهم رجلٌ من بني أَسَد: خذوا عليهم فَمَ الشِّعْب حتى يَعْطَشُوا ويجوعوا، فأتَوْا حتى دخلوا عليهم الشِّعْب، وكانوا قد عَقَلوا الإبل وعطَّشوها ثلاثة أخماس، وذلك اثنتا عشرة ليلة لم تُطعَم شيئًا، فلمّا دنَوْا حلّوا عُقُلَها فأقبلتْ تَهوِي[2]، فظنّ القوم عند ذلك أنّ الشِّعْب قد هُدَّ عليهم، والرجَّالة في آثارها آخذين بأذنابها فدقَّت كلّ ما لَقيت، فانهزموا لا يَلْوُون على أحد، وقُتِلَ لَقِيطٌ وأُسِر حاجِبُ بنُ زُرَارة، أسره ذُو الرُّقَيْبة، وأُسِر سِنَان بن أبي حارثة المُرِّيّ أسره عُرْوة الرحَّال، فحزّ ناصيته وأطلقه، وأُسر عمرو بنُ أبي عمرو بن عُدُس، أسره قيس بن المُنْتفق، فجزّ ناصيتَه وخلاّه طمعًا في المكافأة فلم يفعل، وقُتِل معاويةُ بنُ الجَوْن ومُنقذُ بن طُرَيف الأَسَديّ، ومالك بن رِبْعِيّ بن جَنْدَل بن نَهْشَل، فقال جرير في ذلك: [من الطويل]

كأنّكَ لم تَشهَد لَقيطًا وحاجبًا ... وعمروَ بنَ عمرٍو إذ دَعَوْا يالَ دَارِم
ويَوْمَ الصفا كنتم عَبِيدًا لعامرٍ ... وبالحَزْن أصبحتم عَبِيدَ اللهازمِ

يعني بالحَزْن يوم الوَقيط. وقال أيضًا في بني دارم: [من الوافر]

ويَوْمَ الشِّعْب قد تَركوا لَقيطًا ... كأنَّ عليه خَمْلَةَ أُرْجُوَان[3]
وكُبِّل حاجِبٌ بِشَمَامِ حَوْلاً ... فحَكَّمَ ذا الرُّقَيْبَة وَهْوَ عَانِي[4]

وقالت دَخْتَنوس أختُ لَقيطٍ ترثي لَقيطًا: [من مجزوء الكامل]

فَرَّتْ بنو أَسَدٍ فرا ... رَ الطَّيْرِ عن أربابها[5]

---

(١) أبو عبيدة: هو معمر بن المثنى، التيميّ بالولاء، تيم قريش، البصري النحوي العلامة، قيل عنه: «كان الغريب أغلب عليه وأخبار العرب وأيامها».. كانت وفاته سنة ٢٠٩ هجرية. (وفيات الأعيان ٥: ٢٣٥).

(٢) تهوي: تسير سيرًا شديدًا.

(٣) الخملة: القطيفة، وهي كساء له أهداب.

(٤) العاني: الأسير.

(٥) الربّ: الغيم، أو المالك، أو السيد.

عــن خَـيْـر خِـنْـدفَ كـلِّـهـا   مــن كَـهْـلِـهـا وشـبـابـهـا
وأَتَــمِّــهـا حَـسَـبًـا إذا   ضُـمَّـتْ إلـى أحـسـابـهـا

يوم الخُرَيْبة
وفيه قُتِل الحارث بن ظالم

قال أبو عبيدة: لما قَتَل الحارثُ بنُ ظالم خالدَ بنَ جعفر الكلابيّ أتى صديقًا له من كنْدَةَ. فألتفّ عليه وطلبَه الملك فخفيَ ذكرَه، ثم شخص من عند الكنْديّ وأضمرَتْه(١) البلادُ حتى ٱستجار بزياد أحد بني عِجْل بن لُجَيم، فقام بنو ذُهْل بن ثعلبةَ وبنو عمرو بن شَيْبان فقالوا لعجل: أخرجوا هذا الرجلَ من بين أظهركم فإنه لا طاقةَ لنا بالشَّهْباء ودَوْسَر، وهما كَتيبتان للأَسْود بن المنذر، فأبتْ عِجْلٌ ذلك عليهم، فلمّا رأى الحارثُ بنُ ظالم ذلك كَرِهَ أن تقع الفتنةُ بينهما بسببه، فارتحل من بني عِجْل إلى جَبَلَيْ طيّىء فأجاروه، فقال في ذلك: [من الطويل]

لَعَمْري لقد حَلَّتْ بِيَ اليومَ ناقتِي   إلى ناصرٍ من طَيِّىءٍ غَيْرِ خاذلِ
فأصبحتُ جارًا للمَجَرَّةِ فيهمُ   على باذخٍ يَعْلُو يَدَ المُتَطاوِلِ(٢)
إذا أَجَأ لَفَّتْ عليَّ شِعَابَها   وسَلْمَى فأنَّى أنتم مِنْ تَنَاوُلِي(٣)

فمكث عندهم حينًا. ثم إن الأسود بن المنذر لمّا أعجزه أمرُه أرسل إلى جاراتٍ كُنَّ للحارث بن ظالم استاقهنّ وأموالَهنّ، فبلغ ذلك الحارث، فخرج من الجبلين فٱندسّ في الناس حتّى عَلِمَ مكانَ جاراته ومَرْعَى إبِلِهنّ فأتاهنّ وٱستنقذهنّ وٱستاق إبِلَهُنّ فألحقهنّ بقومهنّ. وٱندسّ في بلاد غَطَفَان حتّى أتى سِنَان بن أبي حارثة المُرّيّ وهو أبو هَرم بن سِنَان ممدوح زُهَير. وكان الأسود بن المنذر قد استرضع ٱبنَه شُرَحْبيلَ عند سَلْمَى ٱمرأة سِنَان، وهي من بني غَنْم بن دُودان بن أَسَد، فكانت لا تأمن على ٱبن الملك أحدًا، فاستعار الحارث بن ظالم سَرْجَ سِنَان، وهو في ناحية الشَّرَبَّة، فأتى به سَلْمَى ٱمرأة سِنَان وقال لها: يقول لك بَعْلُك: ابعثي ٱبنَك مع الحارث فإني أريد أن أستأمِنَ له الملك، وهذا سَرْجُه لك آيةٌ. قال: فزيّنته ودفعته إليه، فأتى به ناحية من الشَّرَبَّة فقتله وهرب من فوره، وهرب سِنَان بن أبي حارثة. فلمّا بلغ الأسودَ قَتْلُ ٱبنه شُرَحْبِل غزا بني ذُبيان فقَتَل وسَبَى، وأخذ الأموال، وأغار

---

(١) يقال: أضمرت الأرض الرجل: إذا غيبته بسفر أو بموت.
(٢) الباذخ: العالي.
(٣) أجأ وسلمى: جبلان لطيّىء وقد ذكرهما المؤلف.

على بني دُودان رهط سَلْمَى، فقتلهم وسباهم، ثم وجد بعد ذلك نعلَيْ شُرَحْبِيل في جانب الشَّرَبّة عند بني مُحَارِب بن خَصَفة، فغزاهم وأسرهم وأحمى لهم الصَّفا[١] وقال: إني أحذيكم نِعَالاً، فأمشاهم عليها، فسقطت أقدامهم. ثم إن سَيَّار بن عمرو بن جابر الفَزَارِيّ احتمل للأسود دِيَةَ ٱبنه ألف بعير ورهَنَه بها قوسه، فوفاه بها وقال في ذلك: [من الطويل]

ونحن رَهَنَّا القَوْسَ ثُمَّتْ فُودِيتَ ... بألْفٍ على ظَهْرِ الفَزَارِيِّ أَقْرَعَا[٢]
بعَشْرِ مِئِيـنٍ للملوكِ وَفَى بها ... لِيُحْمَدَ سَيَّارُ بنُ عمرٍو فأَسْرَعَا

قال: ثم هرب الحارث فلحق بمعبد بن زُرَارة فٱستجار به فأجاره، وكان من سببه وقعة رَحرَحان التي تقدّم ذكرها. ثم هرب حتى لحق بمكة وقريش لأنه يقال: إنّ مُرّة بن عَوْف بن سعد بن ذُبْيان إنما هو مُرّة بن عوف بن لؤيّ بن غالب، فتوسّل إليهم بهذه القرابة وقال في ذلك: [من الوافر]

إذا فارَقْتُ ثعلبةَ بنَ سَعْدٍ ... وإخْوَتَهُم نُسِبْتُ إلى لُؤَيّ
إلى نَسَبٍ كريم غيرِ وَغْلٍ ... وحَيٌّ من أكارِم كلِّ حَيّ[٣]
فإنْ يَكُ منهم أصلي فمنهم ... قوانينُ الإلٰهِ بنو قُصَيّ

فقالوا له: هذا نَسَب رَحِم كرشَاء[٤] إذا ٱستغنيتم عنها أدبرتم. قال: فشَخَص الحارث عنهم غَضْبانَ وقال في ذلك: [من الطويل]

ألاَ لستُم منّا ولا نحنُ منكُمُ ... برئنا إليكم من لُؤَيّ بنِ غالِبِ
غَدَوْنا على نَشْرِ الحجاز وأنتمُ ... بمُنْشَعَبِ البَطْحاء بين الأخاشِبِ[٥]

وتوجّه إلى الشام فلَحِقَ بيزيد بن عمرو الغسّانيّ فأجاره وأكرمه. وكانت ليزيد ناقةٌ مُحْماة، في عُنُقها مُدْيَةٌ وزِنَاد وصُرَّة مِلْح، يمتَحِن بها رعيّتَه لينظر مَن يجترىء عليه، فوَحِمتْ ٱمرأةُ الحارث فٱشتهت شَحْمًا فٱنطلق إلى الناقة فٱنتحرها وأتاها بشَحْمها وفُقِدَتْ الناقة فأرسل إلى الخِمْس التغْلَبِيّ، وكان كاهنًا، فسأله عنها، فأخبره

---

(١) الصفاة: الحجر العريض الأملس. جمع صفا.
(٢) الأقرع: الصلب الجيد في المقارعة؛ أو الشديد الصلب.
(٣) الوغل: دعيّ النسب.
(٤) الكرشاء: التي عظم بطنها؛ أو التي كثر عيالها.
(٥) انشعب الطريق: تفرّق. البطحاء: تقدم تفسيرها. الأخاشب: جبال بمكة.

أنّ الحارث صاحبها، فهمَّ به الملك ثم تَذَمَّم[١] من ذلك، فأوجسَ الحارثُ في نفسه شرًّا فأتى الخِمْس التغلبيّ فقتله، فلمّا فعل ذلك دعا به الملك فأمر بقتله، فقال: إنك قد أجرتَني فلا تَغْدُرْني، قال الملك: لا ضَيْرَ إن غَدَرْتُ بك مرّةً فقد غَدَرْتَ بي مِرارًا، وأمرَ ٱبنَ الخِمس فقتله به، وأخذ ٱبنُ الخِمْس سيفَ الحارثِ، فأتَى به سُوقَ عُكَاظَ في الأشهُر الحُرُم، فأراه قيسَ بنَ زهير العبسيّ فضربه به قيسٌ فقتله.

ذكر حَرْبِ داحِسٍ والغَبْراء
وهي من حروب قيس

قال أبو عُبَيدة: حربُ داحسٍ والغَبرَاء بين عَبْسٍ وذُبْيان ٱبنَيْ بَغِيض بن رَيْث بن غَطَفان. وكان السبب الذي هاجها أنّ قيسَ بنَ زُهَير وحَمَلَ بن بدر تراهنا على داحس والغبراء أيّهما يكون له السَّبْق. وكان داحسٌ فَحْلاً لقيس بن زهير. والغَبْراء حِجر[٢] لحَمَل بن بدر، فتواضعا الرِّهان على مائة بعير، وجعلا مُنْتهى الغاية مائة غَلْوة[٣]، والمضمار أربعين ليلةً، ثم قاداهما إلى رأس المَيْدان بعد أن ضَمَراهما أربعين ليلةً. وكان في طَرَف الغاية شِعَاب كثيرةٌ، فأكمن حَمَلُ بنُ بدر في تلك الشِّعاب فِتْيانًا على طريق الفَرَسَيْن وأمرهم إن جاء داحسٌ سابقًا أن يردّوه عن الغاية، ثم أرسلوهما، فلما أُحضِرا خرجتِ الأنثى عن الفحل فقال حَمَل بن بدر: سبقتُك يا قيس، فقال قيس: رُوَيْدًا يَعْدُوَانِ الجَدَدَ[٤] إلى الوَعْث[٥] وترشَح أعطاف[٦] الفَحْل، فلمّا أوْغَلا عن الجَدَد وخرجا إلى الوَعْث بَرَزَ داحِسٌ عن الغبراء فقال قيس: «جَرْيُ المَذَكّياتِ[٧] غِلاَب»[٨] فذهبتْ مثلاً. فلمّا شارف داحِسٌ الغايةَ ودنا من الفِتْية وثبوا في وجه داحِسٍ فردّوه عن الغاية، ففي ذلك يقول قيسُ بنُ زُهَير: [من الوافر]

وما لاقَيْتُ من حَمَلِ بنِ بَدْرٍ	وإخْوتِهِ على ذاتِ الإصَادِ[٩]
هُمو فَخَرُوا عليّ بغير فَخْرٍ	وردّوا دُون غايتِهِ جَوَادِي

---

(١) تذمم: استنكف.

(٢) الحجر: الفرس الأنثى. وأحجار الخيل: ما يتخذ منها للنسل لا يفرد لها واحد.

(٣) الغلوة: مقدار رمية سهم.

(٤) الجدد: الأرض المستوية.

(٥) الوعث: الطريق الخشن الغليظ العسير.

(٦) الأعطاف: جمع العطف، وهو من كل شيء جانبه.

(٧) المذكيات: واحدتها المذكية، وهي من الخيل التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان.

(٨) الغلاب: جمع الغالبة، التي تغلب لقوتها.

(٩) ذات الإصاد: موضع ببلاد بني فزارة.

وثارت الحرب بين عبس وذُبيان آبنَيْ بغيض، فركدت أربعين سنة لم تُنْتَج ناقةٌ ولا فرسٌ فيها لاَستغالهم بالحرب. فبعث حُذَيفةُ بنُ بدر ابنَه مالكًا إلى قيس بن زهير يطلب منه حقّ السَّبْق، فقال قيس: كلاّ لا مطلتك[1] به، ثم أخذ الرمح فطعنه فدقّ صُلْبه، ورجعت فرسُه غائرة، وآجتمع الناس فحملوا دِيَة مالك مائة ناقة عُشَراء[2] وزعموا أنّ الرَّبيع بن زِيَاد العبسيّ حملها وحدَه فقبضها حُذَيفة وسَكَن الناس.

ثم إن مالك بن زهير نزل اللقاطة من أرض الشَرَبّة[3] فأُخبِرَ حُذَيفةُ بمكانه، فعدا عليه فقتله، ففي ذلك يقول عنترة: [من الطويل]

فللّهِ عَيْنَا مَنْ رأى مثلَ مالكٍ عَقِيرةَ قومٍ أن جَرَى فَرَسانِ[4]
فليتهما لم يَجْرِيَا قِيدَ غَلْوَةٍ وليتهما لم يُرْسَلاَ لِرِهَانِ

فقالت بنو عبس: مالك بن زُهَير بمالك بن حُذَيفة ورُدّوا علينا مالنا، فأبى حُذَيفةُ أن يردّ شيئًا، وكان الربيع بن زياد مجاورًا لبني فَزارة.

قال: فلمّا قُتِل مالك بن زهير جعل بنو فَزارة يتساءلون ويقولون: ما فعل حِمارُكم؟ قالوا: صِدْناه، فقال لهم الربيع: ما هذا الوحي؟ قالوا: قتلنا مالك بن زُهَير، قال: بئس ما فعلتم بقومكم! قَبِلتم الدِّية ورَضِيتم بها ثم غدرتم! فقالوا: لولا أنك جارُنا لقتلناك، وكانت خَفَرة الجار ثلاثًا، فقالوا له: بعدَ ثلاث ليال أُخرج عنّا، فخرج وآتّبعوه فلم يلحقوه حتى لحق بقومه، وأتاه قيس بن زهير فعاقده. ثم نهضت بنو عبس وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غَطَفان إلى بني فَزارة وذُبْيان ورئيسهم الربيع بن زياد، ورئيس بني فزارة حذيفة بن بدر.

يوم المُرَيْقِب[5]
لبني عَبْس على بني ذُبْيان

فآلتقَوْا بذي المُرَيقِب من أرض الشَّرَبَّة فآقتتلوا، فكانت الشوكة في بني فَزَارة قُتل منهم عوفُ بن بدر بن عمرو بن أبي الحصين، أحد بنيّ عديّ بن فزارة وجماعةٌ كثيرة. وفي هذه الوقعة يقول عَنْترة الفوارس: [من الكامل]

ولقد عَلِمْتَ إذ آلتقتْ فُرسانُها يومَ المُرَيْقِبِ أنّ ظنَّك أحمقُ

---

(١) مطل فلانًا حقه: أجل موعد الوفاء به مرة بعد مرة.
(٢) العشراء: التي أتى على حملها عشرة أشهر من ملقحها.
(٣) الشربة: موضع بين السليلة والربذة. (٤) العقيرة: ما عقر من صيد أو غيره.
(٥) المريقب: موضع من الشربة.

يوم ذي حُسَى
لذُبيان على عَبْس

ثم إن ذُبيان تجمّعت لِمَا أصابتْ بنو عبس منهم يوم المُرَيْقِب فَزارة بن ذُبيان ومرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان وأحلافهم، فنزلوا فتوافَوْا بذي حُسَى، وهو وادي الصفا من أرض الشَّرَبَّة، فهُزِمت بنو عبس وخافت ألاّ تقوم بجماعة بني ذبيان واتّبعوهم حتى لحقوهم، فقالوا: التفاني أو تُقِيدونا[1]، فأشار قيسُ بنُ زهير على الربيع بن زياد ألاّ يناجزهم، وأن يُعطوهم رهائنَ من أبنائهم حتى ينظروا في أمرهم، فتراضَوْا أن يكون رهنهم عند سُبَيع بن عمرو أحد بني ثعلبة بن سعد بن ذُبْيان، فدفعوا إليه ثمانية من الصِّبْيان، فأنصرفوا وتكافأ الناس، فمكث رهنهم عند سُبَيع حتى حضرته الوفاة، فقال لأبنه مالِكِ بنِ سُبَيع: إنّ عندك مكْرُمةً لا تَبِيد[2] إن أنت احتفظتَ بهؤلاء الأغَيْلمة، وكأني بك لو مُتَّ قد أتاك خالُك حُذَيفة بن بدر فعصر لك عينيه وقال: هلك سيّدُنا ثم خدعك عنهم حتى تدفعهم إليه فيقتلهم، فلا تَشْرُفُ بعدها أبدًا، فإن خِفْتَ ذلك فأذهب بهم إلى قومهم. فلما هلك سُبَيع أطاف حُذَيفة بأبنه مالك وخدعه حتى دفعهم إليه، فأتى بهم اليَعْمَرِيَّة[3]، فجعل يُبْرِز كلّ يوم غلامًا فينصبه غَرَضًا ويقول له: نادِ أباك، فينادي أباه حتى يقتله.

يوم اليَعْمَرِيَّة
لعبس على ذبيان

قال: فلما بلغ ذلك من فعله بني عبس أتوهم باليَعْمَرِيَّة فلقوهم بحَرّتها[4] فقتلوا منهم اثني عشر رجلاً، منهم مالكُ بن سبيع الذي نبذ[5] بالغلمة إلى حذيفة، وأخوه يزيد بن سبيع، وعامر بن لوذان، والحارث بن زيد، وهرم بن ضمضم أخو حُصَين. ويقال ليوم اليعمريّة: يوم ذي نفر لأنهما متجاوران.

---

(١) يقال: قاد القاتل بالقتيل: إذا قتله به قودًا.
(٢) لا تبيد: لا تذهب ولا تنقطع.
(٣) اليعمرية: ماء بواد من بطن نخل من الشربة لبني ثعلبة.
(٤) الحرّة: أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت.
(٥) نُبذ: أي طُرد وعزل.

يوم الهَباءة
لعبس على ذبيان

قال: ثم اجتمعوا فالتقَوْا في يوم قائظ إلى جنب جَفر الهباءة[١] واقتتلوا من أوّل النهار إلى أن انتصف، وحجز الحرُّ بينهم، وكان حُذَيفة بن بدر يحرق فخذيه الركضُ، فقال قيس بن زهير: يا بني عبس، إن حُذَيفة غدًا إذا احتدمت الوديقة[٢] مُستنقِعٌ في جَفْر الهباءة فعلكيم بها، فخرجوا حتى وقعوا على أثر صارِف: فرس حذيفة، والحيفاء: فرس حَمَل بن بدر، فقفَوْا أثرهما حتى توافَوْا مع الظهيرة على الهباءة، فبصُر بهم حَمَلُ بن بدر فقال: هذا قيسُ بنُ زهير قد أتاكم، فوقف قيس وأصحابُه على جَفْر الهباءة وهو يقول: لَبّيكم لَبّيكم! يعني إجابةَ الصِّبْيَةِ الذين كانوا ينادونهم إذ يُقْتَلُون! وفي الجَفْر حُذَيْفةُ وحَمل وبدر ومالك بنو بدر، وورقاء بن بِلال من بني ثعلبة بن سعد. وحنشُ بنُ عمرو، فوقف عليهم شدّاد بن معاوية العبسيّ، فحالَ بينهم وبين خيلهم، ثم توافَتْ فُرسانُ بني عَبْس فقال حَمَل: ناشدتُك بالرحِم يا قيسُ، فقال: لَبّيكم لَبّيكم! فعرف حذيفةُ أنه لن يدعَهم فانتهرَ حَمَلاً فقال: إيّاك والمأثورَ من الكلام، فذهبتْ مثلاً، وقال لقيس: لئن قتلتني لا تصلُح غَطَفان بعدها أبدًا! فقال: أبعدَها الله ولا أصلحها، وجاءه قرواشٌ بِمِعْبلةٍ[٣] فقصَم[٤] صُلْبه، وقتل الربيعُ بنُ زياد حَمَلَ بن بدر، فقال قيس بن زهير يرثيه: [من الوافر]

تَعَلَّمْ أنّ خيرَ الناسِ مَيْتٌ ... على جَفْرِ الهَباءةِ ما يَرِيمُ[٥]

ولولا ظُلْمُه ما زِلْتُ أبكي ... عليه الدهرَ ما بَدَتِ النجومُ

ولكنّ الفتى حَمَلَ بنَ بَدْرٍ ... بَغَى والبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخِيمُ[٦]

أظُنُّ الحِلْمَ دلَّ عليَّ قومِيَ ... وقد يُسْتَجْهَل الرَّجلُ الحَليمُ

ومارَسْتُ الرجالَ ومارَسُونِي ... فمُعْوَجٌّ وآخَرُ مُستقِيمُ

ومثَّلوا بحذيفة بن بدر كما مثَّل بالغِلْمة، فقطعوا مذاكيره وجعلوها في فِيهِ وجعلوا لسانه في استه، ففي ذلك يقول قائلهم: [من الطويل]

فإنّ قتيلاً بالهباءة في استِهِ ... صَحِيفَتُهُ إنْ عاد للظُّلْم ظالمُ

متى تقرؤوها تَهْدِكم من ضَلالكم ... وتُعْرَف إذا ما فُضَّ عنها الخواتمُ

---

(١) الهباءة: أرض ببلاد غطفان؛ وجفر الهباءة: مستنقع في هذه الأرض.
(٢) الوديقة: شدة الحرّ.
(٣) المعبلة: نصل عريض طويل.
(٤) قصم: قطع.
(٥) ما يريم: أي ما يبرح.
(٦) الوخيم: المضرّ.

وقال عمرو بن الأسلع: [من البسيط]

إنّ السـمـاءَ وإنّ الأرض شـاهِـدةٌ — واللّـهُ يَشْـهَـدُ والإنسـانُ والبَـلَـدُ
أنـي جَـزَيْـتُ بـنـي بـدرٍ ببَـغْـيـهـمُ — عـلـى الـهـبـاءة قـتْـلاً مـا لـه قَـوَدُ
لـمّا ٱلتَـقَيْنا عـلـى أرجاء جَـمَّـتِـهـا — والـمَـشْـرَفـيَّـةِ فـي أيـمـانـنـا تَـقِـدُ
عَـلَـوْتُـهُ بـحُـسَـامٍ ثـم قـلـتُ لـه: — خُذْها حُذَيْفُ فأنت السيِّد الصَّمَدُ

فلمّا أصيب أهلُ الهباءة وٱستعظمت غَطَفانُ قَتْلَ حُذَيفةَ، تجمَّعوا، وعرفت بنو عبس أن ليس لهم مُقَام بأرض غطفان، فخرجوا إلى اليمامة فنزلوا بأخوالهم من بني حنيفة، ثم رحلوا عنهم فنزلوا ببني سعد بن زَيْد مَنَاة.

يوم الفَرُوق
لبني عبس

ثم إنّ بني عبس غدروا بجوارهم فأتَوْا معاويةَ بنَ الجَوْن فٱستجاسوا عليهم وأرادوا أكلهم، فبلغ ذلك بني عبس ففرّوا ليلاً، وقدّموا ظُعُنَهم، ووقفت فُرْسانهم بموضع يقال له الفَرُوق، وأغارت بنو سعد ومن معهم من جنود الملك على محلّتهم فلم يجدوا إلاّ مواقد النيران فٱتبعوهم حتى أتوا الفَرُوق، فإذا بالخيل والفُرْسان وقد توارت الظُّعُن عنهم، فانصرفوا عنهم؛ ومضى بنو عبس فنزلوا ببني ضَبَّة فأقاموا فيهم. وكان بنو حذيفة من بني عبس يسمَّون بني رواحة، وبنو بدر من فَزَارة يسمَّون بني سودة، ثم رجعوا إلى قومهم وصالحوهم، فكان أوّل مَنْ سَعَى في الحمالة(١) حَرْملة بن الأشعر بن صرمة بن مرّة، فمات، فسعى فيها ابنُه هاشمُ بن حرملة، وإليه أشار الشاعر: [من الرجز]

أحْـيَـا أبـاه هـاشـمُ بـنُ حـرمـلَـهْ — يـومَ الـهـبـائـيـن ويـومَ الـيَـعْـمَـلَـهْ
تـرى الـمـلـوكَ حَـوْلَـهُ مُـرَغْـبَـلَـهْ — يَقْتُلُ ذا الذنبِ ومَن لا ذنب له!(٢)

يوم قَطَن(٣)

فلمّا توافَوْا للصلح وقَفَتْ بنو عبس بقَطَن وأقبل حُصَينُ بنُ ضَمْضَم فلقي تيحان أحد بني مخزوم بن مالك فقتله بأبيه ضمضم. وكان عنترة بن شدّاد العبسيّ قتله بذي المُرَيْقب، فأشارت بنو عبس وحُلفاؤهم بنو عبد الله بن غَطَفان وقالوا: لا نصالحكم

---

(١) الحمالة: يراد بها ما يحمل من الدية ونحوها.
(٢) المرعبلة: المضطربة، أو الممزقة. (٣) قطن: جبل لبني أسد.

ما بلّ البحر صُوفةً وقد غدرتم بنا غير مرّة، وتناهض الناس: عبسٌ وذبيان، فالتقَوْا بقَطَن، فقَتَل يومئذ عمرُو بنُ الأسلع عُتبةَ، ثم سفرت[١] السفراء، بينهم، وأتى خارجةُ بنُ سنان أبا تيحان بابنه فدفعه إليه وقال: في هذا وفاءٌ من ٱبنك! فأخذه فكان عنده أيامًا، ثم حمل خارجةُ لأبي تيحان مائةَ بعير فأدّاها إليه وٱصطلحوا وتعاقدوا.

يومُ غَدِير قَلَهَى

قال أبو عبيدة: فاصطلح الحيّان إلاّ بني ثعلبة بن سعد بن ذُبيان، فإنهم أبَوْا ذلك وقالوا: لا نرضى حتى يَدوُا قتلانا أو يُهدَرَ دمُ مَن قتلها، فخرجوا من قَطَن حتى وَرَدُوا غَدِير قَلْبي، فسبقتهم بنو عبس إلى الماء فمنعوهم حتى كادوا يموتون عَطَشًا، فأصلح بينهم عَوْفٌ ومَعقِل ٱبنا سُبَيع من بني ثعلبة وإياهما يعني زُهير بقوله: [من الطويل]

تَـدَارَكْـتُـمَـا عَـبْـسًـا وذُبْـيَـانَ بَـعْـدَمَـا   تَفَانَوْا وَدَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِمِ[٢]

فوردوا حربًا وخرجوا عنه سلمًا. تمّ خبر داحسٍ والغبراء.

يومُ الرقَم[٣]
لغَطَفان على بني عامر

غزتْ بنو عامر فأغاروا على بلاد غَطَفان بالرَّقم - وهو ماء لبني مُرّة - وعلى بني عامر: عامرُ بنُ الطُّفَيل - ويقال يزيد بن الصَّعِق - فركب عُتبة بن حُصَين في بني فَزَارة، ويزيد بن سِنَان في بني مرّة - ويقال الحارث بن عَوْف - فانهزمت بنو عامر، فزعمتْ غَطَفان أنهم أصابوا من بني عامر يومئذ أربعة وثمانين رجلاً، فدفعوهم إلى أهل بيت من أَشْجَع، كانت بنو عامر قد أصابوا فيهم، فقتلوهم أجمعين.

وٱنهزم الحكَم بن الطُّفَيل في نَفَرٍ من أصحابه، فيهم خوّات بن كعب حتى ٱنتهَوْا إلى ماء يقال له: المرورات، فقطع العطش أعناقهم فماتوا، وخَنَق الحكَم بن الطفيل نفسَه مخافةَ المُثْلة، فقال في ذلك عُرْوَة بن الوَرْد:

عَـجِبتُ لـهـم إذ يَـخْـنُـقُون نُـفُوسَـهـم   ومَقْتَلُهُمْ تحتَ الوَغَى كان أعْذَرَا[٤]

---

(١) السفير: المصلح؛ وسفرت بينهم: أصلحت.

(٢) منشم: امرأة من خزاعة كانت تبيع عطرًا، فإذ حاربوا اشتروا منها كافورًا لموتاهم، فتشاءموا بها، وكانت تسكن مكة.

(٣) الرقم: موضع بالحجاز قريب من وادي القرى.

(٤) أي كان أعذر لهم من خنقهم أنفسهم.

يوم النُّتاءة[1]
لعبس على بني عامر

يقال: خرجت بنو عامر تريد أن تُدرِك بثأرها يومَ الرَّقَم، فهجموا على عبس بالنُّتاءة وقد أُنذِروا بهم، فالتقَوْا، وكان على بني عامر: عامرُ بنُ الطُّفَيل، وعلى بني عبس: الربيع بن زِياد، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزمتْ بنو عامر، وقُتِل منهم هزار بن مُرّة، قتله الأحنف بن مالك، ونهشل بن عُبَيدة بن جعفر، قتله أبو زغبة بن حارث وعبد الله بن أنس بن خالد، وهُزِمت بنو عامر هزيمة قبيحة.

يومُ شُوَاحِط[2]
لبني مُحارب على بني عامر

غَزَتْ سَرِيَّةٌ من بني عامر بن صَعْصَعَة بلادَ غسّان، فأغاروا على إبل لبني مُحَارب بن خَصَفَة، فأدركهم الطلبُ، فقتلوا من كلاب تسعة نفر وٱرتدّوا إبلَهم فلما رجعوا وثَبَتْ بنو كلاب على جَسْرٍ ـ وهم من بني مُحَارِب، وكانوا حاربوا إخوتهم، فخرجوا من عندهم فحالفوا بني عامر بن صَعْصَعَة ـ فقالوا: نَقْتُلُهم بقَتْل بني مُحَارِب مَنْ قَتَلُوا مِنّا، فقام خِدَاشُ بنُ زُهَير دُونهم حتى منعهم من ذلك وقال: [من الطويل]

أَيَا راكبًا إمّا عَرَضْتَ فبَلِّغَنْ ... عقيلاً وأبلِغْ إنْ لَقِيتَ أبا بَكْرِ
فيا أَخَوَيْنَا مِنْ أَبِينَا وأُمِّنا ... إليكم إليكم لا سبيلَ إلى جَسْرِ
دَعُوا جانِبي إنّي سأترك جانبًا ... لكم واسعًا بين اليمامة والقَهرِ[3]
أنا فارسُ الضحياءِ عمرُو بنُ عامرٍ ... أَبَى الذمَّ وٱختار الوفاء على الغَدْرِ[4]

يوم حَوْزَة[5] الأوّل
لسُلَيم على غَطَفان

قال أبو عُبَيدة: كان بين معاوية بن عمرو بن الشريد وبين هاشم بن حَرْمَلة أحد بني مُرّة: ـ مُرّة غطفان ـ كلام بعكاظ، فقال معاوية: والله لَوَدِدْتُ أني قد سمعتُ

(١) النتاءة: نخيلات لبني عطارد.
(٢) شواحط: جبل بين مكة والمدينة.
(٣) القهر: موضع باليمامة.
(٤) أبى الذم: كرهه ولم يرضه.
(٥) حوزة: واد بالحجاز.

بظعائن[١] يَنْدُبْنَكَ، فقال هاشم: والله لَوَدِدْتُ أني قد ترَبْتُ الرطبة - وهي جُمّة[٢] معاوية، وكانت الدهرَ تنطف ماءً ودُهْنًا وإن لم تُدهَن - فلمّا كان بعد حينٍ تهيّأ معاوية ليغزو هاشمًا، فنهاه أخوه صخر، فأبى وغزاهم يومَ حَوْزة، فرآه هاشم بن حَرْملةَ قبل أن يراه معاوية، وكان هاشم ناقهًا من مرضٍ أصابه، فقال لأخيه دُرَيد بن حَرْملة: إنّ هذا إن رآني لم آمَنْ أن يشُدّ عليّ، وأنا حديثُ عهد بشكيّة[٣]، فاستطرِدْ له دوني حتى تجعلَه بيني وبينك، ففعل، فحمل عليه معاويةُ وأَرْدَفه هاشم، فاختلفا طعنتين فأردى معاويةُ هاشمًا عن فرسه الشمّاء، وأنفذ هاشم سنانَه عانة معاوية، وكرّ عليه دُرَيد وظنّه قد أرْدَى هاشمًا، فضرب معاوية بالسيف فقتله، وشدّ خُفاف بن عمرو على مالك بن حِمَار الفَزَاريّ فقتله.

قال: وغارت الشمّاء فرس هاشم حتى دخلت في جيش بني سُليم فأخذوها وظنوا أنها فرس الفزاريّ الذي قتله خُفاف، ورجع الجيش، فلما دنَوْا من صخر أخي معاوية قال لهم: ما صنع معاوية؟ قالوا قتل! قال: فما هذه الفرس؟ قالوا: قتلنا صاحبها! قال: إذًا قد أدركتم ثأركم، هذه فرس هاشم بن حرملة.

قال: فلما دخل رجبٌ ركب صخرُ بنُ عمرو الشمّاء صبيحة يومِ حَرَام، فأتى بني مُرّة، فلمّا رأَوْه قال لهم هاشم: هذا صخر فحيّوه وقولوا له خيرًا، وهاشم مريضٌ من الطعنة التي طعنَه معاويةُ، فقال: مَن قتل أخي؟ فسكتوا، فقال: لمن هذه الفرسُ التي تحتي؟ فسكتوا، فقال هاشم: هلمّ أبا حسّان إلى مَنْ يُخبرك! قال: مَن قتل أخي؟ فقال [هاشم]: إذا أصبتني أو دُريدًا فقد أصبتَ ثأرك! فقال: هل كفّنتموه؟ قال: نعم، في بُرْدين: أحدهما بخمس وعشرين بكرة وأرَوه قبره، فلمّا رأى القبر جزع[٤] عنده ثم قال: كأنكم أنكرتم ما رأيتم من جزعي، فوالله ما بتّ منذ عقلت إلاّ واترًا أو موتورًا[٥]، وطالبًا أو مطلوبًا حتى قُتِل معاوية، فما ذقتُ طعمَ نوم بعده.

يوم حَوْزة الثاني

قال: ثم غزاهم صخر فلما دنا منهم مضى على الشمّاء، وكانت غرّاء مُحجّلَة[٦]، فسوّد غُرّتها وتحجيلها، فلما رأته بنتٌ لهاشم قالت لعمّها دُرَيد: أين

---

(١) الظعائن: جمع الظعينة، الزوجة.
(٢) الجمة: مجتمع شعر الناصية.
(٣) الشكيّة: ما يشكى منه.
(٤) جزع: لم يصبر على ما نزل به.
(٥) الموتور: الذي قتل حميمه.
(٦) المحجّلة: ما كان البياض منها في موضع الخلاخيل والقيود وفوق ذلك.

الشمّاء؟ قال: هي في بني سُلَيم. قالت: ما أشبهَها بهذه الفرس! فقال: هذه بَهِيم والشمّاءُ غرّاء مُحَجّلة، ثم اضْطَجَع فلم يشعُر حتى طعنه صَخْر، قال: فثاروا وتناذَرُوا، وولّى صَخْرٌ وطلبتْه غَطَفان عامّةَ يومها، وعارض دُونه أبو شجرة بن عبد العُزّى، وكانت أمّه خنساء أخت صخر، وصخرٌ خاله، فردّ الخيلَ عنه حتى أراح فرسَه ونجا إلى قومه، فقال خُفاف بن نُدْبة لمّا قتل معاوية: قتلني الله إن برحت من مكاني حتى أثأر به! فشدّ على مالك سيّد بني شَمْخ فقتله، وقال صَخْرٌ في قتله دُرَيدًا: [من الكامل]

ولقد دفعتُ إلى دُرَيدٍ طَعْنَةً ... نَجْلاءَ تُزْغِلُ مثل غَطّ المِنْخَرِ[1]
ولقد قتلتكم ثُناءَ ومَوْحِدًا ... وتركتُ مُرّةَ مِثلَ أَمْسِ الدَّابِرِ

قال أبو عبيدة: وأما هاشم بن حرملة فإنه خرج منتجعًا[2] فلقيه عمرو بن قيس الجُشَميّ، فتبعه وقال: هذا قاتل معاوية، لا وَأَلَتْ نفسي إن وَأَلَ[3]، فلما دنا منه أرسل عليه معْبَلَةً[4] فَفَلَقَ قحفه فقتله.

يومُ ذات الأثْلِ

قال أبو عبيدة: ثم غزا صَخْرُ بنُ عمرو بن الشَّرِيد بني أسد بن خزيمة فاكتسح إبلَهم، فأتى الصريخُ بني أسد، فركبوا حتى تلاحقوا بذات الأَثْل، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فطعن ربيعة الأسديّ صخرًا في جنبه وفات القومُ بالغنيمة، ومرض صخر من الطَّعْنَة قريبًا من الحَوْل حتى ملّه أهلُه، فسمع امرأة من جاراته تسألُ سَلْمى امرأتَه: كيف بَعْلُك؟ قالت: لا حَيٌّ فيُرْجَى، ولا مَيِّتٌ فيُنْسَى، لقد لَقِينا منه الأمَرَّين! وكانت أمّه إذا سئلت عنه تقول: أرجو له العافية إن شاء الله! فقال في ذلك: [من الطويل]

أرَى أُمَّ صَخْرٍ لا تَمَلُّ عِيَادتي ... ومَلَّتْ سُلَيْمَى مَضْجَعي ومكاني[5]
فأيُّ امرىءٍ ساوَى بأمٍّ حليلةً ... فلا عاشَ إلاّ في أذًى وهَوَانِ[6]
وما كنتُ أخشَى أن أكون جِنَازةً ... عليكِ ومَنْ يَغْتَرُّ بالحَدَثَانِ[7]

---

(١) تزغل: تخرج الدم قطعًا قطعًا.
(٢) المنتجع: الموضع يقصد لما فيه من كلأ وماء.
(٣) وأل: نجا.
(٤) المعبلة: نصل طويل عريض.
(٥) عيادتي: زيارتي وأنا مريض.
(٦) الهوان: الذلّ.
(٧) الحدثان: الليل والنهار. وحدثان الدهر: نوائبه وحوادثه.

لَعَمْرِي لقد نبَّهتُ مَنْ كان نائمًا   وأسمعتُ مَن كانت له أذُنانِ
أهُمُّ بأمْرِ الحَزْمِ لو أستطيعه   وقد حِيلَ بين العَيْرِ والنَّزَوانِ[1]

قال: فلمّا طال عليه البلاء ـ وقد نتأتْ قطعةٌ من جنبه مثلَ اليد في موضع الطعنة ـ قالوا له: لو قطعتَها لرجَوْنا أن تبرأ، فقال شأنكم! فقطعوها فمات، فقالت أخته الخنساء ترثيه: [من الطويل]

وقائلَةٍ والنعشُ قد فات خَطْوُها   لِتُدْرِكَهُ يا لَهْفَ نَفْسي على صَخْرِ!
ألاَ ثَكِلَتْ أمُّ الذين غَدَوْا به   إلى القبر ماذا يَحمِلُون إلى القبر!

يومُ اللِّوَى[2]
لغَطَفان على هَوَازِن

قال أبو عُبَيدة: غزا عبد الله بن الصِّمَّة ـ وٱسمُ الصِّمَّة: معاويةُ الأصغر ـ من بني غزيَّة بن جُشَم بن معاوية بن بكر بن هَوَازن ـ وكان لعبد الله ثلاثةُ أسماء وثلاث كُنًى، فٱسمُه: عبدُ الله، وخالد، ومعبد، وكنيته أبو فرعان، وأبو دُفافة، وأبو وفاء، وهو أخو دُرَيد بن الصِّمَّة لأبويه ـ فأغار على غَطَفان فأصاب منهم إبلاً عظيمة فاطَّردها، فقال له أخوه دُرَيد: النجاء فقد ظَفِرْتَ، فأبى عليه وقال: لا أبرحُ حتى أنتقع نقيعتي ـ والنقيعة: ناقةٌ ينحرها من وَسَط الإبل فيصنع منها طعامًا لأصحابه، ويقسم ما أصاب عليهم ـ فأقام وعصى أخاه، فتبعتْه فَزَارة فقاتلوه وهو بمكان يقال له اللِّوَى، فقُتل عبد الله، وٱرتُثَّ[3] دريد فبقي في القتلى، فلما كان في بعض الليل أتاه فارسان، فقال أحدُهما لصاحبه: إني أرى عينه تبصّ[4]، فٱنزل فٱنظُر إلى سُبَّتِه[5]، فنزل فكشف ثوبه فإذا هي ترمَّزُ[6]، فطعنه، فخرج دمٌ قد ٱحتقنَ.

قال دريد: فأفقتُ عندها، فلمّا جاوَزُوا نهضتُ، فما شعرتُ إلاّ وأنا بين عرقوبَيْ[7] جَمَل ٱمرأةٍ من هَوَازن، فقالت: مَن أنتَ؟ أعوذ بالله من شرّك! قلتُ: لا، بل مَنْ أنتِ؟ ويلك! قالت: ٱمرأةٌ من هَوَازِنَ سيّارةٌ. قلتُ: وأنا من هَوَازِنَ، أنا دُرَيْدُ بن الصِّمَّة. قال: وكانت في قوم منحازين لا يشعرون بالوَقْعة، فضمَّته وعالجتْه حتى أفاق.

---

(١) النزوان: السورة والحدة.
(٢) اللوى: واد من أودية بني سليم.
(٣) أرتت: أي حمل من المعركة وهو جريح وبه رمق.
(٤) تبصّ العين: تنظر بتحديق.
(٥) السبة: الأست.
(٦) ترمز: تضطرب.
(٧) العرقوب من الدابة: ما يكون في رجلها بمنزلة الركبة في يدها.

يوم الظعينة
بين دُرَيد بن الصِّمَّة وربيعة بن مُكَدَّم

قال أبو حاتم[١] عن أبي عبيدة قال: خرج دُرَيدُ بنُ الصِّمَّة في فوارسَ من بني جُشَمَ حتى إذا كانوا في وادٍ يقال له: الأخْرَم، وهم يريدون الغارة على بني كنانة، إذ رُفع له رجلٌ في ناحية الوادي ومعه ظَعينة[٢]، فلمّا نظر إليه قال لفارس من أصحابه: صَحْ به: خَلِّ الظَّعِينة وٱنْجُ بنفسك، فٱنتهى إليه الفارسُ، فصاح به وألحَّ عليه، فألقَى زِمامَ الراحلة وقال للظعينة: [من الرّجز]

سِيري على رِسْلِكِ سَيْرَ الآمِنِ ... سَيْرَ رَدَاحٍ ذاتِ جَأْشٍ ساكِنِ[٣]
إنّ ٱنْثنائي دُونَ قِرْني شائِني ... أبلِي بَلائِي وٱخْبُري وَعَايِني[٤]

ثم حمل عليه فصرعه وأخذ فرسه وأعطاه للظَّعِينة، فبعث دُرَيد فارسًا آخر لينظُرَ ما صنع صاحبُه، فلمّا ٱنتهى إليه ورآه صَريعًا صاح به فتصامّ عنه، فظنّ أنه لم يسمع، فغَشِيَهُ، فألقَى زِمام الراحلة إلى الظَّعينة ورجع وهو يقول: [من الرّجز]

خَلِّ سبيلَ الحرّة المَنِيعهْ ... إنَّك لاقٍ دُونَها رَبيعهْ
في كَفِّهِ خَطِّيَّةٌ مُطِيعهْ ... أوْ لاَ فَخُذْها طَعْنَةً سَرِيعهْ[٥]
* والطَّعْنُ مِنّي في الوَغَى شَرِيعهْ *

ثم حمل عليه فصرعه، فلمّا أبطأ على دُرَيد بعث فارسًا ثالثًا لينظُرَ ما صنعا، فلما ٱنتهى إليهما رآهما صَريعَيْن ونظر إليه يقُودُ ظَعينته ويجُرّ رُمْحَه، فقال له: خَلِّ سبيلَ الظَّعينة، فقال للظعينة: اقصِدِي قَصْدَ البيوت، ثم أقبل عليه فقال:

ماذا تُرِيدُ من شَتيم عابِسِ ... ألم تَرَ الفارِسَ بعدَ الفارِسِ
* أرْداهما عامِلُ رُمْحٍ يابِسِ *

(١) هو أبو حاتم السجستاني واسمه سهل بن محمد. وكان كثير الرواية عن أبي زيد وأبي عبيدة والأصمعي. عالمًا باللغة والشعر.
(٢) الزوجة: أو المرأة المرتحلة في هودج. (٣) رداح: ثقيل الحمل.
(٤) القرن: المثل في الشجاعة والشدة والعلم والقتال وغير ذلك.
(٥) الخطيّ: الرمح المنسوب إلى الخط، وهو موضع ببلاد البحرين.

ثم حَمَلَ عليه فصرَعه وأنكسر رمحُه، وأرتاب دُرَيدٌ وظنّ أنهم قد أخذوا الظَّعِينة وقتلوا الرجل، فلَحِقَ ربيعةَ وقد دنا من الحيّ، فوجد أصحابَه قد قُتلوا، فقال: أيها الفارس، إنّ مثلَك لا يُقتَل، ولا أَرَى معك رُمْحًا والخيلُ ثائرةٌ بأصحابها، فدُونَك هذا الرُّمْحَ فإنّي منصرفٌ إلى أصحابي فمُثَبِّطُهم[1] عنك، فأنصرف دُرَيدٌ وقال لأصحابه: إنّ فارسَ الظَّعِينة قد حماها وقَتَل فُرْسانَكم وأنتزعَ رُمْحِي، ولا مَطْمَعَ لكم فيه فأنْصَرِفُوا، فانْصَرَفَ القوم، فقال دُرَيد: [من الكامل]

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثلِه ... حامِي الظَّعينةِ فارسًا لم يُقْتَلِ
أرْدَى فَوارسَ لم يَكُونُوا نُهْزَةً ... ثم أستَمَرَّ كأنه لم يَفْعَلِ
مُتَهَلِّلًا تَبْدُو أَسِرَّةُ وَجْهِهِ ... مثلَ الحُسام جَلَتْه كَفُّ الصَّيْقَلِ
يُزْجِي ظَعِينَتَه ويَسْحَبُ رُمْحَه ... مُتَوَجِّهًا يُمْنَاهُ نَحْوَ المَنْزِلِ
وتَرَى الفَوَارِسَ من مَخافة رُمْحِهِ ... مِثْلَ البُغاث خَشِينَ وَقْعَ الأَجْدَلِ[2]
يا لَيتَ شِعْرِي مَنْ أبوه وأُمُّه ... يا صاحِ مَنْ يَكُ مِثْلَه لا يُجْهَلِ

وقال ربيعةُ بنُ مُكَدَّم: [من الكامل]

إن كان يَنْفَعُكِ اليقينُ فسائلِي ... عنِّي الظعينةَ يومَ وادِي الأَخْرَمِ
إذْ هِي لأوّل من أتاها نُهْبَةٌ ... لولا طِعَانُ رَبيعةَ بنِ مُكَدَّمِ
إذْ قالَ لي أدْنَى الفوارسِ مِيتةً ... خَلِّ الظَّعِينةَ طائعًا لا تَنْدَمِ
فصرَفْتُ راحلةَ الظَّعِينةِ نحوَه ... عَمْدًا ليَعْلَم بعضَ ما لم يَعْلَمِ
وهَتَكْتُ بالرُّمْح الطويلِ إهابَهُ ... فهَوَى صَرِيعًا لليَدَيْنِ وللفَمِ[3]
ومَنَحْتُ آخَرَ بعدَه جَيّاشَةً ... نَجْلاءَ فاغِرةً كشِدْقِ الأضجمِ[4]
ولقد شَفَعْتُهما بآخَرَ ثالثٍ ... وأَبَى الفِرار ليَ الغَداة تَكَرُّمِي

ثم لم تلبث بنو كِنانة أن أغارتْ على بني جُشم، فقَتلوا وأسروا دُرَيْدَ بنَ الصُّمَّة فأخفَى نفسه، فبينما هو عندهم محبوسٌ إذ جاءه نسوةٌ يتهادَيْنَ، فصَرَخَتْ إحداهنّ وقالت: هلكتُم وأهلكتُم! ماذا جرّ علينا قومُنا! هذا والله الذي أعطى ربيعةَ رُمحَه يومَ الظَّعِينة! ثم ألقتْ عليه ثوبَها وقالت: يا آل فِرَاس، أنا جارةٌ له منكم، هذا صاحبُنا يوم الوادي! فسألوه: مَنْ هو؟ فقال: أنا دُرَيدُ بن الصِّمَّة فمَنْ صاحبي؟ قالوا: ربيعةُ بنُ مُكَدَّم،

---

(١) يقال: ثبّطه عن الشيء: إذا عوّقه وبطأ به. (٢) الأجدل الصقر. البغاث: نوع من الطيور.
(٣) هتك الشيء: جذبه فأزاله من موضعه. (٤) الأضجم: الذي اعوجّ ومال.

قال: فما فعل؟ قالوا: قتلتْه بنو سُلَيم! قال: فما فَعَلتِ الظَّعِينة؟ قالتِ المرأة: أنا هِيَهْ، وأنا امرأته، فحبسه القوم وآمَرُوا أنفسهم، فقال بعضهم: لا ينبغي لدُرَيدٍ أن تُكفَر نعمتُه على صاحبنا! وقال آخرون: والله لا يخرج من أيدينا إلاّ برضا المُخارق[1] الذي أسره، فانبعثت المرأةُ في الليل. وهي رَيْطة بنتُ جِذْلِ الطِّعَان، تقول: [من الطويل]

سَنَجْزِي دُرَيدًا عن ربيعةَ نِعْمَةً ... وكلُّ امرىءٍ يُجْزَى بما كان قَدَّما
فإن كان خيرًا كان خيرًا جَزاؤُه ... وإن كان شَرًّا كان شَرًّا مُذَمَّمَا
سنَجْزِيه نُعْمَى لم تكن بصَغِيرةٍ ... بإعطائه الرُّمْح الطويلَ المُقَوَّما[2]
فقد أدركتْ كفّاه فينا جَزاءه ... وأهلٌ بأن يُجْزَى الذي كان أنْعَمَا
فلا تَكْفُروه حَقَّ نُعْمَاهُ فِيكُم ... ولا تَرْكَبُوا تلكَ التي تَمْلأُ القَمَا[3]
فلو كان حَيًّا لم يَضِقْ بثوابه ... ذِرَاعًا غَنِيًّا كان أو كان مُعْدما
فَفُكُّوا دُرَيْدًا من إسَارِ مُخَارِقٍ ... ولا تَجْعَلُوا البُؤْسَى إلى الشَّرِّ سُلَّمَا

فلما أصبحوا أطلقوه، فكَسَتْه وجهّزته ولَحِقَ بقومه، فلم يزل كافًّا عن غَزْو بني فِراسٍ حتى هَلَك.

يومُ الصَّلْعاء[4]
لهَوَازِن على غَطَفان

قال: فلمّا كان في العام المقبل غزاهم دُرَيد بن الصِّمَّة بالصَّلْعاء، فخرجت إليه غَطَفان فقال دريد لصاحبه: ما ترى؟ قال: أرى خيلاً عليها رجال كأنهم الصبيان، أسنّتها عند آذان خيلها. قال: هذه فَزَارة، ثم قال: أُنظر ما ترى؟ قال: أرى قومًا كأنّ عليهم ثيابًا غُمِست في لِجَاب[5] المِعْزَى، قال: هذه أشجع، ثم قال: أنظر ما ترى؟ قال: أرى قومًا يجرّون رماحهم سودًا، يخدّون[6] الأرض بأقدامهم، قال: هذه

---

(١) المخارق: الرجل الذي يتحرق ويتصرف في وجوه الخير، وقد يراد الفارس المتصرف في ألوان القتال وأساليبه.
(٢) المقوّم: المستوي الذي لا اعوجاج فيه.
(٣) يقال: قمّت البيت ونحوه: إذا كنسته؛ ويقال: أقمى الرجل: سمن بعد هزال.
(٤) الصلعاء: أرض لبني عبد الله بن غطفان وبني فزارة بين النقرة والحاجر.
(٥) اللجاب: المعزى إذا أتى عليها بعد نتاجها أربعة أشهر فجفّ لبنها وقلّ.
(٦) خدّ الأرض: حفرها.

عَبْس، أتاكم الموت الزؤام فاثبتوا، فالْتقَوْا بالصلعاء فاقتتلوا، فكان الظفر لهوازن على غطفان، وقَتَل دُرَيدٌ ذُؤابَ بنَ زيد بن قارب.

ذكر حرب قيس وكنانة

يومُ الكَدِيد[1] لسُليمَ على كِنانة

فيه قُتِل ربيعةُ بنُ مُكَدَّم فارسُ بني كِنانة، وهو من بني فِرَاسِ بنِ غَنْم بن مالك بن كِنانة، وهم أنجدُ العرب، كان الرجل منهم يَعْدِل بعشرة من غيرهم، وكان ربيعةُ بن مكدَّم يُعقر على قبره في الجاهليّة، ولم يُعْقَر على قبر أحدٍ غيره، وقتلته بنو سُلَيم يوم الكَدِيد، ولم يحضر يوم الكَدِيد أحدٌ من بني الشَّريد.

يومُ فَزَارة

لكنانة على سُلَيم

قال أبو عبيدة: لمّا قتلت بنو سُلَيْم ربيعةَ بنَ مُكَدَّم فارسَ كنانة ورجعوا، أقاموا ما شاء الله، ثم إنّ ذا التاج مالكَ بنَ خالد بن صَخْر بن الشَّريد ـ واْسم الشَّرِيد عمرو، وكانت بنو سُلَيْم قد توّجوا مالكًا وأمّروه عليهم ـ فغزا بني كِنَانة، فأغار على بني فِرَاس ببُزْرَة[2]، ورئيسُ بني فِرَاس عبد الله بن جِذْل، فدعا عبد الله إلى البراز، فبرز إليه هِنْدُ بن خالد بن صَخْر بن الشَّرِيد، فقال له عبد الله: مَن أنت؟ قال: أنا هِنْدُ بنُ خالد، قال عبد الله: أخوك أسنّ منك، يريد مالك بن خالد، فرجع فأخبر أخاه، فبرز له، فشَدّ عبد الله على مالك بن خالد فقتله، فبرز إليه أخوه كُرْزُ بنُ خالد بن صخر، فشَدّ عليه عبد الله أيضًا فقتله، فشدّ عليه أخوهما عمرو بن خالد بن صخر، فتجالدا[3] طَعْنتين، فجرح كلُّ واحدٍ منهما صاحِبَه وتحاجزا.

يومُ الفيفاء

لسُلَيْم على كِنَانة

قال أبو عبيدة: ثم إنّ بني الشَّريد حرَّموا على أنفسهم النساءَ والدُّهْن أو يُدْرِكوا ثأرَهم من كنانة، فغزا عمرو بن خالد بن صخر بن الشَّرِيد بقومه حتى أغار على بني فِرَاس، فقتل منهم نفرًا؛ منهم: عاصم بن المُعَلَّى، ونَضْلة، والمعارك، وعمرو بن

---

(١) الكديد: موضع بين مكة والمدينة. (٢) البزرة: موضع في ديار بني كنانة.

(٣) تجالدا: تضاربا.

مالك، وحِصْن، وشُرَيح؛ وسبى سبيًا فيهم ابنة مُكَدَّم أخت ربيعة، فقال عباسُ بنُ مِرْداس في ذلك: [من الطويل]

ألاَ أَبْلغَنْ عنِّي ٱبنَ جِذْل ورَهْطَه فكيف طلبناكم بكُرْزٍ ومالكِ

غداةَ فَجَعناكم بحِصْن وبابنه وبابنِ المعلَّى عاصم والمعارك

ثمانية منهم ثأرناهم به جميعًا وما كانوا بَواء بمالك[1]

نُذِيقكم - والموتُ يَبْني سُرَادِقًا عليكم - شَبَا حدِّ السيوف البواتِك[2]

تلوح بأيدينا كما لاحَ بارقٌ تلألأ في داجٍ من الليل حالِكِ[3]

ذكر حرب قيس وتميم

يومُ السُّؤْبان لبني عامر على بني تميم

قال أبو عبيدة: أغارت بنو عامر على بني تميم وضبّة فاقتتلوا، ورئيسُ ضبّة حسّان بن وَبْرة، وهو أخو النعمان بن المنذر لأمّه، فأسره يزيد بن الصَّعِق، وانهزمت تميم؛ فلمّا رأى ذلك عامرُ بنُ مالك بن جعفر حسده، فشدّ على ضِرَار بن عمرو الضبّيّ، وهو الرُّدَيْم، فقال لابنه: إذا همَّ أغنِه عنّي، فشدّ عليه فطعنه، فتحوّل عن سَرْجه[4] إلى جَنْب أبدانه، ثم لحقه، فقال لأحد بنيه: أغنِهِ عنّي؛ ففعل مثلَ ذلك، ثم لحقه، فقال لابنٍ له آخر، ففعل مثلَ ذلك، فقال: ما هذا إلاّ مُلاعِبُ الأسنّة! فسُمِّيَ عامر من يومئذ مُلاعِبُ الأسنّة فلما دنا منه قال له ضِرَار: إني لأعلم ما تريد، أتريد

(١) البوّاء: الكفء.

(٢) السرادق: كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب؛ أو الفسطاط يجتمع فيه الناس لعرس أو مأتم وغيرهما.

(٣) الداج: الذي عمت ظلمته وألبس كل شيء.

(٤) قوله: (فتحوّل عن سرجه إلى جنْب أبدانه) ضبط المصحح جنب بسكون النون ولم يفسر المراد منه وفي (العقد) طبعته المصرية الأخيرة (أبدائه) بالهمزة مكان النون وفسر مصححوه (الأبداء) بالمفاصل. ولكن يفهم من كتب اللغة أن المراد بمفاصل الجزور أو عظامه التي عليها اللحم ما كان منها مُعَضًّى مجزأ مقسمًا إلى أنصباء توزع على المقامرين. وما معنى تحول الفارس عن فرسه إلى جنب مفاصله؟.. والذي أراه أن (جَنَب) بفتح النون لا سكونها وهو الخيل التي تُجنب إلى جنب الفارس يتحول إليها حين الحاجة. وفي القاموس (خيل جنائب وجَنَب محركة) والأبدان جمع بدَن وبدن جمع بدنة الدرع. فعامر لما طُعِن تحول عن سرجه والتحول عن السرج تحول عن الفرس نفسها وكان في جنبه خيل معدة لتحميل الدروع عليها وهي التي سماها (جَنَب الأبدان) فركب إحداها ثم لحق ضرارًا الضبي إلى آخر القصة. هذا ما أمكن حمل عبارة المؤلف عليه ما لم يعثر على نص أصح فيرجع إليه.

اللَّبَب[١]؟ قال نعم! قال: إنك لن تَصِلَ إليّ ومن هؤلاء عين تَطرف، كلهم بنو عامر، قال له عامر: فأحلني على غيرك، فدلّه على حُبَيْش بن الدُّلَف وقال: عليك بذلك الفارس، فشدّ عليه فأسره، فلما رأى سوادَه وقِصَرَه، جعل يتفكّر، وخاف ٱبن الدُّلَف أن يقتله، فقال: ألستَ تريد اللَّبَب؟ قال بلى، قال: فأنّى لك به. وفادي حسّانُ بنُ وَبْرة نفسه من يزيد بن الصَّعِق بألف بعير، فداءَ الملوك فكثر مال يزيد ونبه[٢].

قال أبو عبيدة: ثم أغار بعد ذلك يزيد بن الصَّعِق على عصافير النعمان بذي لُبَان، وذو لبان: عن يمين العرنيين.

يوم أقرن
لبني عَبْس على بني دارم

قال: غزا عمرُو بنُ عُدُس من بني دارِم، وهو فارسُ بني مالك بن حنظلة، فأغار على بني عَبْس، فأخذ إبلاً ونساءً ثم أقبل، حتى إذا كان أسفل من ثَنِيَّة أَقْرُن نزل فٱبتنى بجارية من السَّبْي، ولَحِقَه الطلب فٱقتتلوا، فقتل أَنَسُ الفوارسُ بن زِيَاد العَبْسيّ عمرًا: وٱنهزمتْ بنو مالك بن حنظلة، وقتلتْ بنو عبس أيضًا حَنْظلةَ بن عمرو ـ وقال بعضهم: قُتِل في غير هذا اليوم ـ وٱرتدّوا ما كان في أيدي بني مالك.

يومُ المَرُّوت[٣]
لبني العَنْبَر على بني قُشَير

أغار بَجِيرُ بنُ سَلَمة بن قُشَير على بني العَنْبَر بن عمرو بن تميم، فأتى الصريخُ بني عمرو بن تميم حتى لحقوه وقد نزل المَرّوت، وهو يَقْسم المِرْبَاع ويُعطِي مَن معه، فتلاحق القوم وٱقتتلوا، فطَعَن قَعْنَبُ بنُ عتّاب المثلَّمُ بنَ عامر القُشَيْرِي فصرعه فأسره، وحمل الكَدّام، وهو يزيد بن أُزَيهر المازِني على بجير بن سَلَمَة فطعنه فأرداه عن فرسه، ثم أسره، فأبصره قَعْنَبُ بنُ عتّاب، فحمل عليه بالسيف فضربه فقتله، وٱنهزم بنو عامر.

يومُ دارَةَ مَأْسَل
لتميم على قَيْس

غزا عُتْبَةُ بنُ شُتَيْر بن خالد الكِلاَبيّ بني ضَبَّة، فاستاقَ نعَمَهم[٤]، وقتل حُصَينَ

---

(١) اللبب: موضع المنحر من كل شيء. (٢) نبه فلان: شرف وعلا ذكره.

(٣) المروت: واد بالعالية بين ديار بني قشير وديار بني تميم.

(٤) النعم: أي الإبل. جمع أنعام وأناعيم.

ابنَ ضِرَار الضبيّ زيدَ الفوارس، فجمع أبوه ضِرَار قومَه وخرج ثائرًا بأبنه حُصَينَ، وزيدُ الفوارس يومئذ حَدَثٌ لم يُدرِك، فأغار على بني عمرو بن كِلاب، وأفلت منه عُتبة بن شُتَير وأسر أباه شتير بن خالد وكان شيخًا كبيرًا، فأتى به قومَه فقال: يا شُتَير، اختَرْ واحدةً من ثلاث، قال: اعْرِضها عليّ، قال: إمّا أن تَرُدّ أبني حُصَينًا! قال: إنّي لا أنشُرُ[1] الموتَى! قال: وإمّا أن تدفع إليّ أبنَك عُتبَةَ أقتله به! قال: لا يَرْضَى بذلك بنو عامر، قال: وإمّا أن أقتلك. قال: أما هذه فنعم! فأمر ضِرَارٌ أبنَه أدْهَمَ أن يقتله، فلمّا قدّمه ليضرب عنقه نادى شُتَير: يا آل عامر، صَبْرًا بصبيّ! كأنه أنِفَ أن يُقتلَ بصبيّ، فقال في ذلك شمعلة: [من الوافر]

وخَـيَّـرنـا شُـتَـيـرًا مِـنْ ثـلاثٍ ... ومـا كـان الـثـلاثُ لـه خِـيَـارَا
جَعَلْتُ السيف بين اللِّيتِ منه ... وبيـن قُـصَـاصِ لِـمَّـتِـهِ عِـذَارَا[2]

أيامُ تميم على بكر

يومُ الوَقِيط

قال فِرَاس بن خِنْدِف: تجمّعت اللَّهازِم لتُغير على تميم وهم غارُّون[3]، فرأى ذلك ناشِبُ بنُ بَشَامة العَنبريّ الأعْوَر، وهو أسيرٌ في بني سعد بن مالك من بني ثعلبة، فقال لهم: أعطوني رسولاً أُرسِله إلى بني العنبر أوصيهم بصاحبكم خيرًا ليُولوه ما تُولونني من البِرّ. وكان حَنْظَلة بن طُفَيل المَرْثَديّ أسيرًا في بني العَنْبَر، فقالوا: على أن تُوصِيَه ونحن حضُور، قال نعم، فأتَوْه بغلام، فقال: أتيتموني بأحْمق، وما أراه مُبَلِّغًا عنّي! قال الغلام: لا والله ما أنا بأحمق، وقُلْ ما شئتَ فإنّي مُبَلِّغه، فملأ الأعْور كفّه من الرمل فقال: كم في كفِّي منه؟ قال: شيء لا يُحْصَى كثرةً، ثم أومأ إلى الشمس فقال: ما تلك؟ قال: هي الشمس. قال: فاذهبْ إلى أهلي فأبلِغْهم عنّي التحيّة وقُلْ لهم: ليُحْسِنوا إلى أسيرهم ويكرموه فإني عند قوم مُحسنين إليّ مُكرمين لي وقُلْ لهم ليُعْرُوا جَمَلي الأحمر: ويركبوا ناقتي العَيْساء[4]، ويَرْعُوا حاجتي في بني مالك، وأخبرهم أن العَوْسَجَ[5] قد أوْرَق، وقد أشتكت النساء، ولْيَعْصُوا همّام بن بَشَامة فإنه مشؤوم مَحْدُود[6]. ويُطيعوا أبنَ الأخْنَس فإنه حازمٌ مَيمُونٌ.

(١) نشر الله الموتى: أي بعثهم وأحياهم. (٢) اللّيت: صفح العنق.
(٣) الغارون: جمع الغار، وهو الغافل. (٤) العيساء: الناقة يخالط بياضها شقرة.
(٥) العوسج: جنس نبات شائك من الفصيلة الباذنجانية، له ثمر مدور كأنه خرز العقيق. واحدته عوسجة.
(٦) المحدود: الممدود، وهو الممنوع.

قال: فأتاهم الرسول فأبلغهم، فقال بنو عمرو بن تميم: ما نعرفُ هذا الكلام، ولقد جُنَّ الأعور، والله ما نعرف له ناقةً عَيْساءَ، ولا جَمَلاً أحمر! فشخص الرسول، ثم ناداهم هُذَيل: يا بني العنبر، قد بيَّن لكم صاحبكم، أمّا الرملُ الذي قبض عليه فإنه يُخبركم أنه أتاكم عددٌ لا يُحْصَى، وأمّا الشمسُ التي أومأ إليها فإنه يقول: إن ذلك أوضح من الشمس، وأمّا جملُه الأحمرُ فهو الصَّمّانُ[1]: يأمركم أن تُعْرُوه[2]، وأما ناقتُه العَيْساء فهي الدَّهْنَاء[3]، يأمركم أن تتحرزوا[4] فيها، وأما أبناء مالك فإنه يأمركم أن تُنْذِروا بني مالك بن زَيْد مَنَاة، وأن تمسكوا الحِلْف بينكم وبينهم، وأما العَوْسَج الذي أورق، فيخبركم أنّ القومَ قد لبسوا السلاح، وأمّا تشكّي النساء فيخبركم إنهنّ قد عَمِلْنَ شِكاءً يغزون به.

قال: فتحرَّزت عمرو فركبت الدَّهناء وأنذَرُوا بني مالك فقالوا: ما ندري ما تقول بنو عمرو، ولسنا مُتَحَوِّلين لما قال صاحبُهم. قال: فصبَّحت اللّهازِم بني حنظلة فوجدوا عمرًا قد جَلَتْ، وكان على الجيش أبجر بن جابر العِجْليّ، وشهدها ناسٌ من بني تَيْم اللات، وشهدها الفِرز بن الأسود بن شريك في بني شيبان، فٱقتتلوا، فأسِر ضِرَار بن القَعقاع بن زُرَارة، وتنازع في أسْره بِشْر بن العَوْراء من تيم اللات، والفِرْز بن الأسود فجزّوا ناصيته وخلوا أسره من تحت الليل، وأسر عمرو بن قيس من بني ربيعة بن عِجْل عَتْجَل بن المأموم بن شيبان بن عَلْقَمة من بني زُرَارة، ثم منَّ عليه، وأُسِرتْ غَمامةُ بنت الطَّوْد بن عُبَيد بن زُرارة، وٱشترك في أسْرها الخطيم بن هِلال، وظَربان بن زياد، وقَيْس بن خُلَيد، فردّوها إلى أهلها، وأُسر حنظلة بن المأموم بن شَيْبان بن عَلْقمة، أَسره طلبةُ بن زياد أحد بني ربيعة بن عجْل، وأُسِرَ حَوْثرة بن بدر من بني عبد الله بن دارم، فلم يزل في الوثاق حتى قال أبياتًا يمدح فيها بني عجل فأطلقوه، وأُسِرَ نُعَيْم بن القعقاع بن مَعْبَد بن زُرارة، وعمرو بن ناشب، وأُسِرَ سِنَان بن عمرو أحد بني سلامة من بني دارم، وأُسِرَ حاضر بن ضَمْرة، وأُسرَ الهيثم بن صعصعة، وهرب عوف بن القعقاع عن إخوته، وقُتِلَ حَكِيم النَهشليّ، وكان يقاتل ويرتجز:

كُلُّ ٱمرىءٍ مُصَبَّحٌ في أهْلِهِ والموتُ أَدْنَى من شِراكِ نَعْلِهِ

وفيه يقول عنترة: [من الوافر]

وغادَرْنا حَكِيمًا في مَجَالٍ صَرِيعًا قد سَلَبْنَاهُ الإزَارَا[5]

---

(١) الصّمّان: جمل أحمر في أرض بني تميم. (٢) تعروه: أي ترتحلوا عنه.

(٣) الدهناء: سبعة أجبل من الرمل، وهي ديار لعامة تميم.

(٤) تحرز منه: احترز، أي توقاه.

(٥) الإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

يوم النِّباج[1] وثَيتَل[2]
لبكر على تميم

قال أبو عُبَيد مَعْمَر بن المثنَّى: غدا قيسُ بن عاصم في مُقَاعِس وهو رئيسٌ عليها - ومُقَاعس هم: صريم، وربيع، وعبيد، بنو الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم - ومعه سَلاَمة بن ظَرِب بن نمر الحماني في الأَجارِب وهم: حمان، وربيعة، ومالك، والأعرج، بنو كعب بن سعد بن زيد مَناة بن تميم، فغَزَوْا بكر بن وائل فوجدوا بني ذُهْل بن ثعلبة بن عكابة، واللهازم وهم: بنو قيس وتَيْم اللات بن ثعلبة، وعِجْل بن لُجَيْم، وعنزة بن أسد بن ربيعة بالنِّبَاج وثَيْتل، وبينهما روحة، فتنازع قيسٌ بن عاصم وسلامةُ بن ظَرِب في الإغارة، ثم اتفقا على أن يُغِيرَ قيس على أهل النِّباج، ويُغِيرَ سلامةُ على أهل ثَيْتَل. قال: فبعث قيسُ بن عاصم الأهتم سبقةً له - والسبقةُ: الطليعة - فأتاه الخبرُ فلما أصبح قيس سقى خيله، ثم أطلق أفواه الروايا[3] وقال لقومه: قَاتِلوا فإنّ الموتَ بين أيديكم، والفلاةَ من ورائِكم. فلما دنَوْا من القوم صُبْحًا سَمِعوا ساقيًا يقول لصاحبه: يا قيسُ، أورد، فتفاءلوا به، فأغاروا على النِّبَاج قبل الصبح، فقاتلوهم قتالاً شديدًا، ثم إنّ بكرًا انهزمت، فأسر الأهتمُ حُمْرانَ بنَ بشر بن عمرو بن مرثد، وأصابوا غنائم كثيرةً، فقال قيس لأصحابه: لا مقام دون الثيتل، فالنجاةَ، فأتوا ثيتل ولم يغزوا سلامةَ وأصحابه بعد، فأغار عليهم قيسُ بن عاصم، فقاتلوه ثم انهزموا، فأصاب إبلاً كثيرةً، فقال ربيعة بن طَريف: [من الطويل]

فلا يُبْعِدَنْك الله قَيْسَ بنَ عاصم ... فأنتَ لنا عز عزيزٌ ومَوْئِلُ
وأنتَ الذي حَرَبْتَ بكر بن وائلٍ ... وقد عضَّلَت منها النِّبَاج وثَيْتَلُ[4]
غَدَاةَ دعَتْ يا آلَ شيبانَ إذْ رأَتْ ... كَرَادِيسَ يُزْجِيهِنَّ وَرْدٌ مُحَجَّلُ[5]

وقال قُرّة بن قيس بن عاصم: [من الطويل]

أَنَا ابْنُ الذِي شَقَّ المزادَ وَقَدْ رَأَى ... بِثَيْتَلَ أحْيَاءَ اللَّهَازِم حُضَّرَا[6]

---

(١) النباج: موضع قريب من ثيتل. (٢) ثيتل: ماء على عشر مراحل من البصرة.
(٣) يقال: حربه: أي سلب ماله.
(٤) عضلت الأرض بأهلها: أي ضاقت بهم لكثرتهم.
(٥) الكراديس: كتائب الخيل، واحدها: الكردوس.
(٦) المزادة: الرواية. جمع المزاد.

فَصَبَّحَهُمْ بالجيش قَيْسُ بنُ عَاصم ... فَلَمْ يَجِدُوا إلاَّ ٱلأَسِنَّةَ مَصْدَرَا
عَلَى الجُرْدَ يعْلُكْنَ الشَّكيمَ عَوَابِسًا ... إِذَا الماءُ مِنْ أعطَافِهنَّ تَحَدَّرَا[١]
فَلَمْ يَرَهَا الراؤونَ إلا فُجاءَةً ... نَثَرْنَ عَجَاجًا بالسَّنَابِكَ أَكْدَرَا[٢]
سقاهُمْ بهَا الذَّيفَانَ قَيْسُ بنُ عاصم ... وَكَانَ إذَا مَا أوْرَدَ ٱلأَمْرَ أَصْدَرا
وَحُمْرَانَ أَدَّتْهُ إِلَيْنَا رِمَاحُنَا ... فَنَازَعَ غُلاً فِي ذِرَاعَيْهِ أَسْمَرَا[٣]
وجثَامةَ الذُّهْليَّ قُدْنَاهُ عَنْوَةً ... إِلَى الحيِّ مَصْفُودَ اليدَينِ مُفَكَّرَا[٤]

يوم زَرُود[٥] الثاني

لبني يربوع على بني تغلب

أغار خُزَيمةُ بنُ طارق التغلبيّ على بني يربوع وهم بزَرُود، فٱقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم ٱنهزمت بنو تغلب، وأُسِرَ خُزَيمةُ بن طارق، أسره أنيف بنُ جَبلةَ الضبِّيّ - وهو فارسُ السليط، وكانَ يومئذ نقيلاً[٦] في بني يربوع - وأَسِيدُ بنُ حِنَّاءة السليطي، فتنازعا فيه، فحكَّما بينهما الحارث بن قراد، فحكم بناصية خزيمة للأنيف، على أنّ لأسيد على أنيف مائةً من الإبل. قال: فَفَدَى خُزَيمةُ نفسَه بمائتي بعير وفرسٍ، فقال أنيف: [من الطويل]

أَخَذْتُك قَسْرًا يا خُزَيْمَ بنَ طارقٍ ... وَلاَقَيْتَ مِنِّي الموتَ يَوْمَ زَرُودِ
وعانَقْتُه والخيلُ تَدْمَى نُحُورُها ... فأنزلْتُهُ بِالقَاعِ غَيْرَ حَمِيدِ

يوم ذي طُلوح[٧]

لبني يربوع على بكر

كان عَمِيرةُ بنُ طارق بنِ حصينةَ بنِ أريم بن عبيد بن ثعلبة، تزوّج مَرِيَّة بنت جابر، أخت أبجر بن جابر العِجْليّ، فٱبتنى بِها في بني عجل، فأتى أبجر أختَه ٱمرأةً

---

(١) الفرس الأجرد: قصير الشعر؛ الشكيم: الحديدة المعترضة في فم الفرس.
(٢) العجاج: الغبار.
(٣) الغل: طوق من حديد أو جلد يجعل في عنق الأسير أو في أيديهما.
(٤) الذهلي: نسبة إلى بني ذهل.
(٥) زرود: رمال بطريق الحاج من الكوفة.
(٦) النقيل: الغريب.
(٧) ذو طلوح: موضع في حزن بني يربوع بين الكوفة وفير.

عَميرة يَزُورُها فقال لها: إني لأرجو أن آتِيَك ببنتِ النِّطف أمرأةِ عَمِيرة التي في قومها، فقال له عَمِيرةُ: أترضى أن تحارِبَنِي وتسبيني؛ فَنَدِمَ أبجرُ وقال لِعَميرَةَ: ما كنتُ لأَغْزُوَ قومَك، ثم غزا أبجر والحوْفَزَان متساندين، هذا فيمن تبعه من بني شيبان، وهذا فيمن تبعه من اللهازم، وساروا بعميرةَ معهم قد وكل به أبجرُ أخاه حُرْقُصةَ بن جابر، فقال له عَمِيرةُ: لو رجعتُ إلى أهلي فأحتملتُهم، فقال حُرْقُصَةُ: افعل، فكَّر عميرةُ على ناقته، فسار يومين وليلةً من أتى بني يَرْبوع، فأنذرهم الجيشُ، فأجْتَمَعُوا حتى ٱلتقَوْا بأسفل ذي طُلوح، فكان أوّل فارسٍ طلع عليهم عَمِيرةُ، فنادى: يا أَبْجَرُ، هلمَّ! فقال مَنْ أنت؟ قال: أنا عَمِيرةُ، فَكَذَّبه، فسفر[1] عن وجهه، فعرفه، فأقبل إليه، وٱلتفَّتْ الخيلُ بالخيل، فأُسِرَ الجيشُ إلا أقلَّهم، وأَسَر حنظلةُ بنُ بشر بن عمرو بن عُدُس بن زيد بن عبد الله بن دارم ـ وكان في بني يربوع ـ الحَوْفزانَ بنَ شَريك، أخذه معه أبو مُلَيل، وأخذ ٱبنُ طارق سوادةَ بنَ يحيى بن عمّ أبجر، وأُخِذ أبو عَنَمَةَ الضَّبّيُّ الشاعِرُ مع بني شيبان، فٱفتكَّه متمِّمُ بنُ نويرةَ[2]، وأُسِر شريكُ بنُ الحوفزان، وأسودُ وفَلْحَسُ، وهما من بني سعد بن همَّام، فقال جرير يذكر يوْمَ ذِي طُلوح: [من الكامل]

ولـمَّـا لَقَيْنَـا خَيْـلَ أبْجَـرَ تَـدَّعِي ... بِدَعْوَى لُجَيم قَبْلَ مَيْلِ الْعَوَاتِقِ

صَبَـرْنَـا وكَـانَ الـصَّبْـرُ مِـنَّـا سَجِيَّةً ... بأسيافنا تحتَ الظِّلالِ الخوافِقِ[3]

فَـلَـمَّـا رَأَوْا أنْ لاَ هَـوادةَ عِـنـدَنَـا ... دَعَوْا بعدَ كربٍ يَا عَمِيرَ بنَ طارقِ

يَوْمُ الخائرِ وهو يومُ مَلْهَم[4]
لبني يربوع على بني بكر

وذلك أنّ بني مُلَيْل عبد الله بن الحارث بن عاصم بن عُبَيْد، وعلقمة أخاه ٱنطلقا يطلبان إبلاً لهما حتى وردا ملهمَ من أرض اليمامة، فخرج عليهما نفرٌ من بني يشكر، فقتلوا علقمةَ وأخذوا أبا مُلَيْل، فكان عندهم ما شاء الله ثم خَلُّوا سبيلَه، وأخذوا عليه عهدًا وميثاقًا ألا يُخْبِرَ بأمر أخيه أحدًا، فأتى قومَه فسألوه عنه فلم يخبِرهمْ، فقال

---

(١) سفر عن وجهه: كشف عنه.

(٢) متمم بن نويرة، هو أخو مالك بن نويرة؛ وهما من ثعلبة بن يربوع. وترجمتهما في طبقات الشعراء لابن قتيبة ص١٥٨.

(٣) الخوافق: جمع الخافق، وهو العلم.

(٤) ملهم: قرية باليمامة لبني يشكر وأخلاط من بكر.

وَبْرةُ بنُ حمزة: هذا قد أُخِذَ عليه عهدٌ وميثاق، فخرجوا يقصُّون الأثر وبينهم شهابُ بنُ عبدِ القيس حتى وردوا مَلْهَم، فلما رآهم أهلُ مَلْهَم تحصّنوا، فحرّقت بنو يربوع بعضَ زرعِهم، وعقروا بعضَ نَخْلِهم، فلمّا رأى ذلك القومُ نزلوا إليهم فقاتلوهم، فَهُزِمت بنو يشكر، وقُتِلَ عَمرُو بنُ صابر صَبْرًا[١]، ضربوا عنقَه، وقَتَل عيينةُ بنُ الحارث بن شهاب بن مُثَلَّم بن عُبَيْد بن عمرو رجلاً آخر منهم، وقَتَل مالكُ بنُ نُوَيرة حُمْرانَ بن عبد الله وقال: [من الطويل]

طلبنا بيوم مثلَ يومكِ عَلْقَمَا ... لَعَمْرِي لمَنْ يَسْعَى بها كان أكرمَا
قتلنا بِجنبِ العِرْضِ عمروَ بنَ صابر ... وحُمْرانَ أقْصَدْنَاهمَا والمثلَمَا[٢]
فَلِلّه عينَا مَنْ رَأى مِثْلَ خَيْلِنَا ... وما أدركتْ من خَيْلِهِم يومَ مَلْهَمَا

يوم القحقح وهو يوم مالة لبني يربوع على بكر

أغارت بنو أبي ربيعة بن ذُهْل بن شيبان على بني يربوع ورئيسهم مجبة بنُ ربيعة بن ذهل، فأخذوا إبلاً لعاصم بن قرط أحد بني حميد، وانطلقوا، فطلبهم بنو يربوع، فناوشوهم، فكانت الدائرة على بني ربيعة، وقَتَل المنهالُ بنُ عصمة المَجبَّةَ بن ربيعة، فقال في ذلك ابنُ حُمْرانَ الرياحيّ: [من الكامل]

وإذا لَقيْتَ القومَ فاطعنْ فيهم ... يومَ اللّقاءِ كَطَعْنَة المِنْهَالِ
تَركَ المَجَبَّةَ للضباعِ مجدّلاً ... والقومُ بين سوافلٍ وعوالِ

يوم رأس العين لبني يربوع على بكر

أغارت طوائف من بني يربوع على بني أبي ربيعة برأس العين فاطّردوا النَّعَم، واتبعهم معاوية بن فِرَاس في بني أبي ربيعة فأدركوهم، فقُتِل معاويةُ وفاتوا[٣] بالإبل، فقال سُحيم[٤] في ذلك: [من الوافر]

أَلَيْسَ الأكرمون بنو رياحٍ ... نَمَوْني منهم عمِّي وخَالي

---

(١) قتله صبرًا: حبسه حتى مات.
(٢) يقال: أقصد فلانًا: أي طعنه فلم يخطىء مقاتله.
(٣) فاتوا بالإبل: أي سبقوا بها.
(٤) سحيمَ: هو سحيم بن الأعرف، وهو من بني الهجيم بن عمرو بن تميم. (طبقات الشعراء لابن قتيبة).

هُـمـو قـتـلـوا الـمـجـبّـةَ وابـنَ تـيِّـم ... تَـنُـوحُ عـلـيـهـمـا سُـودُ الـمـآلـي
وهُـمْ قَـتَـلُـوا عـمـيـدَ بـنـي فِـرَاسٍ ... بِرَأْسِ العَيْن في الحِجَج الخوَالِي
وذادوا يـوم طـخـفـةَ عـن حِـمَـاهـم ... ذِيَـادَ غَـرائِـبَ الإبـلِ الـنِّـهـالِ

يوم العظالى (١)

لبني يربوع على بكر

قال أبو عبيدة: وهو يوم أعشاش ويوم الأُفاقة ويوم الإباد ويوم مُلَيْحَة. قال: وكانت بكر بن وائل تحت يد كسرى وفارس، فكانوا يجيرونهم ويجهزونهم، فأقبلوا من عند عامل عين التمر في ثلاثمائةِ فارس متساندين، يتوقعون ٱنحدارَ بني يربوع في الحَزْن ـ قال: وكانوا يشتون خفافًا فإذا ٱنقطع الشتاء ٱنحدروا إلى الحزن ـ قال: فاحتمل بنو عتيبة وبنو عبيد وبنو زبيد من بني سليط، أوَّل الحيّ، حتى أسهلوا ببطن مُلَيْحَة، فطلعت بنو زبيد في الحَزْن حتى حَلّوا الحُدَيْقة بالأُفاقة، وحلَّت بنو عبيد وبنو عتيبة بروضة الثمد. قال: وأقبل الجيشُ حتى نزلوا هضبةَ الخصيّ، ثم بعثوا رَئِيسَهم فصادفوا غلامًا شابًّا من بني عبيد يقال له قرط بنُ أضبط، فعرفه بسطام فقال له: أخبرني ما ذاك السواد الذي أرى بالْحُدَيقة؟ قال: هم بنو زبيد. قال: أَسِيد بن حِنّاءة؟ قال: نعم، قال: كم هم؟ قال خمسون بيتًا، قال: فأين بنو عتيبة وبنو أريم؟ قال: نزلوا روضةَ الثّمد. قال: فأين سائرُ الناس؟ قال هم محتجزون بجفاف[٢]. قال: فمن هناك من بني عاصم؟ قال: الأُحَيْمِرُ وقَعْنَب ومُعْدان أبناء عصمة. قال: فمن فيهم من بني الحارث بن عاصم؟ قال: حصينُ بنُ عبد الله. فقال بسطام لأصحابه: أطيعوني تقبضوا على هذا الحيّ من زبيد، وتصبحوا سالمين غانمين. قالوا: وما يغني عنّا بنو زبيد لا يودون رحلتنا. قال: إن السلامةَ إحدَى الغنيمتين. فقال له مغروق: انتفخ سحرك يا أخا الصهباء، قال له هانىء: أجبنا. قال: ويلكم إنّ أَسِيدًا لم يظلّه بيتٌ قط شاتيًا ولا قائظًا[٣]، إنما بيتُه القفرُ، فإذا أحسّ بكم أحال على الشقراء، فركضَ حتى يُشرف مُلَيحةَ[٤]، فينادي: يا آلَ يربوع! فيركب فيلقاكم

(١) سمي يوم العظالى لأنه تعاظل على الرياسة بسطام وهانىء بن قبيصة ومفروق بن عمرو في هذا اليوم.

(٢) جفاف: أرض لأسد وحنظلة واسعة فيها أماكن يكون فيها الطير.

(٣) قاظ القوم بالمكان: أقاموا به أيام الحر، وهو قائظ.

(٤) مليحة: موضع في بلاد بني تميم.

طعنٌ ينسيكم الغنيمة، ولا يبصر أحدُكم مصرعَ صاحبه، وقد جئتموني وأنا تابعكم، وقد أخبرتكم ما أنتم لاقون غدًا. فقالوا: نلتقط بني زبيد، ثم نلتقط بني عبيد وبني عتيبة كما نلتقط الكمأة[١]، ونبعثُ فارسين فيكونان بطريق أَسِيد، فيحولان بينه وبين بني يربوع، ففعلوا. فلما أحسّ بهم أسيد ركب الشقراء وخرج نحو بني يربوع، فأبتدره الفارسان فطعنه أحدهما فألقى نفسه في شقّ فأخطأه، ثم كرَّ راجعًا حتى أشرف مُلَيحَة، فنادى: يا صباحاه! يا آل يربوع، غشيتم، فتلاحقت الخيل حتى توافَوْا بالعظالى، فأقتتلوا، فكانت الدائرةُ على بكر، قُتِل منهم مغروقٌ بن عمرو، فدُفِن بثنيّة[٢] مغروق، وبه سُمِّيت، وغيره. وأما بسطام فألحّ عليه فارس من بني يربوع، وكان دارعًا[٣] على ذات النسوع[٤]، وكانت إذا أجدّت[٥] لم يتعلق بها شيء من خيلهم، ففاتت الطلب حتى أتى قومه.

يوم الغبيط
لبني يربوع على بكر

ويقال له يومُ الثعالِب. قال: غزا بسطامُ بنُ قيس، ومغروق بن عمرو، والحارثُ بنُ شريك ـ وهو الحوفزان ـ بلادَ بنِي تميم، وهذا اليوم قبل يوم العظالى، فأغاروا على بني ثعلبة بن يربوع، وثعلبة بن سعد بن ضبة، وثعلبة بن عديّ بن فَزَارة، وثعلبة بن سعد بن ذبيان، فلذلك قيل له يومُ الثعالب. وكان هؤلاء جميعًا متجاورين بصحراء فلج[٦] فأقتتلوا، فأنهزمتْ الثعالبُ، فأصابوا فيهم وأستاقوا إبلاً من نعمهم، ولم يشهد عتيبة بن الحارث بن شهاب هذه الوقعة لأنه كان نازلاً يومئذ في بني مالك بن حنظلة. قال: ثم أسروا على بني مالك، وهم بين صحراء فلج وبين الغبيط، فأكتسحوا إبلَهُم، فركبت عليهم بنو مالك، فيهم عتيبة بن الحارث بن شهاب، ومعه فارسان من فرسان بني يربوع، وتأثّف[٧] إليهم الأحيمرُ بنُ عبد الله، وأسيدُ بنُ

---

(١) الكمأة: جمع الكمء، وهو فطر من الفصيلة الكمئية، وهي أرضية تنتفخ حاملة أبواغها: فتجنى وتؤكل مطبوخة، ويختلف حجمها بحسب الأنواع.

(٢) الثنيّة: الطريق.

(٣) الدارع: الفارس الذي لبس الدرع.

(٤) ذات النسوع: فرس بسطام.

(٥) أجدت: سلكت الطريق الوعر، وهو الجدد.

(٦) صحراء فلج: واد لبني العنبر بن تميم، يقع أول الدهناء.

(٧) المراد بقوله تأثف: تتبعهم وتحوطهم مثل تأثف الأثافي الرماد.

حنَّاءة، وأبو مرحب، وجزء بن سعد الرياحيّ - وهو رئيس بني يربوع - وربيع، والحليس، وعمارة، بنو عتيبة بن الحارث، ومَعْدان وعصمة أبنا قعنب، ومالك بن نُوَيْرة، والمنهال بن عصمة أحد بني رياح بن يربوع، وهو الذي يقول فيه متمِّم بنُ نُوَيْرة في شعره الذي يرثي به أخاه مالكًا:

لقد كفَّن المنهالُ تحتَ رِدَائهِ فتى غَيرَ مِبْطَانِ العَشِيات أَرْوَعَا(١)

فأدركوهم بغبيط المَدَرة، فقاتلوهم حتى هزموهم، وأدركوا ما كانوا آستاقوا من أموالهم، وأسِر بسطامٌ، أَسره عتيبةُ، فلم يزل عنده حتى فادى نفسَه. قيل: إنه فدى نفسه بأربعمائة بعير وثلاثين فرسًا، ولم يكن غيره عُكَاظيّ أعلى فداءً منه، على أن جزَّ ناصيتَه وعاهده ألا يغزُو بَني شهاب أبدًا.

يومُ مُخَطَّط
لبني يربوع على بكر

قال أبو عبيدة: غزا بسطامُ بنُ قيس والحَوْفَزان الحارثُ متساندَيْن يقودان بكرَ بنَ وائل، حتى وردوا على بني يربوع بالفِرْدَوْس، وهو بطن لإياد، وبينه وبين مخطط ليلة، وقد نَذِرت بهم بنو يربوع فالْتقَوْا بالمُخَطَّط، فاقتتلوا، فانهزمت بكر، وهرب الحَوْفَزَان وبسطام ففاتا ركضًا، وقُتِل شَرِيك بن الحَوْفَزان، قتله شِهابُ بنُ الحارث أخو عتيبة، وأسر الأُحَيمر بن عبد الله بن الضريس الشَّيْبانيّ.

يوم جدود(٢)

غزا الحَوْفَزَان وهو الحارثُ بن شَرِيك فأغار على مَنْ بالقاعة من بني سعد بن زيد مناة، فأخذ نَعَمًا كثيرًا ونساء فيهنّ الزرقاء من بني ربيع بن الحارث، فأعجب بها وأُعجبت به، فلم يتمالك أن وقع بها، فلما انتهى إلى جدود منعهم بنو يربوع بن حنظلة أن يَرِدُوا الماء، ورئيسُهم عتيبةُ بنُ الحارث بن شهاب، فقاتلوهم، فلم يكن لبني بكر بهم يدٌ، فصالحوهم على أن يُعطوا بني يربوع بعض غنائمهم حتى يَرِدُوا

---

(١) المنهال: هو ابن عصمة الرياحي. غير مبطان العشيات: لا يعجل بالعشاء، ينتظر الضيفان. الأروع: الذي إذا رأيته راعك بجماله وحسنه.

(٢) الجدود: اسم موضع في بلاد بني تميم قريب من حزن بني يربوع على سمت اليمامة؛ فيه الماء الذي يقال له الكلاب.

الماء، فقبلوا ذلك منهم وأجازوهم، فلما أتى الصريخُ بني سعد، ركب قيسُ بنُ عاصم في أثر القوم حتى أدركَهم بالأشميَيْن[١]، فألحّ قيسُ على الحَوْفَزَان، وقد حمل الزرقاء خَلفه رديفًا على فرسه الزَّبِد، وعقد شعرَها على صدره، فأخذ قيس بن عاصم يدنو بحيث يكلّم الحوفزان، فقال له قيس: يا أبا حمّاد، أنا خيرٌ لك من الفلاة والعطش، قال له: ما يشاء الزبد. فلما رأى قيس أنّ فرسَه لا يلحقُه نادى الزرقاءَ فقال: ميلي به يا جعار[٢]، فجزَّ الحوفزان قرونَها بالسيف ودفعها بمرفقه وألقاها عن عجز فرسه فردّها قيسُ بن عاصم إلى بني ربيع.

يومُ سَفَوَان

قال أبو عبيدة: التقت بنو مازن وبنو شَيْبان على ماء يقال له سَفَوَان، فزعمت بنو شيبانَ أنه لهم، وأرادوا أن يُجلوا تميمًا عنه، فٱقتتلوا قتالاً شديدًا، فظهرت عليهم بنو تميم وشلوهم حتى بلغوا المحدث، وكانوا قبل ذلك يتوعّدون بني مازن، فقال في ذلك الودّاك المازنيّ: [من الطويل]

رُوَيْدًا بَني شَيْبانَ بعضَ وَعِيدِكمْ ... تُلاقُوا غدًا خَيْلِي عَلَى سَفَوَانِ
تُلاَقُوا جِيادًا لاَ تَحيدُ عن الوَغَى ... إذَا الخيْلُ جَالَتْ في القنَا المُتَدَانِي
عَليهَا الكُماةُ الغُرَّ من آلِ مَازنٍ ... لُيوثُ طِعانٍ كلَّ يوم طِعَانِ[٣]
تُلاقُوهُمْ فَتَعْرفُوا كيفَ صَبْرُهُمْ ... عَلَى ما جَنَتْ فيهم يَدُ الحَدَثَانِ
مَقَادِيمُ وصَّالُونَ في الروْع خَطْوَهُمُ ... بِكلّ رَقيقِ الشَّفْرَتَيْن يَمَانِ
إذا ٱستُنْجِدُوا لم يَسْألُوا مَن دَعَاهُمُ ... لأيَّةِ حَرْبٍ أمْ لأيِّ مَكَانِ

يوم نقا الحَسَن
وهو يوم الشَّقيقة[٤] لبني ضبّة على بني شَيْبان

فيه قتل بسطام. قال أبو عبيدة: غزا بسطام بن قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ـ وقيسُ بنُ مسعود هو ذو الجدَّين، وأخوه السليل بنُ قيس من بني ضبة بن أدّ بن طابخة ـ فأغار على ألف بعير لمالك بن المنتفق فيها فحلُها قد فقأ عينه، وكان

(١) الأشيمان؛ في بلاد بني سعد بالبحرين دون هجر.
(٢) اسم للضبع.
(٣) الكميّ: جمع الكماة، وقد تقدم تفسيرها.
(٤) الشقيقة: كل جمد بين جبلي رمل. والجمد: الغلظ والصلابة.

في الإبل مالك بن المنتفق، فركب فرسًا له ونجا ركضًا حتى إذا دنا من قومه نادى: يا صَبَاحَاه، فركبت بنو ضبّة، وتداعت بنو تميمْ، فتلاحقوا بالنقا، فقال عاصم بنُ خليفة لرجل من فرسان قومه: أيُّهم رئيسُ القوم؟ قال: حاميتُهم صاحب الفرس الأدهم - يعني بسطامًا - فعلا عاصمٌ عليه بالرمح فطعنه، فلم تخطىء صماخ[1] أُذُنِه حتى خرج الرمح من الناحية الأخرى وخرَّ. فلما رأى ذلك بنو شيبان خَلُّوا سبيل النَّعَم وولّوْا الأدبارَ، فمن قتيل وأسير، وأَسَر بنو ثعلبة نجادَ بن قيس أخا بسطام في سبعين من بني شيبان: وقال شَمْعلة بنُ الأخضر بن هُبيرة: [من الوافر]

ويومَ شقائِقِ الحَسَنَيْنِ لاَقتْ   بنُو شَيْبانَ آجالاً قِصَارَا
شَكَكْنَا بالرِّماحِ وهُنَّ زُورٌ   صِمَاخَيْ كَبْشِهِم حتى ٱسْتَدَارَا[2]

أيام بكر على تميم

يوم الزُّوَيْرين

قال أبو عبيدة: كانت بكر بن وائل تنتجع أرضَ بني تميم في الجاهلية ترعى بها إذا أجدبوا، فإذا أرادوا الرجوعَ لم يدعوا عودة يصيبونها ولا شيئًا يظفرون به إلا اكتسحوه، فقال بنو تميم: امنعوا هؤلاء القومَ من رَعْي أرضكم، فحشدت تميم، وحشدت بكر وٱجتمعت، فلم يتخلَّف عنهم إلا الحَوفَزَان بن شريك في أناس من بني ذُهل بن شيبان، وكان غازيًا، فقدّمت بكر عليهم عمرًا الأصمّ أبا مفروق - وهو عمرُو بنُ قيس بن مسعود بن عمرو بن أبي ربيعة بن ذُهل بن شيبانَ - فحسد سائرُ ربيعة الأصمَّ على الرياسة، فأتَوه فقالوا: يا أبا مفروق، إنّا قد زحفنا لتميم وزحفوا لنا أكثر ما كنّا وكانوا قط. قال: فما تريدون؟ قالوا: نريد أن نجعل كلّ حيّ على حياله، ونجعل عليهم رجلاً منهم، فنعرف غناء كل قبيلة، فإنه أشدّ لأجتهاد الناس. قال: والله إني لأبغض الخلاف عليكم، ولكن يأتي مفروق فينظر فيما قلتم. فلما جاء مفروق شاوره أبوه، فقال له مفروق: ليس هذا أرادوا، وإنما أرادوا أن يخدعوك عن رأيك وحسدوك على رياستك، والله لئن لقيتَ القوم فظفرت لا يزال لنا الفضلُ بذلك أبدًا، ولئن ظُفر بك لا تزال لنا رياسة نُعرف بها، فقال الأصمُّ: يا قوم، قد ٱستشرتُ مفروقًا فرأيتهُ مخالفًا لكم، ولستُ مخالفًا رأيَه وما أشار به. فأقبلت تميم بجملين مجلّلين مقرونين مقيّدين وقالوا: لا نولّي حتى يولي هذان الجملان، وهما الزُّوَيْران،

---

(١) الصماخ: قناة الأذن التي تفضي إلى طبلته.
(٢) المراد بقوله: رماح زور، أي مقوّمة.

فأخبرت بكر بقولهم الأصمّ فقال: وأنا زُوَيْركم إن خشُوهما[١] فخشوني، وإن عقروهما فٱعقروني، قال: وٱلتقى القوم فٱقتتلوا قتالاً شديدًا. فأسرت بنُو تميم حراثَ بن مالك أخا بني مرّة بن همام، فركض به رجلٌ منهم وقد أردفه، فٱتبعه ٱبنه قتادة بن حراث حتى لحق الفارس الذي أسر أباه، فطعنه فأرداه عن فرسه، واستنقذ أباه، ثم ٱنهزمت بنُو تميم. وقال رجلٌ من بني سدوس: [من البسيط]

يا سَلْمُ إنْ تسألي عنّا فلا كُشُفٌ ... عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَسْنَا بالْمَقارِيفِ[٢]
نحنُ الذين هَزَمْنا يَوْمَ صَبَّحْنَا ... جيشَ الزُّوَيْرين في جَمْعِ الأحالِيف
ظلُّوا وظلنا نَكِرُّ الخَيْلَ وَسْطَهُمُ ... بالشِّيبِ مِنّا وبالمُرْد الغطَارِيفِ[٣]

يوم الشَّيِّطَيْن[٤]
لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: لمّا ظهر الإسلامُ - قبل أن يسلم أهلُ نجد والعراق - سارت بكر بنُ وائل إلى السواد وقالت: نُغِير على بني تميم بالشَّيِّطَيْن، فإنّ في دِين ٱبن عبد المطلب أنه مَنْ قتل نفسًا قُتِل بها، فنُغِير هذه الغارة ثم نُسْلِم عليها.

فٱرتحلُوا من لَعْلَع بالذّراريّ والأموال، فأتوا الشَّيِّطَيْن في أربع، وبينهما مسيرةُ ثمانية أميال فسبقوا الخبر فصبَّحوهم وهم لا يَشعُرون، ورئيسهم يومئذ بِشْرُ بنُ مسعود بن قَيْس بن خالد ذي الجدّين، فقتلوا بني تميم قتلًا ذريعًا وأخذوا أموالهم. قال: قُتل من بني تميم يوم الشَّيِّطَيْن ولعَلْعَ ستمائة رجل، قال: فوفد وفدٌ من بني تميم إلى النبيّ ﷺ فقالوا: ٱدعُ الله على بكر بن وائل! فأبى ﷺ.

يومُ صَعفوق
لبكر على تميم

أغارت بنو ربيعة على بني سليط بن يربوع يومَ صَعفوق، فأصابوا منهم أسرى، فأتى طَريفُ بن تميم العنبريّ فروةَ بن مسعود، وهو يومئذ سيّدُ بني ربيعة، ففدى منهم أسرى بني سليط ورهَنَهم ٱبنَه، فأبطأ عليهم فقتلوا ٱبنه.

---

(١) خشّ فلانًا: طعنه.
(٢) المقاريف: واحدها المقرف، وهو النذل الخسيس.
(٣) الغطاريف: جمع الغطريف، وهو السيد الكريم.
(٤) الشيطان: واديان.

يومُ مُبَايِض
لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: كانت الفُرسان إذا كانت أيام عُكَاظ في الشهر الحرام، وأمِنَ بعضُهم بعضًا، تقنَّعوا كي لا يُعرفوا، فكان طَرِيف بن تميم لا يتقنَّع، فوافى عُكَاظ وقد كشفت بكر بن وائل، وكان طَريف قد قَتل شَرَاحِيل الشيبانيّ أحد بني عمرو بن ربيعة، فقال خميصة: أروني طَريفًا، فأروه إيّاه، فتأمّله ونظر إليه، ففَطن له طريف فقال: ما لك تنظر؟ فقال: أتَوَسَّمُك لأعرفك، فللّه عليّ إن لقيتُك أن أقتُلكَ أو تقتُلَني.

قال: فمضى لذلك ما شاء الله، ثم إن بني عائدة حُلَفاء بني ربيعة بن ذُهْل، خرج منهم رجلان يصيدان، فعرض لهما رجلٌ من بني شيبان، فذعر عليهما صيدَهما، فوثبا عليه فقتلاه، فثارت بنو مُرّة بن ذُهْل بن شيبان يريدون قَتلَهما، فأبت بنو ربيعة ذلك عليهم، فقال هانىء بن مسعود: يا بني ربيعة، إنّ إخوتكم قد أرادوا ظُلْمَكم فأنمازوا[1] عنهم، ففارقوهم، وساروا حتى نزلوا بمبايض: ـ ماء لهم ـ فأَبَقَ[2] عبدٌ لرجل من بني ربيعة، وسار إلى بلاد تميم، فأخبرهم أن حيًا جديدًا، أي منتقًى من قومه، من بكر بن وائل نُزُولٌ على مُبَايِض وهم بنو ربيعة، فقال طَريف العنبريّ: هؤلاء ثأري يا آل تميم، وأقبل معه أبو الجدعاء أخو بني طُهَيَّة، وجاءه فَدَكِيّ بن أَعْبَدَ المِنْقَرِيّ في جمع من بني سعد بن زَيْد مَنَاة، فأنذرت بهم بنو ربيعة؛ فأنحاز بهم هانىء بن مسعود، وهو رئيسُهم، إلى عَلَم مُبَايض، وأقام عليه وشرَّفوا بالأموال والسرح[3]، وصبَّحتهم تميم، فقال لهم طريف: أطيعوني وافرغوا من هؤلاء الأكلُب يَصْفُ لكم ما وراءهم، فقال لهم أبو الجدعاء ـ رئيس حنظلة ـ وَفَدَكِيّ ـ رئيس بني سعد بن زيد مناة ـ: أنقاتل أكلبًا أحرزُوا أنفسَهم ونترك أموالهم؟ ما هذا برأي! وأبَوْا عليه. وقال هانىء لأصحابه: لا يقاتل رجلٌ منكم، ولحقت تميم بالنَّعم والبغالِ فأغاروا عليها، فلمّا ملؤوا أيديَهم من الغنيمة قال هانىء بنُ مسعود لأصحابه: احملوا عليهم، فهزموهم. وقُتِل طَريف العنبريّ، قتله خميصة الشيبانيّ.

---

(١) انمازوا: انفصلوا. (٢) أبق: هرب.

(٣) السرح: المال الراعي.

يومُ فَيْحان

لبكرٍ على تميم

قال أبو عبيدة: لمّا فدى نفسَه بسطامُ بنُ قيس من عتيبة بنِ الحارث إذ أسره يومَ الغبيط بأربعمائة بعير فقال: لأدركنّ عقرَ إبلي، فأغار بفَيْحان، فأخذ الربيعَ بنَ عتيبة واستاقَ مالَه، فلمّا سار يومين شُغلوا عن الربيع بالشراب، فبال على قيده حتى لاَنَ؛ ثم خَلَعه وانحلَّ منه، ثم أجال في متن ذات النسوع ـ فرس بسطام ـ وهرب، فركبوا في أثره، فلمّا يَئسُوا منه ناداه بسطامُ: يا ربيعُ، هَلُمَّ طليقًا، فأبى، وأتوه في نادي قومه يحدّثهم، فجعل يقول في أثناء حديثه: إيهًا يا ربيع! انج يا ربيع! وأقبل ربيع حتى انتهى إلى أدنى بني يربوع فإذا هو براع فاستسقاه وضربت الفرس برأسها فماتت، فسُمِّي ذلك المكانُ هبير الفرس، فقال له أبوه عتيبة: أما إذ نجوتَ بنفسِك فإني مخلفٌ لك مالَكَ.

يومُ ذِي قار[1] الأوّل

لبكرٍ على تميم

قال: فخرج عتيبةُ في نحو من خمسة عشر فارسًا من بني يربوع، فكمن في جنبي ذي قار حتى مرَّت بهم إبلُ بني الحُصَين، وهي بالعدوانة: اسم ماء لهم، فصاحوا بمن فيها من الحامية والرعاة، ثمّ استاقوها، فأخلف للربيع ما ذهب له وقال: [من الوافر]

أَلَـم تَـرَنِـي أفـأْتُ عَـلـى رَبِـيـعٍ ... جِـلادًا فـي مَـبَـارِكِـهَـا وَخُـورَا[2]

وأنّـي قـد تـركـتُ بَـنـي حُـصَـيـنٍ ... بِـذي قـار يَـرُمُّـون الأُمُـورَا[3]

يَوْمُ الحاجز

لبكرٍ على تميم

قال أبو عبيدة: خرج وائلُ بنُ صُرَيم اليشكريّ من اليمامة، فلقيه بنو أُسَيْد بن عمرو بن تميم، فأسروه وجعلوا يغمسونه في الماء في الركيّة[4] ويقولون: [من الرجز]

* يـا أيّـهـا الـمـاتـحُ دَلْـوي دُونـكَـا *[5]

---

(١) ذو قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط، وصنو ذي قار: على ليلة منه وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بكر وائل والفرس.

(٢) الخور: سهلة المعطف لينة كثيرة الجري.

(٣) رمّ إلى الشيء: مال إليه. والمراد بالأمور: الصعاب.

(٤) الركيّة: البئر لم تطو.

(٥) متح الدلو: أي جذب رشاءها. ومتح الماء: نزعه واستخرجه.

حتى قتلوه، فغزاهم أخوه باعث بن صُرَيم يوم حاجز، فأخذ ثمامة بن باعث بن صُرَيم رجلاً من بني أُسَيد وجيهًا فيهم فقَتَله، وقَتَل على الظِّنة مائةً منهم.

يومُ الشقيق
لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: أغار أبجرُ بنُ جابر العِجْليّ على بني مالك بن حنظلة، فسبى سليمى بنت محصن، فولدت له أبجر، ففي ذلك يقول أبو النجم: [من الكامل]

ولقد كَرَرْتُ على طُهَيَّةَ كَرّةً   حتّى طَرَقْتُ نِسَاءَهَا بِمسَاءِ

ذكر حرب البسوس
وهي حرب بكر وتغلب ٱبني وائل

قال أبو المنذر هشامُ بنُ محمد بنِ السائب: لم تجتمع مَعَدّ كلُّها إلاّ على ثلاثة من رؤساء العرب، وهم: عامر بنُ الظَّرِب بن عمرو بن بكر بن يشكُر بن الحارث. وعامر هو قائد معدّ يوم البيداء حين تَمَذْحَجت مَذْحِج[1] وسارت إلى تهامة، وهي أوّل واقعة كانت بين تهامة واليمن.

والثاني: ربيعةُ بنُ الحارث بن مرّة بن زُهَير بن جُشَم بن بكر بن حبيب بن كلب وهو قائد معدّ يومَ السُّلاّن، وهو يوم كان بين أهل تهامة واليمن.

والثالث: كليبُ بنُ ربيعة، وهو الذي يقال فيه: أعزّ من كُلَيب وائل، وقاد معدًّا كلَّها يوم خَزَاز، ففضّ جُموعَ اليمن وهزمهم، وٱجتمعت عليه مَعَدّ كلُّها وجعلوا له قسْم الملك وتاجَه وتحيته وطاعته، فغَبَرَ[2] بذلك حينًا من الدهر، ثم دخلَه زَهوٌ شديدٌ وبَغَى على قومه حتى بلغ من بَغْيه أنه كان يحمي مواقعَ السحاب فلا يُرعَى حِمَاه ويقول: وَحْشُ أرض كذا في جواري فلا يُهاج، ولا تُورَدُ إبلُ أحد مع إبله، ولا تُوقَد نارٌ مع ناره.

وكانت بنو جُشَم وبنو شَيْبان في دار واحدة بتهامة، وكان كُلَيبٌ قد تزوّجَ جليلةَ ابنةَ مرّة بن ذُهْل بن شيبان أخت جسّاس بن مُرّة، وكانت لها ناقةٌ يقال لها: السرابُ،

---

(١) يقال: أذحجت المرأة على ولدها: أقامت. ومذحج: مالك وطيّىء، سمّيا بذلك لأن أمهما لما هلك بعلها أذحجت على ابنيها طيّىء ومالك هذين، فلم تتزوج بعد أدد.

(٢) غبر: مكث وبقي.

وبها يُضرب المثلُ في التشاؤم، فيقال: «أشأمُ من السراب» و«أشأم من البسوس» وهي معقولة بفناء بيتها في جوار جسّاس بن مُرّة، فمرّت بها إبلٌ لكليب، فلما رأت السرابُ الإبلَ تازعت عِقالَها حتى قطعته، وتبعت الإبلَ وٱختلطت بها حتى ٱنتهت إلى كُلَيب، وهو على الحوض، ومعه قوسٌ وكنانةٌ[١]، فلمّا رآها أنكرها، فٱنتزعها بسهم فخرم ضَرْعَها، فنفرت وهي تَرغُو، فلما رأتها البَسُوس قَذَفَتْ خمارها عن رأسها وصاحت: واذُلّاه! واجاراه.

ذكر مقتل كليب وائل

قال: فأجمشت[٢] جسّاسًا، فركب فرسًا له مغرورًا به، وتبعه عمرُو بنُ الحارث بنِ ذُهل بن شيبان على فرسه، ومعه رمحُه، حتى دخلا على كليب الحِمَى، فطعنه جسّاس فقصم[٣] صُلْبَه، وطعنه عمرو بن الحارث من خلفه فقطع قَطَنَه[٤]، فوقع كُلَيب وهو يفحص برجله وقال لجسّاس: أغثْني بشَرْبةٍ من ماء، فقال له: تجاوزتَ شُبَيثًا[٥] والأَحَصّ[٦]، ففي ذلك يقول عمرُو بنُ الأهتم: [من الطويل]

وإنَّ كُلَيبًا كان يَظْلِمُ قَوْمَه ... فَأدركَهُ مِثْلُ الذي تَرَيَانِ
فلمّا حَشَاهُ الرمْحَ كفُّ ٱبن عَمِّه ... تَذَكّر ظُلْمَ الأهل أيَّ أوانِ
وَقالَ لجسّاسٍ أغِثْنِي بشَرْبَةٍ ... وإلاّ فَخَبِّرْ مَنْ رَأَيْتَ مكَانِي
فقال تجاوَزتَ الأحَصَّ وماءَه ... وَبَطْنَ شُبَيثٍ وهُوَ غَيْرُ دِفانِ

وقال نابغةُ بني جعد: [من الكامل]

أبلغْ عقَالاً أنَّ خُطَّةَ دَاحسٍ ... بكَفَّيْك فٱسْتَأْخِرْ لها أو تَقَدَّمِ
كُلَيْبٌ لَعَمْري كانَ أكثرَ ناصرًا ... وأيْسَرَ ذَنْبًا مِنك ضُرِّج بالدَّمِ
رَمَى ضَرْعَ نَابٍ فٱسْتَمرّ بِطَعْنَةٍ ... كحاشِيَةِ البُرْد اليَمَاني المُسَهَّمِ
وقال لجسّاسٍ أغِثْني بشَرْبةٍ ... تَدَارَكْ بها مَنًّا عليَّ وأنْعِمِ
فقال تجاوَزْتَ الأحَصَّ ومَاءَه ... وَبَطْنَ شُبَيْثٍ وهُو ذُو مُتَوسَّمِ

---

(١) الكنانة: جعبة صغيرة من أدم للنبل.
(٢) قوله: (فأجمست أي البسوس جسّاسًا) صوابه فأحمشت بالحاء المهملة لا الجيم ومعناه هيجت وأغضبت، وحمش غضب.
(٣) قصم: قطع.
(٤) القطن من الأنسات: أسفل ظهره.
(٥) شبيث: ماء معروف لبني تغلب.
(٦) الأحص: واد لبني تغلب.

قال: فلما قُتِل كُلَيْبٌ أرتحلت بنُو شيبانَ حتى نزَلوا بماء يقال له النِّهْي، وتشمَّر[١] المهلهلُ أخو كليب ـ وأسمه عَدِيُّ بنُ ربيعة، وإنما قيل له المهلهل لأنه أوّل من هَلْهَل الشعر، أي أرقَّه ـ فأستعدّ المهلهلُ لحرب بكر، وترك النساءَ والغزل، وحرَّم القمارَ والشرابَ، وجمع إليه قومَه، فأرسل رجالاً منهم إلى بني شيبان يعذر إليهم فيما وقع من الأمر، فأتوا مرّةَ بنَ ذهل بنِ شيبان وهو في نادي قومه، فقالوا له: إنكم أتيتم عظيمًا بقتلكم كُلَيبًا بنابٍ من الإبل، فقطعتم الرَّحِم، وأنتهكتم الحُرْمَة، وإنَّا كرهنا العَجَلة عَليكم دون الإعذارِ إليكم، ونحن نَعرِض عليكم خِلالاً أربعًا، لكم فيها مخرجٌ ولنا مقنعٌ، قال مرّةُ: ما هي؟ قالوا: تُحيي لنا كُلَيبًا أو تدفع لنا جسّاسًا قاتله فنقتله به، أو همّامًا فإنه كفءٌ له، أو تمكِّننا من نفسك فإنّ فيك وفاءً من دمه، فقال: أمّا إحيائي كُلَيبًا فهذا ما لا يكون. وأمّا جسّاسٌ فإنه غلام طعن طعنةً على عَجَل ثم ركب فرسه فلا أدري أيّ البلاد أحتوت عليه. وأمّا همّام فإنه أبو عَشَرة وأخو عَشَرة وعمّ عَشَرة، كلّهم فرسانُ قومهم فلن يُسلِّموه لي فأدفَعَه إليكم يُقتَل بجريرة غيره. وأمّا أنا فما هو إلاّ أن تجولَ الخيلُ جَوْلةً غدًا فأكونَ أوّل قتيلٍ بينهما، فما أتعجّلُ من الموت، ولكن لكم عندي خصلتان: أما إحداهما فهؤلاء بَنِيّ الباقون فعلِّقوا في عُنُق أيِّهم شئتم نسعةً[٢] فأنطلقوا به إلى رحالكم فأذبحوه ذبح الجزور[٣] وإلاّ فألفُ ناقةٍ سوداء المُقَل أقيم لكم بها كفيلاً من بكر بن وائل، فغضب القوم وقالوا: لقد أسأتَ، تبذُل لنا صغار ولدك وتَسُومنا اللبن من دم كليب.

ووقعت الحرب بينهم، ولحقتْ جليلةُ زوجة كُلَيب بأبيها وقومها، وأعتزلت قبائل بكر بن وائل، وكرِهوا مُجامعةَ بني شيبان ومساعدتهم على قتال إخوتهم، وأعظموا قتل جسّاس كُلَيبًا بنابٍ من الإبل، فظعنت[٤] لُجَيم عنهم، وكفّت يشكُر عن نصرتهم، وأنقبض الحارث بنُ عُبَاد في أهل بيته، وهو أبو بُجَير وفارس النعامة. وقال المهلهلُ يرثي كليبًا من أبيات: [من الخفيف]

باتَ لَيْلي بالأنْعَمَيْن طَويلاَ ... أرقُبُ النَّجم ساهرًا أنْ يزولا[٥]
كيفَ أهدَا ولا يزالُ قتيلٌ ... مِنْ بَني وائل يُنَسِّي قَتيلاَ

في قصيدة طويلة.

---

(١) تشمّر: خفّ ونهض.

(٢) النسعة: القطعة من النسع، وهو سير عريض طويل تشد به الحقائق أو الرحال أو نحوها.

(٣) الجزور: ما يصلح لأن يذبح من الإبل. (ولفظه مؤنث).

(٤) ظعنت عنهم: ارتحلت.

(٥) الأنعمان: موضع بناحية نعمان، وهو واد التنعيم.

وقال أيضًا يرثيه من أخرى: [من البسيط]

نَعَى النّعاةُ كُلَيبًا لِي فقلتُ لَهُمْ ... مَالَتْ بنَا الأرضُ أو زَالَتْ رَوَاسِيهَا

القائدُ الخَيْلَ تَرْدى في أعنَّتِها ... زَهْوًا إذا الخيلُ لَجَّتْ في تعادِيها[1]

مِنْ خَيْل تغلبَ ما تُلْقَى أسِنّتها ... إلاّ وقَدْ خَضَّبُوها من أعاديها

يُهَزْهِزُون من الخطِّيِّ مُدْمجَةً ... كُمْتًا أنابيبُهَا زُرْقًا عَوَاليها[2]

تُرَى الرِّمَاحَ بأيْدينا فنُوردُها ... بيضًا ونُصْدرُها حُمْرًا أعَالِيها[3]

لا أصْلَحَ اللّهُ يَوْمًا مَنْ يُصَالِحكُمْ ... ما لاحَتِ الشّمْسُ في أعْلَى مَجارِيها

يومُ النِّهْي[4]

فالتقَوْا بماء يقال له: النِّهْي، كانت بنو شيبان نازلةً عليه، ورئيسُ تغلب المهلهلُ، ورئيسُ شَيْبان الحارثُ بنُ مُرَّةَ، فكانت الدائرةُ لبني تغلب، ولم يُقتل في ذلك اليوم أحدٌ من بني مرّة.

يومُ الذنائب

ثم ٱلتقَوا بالذنائب، وهي أعظم وقعة كانت لَهم، فظفرت بنو تغلب وقُتل من بكر مقتلة عظيمة، وفيه قُتل شَراحيل بن مرة بن همّام بن مرّة بن شيبان، وهو جدّ الحَوْفَزان، قتله عتّاب بن سعد بن زهير بن جشم، وقُتل من بني ذُهْل بن ثعلبة عمرُو بنُ سدوس بن شيبان، وقُتل من بني قيس بن ثعلبة سعدُ بنُ ضبيعة بن قيس وتيم بن قيس بن ثعلبة، وهو أحد الحرقيّين[5]، وكان شيخًا كبيرًا، فحمل في هَوْدج، فلحقه عمرو بن مالك بن الفدوكس بن جشم فقتله.

يومُ واردات

ثم ٱلتقَوْا يوم واردات وعليهم رُؤساؤُهم الذين تقدّم ذكرُهم، فظفرت بنو تغلب، وٱستحرّ[6] القتلُ في بني بكر، فيومئذ قُتِلَ الشعثمان: شعثم وعبدُ شمس ٱبنا معاوية بن عامر بن ذُهْل بن ثعلبة وسيّار بن الحارث بن سيّار، وفيه قتل همّام بنُ مرّة أخو جسّاس لأبويه، فمرّ به مهلهل مقتولاً فقال: والله ما قُتِل بعد كُليبٍ قتيلٌ أعزّ عليّ فقدًا منك يومَ عُنَيزة.

---

(١) يقال: ردى الفرس: إذا رجم الأرض بحوافره في سيره وعدوه.
(٢) الكُمن: التستر والتخفي. (٣) أصدر الشيء: صرفه.
(٤) النُّهي: الغدير، أو الموضع الذي له حاجز ينهي الماء أن يفيض منه.
(٥) الحارقة: عصبة متصلة بالورك. (٦) استحرّ: اشتدّ.

يوم عُنَيزة

ثم ٱلتقَوْا بعُنَيزة، فظفرت بنو تغلب، ثم كانت بينهم معاودة ووقائع كثيرة كل ذلك كانت الدائرة فيها لبني تغلب على بني بكرٍ، فمنها يوم الحِنْو، ويوم عويرضات، ويوم أنين، ويوم ضرية، ويوم القُمصيبات، كلها لتغلب على بكر، أصيبت فيها بكر حتى ظنوا أن لن يستقبلوا أمرهم.

وقال المهلهل يصف هذه الأيام وينعاها على بكر في قصيدة طويلة أوّلها: [من الوافر]

أَلَـيْـلَـتَـنَـا بِـذي حُـسُـمٍ أَنِـيـرِي ... إذَا أنْتِ ٱنْقَضَيْتِ فَلاَ تَحُوري[1]

فَـإنْ يَـكُ بـالـذنـائـب طـالَ لَـيْـلِـي ... فَقَدْ أبكِي مِنَ اللَّيْلِ القَصِيرِ[2]

فَـلَـوْ نُـبِش الـمـقَـابرُ عـن كُـلَـيـب ... لأُخْـبِـرَ بـالـذنـائـب أيّ زِيـر[3]

وإنّـي قَـدْ تـركـت بـوَارِدَاتٍ ... بُجَيْرًا في دَمٍ مِثْلِ العَبِيرِ[4]

هَـتـكـتُ بِـهِ بـيـوتَ بَـنـي عُـبَـادٍ ... وبَعْضُ القَتْلِ أشفَى للصدُورِ

عَـلَـى أنْ لَـيْـسَ عَـدْلاً مِنْ كُـلَـيـب ... إذَا بَـرزَتْ مـخـبَّـأَةُ الـخُـدورِ

وقال المهلهل أيضًا وقد أسرف في الدماء: [من البسيط]

أكثرتُ قَتْلَ بني بكرٍ بربِّهِمُ ... حتَّى بكيْتُ وما يَبْكي لَهم أحدُ

آلَيتُ بالله لا أرضَى بقَتْلهمُ ... حتّى أُبهْرِجَ بكرًا أينما وُجِدُوا

أُبهرِجُ: أي أدعهم بهرجًا، لا يُقْتَل بهم قتيلٌ، ولا تُؤخَذُ بهِم ديةٌ.

وقال أيضًا: [من الكامل]

قَتَلُوا كُلَيْبًا ثمّ قالُوا أربِعُوا ... كَذَبُوا وربِّ الحِلِّ والإِحْرَام

حتى تَبِيدَ قَبِيلةٌ وقَبِيلةٌ ... ويَعَضّ كُلُّ مُثَقَّف بالهام[5]

ويُقمْنَ ربّاتُ الخدُور حَوَاسِرًا ... يَمْسَحْنَ عَرْضَ ذَوائِبِ الأيتامِ

حتى يَعَضّ الشيخُ بعدَ حَمِيمِهِ ... مِمّا يَرى نَدَمًا على الإبهامِ

(١) تحوري: ترجعي. وذو حسم: اسم موضع.

(٢) الذنائب: ثلاث هضبات بنجد.

(٣) الزير: الذي يكثر زيارة النساء ويحب محادثتهن ومجالستهن.

(٤) الواردات: مكان عن يسار مكة. والمراد بالعبير: الزعفران.

(٥) نبيد: نهلك. والرمح المثقف: المقوّم.

يومُ قِضَة

قال: ثم إنّ المهلهل أسرف في القتل ولم يُبَالِ بأيّ قبيلة من قبائل بكر وقع، وكانت أكثر بكر قَعَدت عن نصرة بني شَيْبان لقتلهم كُلَيبًا، وكان الحارث بنُ عُبَاد قد اعتزل تلك الحروبَ، حتى قُتِلَ ابْنُه بُجَيرُ بن الحارث بن عُبَاد، فلمّا بلغه قتله قال: نعم القتيلُ قتيلٌ أصلح بين ابنَيْ وائل، وظنّ أنّ المهلهل قد أدرك به ثأر كُلَيب وجعله كفؤًا له، فقيل له: إنما قتله بشِسْع[1] نَعْل كُلَيب. وكان المهلهل قال لمّا قَتَل بُجَير بن الحارث: بُؤْ بشسْع نَعْلِ كُلَيب، فلمّا سمع الحارث ذلك غضب، وكان له فرس يقال له النعامة، فركبها وتولّى قتال تغلب بنفسه، فكانت الدائرة فيه على تغلب، فتفرّقت قبائل تغلب وهرب المهلهلُ. وقال الحارث بن عُبَاد: [من الخفيف]

قـرِّبـا مـربَـطَ الـنـعـامَـةِ مِـنِّـي ... لَـقِـحَـتْ حَـرْبُ وَائِـلٍ عـنْ حِـيَـالِ
قَـرِّبَـا مَـرْبِـطَ الـنـعـامَـةِ مـنِّـي ... شـابَ رَأسـي وأنـكـرتْـنـي رِجَـالـي
لـم أكـنْ مـن جُـنـاتـهـا عَـلِـم الـلّـ ... ـهُ وإنِّـي بِـحَـرِّهـا الـيـومَ صَـالـي

في قصيدة طويلة نحو المائة بيت كرّر فيها:

* قـرِّبـا مـربـط الـنـعـامـة مـنّـي *

في خمسين بيتًا.

وكان أوّل يوم شهده الحارثُ يومَ قِضَة، وهو يومَ تَحْلاق اللمم، وفيه يقول طَرَفة: [من الرمل]

سَـائِـلُـوا عـنَّـا الَّـذي يَـعْـرِفُـنَـا ... بـقُـوَانـا يـومَ تَـحْـلاَقِ الـلِّـمَـمْ
يـوم تُـبـدِي الـبِـيـضُ عـنْ أَسْـوُقِـهَـا ... وَتَـلُـفُّ الـخـيـلُ أعـراجَ الـنَّـعَـمْ[2]

يوم تَحْلاَقِ اللِّمَم

ويوم تَحْلاَق اللِّمم، إنما سُمِّي بذلك لأن الحارثَ بن عُبَاد لمّا تولّى الحربَ قال لقومه: احْمِلوا معكم نساءكم يكُنّ من ورائكم، فإذا وَجَدْنَ جريحًا منهم قتلوه، وإذا وجَدْنَ جريحًا نّا سَقَيْنَه وأطْعَمْنَه، فقالوا: ومن أين يتميّز لهنّ؟ فقال: احلقوا رؤوسكم

(١) الشسع: سير يمسك النعل بأصابع القدم.

(٢) الأسوُق: السيقان؛ والمراد يوم تكشف النساء البيض عن سيقانها من الفزع. تلفّ: تجمع. والنعم: الإبل. والأعراج: جمع عرج، وهو القطيع من الإبل.

لتمتازوا بذلك، ففعلوا، فسُمّي به، فقال جَحْدَر بن ضُبَيْعة ـ وكان من شجعانهم ـ: اتركوا لِمَّتِي وأقتل لكم أوّل فارس يقدمهم، فتركوه، وهو الذي قتل عمرًا وعامرًا التغلبيّان، طعن أحدهما بسنان رمحه، والآخر بزجّه[1]، ثم صرع بعد ذلك، فلمّا رأته نساء بكر دون حَلق ظنّوه من تغلب فأجهزوا عليه.

وفي هذا اليوم أَسَر الحارثُ بنُ عُبَاد المهلهلَ عَدِيَّ بنَ ربيعة وهو لا يعرفه فقال له: دُلّني على عَدِيّ وأُخْلِي عنك، فقال له عَدِيّ: عليك العهدُ بذلك إن دللتك عليه، قال نعم، قال فأنا عَدِيٌّ، فجزّ ناصيتَه وتركه وقال فيه:

لَهْفَ نَفْسِي عَلى عدِيّ ولـم أعـ ... رِفْ عَدِيًّا إذ أَمْكَنَتْنِي اليَدَانِ

وكان الحارث آلى ألاّ يصالحَ تغلبًا حتى تكلّمه الأرض، فلمّا كثُرت وقائعه في تغلِب ورأت تغلب أنها ما تقوم له حفروا سربًا تحت الأرض وأدخلوا فيه رجلاً وقالوا له: إذا مرَّ بك الحارثُ فغنّ بهذا البيت: [من الطويل]

أَبَا مُنْذرٍ أفْنَيْتَ فَاْسْتَبْقِ بعضَنا ... حَنَانَيْك بعضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ منْ بعض

فلما مرَّ الحارثُ اْندفع الرجلُ وغنّى بالبيت، فقيل للحارث قد برّ بقسمك فأبقِ بقيّة قومك، فأمسك، فاْصطلحت بكر وتغلب.

ثم إنّ المهلهلَ فرّ بنفسه فنزل بمَذْحِج في بني جَنْب، فخطبوا إليه لابنته، وقيل أخته، فمنعهم، فأجبروه على تزويجها وساقوا إليه جُلودًا من أَدَم، فقال في ذلك: [من المنسرح]

أَعْززْ على تَغْلِب بما لَقِيَتْ ... أختُ بَنِي الأكْرمِينَ مِنْ جُشَم
أنكحها فَقْدُها الأراقِمَ في ... جَنْب وكانَ الحِبَاءُ من أَدَمِ[2]
لَوْ بأبانَيْن جاء يخطُبُها ... ضُرِّجَ ما أنفُ خاطبٍ بِدَمِ[3]
لَيسُوا بأكْفائِنا الكرام ولاَ ... يُغنُون في ذلّةٍ ولاَ عَدَمِ

ثم اْشترى المهلهل عبدَيْن يغزوان معه، فغزا بهما حتى طال علَيهما ذلك، فاْختارا الراحةَ منه، فأجمعا على قتله بموضع قفرٍ، فلمّا شعر بما همّا به ولم ير لنفسه ملجأ قال لهما: أبلغا عنّي هذه المراسلة، فقالا هات، فقال: [من الكامل]

مَنْ مبلغٌ عنّي بأنَّ مهَلْهِلاً ... لله درّكُمَا ودرّ أبيكُمَا

---

(١) زجّ الرمح: حديدة في أسفله.
(٢) جنب: حيّ من مذحج. الأراقم حيّ من تغلب. والأدم: الجلد.
(٣) أبانين: جبلان، يقال لأحدهما: أبان الأبيض، وللآخر: أبان الأسود.

فلمّا قتلاه وأنصرفا نحو بيته فقالا: ماتَ بأرض كذا وذكرا وصيّته، فلم يدر أحد ما أراد، فقالت أبنته: والله ما كان أبي رديَّ الشعر، ولا سَفْسَاف الكلام، وإنما أراد أن يخبركم أنّ العبديْن قتلاه، وإنما معنى البيت: [من الكامل]

مَنْ مُبْلِغٍ عنّي بأنّ مُهَلْهِلاً ... أضحَى قتيلاً بالفَلاَ مُجَدَّلاَ

لله درّكما ودرُّ أبيكُما ... لا يبرح العبدان حتّى يُقتَلاَ

فقتل العبدان بعد أن أقرّا بذلك. وقيل: إنه أصبح قتيلاً بين رجلي جمل هاج. والله تعالى أعلم بالصواب.

الكلابُ الأوّل

قال أبو عبيدةَ: لمّا تسافهت بكر بنُ وائل وغلبها سفهاؤُها، وتقاطعت أرحامُها؛ ارتأى رؤساؤهم فقالوا: إنّ سفهاءنا قد غلبوا على أمرنا، فأكل القويُّ الضعيفَ، فنرى أن نملّكَ علينا مَلِكًا نُعطيه الشاةَ والبعيرَ، فيأخذ للضعيف من القويّ، ويردّ على المظلوم من الظالم، ولا يمكن أن يكونَ من بعض قبائلنا فيأباه الآخرون، فيفسد ذات بيْننا، ولكنّنا نأتي تُبّعًا فنملّكه علينا، فأتَوْه فذكروا له أمرهم فمَلَّك عليهم الحارثَ بن عمرو آكلَ المرار الكِنْديّ، فقدم فنزل بطنَ عاقِلٍ[1].

ثم غزا ببكر بن وائل حتى أنتزع عامّة ما في أيدي ملوك الحِيرة اللخميِّين، وملوك الشام الغسانيّين، وردّهم إلى أقاصي أعمالهم، ثم طُعِن في نِيطة[2] فمات فدُفن ببطن عاقِل. وأختلف أبناه شُرَحبيل وسلَمَة في المُلْك، فتواعدا الكُلاب[3]، فأقبل شُرَحبيل في ضبّة والرِّباب كلّها، وبني يربوع، وبكر بن وائل. وأقبل سَلَمة في تَغْلِب والنَّمِر وبَهْراء ومَن تبعه من بني مالك بن حنظلة، وعليهم سُفيان بنُ مُجاشع، وعلى تغلب السفّاحُ، وإنما قيل له السفّاحُ لأنه سفح أوعية قومه وقال لهم: اندروا إلى ماء الكُلاَب، فسبقوا ونزلوا عليه، وإنما خرجت بكر مع شُرحبيل لعداوتها لبني تغلب،

---

(١) عاقل: واد بنجد، وقيل: اسم جبل.

(٢) قوله: (ثم طعن في نيطةٍ فمات) صوابه (في نَيْطه) بفتح النون وضمير الغائب والنَّيْط قيل هو نياط القلب وهو علاقته. وإذا وقع طعن الرمح فيه مات صاحبه. ولذا قال هنا معقّبًا (فمات) والأكثرون على أن قول العرب (طعن (مبنيًا للمعلوم أو المجهول) في نَيْطه) تعبير يراد به الموت. واختلفوا في أصله. وفي العقد (ثم طُعن في نيطه أي مات) فقوله أي مات تفسير لا تفريع وهو يؤيد ما قلنا ومنه قول سيدنا علي (لَوَدَّ معاوية أنه ما بقي من بني هاشم نافخ ضرمة إلا طعن في نَيْطِهِ).

(٣) الكلاب: ماء بين الكوفة والبصرة. وقيل: ما بين جبلة وشمام على سبع ليالٍ من اليمامة.

فٱلتقَوا على الكُلاَب، وٱستحرَّ القتل في بني يربوع، وشدّ أبو حَنَش على شُرَحْبيل فقتله، وكان شُرَحبيل قد قتل ٱبنَه حَنَشًا، فأراد أبو حنش أن يأتيَ برأسه إلى سلمة، فخافه فبعثه مع عسيف[١] له، فلما رآه سَلَمة دمعت عيناه وقال له: أنت قتلته؟ قال لا، ولكن قتله أبُو حَنَش، فقال: إنما أدفع الثواب إلى قاتله، فهرب أبو حَنش منه، فقال سلمة في ذلك: [من الوافر]

ألا أبــلــغْ أبَــا حَــنَــشٍ رَسُــولاً ... فـمـا لـك لا تـجـيءُ إلـى الـثـوابِ

تَــعــلَّــم أنّ خــيــرَ الــنــاسِ طــرًّا ... قَـتِـيـلٌ بـيْـنَ أحـجـار الـكُـلاَب

يومُ الصَّفْقة[٢]
وهو يومُ الكُلاب الثاني

قال أبو عبيدة: كان يومُ الكُلاب متّصلاً بيوم الصَّفقة. وكان من حديث الصفقة أنّ كسرى كان قد أوقع ببني تميم، فأخذ الأموال وسبى الذراريّ بمدينة هَجَر[٣]، وذلك أنهم أغاروا على لطيمةٍ[٤] له فيها مسك وعنبر وجوهر كثير، فسمِّيت تلك الوقعة يوم الصَّفْقة، ثم إنّ بني تميم أداروا أمرهم، وقال ذو الحجى منهم: إنكم قد أغضبتم الملك، وقد أوقع بكم حتى وهنتم، وتسامعت بما لقيتم القبائل، ولا تأمنون ذؤبان العرب.

فجمعوا سبعةً من رؤسائهم وشاوروهم في أمرهم، وهم: أكثم بنُ صيفيّ الأسديّ، والأُحَيْمِر بنُ يزيد بن مرّة المازنيّ، وقيسُ بنُ عاصم المِنْقَرِيّ، وأُبير بن عصمة التيميّ، والنعمان بن جسّاس التيميّ، وأُبين بن عمرو السعديّ، والزبرقان بن بدر السعديّ فقالوا لهم: ماذا تَرَوْن؟ فقال أكثم بن صيفيّ، وكان يكنى أبا حنش: إنّ الناس قد بلغهم ما لقينا، ونخاف أن يطمعوا فينا وإني قد نيّفت على التسعين، وقد نحل قلبي كما نحل جسمي، وأخاف ألاّ يدرك ذهني الرأيَ لكم، فليعرض عليَّ كلُّ رجل منكم رأيَه وما يُحضره فإني متى أسمع الحزمَ أعرفه، فقال كلٌّ منهم ما عنده، وأكثم ساكتٌ لا يتكلّم، حتى قام النعمانُ بن الجسّاس فقال: يا قومُ، أنظروا ماءً يجمعكم ولا يعلم الناس بأيّ ماء أنتم حتى تنفرجَ الحلقةُ عنكم، وقد صَلُحَت أحوالكم، وٱنجبرَ كَسِيرُكم، وقَويَ ضعيفُكم، ولا أعلم ماءً يجمعكم إلاّ قِدّة، فقال أكثم: هذا هو الرأي، فٱرتَحلوا

---

(١) العسيف: المستهان به.

(٢) سمّي الصفقة، لأن كسرى أنو شروان أصفق الباب على بني تميم في حصن المشقر، وهو حصن بالبحرين.

(٣) هجر: اسم الأرض بالبحرين.

(٤) اللطيمة: وعاء المسك.

حتى نزلوا الكُلابَ، وبين أدناه وأقصاه مسيرة يوم، وأعلاه مما يلي اليمن، وأسفله مما يلي العراق. فنزلت سعد والرِّباب بأعلى الوادي، ونزلت حنظلة بأسفله.

قال: وكانوا لا يخافون أن يَغزوا في القَيْظ، لبُعْد تلك الصحاري وشدّة الحرّ بها وقلة المياه، فأقاموا بقيّة القيظ لا يعلم أحدٌ بمكانهم، حتى إذا تهوّر[١] القيظ بعث الله ذا العُيَيْنَتَيْن، وهو من أهل مدينة هَجَر، فمرّ بقِدّة وصحاريها، فرأى ما بها من النَّعم، فأنطلق حتى أتى أهلَ هَجَر فقال: هل لكم في جارية عَذرَاء، ومُهْرة شَوْهَاء[٢]، وبَكْرة حمراء، ليس دونها نكبة؟ قالوا: ومن لنا بذلك؟ قال: تلكم تميم ألْقاءً[٣] مطروحون بقِدّة. فمشى بعضهُم إلى بعض وقالوا: أغْتنِموها من بني تميم. فأخرجوا معهم أربعةَ أملاكٍ يقال لهم اليزيديون: يزيد بنُ هَوْبَر، ويزيد بن عبد المَدَان، ويزيد بن المأموم، ويزيد بن المخرِّم، وهم كلّهم حارثيُّون ومعهم عبد يغُوث الحارثيّ، وكان كلُّ واحد منهم على ألفَيْن، فمضَوْا حتى إذا كانوا ببلاد باهلة قال جرير بن جزء الباهليّ لأبنه: يا بنيّ، هل لك في أكرومة لا يُصاب أبدًا مثلُها؟ قال: وما ذلك؟ قال: هذا الحيُّ من تميم قد لجأوا هاهنا مخافة كسرى، وقد قصصت أثر الجيش يريدونهم، فأركبْ جملي الأرْحَبيّ، وسِرْ سيرًا رُوَيدًا عقبةً[٤] من الليل، ثم حلّ عنه حبليه وأنْخِهُ وتوسَّدْ ذراعه، فإذا سمعتَه قد أفاض بجرَّتِهِ وبال فاستنقعت ثِفناته[٥] في بَوْله، فشدَّ حبليه ثم ضع السَّوْطَ عليه، فإنك لا تسأل جملك شيئًا من السير إلا أعطاكه حتى تصبِّحَ القوم. ففعل ما أمره به.

قال الباهليُّ: فحللتُ بالكُلاب قبل الجيش فناديت: يا صباحاه! فإنهم لَيَثِبون إليَّ ليسألوني مَن أنت؟ إذ أقبل رجلٌ منهم من بني شقيق على مُهر قد كان في النَّعم فنادى: يا صباحاه، قد أُتي على النَّعم، ثم كرّ راجعًا نحو الجيش، فلقيه عبد يغوث الحارثيّ وهو أوّل الرعيل، فطعنه في رأس مَعِدته فسبق اللّبنُ الدم، فقال عبدُ يغوث: أطيعوني وأمضوا بالنَّعم وخلُّوا العجائز من تميم ساقطة أفواهُها، فقالوا: أما دون أن تُنْكَح بناتُهم فلا.

وقال ضَمْرة بن لبيد الحماسيّ ثم المذحجيّ الكاهن: أنظروا إذا سُقْتُم النَّعَم فإن أتتكم الخيل عُصَبًا عُصَبًا تنتظر العصبة أن تنتظم الأخرى حتى تلتحقَ بها فإن أَمْرَ القوم هيّنٌ، وإن لحق بكم القومُ ولم ينتظر بعضُهم بعضًا حتى يردّوا وجوهَ النَّعَم فإن أمرهم شديدٌ.

---

(١) تهوّر القيظ: ذهب. (٢) الشوهاء من الخيل: الطويلة الرائعة.
(٣) القاء: جمع لقى، وهو ما طرح على الأرض.
(٤) عقبة من الليل: أي ساعة. (٥) الثفنة: الكربة؛ جمع ثفنات.

وتقدّمت سعد والرِّبابُ في أوائل الخيل وٱلتقَوْا بالقوم فلم يلتفتوا إليهم، وٱستقبلوا النَّعم ولم ينتظر بعضُهم بعضًا. ورئيسُ الرباب النعمانُ بن الجسّاس، ورئيسُ بني سعد قيسُ بنُ عاصم، فٱلتقى القومُ، فكانَ النعمانُ أوّلَ صريع، وٱقتتل الفريقان حتى حجز بينهم الليلُ، ثم أصبحوا على راياتهم، فنادى قيسُ بنُ عاصم: يا آل سعد! يريد سعدَ بن زيد، ونادى عبدُ يغوث: يا آل سعد! يريد سعد العشيرة، فلما سمع قيس ذلك نادى: يا آلَ كعب! يريد كعب بنَ سعد، ونادى عبد يغوث: يا آل كعب! يريد كعب بن عمرو، فلما رأى ذلك نادى: يا آل مُقَاعِس! فلما سمع وَعْلة بن عبد الله الجِرْميّ ـ وكان صاحبَ لواء أهل اليمن ـ نادى: يا آلَ مُقَاعِس، تفاءل به فطرح له اللواء، وكان أوّل من ٱنهزمَ، فحملت عليهم سعد والرباب فهزموهم، ونادى قيسُ بنُ عاصم: يا آلَ تميم، لا تقتلوا إلاّ فارسًا فإنّ الرجّالة لكم، ثم جعل يرتجز ويقول:

لَمّا تَولُّوا عُصَبًا شَوَازِبَا أَقْسَمْتُ لاَ أَطْعَنُ إلاَّ راكِبَا[1]

* إنِّي وَجَدْتُ الطَّعْنَ فيهِمْ صَائِبَا *

وأمر قيسُ بنُ عاصم أن يتبعوا المنهزمةَ، ويعرقبوا مَنْ لحقوه، ولا يشتغلوا بالقتل عن اتباعهم، فحزُّوا دوابرهم، وفي ذلك يقول وَعْلة: [من الطويل]

فِدًى لكم أهْلي وأمِي وَوَالِدِي غَداةَ كُلاَب إذْ تُحَزُّ الدوابِرُ

وأسِر عبد يغوث، أسره معصاد بن ربيعة بن الحارث وكتّفه وأردفه[2] خلفه، وكان مَصاد قد أصابته طعنة في مأبضِهِ[3]، وكان عِرْقه يهمى[4]، فنزفه الدم، فمال عن فرسه مقلوبًا. فلما رأى ذلك عبدُ يغوث قطع كتافه وأجهز عليه وٱنطلق على فرسه، وذلك أوّلُ النهار، ثم ظفر به بعد في آخره، ونادى مناد: قتل اليزيدون، وشدّ قَبيصة بن ضِرار الضَّبّيّ على ضَمْرَة بن لَبِيد الحِماسيّ الكاهن فطعنه فخرّ صريعًا، فقال له قَبيصة: ألا أنبأك تابعُك بمصرعك اليوم، ثم أُسر عبدُ يغوث، أسره عصمةُ بن أُبَير التيميّ.

---

(١) الشوازب: الضوامر.

(٢) أردفه خلفه: أي جعله يركب خلفه على الراحلة.

(٣) المأبض: باطن الركبة والمرفق. (٤) يهمى: يسيل.

قال أبو عبيدة: انتهى عصمةُ بن أُبَير إلى مَصاد فوجده صريعًا، وكان قبل ذلك رأى عبدَ يغوث أسيرًا في يديه، فعلم أنه الذي أجهز عليه فاقتصّ أثرَه فلحقه وقال: ويحك! إني رجل أُحبّ اللين[١]، وأنا خيرٌ لك من الفلاة والعطش. قال: ومَن أنت؟ قال: عصمةُ بنُ أُبير، فانطلق به عصمة حتى خَبَأه عند الأهتم على أن جعل له من فدائه جُعْلاً، فتركَه الأهتم عند امرأته العبشميّة، فأعجبها جمالُه وكمالُ خلقتِه، وكان عصمةُ الذي أسره غلامًا نحيفًا، فقالت له: مَن أنت؟ قال: أنا سيّدُ القوم، فضحكت وقالت: قبّحك الله سيّدُ قوم حين أَسَرَك مثلُ هذا، ففي ذلك يقول عبدُ يغوث: [من الطويل]

وتَضْحَكُ منّي شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ ... كأنْ لم تَرَيْ قَبْلي أسيرًا يمَانِيَا[٢]

فاجتمعت الرِّبابُ إلى الأهتم وقالت: ثأرنا عندك، وقد قُتل مَصاد والنعمان فأخرِجه إلينا، فأبى الأهتم أن يُخرجه إليهم، فكاد أن يكون بين الحيَّيْن: الرِّباب وسعد، فتنة حتى أقبل قيسُ بنُ عاصم المِنْقَرِيّ فقال: أيؤتَى قطع حلْف الرِّباب من قِبَلنا؟ فضرب فاه بقوس فهتَّمه[٣] فسمِّي الأهتم، فقال الأهتم: إنما دفعه إلى عصمة بن أُبير، ولا أدفعه إلاّ لمن دفعه إليَّ، فليجىء فيأخذْه، فأتوا عصمة فقالوا: يا عصمة، قُتل سيّدُنا النعمانُ وفارسُنا مَصاد، وثأرُنا أسيرُك، فما كان ينبغي لك أن تستحييه! فقال: إني مُمْحِل وقد أصبتُ الغنى، ولا تطيب نفسي عن أسيري، فاشتراه بنو جسّاس بمائة بعير، فدفعه إليهم، فخشوا أن يَهْجُوَهم، فشدّوا على لسانه نِسعة، فقال: إنكم قاتلي لا محالة، فدعوني أذمّ أصحابي وأنوح على نفسي! فقالوا: إنك شاعرٌ ونخاف أن تهجُوَنا، فعقد لهم ألاّ يفعلَ، فأطلقوا لسانه، فقال قصيدته التي أوّلها: [من الطويل]

ألاَ لاَ تَلُومانِي كَفَى اللَّومَ مَا بِيَا ... فَمَا لكُمَا فِي اللَّومِ خَيْرٌ ولاَ لِيَا

ومنها: [من الطويل]

أقولُ وقدْ شَدُّوا لسَانِي بِنِسْعَةٍ ... أَمَعْشَرَ تَيْم أَطْلِقُوا لِي لِسانِيَا[٤]

أَمَعْشَرَ تَيْم قدْ مَلَكْتُمْ فأسجحُوا ... فإنّ أساريَ لم يكُنْ مِنْ تَوانِيَا[٥]

وقد عَلِمَتْ عِرْسي مُلَيكةُ أنني ... أنا اللَّيْثُ مَعْدِيًا عليه وعَادِيَا

---

(١) قوله: (إني رجل أحب اللين) صوابه (اللبن) بباء موحدة كأنه يقول له استسلم لآخذ فديتك نياقًا ذات لبن فإني أحبه.

(٢) عبشمية: نسبة إلى عبد شمس.   (٣) هتّمه: كسر ثناياه.

(٤) النسعة: القطعة من النسع، وهو سير يضفر من جلد.

(٥) اسجحوا: سهلوا أو يسروا في أمري.

ومنها: [من الطويل]

كـأنّيَ لـم أركَـبْ جَـوَادًا ولَـمْ أقُـلْ ... لِخَيْلِيَ كُرِّي قَاتِلي عن رجَالِيا

ولـم أسـبإِ الـزِّقَّ الـرَّوِيَّ ولـم أقُـلْ ... لأيسَارِ صِدْقٍ أعظِمُوا ضَوْء نَارِيَا[١]

قال: فلما ضُربت عنقه قالت ٱبنةُ مَصاد: بُؤ[٢] بمَصَاد! فقال بنو النعمان: يا لكاع! نحن نشتريه بأموالنا ونبؤ بمَصَاد، فوقع بينهم في ذلك الشرّ، ثم ٱصطلحوا.

يومُ طِخْفَةَ[٣]

قال: كانت الرِّفادة، وقيل الردافة[٤]، ردافة الملوك لعتّاب بن هَرْمِيّ بن رِيَاح، ثم كانت لقيس بن عتّاب، فسأل حاجبُ بن زرارة النعمانَ أن يجعلَها للحارث بن مرط بن سفيان بن مُجاشع، فسألها النعمانُ بني يربوع وقال: أعقبوا إخوتَكم في الرفادة، قالوا: إنهم لا حاجة لهم فيها، وإنما سألها حاجبٌ حسدًا لنا وأبَوْا عليه، فقال الحارث بن شهاب وهو عند النعمان: إنّ بني يربوع لا يسلِّمون ردافتَهم إلى غيرهم. وقال حاجب: إن بعث الملك إليهم جيشًا لم يمنعوه ولم يمتنعوا. فبعث النعمانُ إليهم قابوسًا ٱبنَه، وحسّانَ بن المنذر؛ فكان قابوس على الناس، وحسّان على المقدّمة، وبعث معهم الصنائع والوضائع ـ فالصنائع: مَنْ كان يأتيه من العرب، والوضائع: المقيمون بالحيرة ـ فالتقَوْا بطِخْفَة، فٱنهزم قابوس ومَن معه، وضَرب طارقُ بنُ عميرة فرسَ قابوس فعقره، وأخذه ليجزّ ناصيتَه، فقال قابوس: إنّ الملوك لا تُجَزّ نواصيها، فجهّزه وأرسله إلى أبيه، وأما حسّان بنُ المنذر فأسره بشرُ بنُ عمرو الرياحيّ، ثم منّ عليه وأرسله، ففي ذلك يقول مالك بنُ نُوَيْرة: [من الطويل]

ونـحـنُ عَـقَـرْنَـا مُـهْـرَ قـابـوسَ بَـعْـدَمَـا ... رأى القومُ منه الموتَ والخيلُ تُلْحَبُ[٥]

عـلـيـه دِلاَصٌ ذاتُ نَـسْـجٍ وسَـيْـفُـه ... جُـرَازٌ من الـهـنـديّ أبـيـضُ مِـقْـضَـبُ[٦]

---

(١) لم أسبأ: لم أشتر الخمر. والرويّ: الممتلىء. والأيسار: الذين يضربون القداح.

(٢) بؤ بفلان: أي اذهب به؛ يقال ذلك للمقتول بمن قتل.

(٣) طخفة: موضع بعد النباج وبعد إمرة في طريق البصرة إلى مكة.

(٤) الردافة: فعل ردف الملك، وهو رديفه.

(٥) تلحب: أي تجهد وتلقي ما يؤذيها.

(٦) الدلاص: من الدوع: اللينة البراقة الملساء. والجراز من السيوف: الماضي النافذ. ومقضب: أي قطاع.

يومُ فيف الريح[١]

قال أبو عبيدة: تجمّعت قبائل مَذْحِج وأكثرها بنو الحارث بن كعب، وقبائل من مراد وجُعْفِيّ وزُبَيْد وخَثْعم، وعليهم أَنَسُ بن مُدْرك، وعلى بني الحارث الحُصَيْنُ، فأغاروا على بني عامر بن صعصعة بفَيْف الرِّيح، وعلى بني عامر، عامرُ بنُ مالك مُلاعبُ الأسِنّة.

قال: فاْقتتل القومُ، فكسروهم، واْرفضت قبائل من بني عامر، وصبرت بنو نمير، وأقبل عامرُ بنُ الطُّفَيل وخَلْفه دعِيُّ بني جعفر فقال: يا معشرَ الفتيان، من ضرب ضربة أو طعن طعنة فليشهدني فكان الفارس إذا ضرب ضربة أو طعن طعنةً، قال عند ذلك: أبا علي، فبينما هو كذلك إذ أتاه مُسْهِر بن يزيد الحارثيّ، فقال له من ورائه: عندك يا عامر والريح عند أذنه[٢] فوهصه ـ أي طعنه ـ، فأصاب عينه، فوثب عامر عن فرسه ونجا على راحلته، وأخذ مسهر رمحَ عامر، ففي ذلك يقول عامرُ بنُ الطفيل من أبيات: [من الطويل]

لَعَمْري وما عَمْري عليٌّ بهَيِّنٍ … لقد شانَ حُرَّ الوَجْهِ طَعْنَةُ مُسْهِرِ[٣]

وقال مُسْهر ـ وقد زعم أنهم أخذوا اْمرأة عامر ـ: [من الطويل]

وهَصْتُ بخُرص الرمح مُقْلَةَ عامرٍ … فأضحَى نحيفًا في الفَوَارِس أَعْوَرَا[٤]

وغَادَرَ فينَا رُمْحَه وسِلاَحَه … وأدْبَر يَدعُو في الهَوالك جَعفرَا

وكنَّا إذا قَيْسِيَّةٌ ذهبَتْ بِنَا … جَرَى دَمْعُهَا مِنْ عَينهَا فتحدَّرَا

مخافةَ ما لاقَتْ حَليلةُ عامرٍ … من الشرِّ إذ سِرْبالُها قد تَعَفَّرَا

قال: وكانت هذه الوقعةُ وقد بُعث رسول الله ﷺ بمكة، وأدرك مُسْهِرُ بنُ يزيد الإسلام فأسلم.

يومُ زَرُود الأوّل

غزا الحَوْفَزانُ حتى اْنتهى إلى زَرُود خلف جبل من جبالها، فأغارُوا على نَعَم كثير لبني عَبْس فاْجتازوها، وأتى الصريخُ[٥] لبني عبس فركبوا، ولحق عمارةُ بن زيادَ العبسيّ الحَوْفَزان فعرفه ـ وكانت أمُّ عمارة قد أرضعت مُضَرَ بنَ شَريك، وهو أخو

---

(١) فيف الريح: بأعالي نجد.
(٢) قوله: (والريح عند أذنه) صوابه والرمح.
(٣) شان: شوّه أو عاب.
(٤) خرص الرمح: سنانه.
(٥) الصريخ: المستغيث.

الحَوْفَزان ـ فقال: يا بني شَرِيك، قد علمتم ما بيننا وبينكم، قال الحوفزان ـ وهو الحارثُ بنُ شَرِيك ـ: صدقتَ يا عمارة، فانظر كلّ شيء هو لك فخُذْه، فقال عمارةُ: لقد علمتْ نساءُ بني بكر بن وائل أنّي لن أملأ أيديَ أزواجهنّ وأبنائهنّ شفقةً عليهنّ من الموت، فحمل عمارة ليعارض النَّعَم ليردَّه، وحال الحَوْفَزان بينه وبين النَّعَم، فعثرت بعمارة فرسُه فطعنه الحَوْفَزان، وطعنه نعامةُ بنُ عبد الله بن شَرِيك: وأسِر ٱبنا عمارة: سِنان وشدّاد، وكان في بني عبس رجلان من طيىء: ٱبنان لأوس بن حارثة، مجاورين لهم، وكان لهما أخٌ أسيرٌ في بني يشكُر، فلمّا فقدته بنو شيبان نادوا: يا ثارات معدان! فعند ذلك قتلوا ٱبنَيْ عمارة وهرب الطائيّان بأسيرهما. فلما برىء عمارة من جراحه أتى طيئًا فقال: ادفعوا إليَّ هذا الكلب الذي قُتلْنا به، فقال الطائيّ لأوس: ادفع إلى بني عبس صاحبَهم، فقال لهم: تأمرنني أن أعطِيَ بني عبس قطرةً من دمي، وإن ٱبني أسير في بني يشكُر؟ فوالله ما أرجو فكاكه إلاّ بهذا. فلما قفل الحَوْفَزان من غزوه بعث إلى بني يشكُر في ٱبن أوس، فبعثوا به إليه، فٱفتدى به معدان، وقال نعامةُ بنُ شريك: [من الرّجز]

اسْتَنْزَلَتْ رِماحُنا سِنَانَا وشَيْخنا بطِخْفَةٍ عنانا
ثم أخوه قد رَأى هوانا لمّا فقَدْنَا بيننا مَعْدانا

يومُ غَوْل الأوّل
وهو يومُ كِنْهِل

قال أبو عبيدة: أقبل ٱبنا هجيمة ـ وهما من غسّان ـ في جيش فنزلا في بني يربوع، فجاوَرَا طارقَ بنَ عوف بن عاصم بن ثعلبة بن يربوع، فنزلا معه على ماء يقال له: كِنْهِل، فأغار عليهما أناسٌ من ثعلبة بن يربوع، فٱستاقوا نَعَمهما وأسروا من كان في النَّعَم، فركب قيسُ بنُ هُجَيْمَة بخيله حتى أدرك بني ثعلبة، فكرَّ عليه عُتَيْبَة بن الحارث، فقال له قيس: هل لك يا عُتَيْبة إلى البراز؟ قال: ما كنتُ لأسألَه وأدعه، فبارزه، قال عُتَيْبَة: فما رأيتُ فارسًا أملأ لعيني منه، فطعنَني فأصاب قربوس سَرْجي، حتى وجدتُ مسَّ السِّنان في باطن فخذي، ثم أرسل الرمْحَ وهو يرى أن قد أثبتَنِي وٱنصرف فأتبعته الفرس، فلما سمع زَجَلَها رجع جانحًا على قربوس سَرْجه، وبدا لي فرج الدِّرع فطعنتُه بالرمح، فقتلتُه وٱنصرفتُ فلحقتُ النَّعَم، وأقبل الهِرْماسُ بنُ هُجَيْمة فوقف على أخيه قتيلاً، ثم اتبعني فقال: هل لك في البراز؟ فقلت: لعلّ الرجعة خيرٌ لك، قال: أبعدَ قيس؟ ثم شدّ عليّ وضربني على البيضة، فخلص السيف إلى رأسي، فضربتُه فقتلتُه، فقال جرير:

وساقَ ٱبنَيْ هُجَيْمَةَ يَوْمَ غَوْلٍ إلى أسْيافِنا قَدَرُ الحِمَامِ

يومُ الجُبّات[١]

قال أبو عبيدة: خرج بنو ثعلبةَ بن يربوع فمرُّوا بناس من طوائف بكر بن وائل بالجُبات، خرجوا سُفّارًا، فنزلوا وسرَّحوا إبلهم ترعى، وفيها نفرٌ منهم يرعونها، منهم: سَوَادةُ بنُ يزيد بن بُجَير العِجْليّ، ورجلٌ من بني شَيْبَان، وكان محمومًا، فمرَّت بنو ثعلبة بن يربوع بالإبل فاَطّردُوها وأخذوا الرجلَين من بني شيبان، فسألوهما: مَنْ معكما؟ قالا: معنا شيخُ بن يزيد بن بُجَير العِجْليّ في عِصابةٍ من بكر بن وائل خرجوا سُفّارًا يريدون البحرين، فقال الربيعُ ودَعموص ابنا عُتَيْبة بن الحارث بن شهاب: أنذهب بهذين الرجلين وهذه الإبل ولم يعلموا مَنْ أخذها، ارجعوا بنا حتى يَعلموا من أخذ إبلهم وصاحبيهم لنُعنيهم بذلك، فقال عَمِيرة لهما: ما وراءكما إلا شيخ ابن يزيد قد أخذتما أخاه وأطردتما إبلَه، دعاه، فأبَيَا ورجعا إليه وأخبراهم وتسمَّيا لهم، فركب شيخ ابنُ يزيد فاتّبعهما وقد وَلَّيا، فلحِق دَعْموصًا فأسره، ومضى ربيعٌ حتى أتى عَمِيرةَ فأخبره أن أخاه قد قُتِل، فرجع على فرس له يقال لها الخنساء حتى لحقَ القومَ، فافتَكّ منهم دَعْموصًا على أن يردَّ عليهم أخاهم وإبلَهم، فردَّها إليهم، فكَفَر[٢] بنُو عُتَيبة ولم يشكروا عَمِيرةَ، فقال عَميرةُ في ذلك: [من الطويل]

أَلم تَرَ دَعمُوصًا يَصُدّ بوجهِهِ ... إذَا مَا رآنِي مُقْبِلاً لَم يُسَلِّمِ

أَلَمْ تَعْلَمَا يا ابْنَيْ عُتَيْبَة مَقْدَمي ... عَلَى ساقطٍ بيْنَ الأَسِنَّةِ مُسْلِمِ

فعارضْتُ فِيه القومَ حتّى انتزعتُهُ ... جِهَارًا ولم أنظُرْ له بالتَّلَوُّمِ

يوم الشِّعْب

غزا قيسُ بنُ شرقاء التغلبيّ، فأغار على بَنِي يربوع بالشِّعْب، فاقتتلوا، فانهزمتْ بنُو يربوع، فأُسِر سُحَيْمُ بنُ وَثِيل الرِّياحيّ، فقال سُحَيْم في ذلك: [من الطويل]

أقولُ لهم بالشِّعْبِ إذْ يأسِرونَنِي ... ألم تَعْلَمُوا أنّي ابنُ فارِسِ زَهْدَمِ[٣]

ففدى نفسَه، وأُسِر أيضًا مُتَمّمُ بنُ نُوَيْرة، فوفد مالك بنُ نُوَيْرة على قيسِ بن شرقاء في فدائه فقال: [من الطويل]

هَلْ أنْتَ يا قَيْسُ بنُ شرقاء مُنْعِمٌ ... أو الجهْدَ إنْ أعطيتهُ أنْتَ قابِلُهْ

فلما رأى وسامَتَه قال: بل مُنْعِم، فأطلقَه له.

---

(١) الجبّات: موضع قريب من ذي قار. (٢) كفر: تبرأ.

(٣) زهدم: فرس لوالد سحيم.

يومُ غَوْل[١] الثاني
فيه قَتَل طَرِيفٌ شَراحيلَ وعمرَو بنَ مَرْثَد المُحَلِّمِيّ

غزا طَرِيفُ بنُ هشيم في بني العنبر بن تميم، فأغار على بكر بن وائل بغَوْل، فاقتتلوا، ثم إنّ بكرًا انهزمت، فقَتَل طَرِيفٌ شَراحيلَ أحد بني ربيعة، وقَتَل أيضًا عمرَو بنَ مَرْثَد، وقتل المُجَشِّر.

يومُ الخَنْدَمة[٢]

كان رجلٌ من مُشْرِكي قُرَيش يُحِدّ حربةً يومَ فَتْحِ مكة، فقالت له امرأتُه: ما تصنع بهذه؟ قال: أعددتُها لمحمد وأصحابه! فقالت له: ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء فقال: والله إني لأرجو أن أُخدِمَك بعضَ نِسَائِهم، وأنشأ يقول: [من الرّجز]

إنْ يُقبِلُوا اليَوْمَ فما بيَ عِلَّةٌ   هَذَا سِلاَحٌ كامِلٌ وَأَلَّهْ[٣]
* وذو غِرَارَيْنِ سَرِيعُ السَّلَّهْ *[٤]

فلما لقبهم خالد بن الوليد يوم الخَنْدَمة انهزم الرجلُ لا يلوِي على شيء، فلامته امرأتُه في ذلك، فقال: [من الرجز]

إنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الخَنْدَمَهْ   إذ فرَّ صَفْوَانٌ وفرَّ عِكْرِمَهْ
ولَقِيْتَنَا بِالسُّيُوفِ المُسْلِمَهْ   يَفْلِقْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وجُمْجُمَهْ
ضَرْبًا فلا تُسْمَعُ إلاَّ غَمْغَمَهْ   لَمْ تَنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَهْ

وهذه القصّة نذكرها ـ إن شاء الله ـ في أثناء السيرة النبويّة في يوم فتح مكة.

يَوْمُ اللُّهَيْماءَ[٥]

قال أبو عبيدة: كان سببُ الحربِ التي كانت بين عمرو بنِ الحارث بن تميم بن سعد بن هُذَيل، وبين عمرو بن عديّ بن الدُّئل بن بكر بن عبد مَنَاة، أنّ قيسَ بنَ عامر بن غريب أخا بني عمرو بنِ عديّ وأخاه سالمًا، خرجا يريدان بني عمرو بنِ

(١) غول: ماء معروف للضبات بجوف طخفة. (٢) الخندمة: جبل بمكة.
(٣) الأله: الحربة. (٤) ذو الغرارين: يراد به السيف.
(٥) اللهيماء: موضع بنعمان الأراك بين الطائف ومكة.

الحارث، على فرسَيْن، يقال لأحدهما: اللّعّاب، والآخر: عَفْزَر، فباتا عند رجل من بني نُفَاثة، فقال النُّفَاثيّ لقيسٍ وأخيه: أطيعاني وارجعَا، لأعرفنّ رماحَكما تُكسر في قتاد[١] نعمان[٢]، قالا: إنَّ رِمَاحَنا لا تُكسَر إلاّ في صدور الرجال! قال: لا يضرّكما؛ وستحمدان أمري، فأصبحا غاديين. فلما شارفا مَتْن اللُّهَيْمَاء. من نَعمان، وبنو عمرو بن الحارث فُوَيق ذلك بموضع يقال له أدَيْمة[٣]، وأغارا على غنم لجندب بن أبي أعيبس، وفيها جندب، فتقدّم إليه قيسٌ، فرماه جندب على حلمةِ ثديه وبعجه قيسٌ بالسيف فأصابت ضبّةُ[٤] السيف وجهَ جندب، وخَرَّ قيس ونفرت الغنمُ نحوَ الدارَ فتبعها وحملَ سالم على جندب بفرسه عفزر، فضرب جندب خطم الفرس بالسيف فقطعه، وضربه سالم بالسيف فقطع إحدى يديه، فخرَّ جندب ووقف عليه سالم، وأدرك العشي سالمًا، فخرج وترك سيفَه في المعركة وثوبَه بحقِويه، ولم ينج إلا بجفن سيفه ومئزرِه فقال حذيفةُ بنُ أنيس في ذلك من أبيات: [من الطويل]

كَشَفَتْ غِطَاء الحرب لَمَّا رَأيتُهَا ... تَمِيلُ عَلَى ضَفْوٍ من اللَّيْل أعسَرَا[٥]

أخُو الحرْب إنْ عضَّت به الحربُ عَضَّهَا ... وإنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقهَا الحربُ شمَّرَا[٦]

وَيَمْشي إذَا مَا الموْتُ كانَ أمَامَهُ ... كَذَا الشِّبْلُ يَحمي الأنْفُ أنْ يَتأخّرَا[٧]

نَجَا سَالِمٌ والنفسُ مِنه بِشَرْقَةٍ ... وَلَمْ يَنْجُ إلاّ جَفْنَ سَيْفٍ وَمِئْزَرَا[٨]

وَطابَ عَنْ اللّعَاب نَفْسًا وَرِمَّةً ... وغَادَرَ قيسًا فِي المَكَرّ وَعَفْزَرَا

يومُ خَزَاز

قال أبو عُبيدة: تَنازع عامرٌ ومسمعٌ أبنا عبد الملك، وخالدُ بنُ جَبَلة، وإبراهيم بنُ محمد بن نوح العطاردي، وغسَّان بن عبد الحميد، وعبد الله بن سالم الباهليّ، ونفرٌ من وجوه أهل البصرة كانوا يتجالسون يومَ الجمعة ويتفاخرون ويتنازعون في الرياسة يومُ خَزَاز. فقال خالدُ بنُ جَبَلة: كان الأحوصُ بنُ جعفر

---

(١) القتاد: شجر صلب له شوك. يحذرهم ألا تطيش رماحهم.
(٢) المراد نعمان الأراك.
(٣) أديمة: على صيغة التصغير: جبل بالحجاز.
(٤) ضبّة السيف: حدّه.
(٥) الضفو: الجانب.
(٦) عضّها: أي لم يفتر لغمزها إن غمزته. وشمّرت: قلصت ولقحت واشتد أمرها.
(٧) يحمي الأنف: أي يأنف من التأخر، أي لا يهرب.
(٨) أي نحا بجفن سيف ومئزر.

الرئيس. وقال عامرٌ ومسمعٌ: كان الرئيس كليب وائل. وقال ابنُ نوح: كان الرئيس زرارة بن عدس، وهذا في مجلس أبي عمرو بن العلا، فتحاكموا إليه فقال: ما شهدها عامرُ بن صعصعة، ولا دارمُ بنُ مالك، ولا جشم بن بكر، اليوم أقدم من ذلك، غير أن أهلَ اليمنِ كان الرجلُ منهم يجيءُ ومعه كاتبٌ وطنفسة يقعدُ عليها، فيأخذ من أموالِ نزار ما شاء، كعمّال صدقاتهم اليوم، وكان أوّلُ يوم ٱمتنعتْ مَعَدٌّ عن الملوكِ: ملوكِ حمْيَر، وكانت نزارُ لم تكثر بعد، فأوقَدُوا نارًا على خَزَاز ثلاثَ ليال، ودخَّنوا ثلاثة أيام، فقيل له: وما خَزَاز؟ قال: هو جبلٌ قريبٌ من أَمَرَة على يسار الطريق خلفه صحراء مَنْعِج[١]، ففي ذلك اليوم ٱمتنعت نزار من أهلِ اليمن، قال عمرُو بنُ كلثوم: [من الوافر]

ونـحـنُ غَـدَاة أوْقَـدَ فـي خَـزَازٍ ... رَفَـدْنـا فَـوْقَ رِفْـد الـرَّافِـديـنَـا[٢]

فَـكُـنَّـا الأيْـمَـنِـينَ إذا ٱلـتَـقَـيْـنَـا ... وكـانَ الأيـسَـريـن بـنُـو أَبـيـنَـا[٣]

فـصَـالُـوا صَـوْلَـةً فـيـمـنْ يَـلـيـهـمْ ... وصُـلْـنَـا صَـوْلَـةً فـيـمَـنْ يـلـيـنَـا

فـآبُـوا بـالـنِّـهَـاب وَبـالـسـبَـايَـا ... وأُبْـنَـا بـالـمـلُـوكِ مُـصَـفَّـدِيـنَـا

قال أبو عمرو بن العلاء: ولو كان جدّه كليبُ وَائل قائدهم ورئيسهم ما ٱدّعى الرفادة وترك الرياسة.

يومُ النِّسار[٤]

قال أبو عبيدة: تحالفت أسَدٌ وطيىء وغَطَفان، ولحقت بهم ضبّةُ وعَدِيّ، فغزوا بني عامر فقتلوهم قتلاً شديدًا، فغضبت بنو تميم لمقتل بني عامر، فتجمَّعوا حتى لحقوا طيئًا وغطفان وحلفاءَهم من ضبّة وعَدِيّ يومَ الفِجار، فقتلت تميم طيّئًا أشدّ مما قُتِلَتْ عامرٌ يوم النِّسار، فقال بشرُ بنُ أبي خازم: [من الكامل]

غَـضِـبَـتْ تـمـيـمٌ أنْ تـقـتَّـل عَـامـرٌ ... يومَ الـنِّـسَـارِ فـأعْـقِـبُـوا بـالـصَّـيْـلَـمِ[٥]

---

(١) منعج: واد يأخذ بين جفر أبي موسى والنباج ويدفع في بطن فلج.

(٢) رفدنا فوق رفد الرافدين: أي أعنا فوق من أعان.

(٣) الأيمنون: أي المتقدمون؛ والأيسرون: أي المتخلفون.

(٤) النّسار: جبال صغيرة، وقيل ماء لبني عامر بن صعصعة.

(٥) الصّيلم: السيف. والمراد كانت عاقبتهم الصّيلم.

يومُ ذات الشقُّوق[١]

قال: فحلف ضَمْرةُ بنُ ضَمْرةَ النهشَلِيِّ وقال: الخمرُ عليَّ حرامٌ حتى يكونَ لنا يومٌ يكافئه، فأغار عليهم يومَ ذاتِ الشقوق فقتلَهم وقال في ذلك: [من الكامل]

ألآنَ سَاغَ لِي الشَّرَابُ ولَم أكُنْ ... آتي الفِجَارَ ولاَ أشدُّ تَكلمي
حَتّى صَبَحْتُ علَى الشُّقُوق بغَارَةٍ ... كالتَّمْر تُنْثَرُ في جَرِين الجرَّم[٢]
وأفأْتُ يومًا بالجِفَارِ بمِثْلِهِ ... وأجرتُ نصْفًا مِنْ حَديثِ المَوْسم
وَمَشَتْ نِسَاءٌ كالنِّسَاءِ عَوَاطِلاً ... مِنْ بَيْن عَارِفَة السِّباء وأَيِّم
ذهَبَ الرِّماحُ بِزَوْجِهَا فتركْنَهُ ... فِي صَدْرِ مُعْتَدِل القَناةِ مُقَوَّمِ

يوم خَوّ[٣]

قال أبو عبيدة: أغارت بنو أَسَد على بني يربوع فاكتسَحُوا إبلَهُم، فأتى الصّريخُ الحيَّ فلم يتلاَحَقُوا إلاّ مساءً بموضع يقال له خَوٌّ، وكان ذُؤاب بنُ ربيعةَ الأسَدِيّ على فرس أنثى، وكان عُتَيبةُ بنُ الحارث بن شهاب على حصان يستنشى ريحَ الأنثى في سواد الليل ويتبعُها، فلم يعلم عُتَيبة إلاّ وقد أقحم فرسه على ذُؤاب بنِ ربيعة، وعُتَيبةُ غافلٌ لا يبصر ما بين يديه، فرآه ذؤاب فطعنه في نحره فقتله، ولحق الربيعُ بنُ عُتَيبة فشدّ على ذُؤاب فأسره وهو لا يعلم أنه قاتِلُ أبيه، فلم يزل عنده أسيرًا حتى فاداه أبوه ربيعة بإبلٍ قاطعه عليها، وتواعدا بسوق عُكَاظ في الأشهُر الحُرُم أن يأتيَ هذا بالإبل وهذا بالأسير، فأقبل أبو ذؤاب بالإبل، وشُغل الربيع بن عُتَيبة فلم يحضر سوقَ عكاظ، فظنّ ربيعة أبو ذؤاب أن ذؤابًا قُتِلَ بعتيبة، فقال يرثيه: [من الكامل]

أبلِغْ قَبَائلَ جعفرٍ مخصُوصَةً ... مَا إنْ أُحَاولُ جَعْفَرَ بنَ كِلاَبِ
إنّ المَوَدَّةَ والهَوَادَة بينَنَا ... خَلَقٌ كسَحْقِ الرَّيْطةِ المُنْجابِ[٤]
ولقد عَلمْتُ عَلَى التجلّد والأسَى ... أنّ الرَّزِيّة كان يومَ ذُؤابِ
إنْ يَقْتُلُوكَ فقدْ هتكتَ بُيُوتَهُمْ ... بِعُتَيْبَةَ بن الحَارث بن شَهابِ
بِأَحبِّهِم فقْدًا عَلَى أعدَائهِ ... وأشدِّهِمْ فقدًا على الأَصحابِ

فلما بلغ إليهم الشعر قتلوا ذؤابَ بنَ ربيعة.

---

(١) الشقوق: من مياه ضبّة بأرض اليمامة. (٢) الجرين: موضع التمر الذي يجفف فيه.
(٣) خوّ: واد لبني أسد. وقيل: كثيب معروف بنجد بين ديار بني أسد وديار بني يربوع.
(٤) الريطة: كل ثوب لين رقيق.

أيامُ الفِجَار[١]

الفِجارُ الأوّل

قال أبو عبيدة: أيامُ الفِجَار عدّةٌ، فأوّلها بين كنانة وهَوَازن. وكان الذي هاجه أنّ بِدْر بنَ معشر أحد بني عقال بن مُلَيك بن ضَمْرَة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة جعل له مجلسًا بسوق عُكَاظ، وكان منيعًا في نفسه، فقامَ في المجلس وقام على رأسه قائم وأنشأ يقول: [من الرجز]

نَحْنُ بنُو مُدْرِكة بنِ خِنْدِفِ ... مَن يَطْعَنُوا في عَيْنه لا يَطْرِفِ

ومَنْ يكُونُوا قومَه يُغَطْرِف ... كأنّهُمْ لُجّةُ بَحْرٍ مُسْدِفِ[٢]

قال: ومدّ رجله وقال: أنا أعزّ العرب، فمن زعم أنه أعزُّ منّي فليَضربها، فضربها الأحَيمرُ بنُ مازِن أحد بني دُهْمان بن نضر بن معاوية، فأندرها[٣] من الركْبة وقال: خذها إليك أيها المخندِفُ! قال أبو عبيدة: إنما خرصها[٤] خُرَيصية يسيرة وقال في ذلك: [من الرجز]

نَحْنُ بنُو دُهْمَانَ ذُو التّغَطْرُفِ ... بحرٌ لِبحْرٍ زَاخِرٍ لم يُنْزَفِ

* نَبْني على الأحياء بالمُعَرّف *

قال أبو عبيدة: فتحاور الحيّان عند ذلك حتى كاد يكون بينهم قتالٌ، ثم تراجعوا ورأَوْا أنّ الخطبَ يسيرٌ.

الفِجَارُ الثاني

قال: كان الفجارُ الثاني بين قُرَيش وهَوَازِن، وكان الذي هاجه أنّ فِتْيةً من قريش قَعَدوا إلى امرأةٍ من بني عامر بن صعصعة وضيئةٍ بسوق عُكَاظ. وقالوا: بل أطاف بها

---

(١) سميت الفجار لأنها كانت في الأشهر الحرم، وهي الشهور التي يحرمونها ففجروا فيها، كما سيأتي.

(٢) الغطريف: السيد الشريف السخيّ الكثير الخير. والمسدف: المظلم.

(٣) أندرها: أي قطعها.

(٤) قوله: (وقال أبو عبيدة: إنما خَرَصها خُرَيْصِيةً يسيرة) هكذا بالخاء المعجمة وبتصغير (خُرَيْصِية). ومثله في العقد غير أن (خريصة) فيه غير مصغر. والصواب (حَرَصَهَا حَرِيصة) بالحاء المهملة فيهما وتكبير حريصة، ففي اللسان: (والحرص الشق... والحارصة والحريصة أول الشجاج وهي التي تحرص الجلد أي تشقه قليلاً). وقد ذكرت الحارصة في الحديث كما في النهاية.

شبابٌ من بني كنانة وعليها برقع فأعجبهم ما رأَوْا من هيئتها، فسألوها أن تسفر عن وجهها، فأبت عليهم، فأتى أحدُهم من خلفها فشدّ دُبُرَ دِرْعها بشوكة إلى ظهرها وهي لا تَدْري، فلما قامت تقلّص الدِّرعُ عن دُبُرها، فضحكوا وقالوا: منعْتنا النظر إلى وجهها فقد رأينا دُبُرَها، فنادتِ المرأةُ: يا آلَ عامر! فتحاور الناسُ، وكان بينهم قتالٌ ودماء يسيرة، فحملها حربُ بنُ أُميّة وأصلح بينهم.

الفِجَارُ الثالثُ وهو بين كِنانةَ وهَوَازِن

وكان الذي هاجه أنّ رجلًا من بني كنانة كان عليه دَيْنَ لرجل من بني نضر بن معاوية، فأعدم الكنانيّ، فوافى النضريّ بسوق عُكَاظ بقرد، فأوقفه في سوق عكاظ فقال: مَنْ يبيعني مثلَ هذا بما لي على فلان حتى أكثر في ذلك. وإنما فعل ذلك تعبيرًا للكنانيّ ولقومه، فمرّ رجلٌ من بني كنانة فضرب القردَ بالسيف فقتله، فهتف النضريُّ: يا آلَ هوازن! وهتف الكنانيُّ: يا آلَ كِنانة! فهاج الناسُ حتى كاد أن يكونَ بينهم قتالٌ، ثم رأوا الخطبَ يسيرًا فتراجعوا.

قال أبو عبيدة: إنما سُميتْ هذه الأيامُ بالفِجَار لأنها كانت في الأشهر الحُرُم، وهي الشهور التي يحرّمونها، وهذه يقال لها أيامُ الفجار الأوّل.

الفجار الآخر وهو بين قريش وكنانة كلها وبين هَوَازِن

وإنما هاجها البَراضُ بقتله عُرْوَة الرحّال بن عُتْبة بن جعفر بن كِلاب، فأبت أن تقتل بعُرْوة البرّاض لأن عُرْوةَ سيّدُ هوازن، والبرّاضُ خليعٌ من بني كِنَانة، وأرادوا أن يقتلوا به سيّدًا من قريش.

وهذه الحربُ كانت قبل مبعث النبيّ ﷺ بستّ وعشرين سنة، وقال رسول الله ﷺ: «كنتُ أنبُلُ على أعمامي يومَ الفِجَار وأنا ابنُ أربع عشرة سنة» يعني أُناوِلهم النبل.

وكان سببُ هذه الحرب أنّ النعمانَ بنَ المنذر اللَّخْميّ ملكُ الحيرة كان يبعث إلى سوق عُكَاظ في كلّ عام لَطِيمة[١] في جوار رجل شريف من أشراف العرب يُجيرها له، حتى تباعَ هنالك ويشتري له بها من أَدَم الطائف ما يحتاج إليه. وكانت سوق عكاظ تقوم في أوّل يوم من ذي القعدة، فيتسوّقون إلى حضور الحجّ، ثم يحجُّون، فجهّز النعمان عِير اللطيمةِ ثم قال: مَنْ يُجِيرُها؟ فقال البرّاضُ بنُ قيس الضمريّ: أنا أُجِيرها على بني كنانة، فقال النعمان: ما أريد إلاّ رجلًا يُجيرها على

---

(١) اللطيمة: العير التي تحمل الطيب.

أهل نجد وتهامة، فقال عُرْوة الرحّال ـ وهو يومئذ رجل هوازن ـ أكلبٌ خليع يجيرها لك؟ أبيتَ اللعن! أنا أُجيرها لك على أهل الشِّيح[١] والفَيْصوم[٢] من أهل نجد وتهامة! فقال البرّاض: أعلى بني كنانة تُجيرها يا عُرْوةُ؟ قال: وعلى الناس كلّهم! فدفعها النعمانُ إلى عُروةَ، فخرج بها وتَبِعه البرّاضُ، وعُرْوةُ لا يخشى منه شيئًا، إلى أن نزل بأرض يقال لها أوَارَة[٣]، فشرب من الخمر وغنّته قَيْنةٌ[٤]، ثم نام، فجاء البرّاض فدخل عليه، فناشده عُرْوة وقال: كانت منّي زلّة، وكانت الغَفْلة مني ضَلّة، فقتله وخرج وهو يرتجز ويقول:

قَدْ كانتِ الغفلةُ مِنّي ضَلَّهْ ... هَلاَّ علَى غَيْري جَعلْتَ الزَّلَّهْ

* فسوفَ أعلُو بالحُسَامِ القُلَّهْ *

وقال: [من الوافر]

وَدَاهيةٍ يُهَالُ الناسُ مِنْهَا ... شَدَدْتُ لَهَا بَنِي بكْرٍ ضُلوعِي

هَتَكْتُ بها بيوتَ بَنِي كِلاَبٍ ... وأرْضَعتُ المَوَالِي بالضُّرُوعِ

جَمَعْتُ له يَدَيَّ بِنَصْلِ سَيْفٍ ... أفلَّ فخرّ كالجِذْعِ الصَّرِيعِ[٥]

وأستاق اللطيمةَ إلى خَيْبر، وأتّبعه المُسَاوِرُ بنُ مالك الغَطَفانيّ، وأسَدُ بنُ خَيْثم الغَنَويّ حتى دخلا خيبرَ، فكان البرّاضُ أوّلَ مَن لقيهما، فقال لهما: مَن الرجلان؟ قالا: من غَطَفانَ وغَنِيّ. قال البرّاض: ما شأنُ غَطَفان وغَنِيّ بهذا البلد؟ قالا: ومَن أنت؟ قال: من أهل خيبر. قالا: ألك علمٌ بالبرّاض؟ قال: دخل علينا طريدًا خَلِيعًا فلم يُؤْوِه أحدٌ بخيبر ولا أدخله بيتًا. قالا: فأين يكون؟ قال: وهل لكما به طاقةٌ إن دللتكما عليه؟ قالا: نعم. قال: فأنزلا، فنزلا وعقلا راحلتيْهما. قال: أيّكما أجرأ عليه وأمضى مقدَمًا وأحدُّ سيفًا؟ قال الغَطَفانيّ: أنا. قال: فأنطلقْ أدلّك عليه، فأنطلقا حتى أنتهيا إلى خَرِبَة في جانب خيبر خارجةٍ عن البيوت، فقال البرّاض: هو في هذه الخربة وإليها يأوِي، فأنظِرْني حتى أنظر أثَمّ هو أم لا، فوقف له ودخل البرّاض ثم خرج إليه وقال: هو قائمٌ في البيت الأقصى خلف هذا الجدار، فهل عند سيفك صَرَامةٌ؟ قال: نعم. قال: هات سيفك أنظر إليه أصارمٌ هو؟ فأعطاه سيفه، فهزّه

---

(١) الشيح: نبات سهلي يتخذ منه بعض المكانس.

(٢) الفيصوم: نبات طيب الرائحة، وورقه هدب وله نورة صفراء، وهي تنهض على ساق. والمراد بأهل الشيح والفيصوم العرب جميعًا.

(٣) أوارة: ماء في بلاد بني تميم. (٤) القينة: المغنية.

(٥) أفل: أي ذو فلال، وهو كسور في حده من كثرة الضرب به.

البرّاض ثم ضربه فقتله، ووضع السيفَ خلف الباب وأقبل إلى الغَنَوِيّ فقال: ما وراءك؟ قال: أَجْبَنٌ من صاحبك، تركتُه قائمًا في البيت الذي فيه الرجل، والرجل نائمٌ لا يتقدّم إليه ولا يتأخّر عنه، قال الغَنَوِيّ: يا لهفاه! لو كان لي من ينظر راحلتينا، قال البرّاض: هما عليّ إن ذَهَبَتا، فانطلق الغنويّ والبرّاض خلفه حتى إذا جاور الغنويّ باب الخَرِبة أخذ البرّاض السيف من خلف الباب ثم ضربه حتى قتله وأخذ سلاحَيْهما وراحِلَتَيْهما وانطلق.

وبلغ قُرَيشًا خبرُ البرّاض بسوق عُكَاظ، فخلصوا نَجِيًا، واتّبعتهم قيسٌ لمّا بلغهم أنّ البرّاض قتل عُرْوةَ الرحّال، وعلى قيس أبو براءٍ عامر بن مالك، فأدركوهم وقد دخلوا الحرم، فنادوهم: يا معشرَ قريش، إنّا نعاهد الله ألاّ نُبطل دَمَ عُرْوة أبدًا، أو نقتُل به عظيمًا منكم، وميعادُنا معكم هذه الليلة من العام القابل، فقال حرب بن أميّة لأبي سفيان ابنه: قل لهم: إنّ موعدكم قابلٌ في هذا اليوم، فقال خِدَاش بن زُهَير في هذا اليوم، وهو يوم نخلة، من أبيات أوّلها: [من البسيط]

يـا شَـدَّةً مـا شَـدَدْنـا غـيـرَ كـاذِبَـةٍ — على سَخِينَةَ لولا الليلُ والحُرَمُ

وكانت العرب تسمّي قريشًا سَخِينة لأكلها السَّخينة.

يومُ شَمْظة[١] وهو يومُ نَخْلَةَ من الفجَار الآخر

قال: فجمعتْ كِنَانةُ قُرَشيّها وعبدَ مَنَافِها والأحابيشَ ومَنْ لحق بهم من بني أَسَد بن خُزَيمة، وألبس يومئذ عبدُ الله بنُ جَدْعان مائةَ كَمِيّ السلاح بأداة كاملة، سوى ما أَلبس من قومه، والأحابيشُ بنو الحارث بنِ عبدِ مَنَاة بن كنانة. قال: وجمعت سُلَيم وهَوَازن وجموعهما وأخلافهما، غيرِ كلاب وبني كعب، فإنهما لم يشهدا يومًا من أيام الفِجَار غيرَ يوم نَخْلة، فاجتمعوا بشَمْظَةَ من عُكَاظ في هذه الأيام التي تواعدوا فيها على قَرْن[٢] الحَوْل، وعلى كلّ قبيلة من قُرَيش وكنانة سيِّدُها، وكذلك على قبائل قيس، غيرَ أنّ أمرَ كنانة كلّها إلى حرب بن أميّة، وعلى إحدى مجنبتيها عبدُ الله بنُ جَدْعان، وعلى الأخرى كُرَيْز بن ربيعة، وحرب بن أميّة في القلب، وأمرُ هَوَازن كلّها إلى مسعود بن معتب الثقفيّ، فزحف بعضهم إلى بعض، فكانت الدائرة في أوّل النهار لكنانة على هَوَازِن، حتى إذا كان من آخر النهار تداعت هَوَازن وصابرت، وانكشفت كنانة فاستحرّ القتل فيهم، فقُتِل منهم تحت رايتهم مائةُ رجل، ويقال ثمانون، ولم يُقتَل من قريش أحدٌ يذكر، فكان هذا اليومُ لهوازن على كنانة.

---

(١) شمطة: موضع قريب من عكاظ. (٢) قرن الحول: أوله.

يوم العَبْلاء[١]

قال: ثم رجع هؤلاء وأولئك فٱلتقَوْا على قَرْن الحَوْل من يوم عُكَاظ، والرؤساء عليهم الذين ذكرناهم في يوم شَمْطَة، فكان هذا اليومُ أيضًا لهَوَازِن على كِنانة. وفي هذا اليوم قُتِل العوّام بن خُوَيلد والد الزبير، قتله مُرّة بن معتب الثقفيّ، وقال رجلٌ من ثقيف: [من الكامل]

منّا الذي ترك العوام مُنْجَدِلا تنتابه الطيرُ لحمًا بين أحجار

يومُ شَرِب[٢]

ثم جمع هؤلاء وأولئك فٱلتقَوْا على قَرْن الحَوْل في اليوم الثالث من أيام عُكَاظ، فٱلتقَوْا بشَرِب، وهو أعظمُ أيامهم والرؤساء عليهم وعلى المجنبتَيْن مَنْ ذكرنا، وحَمل ٱبنُ جَدْعان يومئذ مائةَ رجل على مائة بعير ممن لم تكن له حمولة، فٱلتقَوْا، وقد كان لهَوَازِن على كنانة يومان متواليان: يوم شَمْطة والعَبْلاء، فحمشت قريش وكنانة، وصابرت بنو مخزوم وبنو بكر، فٱنهزمت هوازن وقُتلت قتلاً ذريعًا، فقال عبدُ الله بن الزِّبِعْرَى يمدح بني المغيرة: [من الهزج]

ألاَ لِلّهِ يا قَوْمُ لِدَتْ أُخْتُ بني سَهْم[٣]

هِشَامٌ وأبو عبد مَنافِ مِدْرَهُ الخَصْم[٤]

وذو الرُّمْحَيْن أشْبَالَ مِنَ القُوَّة والحَزْمِ[٥]

فهٰذانِ يَذُودَانِ وذَا مِنْ كَثَبٍ يَرْمِي

وأبو عبد مناف: هاشم بن المغيرة. وذو الرُّمحين: أبو ربيعة بن المغيرة، قاتل يومَ شَرِب برمحين. وأمُّهم رَيْطة بنت سعد بن سَهْم، فقال في ذلك جذْل الطعان: [من البسيط]

جاءتْ هَوَازِنُ أَرْسالاً وإخْوَتُها بنو سُلَيْم فهابُوا المَوْتَ وٱنْصَرَفُوا

فٱسْتُقْبِلُوا بضِرَابٍ فَضَّ جَمْعَهُمُ مِثْلِ الحَرِيق فما عاجُوا ولا عَطَفُوا

---

(١) العبلاء: علم على صخرة بيضاء، جانب عكاظ.

(٢) شرب: موضع قرب مكة.. (معجم البلدان).

(٣) أخت بني سهم: هي ريطة بنت سعيد (الأمالي).

(٤) المدرة: زعيم القوم وخطيبهم والمتكلّم عنهم.

(٥) يقال: أشباك لفلان، كما يقال حسبك لفلان.

يومُ الحُرَيْرة[١]

ثم جمع هؤلاء وأولئك والْتقَوْا على رأس الحَوْل بالحُرَيْرة، وهي حَرَّة إلى جَنْب عُكَاظ، والرؤساء على هؤلاء وأولئك هم الذين كانوا في سائر الأيام، وكذلك على المجنبتَيْن إلاّ أنّ أبا مُسَاحِق بن قيس اليَعْمُرِيّ قد كان مات، فكان بعده على بكر بن عَبْدِ مَنَاة بن كِنانة أخوه جُثّامة بن قيس، فكان يوم الحُرَيْرة لهَوَازِن على كِنانة، وهو آخرُ الأيام الخمسة التي تزاحفوا فيها، فقُتِل يومئذ أبو سُفيان بن أميّة أخو حرب بن أميّة، وقُتِل من بني كنانة ثمانية نَفَر، قتلهم عثمان بن أُسَيد بن مالك من بني عامر بن صعصعة، وقُتِل جماعة أخر، فقال خِدَاش بن زُهَيْر: [من البسيط]

إنِّي مِنَ النَّفَرِ المُحْمَرِّ أَعْيُنُهُمْ ... أَهْلِ السَّوَامِ وأَهْلِ الصَّخْرِ واللُّوبِ[٢]
الطَّاعِنِينَ نُحُورَ الخَيْلِ مُقْبِلَةً ... بِكُلِّ سَمْرَاءَ لم تُعْلَبْ ومَعْلُوبِ[٣]
وقدْ بَلَوْتُمْ وَأَبْلُوكُمْ بَلاءَهُمُ ... يَوْمَ الحُرَيْرَةِ ضَرْبًا غَيْرَ تَكْذِيبِ
لاقَيْتُمُ مِنْهُمُ آسَادُ مَلْحَمَةٍ ... لَيْسُوا بِزَرّاعَةٍ عُوجِ العَرَاقِيبِ
فالآنَ إن تَقْبَلُوا نَأْخُذْ نُحُورَكُمُ ... وإنْ تُبَاهُوا فإنِّي غَيْرُ مَغْلُوبِ

وقال الحارثُ بنُ كَلَدَةَ الثَّقَفيّ: [من الوافر]

تركتُ الفارِسَ البذَّاخَ مِنْهُمْ ... تَمُجُّ عُرُوقُهُ عَلَقًا عَبِيطَا[٤]
دَعَسْتُ لَبَانَهُ بالرُّمْحِ حتّى ... سَمِعْتُ لِمَتْنِهِ فِيه أَطِيطَا[٥]
لقدْ أَرْدَيْتَ قَوْمَكَ بابْنَ صَخْرٍ ... وقدْ جَشَّمْتَهُمْ أمرًا سَلِيطَا
وكَمْ أَسْلَمْتُ مِنْكُمْ مِنْ كَمِيٍّ ... جَرِيحًا قدْ سَمِعْتُ لهُ غَطِيطَا

مَضَتْ أيّام الفِجَار الآخِر، وهي خمسة أيام في أربع سنين.

قال أبو عبيدة: ثم تَدَاعَى الناسُ إلى السِّلْم على أن يذروا الفضل ويتعاهدوا ويتواثقوا.

---

(١) الحريرة: موضع بين الأبواء ومكة قرب نخلة (معجم البلدان).
(٢) اللوب: واحدتها اللوبة، وهي الحرّة.
(٣) سمراء: أي قناة. والمعلوب: الرمح.
(٤) العبيط: الطريّ غير الناضج.
(٥) الأطيط: الصوت من ثقل الحمل.

يومُ عَيْن أُباغ(١)

قال أبو عبيدة: كان ملك العرب المُنْذِر الأكبر بن ماء السماء، ثم مات فملك ٱبنه عمرو، ثم هلك فملك بعده أخوه قابوس، ثم مات فملك أخوه المنذر بن المنذر ابن ماء السماء. وذلك في مملكة كِسْرى بن هُرْمُز، فغزاه الحارث الغسّانيّ، وكان بالشام من جهة قَيْصر، فٱلتقَوْا بعَيْن أُبَاغ، فقُتِل المُنْذِرُ، فولّى كِسْرَى النعمان بن المُنْذِر، ثم سُعِيَ إلى كِسْرى في النعمان فقتله، وقد تقدّم ذكر سبب ولايته ومقتله.

وكان النعمان لمّا تحقّق غَضَبَ كِسْرَى عليه هرب، ثم علم أنه لا مَنْجَى له من يَدِ كسرى فقَدِم إليه فقَتَله. وٱستعمل كِسرى على العرب إيَاس بن قَبِيصة الطائيّ. وكان النعمان لمّا شَخَص إلى كسرى أَوْدَعَ حَلقته، وهي ثمانمائة دِرْع وسلاحًا كثيرًا، هانىءَ بن مسعود الشَّيْبانيَّ، وجعل عندَه ٱبنتَه هندًا التي تُسَمَّى حُرَقة، فلمّا قُتِل النعمانُ قالت فيه الشعراء، فقال زُهَير بن أبي سُلْمَى من أبيات: [من الطويل]

ألم تَرَ للنُّعمان كان بِنَجْوَةٍ ... من الشرِّ لَوْ أنّ ٱمْرَأً كان ناجِيَا

فلم أَرَ مَخْذُولاً له مثلَ مُلْكِهِ ... أقلَّ صديقًا باذلاً أو مُوَاسِيَا

يومُ ذي قارِ

قال أبو عبيدة: يومُ ذي قار هو يومُ الحِنْو، ويوم قُرَاقِر، ويومُ الجُبابات، ويومُ ذات العُجْرُم، ويومُ بَطْحاء ذي قار، وكلُّها حول ذي قار.

قال أبو عبيدة: لم يكن هانىءُ بنُ مسعود المستودَع حَلقة النعمان، وإنما هو ٱبنُ ٱبنِه، وٱسمه هانىء بن قَبِيصة بن هانىء بن مسعود، لأنّ وقعة ذي قار كانت وقد بُعِثَ النبيّ ﷺ وخبّر أصحابه بها فقال: «اليومُ أوّلُ يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نُصِروا».

ولما قُتِل النعمانُ كتب كسرى إلى إيَاس بن قَبِيصة يأمره أن يضمّ ما كان للنعمان، فأبى هانىء بن قَبيصة أن يسلّم ذلك إليه، فغَضِبَ كسرى وأراد ٱستئصال بكر بن وائل، فقَدِمَ عليه النعمانُ بنُ زُرْعَة التغلبيّ فقال: يا خَيْرَ الملوك، ألا أَدُلُّك على غِرَّة بكْر بن وائل، قال نعم، قال: أَقِرَّها وأظهر الإضراب عنها حتى يُجْليها

(١) أباغ: موضع بطرف أرض العراق ما يلي الشام.

القَيْظ ويُدْنِيها منك، فأقرّهم، حتى إذا قاظوا نزلت بَكْر حِنْو ذي قار، فأرسل إليهم كسرى النعمانَ بنَ زُرْعة يخيِّرهم بين ثلاث خِصَال: إمّا أن يُسَلِّموا الحَلقة، وإمّا أن يُعَرُّوا الدِّيَار، وإمّا أن يَأْذَنوا بحَرْب. فتنازعتْ بكر بينها، فهمّ هانئ بنُ قَبِيصة بركوب الفَلاة، وأشار به على بكر وقال: لا طاقةَ لكم بجموع الملك، فلم تُرَ من هانىء سقطة قبلها.

وقال حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العِجْلِيّ: لا أرى غيرَ القتال، فإنّا إن ركبنا الفَلاة مُتنا عَطَشًا، وإن أعطينا بأيدينا تُقتَل مقاتلتُنا وتُسبَى ذرارِيّنا، فراسلت بكر عنها وتوافت بذي قار، ولم يشهدها أحدٌ من بني حنيفة، ورؤساء بكر يومئذ ثلاثةُ نَفَر: هانىء بن قَبِيصة الشيبانيّ، ويزيد بن مُسْهِر الشَّيْبانيّ، وحنظلة بن ثعلبة العِجْلِيّ.

فقال حنظلة بن ثعلبة لهانىء بن قَبِيصة: يا أبا أُمامة. إن ذمَّتكم ذِمَّتنا عامّة، وإنه لن يُوصَل إليك حتى تَفْنَى أرواحنا، فأخرِج هذه الحلقة ففرّقْها بين قومك، فإن تظفر فستُردّ عليك، وإن تهلك فأهون مفقود، ففَرّقَها فيهم. وقال للنعمان: لولا أنك رسولٌ ما أُبتَ[١] إلى قومك سالمًا.

قال: فعقد كسرى للنعمان بن زُرْعة على تغلب والنَّمِر. وعقد لخالد بن يزيد البهرانيّ على قُضاعة وإياد. وعقد لإياس بن قَبِيصة على جميع العرب، ومعه كتيبتاه: الشهباء ودَوْسَر. وعقَد للهامَرْز التُّسْتَرِيّ على ألف من الأساورة[٢]، وكتب إلى قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ذي الجَدَّيْن ـ وكان عاملَه على طفّ[٣] سَفَوَان ـ يأمره أن يوافي إياس بن قَبِيصة، فسار إليه.

وسار إياس بمَنْ معه من الجُنْد وغيرهم، فلما دنَوْا من بكر أقبل قيس بن مسعود إلى قومه ليلاً، فأمرهم بالصبر ثم رَجَع.

فلما ٱلتقَى الزَّحْفان وتقرّب القوم، قام حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العِجْلِيّ فقال: يا معشر بكر، إنّ نُشّابَ الأعاجم يفرّقكم، فعاجلوهم إلى اللِّقاء وابدؤوهم بالشدّة.

---

(١) أبت: عدت.

(٢) الأساورة: جمع الأسوار، وهو من رماة الحدق من الفُرس. أو الفارس الجيد الثبات على ظهر الفَرس.

(٣) الطفّ: ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق.

وقال هانىء بن مسعود: يا قوم، مَهْلَكٌ مقدور، خيرٌ من منجىً مغرور. إنّ الجزع لا يَرُدّ القَدَر، وإنّ الصبرَ من أسباب الظفَر، المنيّة خيرٌ من الدنيّة، وٱستقبال المنيّة خيرٌ من ٱستدبارها، فالجدّ الجدّ، فما من الموت بدّ.

ثم قام حنظلةُ بنُ ثعلبة فقَطَع وُضُنَ(١) النساء فسَقَطْنَ إلى الأرض وقال: ليقاتل كلّ رجل عن حَلِيلته، فسُمِّيَ مُقَطِّع الوُضُنَ.

قال: وقطع يومئذ سبعمائة من بني شيبان أيدِي أَقْبِيَتهم من مناكبها لتخفّ أيديَهم لضرب السيوف فتجالد القوم، وقَتَل يزيد بن حارثة اليَشكُرِيّ الهامَرْزَ مبارزة، ثم قُتِل يزيد بعد ذلك. فضرب الله وجوه الفُرْس فٱنهزموا، وٱتبعتهم بكر حتى دخلوا السوَادَ في طلبهم، وأُسِرَ النعمان بن زُرْعة التغلبيّ. ونجا إيَاس بن قَبِيصة على فرسه الحمامة، فكان أوّل من ٱنصرف إلى كسرى بالهزيمة هو(٢). وكان لا يأتيه أحدٌ بهزيمة جيش إلاّ نزع كتفيه. فلمّا أتاه إياس بن قَبِيصة سأله عن الجيش فقال: هَزَمْنا بكرَ بنَ وائل وأتيناك ببناتهم. فأَعجب ذلك كسرى وأمر له بكسوة، ثم استأذنه إياس فقال: أخي قيس بن قَبِيصة مريض بعَيْن التَّمْر، فأردتُ أن آتِيَه، فأذِنَ له.

ثم أتى كسرى رجلٌ من أهل الحيرة وهو بالخَوَرْنَق(٣) فسأل: هل دخل على الملك أحد؟ فقالوا: إياس، فظنّ أنه قد حدّثه الخبر، فدخل عليه وأخبره بهزيمة القوم وقَتْلهم، فأمر به فنُزِعَتْ كتفاه. وقد أكثرت الشعراء في يوم ذي قار. فمن ذلك ما قاله أعشى بكر من قصيدة له: [من البسيط]

لَـوْ أنّ كُـلَّ مَـعَـدٍّ كـان شـارَكَـنـا ... في يومِ ذِي قارٍ ما أخطاهُمُ الشَّرَفُ
لـمّـا أمالُوا إلى النُّشّاب أيـديَـهُـمْ ... مِلْنا بِبيضٍ لمثْلِ الْهَامِ تَخْتَطِفُ(٤)
بَـطَـارِقٌ وبَـنُـو مَـلْـك مَـرَازِبَـةٍ ... من الأعـاجِـمِ في آذانـها النُّطُفُ(٥)
كـأنـمـا الآلُ فـي حـافـاتِ جَـمْـعِـهِـمُ ... والبِيضُ بَرقٌ بدا في عارضٍ يَكِفُ(٦)
ما في الخُدُودِ صُدُودٌ عن سيوفِهِمُ ... ولا عَنِ الطَّعنِ في اللَّبَاتِ مُنْحَرِفُ

---

(١) الوضن: حزم الرحال. (٢) ضمير الفصل يعود على إياس بن قبيصة.
(٣) الخورنق: اسم قصر، وقد تقدم تفسيره.
(٤) قوله: (ملنا ببيض لمثل الهام نختطف) صوابه كما في بعض النسخ (فظلّ الهامُ تُخْتَطَفُ).
(٥) النطف: جمع نطفة، وهي القرط. (٦) الآل: الأهل والعيال.

وقال الأعشى يلوم قيسًا من أبيات: [من الطويل]

أقيسَ بنَ مسعودِ بنِ قيسِ بن خالدٍ ... وأنتَ ٱمْرؤٌ ترجو شَبَابَكَ وائلُ[1]

رَحَلْتَ ولم تنظُرْ وأَنتَ عَمِيدُهُمْ ... فلا يَبْلُغَنِّي عنكَ ما أنتَ فاعِلُ

فعُرِّيتَ من أهلٍ ومالٍ جَمَعْتُهُ ... كما عُرِّيتَ ممّا تُمِرُّ المغازِلُ

شَفَى النفسَ قَتْلَى لم تُوَسَّدْ خُدُودُها ... وِسادًا ولم تُغْضَض عليها الأناملُ

بعينيكَ يوم الحَنْو إذ صبّحتهموا ... كتائب موتٍ لم تعقلها العواذلُ

قال: ولما بلغ كسرى خبر قيس بن مسعود بما فعل مع قومه حبسه حتى مات في حبسه، ففيه قال الأعشى:

* وَعُرِّيتَ من أهلٍ ومالٍ جَمَعْتَهُ *

تمّ ـ بعونه تعالى ـ الجزء الخامس عشر،
ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء السادس عشر،
وأوله: القسم الخامس من الفن الخامس في أخبار الملّة الإسلامية

(١) قيل: كان قيس كل يوم يطعم على مائة نطع، وله مائة ناقة للضيافة يسقي ألبانها، فإذا احتاج إلى واحدة منها نحرها ووضع مكانها أخرى.

فهرس المحتويات